البداية والنهاية

للإمام الحافظ أبي الفداء
إسماعيل بن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤هـ

حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه
علي شيري

الجزء الثاني

دار إحياء التراث العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

[ذكر][1]

جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام

ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام

قال ابن جرير في تاريخه[2] : لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع [كان] كالب بن يوفنا[3] يعني أحد أصحاب موسى عليه السلام ، وهو زوج أخته مريم ، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله وهما يوشع وكالب وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد ﴿ أدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ [المائدة : ٢٣] قال ابن جرير ثم من بعده كان القائم بأمور بني إسرائيل حزقيل بن بوذي[4] وهو الذي دعا الله فأحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

قصة حزقيل

قال الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ [البقرة : ٢٤٣] .

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه : إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف في بني إسرائيل حزقيل بن بوذي وهو ابن العجوز[5] وهو الذي دعا للقوم الذين ذكرهم الله في كتابه

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٢) تاريخ الطبري : ج ١/٢٢٦ و ٢٣٧ دار القاموس الحديث .

(٣) قال صاحب مروج الذهب ١/٤٩ : ووجدت في نسخة أن القائم في بني اسرائيل بعد وفاة يوشع بن نون كوشان الكفري ، وأنه أقام فيهم ثمانين سنة .

(٤) في المسعودي : مروج الذهب : فنحاص بن العازر بن هارون .

(٥) سمي بابن العجوز : لأن أمه سألت الله الولد وقد كبرت وعقمت فوهبه الله لها .

فيما بلغنا : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ﴾ قال ابن إسحاق فروا من الوباء فنزلوا بصعيد من الأرض فقال لهم الله موتوا فماتوا جميعاً فحظروا عليهم حظيرة دون السباع فمضت عليهم دهور طويلة فمر بهم حزقيل عليه السلام فوقف عليهم متفكراً فقيل له أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر ؟ فقال : نعم فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسي لحماً وأن يتصل العصب بعضه ببعض فناداهم عن أمر الله له بذلك فقام القوم أجمعون وكبروا تكبيرة رجل واحد . وقال أسباط عن السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة [الهمداني] عن ابن مسعود وعن اناس من الصحابة في قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾ قالوا : كانت قرية يقال لها داوردان قبل واسط وقع بها الطاعون فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحية منها فهلك [أكثر] من بقي في القرية وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا بقينا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم فوقع في قابل فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً حتى نزلوا ذلك المكان وهو واد أفيح فناداهم ملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه أن موتوا فماتوا حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم مر بهم نبي يقال له حزقيل فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوي شدقيه وأصابعه فأوحى الله إليه [يا حزقيل] تريد أن أريك كيف أحييهم قال : نعم وإنما كان تفكره أنه تعجب من قدرة الله عليهم فقيل له : ناد فنادى : يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعي فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض حتى كانت أجساداً من عظام ثم أوحى الله إليه أن نادِ يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً فاكتست لحماً ودماً وثيابها التي ماتت فيها . ثم قيل له نادِ فنادى : أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومي فقاموا . قال أسباط : فزعم منصور [بن المعتمر] عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا : ﴿ سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت ﴾ فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى سحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلا عاد رسماً حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم(١) . وعن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف وعنه ثمانية آلاف وعن أبي صالح تسعة آلاف وعن ابن عباس أيضاً كانوا أربعين ألفاً . وعن سعيد بن عبد العزيز كانوا من أهل أذرعات . وقال ابن جريج عن عطاء هذا مثل يعني أنه سيق مثلاً مبيناً « أنه لن يغني حذر من قدر » وقول الجمهور أقوى إن هذا وقع . وقد روى الإمام أحمد وصاحبا الصحيح من طريق الزهري عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، عن عبد الله بن [عبد الله بن] الحارث بن نوفل ، عن عبد الله بن عباس أن عمر بن

---

(١) روى الطبري الخبر في تاريخه ج ١ / ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .
وما بين معكوفين في الخبر زيادة من الطبري .

الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بسرغ[1] لقيه أمراء الأجناد[2] أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء[3] وقع بالشام . فذكر الحديث يعني في مشاورته المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً ببعض حاجته فقال : إن عندي من هذا علماً سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه »[4] . فحمد الله عمر ثم انصرف . وقال الإمام : حدثنا حجاج ويزيد المفتي[5] قالا : حدثنا ابن أبي ذؤيب عن الزهري ، عن سالم ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبي ﷺ : « أن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه قال فرجع عمر من الشام »[6] . وأخرجاه من حديث مالك عن الزهري بنحوه .

قال محمد بن إسحاق ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل في بني إسرائيل ثم إن الله قبضه إليه . فلما قبض نسي بنو إسرائيل عهد الله إليهم وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له بعل فبعث الله إليهم الياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران . قلت وقد قدمنا قصة إلياس تبعاً لقصة الخضر لأنهما يقرنان في الذكر غالباً ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصافات فتعجلنا قصته لذلك والله أعلم . قال محمد بن إسحاق فيما ذكر له عن وهب بن منبه قال ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصيه اليسع بن أخطوب عليه السلام وهذه :

قصة اليسع عليه السلام

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام في قوله : ﴿ **وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين** ﴾ [الأنعام : ٨٦] وقال تعالى في سورة ص : ﴿ **واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار** ﴾ [ص : ٤٨] قال إسحاق بن بشر أبو حذيفة انبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال كان بعد الياس أليسع عليهما السلام ، فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم

---

(١) سرغ : هي قرية في طرف الشام مما يلي الحجاز .

(٢) المراد بالأجناد هنا : مدن الشمس الخمس ـ وهي فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين قال الإمام النووي : هكذا فسروه واتفقوا عليه .

(٣) الوباء : قال الخليل وغيره : الطاعون . قالوا : وكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعون والوباء الذي وقع بالشام زمن عمر كان طاعوناً وهو طاعون عمواس وهي قرية معروفة بالشام .

(٤) أخرجه مسلم في ٣٩ كتاب السلام ٣٢ باب الطاعون ٩٨/٢٢١٩ وأخرجه أحمد في مسنده ج ١/١٩٤ والبخاري حديث رقم ٢٢٥٩ .

(٥) هو يزيد بن أبي حبيب ، سمي بالمفتي لأنه كان مفتي أهل مصر كما قال ابن سعد .

(٦) مسند أحمد ج ١/١٩٣ ومسلم ٣٩/٣٢/١٠٠/٢٢١٩ .

إلى الله مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عزّ وجلّ إليه ثم خلف فيهم الخلو، وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء وكان فيهم ملك عنيد طاغ . ويقال إنه الذي تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة فسمي ذا الكفل .

قال محمد بن إسحاق هو أليسع بن أخطوب . وقال الحافظ أبو القسم بن عساكر في حرف الياء من تاريخه : أليسع وهو الأسباط بن عدي بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . ويقال هو ابن عم إلياس النبي عليهما السلام . ويقال كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها فلما رفع الياس خلفه أليسع في قومه ونبأه الله بعده . ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب بن منبه . قال وقال غيره وكان ببانياس . ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ أليسع بالتخفيف وبالتشديد ومن قرأ والليسع وهو اسم واحد لنبي من الأنبياء . قلت قد قدمنا قصة ذا الكفل بعد قصة أيوب عليهما السلام لأنه قد قيل إنه ابن أيوب فالله أعلم .

فصل

قال ابن جرير[1] وغيره ثم مرج أمر بني إسرائيل وعظمت منهم الخطوب والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قبة الزمان كما تقدم ذكره فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم فلما علم بذلك ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمداً وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راع حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له شمويل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً ليقاتلوا معه الأعداء فكان من أمرهم ما سنذكره مما قص الله في كتابه . قال ابن جرير فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله عزّ وجلّ شمويل بن بالي أربعمائة سنة وستون سنة . ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين ملكوا عليهم وسماهم واحداً واحداً تركنا ذكرهم قصداً .

قصة شمويل عليه السلام
وفيها بدأ أمر داود عليه السلام

هو شمويل ويقال له أشمويل بن بالي بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن

---

(١) تاريخ الطبري ١/٢٤٣ روى الخبر مطولاً .

علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا . قال مقاتل وهو من ورثة هارون وقال مجاهد هو أشمويل بن هلفاقا[1] ولم يرفع في نسبه أكثر من هذا فالله أعلم .

حكى السدي بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبي وغيرهم أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بني إسرائيل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى فجعلت تدعو الله عزّ وجلّ أن يرزقها ولداً ذكراً فولدت غلاماً فسمته أشمويل ومعناه بالعبرانية[2] إسماعيل أي سمع الله دعائي فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته فكان عنده فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد ، فانتبه مذعوراً ، فظنه الشيخ يدعوه فسأله : أدعوتني ؟ فكره أن يفزعه فقال : نعم . نم ، فنام . ثم ناداه الثانية فكذلك ، ثم الثالثة فإذا جبريل يدعوه فجاءه فقال إن ربك قد بعثك إلى قومك فكان من أمره معهم ما قص الله في كتابه ، قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلاّ قليلاً منهم والله عليم بالظالمين . وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم أن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ [البقرة : ٢٤٦ ـ ٢٥١] .

قال أكثر المفسرين : كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو شمويل . وقيل شمعون وقيل هما واحد وقيل يوشع وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه أن بين

---

(١) وقال المسعودي في مروج الذهب : شمويل بن بروحان بن ناحور .

(٢) قال ابن قتيبة في المعارف : ص ٢٠ اشماويل بن هلقانا وهو اسماعيل بالعربية واسم أمه حنة لم يكن بينه وبين يوشع بن نون نبي وهو الذي ذكره الله عزّ وجلّ في القرآن حين قال : ﴿ وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ .

موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة سنة وستين سنة فالله أعلم .

والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبي الله في ذلك الزمان وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء . فقال لهم : ﴿ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله ﴾ [البقرة: ٢٤٦] أي وأي شيء يمنعنا من القتال ﴿وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ يقولون نحن محروبون موتورون ، فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهورين المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم . قال تعالى : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ [البقرة: ٢٤٦] كما ذكر في آخر القصة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ قال الثعلبي وهو طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل[١] .

قال عكرمة والسدي كان سقاءاً وقال وهب بن منبه كان دباغاً . وقيل غير ذلك[٢] فالله أعلم ولهذا : ﴿ قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ﴾ وقد ذكروا أن النبوة كانت في سبط لاوى وأن الملك كان في سبط يهوذا فلما كان هذا من سبط بنيامين نفروا منه وطعنوا في إمارته عليهم وقالوا نحن أحق بالملك منه و [قد][٣] ذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه ، فكيف يكون مثل هذا ملكاً ؟ ﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ . قيل كان الله قد أوحى إلى شمويل أن أيّ بني إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا وإذا حضر عندك يفور هذا القرن[٤] الذي فيه من دهن القدس فهو ملكهم فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا فلم يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنه منه وعينه للملك[٥] عليهم وقال لهم : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم ﴾ قيل في أمر الحروب وقيل بل مطلقاً ﴿ والجسم ﴾ قيل الطول وقيل الجمال والظاهر من

---

(١) في مروج الذهب ١/٥١ : طالوت وهو ساود بن بشر بن أنيال بن طرون بن بحرون بن أفيح بن سميداح بن فالح بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .
وفي كامل ابن الأثير : وهو بالسريانية : شاول بن قيس بن ألمار بن ضرار بن يحرف بن يفتح بن ايش بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق .

(٢) جاء في القرطبي ـ أحكام القرآن : وقيل كان مكارياً . وكان عالماً .

(٣) سقطت قد ـ من نسخ البداية المطبوعة .

(٤) القرن : بالتحريك : الجعبة من جلود تكون مشقوقة ثم تخرز .

(٥) في نسخة : الملك .

السياق أنه كان أجلهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام : ﴿ والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾ فله الحكم وله الخلق والأمر ﴿ والله واسع عليم ﴾ .

﴿وقال لهم نبيهم إن آية ملكة أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ [البقرة : ٢٤٨] وهذا أيضاً من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويمنه عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذي كان سلب منهم وقهرهم الأعداء عليه وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه ﴿ فيه سكينة من ربكم ﴾ قيل طشت من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء . وقيل السكينة مثل الريح الخجوج ، وقيل صورتها مثل الهرة إذا صرخت في حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر[١] ﴿ وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾ قيل كان فيه رضاض[٢] الألواح وشيء من المن الذي كان نزل عليهم بالتيه ﴿ تحمله الملائكة ﴾ أي تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عياناً ليكون آية لله عليكم وحجة باهرة على صدق ما أقوله لكم وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم ولهذا قال : ﴿ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ وقيل إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة . وقيل كان فيه التوراة أيضاً فلما استقر في أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم فلما أصبحوا إذا التابوت على رأس الصنم فوضعوه تحته فلما كان اليوم الثاني إذا التابوت فوق الصنم فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى ، فأخرجوه من بلدهم وجعلوه في قرية من قراهم فأخذهم داء في رقابهم ، فلما طال عليهم هذا جعلوه في عجلة وربطوها في بقرتين وأرسلوهما فيقال إن الملائكة ساقتهما حتى جاؤوا بهما ملأ بني إسرائيل وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك فالله أعلم على أي صفة جاءت به الملائكة والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم بالجنود من الآية والله أعلم . وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم ﴿ فلما فصل طالوت قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

قال ابن عباس وكثير من المفسرين : هذا النهر هو نهر الأردن ، وهو المسمى بالشريعة ، فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر عن أمر نبي الله له عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً أن

---

(١) قال القرطبي : ٣/٢٤٩ : قال ابن عطية : والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى .

(٢) رضاض الشيء : فتاته .

وفي بقية : أقوال : ـ قال ابن عباس : عصا موسى وعصا هارون ورضاض الألواح .

ـ قال الثوري : قفيز مَن في طست من ذهب وعصا موسى وعمامة هارون .

ـ الضحاك : البقية : الجهاد وقتال الأعداء .

من شرب من هذا النهر فلا يصحبني في هذه الغـزوة ولا يصحبني إلا من لم يطعمـه إلا غرفـة[1] في يده . قال الله تعالى : ﴿ فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم ﴾ .

قال السدي كان الجيش ثمانين ألفاً فشرب منه ستة وسبعون ألفاً فبقي معه أربعة آلاف كذا قال . وقد روى البخاري في صحيحه : من حديث إسرائيل وزهير والثوري عن أبي إسحاق ، عن البراء بن عـازب قـال : كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلثمائة مؤمن[2] . وقول السدي أن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفاً فيـه نظر ، لأن أرض بيت المقـدس لا تحتمل أن يجتمـع فيها جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفاً والله أعلم . قال الله تعالى : ﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقـاومة أعدائهم بالنسبة إلى قلتهم وكثرة عدد عدوهم : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بـإذن الله والله مع الصـابرين ﴾ [البقـرة: ٢٤٩] يعني بها الفـرسان منهم . والفرسان أهل الإيمان والإيقان الصابرون على الجلاد والجدال والطعان . ﴿ ولما بـرزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [البقرة: ٢٥٠] طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر أي يغمرهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق وأن يثبت أقدامهم في مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغى والدعاء إلى النزال فسألوا التثبت الظاهـر والباطن وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا وأنـالهم مـا إليه فيـه رغبوا ولهـذا قال : ﴿ فهزموهم باذن الله ﴾ أي بحول الله لا بحولهم وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعـددهم مع كثـرة أعدائهم وكمال عددهم كـما قال تعـالى : ﴿ ولقد نصـركم الله ببدر وأنتم أذلـة فاتقـوا الله لعلكم تشكرون ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقـوله تعـالى : ﴿ وقتل داود جـالوت وآتـاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾ [البقرة: ٢٥١] فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام وأنه قتله قتلاً أذل[3] به جنده وكسره ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة ويـأسر الأبطال والشجعان والأقران وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان ويدال لأولياء الله على أعدائه . ويظهر

---

(١) بين أن الغرفة كافّةٌ ضرر العطش عند الحَزَمة الصـابرين عـلى شظف العيش الـذين همهم في غير الـرفاهيـة ؛ والمغترف بيده غرفة : الآخذ منها قدر الحاجة وَقال بعض المفسرين الغَرْفة بالكف الواحد ، والغُرفة : بالكفين .

(٢) قال الطبري ١ /٢٤٣ : عبر معه منهم أربعة آلاف ورجع ستة وسبعون ألفاً ولما نظروا إلى جالوت رجع عنه أيضاً ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون وخلص في ثلثمائة وتسعة عشر عدة أهل بدر ـ وفي رواية وثلاثة عشر ـ وما جاز معه إلا مؤمن .

(٣) قال القرطبي : كان داود رجلاً قصيراً مسقاماً مصفاراً أصغر أزرق ، وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده .

الدين الحق على الباطل وأوليائه . وقد ذكر السدى فيما يرويه أن داود عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه وكانوا ثلاثة عشر ذكراً كان سمع طالوت ملك بني إسرائيل وهو يحرض بني إسرائيل على قتل جالوت وجنوده وهو يقول من قتل جالوت زوجته بـابنتي وأشركته في ملكي وكان داود عليه السلام يرمي بالقذافة وهو المقلاع رمياً عظيماً فبينا هو سائر مع بني إسرائيل إذ ناداه حجر : أن خذني فإن بي تقتل جالوت فأخذه ثم حجر آخرُ كذلك ، ثم آخر كذلك ، فأخذ الثلاثة في مخلاته فلما تـواجه الصفان برز جالوت ودعا إلى نفسه فتقدم إليه داود فقال له : ارجع فإني أكره قتلك ، فقال : لكني أحب قتلك ، وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها في القذافة ثم أدارهـا فصارت الثلاثة حجـراً واحداً . ثم رمى بها جالوت ففلق[1] رأسه وفر جيشه منهزماً فوفى[2] له طالوت بما وعده فزوجه ابنته وأجرى حكمه في ملكه ، وعظم داود عليه السلام ، عند بني إسرائيل وأحبوه ، ومالـوا إليه أكثر من طالوت ، فذكروا أن طالوت حسده وأراد قتله واحتال على ذلـك فلم يصل إليـه وجعل العلماء ينهون طالوت عن قتل داود فتسلط عليهم فقتلهم ، حتى لم يبق منهم إلا القليل . ثم حصل له توبة وندم وأقلاع عما سلف منه وجعل يكثر من البكاء ويخرج إلى الجبانة فيبكي حتى يبل الثرى بدموعه فنودي ذات يوم من الجبانة : أن يا طالوت قتلتنا ونحن أحياء وآذيتنا ونحن أموات فازداد لذلك بكاؤه وخوفه واشتد وجله ثم جعل يسأل عن عالم يسأله عن أمره ، وهل له من توبة ، فقيل لـه : وهل أبقيت عـالماً ؟ حتى دل عـلى امرأة من العابدات فـأخذتـه فذهبت بـه إلى قبر يـوشع عـليـه الـسـلام قـالـوا : فـدعـت الله فـقـام يـوشـع مـن قـبـره فـقـال : أقـامـت القيـامـة ؟ فقـالت : لا ولكن هـذا طـالـوت يسـألـك هـل لـه من تـوبـة ؟ فقـال : نعم ينخلع من الملك ويـذهب فيقـاتـل في سبيـل الله حتى يقتـل ، ثم عـاد ميتـاً . فترك الملك لداود عليه السلام وذهب ومعه ثلاثة عشر من أولاده فقاتلوا في سبيل الله حتى قتلوا[3] قالوا فذلك قوله : ﴿ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾ [البقرة: ٢٥١] هكـذا ذكره ابن جـرير في تاريخه[4] من طريق السدي بإسناده . وفي بعض هذا نظر ونكارة . والله أعلم .

وقال محمد بن إسحق : النبي الذي بعث فأخبر طالوت بتوبته هو أليسع بن أخطوب حكاه ابن جرير أيضاً . وذكر الثعلبي : أنها أتت به إلى قبر اشمويل فعاتبه على ما صنع بعده من الأمور وهذا أنسب . ولعله إنما رآه في النوم لا أنه قام من القبر حياً فإن هذا إنما يكون معجزة لنبي وتلك

---

(١) في الطبري : فنقبت رأسه .

(٢) ذكر المسعودي : أن طالوت أبى أن يفي لداود بما تقدم من شرطه . فلما رأى ميل الناس إليه زوجه ابنته ، وسلم إليه ثلث الجباية ، وثلث الحكم وثلث الناس مروج الذهب ١/ ٥٢ .

(٣) ذكر المسعودي أنه مات على سرير ملكه ليلة كمداً .

(٤) تاريخ الطبري ج ١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

المرأة لم تكن نبية والله أعلم . وزعم أهل التوراة أن مدة ملك طالوت إلى أن قتل مع أولاده أربعون[(١)] سنة فالله أعلم .

قصة داود وما كان في أيامه

[وذكر][(٢)] فضائله وشمائله ودلائل نبوته واعلامه

هو داود بن ايشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن إرم[(٣)] بن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس . قال محمد بن أسحق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه : كان داود عليه السلام قصيراً أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب ونقيه . تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكره ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر[(٤)] فأحبته بنو اسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم ، فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك إلى داود عليه السلام ، وجمع الله له بين الملك والنبوة بين خير الدنيا والآخرة ، وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر فاجتمع في داود هذا وهذا كما قال تعالى : ﴿ وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ [البقرة : ٢٥١] أي لولا إقامة الملوك حكاماً على الناس لأكل قوي الناس ضعيفهم . ولهذا جاء في بعض الآثار (السلطان ظل الله في أرضه) . وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) . وقد ذكر ابن جرير في تاريخه أن جالوت لما بارز طالوت فقال له أخرج إليّ وأخرج إليك فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت . قال وهب بن منبه فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود . وقيل إن ذلك [كان][(٥)] عن أمر شمويل حتى قال بعضهم إنه ولاه قبل الوقعة[(٦)] قال ابن جرير[(٧)] والذي عليه

---

(١) في مروج الذهب : عشرين سنة .

(٢) في نسخ البداية المطبوعة : ثم ، وسقطت كلمة ذكر .

وقد ورد اسم داود في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً : سورة البقرة: ٢٥١ ، سورة النساء: ١٦٣ ، سورة المائدة: ٧٨ ، سورة الأنعام: ٨٤ ، سورة الاسراء: ٥٥ ، سورة الأنبياء: ٧٨ - ٧٩ ، سورة النمل: ١٥ - ١٦ ، سورة سبأ: ١٠ - ١٢ ، سورة ص: ٢٠ - ٢٢ - ٢٤ - ٢٦ .

(٣) في الطبري : باعز بدل عابر وعمي نادب بدل عويناذب ، ورام بدل إرم . وفي الإنجيل : إنجيل متى : هو داود بن يسى ، بن عوبيد ، بن بوعز ، بن سلمون ، بن نحشون ، بن عمينا داب ، بن ارام ، بن حصرون بن فارص بن يهوذا ، بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

(٤) قال في مروج الذهب : كان ببيسان من أرض الغور من بلاد الأردن .

(٥) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٦) وذكر ذلك أيضاً ابن عساكر في تاريخه ٥/١٩٠ تهذيب .

(٧) انظر تاريخ الطبري ج ١/٢٤٦ . وقال المسعودي : إن داود أبى أن ينافس طالوت في حكمه .

الجمهور : أنه إنما ولي ذلك بعد قتل جالوت والله أعلم . وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز : أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم وأن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية فالله أعلم . وقال تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ﴾ [سبأ: ١١] وقال تعالى : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾ [الأنبياء: ٧٩] . أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وارشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال : ﴿ وقدر في السرد ﴾ أي لا تدق المسمار فيفلق ولا تغلظه فيفصم قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة .

قال الحسن البصري وقتادة والأعمش : كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده ، لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة . قال قتادة فكان أول من عمل الدروع من زرد ، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح ، قال ابن شوذب : كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستة آلاف درهم وقد ثبت في الحديث : « أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده »(١) وقال تعالى : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أواب . انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ [ص: ١٧] قال ابن عباس ومجاهد الأيد القوة في الطاعة ، يعني : ذا قوة في العبادة ، والعمل الصالح قال قتادة : أعطي قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام ، قال : وقد ذكرنا لنا : أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى »(٢) . وقوله : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أواب ﴾ [ص: ١٨ - ١٩] كما قال : ﴿ يا جبال أوبي معه والطير ﴾ [سبأ: ١٠] أي سبحي معه . قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق ﴾ أي عند آخر النهار وأوله وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحداً بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يُرجّع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشياً

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب البيوع باب ١٥ كسب الرجل وعمل بيده وأحمد في مسنده ٢/٤٦٦ و ٤/١٤١ والدارمي في سننه كتاب البيوع . وابن ماجه في تجارات ١/٢٥ . بألفاظ ومن عدة طرق .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٣/١٨١، ١٨٢ وما بعدها - ١٩٦) وأحمد في مسنده ١/٣١٤، ٢/١٦٠، ١٦٤، ١٨٧، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٥ - ٥/٢٩٦ والبخاري في صحيحه : ٣٠/٥٤، ٥٦ - ٦٠/٣٧ - ٦٦/٣٤ - ٧٩/٣٨. ورواه أبو داود وابن ماجه والدارمي والنسائي في سننهم . وابن عساكر في تاريخه ٥/١٩٢ - ١٩٣ تهذيب .

صلوات الله وسلامه عليه . وقال الأوزاعي : حدثني عبد الله بن عامر قال : أُعطي داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً وحتى أن الأنهار لتقف . وقال وهب بن منبه : كان لا يسمعه أحد إلّا حجل كهيئة الرقص ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله فيعكف الجن والانس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً . وقال أبو عوانة الأسفراييني : حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدثنا محمد بن منصور الطوسي ، سمعت صبيحاً أبا تراب[1] رحمه الله قال أبو عوانة : وحدثني أبو العباس المدني حدثنا محمد بن صالح العدوي حدثنا سيار هو ابن حاتم عن جعفر ، عن مالك ، قال كان داود عليه السلام إذا أخذ في قراءة الزبور تفتقت العذارى . وهذا غريب . وقال عبد الرزاق عن ابن جريج : سألت عطاء عن القراءة على الغناء فقال : وما بأس بذلك ؟ سمعت عبيد بن عمر يقول : كان داود عليه السلام يأخذ المعزفة فيضرب بها فيقرأ عليها فترد عليه صوته يريد بذلك أن يبكي وتبكي . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال : «لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود»[2] . وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه . وقال أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن محمد بن عمر ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لقد أعطي أبو موسى من مزامير داود»[3] على شرط مسلم وقد روينا عن أبي عثمان النهدي[4] أنه قال : لقد سمعت البربط والمزمار ، فما سمعت صوتاً أحسن من صوت أبي موسى الأشعري . وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «خفف على داود القراءة ، فكان يأمر بدابته فتسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلّا من عمل يديه» . وكذلك رواه البخاري منفرداً به : عن عبد الله بن محمد ، عن عبد الرزاق به ، ولفظه : «خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل إلّا من عمل يديه»[5] . ثم قال البخاري :

---

(١) عبارة محرفة . وفي نسخة البداية المطبوعة : انبئنا برادح وهي محرفة وصححت في قصص الأنبياء لابن كثير ؛ كما أثبتناه من نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية رقم تاريخ ٣٦٠٩ مصورة عن نسخة الأستانة .

(٢) مسند أحمد ج ٢/٣٦٩ وابن ماجه في سننه . ورواه الهيثمي في الزوائد وفيه : قلت أصله في الصحيحين من حديث أبي موسى ؛ في صحيح البخاري ٦٦/٣٠/٥٠٤٨ فتح الباري وفي مسلم من حديث بريدة ٦/٣٤/٢٣٥ ورواه النسائي من حديث عائشة . ورواه الدارمي في سننه من حديث أبي موسى .

(٣) مسند أحمد ج ٢/٣٥٤.

(٤) في نسخ البداية المطبوعة : الترمذي وهو تحريف .

(٥) مسند أحمد ج: ٢/٣١٤، وصحيح البخاري ٦٠/٣٧/٣٤١٧ فتح الباري .

ورواه موسى بن عقبة ، عن صفوان هو ابن سليم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وقد أسنده ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام في تاريخه من طرق : عن إبراهيم بن طهمان ، عن موسى بن عقبة ، ومن طريق أبي عاصم ، عن أبي بكر السبري عن صفوان بن سليم به .

والمراد بالقرآن ههنا الزبور الذي أنزله عليه ، وأوحاه إليه ، وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظاً فإن كان ملكاً له أتباع ، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغني به على وجه التخشع صلوات الله وسلامه عليه وقد قال الله تعالى : ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ [الإسراء : ٥٥] والزبور كتاب مشهور وذكرنا في التفسير الحديث الذي رواه أحمد وغيره أنه أنزل في شهر رمضان وفيه من المواعظ والحكم[١] ما هو معروف لمن نظر فيه . وقوله : ﴿ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً وحكماً نافذاً . روى ابن جرير وابن أبي حاتم : عن ابن عباس : أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام في بقر . ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه ، فأنكر المدعى عليه ، فأرجأ أمرهما إلى الليل ، فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعي فلما أصبح قال له داود : إن الله قد أوحى إليّ أن أقتلك ، فأنا قاتلك لا محالة فما خبرك فيما ادعيته على هذا ؟ قال : والله يا نبي الله إني لمحق فيما ادعيت عليه ولكني كنت اغتلت أباه قبل هذا فأمر به داود فقتل فعظم أمر داود في بني إسرائيل جداً وخضعوا له خضوعاً عظيماً . قال ابن عباس وهو قوله تعالى : ﴿ وشددنا ملكه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ أي النبوة[٢] ﴿ وفصل الخطاب ﴾ قال شريح والشعبي وقتادة وأبو عبد الرحمن السلمي وغيرهم فصل الخطاب الشهود والأيمان يعنون بذلك البينة على المدعي واليمين على من أنكر[٣] . وقال مجاهد والسدي هو إصابة القضاء وفهمه . وقال مجاهد هو الفصل في الكلام وفي الحكم واختاره ابن جرير وهذا لا ينافي ما روي عن أبي موسى أنه قول « أما بعد » . وقال وهب بن منبه لما كثر الشر وشهادات الزور في بني إسرائيل أعطي داود سلسلة لفصل القضاء فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس وكانت من ذهب ، فإذا تشاجر الرجلان في حق فأيهما كان محقاً نالها والآخر لا يصل إليها فلم تزل كذلك حتى أودع رجل رجلاً لؤلؤة فجحدها منه واتخذ عكازاً

---

(١) الزبور : كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ، وإنما هو دعاء تحميد وتمجيد .

(٢) وقال مجاهد : أي العدل ؛ وأبو العالية : أي العلم بكتاب الله ، وقال قتادة : السنة .

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخه ١٩٦/٥ تهذيب وفي صحيح البخاري بنحوه ٢٥١٤/٦/٤٨ . وفي رواية ابن عباس : (. . . ان اليمين على المدعى عليه) . ورواه مسلم في ٣٠ كتاب الأقضية (١) باب اليمين على المدعى عليه . عن ابن عباس وفيه : ولكن اليمين على المدعى عليه . حديث ١ ـ ٢ ص ١٣٣٦/٣ ورواه الترمذي في ١٣٤٢/١٢/١٣ .

وأودعها فيه فلما حضرا عند الصخرة تناولها المدعي فلما قيل للآخر خذهـا بيدك عمـد إلى العكاز فأعطاه المدعي وفيه تلك اللؤلؤة وقال اللهم : إنك تعلم أني دفعتها إليه ، ثم تناول السلسلة فنالها فأشكل أمرها على بني إسرائيل . ثم رفعت سريعاً من بينهم . ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين . وقد رواه إسحق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب به بمعناه .

﴿ وهل أتاك نبؤ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب . فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ [صٓ: ٢١ ـ ٢٥].

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات ومنها ما هو مكذوب لا محالة تركنا إيرادها في كتابنا قصداً اكتفاء واقتصاراً على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقد اختلف الأئمة في سجدة ص هل هي من عزائم السجود أو إنما هي سجدة شكر ليست من عزائم السجود على قولين : قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الله ، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي ، عن العوام ، قال سألت مجاهداً عن سجدة ص فقال سألت ابن عباس من أين سجدت قال أو ما تقرأ : ﴿ ومن ذريته داود وسليمان ﴾ ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ وقد قال الإمام أحمد : حدثنا اسمعيل هو ابن علية عن أيوب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أنه قال في السجود في ص ليست من عزائم السجود . وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها . وكذا رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث أيوب وقال الترمذي حسن صحيح وقال النسائي أخبرني إبراهيم بن الحسن المقسمي حدثنا حجاج بن محمد عن عمر بن ذر ، عن أبيه ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد في ص وقال : « سجدها داود توبة ونسجدها شكراً . تفرد به أحمد ورجاله ثقات . وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب : أخبرني عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، عن أبي سعيد الخدري قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ص فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد معه الناس فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشزّن الناس للسجود فقال [النبي ﷺ] : « إنما هي توبة نبي ولكن رأيتكم تشزنتم

للسجود] » فنزل وسجد[1] . تفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيح . وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا حميد ، حدثنا بكر هو ابن عمر وأبو الصديق الناجي أنه أخبره : أن أبا سعيد الخدري رأى رؤيا أنه يكتب ص فلما بلغ إلى التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً قال فقصها على النبي ﷺ فلم يزل يسجد بها بعد . تفرد به أحمد وروى الترمذي وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن خنيس ، عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد ، قال : قال لي ابن جريج : حدثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودي فسمعتها تقول : وهي ساجدة : « اللهم اكتب لي بها عندك أجراً واجعلها لي عندك ذخراً وضع عني بها وزراً واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود » وقال ابن عباس فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول : وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة . ثم قال الترمذي غريب لا نعرفه إلّا من هذا الوجه .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه عليه السلام مكث ساجداً أربعين يوماً وقاله مجاهد والحسن وغيرهما وورد في ذلك حديث مرفوع لكنه من رواية يزيد الرقاشي وهو ضعيف متروك الرواية . قال الله تعالى : ﴿ فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ [ص: ٢٥] . أي أن له يوم القيامة لزلفى وهي القربة التي يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها كما ثبت في حديث : « المقسطون على منابر من نور . عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وحكمهم وما ولوا »[2] . وقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا فضيل ، عن عطية ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر »[3] وهكذا رواه الترمذي من حديث فضيل بن مرزوق الأغرّ به وقال : لا نعرفه مرفوعاً إلّا من هذا الوجه . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن أبي زياد ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر بن سليمان سمعت مالك بن دينار في قوله : ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ قال : يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش فيقول الله : يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الصلاة ـ باب السجود في ص حديث رقم ١٤١٠ ج ٢/ ٥٩.

ـ ما بين معكوفين في الحديث سقطت من نسخ البداية المطبوعة واستدركت من أبي داود .

ـ التشزّن : قال في النهاية : التأهب والتهيؤ للشيء ، والاستعداد له ، مأخوذ من عرض الشيء وجانبه .

وقد وردت في نسخ البداية ، تشرف وتشرفتم وهو تحريف . واستدركت من أبي داود .

(٢) أخرجه مسلم في ٣٣ كتاب الإمارة (٥) باب فضيلة الإمام العادل ١٨ /١٨٢٧ والنسائي في آداب القضاة وأحمد في مسنده ج ٢/ ١٦٠ .

(٣) مسند أحمد ج ٣/ ٢٢ ، والترمذي في سننه ١٢/ ٤/ ١٣٢٩ .

الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني في الدنيا فيقول : وكيف وقد سلبته ؟ فيقول إني أرده عليك اليوم ، قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان .

.[قال تعالى] : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ [ص:٢٦] هذا خطاب من الله تعالى مع داود والمراد ولاة الأمور وحكام الناس وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله لا ما سواه من الآراء والأهواء وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك ، وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به في ذلك الوقت في العدل ، وكثرة العبادة ، وأنواع القربات ، حتى إنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل ، وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً كما قال تعالى : ﴿ اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ﴾ [سبأ:١٣] قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام ، حدثنا صالح المزي(١)، عن أبي عمران الجوني ، عن أبي الجلد قال : قرأت في مسألة داود عليه السلام أنه قال : يا رب كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك ؟ قال فأتاه الوحي « أن يا داود ألست تعلم أن الذي بك من النعم مني قال بلى يا رب قال فأني أرضى بذلك منك » . وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا أبو بكر بن بالويه ، حدثنا محمد بن يونس القرشي ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثني عبد الله بن لاحق عن ابن شهاب قال : قال داود : « الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه ، وعزّ جلاله ، فأوحى الله إليه : أنك أتعبت الحفظة يا داود » ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن علي بن الجعد عن الثوري مثله . وقال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد : أنبأنا سفيان الثوري ، عن رجل ، عن وهب بن منبه قال : إن في حكمة آل داود حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمام للقلوب ، وحق على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل على شأنه ، وحق على العاقل أن لا يظعن إلا في إحدى ثلاث : زاد لمعاده، ومرمة لمعاشه ، ولذة في غير محرم . وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا ، عن أبي بكر بن أبي خيثمة، عن ابن مهدي ، عن سفيان ، عن أبي الأغر عن وهب بن منبه فذكره . ورواه أيضاً عن علي بن الجعد ، عن عمر بن الهيثم الرقاشي ، عن أبي الأغر ، عن وهب بن منبه فذكره . وأبو الأغر هذا هو الذي أبهمه ابن المبارك في روايته . قاله ابن عساكر ؛ وقال عبد الرزاق : أنبأنا بشر بن رافع ، حدثنا شيخ من أهل صنعاء يقال له أبو عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه فذكر مثله . وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة منها قوله كن لليتيم كالأب

(١) في نسخ البداية والنهاية : المزي وهو تحريف . وما أثبتناه المري وهو : صالح بن بشير المري البصري .

الرحيم . واعلم انك كما تزرع كذلك تحصد . وروى بسند غريب مرفوعا قال داود . يا زارع السيئات أنت تحصد شوكها وحسكها وعن داود عليه السلام أنه قال : مثل الخطيب الأحمق في نادي القوم كمثل المغني عند رأس الميت ، وقال أيضاً : ما أقبح الفقر بعد الغنى وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى . وقال انظر ما تكره أن يذكر عنك في نادي القوم فلا تفعله إذا خلوت . وقال لا تعدن أخاك بما لا تنجزه له ، فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه . وقال محمد بن سعد أنبأنا محمد بن عمر الواقدي، حدثني هشام بن سعد ، عن عمر مولى عفرة قال : قالت يهود لما رأت رسول الله ﷺ يتزوج النساء : انظروا إلى هذا الذي لا يشبع من الطعام ولا والله ما له همة إلا إلى النساء حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك ، فقالوا : لو كان نبياً ما رغب في النساء وكان أشدهم في ذلك حيي بن أخطب فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله عليه وسلامه فقال : ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ [النساء : ٥٤] يعني بالناس رسول الله ﷺ : ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ﴾ [النساء : ٥٤] يعني ما أتى الله سليمان بن داود كانت له ألف امرأة سبعمائة مهرية[1] وثلثمائة سرية ، وكانت لداود عليه السلام مائة[2] امرأة منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة ، هذا أكثر مما لمحمد ﷺ . وقد ذكر الكلبي نحو هذا وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة منهن ثلثمائة سرية .

وروى[3] الحافظ في تاريخه في ترجمة صدقة الدمشقي الذي يروي عن ابن عباس من طريق الفرج بن فضالة الحمصي ، عن أبي هريرة الحمصي ، عن صدقة الدمشقي أن رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام فقال : لأحدثنك بحديث كان عندي في البحث[4] مخزوناً إن شئت أنبأتك بصوم داود فإنه كان صواماً قواماً ، وكان شجاعاً لا يفر إذا لاقى ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً وقال رسول الله ﷺ : « أفضل الصيام صيام داود وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتاً يكون فيها وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كل شيء ويصرف بصوته الهموم والمحموم »[5]. وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ، ومن وسطه ثلاثة أيام ، ومن آخره ثلاثة أيام يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام . وإن شئت انبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى بن مريم : فإنه كان يصوم الدهر ويأكل الشعير ويلبس الشعر يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد ليس له ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، وكان أينما أدركه الليل

(١) مهرية : الزوجة ذات المهر .

(٢) في رواية للطبري عن السدي : تسع وتسعون امرأة . ١/ ٢٤٩.

(٣) الحافظ ابن عساكر في تاريخه : ٦/ ٤١٨ ـ ٤١٩ تهذيب .

(٤) البحث : المعدن (قاموس) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ج ٢/ ١٦٤ ـ ١٩٠ .

صفن[1] بين قدميه ، وقام يصلي حتى يصبح ، وكان رامياً لا يفوته صيد يريده وكان يمر بمجالس بني إسرائيل فيقضي لهم حوائجهم .

وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران فإنها كانت تصوم يوماً وتفطر يومين .

وإن شئت أنبأتك بصوم النبي العربي الأمي محمد ﷺ فإنه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ويقول إن ذلك صوم الدهر . وقد روى الإمام أحمد عن أبي النصر عن فرج بن فضالة عن أبي هرم عن صدقة عن ابن عباس مرفوعاً في صوم داود .

[ذكر][2] كمية حياته وكيفية وفاته عليه السلام

قد تقدم في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم : أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ورأى فيهم رجلاً يزهر فقال : أي رب من هـذا ؟ قال : هـذا ابنك داود ، قال : أي رب كم عمره ؟ قال : ستون عاماً قال : أي رب زد في عمره . قال : لا إلّا أن أزيده من عمرك ، وكان عمر آدم ألف عام ، فزاده أربعين عاماً فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت ، فقال : بقي من عمري أربعون سنة ، ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود ، فأتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة . رواه أحمد عن ابن عباس والترمذي وصححه عن أبي هريرة وابن خزيمة وابن حبان . وقال الحاكم على شرط مسلم . وقد تقدم ذكر طرقه وألفاظه في قصة آدم . قال ابن جرير وقد زعم بعض أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعاً وسبعين سنة قلت هذا غلط مردود عليهم قالوا وكان مدة ملكه أربعين سنة وهذا قد يقبل نقله لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه .

وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا قبيصة ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبي عمرو ، عن المطلب ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت[3] الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع قال : فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ، والله لنفتضحن بداود فجاء داود فإذا الرجل قائم في وسط الدار فقال له داود : من أنت ؟ فقال : أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب . فقال داود أنت والله إذن ملك الموت مرحباً بأمر الله . ثم مكث حتى قبضت روحه فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس . فقال سليمان للطير : أظلي على داود . فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال سليمان للطير اقبضي

(١) في نسخة صفن ، وكلاهما بمعنى .

(٢) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٣) في نسخ البداية المطبوعة : أغلق وما أثبتناه من مسند أحمد .

جناحاً . قال : قال أبو هريرة : «فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله ﷺ بيده وغلبت عليه يومئذٍ المضرحية»[1] . انفرد بإخراجه الإمام أحمد ، وإسناده جيد قوي ، رجاله ثقات ومعنى قوله وغلبت عليه يومئذٍ المضرحية : أي وغلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الأجنحة ، واحدها مَضرحي . قال الجوهري وهو الصقر الطويل الجناح ، وقال السدي عن أبي مالك ، عن ابن عباس قال : مات داود عليه السلام فجأة وكان بسبت وكانت الطير تظله . وقال السدي أيضاً عن أبي مالك ، وعن سعيد بن جبير قال : مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة . وقال إسحاق بن بشر[2] عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن قال : مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ومات يوم الأربعاء فجأة[3] . وقال أبو السكن الهجري مات إبراهيم الخليل فجأة وداود فجأة وابنه سليمان فجأة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين رواه ابن عساكر ، وروي عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه ، فقال له : دعني أنزل أو أصعد فقال: يا نبي الله قد نفدت السنون والشهور والآثار والأرزاق . قال : فخر ساجداً على مرقاة من تلك المراقي فقبضه وهو ساجد . وقال اسحاق بن بشر : أنبأنا وافر بن سليمان ، عن أبي سليمان الفلسطيني ، عن وهب بن منبه قال : إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا في الشمس في يوم صائف قال : وكان قد شيع جنازته يومئذٍ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ، ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهرون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم على داود ، قال : فآذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحر فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت ، فأمرها أن تظل الناس فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه حتى استمسكت الريح ، فكاد الناس أن يهلكوا غماً فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم ، فخرج سليمان فنادى الطير : أن أظلي الناس من ناحية الشمس وتنحي عن ناحية الريح ففعلت ، فكان الناس في ظل ، وتهب عليهم الريح فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان . وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو همام الوليد بن شجاع ، حدثني الوليد بن مسلم ، عن الهيثم بن حميد ، عن الوضين بن عطاء ، عن نصر بن علقمة ، عن جبير بن نفير، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : «لقد قبض الله داود من بين أصحابه ما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سننه وهديه مائتي سنة» . هذا حديث غريب وفي

(١) مسند أحمد ج ٢/٤١٩ .

(٢) وهو غير اسحاق بن يسار ؛ إسحاق بن بشر بن حذيفة البخاري صاحب « المبتدأ والفتوح » . متروك . كذبه علي بن المديني .

(٣) قال الطبري : عمّر داود فيما وردت به الأخبار عن رسول الله ﷺ مائة سنة .

وفي رواية للطبري : عن بعض أهل الكتب فإنه زعم أن عمره كان سبعاً وسبعين سنة وأن مدة ملكه كانت أربعين سنة .

رفعه نظر والوضين بن عطاء كان ضعيفاً في الحديث والله أعلم .

قصة سليمان[1] بن داود عليهما السلام

قال الحافظ ابن عساكر: هو سليمان بن داود بن ايشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عمينا داب بن ارم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم[2] أبي الربيع نبي الله ابن نبي الله. جاء في بعض الآثار أنه دخل دمشق[3] . قال ابن ماكولا فارص بالصاد المهملة وذكر نسبه قريباً مما ذكره ابن عساكر قال الله تعالى: ﴿ وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ [النمل: ١٦] أي ورثه في النبوة والملك ، وليس المراد ورثه في المال ، لأنه قد كان له بنون غيره ، فما كان ليخص بالمال دونهم ، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا فهو صدقة »[4] وفي لفظ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث »[5] . فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصون بها أقرباؤهم لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك ، كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم وقال : ﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير ﴾ الآية يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإراداتها . وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا علي بن حمشاد[6] حدثنا اسمعيل بن قتيبة ، حدثنا علي بن قدامة ، حدثنا أبو جعفر الاستوائي[7] يعني محمد بن عبد الرحمن عن أبي يعقوب القمي[8] ، حدثني أبو مالك قال : مر

---

(١) ذكر سليمان في القرآن ست عشرة مرة في: البقرة - النساء - الأنعام - الأنبياء - النمل - سبأ - ص .

(٢) راجع التعليق على نسب داود ، وقد تقدم قريباً .

(٣) راجع تاريخ ابن عساكر ج ٦/٢٥٢ - ٢٥٣ تهذيب .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٦٧٢٧/٣/٨٥ فتح الباري ، وأخرجه مسلم في صحيحه ٤٩/١٦/٣٢ ومالك في الموطأ ٢٧/١٢/٥٦ والترمذي في سننه ١٦١٠/٤٤/٢٢ والنسائي في سننه وأحمد في مسنده ١/ ٤، ٦، ٩، ٢٥ - ٢/ ٤٦٣ - ٦/ ١٤٥، ٢٦٢.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الخمس ، وفضائل أصحاب النبي (١٢) وفي المغازي (١٤، ٣٨) وفي النفقات (٣) وفي الفرائض (٣) وفي كتاب الجهاد (٤٩، ٥٢، ٥٤، ٥٦).

(٦) في الأصول حشاد ، وهو تحريف.

(٧) في الأصول الأسوائي وهو تحريف والصواب الاستوائي نسبة إلى أُستوا وهي كورة بنواحي نيسابور ذكره صاحب معجم البلدان وفيه : محمد بن بسطام بن الحسن الاستوائي وقد ولي قضاء نيسابور ودام له القضاء ولأولاده . معجم البلدان ج ١/ ١٧٥ .

(٨) في الأصول : العمي ، وهو أبو الحسن يعقوب بن عبد الله بن سعد بن مالك الأشعري القمي روى عن =

سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول قالوا وما يقول يا نبي الله ؟ قال يخطبها إلى نفسه ويقول زوجيني أسكنك أي غرف دمشق شئت . قال سليمان عليه السلام لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد ولكن كل خاطب كذاب . رواه ابن عساكر[1] : عن أبي القاسم زاهر بن طاهر عن البيهقي به وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات : ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ أي من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والأنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ثم قال : ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ أي من بارىء البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ [النمل : ١٧ ـ ١٩] .

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير ، فالجن والانس يسيرون معه ، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره ، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة أي نقباء يردون أوله على آخره فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ، ولا يتأخر عنه[2] قال الله تعالى : ﴿ حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ [النمل : ١٨] فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور ـ وقد ذكر وهب أنه مر وهو على البساط بوادٍ[3] بالطائف وأن هذه النملة كان اسمها جرسا[4] وكانت من قبيلة يقال لهم بنو الشيصبان وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب . وفي هذا كله نظر بل في هذا السياق دليل على أنه كان في موكبه راكباً في خيوله وفرسانه لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء ولا وطء لأن البساط كان عليه جميع ما

= عيسى بن جابر وروى عنه أبو الربيع الزهراني وغيره توفي بقزوين سنة ٧٤ معجم البلدان ٣٩٨/٤ .

(١) تاريخ ابن عساكر ٢٥٣/٦ تهذيب.

(٢) قال القرطبي في أحكام القرآن ج ١٣/ ١٦٨ وفي الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وزعة يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض ؛ إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم .

(٣) وادي السرير .

(٤) قال في أحكام القرآن : قيل كان اسمها : طاخية . وقال السهيلي : « قالوا اسمها حرميا . ولا أدري كيف يتصور للنملة اسم علم والنمل لا يسمي بعضهم بعضاً .

يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام والطير من فوق ذلك كله كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى .

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد ، والأمر الحميد ، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره وليس كما يقوله بعض الجهلة ، من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان ، وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها ، فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك ، فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان في فهم لغاتها مزية على غيره ، إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها لم يكن في هذا أيضاً فائدة يعيول عليها ، ولهذا قال : ﴿ رب أوزعني ﴾ أي ألهمني وأرشدني : ﴿ أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره وأن ييسر عليه العمل الصالح وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين وقد استجاب الله تعالى له . والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه وكانت من العابدات الصالحات كما قال سنيد بن داود ، عن يوسف بن محمد بن المنكدر ، عن أبيه عن جابر عن النبي ﷺ قال : « قالت أم سليمان بن داود : يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة » . رواه ابن ماجه(1) عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه . وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي فقال لأصحابه : ارجعوا فقد سقيتم إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها . قال ابن عساكر(2) : وقد روي مرفوعاً ولم يذكر فيه سليمان ثم ساقه من طريق محمد بن عزيز ، عن سلامة بن روح بن خالد ، عن عقيل ، عن ابن شهاب حدثني أبو سلمة ، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء فقال النبي : « ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة » . وقال السدي : أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام ، فأمر الناس فخرجوا فإذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهي تقول : « اللهم أنا خلق من خلقك ولا غناء بنا عن فضلك » قال فصب الله عليهم المطر .

قال تعالى : ﴿ وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذاباً

---

(1) رواه ابن ماجه في اقامة ح ١٧٤ وفيه : . . . تترك الرجل فقيراً .

(2) رواه ابن عساكر في تاريخه ٦/٢٧١ تهذيب .

شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون إلا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا أيها الملأ إني أُلقي إليّ كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة أهلها اذلة وكذلك يفعلون وإني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون ﴾ [النمل : ٢٠ ـ ٣٧] .

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون[١] يقومون بما يطلب منهم ، ويحضرون عنده بالنوبة كما هي عادة الجنود مع الملوك . وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره أنهم كانوا إذا اعوزوا الماء في القفار في حال الاسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء وفيه من القوة التي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم . فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقده ولم يجده في موضعه من محل خدمته ﴿ فقال مالي لا أرى الهدهد لم كان من الغائبين ﴾ أي ماله مفقود من ههنا أو قد غاب عن بصري فلا أراه بحضرتي ﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً ﴾ توعده بنوع من العذاب . اختلف المفسرون فيه والمقصود حاصل على كل تقدير ﴿ أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ أي بحجة تنجيه من هذه الورطة . قال الله تعالى : ﴿ فمكث غير بعيد ﴾ أي فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها : ﴿ فقال ﴾ لسليمان : ﴿ احطت بما لم تحط به ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ أي بخبر صادق ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ﴾ يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين ، وكان الملك قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم .

وذكر الثعلبي وغيره أن قومها ملكوا عليهم بعد أبيها رجلاً فعم به الفساد ، فأرسلت إليه

---

(١) في الطبري : اختار سليمان من كل طير طيراً فجعله رأس تلك الطير ، فإذا أراد أن يسأل شيئاً من تلك الطير سأل رأسها .

تخطبه فتزوجها فلما دخلت عليه سقته خمراً ثم حزت رأسه ونصبته على بابها[1] ، فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم وهي بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد وقيل شراحيل بن ذي جدن بن السيرح[2] بن الحرث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وكان أبوها من أكابر الملوك وكان يأبى أن يتزوج من أهل اليمن فيقال إنه تزوج بامرأة من الجن اسمها ريحانة بنت السكن[3] ، فولدت له هذه المرأة واسمها تلقمة[4] ويقال لها بلقيس . وقد روى الثعلبي من طريق سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن النضر بن أنس ، عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « كان أحد أبوي بلقيس جنياً » . وهذا حديث غريب وفي سنده ضعف . وقال الثعلبي أخبرني أبو عبد الله بن قبحونة ، حدثنا أبو بكر بن جرجة ، حدثنا ابن أبي الليث ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو معاوية ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن ، عن أبي بكرة ، قال : ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ ، فقال : « لا يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» . اسماعيل بن مسلم هذا هو المكي ضعيف . وقد ثبت في صحيح البخاري : من حديث عوف ، عن الحسن ، عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »[5]. ورواه الترمذي والنسائي من حديث حميد عن الحسن عن أبي بكرة عن النبي ﷺ [بمثله] وقال الترمذي حسن صحيح وقوله : ﴿ واوتيت من كل شيء ﴾ أي مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ يعني سرير مملكتها كان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلىء والذهب والحلي الباهر . ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله وإضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون أي يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات ﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ أي له العرش العظيم ، الذي لا أعظم منه في المخلوقات . فعند ذلك بعث معه سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإذعان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه ولهذا قال لهم : ﴿ ألا تعلوا علي ﴾ أي لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامري ﴿ واتوني مسلمين ﴾ أي وأقدموا عليّ سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة . فلما

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير ١/٢٣٣ .

(٢) ذكر الطبري في نسبها : ابنة ذي شرح بن ذي جدن بن ايلي شرح .

(٣) في أحكام القرطبي : بلعمة بنت شيصان . وفي الكامل : رواحة بنت السكر ؛ وقيل يلقمه بنت عمرو بن عمير الجني .

(٤) في الطبري : بلمقة وفي الكامل : يلقمة .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٩٢/١٨ ، والترمذي في سننه ٧٥/٣١ وأحمد في مسنده : ٣٨/٥ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ والنسائي في سننه وأبو داود الطيالسي في مسنده .

قال القاضي ابن العربي : هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه ونقل عن الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ، ولم يصح ذلك عنه .

جاءها الكتاب مع الطير ومن ثم اتخذ الناس البطائق ، ولكن أين الثريا من الثرى ، تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له ، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فالقاه إليها وهي في خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها ، فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها ﴿ قالت يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتاب كريم ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً ﴿ إنه من سليمان ﴾ ثم قرأته : ﴿ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين ﴾ ثم شاورتهم في أمرها وما قد حل بها وتأدبت معهم ، وخاطبتهم ، وهم يسمعون ﴿ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ [النمل: ٣٢] تعني ما كنت لأبت أمراً إلاّ وأنتم حاضرون ﴿قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ﴾ يعنون لنا قوة وقـدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين ﴿ و ﴾ مع هذا ﴿ الأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ [النمل: ٣٣] فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة ، وفوضوا إليها في ذلك الأمر ، لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم ، فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم ، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع ﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوهـا وجعلوا أعزة أهلهـا أذلة وكذلك يفعلون ﴾ [النمل: ٣٤] تقول برأيها السديد إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلاّ إليّ ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلاّ عليّ ﴿ وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ [النمل: ٣٥] أرادت أن تصانع عن نفسهـا ، وأهل مملكتهـا بهدية ترسلها ، وتحف تبعثها ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم ، والحالة هذه صرفاً ولا عدلاً لأنهم كافرون وهو وجنوده عليهم قادرون ولهذا ﴿ لما جاء سليمان قال أتمدونن بمـال فما آتاني الله خيـر مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ [النمل: ٣٦] هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة ، كما ذكره المفسرون[1] . ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدم عليه والناس حاضرون يسمعون ﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بهـا ولنخرجنهم منهـا أذلة وهم صاغرون ﴾ [النمل: ٣٧] يقول ارجع بهديتك التي قدمت بها إليّ من قَدْ منَّ بها ، فإن عندي مما قد أنعم الله عليّ وأسداه إليّ من الأموال ، والتحف ، والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من هذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون على أبنـاء جنسكم بسببه ﴿ فلنـأتينهم بجنود لا قبـل لهم بها ﴾ [النمل: ٣٧] أي فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتـالهم ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعـاملتهم ودولتهم أذلة ﴿وهم صـاغرون﴾ عليهم الصغـار والعار

(١) عن ابن عباس : بعثت باثنتي عشرة وصيفة ، واثني عشر غلاماً ، وعلى يد الـوصائف أطبـاق مسك وعنبـر ، وباثنتي عشرة نجيبة تحمل لبن الذهب ، وبعصا كان يتوارثها ملوك حمير ؛ وبخرزتين احداهما مثقوبة ثقباً معوجاً والأخرى غير مثقوبة . وبقدح لا شيء فيه . (من ذهب) . [قيل بعثت الهدية مع رجل من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو] . أحكام القرآن ١٣/ ١٩٦ .

والدمار . فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة ، فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة ، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين . فلما سمع بقدومهم عليه ، ووفودهم إليه ، قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان ما قصه الله عنه في القرآن . ﴿ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٣].

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس ، وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها ، قبل قدومها عليه ﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ يعني قبل أن ينقضي مجلس حكمك وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بني إسرائيل ومالهم من الأشغال ﴿ وإني عليه لقوي أمين ﴾ أي وإني لذو قدرة على إحضاره إليك وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ المشهور أنه آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان . وقيل هو رجل من مؤمني الجان كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم. وقيل رجل من بني إسرائيل من علمائهم وقيل إنه سليمان وهذا غريب جداً . وضعفه السهيلي بأنه لا يصح في سياق الكلام قال وقد قيل فيه قول رابع وهو جبريل ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ قيل معناه قبل أن تبعث رسولاً إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك . وقيل قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس وقيل قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك . وقيل قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته وهذا أقرب ما قيل . ﴿ فلما رآه مستقراً عنده ﴾ أي فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين ﴿ قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ﴾ أي هذا من فضل الله عليّ وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿ ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ أي غني عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين . ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلى هذا العرش وينكر لها ليختبر فهمها وعقلها ولهذا قال : ﴿ ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو ﴾ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا

الصنع العجيب الغريب قال الله تعالى إخبارا عن سليمان وقومه : ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾ أي ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعاً لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك ، وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج ، وعمل في ممره ماء ، وجعل عليه سقفاً من زجاج ، وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء ، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه ﴿ فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ [النمل : ٤٤] وقد قيل إن الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان وأن تبدي عن ساقيها ليرى ما عليها من الشعر فينفره ذلك منها ، وخشوا أن يتزوجها لأن أمها من الجان فتتسلط عليهم معه . وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة وهذا ضعيف . وفي الأول أيضاً نظر والله أعلم . إلا أن سليمان قيل إنه لما أراد إزالته حين عزم على تزوجها سأل الأنس عن زواله فذكروا له الموسى فامتنعت من ذلك . فسأل الجان فصنعوا له النورة ، ووضعوا لها الحمام ، فكان أول من دخل الحمام فلما وجد مسه قال أوه من عذاب أوه أوه قبل أن لا ينفع أوه . رواه الطبراني مرفوعاً وفيه نظر .

وقد ذكر الثعلبي وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن[1] وردّها إليه ، وكان يزورها في كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن غمدان وسالحين وبيتون فالله أعلم . وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه أن سليمان لم يتزوجها بل زوجها بملك همدان[2] وأقرها على ملك اليمن وسخر زوبعة ملك جن اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التي ذكرناها باليمن . والأول أشهر وأظهر . والله أعلم .

وقال تعالى في سورة صٓ : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق . ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسداً ثم أناب . قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي أنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ [صٓ : ٣٠ ـ ٣٩]. يذكر تعالى أنه وهب

---

(١) هذا قول ابن الأثير في الكامل . وفي أحكام القرآن عن الضحاك : أنه تزوجها وأسكنها الشام .

(٢) وفي رواية أخرى في الكامل : انه زوجها ذا تبع ملك همدان ثم ردها إلى اليمن. ونقل الخبر الطبري في تاريخه ١/٢٥٧ . وفيه أمر زوبعة أمير جن اليمن فصنع لذي تبع الصنائع باليمن . . . سلحين وصرواح ومرواح وبينون وهند وهنيدة وتلثوم (وهي حصون) .

لداود سليمان عليهما السلام ثم أثنى الله عليه تعالى فقال : ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ أي رجاع مطيع لله . ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة . الجياد وهي المضمرة السراع ﴿ فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ﴾ يعني الشمس . وقيل الخيل على ما سنذكره من القولين . ﴿ ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ قيل مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف . وقيل مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الآخر . والذي عليه أكثر السلف الأول فقالوا : اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس روي هذا عن علي بن أبي طالب وغيره والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر ، اللهم إلا أن يقال إنه كان سائغاً في شريعتهم فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك . وقد ادعى طائفة من العلماء في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعاً إذ ذاك حتى نسخ بصلاة الخوف قاله الشافعي وغيره . وقال مكحول والأوزاعي بل هو حكم محكم إلى اليوم أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد[1] كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف . وقال آخرون بل كان تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسياناً وعلى هذا فيحمل فعل سليمان عليه السلام على هذا والله أعلم . وأما من قال الضمير في قوله حتى توارت بالحجاب عائد على الخيل وأنه لم تفته وقت صلاة وإن المراد بقوله : ﴿ ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ يعني مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها، فهذا القول اختاره ابن جرير ورواه الوالبي عن ابن عباس في مسح العرق . ووجه هذا القول ابن جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ويهلك مالاً بلا سبب ولا ذنب لها وهذا الذي قاله فيه نظر لأنه قد يكون هذا سائغاً في ملتهم وقد ذهب بعض علمائنا : إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها لئلا يتقووا بها ، وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بموته ، وقد قيل إنها كانت خيلاً عظيمة . قيل كانت عشرة آلاف فرس . وقيل عشرين ألف فرس[2] . وقيل كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة . وقد روى أبو داود في سننه : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، أنبأنا يحيى بن أيوب ، حدثني عمارة بن عزية : أن محمد بن إبراهيم حدثه ٤)

---

(١) الخبر في تاريخ ابن عساكر ج ٢٥٨/٦ و ٢٥٩ تهذيب .
وقال القرطبي في أحكامه : ومن قال إن الهاء في ردوها ترجع للشمس فذلك من معجزاته . والأكثر أن التي توارت بالحجاب هي الشمس ، ولما فاتته الصلاة فأمر الله الملائكة الموكلين بالشمس ردوها فردوها حتى صلى العصر في وقتها وأن أنبياء الله لا يظلمون لأنهم معصومون . ج ١٩٦/١٥ .

(٢) وعن الحسن والكلبي ومقاتل : كانت ألف فرس ورثها سليمان عن أبيه ، عرض عليه تسعمائة فتنبه لصلاة العصر فإذا الشمس قد غربت .

عن محمد[1] بن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن عائشة قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها[2] ستر فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة تلعب ، فقال : « ما هذا يا عائشة ؟ فقالت : بناتي ، ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع . فقال : « ما هذا الذي أرى وسطهن ؟ قالت : فرس . قال : وما الذي عليه هذا ؟ قالت : جناحان . قال : فرس له جناحان ؟ قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة قالت : فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ »[3] . وقال بعض العلماء لما ترك الخيل لله عوضه الله عنها بما هو خير له منها وهو الريح التي كانت غدوها شهراً ورواحها شهراً كما سيأتي الكلام عليها ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا إسمعيل ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن حميد بن هلال ، عن أبي قتادة وأبي الدهماء ، وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا : أتينا على رجل من أهل البادية فقال البدوي : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عزّ وجلّ وقال : « إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله عزّ وجلّ إلا أعطاك الله خيراً منه »[4] .

وقوله تعالى : ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب﴾ . ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين ههنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف وأكثرها أو كلها متلقاة من الاسرائيليات[5] وفي كثير منها نكارة شديدة وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير واقتصرنا ههنا على مجرد التلاوة ومضمون ما ذكروه أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوماً ثم عاد إليه ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناءً محكماً . وقد قدمنا أنه جدده وأن أول من جعله مسجداً اسرائيل عليه السلام كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر ، قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع أول قال : « المسجد الحرام » قلت : ثم أي ؟ قال : مسجد بيت المقدس ، قلت : كم

---

(1) في سنن أبي داود : عن أبي سلمة ، وسقط اسم محمد ابنه .

(2) السهوة . قال في النهاية : السهوة بيت صغير ، منحدر في الأرض قليلاً وقيل هو كالصفة ، وقيل شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشيء .

(3) سنن أبي داود ـ كتاب الأدب ـ باب في اللعب بالبنات ح ٤٩٣٢ ج ٢٨٣/٤ .

(4) مسند أحمد ج ٧٩/٥ وفيه : إلا أتاك الله خيراً منه .

(5) هذه الأقوال التي نقلها المفسرون لا تصح قصصاً لمنافاتها للعصمة التي هي من أخص صفات الأنبياء عليهم السلام . ولو صح منها شيء لكان الوحي محل الشك والارتياب . وقال أبو حيان في تفسيره : نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها ، وهي مما لا يحل نقلها وهي إما من أوضاع اليهود أو الزنادقة . ولم يبين الله الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان . . . وقال : ويستحيل عقلاً بعض ما ذكروه كتمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره عند الناس . . . نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها .

وقال الألوسي : ومن أقبح ما زعم : تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطئهن وهن حيض . الله أكبر ! هذا بهتان عظيم وخطب جسيم . . . وقد ضعف القرطبي هذا الزعم .

بينهما ؟ قال : أربعون سنة »[1] ومعلوم أن بين إبراهيم الذي بنى المسجد الحرام ، وبين سليمان بن داود عليهما السلام أزيد من ألف سنة دع أربعين سنة وكان سؤاله الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده بعد إكماله البيت المقدس . كما قال الإمام أحمد ، والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عزّ وجلّ خلالاً ثلاثاً فأعطاه اثنتين ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة ، سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه ، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلاّ الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها»[2]. فأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله : ﴿ **وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً** ﴾ [الأنبياء : ٧٨ - ٧٩] وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفشت فيه غنم قوم آخرين ، أي رعته بالليل فأكلت شجرة بالكلية ، فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته فلما خرجوا على سليمان قال : بما حكم لكم نبي الله ؟ فقالوا : بكذا وكذا فقال أما لو كنت أنا لما حكمت إلاّ بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودراً حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ، ثم يتسلموا غنمهم ، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به . وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر فقالت الكبرى : إنما ذهب بابنك . وقالت الصغرى : بل إنما ذهب بابنك . فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى ، فخرجتا على سليمان فقال ائتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه ، فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها »[3]. ولعل كلا من الحكمين كان سائغاً في شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال : ﴿ **وكلا آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾ [الأنبياء : ٧٩ - ٨٠] . ثم قال : ﴿ **ولسليمان الريح عاصفة** ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿ **تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين** .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ١٠ - ٤٠ ومسلم في المساجد ١، ٢ والنسائي في مساجد ٣ وابن ماجه في مساجد ٧ ومسند أحمد ج ٥/١٥٠، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠، ١٦٦، ١٦٧ .

(٢) أخرجه النسائي في مساجد - ٦ - وابن ماجه إقامة ١٩٦ وأحمد في مسنده ج ٢/١٧٦ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ٤/٤١ والقضاء ٤٠/٦٠ ورواه مسلم في ٣٣/٥، ٢٠/٣٠ والنسائي وأبو داود في سننيهما وابن ماجه في ١٤/٢٨ وأحمد في مسنده ٢/٣٢٢ - ٣٤٠ - ٥/٤٤٧ - ٤٤٨ .

ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴾ [الأنبياء: ٨١ - ٨٢] . وقال في سورة ص : ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ [ص: ٣٦ - ٤٠] . لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها تجري بأمره رخاء ﴿ حيث أصاب ﴾ أي حيث أراد من أي البلاد . كان له بساط مركب من أخشاب بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الأنس والجان ، وغير ذلك من الحيوانات والطيور فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء ، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به ، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أي مكان شاء بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه باصطخر[1] مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار . ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس كما قال تعالى : ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ﴾ [سبأ: ١٢ - ١٣] . قال الحسن البصري كان يغدو من دمشق فينزل باصطخر فيتغدى بها ويذهب رائحاً منها فيبيت بكابل[2] وبين دمشق وبين إصطخر مسيرة شهر ، وبين إصطخر وكابل مسيرة شهر . قلت : قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان : أن إصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها قرار مملكة الترك قديماً وكذلك غيرها من بلدان شتى كتدمر وبيت المقدس وباب جبرون وباب البريد اللذان بدمشق على أحد الأقوال .

وأما القطر فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد : هو النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن أنبعها الله له . قال السدي ثلاثة أيام فقط[3] أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات

---

(١) إصطخر : بلدة بفارس ، من أقدم مدنها وأشهرها ، كان عليها قديماً سور فتهدم بينها وبين شيراز اثنا عشر فرسخاً النسبة إليها اصطخري واصطخرزي بناها اصطخر بن طهمورث ملك الفرس . معجم البلدان ٢١١/١ .

(٢) كابل : كابل في الأقليم الثالث ، قال ابن الفقيه : من ثغور طخارستان . وهي بين الهند ونواحي سجستان في ظهر الغور . غزاها المسلمون في أيام بني مروان وافتتحوها . معجم البلدان ٤٢٦/٤ .

(٣) قال القشيري : تخصيص الإسالة بثلاثة أيام لا يدري ما حده ، ولعله وهم من ناقله ، إذ في رواية مجاهد : أنها سالت من صنعاء ثلاث ليال مما يليها ، وهذا يشير إلى بيان الموضع لا إلى بيان المدة .

وغيرها وقوله : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ [سبأ:١٢] أي وسخر الله له من الجن عمالاً يعملون له ما يشاء ، لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ، ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب ﴾ وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿ وتماثيل ﴾ وهي الصور في الجدران وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملتهم[1] ﴿ وجفان كالجواب ﴾ . قال ابن عباس الجفنة كالجوبة من الأرض وعنه كالحياض ، وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهيَ الحوض الذي يجبى فيه الماء كما قال الأعشى :

تَـروحُ عـلى آلِ المـحلّق جَـفنـةٍ ... كجـابيةِ الشّيـخِ العِـراقي يَفْهَق[2]

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة : أثافيها منها . يعني أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن وهكذا قال مجاهد وغير واحد . ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وجان قال تعالى : ﴿ اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ﴾ [سبأ:١٣] وقال تعالى : ﴿ والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ يعني أن منهم من قد سخره في البناء ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلىء وغير ذلك مما لا يوجد إلاّ هنالك وقوله : ﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ أي قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد : وهي القيود . هذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر له من الأشياء التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، ولم يكن أيضاً لمن كان قبله . وقد قال البخاري : ثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «إن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي [صۤ:٣٥] فرددته خاسئاً ﴾ »[3]. وكذا رواه

= وقال القرطبي في أحكامه : والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان في معدنه عيناً تسيل كعيون المياه دلالة على نبوته . ٢٧٠/١٤ .

(١) نسخ ذلك بشرع محمد ﷺ ؛ وقد صح النهي عن النبي ﷺ لهذه الآية ، والتوعد لمن عملها أو اتخذها ، فنسخ الله عزّ وجلّ بهذا ما كان مباحاً قبله ، وكانت الحكمة في ذلك لأنه بعث ﷺ والصور تعبد ، فكان الأصلح إزالتها . روى مسلم عن عائشة عنه ﷺ قال : إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله عزّ وجل .

(٢) الفهق : الإمتلاء . وخص العراقي لجهله بالمياه لأنه حضري ، فإذا وجدها ملأ جابيته وأعدها ولم يدر متى يجد المياه ؛ وأما البدوي فهو عالم بالمياه فهو لا يبالي ألا يعدها .

(٣) صحيح البخاري ٧٥/٨ ، ٦٠/٤٠، وأخرجه مسلم في صحيحه (٥) كتاب المساجد (٢٨) باب ـ ٥٤١/٣٠٩ . وأحمد في مسنده : ٢٩٨/٢ .

مسلم والنسائي من حديث شعبة . وقال مسلم : حدثنا محمد بن سلمة المرادي ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن معاوية بن صالح ، حدثني ربيعة بن يزيد ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن أبي الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ فصلى فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله ثلاثاً وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك . ورأيناك بسطت يدك ، قال : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي . فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات . ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة »[1] وكذا رواه النسائي عن محمد بن سلمة به . وقال أحمد : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا مرة بن معبد ، ثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي فذهبت أمر بين يديه فردني ثم قال : حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام فصلى صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة . فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين : الإبهام والتي تليها ، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل »[2] . روى أبو داود منه « فمن استطاع » إلى آخره عن أحمد بن سريج عن أحمد الزبيري به .

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة سبعمائة بمهور وثلثمائة سراري وقيل بالعكس ثلثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء . وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيماً جداً قال البخاري : حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه إن شاء الله فلم يقل فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه فقال النبي ﷺ لو قالها لجاهدوا في سبيل الله »[3] . وقال شعيب وابن أبي الزناد تسعين وهو أصح . تفرد به البخاري من هذا الوجه . وقال أبو يعلى : حدثنا زهير ، حدثنا يزيد ، أنبأنا هشام بن حسان ، عن محمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل امرأة منهن تلد غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن

---

(١) أخرجه مسلم : في ٥ كتاب المساجد ـ ٢٨ باب ٤٠/٥٤٢ ؛ والنسائي في سننه ١٧/١٩ .

(٢) مسند أحمد ج ٣/٨٢.

(٣) صحيح البخاري ٨٣/٤/٦٦٣٩ فتح الباري .

امرأة إلا امرأة ولدت نصف إنسان فقال رسول الله ﷺ : « لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله عزَّ وجلَّ »[1] . إسناده على شرط الصحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه . وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، ثنا هشام ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ولم يستثن فما ولدت إلا واحدة منهن بشق إنسان قال قال رسول الله ﷺ : « لو استثنى لولد له مائة غلام كلهم يقاتل في سبيل الله عزَّ وجلَّ » تفرد به أحمد أيضاً[2] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله قال : ونسي أن يقول إن شاء الله فأطاف بهن قال : فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان فقال رسول الله ﷺ : « لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته »[3] وهكذا أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به مثله . وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا مقاتل ، عن أبي الزناد وابن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة أن سليمان بن داود كان له أربعمائة امرأة وستمائة سرية فقال يوماً : لأطوفن الليلة على ألف امرأة فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله ، ولم يستثن فطاف عليهن فلم تحمل واحدة منهن إلا امرأة واحدة منهن جاءت بشق إنسان فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لو استثنى فقال إن شاء الله لولد له ما قال فرسان ولجاهدوا في سبيل الله عزَّ وجلَّ » . وهذا إسناد ضعيف لحال إسحاق بن بشر فإنه منكر الحديث ولا سيما وقد خالف الروايات الصحاح . وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحد قبله ، ولا يعطيه الله أحداً بعده كما قال : ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ [النمل : ١٦] ﴿ وقال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ [ص : ٣٥] وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق . ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال : ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ أي أعط من شئت واحرم من شئت فلا حساب عليك أي تصرف في المال كيف شئت ، فإن الله قد سوغ لك كل ما تفعله من ذلك ولا يحاسبك على ذلك ، وهذا شأن النبي الملك بخلاف العبد الرسول ، فإن من شأنه أن لا يعطي أحداً ولا يمنع أحداً إلا باذن الله له في ذلك ، وقد خير نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبداً رسولاً[4] . وفي بعض الروايات أنه استشار جبريل في ذلك ، فأشار إليه أن تواضع فاختار أن يكون عبداً

(١) رواه أحمد في مسنده ج ٢/٥٠٦ ورواه ابن عساكر في تاريخه ٦/٢٦٦ تهذيب .

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/٢٢٩ .

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٢٧٥ .

(٤) تقدم تخريج الحديث ورواته فليراجع في محله .

رسولا صلوات الله وسلامه عليه وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أمته إلى يوم القيامة فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة فلله الحمد والمنة .

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبه على ما أعده له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل والقربة التي تقربه اليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول تعالى : ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

[ذكر][1] وفاته و [كم كانت][1] مدة ملكه وحياته

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ [سبأ : ١٤] .
روى ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من حديث إبراهيم بن طهمان ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « كان سليمان نبي الله عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها ما اسمك فتقول كذا فيقول لأي شيء أنت ؟ فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء أنبتت فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها : ما اسمك قالت الخروب قال لأي شيء أنت ؟ قالت لخراب هذا البيت فقال سليمان : اللهم عم على الجن موتي حتى تعلم الأنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنحتها عصا فتوكأ عليها حولاً والجن تعمل فأكلتها الأرضة ، فتبينت الأنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين . قال وكان ابن عباس يقرأها كذلك قال فشكرت الجن للأرضة فكانت تأتيها بالماء[2] . لفظ ابن جرير . وعطاء الخراساني في حديثه نكارة . وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً وهو أشبه بالصواب والله أعلم . وقال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل طعامه وشرابه فأدخله في المرة التي توفي فيها ، فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرةٌ فيأتيها فيسألها ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمي كذا وكذا [فيقول لها : لأي شيء نبت ؟ فتقول : نبت لكذا وكذا فيأمر بها فقطع][3] فإن كانت لغرس غرسها وإن كانت نبتت دواء قالت نبت دواء لكذا وكذا فيجعلها كذلك ، حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة فسألها ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروبة . فقال ولأي شيء نبت ؟ فقالت نبت

---

(١) ما بين معكوفين سقطت من نسخ البداية المطبوعة .
(٢) روى الخبر الطبري في تاريخه (١/ ٢٦٦ قاموس حديث) .
(٣) ما بين معكوفين ، زيادة اقتضاها السياق ، من تاريخ الطبري .

لخراب هذا المسجد . فقال سليمان ما كان الله ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها في حائط له . ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئاً على عصاه فمات ولم تعلم به الشياطين وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم ، وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول السُّ جليداً إن دخلتُ فخرجت من ذلك الجانب ، فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر ، فدخل شيطان من أولئك فمر ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو في المحراب إلاّ احترق ، ولم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق ، ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ، ففتحوا عنه فأخرجوه ، ووجدوا منسأته وهي العصا بلسان الحبشة قد أكلتها الأرضة ، ولم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة . ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة ، وهي قراءة ابن مسعود فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولاً كاملاً فأيقن الناس عند ذلك ، أن الجن كانوا يكذبون ، ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له وذلك قول الله عزَّ وجل : ﴿ ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ [سبأ : ١٤] يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكنا سننقل إليك الماء والطين قال فإنهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت قال : ألم تر إلى الطين الذي يكون في حوف الخشب فهو ما يأتيها به الشيطان تشكراً لها[1] . وهذا فيه من الاسرائيلات التي لا تصدق ولا تكذب .

وقال أبو داود في « كتاب القدر » حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن خيثمة قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت : إذا أردت أن تقبض روحي فأعلمني . قال :ما أنا أعلم بذاك منك إنما هي كتب يلقى إلي فيها تسمية من يموت . وقال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : قال سليمان لملك الموت : إذا أمرت بي فأعلمني . فأتاه فقال: يا سليمان قد أمرت بك ، قد بقيت لك سويعة، فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب فقام يصلي فاتكأ على عصاه قال فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوك على عصاه ولم يصنع ذلك، فراراً من ملك الموت قال والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي قال فبعث الله دابة الأرض - يعني - إلى منسأته فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر ، فلما رأت الجن ذلك انفضوا

---

(١) روى الحبر الطبري في تاريخه ج ١/٢٦١ - ٢٦٢ (قاموس حديث) .

وذهبوا قال فذلك قوله : ﴿ ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ . قال أصبغ وبلغني عن غيره : أنها مكثت سنة تأكل في منسأته حتى خرّ وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم والله أعلم .

قال إسحاق بن بشر ، عن محمد ابن إسحاق ، عن الزهري وغيره أن سليمان عليه السلام عاش ثنتين[1] وخمسين سنة وكان ملكه أربعين سنة وقال إسحاق أنبأنا أبو روق عن عكرمة عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة والله أعلم وقال ابن جرير : فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفاً وخمسين سنة .

وفي سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذكر . ثم ملك بعده ابنه رحبعام[2] مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير وقال : ثم تفرقت بعده مملكة بني إسرائيل .

[باب ذكر][3]
جماعة من انبياء بني اسرائيل بعد داود وسليمان
وقبل زكريا ويحيى عليهم السلام
فمنهم شعيا بن أمصيا

قال محمد بن إسحاق وكان قبل زكريا ويحيى ، وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام وكان في زمانه ملك اسمه حزقيا[4] على بني إسرائيل ببلاد بيت المقدس وكان سامعاً مطيعاً لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت في بني إسرائيل فمرض الملك ، وخرجت في رجله قرحة . وقصد بيت المقدس ملك بابل في ذلك الزمان وهو سنحاريب قال ابن إسحاق في ستمائة ألف راية وفزع الناس فزعاً عظيماً شديداً وقال الملك للنبي شعيا : ماذا أوحى الله إليك في أمر سنحاريب وجنوده فقال لم يوح إليّ فيهم شيء بعد . ثم نزل عليه الوحي بالأمر للملك حزقيا بأن يوصي ويستخلف على ملكه من يشاء فإنه قد اقترب أجله فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى فقال وهو يبكي ويتضرع إلى الله عزّ وجلّ بقلب مخلص وتوكل وصبر : « اللهم رب الأرباب وإله الآلهة [القدوس المتقدس][5] يا رحمن يا رحيم [المترحم

---

(١) في الكامل لابن الأثير : ثلاث وخمسين سنة .

(٢) في المسعودي : أرخبعم .

(٣) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٤) كذا في رواية الطبري : حزقيا بن أحاز ؛ وفيه عن ابن إسحاق كان يدعى : صديقة .

(٥) من الطبري .

الرؤوف الذي][1] لا تأخذه سنة ولا نوم ، اذكرني بعملي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسي سري وإعلاني لك » قال : فاستجاب الله له ورحمه ، وأوحى الله إلى شعيا يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخر في أجله خمس عشر سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب [وجنوده] فلما قال له ذلك ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجداً وقال في سجوده : « [يا إلهي وإله آبائي لك سجدت وسبحت وكرمت وعظمت] ، اللهم أنت الذي تعطي الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الأوّل والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين [أنت الذي أجبت دعوتي ورحمت تضرعي] » فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برىء . ففعل ذلك فشفي وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت[2] فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بخت نصر فأرسل ملك بني إسرائيل فجاء بهم ، فجعلهم في الاغلال ، وطاف بهم في البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً ويطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ثم أودعهم السجن ، وأوحى الله تعالى إلى شعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حلّ بهم فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم فقال له السحرة والكهنة : إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلما تطعنا ، وهي أمة لا يستطيعها أحد من ربهم فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به . ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين . قال ابن إسحاق ثم لما مات حزقيا ملك بني إسرائيل مرج أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم فأوحى الله تعالى إلى شعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه . فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها فلما رأو ذلك جاؤوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها فإنا لله وإنا إليه راجعون[3] .

ومنهم ارميا بن حلقيا من سبط لاوى بن يعقوب

وقد قيل إنه الخضر . رواه الضحاك عن ابن عباس . وهو غريب وليس بصحيح[4] . قال

---

(١) من الطبري .

(٢) قال ابن قتيبة في المعارف ص ٢٣ : سلط عليهم الطاعون فأصبحوا موتى .

(٣) نقل الخبر الطبري ج ١ / ٢٨٠ .

ما ورد بين معكوفين في الرواية زيادة ـ اقتضاها السياق ـ من تاريخ الطبري .

(٤) ضعفه الطبري في نقله للخبر : واسم الخضر فيما كان وهب بن منبه يزعم عن بني اسرائيل أرميا بن حلقيا وكان من سبط هارون .

ابن عساكر : جاء في بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق فقال : أيها الدم فتنت الناس فاسكن فسكن . ورسب حتى غاب[١] . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني علي بن أبي مريم ، عن أحمد بن حباب ، عن عبد الله بن عبد الرحمن قال : قال أرميا : أي رب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : أكثرهم لي ذكراً ، الذين يشتغلون بذكري عن ذكر الخلائق ، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدثون انفسهم بالبقاء . الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قلوه ، وإذا زوى عنهم سروا بذلك . أولئك أنحلهم محبتي وأعطيهم فوق غاياتهم .

[ذكر][٢]

خراب بيت المقدس

وقوله تعالى : ﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدىً لبني إسرائيل أن لا تتخذوا من دوني وكيلاً ذرية من حملنا مع نوح أنه كان عبداً شكوراً . وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ [الإسراء : ٢ ـ ٨] .

وقال وهب بن منبه أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له أرميا حين ظهرت فيهم المعاصي : أن قم بين ظهراني قومك فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفقهون ، وأعيناً ولا يبصرون ، وآذاناً ولا يسمعون ، وإني تذكرت صلاح آبائهم فعطفني ذلك على أبنائهم . فسلهم كيف وجدوا غب طاعتي ، وهل سعد أحد ممن عصاني بمعصيتي ، وهل شقي أحد ممن أطاعني بطاعتي ؟ إن الدواب تذكر أوطانها فتنزع إليها وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمت عليه آباءهم والتمسوا الكرامة من غير وجهها ، أما أحبارهم فأنكروا حقي وأما قراؤهم فعبدوا غيري ، وأما نساكهم فلم ينتفعوا بما علموا ، وأما ولاتهم فكذبوا عليّ وعلى رسلي . خزنوا المكر في قلوبهم وعوّدوا الكذب ألسنتهم . وإني أقسم بجلالي وعزتي لأهيجن عليهم جيولاً لا يفقهون ألسنتهم ، ولا يعرفون وجوههم ، ولا يرحمون بكاءهم ، ولأبعثن فيهم ملكاً جباراً قاسياً له عساكر كقطع السحاب ومواكب كأمثال الفجاج[٣] كأن خفقان راياته طيران النسور وكأن حمل فرسانه كر[٤]

---

(١) روى الخبر في تاريخه ٢ / ٣٨٤ تهذيب .

(٢) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٣) في الطبري : العجاج .

(٤) في الطبري : كرير .

العقبان يعيدون العمران خراباً ويتركون القرى وحشة ، فيا ويل أيليا وسكانها كيف أذللهم للقتل وأسلط عليهم السبا وأعيد بعد لجب الأعراس صراخاً ، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب، وبعد شرافات القصور مساكن السباع وبعد ضوء السرج وهج العجاج وبالعز ذلاً وبالنعمة العبودية وأبدلن نساءهم بعد الطيب التراب . وبالمشي على الزرابي الخبب ، ولأجعلن أجسادهم زبلاً للأرض وعظامهن ضاحية للشمس ولأدوسنهم بألوان العذاب ، ثم لآمرن السماء فتكون طبقاً من حديد والأرض سبيكة من نحاس ، فإن أمطرت لم تنبت الأرض ، وإن أنبتت شيئاً في خلال ذلك فبرحمتي للبهائم . ثم أحبسه في زمان الزرع وأرسله في زمان الحصاد ، فإن زرعوا في خلال ذلك شيئاً سلطت عليه الآفة فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة ، فإن دعوني لم أجبهم ، وإن سألوا لم أعطهم وإن بكوا لم أرحمهم ، وإن تضرعوا صرفت وجهي عنهم . رواه ابن عساكر بهذا اللفظ(١) .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا إدريس ، عن وهب بن منبه قال : إن الله تعالى لما بعث أرميا إلى بني إسرائيل وذلك حين عظمت الأحداث فيهم فعملوا بالمعاصي وقتلوا الأنبياء طمع بخت نصر فيهم وقذف الله في قلبه وحدث نفسه بالمسير إليهم لما أراد الله أن ينتقم به منهم فأوحى الله إلى أرميا إني مهلك بني إسرائيل ومنتقم منهم فقم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمري ووحيي فقام أرميا فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخر ساجداً وقال : يا رب وددت أمي لم تلدني حين جعلتني آخر أنبياء بني إسرائيل فيكون خراب بيت المقدس وبوار بني إسرائيل من أجلي فقال له : ارفع رأسك فرفع رأسه فبكى ثم قال : يا رب من تسلط عليهم فقال عبدة النيران لا يخافون عقابي ، ولا يرجون ثوابي ، قم يا أرميا فاستمع وحيي أخبرك خبرك وخبر بني إسرائيل . من قبل أن أخلقك اخترتك . ومن قبل أن أصورك في رحم أمك قدّستك ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك ، ومن قبل أن تبلغ نباتك ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك(٢) ولأمر عظيم أجتبيتك فقم مع الملك تسدده وترشده فكان مع الملك يسدده ويأتيه الوحي من الله حتى عظمت الأحداث [في بني اسرائيل وركبوا المعاصي واستحلوا المحارم] ونسوا ما نجاهم الله به من عدوهم سنحاريب وجنوده فأوحى الله إلى أرميا [أن ائت قومك من بني إسرائيل] قم فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمتي عليهم وعرفهم أحداثهم فقال أرميا : « يا رب إني ضعيف إن لم تقوني عاجز إن لم تبلغني مخطىء إن لم تسددني مخذول إن لم تنصرني ذليل إن لم تعزني » فقال تعالى : « أو لم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتي وأن الخلق والأمر كله لي وأن القلوب والألسنة(٣) كلها بيدي فأقلبها

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخه ٢/٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠ تهذيب . وروى الخبر الطبري في تاريخه مطولاً بنحوه ج ١/٢٨٦ وما بعدها .

(٢) في الطبري : اختبرتك .

(٣) في الطبري : والألسن .

كيف شئت فتطيعني فأنا الله الذي ليس شيء مثلي . قامت السموات والأرض وما فيهن بكلمتي . وإنه لا يخلص التوحيد ولم تتم القدرة إلا لي ، ولا يعلم ما عندي غيري . وأنا الذي كلمت البحار ففهمت قولي ، وأمرتها ففعلت امري ، وحددت عليها حدوداً فلا تعدو حدي ، وتأتي بأمواج كالجبال ، فإذا بلغت حدي البستها مذلة لطاعتي وخوفاً واعترافاً لأمري وإني معك ، ولن يصل إليك شيء معي ، وإني بعثتك إلى خلقٍ عظيم من خلقي لتبلغهم رسالاتي فتستوجب لذلك اجر من اتبعك ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . انطلق إلى قومك فقم فيهم وقل لهم إن الله قد ذكركم بصلاح آبائكم فلذلك استبقاكم يا معشر ابناء الأنبياء . وكيف وجد آباؤكم مغبة طاعتي ؟ وكيف وجدتم مغبة معصيتي ؟ وهل وجدوا احداً عصاني ؟ فسعد بمعصيتي ؟ أو هل علموا أحداً أطاعني فشقي بطاعتي ؟ إن الدواب إذا ذكرت أوطانها الصالحة نزعت إليها وإن هؤلاء القوم رتعوا في مروج الهلكة وتركوا الأمر الذي به اكرمت آباءهم وابتغوا الكرامة من غير وجهها . أما احبارهم ورهبانهم فإتخذوا عبادي خولاً يتعبدونهم ويعملون فيهم بغير كتابي حتى اجهلوهم امري وانسوهم ذكري وسنتي وعزوهم عني . فدان لهم عبادي بالطاعة التي لا تنبغي إلا لي فهم يطيعونهم في معصيتي .

وأما ملوكهم وامراؤهم فبطروا نعمتي وآمنوا مكري وغرتهم الدنيا حتى نبذوا كتابي ونسوا عهدي ، فهم يحترمون كتابي ويفترون على رسلي جراة منهم وغرة بي فسبحان جلالي وعلو مكاني ، وعظمة شأني هل ينبغي ان يكون لي شريك في ملكي ؟ وهل ينبغي لبشرٍ ان يُطاع في معصيتي ؟ وهل ينبغي لي أن اخلق عباداً اجعلهم ارباباً من دوني ؟ أو آذن لأحد بالطاعة لاحد ، وهي لا تنبغي إلا لي .

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون ما يتخيرون فينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التي يبتدعون في ديني ، ويطيعونهم في معصيتي ، ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدي ، فهم جهلة بما يعملون لا ينتفعون بشيءٍ مما علموا من كتابي .

وأما أولاد النبيين ، فمقهورون ومفتونون ، يخوضون مع الخائضين ، يتمون مثل نصري آباءهم والكرامة التي اكرمتهم بها ، ويزعمون انه لا احد أولى بذلك منهم بغير صدقٍ منهم ولا تفكر ولا يذكرون كيف كان صبر آبائهم . وكيف كان جهدهم في أمري حين اغتر المغترون ، وكيف بذلوا انفسهم ودماءهم بصروا وصدقوا حتى عز أمري وظهر ديني فتأنيت هؤلاء القوم لعلهم يستحيون مني . فتطولت عليهم وصفحت عنهم فأكثرت ومددت لهم في العمر ، وأعذرت لهم لعلهم يتذكرون . وكل ذلك أمطر عليهم السماء وانبت لهم الأرض والبسهم

العافية وأظهرهم على العدو ، ولا يزدادون إلاّ طغياناً وبعداً مني ، فحتى متى هذا ؟ أبي يسخرون ؟ أم بي يتحرشون ؟ أم إياي يخادعون ؟ أم عليّ يجترئون فإني أقسم بعزتي لأتيحن عليهم فتنة يتحير فيها الحكيم[1] ، ويضل فيها رأي ذوي الرأي وحكمة الحكيم ، ثم لأسلطن عليهم جباراً قاسياً عاتياً ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة ، وآليت أن يتبعه عدد وسواد مثل [سواد] الليل المظلم . له فيه عساكر مثل قطع السحاب ومواكب مثل العجاج ، وكأن حفيف[2] راياته طيران النسور وحمل فرسانه كسرب[3] العقبان يعيدون العمران خراباً والقرى وحشاً ويعثون في الأرض فساداً ويتبرون ما علوا تتبيراً قاسية قلوبهم لا يكترثون ولا يرقبون ولا يرحمون، ولا يبصرون ولا يسمعون يجولون في الأسواق بأصوات مرتفعة مثل زئير الأسد تقشعر من هيبتها الجلود وتطيش من سمعها الأحلام بألسنة لا يفقهونها ووجوه ظاهر عليها المنكر لا يعرفونها . فوعزتي لأعطلن بيوتهم من كتبي وقدسي ولأخلين مجالسهم من حديثها ودروسها ولأوحشن مساجدهم من عمارها وزوارها الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيري ، ويتهجدون فيها ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين ، ويتفقهون فيها لغير الدين ويتعلمون فيها لغير العمل ، لأبدلن ملوكها بالعز الذل وبالأمن الخوف وبالغنى الفقر وبالنعمة الجوع وبطول العافية والرخاء أنواع البلاء وبلباس الديباج والحرير مدارع الوبر والعباء ، وبالأرواح الطيبة والأدهان جيف القتلى ، وبلباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والأغلال . ثم لأعيدن فيهم بعد القصور الواسعة ، والحصون الحصينة الخراب ، وبعد البروج المشيدة مساكن السباع ، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب ، وبعد ضوء السراج دخان الحريق ، وبعد الأنس الوحشة والقفار . ثم لأبدلن نساءها بالأسورة الأغلال ، وبقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد . وبألوان الطيب والأدهان النقع والغبار ، وبالمشي على الزرابي عبور الأسواق والأنهار والخبب إلى الليل في بطون الأسواق ، وبالخدور والستور الحسور عن الوجوه ، والسوق والأسفار والأرواح السموم . ثم لأدوسنهم بأنواع العذاب حتى لو كان الكائن منهم في حالق[4] لوصل ذلك إليه ، إني إنما أكرم من أكرمني ، وإنما أهين من هان عليه أمري . ثم لآمرن السماء خلال ذلك فلتكونن عليهم طبقاً من حديد ولآمرن الأرض فلتكونن سبيكة من نحاس فلا سماء تمطر ولا أرض تنبت . فإن أمطرت خلال ذلك شيئاً سلطت عليهم الآفة فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة ، وإن دعوني لم أجبهم وإن سألوني لم أعطهم وإن بكوا لم أرحمهم ، وإن تضرعوا إليّ صرفت وجهي عنهم . وإن قالوا اللهم أنت الذي ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا برحمتك وكرامتك ، وذلك بأنك اخترتنا لنفسك ، وجعلت فينا نبوتك وكتابك ومساجدك ثم مكنت لنا في البلاد ،

---

(١) في الطبري : الحليم .

(٢) في الطبري : خفيق .

(٣) في الطبري ١/٢٨٧ : كرير العقبان .

(٤) حالق : المكان المرتفع .

واستخلفتنا فيها وربيتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغاراً، وحفظتنا وإياهم برحمتك كباراً فأنت أوفى المنعمين وإن غيّرنا . ولا تبدل . وإن بدلنا ، وإن تتم فضلك ومنك وطولك وإحسانك ، فإن قالوا ذلك قلت لهم إني ابتدىء عبادي برحمتي ونعمتي . فإن قبلوا أتممت وإن استزادوا زدت ، وإن شكروا ضاعفت ، وإن غيروا غيرت ، وإذا غيروا غضبت . وإذا غضبت عذبت وليس يقوم شيء بغضبي .

قال كعب : فقال أرميا : برحمتك أصبحت أتعلم بين يديك ، وهل ينبغي ذلك لي وأنا أذل وأضعف من أن ينبغي لي أن أتكلم بين يديك ، ولكن برحمتك أبقيتني لهذا اليوم ، وليس أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد مني بما رضيت به مني طولاً ، والإقامة في دار الخاطئين وهم يعصونك حولي بغير نكر ولا تغيير مني ، فإن تعذبني فبذنبي ، وإن ترحمني فذلك ظني بك . ثم قال : يا رب سبحانك وبحمدك ، وتباركت ربنا وتعاليت أتهلك هذه القرية وما حولها وهي مساكن أنبيائك ومنزل وحيك ؟ يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت لمخرب هذا المسجد وما حوله من المساجد ومن البيوت التي رفعت لذكرك ، يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت وتعاليت لمقتل هذه الأمة وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك ، وأمة موسى نجيك ، وقوم داود صفيك ، يا رب أي القرى تأمن عقوبتك بعد؟ وأي العباد يأمنون سطوتك بعد ولد خليلك إبراهيم ؟ وأمة نجيك موسى ؟ وقوم خليفتك داود ؟ تسلط عليهم عبدة النيران قال الله تعالى : « يا أرميا من عصاني فلا يستنكر نقمتي ، فإني إنما أكرمت هؤلاء القوم على طاعتي ، ولو أنهم عصوني لأنزلتهم دار العاصين إلا أن أتداركهم برحمتي » .

قال أرميا : يا رب اتخذت إبراهيم خليلاً وحفظتنا به . وموسى قربته نجياً فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تسلط علينا عدونا فأوحى الله إليه : « يا أرميا إني قدستك في بطن أمك وأخرتك إلى هذا اليوم فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل لكنت الداعم لهم وكانوا عندي بمنزلة جنة ناعم شجرها طاهر ماؤها ولا يغور ماؤها ولا تبور ثمارها ولا تنقطع ، ولكن سأشكو إليك بني إسرائيل : إني كنت لهم بمنزلة الداعي الشفيق أجنبهم كل قحط وكل عسرة وأتبع بهم الخصب حتى صاروا كباشاً ينطح بعضها بعضاً فيا ويلهم ثم يا ويلهم إنما أكرم من أكرمني وأهين من هان عليه أمري ، إن من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخفون بمعصيتي ، وإن هؤلاء القوم يتبرعون بمعصيتي تبرعاً فيظهرونها في المساجد والأسواق وعلى رؤوس الجبال وظلال الأشجار حتى عجت السماء إليّ منهم وعجت الأرض والجبال ، ونفرت منها الوحوش بأطراف الأرض وأقاصيها وفي كل ذلك لا ينهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب » .

قال فلما بلّغهم أرميا رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه واتهموه وقالوا : « كذبت وأعظمت على الله الفرية فتزعم أن الله معطل أرضه ومساجده من كتابه وعبادته

وتوحيده فمن يعبده حين لا يبقى له في الأرض عابدٍ ولا مسجد ولا كتاب ، لقد أعظمت الفرية على الله واعتراك الجنون » فأخذوه وقيدوه وسجنوه فعند ذلك بعث الله عليهم بخت نصر فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم ثم حاصرهم فكان كما قال تعالى : ﴿ فجاسوا خلال الديار ﴾ [الإسراء : ٥] قال فلما طال بهم الحصر نزلوا على حكمه ففتحوا الأبواب وتخللوا الأزقة وذلك قوله : ﴿ فجاسوا خلال الديار ﴾ وحكم فيهم حكم الجاهلية وبطش الجبارين فقتل منهم الثلث ، وسبى الثلث، وترك الزمنى[1] ، والشيوخ والعجائز ثم وطئهم بالخيل وهدم بيت المقدس وساق الصبيان ، وأوقف النساء في الأسواق حاسرات ، وقتل المقاتلة وخرب الحصون ، وهدم المساجد ، وحرق التوراة ، وسأل عن دانيال الذي كان قد كتب له الكتاب ، فوجدوه قد مات وأخرج أهل بيته الكتاب إليه وكان فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر وميشائيل وعزرائيل وميخائيل فأمضى لهم ذلك الكتاب وكان دانيال بن حزقيل خلفاً من دانيال الأكبر . ودخل بخت نصر بجنوده بيت المقدس ووطىء الشام كلها وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم . فلما فرغ منها انصرف راجعاً وحمل الأموال التي كانت بها ، وساق السبايا فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألف[2] غلام وقذف الكناسات في بيت المقدس وذبح فيه الخنازير ، وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود ، وأحد عشر ألفاً من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين وثمانية آلاف من سبط ايشى بن يعقوب وأربعة عشر ألفاً من سبط زبالون ونفتالي ابني يعقوب وأربعة عشر ألفاً من سبط دان بن يعقوب وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب وألفين من سبط زيكون[3] بن يعقوب وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوي واثني عشر ألفاً من سائر بني إسرائيل وانطلق حتى قدم أرض بابل .

قال إسحاق بن بشر : قال وهب بن منبه : فلما فعل ما فعل قيل له : كان لهم صاحب يحذرهم ما أصابهم ويصفك وخبرك لهم ، ويخبرهم أنك تقتل مقاتلتهم ، وتسبي ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم فكذبوه واتهموه وضربوه وقيدوه وحبسوه . فأمر بخت نصر فأخرج أرميا من السجن فقال له أكنت تحذر هؤلاء القوم ما أصابهم ؟ قال : نعم قال : فأنّى علمت ذلك ؟ قال أرسلني الله إليهم فكذبوني قال كذبوك وضربوك وسجنوك قال : نعم قال : « بئس القوم قوم كذبوا نبيهم وكذبوا رسالة ربهم فهل لك أن تلحق بي فأكرمك وأواسيك وإن أحببت أن تقيم في بلادك فقد أمنتك » قال له أرميا : إني لم أزل في أمان الله منذ كنت ، لم أخرج منه ساعة قط ، ولو أن بني

---

(١) الزمنى : أصحاب العاهات .

(٢) في الطبري : سبعين الف صبي . أراد أن يقسمهم على جنوده ، فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمة .

(٣) في نسخ البداية المطبوعة : زبالون وهو تحريف وسقطت من الطبري ؛ وفيه زاد : وأربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب .

إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك ولم يكن لك عليهم سلطان فلما سمع بخت نصر هذا القول منه تركه ، فأقام أرميا مكانه بأرض أيليا . وهذا سياق غريب . وفيه حكم ومواعظ وأشياء مليحة وفيه من جهة التعريب غرابة .

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي : كان بخت نصر أصفهبذا لما بين الأهواز إلى الروم للملك على الفرس وهو لهراسب . وكان قد بنى مدينة بلخ التي تلقب بالخنساء[1] ، وقاتل الترك وألجأهم إلى أضيق الأماكن وبعث بخت نصر لقتال بني إسرائيل بالشام فلما قدم الشام صالحه أهل دمشق ، وقد قيل إن الذي بعث بخت نصر إنما هو بهمن ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب وذلك لتعدي بني إسرائيل على رسله إليهم . وقد روى ابن جرير : عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن سعيد بن المسيب : أن بخت نصر لما قدم دمشق وجد بها دماً يغلي على كبا يعني القمامة فسألهم ما هذا الدم ؟ فقالوا أدركنا آباءنا على هذا وكلما ظهر عليه الكبا ظهر قال فقتل على ذلك سبعين الفاً من المسلمين وغيرهم فسكن . وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب وقد تقدم من كلام الحافظ ابن عساكر ما يدل على أن هذا دم يحيى بن زكريا وهذا لا يصح لأن يحيى بن زكريا بعد بخت نصر بمدة والظاهر أن هذا دم نبي متقدم أو دم لبعض الصالحين أو لمن شاء الله ممن الله أعلم به .

قال هشام بن الكلبي ثم قدم بخت نصر بيت المقدس فصالحه ملكها وكان من آل داود وصانعه عن بني إسرائيل وأخذ منه بخت نصر رهائن ورجع . فلما بلغ طبرية بلغه أن بني إسرائيل ثاروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحه فضرب رقاب من معه من الرهائن ورجع إليهم فأخذ المدينة عنوة . وقتل المقاتلة وسبى الذرية . قال وبلغنا أنه وجد في السجن أرميا النبي فأخرجه وقص عليه ما كان من أمره إياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذبوه وسجنوه . فقال بخت نصر : بئس القوم قوم عصوا رسول الله وخلى سبيله وأحسن إليه واجتمع إليه من بقي من ضعفاء بني إسرائيل فقالوا : إنا قد أسأنا وظلمنا ونحن نتوب إلى الله عزَّ وجلَّ مما صنعنا فادع الله أن يقبل توبتنا فدعا ربه فأوحى الله إليه أنه غير فاعل[2] فإن كانوا صادقين فليقيموا معك بهذه البلدة فأخبرهم ما أمره الله تعالى به فقالوا كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وغضب الله على أهلها فأبوا أن يقيموا[3] .

قال ابن الكلبي : ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل في البلاد فنزلت طائفة منهم الحجاز وطائفة يثرب وطائفة وادي القرى[4] ، وذهبت شرذمة منهم إلى مصر فكتب بخت نصر إلى ملكها

(١) في الطبري : الحسناء .

(٢) في الطبري : أنهم غير فاعلين .

(٣) الخبر في الطبري (ج ١ / ٢٨١ قاموس حديث) .

(٤) العبارة في الطبري : ونزل بعضهم أرض الحجاز بيثرب ووادي القرى وغيرها .

يطلب منه من شرد منهم إليه ، فأبى عليه فركب في جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبى ذراريهم . ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية. قال ثم انصرف بسبي كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن وفي السبي دانيال [وغيره من الأنبياء][١]. قلت والظاهر أنه دانيال بن حزقيل الأصغر لا الأكبر على ما ذكره وهب بن منبه والله أعلم .

[ذكر][٢] شيء من خبر دانيال عليه السلام

قال ابن أبي الدنيا : حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الشيباني قال : إن لم أكن سمعته من شعيب ابن صفوان فحدثني بعض أصحابنا عنه، عن الأجلح الكندي ، عن عبد الله بن أبي الهذيل ، قال ضرا بخت نصر أسدين فألقاهما في جب ، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه ، فمكث ما شاء الله ثم اشتهى ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب ، فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام : أن اعدد طعاماً وشراباً لدانيال فقال يا رب أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق فأوحى الله إليه أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت . ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب فقال دانيال من هذا ؟ قال : أنا أرميا . فقال : ما جاء بك ؟ فقال : أرسلني إليك ربك . قال وقد ذكرني ربي ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره . والحمد لله الذي يجيب من رجاه. والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره . والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً . والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة . والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا بعد كربنا . والحمد لله الذي يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين ينقطع الحيل عنا .

وقال يونس بن بكير : عن محمد بن إسحق ، عن أبي خلد بن دينار ، حدثنا أبو العالية قال : لما افتتحنا تستر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعباً فنسخه بالعربية . فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا . فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟ قال سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه . قلت : فما يرجون منه ، قال : كانت السماء إذا حبست عنهم [المطر][٣] برزوا بسريره فيمطرون . قلت : من كنتم تظنون الرجل قال رجل يقال له دانيال قلت منذ كم وجدتموه قد مات قال منذ ثلثمائة سنة قلتَ : ما تغير منه شيء قال لا إلاّ شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض

---

(١) من الطبري .

(٢) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٣) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

ولا تأكلها السباع . وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً من ثلثمائة سنة فليس بنبي بل هو رجل صالح لأن عيسى بن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي في البخاري والفترة التي كانت بينهما أربعمائة سنة ؟ وقيل ستمائة وقيل ستمائة وعشرون سنة وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ولكن قربت الظنون أنه دانيال لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجوناً كما تقدم . وقد روي بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شبر . وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع فيحتمل على هذا أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد والله أعلم .

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب أحكام القبور : حدثنا أبو بلال محمد بن الحارث بن عبد الله بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، حدثنا أبو محمد القاسم بن عبد الله ، عن أبي الأشعث الأحمري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن دانيال دعا ربه عزّ وجلّ أن تدفنه أمة محمد ، فلما افتتح أبو موسى الأشعري تستر وجده في تابوت تضرب عروقه ووريده وقد كان رسول الله ﷺ قال من دل على دانيال فبشروه بالجنة . فكان الذي دل عليه رجل يقال له حرقوص فكتب أبو موسى إلى عمر بخبره فكتب إليه عمر أن أدفنه وابعث إلى حرقوص فإن النبي ﷺ بشره بالجنة وهذا مرسل من هذا الوجه وفي كونه محفوظاً نظر والله أعلم .

ثم قال ابن أبي الدنيا : حدثنا أبو بلال ، حدثنا قاسم بن عبد الله ، عن عنبسة بن سعيد وكان عالماً ، قال : وجد أبو موسى مع دانيال مصحفاً وجرة فيها ودك ودراهم وخاتمه ، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر : أما المصحف فابعث به إلينا وأما الودك فابعث إلينا منه ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به واقسم الدراهم بينهم وأما الخاتم فقد نفلناكه . وروي عن ابن أبي الدنيا من غير وجه : أن أبا موسى لما وجده وذكروا له أنه دانيال التزمه وعانقه وقبله . وكتب إلى عمر يذكر له أمره وأنه وجد عنده مالاً موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم وكان من جاء اقترض منها فإن ردها وإلا مرض وإن عنده ربعة[1] فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر[2] ويكفن ويدفن ويخفى قبره ، فلا يعلم به أحد وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال وبالربعة فتحمل إليه ونفله خاتمه . وروي عن أبي موسى : أنه أمر أربعة من الاسراء فسكروا نهراً[3] وحفروا في وسطه قبراً فدفنه فيه ثم قدم الأربعة الاسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع[4] قبره غير أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

---

(١) ربعة : صندوق تحفظ فيه الأوراق وأجزاء القرآن .

(٢) سدر : شجرة النبق .

(٣) سكروا نهراً : سدوه .

(٤) في نسخة : مكان قبره ؛ وقال في المعارف : إن قبره كان بناحية السوس ، ويقول صاحب أخبار الدول أن أبا ـ

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني إبراهيم بن عبد الله ، حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح ، حدثنا ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه قال : رأيت في يد ابن بردة بن أبي موسى الأشعري خاتماً نقش فصه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل قال أبو بردة هذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه . قال أبو بردة فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا : إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له انه يولد ليلة كذا وكذا غلام يعور[1] ملكك ويفسده فقال الملك والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلاّ قتلته إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه في أجمة الأسد فبات الأسد ولبوته يلحسانه ولم يضراه فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ قال أبو بردة قال أبو موسى قال : علماء تلك القرية فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه لئلا ينسى نعمة الله عليه في ذلك . إسناد حسن .

[ذكر][2] عمارة بيت المقدس بعد خرابها واجتماع [الملأ من][2] بني اسرائيل بعد تفرقهم في بقاع الأرض [وشعابها][2]

قال الله تعالى في كتابه المبين وهو أصدق القائلين : ﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها . قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : ٢٥٩] قال هشام بن الكلبي : ثم أوحى الله تعالى إلى أ عليه السلام فيما بلغني : أني عامر بيت المقدس فاخرج إليها فانزلها ، فخرج حتى قدمها خراب ، فقال في نفسه : سبحان الله أمرني الله أن أنزل هذه البلدة وأخبرني أنه عامرها فمتى يعمرها ؟ ومتى يحييها الله بعد موتها ؟ ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره وسلة من طعام[3] فمكث في نومه سبعين[4] سنة حتى هلك بخت نصر والملك الذي فوقه وهو لهراسب وكان ملكه مائة وعشرين سنة وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب وكان موت بخت نصر في دولته فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب وأن السباع قد كثرت في أرض فلسطين فلم يبق بها من الأنس أحد فنادى في أرض بابل في

= موسى وجده في العراق . وقال ابن الأثير في كامله : وأما دانيال فإنه أقام بأرض بابل وانتقل عنها ومات ودفن بالسوس من أعمال خوزستان ١ /٢٦٨ .

(١) يعور ملكه : يهلكه .

(٢) ما بين معكوفين سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٣) عصير من عنب في ركوة وسلة تين ؛ في رواية أخرى للطبري، .

(٤) فأماته الله مائة عام . في رواية أخرى عند الطبري .

بني إسرائيل : أن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع وملك عليهم رجلاً من آل داود وأمره أن يعمر بيت المقدس ويبني مسجدها فرجعوا فعمروها وفتح الله لأرميا عينيه فنظر إلى المدينة كيف تبنى وكيف تعمر ومكث في نومه ذلك حتى تمت له مائة سنة ثم بعثه الله وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعة وقد عهد المدينة خراباً فلما نظر إليها عامرة آهلة قال أعلم أن الله على كل شيء قدير . قال فأقام بنو إسرائيل بها ورد الله عليهم أمرهم فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم في زمن ملوك الطوائف . ثم لم يكن لهم جماعة ولا سلطان يعني بعد ظهور النصارى عليهم . هكذا حكاه ابن جرير في تاريخه عنه[١] . وذكر ابن جرير أن لهراسب كان ملكاً عادلاً سائساً لمملكته قد دانت له العباد والبلاد والملوك والقواد وأنه كان ذا رأي جيد في عمارة الأمصار والأنهار والمعاقل . ثم لما ضعف عن تدبير المملكة بعد مائة سنة ونيف نزل عن الملك لولده بشتاسب فكان في زمانه ظهور دين المجوسية وذلك أن رجلاً كان اسمه زردشت كان قد صحب أرميا عليه السلام فأغضبه فدعا عليه أرميا فبرص زردشت فذهب فلحق بأرض آذربيجان وصحب بشتاسب فلقنه دين المجوسية الذي اخترعه من تلقاء نفسه فقبله منه بشتاسب وحمل الناس عليه وقهرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ممن اباه منهم . ثم كان بعد بشتاسب بهمن بن بشتاسب وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين وقد ناب بخت نصر لكل واحد من هؤلاء الثلاثة وعمر دهراً طويلاً قبحه الله . والمقصود أن هذا الذي ذكره ابن جرير من أن هذا المار على هذه القرية هو أرميا عليه السلام . قال[٢] وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد بن عمير وغيرهما وهو قوي من حيث السياق المتقدم وقد روي عن علي وعبد الله بن سلام وابن عباس والحسن وقتادة والسدي وسليمان بن بريدة وغيرهم أنه عزير . وهذا اشهر عند كثير من السلف والخلف والله أعلم .

وهذه قصة العزير

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : هو عزير بن جروة ويقال بن سوريق بن عديا بن أيوب ابن درزنا بن عرى بن تقى بن أسبوع بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران . ويقال عزير بن سروخا جاء في بعض الآثار أن قبره بدمشق . ثم ساق من طريق أبي القاسم البغوي ، عن داود بن عمرو عن حبان بن علي ، عن محمد بن كريب ، عن أبيه ، عن ابن عباس مرفوعاً لا أدري العين بيع أم لا ولا أدري أكان عزير نبياً أم لا ثم رواه من حديث مؤمل بن الحسن عن محمد بن إسحاق السجزي ، عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن أبي ذئب[٣]، عن سعيد المقبري ، عن أبي

(١) تاريخ الطبري (١/٢٨١ - ٢٨٢ قاموس حديث) .

(٢) في نسخ البداية المطبوعة : قال وهو تحريف .

(٣) في نسخ البداية المطبوعة : ابن أبي ذؤيب وهو تحريف . وابن أبي ذئب هو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة ، أبو الحارث أحد الأعلام روى عن عكرمة ونافع والزهري وعنه معمر وغيره . ثقة وكان يفتي بالمدينة . توفي سنة ١٥٩ الكاشف ج ٣/٦٢.

هريرة مرفوعـا نحوه . ثم روي من طـريق إسحاق بن بشر وهـو متروك عن جـويبر ومقـاتل عن الضحاك عن ابن عباس أن عزيراً كان ممن سباه بخت نصر وهو غلام حدث فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة قال ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه قال وكان يذكر مع الأنبياء حتى محى الله اسمه من ذلك حين سأل ربه عن القدر . وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر والله أعلم .

وقـال إسحـاق بن بشر : عن سعيـد ، عن أبي عـروبـة ، عن قتـادة ، عن الحسن ، عن عبد الله بن سلام : أن عزيراً هو العبد الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه. وقال إسحاق بن بشر : انبـأنا سعيـد بن بشير ، عن قتـادة ، عن كعب وسعيد بن أبي عـروبة ، عن قتـادة ، عن الحسن ومقاتل وجويبر عن الضحاك عن ابن عباس وعبد الله بن إسماعيل السدي عن أبيه ، عن مجاهد ، عن ابن عباس وإدريس عن جده وهب بن منبه قال إسحاق : كل هؤلاء حدثوني عن حديث عزير وزاد بعضهم على بعض قالوا بإسنادهم أن عزيراً كان عبداً صالحاً حكيماً خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر ودخل الخربة وهو على حماره فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب فنزل في ظل تلك الخربة وأخـرج قصعة معـه فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه في تلك القصعة في العصير ليبتل ليأكله ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهي قائمة على عروشها وقد باد أهلهـا ورأى عظامـاً باليـة فقال : ﴿ أنى يحيي هذه الله بعد موتها ﴾ فلم يشك أن الله يحييها ولكن قالها تعجباً فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فأماته الله مائة عام . فلما أتت عليه مائة عام ، وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيـل أمور وأحـداث قال : فبعث الله إلى عزير ملكاً فخلق قلبه ليعقل قلبه وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيي الله الموتى . ثم ركب خلقه وهو ينظر ثم كسى عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فيه الروح كل ذلك وهو يرى ويعقل فاستوى جالساً فقال له الملك كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة وبعث في آخر النهار والشمس لم تغب فقال أو بعض يوم ولم يتم لي يوم فقال له الملك بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك يعني الطعام الخبز اليابس وشرابه العصير الذي كان اعتصره في القصعة فإذا هما على حالهما لم يتغير العصير والخبز يابس فذلك قوله : ﴿ لم يتسنه ﴾ يعني لم يتغير وكذلك التين والعنب غض لم يـتـغـيـر شـيء من حالهما فكأنه أنكر في قلبه فقال له الملك : أنكرت ما قلت لك انظر إلى حمارك فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة فنادى الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحيـة حتى ركبه الملك وعـزير ينـظر إليه ثم ألبسهـا العروق والعصب ثم كساها اللحم ثم أنبت عليها الجلد والشعر ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً يظن القيامة قد قامت فذلك قوله : ﴿ وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحما ﴾ يعني وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضاً في أوصالها حتى إذا صارت عظاماً مصوراً حماراً بلا لحم ثم انظر كيف نكسوها لحماً فلما

نبين له قال اعلم أن الله على كل شيء قدير من إحياء الموتى وغيره[1] : قال فركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر منزله فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة ، كانت أمة لهم فخرج عنهم عزير وهي بنت عشرين سنة كانت عرفته وعقلته فلما أصابها الكبر أصابها الزمانة[2] . فقال لها عزير يا هذه أهذا منزل عزير قالت : نعم هذا منزل عزير فبكت وقالت ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عزيراً وقد نسيه الناس قال فإني أنا عزير كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني قالت سبحان الله فإن عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة فلم نسمع له بذكر قال : فإني أنا عزير قالت : فإن عزيراً رجل مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء فادع الله أن يرد عليّ بصري حتى أراك فإن كنت عزيراً عرفتك . قال فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال : قومي باذن الله فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال[3] فنظرت فقالت : أشهد أنك عزير وانطلقت إلى محلة بني إسرائيل ، وهم في أنديتهم ومجالسهم وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثماني عشر[4] سنة وبني بنيه شيوخ في المجلس فنادتهم فقالت : هذا عزير قد جاءكم فكذبوها ، فقالت : أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فرد عليّ بصري واطلق رجلي وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه قال : فنهض الناس ، فأقبلوا إليه فنظروا إليه فقال ابنه كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير فقالت بنو إسرائيل فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير وقد حرق بخت نصر التوراة ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال فاكتبها لنا وكان أبوه سروخاً وقد دفن التوراة أيام بخت نصر في موضع يعرفه أحد غير عزير فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب قال وجلس في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان[5] حتى دخلا جوفه فتذكر التوراة فجددها لبني إسرائيل[6] . فمن ثم قالت اليهود عزير ابن الله للذي كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بني إسرائيل وكان جدد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقيل . والقرية التي مات فيها يقال لها سايراباذ . قال ابن عباس فكان كما قال الله تعالى : ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ يعني لبني

(١) الخبر رواه الطبري في تاريخه ١/٢٨٩ وفيه أن الذي أماته الله أرميا وليس عزيراً .

(٢) الزمانة : العاهة .

(٣) عقال : قيد .

(٤) في الكامل لابن الأثير : مائة وثلاث عشرة سنة ؛ ١/٢٧٠ .

(٥) في الطبري والكامل : بعث الله ملكاً في صورة انسان ، أتاه باناء فيه ماء فسقاه من ذلك الاناء فتمثلت التوراة في صدره [عزير] .

(٦) زاد الطبري : فصاروا يعرفونها بحلالها وحرامها وسننها وفرائضها وحدودها ؛ وقامت التوراة بين أظهرهم وصلح بها أمرهم .

إسرائيل . وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب لأنه مات وهو ابن أربعين سنة فبعثه الله شاباً كهيئة يوم مات قال ابن عباس بعث بعد بخت نصر وكذلك قال الحسن ، وقد أنشد أبو حاتم السجستاني في معنى ما قاله ابن عباس :

واسودّ رأسٌ شابَ من قبله ابنُهُ ... ومن قبلِهِ ابنُ ابنـهِ فهـو أكبـرُ
يرى ابنه شيخاً يدبّ على عصا ... ولحيتُـه سـوداء والـرأسُ أشقـرُ
وما لابنهِ حَيْـلٌ ولا فضْـلُ قـوّةٍ ... يقـومُ كـما يمشي الصبيّ فيعـثرُ
يعدّ ابنه في النّاسِ تسعينَ حُجة ... وعشـرين لا يجـري ولا يَتَبخْـتَر
وعمـرُ أبيـهِ أربَعـون أمـرَهـا ... ولانَ ابنَـه تِسْعون في النـاسِ غُبـر
فما هُو في المَعْقـولِ إنْ كنتَ داريـاً ... وإن كنتَ لا تَـدْري فبالجَهْـل تُعْذرُ

فصل

المشهور أن عزيراً نبي من أنبياء بني إسرائيل[1] ، وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى ، وأنه لما لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها فسردها على بني إسرائيل كما قال وهب بن منبه أمر الله ملكاً فنزل بمعرفة[2] من نور فقذفهـا في عزيـر فنسخ التـوراة حرفاً بحرف حتى فرغ منها . وروى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾ [البقرة: ٣٠] لم قالوا ذلك ؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كتبه لبني إسرائيل التوراة من حفظه وقول بني إسرائيل لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلاّ في كتاب وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب فرماه طوائف منهم وقالوا عزير ابن الله . ولهذا يقول كثير من العلماء : إن تواتر التوراة انقطع في زمن العزير . وهذا متجه جداً إذا كان العزيز غير بني كما قاله عطاء بن أبي رباح والحسن البصري ، وفيما رواه إسحاق بن بشر عن مقاتل بن سليمان ، عن عطاء ، وعن عثمان بن عطاء الخراساني ، عن أبيه ومقاتل عن عطاء بن أبي رباح قال : كان في الفترة تسعة أشياء بخت نصر وجنة صنعاء وجنة سبا وأصحاب الأخدود وأمر حاصورا وأصحاب الكهف وأصحاب الفيل ومدينة انطاكية وأمر تبع . وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا سعيد عن قتادة ، عن الحسن قال : كان أمر عزير وبخت نصر في الفترة . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إن أولى الناس بابن مريم [الأنبياء أولاد علات][3] لانا إنه ليس بيني وبينه نبي »[4] .

---

(١) ذكره المسعودي بين الأنبياء وقال : وقد تنازع الناس في نبوته . وقال ابن قتيبة في المعارف : أن الله محا أسمه من الأنبياء لأنه أكثر المناجاة في القدر .

(٢) تقدم في الطبري : أن الملك أتى عزير باناء ماء وسقاه منه فتمثلت التوراة في صدره .

(٣) ما بين معكوفين سقط من نسخ البداية المخطوطة والمطبوعة . واستدرك من نص الحديث .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في ٤٣/٤٠/١٤٣، ١٤٤، ١٤٥ وفي رواية : قال رسول الله ﷺ : أنا أولى الناس ...

وقال وهب بن منبه كان فيما بين سليمان وعيسى عليهما السلام . وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب أن عزيراً كان في زمن موسى بن عمران وأنه استأذن عليه فلم يأذن له يعني لما كان من سؤآله عن القدر وأنه انصرف وهو يقول مائة موتة أهون من ذل ساعة وفي معنى قول عزير مائة موتة أهون من ذل ساعة قول بعض الشعراء :

قَدْ يَصْبِرُ الحرُّ على السَّيفِ ويأنَفُ الصبرَ على الحيْفِ
ويؤثرُ الموتَ على حالةٍ يعجزُ فيها عن قِرى الضَّيفِ

فأما ما روى ابن عساكر وغيره عن ابن عباس ونوف البكالي وسفيان الثوري وغيرهم من أنه سأل عن القدر فمحى اسمه من ذكر الأنبياء فهو منكر وفي صحته نظر وكأنه مأخوذ عن الاسرائيليات وقد روى عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجوني عن نوف البكالي قال قال عزير فيما يناجي ربه : « يا رب تخلق خلقاً فتضل من تشاء وتهدي من تشاء » فقيل له أعرض عن هذا فعاد فقيل له لتعرض عن هذا أو لأمحون اسمك من الأنبياء إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون وهذا لا يقتضي وقوع ما توعد عليه لو عاد فما محيا اسمه والله أعلم .

وقد روى الجماعة سوى الترمذي من حديث يونس بن يزيد ، عن الزهري ، عن سعيد وأبي سلمة عن أبي هريرة ، وكذلك رواه شعيب عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ثم أمر بها فأحرقت بالنار فأوحى الله إليه مهلاً نملة واحدة»[1] . فروى إسحاق بن بشر : عن ابن جريج ، عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه أنه عزير . وكذا روى عن ابن عباس والحسن البصري أنه عزير فالله أعلم .

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال الله تعالى في كتابه العزيز بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيا . قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً . وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً . يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا . قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً . قال

= بعيسى مريم . . . في الأولى والآخرة؟ . . قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : « الأنبياء أخوة من علات . . . وأمهاتهم شتى . . . فليس بيننا نبي » حديث رقم ١٤٥ .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥٩/١٦/٣٣١٩ فتح الباري ؛ ومسلم في صحيحه ٣٩/٣٩/١٤٨، ١٤٩، ١٥٠ وأحمد في مسنده ج ٢/٣١٢، ٤٤٩ وأبو داود والنسائي في سننيهما .

كذلك قال ربك هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال رب اجعل لي اية قال ايتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً . فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً . يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً . وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقيا . وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ [مريم : ١ - ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين . قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء . قال رب اجعل لي آية . قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار ﴾ [آل عمران : ٣٧ - ٤١] .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى واصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ [الأنبياء : ٨٩ - ٩٠] وقال تعالى : ﴿ وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين ﴾ [الأنعام : ٨٥] . قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في كتابه التاريخ المشهور الحافل . زكريا بن برخيا ويقال زكريا بن دان ، ويقال زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن شلوم بن بهناشاط بن اينا من بن رحبعام بن سليمان بن داود أبو يحيى النبي عليه السلام من بني إسرائيل . دخل البثينة من أعمال دمشق في طلب ابنه يحيى . وقيل إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى والله أعلم . وقد قيل غير ذلك في نسبه[1] ويقال فيه زكريا بالمد وبالقصر ويقال زكرى أيضاً .

---

(١) ذكر المسعودي في مروج الذهب : زكريا بن أدق من ولد داود من سبط يهوذا . وقال ابن قتيبة في المعارف : زكريا بن أزن من ولد داود من سبط يهوذا .
ولم يذكر نسب زكريا في القرآن ولا في كتب الأنبياء عند أهل الكتاب .
قال النجار في قصص الأنبياء مشككاً في نسبة المتداول : ويوجد زكريا - آخر - ليس له صة في القرآن أصلاً ، وهذا له كتاب من الكتب القانونية عند النصارى . وهو زكريا بن برخيا وكان في زمن داريوس أي قبل زمن المسيح بما يقرب من ثلاثة قرون . والنصارى يؤولونه بالمسيح واليهود يؤولونه بمسيحهم المنتظر وهو المسيح الدجال .
أما زكريا أبو يحيى فيظهر أنه كان ممن لهم شركة في خدمة الهيكل وعلى ذلك فهو لاوي . ص ٣٦٨ .

والمقصود ان الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر ، وكانت امرأته [مع ذلك][1] عاقراً في حال شبيبتها وقد أسنت أيضاً حتى لا ييئس أحد من فضل الله ورحمته ، ولا يقنط من فضله تعالى وتقدس فقال تعالى : ﴿ ذكر رحمت ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداءً خفياً ﴾ . قال قتادة عند تفسيرها : إن الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي . وقال بعض السلف : قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها عمن كان حاضراً عنده مخافته فقال : « يا رب يا رب يا رب فقال الله لبيك لبيك لبيك » . ﴿ قال رب إني وهن العظم مني ﴾ أي ضعف وخار من الكبر ﴿ واشتعل الرأس شيبا ﴾ استعارة من اشتعال النار في الحطب أي غلب على سواد الشعر شيبه كما قال ابن دريد في مقصورته :

أما تَرى رَأسيَ حاكَى لونُه ... طرَّةَ صُبحٍ تحتَ أذيالِ الدُّجا
واشتعلَ المبيضُ في مُسْوَدِّه ... مثلَ اشتعالِ النارِ في جَمرِ الغَضا
وآضَ عودُ اللهو يُبساً ذاوياً ... من بعدِ ما قدْ كان مجّاجَ الثَرى

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطناً وظاهراً وهكذا قال زكريا عليه السلام: ﴿إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾ وقوله: ﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي ما دعوتني فيما أسألك إلاّ الإجابة وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير إوانها ولا في آوانها وهذه من كرامات الأولياء فعلم أن الرازق للشيء في غير أوانه قادر على أنْ يرزقه ولداً وإن كان قد طعن في سنه ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾ وقوله : ﴿ وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً ﴾ قيل المراد بالموالي العصبة وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون براً تقياً مرضياً ولهذا قال : ﴿ فهب لي من لدنك ﴾ أي من عندك بحولك وقوتك ﴿ ولياً يرثني ﴾ أي في النبوة[2] والحكم في بني إسرائيل : ﴿ ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً ﴾ يعني كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية[3] يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي وليس المراد ههنا وراثة

---

(١) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٢) قال القرطبي في الآية : سؤال ودعاء ؛ ولم يصرح بولد لما علم من حاله وبعده عنه بسبب المرأة فقيل كان عمره بضع وسبعين وقيل خمس وتسعين سنة وغلب على ظنه أنه لا يولد له لكبره .

« يرثني » قيل النبوة : قال القرطبي : فأما قومهم وراثة نبوة فمحال ، لأن النبوة لا تورث .

(٣) كان زكريا متزوجاً بأخت مريم بنت عمران ويرجع نسبها إلى سليمان ـ داود ـ يهوذا يعقوب . وزكريا من ولد هرون أخي موسى وهرون وموسى من ولد لاوى بن يعقوب .

المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ووافقهم ابن جرير ههنا وحكاه عن ابي صالح من السلف لوجوه :

أحدها : ما قدمنا عند قوله تعالى : ﴿ وورث سليمان داود﴾ [النمل: ١٦] أي في النبوة والملك كما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين العلماء المروى في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا فهو صدقة »(١) فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث ولهذا منع الصديق أن يصرف ما كان يختص به في حياته إلى أحد من وراثه الذين لولا هذا النص لصرف إليهم وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضي الله عنهم واحتج عليهم الصديق في منعه أياهم بهذا الحديث وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضي الله عنهم .

الثاني : أن الترمذي رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث »(٢) وصححه .

الثالث : أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها .

الرابع : أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهاداً يستفضل منه ما لا يكون له ذخيرة له يخلفه من بعده وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله وتدبره وتفهم إن شاء الله .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد يعني ابن هرون ، أنبأنا حماد بن سلمة، عن ثابت ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا نجاراً »(٣) . وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن حماد بن سلمة به . وقوله : ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ﴾ [مريم: ٧] . وهذا مفسر بقوله : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ومالك والترمذي والنسائي وأحمد . وقد سبق تخريجه فليراجع .

(٢) تقدم نص الحديث في الترمذي وفيه : « لا نورث ما تركنا من صدقة » من طريق أنس بن مالك . ٢٢/٤٤/١٦١٠ . وليراجع تخريج الحديث السابق .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤٣/٤٥/١٦٥ ومسند أحمد ج ٢/٢٩٦، ٤٠٥، ٤٨٥ .

[آل عمران: ٣٩] فلما بشر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد والحالة هذه له: ﴿ قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ [مريم: ٨] أي كيف يوجد ولد من شيخ كبير قيل كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة والأشبه والله أعلم أنه كان أسن[١] من ذلك ﴿ وكانت امرأتي عاقراً ﴾ يعني وقد كانت امرأتي في حال شبيبتها عاقراً لا تلد والله أعلم. كما قال الخليل: ﴿أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون﴾ [الحجر: ٥٤] وقالت سارة: ﴿يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ [هود: ٧٢ ـ ٧٣] وهكذا أجيب زكريا عليه السلام قال له الملك الذي يوحي إليه بأمر ربه ﴿ كذلك قال ربك هو علَيّ هين ﴾ أي هذا سهل يسير عليه ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ أي قدرته أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً أفلا يوجد منك ولداً وإن كنت شيخاً. وقال تعالى: ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ومعنى اصلاح زوجته: أنها كانت لا تحيض فحاضت. وقيل كان في لسانها شيء أي بذاءة[٢] ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به ﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ يقول علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً وأنت في ذلك سوي الخلق، صحيح المزاج، معتدل البنية. وأمر بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والأبكار فلما بشر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوه بكرة وعشياً ﴾. والوحي ههنا هو الأمر الخفي إما بكتابه كما قاله مجاهد والسدي أو إشارة كما قاله مجاهد أيضاً ووهب وقتادة. قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدي وقتادة اعتقل لسانه من غير مرض. وقال ابن زيد كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد. وقوله: ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً ﴾، يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه[٣]. قال عبد الله بن المبارك قال معمر قال الصبيان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب فقال ما للعب خلقنا قال وذلك قوله: ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ وأما قوله: ﴿ وحناناً من لدنَّا ﴾ فروى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال لا أدري ما الحنان. وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك ﴿ وحناناً من لدنا ﴾

---

(١) تقدم أنه كان ابن خمس وتسعين سنة.

(٢) قال في أحكام القرآن: قال أكثر المفسرين: وأصلحنا زوجه: إنها كانت عاقراً فجعلت ولوداً، وقال ابن عباس وعطاء: كانت سيئة الخلق، طويلة اللسان فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنة الخلق. ١١/٣٣٦.

(٣) قال قتادة: كان ابن سنتين أو ثلاث سنين، وقال ابن عباس: من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكم صبياً.

أي رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد . وعن عكرمة ﴿ وحناناً ﴾ أي محبة عليه ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما . وأما الزكاة فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل . والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره ، ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهياً وترك عقوقهما قولاً وفعلاً فقال : ﴿ وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ﴾ ثم قال : ﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور وما بين جبير وكسير وفريق في الجنة وفريق في السعير . ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول :

وَلَدتكَ أمك باكياً مستصرخاً ... والناسُ حولَكَ يَضْحكونَ سُروراً
فاحرِصْ لنفسك أن تكونَ إذا بكوا ... في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلم الله على يحيى في كل موطن منها فقال : ﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيى وعيسى التقيا فقال له عيسى استغفر لي أنت خير مني ، فقال له الآخر : استغفر لي أنت خير مني فقال له عيسى : أنت خير مني سلمت على نفسي وسلم الله عليك فعرف والله فضلهما ، وأما قوله في الآية الأخرى : ﴿ وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾ [آل عمران : ٣٩] فقيل المراد بالحصور الذي لا يأتي النساء وقيل غير ذلك وهو أشبه لقوله : ﴿ هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾ [آل عمران : ٣٨] وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أنبأنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد اخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا ، وما ينبغي لأحد يقول أنا خير من يونس بن متى »(١) . علي بن زيد بن جدعان تكلم فيه غير واحد من الأئمة وهو منكر الحديث ، وقد رواه ابن خزيمة والدارقطني من طريق أبي عاصم العباداني عن علي بن زيد بن جدعان به مطولاً ثم قال ابن خزيمة وليس على شرطنا . وقال ابن وهب : حدثني ابن لهيعة ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يوماً وهم يتذاكرون فضل الأنبياء فقال قائل : موسى كليم الله . وقال قائل : عيسى روح الله وكلمته . وقال قائل : إبراهيم خليل الله [وهم يذكرون

---

(١) مسند أحمد ج ١/ ٢٥٤، ٢٩٢.

ذاك](١) فقال : « اين الشهيد ابن الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب » قال ابن وهب : يريد يحيى بن زكريا . وقد رواه محمد بن إسحاق وهو مدلس ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب : حدثني ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا » . فهذا من رواية ابن إسحاق وهو من المدلسين وقد عنعن ههنا . ثم قال عبد الرزاق عن معمر ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب مرسلًا . ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبي أسامة عن يحيى بن سعيد الأنصاري ثم قد رواه ابن عساكر من طريق ابراهيم بن يعقوب الجوزجاني خطيب دمشق : حدثنا محمد بن الأصبهاني ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الله بن عمرو قال ما أحد إلاّ يلقى الله بذنب إلاّ يحيى بن زكريا . ثم تلا : ﴿ وسيداً وحصوراً ﴾ ثم رفع شيئاً من الأرض فقال ما كان معه إلاّ مثل هذا ، ثم ذبح ذبحاً وهذا موقوف من هذه الطريق وكونه موقوفاً صح من رفعه والله أعلم . وأورده ابن عساكر من طرق : عن معمر من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشر وهو ضعيف ، عن عثمان بن ساج(٢) عن ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان عن معاذ عن النبي ﷺ بنحوه . وروي من طريق أبي داود الطيالسي وغيره عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نعيم ، عن أبيه ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلاّ ابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام »(٣) . وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهاني : حدثنا إسحاق بن أحمد ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، حدثنا أحمد بن أبي الحواري سمعت أبا سليمان يقول خرج عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا يتماشيان فصدم يحيى امرأة ، فقال له عيسى : يا بن خالة لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أنه يغفر لك أبداً . قال : وما هي يا بن خالة ؟ قال امرأة صدمتها . قال والله ما شعرت بها . قال : سبحان الله بدنك معي فأين روحك قال معلق بالعرش ولو أن قلبي اطمئن إلى جبريل لظننت أني ما عرفت الله طرفة عين » . فيه غرابة وهو من الاسرائيليات . وقال اسرائيل : عن أبي حصين ، عن خيثمة قال : كان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة وكان عيسى يلبس الصوف ، وكان يحيى يلبس الوبر ، ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه اين ما جنهما الليل أويا فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى : أوصني قال : لا تغضب قال لا أستطيع إلا أن أغضب قال لا تقتن مالاً قال أما هذه فعسى .

---

(١) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٢) في نسخ البداية المطبوعة : ابن سباح وهو تحريف والصواب ما أثبتناه . وهو عثمان بن عمرو بن ساج ، مولى بني أمية وقد ينسب إلى جده ، فيه ضعف من التاسعة . تقريب التهذيب ٢/١٣ .

(٣) رواه البيهقي في دلائله ج ٥٧٨/٧ من طريق حذيفة بن اليمان . وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣٨١/٣ وقال الذهبي صحيح .

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه هل مات زكريا عليه السلام موتا أو قتل قتلا على روايتين : فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان ، عن أبيه ، عن وهب بن منبه أنه قال هرب من قومه فدخل شجرة فجاؤوا فوضعوا المنشار عليها فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنّ فأوحى الله إليه : لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها فسكن أنينه حتى قطع باثنتين[1] . وقد روي هذا في حديث مرفوع سنورده بعد إن شاء الله . وروى إسحق بن بشر ، عن إدريس بن سنان ، عن وهب أنه قال الذي انصدعت له الشجرة هو شعيا فأما زكريا فمات موتاً فالله أعلم . وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف وكان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبي كثير ، عن زيد بن سلام ، عن جده ممطور ، عن الحارث الأشعري ، أن النبي ﷺ قال : « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن وكان أن يبطىء ، فقال له عيسى عليه السلام : إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن . فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن ؟ فقال : يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي قال : فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عزَّ وجلَّ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن . وأولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا . وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه . وآمركم بذكر الله عزّ وجلّ كثيراً فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه وأن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عزّ وجلّ .

قال : وقال رسول الله (ﷺ) : « وأنا آمركم بخمس : الله أمرني بهن بالجماعة والسمع

---

(١) قال ابن قتيبة في المعارف ص ٢٤ : قتلوه في جوف شجرة قطعوها وقطعوه معها . وذكر المسعودي رواية قتله : قال : فنشروا الشجرة وهو فيها ، دلهم عليه إبليس لعنه الله عزَّ وجلَّ ، فقطعوه وقطعوها . والسبب في قتله اتهامه بارتكابه الفاحشة مع مريم ١/ ٥٩ .

وذكر ابن الأثير سبباً آخر لقتله ، ورواية قتله كما سبق إليها المسعودي وابن قتيبة ـ والسبب أنه لما قتل يحيى فر زكريا هارباً فأرسل الملك في طلبه . فدخل الشجرة . . . ١/ ٣٠٦ .

والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربق الإسلام من عنقه إلّا أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثا جهنم قال : يا رسول الله وإن صام وصلى قال : « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجلّ المسلمين المؤمنين عباد الله عزّ وجلّ »[1] .

وهكذا رواه أبو يعلى عن هدبة بن خالد ، عن أبان بن يزيد ، عن يحيى بن أبي كثير به . وكذلك رواه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي وموسى بن إسماعيل كلاهما عن أبان بن يزيد العطار به ، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار ، عن محمد بن شعيب بن سابور ، عن معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، عن أبي سلام ، عن الحارث الأشعري به . ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطري ، عن معاوية بن سلام عن أخيه به . ثم قال تفرد به مروان الطاطري عن معاوية بن سلام . قلت وليس كما قال ورواه الطبراني عن محمد بن عبدة عن أبي نوبة الربيع بن يافع ، عن معاوية بن سلام ، عن أبي سلام ، عن الحارث الأشعري فذكر نحوه فسقط ذكر زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري فذكر نحو هذه الرواية . ثم روى الحافظ ابن عساكر من طريق عبدالله بن أبي جعفر الرازي ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قال : ذكر لنا عن أصحاب رسول الله (ﷺ) فيما سمعوا من علماء بني إسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات وذكر نحو ما تقدم . وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس ، إنما كان يأنس إلى البراري ويأكل من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ، ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان ويقول : من أنعم منك يا يحيى . وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلبه فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديداً لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عزّ وجلّ . وقال ابن وهب عن مالك ، عن حميد بن قيس ، عن مجاهد قال كان طعام يحيى بن زكريا العشب وإنه كان ليبكي من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه .

وقال محمد بن يحيى الذهلي : حدثنا أبو صالح ، حدثنا الليث ، حدثني عقيل ، عن ابن شهاب قال : جلست يوماً إلى أبي إدريس الخولاني وهو يقص فقال : ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال : إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاماً إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معايشهم . وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال : فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرية فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه فقال : يا بني أنا أطلبك من ثلاثة أيام ، وأنت في قبر قد احتفرته قائم تبكي فيه فقال يا أبت ألست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة[2] لا يقطع إلا بدموع البكائين فقال له إبك يا بني فبكيا جميعاً . وهكذا حكاه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٢٠٢/٤ ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده (١١٦١) .

(٢) في كامل ابن الأثير : عقبة .

وهب بن منبه ومجاهد بنحوه . وروى ابن عساكر عنه انه قال : إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم فكذا ينبغي للصديقين أن لا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عزّ وجلّ . ثم قال كم بين النعيمين وكم بينهما وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء في خديه من كثرة دموعه .

بيان سبب قتل يحيى عليه السلام

وذكروا في قتله أسباباً من أشهرها : أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه[1] ، أو من لا يحل له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقي في نفسها[2] منه . فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طشت إلى عندها فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها . وقيل بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طشت . وقد ورد معناه في حديث رواه إسحاق بن بشر في كتابه « المبتدأ » حيث قال : أنبأنا يعقوب الكوفي ، عن عمرو بن ميمون ، عن أبيه ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به رأى زكريا في السماء فسلم عليه وقال له يا أبا يحيى خبرني عن قتلك كيف كان ولم قتلك بنو إسرائيل . قال: يا محمد أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه وكان أجملهم وأصبحهم وجهاً وكان كما قال الله تعالى : ﴿ سيداً وحصوراً ﴾ وكان لا يحتاج إلى النساء فهوته امرأة ملك بني إسرائيل وكانت بغية فأرسلت إليه وعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها فأجمعت على قتل يحيى ولهم عيد يجتمعون في كل عام وكانت سنة الملك أن يوعد ولا يخلف ولا يكذب . قال فخرج الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيعته وكان بها معجباً ولم تكن تفعله فيما مضى فلما أن شيعته قال الملك سليني فما سألتني شيئاً إلاّ أعطيتك قالت : أريد دم يحيى بن زكريا قال لها : سليني غيره قالت : هو ذاك قال هو لك ، قال : فبعثت جلاوزتها إلى يحيى وهو في محرابه يصلي وأنا إلى جانبه أصلي قال : فذبح في طشت وحمل رأسه ودمه إليها . قال : فقال رسول الله ﷺ فما بلغ من صبرك قال ما انفتلت من صلاتي قال : فلما حمل رأسه إليها فوضع بين يديها فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل قد غضب إله

---

(١) قال الطبري : عن ابن عباس قال : بعث عيسى بن مريم يحيى بن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس فكان فيما نهوهم عنه نكاح ابنة الأخ . وكان للملكهم (واسمه :هيرودس) ابنة أخ يريد أن يتزوجها فنهاه يحيى . راجع الكامل لابن الأثيرج ١/٣٠١ - ٣٠٢ .

(٢) كذا في الأصول ، والصواب كما يقتضيه السياق : في نفسه .

(٣) جاء في الطبري والكامل : عن السدي : أن الملك أراد أن يتزوج ابنة امرأة له فنهاه يحيى عن ذلك وقال له : لا تحل لك . فحقدت عليه المرأة وطلبت قتله .

وقال ابن قتيبة في المعارف ص ٢٤ - أن أحب ملك بني اسرائيل قتله بحيلة امرأته ازبيل في قتله .

أما المسعودي فذكر حادثة القتل دون تعليق .

زكريا لزكريا فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا قال فخرجوا في طلبي ليقتلوني وجاءني النذير فهربت منهم وإبليس أمامهم يدلّهم عليّ فلما تخوفت أن لا أعجزهم عرضت لي شجرة فنادتني وقالت إليّ إليّ وانصدعت لي ودخلت فيها . قال وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائي والتأمت الشجرة وبقي طرف ردائي خارجاً من الشجرة ، وجاءت بنو إسرائيل فقال إبليس : أما رأيتموه دخل هذه الشجرة هذا طرف ردائه دخلها بسحره ، فقالوا نحرق هذه الشجرة ، فقال إبليس : شقوه بالمنشار شقاً . قال فشققت مع الشجرة بالمنشار قال له النبي ﷺ : هل وجدت له مساً أو وجعاً قال لا إنما وجدت ذلك الشجرة التي جعل الله روحي فيها . هذا سياق غريب جداً . وحديث عجيب ورفعه منكر وفيه ما ينكر على كل حال ولم ير في شيء من أحاديث الإسراء ذكر زكريا عليه السلام إلاّ في هذا الحديث وإنما المحفوظ في بعض الفاظ الصحيح في حديث الإسراء فمررت بابني الخالة يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة [فجاء][1] على قول الجمهور ، كما هو ظاهر الحديث فإن أم يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران . وقيل بل أشياع وهي امرأة زكريا أم يحيى هي أخت حنة امرأة عمران أم مريم فيكون يحيى ابن خالة مريم فالله أعلم .

ثم اختلف في مقتل يحيى بن زكريا هل كان في المسجد الأقصى ؟ أم بغيره على قولين : فقال الثوري عن الأعمش ، عن شمر بن عطية قال : قتل على الصخرة التي ببيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا عليه السلام ، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن الليث ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : قدم بخت نصر دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي فسأل عنه فأخبروه فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن . وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب وهو يقتضي أنه قتل بدمشق وأن قصة بخت نصر كانت بعد المسيح[2] كما قاله عطاء والحسن البصري فالله أعلم .

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم ، عن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب مما يلي الشرق فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير وفي رواية كأنما قتل الساعة . وذكر في بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة فالله أعلم .

---

(١) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٢) رفض الطبري ٢/١٥ والكامل ١/٣٠٣ وقوع قصة بختنصر أيام المسيح قال: وهذا القول الذي روي عمن ذكرت في هذا الأخبار التي رويت وعمن لمن يذكر من ان بختنصر هو الذي غزا بني اسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا عند أهل السير والأخبار والعلم بأمور الماضين وعند غيرهم من أهل الملل غلط ، وأجمعوا على أن غزوه كان عند قتلهم نبيهم شعيا في عهد أرميا ، وبين عهد أرميا ويحيى اربعمائة سنة ، إحدى وستون .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في المستقصى في فضائل الاقصى من طريق العباس بن صبح . عن مروان ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن قاسم مولى معاوية قال : كان ملك هذه المدينة يعني دمشق هداد بن هداد وكان قد زوجه ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة قال : وكان قد حلف بطلاقها ثلاثاً . ثم أنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال : لا تحل لك حتى تنكح زوجاً غيرك فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا وذلك بإشارة أمها فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك وبعث إليه وهو قائم يصلي بمسجد جيرون من أتاه برأسه في صينية فجعل الرأس يقول له لا تحل له لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك فلما تمثلت بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها ثم إلى حقويها وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن ثم خسف بها إلى منكبيها فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها ففعل فلفظت الأرض جثتها عند ذلك ووقعوا في الذل والفناء ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بخت نصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً . قال سعيد بن عبد العزيز وهي دم كل نبي ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال أيها الدم أفنيت بني إسرائيل فاسكن بإذن الله فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس فتبعهم إليها فقتل خلقاً كثيراً لا يحصون كثرة وسبا منهم ثم رجع عنهم .

قصة عيسى بن مريم [عبدالله ورسوله وابن أمته](1) عليه من الله أفضل الصلاة والسلام

قال الله تعالى في سورة آل عمران التي أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية منها في الرد على النصارى عليهم لعائن الله ، الذين زعموا أن لله ولداً تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم ويدعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم ، على اختلاف فرقهم ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ صدر هذه السورة بيّن فيها أن عيسى عبد من عباد الله خلقه وصوره في الرحم كما صور غيره من المخلوقات وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم وقال له كن فكان سبحانه وتعالى . وبيّن أصل ميلاد أمه مريم وكيف كان من أمرها وكيف حملت بولدها عيسى وكذلك بسط ذلك في سورة مريم كما ستتكلم على ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته فقال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على

---

(1) سقطت من نسخ البداية المطبوعة . واستدركت من قصص الأنبياء لابن كثير .

العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم . إذ قالت امرأة عمران ربِّ إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [آل عمران : ٣٣ - ٣٧] .

يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخلص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته ، ثم خصص فقال : ﴿ وآل إبراهيم ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق . ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام وقال محمد بن إسحاق وهو عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن امصيا بن ياوش بن اخريهو بن يازم بن يهفاشاط بن ايشا بن ايان بن رحبعام بن سليمان بن داود . وقال أبو القاسم بن عساكر مريم بنت عمران بن ماثان[1] بن العازر بن اليود بن اخبر بن صادوق بن عيازوز بن الياقيم بن ايبود بن زريابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا بن أمون بن ميشا بن حزقا بن احاز بن موثام بن عزريا بن يورام بن يوشافاط بن ايشا بن ايبا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام . وفيه مخالفة كما ذكره محمد بن إسحاق ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه وكانت أمها وهي حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم اشياع في قول الجمهور وقيل زوج خالتها أشياع[2] فالله أعلم .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أن أم مريم كانت لا تحبل فرأت يوماً طائراً يزق فرخاً له فاشتهت الولد فنذرت لله أن حملت لتجعلن ولدها محرراً أي حبيساً في خدمة بيت المقدس قالوا فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم عليها السلام ﴿ فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ﴾ وقرىء بضم التاء : ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ أي في خدمة بيت المقدس وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداماً من أولادهم وقولها : ﴿ وإني سميتها مريم ﴾ استدل به على تسمية المولود يوم يولد وكما ثبت في الصحيحين عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فحنك أخاه وسماه عبد الله . وجاء في حديث الحسن عن سمرة

---

(١) في الطبري : ابن ماثان بن اليعازر بن اليوذ بن أحين بن صادوق بن عازور بن الياقيم بن أبيوذ بن زربابل بن شلتيل بن يوحنيا بن يوشيا بن أمون بن منشا بن حزقيا بن أحاز بن يوثام بن عوزيا بن يورام بن يهوشافاط بن أسا بن أبيا بن رحبعم بن سليمان بن داود .

(٢) تبنى الطبري هذا القول . وقال زوج خالة مريم : الاشباع .

مرفوعاً « كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق رأسه »[1] رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي وجاء في بعض ألفاظه ويدمى بدل ويسمى وصححه بعضهم والله أعلم . وقولها : ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ قد استجيب لها في هذا كما تقبل منها نذرها فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري عن ابن المسيب ، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها »[2] ثم يقول أبو هريرة واقرأوا إن شئتم : ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾[3] [آل عمران : ٣٦] أخرجاه من حديث عبد الرزاق ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفرج عن بقية عن عبد الله بن الزبيدي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . وقال أحمد : أيضاً حدثنا إسماعيل بن عمر ، حدثنا ابن أبي ذؤيب ، عن عجلان ، مولى المشمعل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كل مولود من بني آدم يمسه الشيطان باصبعه إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى »[4] . تفرد به من هذا الوجه . ورواه مسلم[5] عن أبي الطاهر عن ابن وهب عن [عمرو] بن الحارث عن أبي يونس [مولى أبي هريرة] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . وقال أحمد حدثنا هشيم حدثنا حفص بن ميسرة ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان في حضنيه إلا ما كان من مريم وابنها ، ألم تر إلى الصبي حين يسقط كيف يصرخ ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال : « ذلك حين يلكزه الشيطان بحضنيه »[6] وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه من هذا الوجه . ورواه قيس ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلّا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى بن مريم ومريم » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ وكذا رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بأصل الحديث . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك ، حدثنا المغيرة هو ابن

---

(١) اخرجه أحمد في مسنده ٧/٥، ١٢، ١٧، ٢٢ والترمذي في سننه ٢١/١٧ ورواه أبو داود والنسائي في سننيهما وأبو داوه الطيالسي في مسنده .

(٢) هذه فضيلة ظاهرة ، وظاهر الحديث اختصاصها بعيسى وأمه . واختار القاضي عياض أن جميع الأنبياء يتشاركون فيها .

(٣) مسند أحمد ج ٢٧٤/٢ وأخرجه البخاري في صحيحه ٣٤٣١/٤٤/٦٠ فتح الباري . وأخرجه مسلم في صحيحه ٤٣ كتاب الفضائل (٤٠ باب) ٢٣٦٦/١٤٦ وفيه : نخسه الشيطان بدل مسه ـ في الموضعين ـ وإلا ابن مريم وامه ـ بدل إلا مريم وابنها .

(٤) مسند أحمد ج ٢٨٨/٢، ٢٩٢ .

(٥) صحيح مسلم ٢٣٦٦/١٤٧/٤٠/٤٣ وما بين معكوفين من صحيح مسلم .

(٦) مسند أحمد : ٣٦٨/٢.

عبد الله الحزامي ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين يولد إلاّ عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب »(١) . وهذا على شرط الصحيحين ولم يخرجوه من هذا الوجه . وقوله : ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا ﴾ ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتها في خروقها ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها . والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها . ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل أن زوجته اختها أو خالتها على القولين . فشاحوه في ذلك وطلبوا أن يقترع معهم فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم وذلك أن الخالة بمنزلة الأم . قال الله تعالى : ﴿ وكفلها زكريا ﴾ أي بسبب غلبه لهم في القرعة كما قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ [آل عمران : ٤٤] . قالوا وذلك أن كلا منهم ألقى قلمه معروفاً به ثم حملوها ووضعوها في موضع وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث فأخرج واحداً منها وظهر قلم زكريا عليه السلام فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر ، فأيهم جرى قلمه على خلاف جريه في الماء فهو الغالب ففعلوا فكان قلم زكريا هو الذي جرى على خلاف جرية الماء وسارت أقلامهم مع الماء ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعداً فهو الغالب ففعلوا فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها . . إذ كان أحق بها شرعاً وقدراً لوجوه عديدة(٢) . قال الله تعالى : ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [آل عمران : ٣٧] قال المفسرون اتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواه ، فكانت تعبد الله فيه ، وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها في بني اسرائيل ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة حتى أنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً غريباً في غير أوانه فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها ﴿ أنى لك هذا فتقول هو من عند الله ﴾ أي رزق رزقنيه الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فعند ذلك وهنالك طمع زكريا في وجود ولد من صلبه وإن كان قد أسن وكبر ﴿ قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾ [آل عمران : ٣٨] . قال بعضهم قال يا من يرزق مريم الثمر في

---

(١) مسند أحمد ج ٢/٥٢٣ .

(٢) قال القرطبي : في الآية دلالتان : ـ القرعة كانت آية له لأنه نبي تجري الآيات على يديه . ودلت الآية على أن الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدة .

غير آبانه[1] هب لي ولدا وإن كان في غير آوانه فكان من خبره وقضيته ما قدمنا ذكره في قصته .

[قال الله تعالى :]: ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص واحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ [آل عمران : ٤٢ ـ ٥١] .

يذكر تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها[2] بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب وبشرت بأن يكون نبياً شريفاً ﴿ يكلم الناس في المهد ﴾ أي في صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وكذلك في حال كهولته فدل على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة فيقال إنها كانت تقوم في الصلاة حتى تفطرت قدماها رضي الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها فقول الملائكة : ﴿ يا مريم إن الله اصطفاك ﴾ أي اختارك واجتباك ﴿ وطهرك ﴾ أي من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة ﴿ واصطفاك على نساء العالمين ﴾ . يحتمل أن يكون المراد عالمي زمانها كقوله لموسى : ﴿ إني اصطفيتك على الناس ﴾ [الأعراف: ١٤٤] وكقوله عن بني إسرائيل : ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ [الدخان: ٣٢] ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى وأن محمداً ﷺ أفضل منهما وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عدداً وأفضل علماً وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم . ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ واصطفاك على نساء العالمين ﴾ محفوظ العموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها ووجد بعدها لأنها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحي إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره

---

(١) في نسخ البداية المطبوعة : أوانه ، والصواب ما أثبتناه .

(٢) قال القرطبي : قال الزجاج وغيره على نساء العالمين أجمع إلى يوم الصور ، وهو الصحيح ؛ حيث أن الله خص مريم بما لم يؤته أحداً من النساء .

فلا يمتنع على هذا أن يكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله : ﴿ واصطفاك على نساء العالمين ﴾ إذ لم يعارضه غيره والله أعلم . وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره عن أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال[1] وليس في النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى : ﴿ ما المسيح بن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ﴾ [المائدة: ٧٥] فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها والله أعلم . وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رضي الله عنهن وأرضاهن .

وقد روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عديدة : عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن جعفر ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد »[2]. وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك من نساء العالمين بأربع مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد »[3] ورواه الترمذي عن أبي بكر بن زانجويه ، عن عبد الرزاق به وصححه . ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي . وابن عساكر من طريق تميم بن زياد كلاهما عن أبي جعفر الرازي عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رسول الله » وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري عن ابن المسيب قال كان أبو هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال : « خير نساء ركبن الابل صالح نساء قريش احناه على ولد في صغره وارعاه لزوج في ذات يده »[4] قال أبو هريرة ولم تركب مريم بعيراً قط . وقد رواه مسلم في صحيحه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد كلاهما عن عبد الرزاق به . وقال أحمد حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني موسى بن علي ، سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرأفه بزوج على قلة ذات يده »[5] قال أبو هريرة وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنة عمران لم تركب الإبل ، تفرد به . وهو على شرط

(١) قال الرازي في تفسيره : اعلم أن مريم عليها السلام ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم . . . ﴾ وإرسال جبريل إليها : إما أن يكون كرامة لها أو ارهاصاً لعيسى عليه السلام .

(٢) مسند أحمد : ١/ ٨٤، ١١٦، ١٣٢ .

(٣) مسند أحمد ج ٣/ ١٣٥ ورواه الحاكم في مستدركه (٣/ ١٩٧، ١٩٨ حيدر آباد) .

(٤) مسند أحمد ج ٢/ ٢٧٥، ٤٤٩ وأخرجه مسلم في صحيحه ٢/ ٢٧٠ .

(٥) مسند أحمد ج ٢/ ٢٦٩، ٣١٩، ٣٩٣، ٥٠٢ .

الصحيح . ولهذا الحديث طرق أخر عن أبي هريرة . وقال أبو يعلى الموصلي : حدثنا زهير ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا داود بن أبي الفرات ، عن علباء بن أحمر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال خط رسول الله ﷺ في الأرض أربع خطوط فقال : « أتدرون ما هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم فقال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون » ورواه النسائي من طرق عن داود بن أبي هند . وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث ، حدثنا يحيى بن حاتم العسكري ، نبأنا بشر بن مهران بن حمدان، حدثنا محمد بن دينار ، عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك منهن أربع سيدات نساء العالمين : فاطمة بنت محمد ، وخديجة بنت خويلد ، وآسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران » . وقال أبو القاسم البغوي حدثنا وهب بن بقية[1] حدثنا خالد بن عبد الله الواسطي ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن عائشة أنها قالت لفاطمة : أرأيت حين أكببت على رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكت ؟ قالت أخبرني أنه ميت من وجعه هذا فبكيت ، ثم أكببت عليه فأخبرني أني أسرع أهله لحوقاً به وأني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت . وأصل هذا الحديث في الصحيح[2] . وهذا إسناد على شرط مسلم وفيه انهما أفضل الأربع المذكورات . وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن محمد ، حدثنا جرير ، عن يزيد هو ابن أبي زياد ، عن عبد الرحمن بن أبي نُـعم[3] عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران »[4] . إسناد حسن وصححه الترمذي ولم يخرجوه وقد روى نحوه من حديث علي بن أبي طالب ولكن في إسناده ضعف . والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع . ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة لكن ورد حديث إن صح عين الاحتمال الأول . فقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : أنبأنا أبو الحسن بن الفرا وأبو غالب وأبو عبد الله ابنا البنا قالوا : أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة ، أنبأنا أبو طاهر المخلص ، حدثنا أحمد بن سليمان ، حدثنا الزبير هو ابن بكار، حدثنا محمد بن الحسن ، عن عبد العزيز بن محمد ، عن موسى بن عقبة ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة

---

(١) في نسخ البداية المطبوعة : ابن منبه وهو تصحيف والصواب ما أثبتناه .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ـ باب منقبة فاطمة عليها السلام (٥ : ٦٥) ميمنية . وأخرجه مسلم في ١٥/٤٤ وأخرجه أحمد في مسنده ٧٧/٦ ـ ٢٤٠ وأخرجه البيهقي في الدلائل ج ١٦٤/٧ وابن سعد في الطبقات ٢٤٧/٢ .

(٣) في نسخ المطبوعة نعيم وهو تحريف وما أثبتناه مناسب لما في الحديث في المسند : نُعم .

(٤) مسند أحمد ج ٦٤/٣، ٨٠.

ثم آسية امرأة فرعون » فإن كان هذا اللفظ محفوظاً بثم التي للترتيب فهو مبين لأحد الاحتمالين اللذين دل عليهما الاستثناء وتقدم على ما تقدم من الألفاظ التي وردت بواو العطف التي لا تقتضي الترتيب ولا تنفيه والله أعلم .

وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازي ، عن داود الجعفري ، عن عبد العزيز بن محمد ، وهو الدراوردي ، عن إبراهيم بن عقبة ، عن كريب ، عن ابن عباس مرفوعاً فذكره بواو العطف لا بثم الترتيبية فخالفه إسناداً ومتناً فالله أعلم . فأما الحديث الذي رواه ابن مردويه من حديث شعبة ، عن معاوية بن قرة ، عن أبيه ، قال قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلّا ثلاث مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » . وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة إلّا أبا داود من طرق : عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن مرة الهمداني ، عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلّا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »(1) . فإنه حديث صحيح كما ترى اتفق الشيخان على إخراجه ولفظه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية ولعل المراد بذلك في زمانهما فإن كلا منهما كفلت نبياً في حال صغره فآسية كفلت موسى الكليم ، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله ، فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمس عشرة سنة وبعدها أزيد من عشر سنين ، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها ، رضي الله عنها ، وأرضاها ، وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها متن في حياة النبي ﷺ وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكراً غيرها ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة بل ولا في غيرها أعلم منها ، ولا أفهم ، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الأفك ما قالوا فأنزل براءتها من فوق سبع سموات وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة تبلغ عنه القرآن والسنّة وتفتي المسلمين وتصلح بين المختلفين وهي أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين والأحسن الوقف فيهما رضي الله عنهما وما ذاك إلّا لأن قوله ﷺ : « وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »

---

(1) أخرجه مسلم في ٤٤ كتاب الصحابة ١٢ باب فضائل خديجة ٢٤٣١/٧٠ والبخاري حديث رقم (١٦٠٦) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد : ٢٤٣/٩ وقال رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا سلمة بن عبد الرحمن لم يسمع من أبيه .

قال العلماء في (فضل الثريد على سائر الطعام) معناه : أن فضل عائشة على النساء زائد كزيادة فضل الثريد على غيره من الأطعمة ، لأن الثريد اللحم أفضل من مرقه بلا ثريد وثريد ما لا لحم فيه أفضل من مرقه . . .

يحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ما عدي المذكورات والله أعلم .

والمقصود ههنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام فإن الله طهرها واصطفاها على نساء عالمي زمانها ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا . وقد ورد في حديث أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم . وقد ذكرنا في التفسير عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله : ﴿ ثيبات وابكاراً ﴾ [التحريم : ٥] قال فالثيب آسية ومن الأبكار مريم بنت عمران . وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم فالله أعلم .

قال الطبراني : حدثنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا محمد بن سعد العوفي ، حدثنا أبي ، أنبأنا عمي الحسين ، حدثنا يونس بن نفيع ، عن سعد بن جنادة، هو العوفي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى »(١) . وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إبراهيم بن عرعرة ، حدثنا عبد النور بن عبد الله ، حدثنا يونس بن شعيب ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « أشعرت أن الله زوجني مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكلثم أخت موسى » رواه ابن جعفر العقيلي من حديث عبد النور به وزاد فقلت هنيأ لك يا رسول الله . ثم قال العقيلي وليس بمحفوظ . وقال الزبير بن بكار حدثني محمد بن الحسن عن يعلى بن المغيرة عن ابن أبي داود قال : دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه فقال لها : « بالكره مني ما أرى منك يا خديجة وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً أما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون » قالت وقد فعل الله بك ذلك يا رسول الله ؟ قال : « نعم » قالت بالرفاء والبنين »(٢) . وروى ابن عساكر من حديث محمد بن زكريا الغلابي : حدثنا العباس بن بكار ، حدثنا أبو بكر الهزلي ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة وهي في مرض الموت فقال : « يا خديجة إذا لقيت ضرائرك فأقرئهن مني السلام قالت : يا رسول الله وهل تزوجت قبلي قال : لا ولكن الله زوجني مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكلثم أخت موسى » . وروى ابن عساكر من طريق سويد بن سعيد : حدثنا محمد بن صالح بن عمر ، عن الضحاك . ومجاهد ، عن ابن عمر قال نزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بما أرسل به وجلس يحدث رسول الله ﷺ إذ مرت خديجة فقال جبريل من هذه يا محمد ؟ قال : هذه صديقة أمتي ، قال جبريل : معي إليها رسالة من الرب عزّ وجلّ يقرئها السلام ، ويبشرها ببيت في الجنة من قصب بعيد من اللهب لا نصب فيه

---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢١٨/٩ وقال : رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم .

(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢١٨/٩ عن أبي رواد . وقال : رواه الطبراني منقطع الإسناد وفيه محمد بن الحسن بن زبالة وهو ضعيف .

ولا صخب قالت : الله السلام ، ومنه السلام والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته على رسول الله ما ذلك البيت الذي من قصب قال : لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم وهما من أزواجي يوم القيامة . وأصل السلام على خديجة من الله وبشارتها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا وصب في الصحيح ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريب جداً . وكل من هذه الأحاديث في أسانيدها نظر[1] . وروى ابن عساكر من حديث أبي زرعة الدمشقي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني معاوية ، عن صفوان بن عمرو ، عن خالد بن معدان ، عن كعب الأحبار : أن معاوية سأله عن الصخرة يعني صخرة بيت المقدس فقال : الصخرة على نخلة والنخلة على نهر من أنهار الجنة وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط أهل الجنة حتى تقوم الساعة . ثم رواه من طريق إسماعيل ، عن عياش ، عن ثعلبة بن مسلم ، عن مسعود ، عن عبد الرحمن ، عن خالد بن معدان ، عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ بمثله وهذا منكر[2] من هذا الوجه . بل هو موضوع . قد رواه أبو زرعة ، عن عبد الله بن صالح ، عن معاوية ، عن مسعود بن عبد الرحمان ، عن ابن عابد : أن معاوية سأل كعباً عن صخرة بيت المقدس فذكره قال الحافظ ابن عساكر وكونه من كلام كعب الأحبار أشبه . قلت وكلام كعب الأحبار هذا إنما تلقاه من الاسرائيليات التي منها ما هو مكذوب مفتعل وضعه بعض زنادقتهم أو جهالهم وهذا منه والله أعلم .

ميلاد العبد الرسول عيسى بن مريم [العذراء][3] البتول

قال الله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً . قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً . قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً . فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً فناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً . وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلي واشربي وقري عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلم أكلم اليوم إنسياً . فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا

---

(١) نقل الأحاديث الهيثمي في زوائده من عدة طرق بروايات مختلفة وعلق حول أسانيدها ورواتها ؛ فليراجع ج ٩/٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٢١٨ وقال : رواه الطبراني وفيه محمد بن مخلد الرعيني وهذا الحديث من منكراته .

(٣) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

أخت هرون ما كان أبوك أمرء سوء وما كانت أمك بغياً فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً . وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً . ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ [مريم: ١٦ ـ ٣٧].

ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوطئة قبلها كما ذكر في سورة آل عمران قرن بينهما في سياق واحد وكما قال في سورة الأنبياء : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين . والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩١] .

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس ، وأنه كفلها زوج أختها أو خالتها نبي ذلك الزمان زكريا عليه السلام ، وأنه اتخذ لها محراباً وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحد عليها سواه ، وأنها لما بلغت اجتهدت في العبادة ، فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادات ، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها وبأنه سيهب لها ولداً زكياً يكون نبياً كريماً طاهراً مكرماً مؤيداً بالمعجزات فتعجبت من وجود ولد من غير والد لأنها لا زوج لها ، ولا هي ممن تتزوج فأخبرتها الملائكة : بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها ، فإن الناس يتكلمون فيها بسببه ، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ، ولا تعقل ، وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها[1] أو لحاجة ضرورية لا بد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء فبينما هي يوماً قد خرجت لبعض شؤونها ﴿ وانتبذت ﴾ أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام : ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ فلما رأته : ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ . قال أبو العالية علمت أن التقي ذو نهية ، وهذا يرد قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه تقي ، فإن هذا قول باطل بلا دليل وهو من أسخف الأقوال .

---

(١) قال الرازي أن مريم طهرت عن الحيض وقال : قالوا كانت مريم لا تحيض . قال السدي : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس وقال غيره : لتعبد الله . وهذا حسن (راجع الرازي ـ القرطبي) .

﴿ قال إنما أنا رسول ربك ﴾ أي خاطبها الملك قائلا : إنما أنا رسول ربك [أي][1] لست ببشر ، ولكنيّ ملك بعثني الله إليك ﴿ ليهب لك غلاماً زكياً ﴾ أي ولداً زكياً ﴿ قالت أنى يكون لي غلام ﴾ أي كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد ﴿ ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً ﴾ أي ولست ذات زوج[2] وما أنا ممن يفعل الفاحشة ﴿ قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ﴾ أي فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلاً : ﴿ كذلك قال ربك ﴾ أي وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل ولا تكونين ممن تبغين ﴿ هو عليّ هين ﴾ أي وهذا سهل عليه ويسير لديه فإنه على ما يشاء قدير . وقوله : ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ أي ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ، ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى . وقوله : ﴿ ورحمة منا ﴾ أي نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره في طفوليته وكهوليته ، بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له ، وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد . وقوله : ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ . يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها يعني أن هذا أمر قد قضاه الله وحتمه وقدره وقرره ، وهذا معنى قول محمد بن إسحاق واختاره ابن جرير ولم يحك سواه والله أعلم . ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال تعالى : ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ [التحريم : ١٢] . فذكر غير واحد من السلف : أن جبريل نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها ، فحملت من فورها ، كما تحمل المرأة عند جماع بعلها . ومن قال إنه نفخ في فمها أو أن الذي كان يخاطبها هو الروح الذي ولج فيها من فمها فقوله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصة في محالها من القرآن . فإن هذا السياق يدل على أن الذي أرسل إليها ملك من الملائكة وهو جبريل عليه السلام وأنه إنما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرج بل نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه كما قال تعالى : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ فدل[3] على أن النفخة ولجت فيه لا في فمها كما روي عن أبي بن كعب ولا في صدرها كما رواه السدي بإسناده عن بعض الصحابة ولهذا قال تعالى : ﴿ فحملته ﴾ أي حملت ولدها ﴿ فانتبذت به مكاناً قصياً ﴾ وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعاً وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام في حقها فذكر غير واحد من السلف منهم وهب بن منبه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن

---

(١) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٢) ذكرت مريم ذلك تأكيداً منها أنه لم يمسسها بشر ، يحتمل الحلال والحرام ، ولم تستبعد قدرة الله إنما تساءلت كيف يكون هذا الولد ؟ هل من قبل الزوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء ؟

(٣) في نسخ البداية المطبوعة : يدل والصواب ما أثبتناه .

لذلك رجل من عباد بني إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار وكان ابن خالها[1] فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج فعرض لها ذات يوم في الكلام فقال : يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم فمن خلق الزرع الأول ؟ ثم قال : فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر ؟ قالت : نعم . فمن خلق الشجر الأول ؟ ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت : نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى قال لها : فأخبريني خبرك فقالت إن الله بشرني ﴿ بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين ﴾ ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا والله أعلم .

وذكر السدي بإسناده عن الصحابة أن مريم دخلت يوماً على أختها ، فقالت لها أختها : أشعرت أني حبلى فقالت مريم وشعرت أيضاً أني حبلى؟فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك وذلك قوله : ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ ومعنى السجود ههنا الخضوع والتعظيم كالسجود عند المواجهة للسلام كما كان في شرع من قبلنا وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم . وقال أبو القاسم : قال مالك : بلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة وكان حملهما جميعاً معاً فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك قال مالك أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام لأن الله تعالى جعله يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص . رواه ابن أبي حاتم وروي عن مجاهد قال : قالت مريم : كنت إذا خلوت حدثني وكلمني وإذا كنت بين الناس سبح في بطني .

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن إذ لو كان خلاف ذلك لذكر . وعن ابن عباس وعكرمة أنها حملت به ثمانية أشهر ، وعن ابن عباس ما هو إلا أن حملت به فوضعته [في الحال ، وهذا هو الظاهر ، لأن الله تعالى ، ذكر الانتباذ بعد الحمل][2] قال بعضهم حملت به تسع ساعات واستأنسوا لذلك بقوله : ﴿ فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ﴾ والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه لقوله : ﴿ فتصبح الأرض مخضرة ﴾ [الحج : ٦٣] وكقوله : ﴿ فخلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون: ١٤]. ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه .

قال محمد بن إسحاق شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل فما دخل على أهل بيت ما دخل

---

(١) في الطبري : ابن عمها .

(٢) ما بين معكوفين زيادة من القرطبي ، من سياق كلام ابن عباس .

علي ال بيت زكريا . قال واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكاناً قصياً[1] وقوله: ﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة﴾ أي فألجاها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة وهو بنص الحديث الذي رواه النسائي بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعاً والبيهقي بإسناد وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضاً ببيت لحم[2] الذي بنى عليه بعض ملوك الروم فيما بعد على ما سنذكره هذا البناء المشاهد الهائل ﴿ قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتن وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه ومن بيت النبوة والديانة فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿ نسياً منسياً ﴾ أي لم تخلق بالكلية . وقوله : ﴿ فناداها من تحتها ﴾ وقرىء من تحتها على الخفض وفي المضمر قولان أحدهما : أنه جبريل قاله العوفي عن ابن عباس قال : ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم وهكذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدي وقتادة . وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير في رواية هو ابنها عيسى واختاره ابن جرير . وقوله : ﴿ أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ قيل النهر وإليه ذهب الجمهور . وجاء فيه حديث رواه الطبراني لكنه ضعيف، واختاره ابن جرير وهو الصحيح . وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم أنه ابنها والصحيح الأول لقوله : ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ فذكر الطعام والشراب ولهذا قال : ﴿ فكلي واشربي وقري عيناً ﴾ . ثم قيل كان جذع النخلة يابساً وقيل كانت نخلة مثمرة فالله أعلم . ويحتمل أنها كانت نخلة لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك لأن ميلاده كان في زمن الشتاء[2] وليس ذاك وقت ثمر وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان ﴿ تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ قال عمرو بن ميمون ليس شيء أجود للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هذه الآية . وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا شيبان ، حدثنا مسرور بن سعيد التميمي ، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي[3] ، عن عروة بن رويم ، عن علي بن أبي طالب قال : قال

---

(١) قال ابن قتيبة في المعارف : وكان يوسف النجار خطب مريم وتزوجها فيما ذكر في الإنجيل فلما صارت إليه وجدها حبلى قبل أن يباشرها وكان رجلاً صالحاً فكره أن يفشي عليها واتئمر أن يسرحها خفية فتراءى له ملك في النوم فقال يا يوسف إن امرأتك مريم سوف تلد ابناً يسمى عيسى وهو ينجي أمته من خطاياهم .

(٢) قال المسعودي : ولد بقرية يقال لها بيت لحم على أميال من بيت المقدس ، وقد ولدته في يوم الأربعاء لأربع وعشرين ليلة خلت من كانون الأول .

(٣) في نسخ البداية المطبوعة : الأنصاري وهو تصحيف . وعبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو الأوزاعي ، أبو عمرو الفقيه شيخ الإسلام ثقة جليل . من السابعة مات سنة ١٥٧ تقريب التهذيب ١/١٠٦٤/٤٩٣ الكاشف ١/١٥٨.

رسول الله ﷺ : « أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم وليس من الشجرة شيء يلقح غيرها »[1] . وقال رسول الله ﷺ : « أطعموا نساءكم الولد الرطب فإن لم يكن رطب فتمر وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران » . وكذا رواه أبو يعلى في مسنده عن شيبان بن فروخ ، عن مسروق بن سعيد ، وفي رواية مسرور بن سعد . والصحيح مسرور بن سعيد التميمي أورد له ابن عدي هذا الحديث عن الأوزاعي به ثم قال وهو منكر الحديث، ولم أسمع بذكره إلاّ في هذا الحديث. وقال ابن حبان يروي عن الأوزاعي المناكير الكثيرة التي لا يجوز الاحتجاج بمن يرويها . وقوله : ﴿ فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ . وهذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتها قال : ﴿ كلي واشربي وقري عيناً فإما ترين من البشر أحداً ﴾ أي فإن رأيت أحداً من الناس ﴿ فقولي ﴾ له أي بلسان الحال والإشارة ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ أي صمتاً وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام قاله قتادة والسدي وابن اسلم ويدل على ذلك قوله : ﴿ فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ فأما في شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل وقوله تعالى : ﴿ فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً ﴾ ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا في طلبها ، فمروا على محلتها والأنوار حولها ، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها : ﴿ يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً ﴾ أي أمراً عظيماً منكراً . وفي هذا الذي قالوه نظر مع أنه كلام ينقض أوله آخره وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملت بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله . قال ابن عباس وذلك بعد ما تعالت[2] من نفاسها بعد أربعين يوماً[3] .

والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها ﴿ قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً ﴾ والفرية هي الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال ثم قالوا لها : ﴿ يا أخت هرون ﴾ قيل شبهوها بعابد من عباد زمانهم كانت تساميه في العبادة وكان اسمه هرون وقيل شبهوها برجل فاجر في زمانهم اسمه هرون . قاله سعيد بن جبير وقيل أرادوا بهارون أخا موسى شبهوها به في العبادة . وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهرون نسباً فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم ما يرده عن هذا القول الفظيع وكأنه غره أن في التوراة أن مريم أخت موسى وهرون ضربت بالدف يوم نجا الله موسى وقومه وأغرق فرعون وملأه فاعتقد أن هذه هي هذه وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن كما قررناه في التفسير مطولاً ولله

(١) رواه ابن عساكر في تاريخه ٢/٣٤٢ تهذيب . ورواه الشوكاني في الفوائد المجموعة (٤٨٩) .

(٢) في نسخ البداية المطبوعة : تعلت والصواب ما أثبتناه .

(٣) هذا القول نقله القرطبي عن الكلبي أما ابن عباس فقال : خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس فجاءتهم عند الظهر ومعها صبي تحمله ، فكان الحمل والولادة في ثلاث ساعات .

الحمد والمنة . وقد ورد الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هرون وليس في ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها ما يدل على أنها ليس لها أخ سواها والله أعلم . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن ادريس سمعت أبي يذكره عن سماك عن علقمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة قال بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا أرأيت ما تقرأون : ﴿ يا أخت هرون ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا قال فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم »[1] وكذا رواه مسلم والنسائي والترمذي من حديث عبد الله بن إدريس وقال الترمذي حسن صحيح غريب لا نعرفه إلاّ من حديثه وفي رواية : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بأسماء صالحيهم وأنبيائهم » وذكر قتادة وغيره أنهم كانوا يكثرون من التسمية بهارون حتى قيل إنه حضر بعض جنائزهم بشر كثير منهم ممن يسمى بهارون أربعون ألفاً فالله أعلم .

والمقصود أنهم قالوا : ﴿ يا أخت هرون ﴾ ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسبي اسمه هرون ، وكان مشهوراً بالدين والصلاح والخير ولهذا قالوا : ﴿ ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً ﴾ أي لست من بيت هذا شيمتهم ولا سجيتهم لا أخوك ولا أمك ولا أبوك فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء ، فذكر ابن جرير[2] في تاريخه أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ففر منهم فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك أبليس بطرف ردائه فنشروه فيها كما قدمنا ، ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها[3] يوسف بن يعقوب النجار فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال عظم التوكل على ذي الجلال ولم يبق إلاّ الإخلاص والاتكال ﴿ فأشارت إليه ﴾ أي خاطبوه وكلموه ، فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه . فعندها ﴿ قالوا ﴾ من كان منهم جباراً شقياً ﴿ كيف نكلم من كان في المهد صبياً ﴾ أي كيف تحيلينا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب ، وهو مع ذلك رضيع في مهده ، ولا يميز بين محض وزبده وما هذا منك إلاّ على سبيل التهكم بنا ، والاستهزاء والتنقص لنا والازدراء ، إذ لا تردين علينا قولاً نطقياً بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبياً فعندها ﴿ قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً . وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً . والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴾ . هذا أول كلام تفوه به عيسى بن مريم فكان أول ما تكلم به أن ﴿ قال إني عبد الله ﴾ اعترف لربه تعالى

---

(١) اخرجه أحمد في مسنده ج ٢٥٢/٤ واخرجه مسلم في صحيحه ٣٨ كتاب الآداب ١ باب ح ٢١٣٥/٩ ص ١٦٨٥/٣ .

(٢) الخبر في تاريخ الطبري ٢٢/٢ عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ ؛ في سياق قصة مريم ؛ والذين اتهموه : بنو اسرائيل .

(٣) تقدم أنه ابن عمها .

بالعبودية وأن الله ربه فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله بل هو عبده ورسوله وابن أمته ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله : ﴿ آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم كما قال تعالى : ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ [النساء : ١٥٦] وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا إنها حملت به من زنا في زمن الحيض لعنهم الله فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صديقة واتخذ ولدها نبياً مرسلاً أحد أولي العزم الخمسة الكبار ولهذا قال : ﴿ وجعلني مباركاً أينما كنت ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالى وتقدس ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾ وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة والإحسان إلى الخليقة بالزكاة وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف وقرى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات.

ثم قال: ﴿وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً﴾ أي وجعلني براً بوالدتي وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد له سواها فسبحان من خلق الخليقة وبراها وأعطى كل نفس هداها . ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ أي لست بفظ ولا غليظ ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته . ﴿ والسلام علي يوم ولدت يوم أموت ويوم أبعث حياً ﴾ . وهذه الأماكن الثلاثة[1] التي تقدم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام . ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية وبين أمره ووضحه وشرحه[2] . قال : ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [مريم : ٣٤ ـ ٣٥] كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران : ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم . فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين ﴾

---

(١) يوم ولدت : يعني في الدنيا ، وقيل من همز الشيطان .
ويوم أموت : يعني في القبر ، ويوم أبعث حياً : يعني في الآخرة .

(٢) في الآيات دلالات عديدة أبرزها :
ـ أن عيسى تكلم في طفولته ثم عاد إلى حالة الأطفال فكان نطقه اظهار براءة أمه .
ـ أن عيسى تكلم في المهد خلافاً لليهود والنصارى .
ـ أن الصلاة والزكاة وبر الوالدين كان واجباً على الأمم السالفة ، والقرون الخالية الماضية .
ـ الإشارة بمنزلة الكلام وتُفهم ما يُفهم القول . قال المهلب : وقد تكون الإشارة في كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام .

[آل عمران: ٥٨ ـ ٦٣] . ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راكباً يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم وهم العاقب والسيد وأبو حارثة بن علقمة فجعلوا يناظرون في أمر المسيح ، فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك وبين أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله ، وأمر رسوله بأن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه ، فلما رأوا عينيها وأذنيها نكصوا وامتنعوا عن المباهلة وعدلوا إلى المسالمة والموادعة وقال قائلهم : وهو العاقب عبد المسيح : يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمداً لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ولقد علمتم أن ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزية وأن يبعث معهم رجلاً أميناً فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح وقد بيّنا ذلك في تفسير آل عمران وسيأتي بسط هذه القضية في السيرة النبوية[١] إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

والمقصود أن الله تعالى بيّن أمر المسيح قال لرسوله : ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ يعني من أنه عبد مخلوق[٢] من امرأة من عباد الله ولهذا قال : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أي لا يعجزه شيء ولا يكترثه ولا يؤوده بل هو القدير الفعال لما يشاء ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وقوله : ﴿ إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد أخبرهم أن الله ربه وربهم وإلهه وإلههم وأن هذا هو الصراط المستقيم . قال الله تعالى : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ [مريم: ٣٧] أي فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه فمن قائل من اليهود إنه ولد زنية ، واستمروا على كفرهم وعنادهم . وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا هو الله وقال آخرون هو ابن الله . وقال المؤمنون هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه وهؤلاء هم الناجون المثابون المؤيدون المنصورون ومن خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون ، وقد توعدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله : ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ .

قال البخاري : حدثنا صدقة بن الفضل ، أنبأنا الوليد ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني عمير بن هانىء ، حدثني جنادة بن أبي أمية ، عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى

---

(١) راجع سيرة ابن كثير ٤/ ١٠/ ١٠٨ .

(٢) اعتقد اليهود أنه ابن يوسف النجار وقالت النصارى أنه الإلَه أو ابن الإله ، وقول الحق هو كلمة الله في نعته لعيسى ؛ فكلام الله هو القول الحق الذي فيه يشكون .

مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » . قال الوليد فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير عن جنادة وزاد « من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء »[1] . وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد عن الوليد [بن مسلم][2] عن [ابن][2] جابر به ومن طريق أخرى عن الأوزاعي به .

باب بيان أن الله تعالى منزه عن الولد
[تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبير][3]

قال تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً اداً ﴾ أي شيئاً عظيماً ومنكراً من القول وزوراً ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من في السموات والأرض إلاّ آتي الرحمن عبداً . لقد احصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥] فبين أنه تعالى لا ينبغي له الولد لأنه خالق كل شيء ومالكه وكل شيء فقير إليه ، خاضع ذليل لديه وجميع سكان السموات والأرض عبيده وهو ربهم لا إله إلاّ هو ولا رب سواه .

كما قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلاّ هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ [الأنعام: ١٠٠ - ١٠٣] . فبين أنه خالق كل شيء فكيف يكون له ولد ، والولد لا يكون إلاّ بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا نظير له ولا شبيه له ولا عديل له فلا صاحبة له فلا يكون له ولد . كما قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤] يقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿ الصمد ﴾ وهو السيد الذي كمل في علمه وحكمته و[بلغ][4] رحمته وجميع صفاته ﴿ لم يلد ﴾ أي لم يوجد منه ولد ﴿ ولم يولد ﴾ أي ولم يتولد عن شيء قبله ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ أي وليس له عدل ولا مكافىء ولا مساو فقطع النظير المداني الأعلى والمساوي فانتفى أن يكون له ولد إذ لا يكون الولد إلاّ متولداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقال تبارك وتعالى وتقدس : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١ كتاب الإيمان ١٠ باب ٤٦/٢٨/ص ١/ ٥٧ . والبخاري حديث رقم ١٦٠٤ .

(٢) ما بين معكوفين سقطت من نسخ البداية واستدركت من مسلم .

(٣) ما بين معكوفين سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٤) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

دينكم ولا تقولوا على الله إلاّ الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إلَهٌ واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً . لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ [النساء : ١٧١ - ١٧٣] .

ينهى تعالى أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلو والإطراء في الدين وهو مجاوزة الحد ، فالنصارى لعنهم الله غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد . فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التي أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام ، والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم ، وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى كما يقال : بيت الله وناقة الله وعبد الله ، وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفاً لها وتكريماً . وسمي عيسى بها لأنه كان بها من غير أب وهي الكلمة أيضاً التي عنها خلق وبسببها وجد كما قال تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [البقرة: ١١٦ - ١١٧] . وقال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ [التوبة: ٣٠] . فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى عليهم لعائن الله ، كل من الفريقين ادعوا على الله شططاً وزعموا أن له ولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ولا فيما ائتفكوه ، إلاّ مجرد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة تشابهت قلوبهم . وذلك أن الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود الذي يعبرون عنه بعلة العلل والمبدأ الأول ، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثان ونفس وفلك ، ثم صدر عن الثاني كذلك حتى تناهت العقول إلى عشرة والنفوس إلى تسعة والأفلاك إلى تسعة باعتبارات فاسدة ذكروها واختيارات باردة أوردوها ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر . وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا - لجهلهم - أن الملائكة بنات الله وأنه صاهر سروات الجن فتولد منها الملائكة . تعالى الله عما يقولون وتنزه عما يشركون كما قال تعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ [الزخرف: ١٩] وقال تعالى : ﴿ فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن

كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون إلاّ عباد الله المخلصين﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٦٠]. وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩] : وقال تعالى في أول سورة الكهف وهي مكية : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً . وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآباءهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً ﴾ [الكهف: ١ - ٥] . وقال تعالى : ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ [يونس: ٦٨ - ٧٠] فهذه الآيات المكيات الكريمات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارى الذين ادعوا وزعموا بلا علم أن لله ولداً سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً .

ولما كانت النصارى عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة من أشهر من قال بهذه المقالة ذكروا في القرآن كثيراً للرد عليهم وبيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم ، وقد تنوعت أقوالهم في كفرهم ، وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض . وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب . قال الله تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [النساء: ٨٢] . فدل على أن الحق يتحد ويتفق والباطل يختلف ويضطرب . فطائفة من ضلالهم وجهالهم زعموا أن المسيح هو الله تعالى وطائفة قالوا هو ابن الله عزَّ الله وطائفة قالوا هو ثالث ثلاثة . جلَّ الله[1] . قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ [المائدة: ١٧] فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم وبيّن أنه الخالق القادر على كل شيء المتصرف في كل شيء وأنه رب كل شيء ومليكه وإلهه . وقال في أواخرها : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور

(١) النسطورية : قالوا ابن الله ، والملكانية قالوا : ثالث ثلاثة ، واليعقوبية قالوا : هو الله .

رحيم . ما المسيح بن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٥] حكم تعالى بكفرهم شرعاً وقدراً فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم هو عيسى بن مريم قد بيّن لهم أنه عبد مربوب مخلوق مصور في الرحم داع إلى عبادة الله وحده لا شريك له وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار وعدم الفوز بدار القرار والخزي في الدار الآخرة والهوان والعار ولهذا قال : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ ثم قال : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلاّ إله واحد ﴾ قال ابن جرير وغيره المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة . أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن على اختلافهم في ذلك ما بين الملكية واليعقوبية والنسطورية عليهم لعائن الله كما سنبين كيفية اختلافهم في ذلك ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين بن قسطس وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة ولهذا قال تعالى : ﴿ وما من إله إلاّ إله واحد ﴾ أي وما من إله إلاّ الله وحده لا شريك له ولا نظير له ولا كفؤ له ولا صاحبة له ولا ولد ثم توعدهم وتهددهم فقال : ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار والعظائم التي توجب النار فقال : ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ ثم بين حال المسيح وأمه وأنه عبد رسول وأمه صديقة أي ليست بفاجرة كما يقوله اليهود لعنهم الله وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا وقوله : ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما أي ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلهاً تعالى الله عن قولهم وجهلهم علواً كبيراً . وقال السدي وغيره المراد بقوله لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة زعمهم في عيسى وأمه أنهما الإلهان مع الله يعني كما بيّن تعالى كفرهم في ذلك بقوله في آخر هذه السورة الكريمة : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله . قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨] . يخبر تعالى أنه يسأل عيسى بن مريم يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله أو أنه الله أو أنه شريكه تعالى الله عما يقولون فيسأله، وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ﴾ أي تعاليت أن يكون معك شريك ﴿ ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ أي ليس هذا يستحقه أحد سواك ﴿ وإن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب ﴾ . وهذا

تأدب عظيم في الخطاب والجواب : ﴿ ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به ﴾ [أي ما قلت غير ما أمرتني عليه][1] حين أرسلتني إليهم وأنزلت عليّ الكتاب الذي كان يتلى عليهم ثم فسر ما قال لهم بقوله : ﴿ أن أعبدوا الله ربي وربكم ﴾ أي خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني ﴾ أي رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلبي فرحمتني وخلصتني منهم وألقيت شبهي على أحدهم حتى انتقموا منه فلما كان ذلك ﴿ كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ . ثم قال على وجه التفويض إلى الرب عزّ وجلّ والتبري من أهل النصرانية ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ أي وهم يستحقون ذلك ﴿ وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك ولهذا قال : ﴿ فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ولم يقل الغفور الرحيم .

وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ وقال : « إني سألت ربي عزّ وجلّ الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئاً »[2] . وقال : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون . وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ٢٠] وقال تعالى : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار . خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴾ [الزمر: ٤ ـ ٥] . وقال تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ [الزخرف: ٨١ ـ ٨٢] وقال تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ﴾ [الإسراء : ١١١] وقال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤] وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : « شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك يزعم أن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد »[3] وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه

---

(١) ما بين معكوفين سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٢) مسند أحمد ج ١٤٩/٥ والبخاري في صحيحه ٢١٥/٨ فتح الباري وأبو داود الطيالسي في مسنده .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣١٩٣/١/٥٩ فتح الباري وفي ٤٩٧٥/١١٢/٦٥ فتح وأخرجه النسائي في سننه .

من الله إنهم يجعلون لـه ولداً وهـو يـرزقهم ويعـافيهم »[1]. ولكن ثبت في الصحيـح أيضـاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ: ﴿ وكذلـك أخذ ربـك إذا أخذ القـرى وهي ظالمة أن أخذه أليم شـديد ﴾ [هـود: ١٠٢] وهكذا قـوله تعـالى: ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظـالمة ثم أخـذتها وإلى المصـير ﴾ [الحج: ٤٨] وقـال تعالى: ﴿ نمتعهم قليـلاً ثم نضطرهم إلى عـذاب غليظ ﴾ [لقمانِ: ٢٤] وقـال تعالى: ﴿ قـل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كـانوا يكفـرون ﴾ [يـونس: ٦٩ ـ ٧٠] وقـال تعـالى: ﴿ فمهـل الكـافـرين أمهلهم رويـدا ﴾ [الطارق: ١٧].

[ذكر][2] منشأ عيسى بن مريم عليهما السلام [ومرباه في صغره وصباه][2] وبيان بدء الوحي إليه من الله تعالى

قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريباً من بيت المقدس. وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر وأن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار وهي راكبة على حمار ليس بينهما وبين الإكاف شيء. وهذا لا يصح والحديث الذي تقدم ذكره دليل على أن مولده كـان ببيت لحم، كما ذكـرنا ومهـما عارضه فباطل.

وذكر وهب بن منبه أنـه لما ولـد خرت الأصنـام يومئـذٍ في مشارق الأرض ومغـاربها. وأن الشياطين حارت في سبب ذلك، حتى كشف لهم إبليس الكبير أمر عيسى فـوجدوه في حجـر أمه والملائكة محدقة بـه وأنه ظهـر نجم عظيم في السـماء وأن ملك الفرس اشفق من ظهـوره، فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا هذا لمولد عظيم في الأرض، فبعث رسله ومعهم ذهب ومرٍ ولبانٍ[3] هدية إلى عيسى فلما قدموا الشام سألهم ملكها[4] عما أقدمهم فذكروا له ذلك فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى بن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها إن رسل ملك الشام إنما جاؤوا ليقتلوا ولدك فاحتملته فذهبت به إلى مصر[5] فأقامت به حتى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤٥/١٥/٢٥٨٣ كما رواه البخاري في التفسير وابن ماجه في الفقه.

(٢) سقطت من نسخ البداية المطبوعة.

(٣) المر: يجبر به الجرح والكسر، واللبان: ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره.

(٤) في الطبري: أن رسل ملك فارس صاروا إلى هيرودس غلطاً، وكانت الرياسة على بيت المقدس لقيصر والملك من قبل قيصر عليها هيرودس الكبير.

(٥) قال ابن الأثير في الكامل والطبري في تاريخه: كان سبب قدومها مصر خوفها من ملك بني اسرائيل، وكان من الروم واسمه هيرودس وإن اليهود اغروه بقتله.

بلغ عمره اثنتي عشرة سنة ، وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره . فذكر منها أن الدهقان الذي نزلوا عنده افتقد مالاً من داره وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج فلم يدر من أخذه وعزّ ذلك على مريم عليها السلام وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعياهم أمرها فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك عمد إلى رجل أعمى ، وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه فقال للأعمى : احمل هذا المقعد وانهض به فقال : إني لا أستطيع ذلك فقال بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال فعظم عيسى في أعين الناس وهو صغير جداً[1] .

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب طهور أولاده فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يسقيهم شراباً يعني خمراً كما كانوا يصنعون في ذلك الزمان لم يجد في جراره شيئاً فشقّ ذلك عليه فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمر على تلك الجرار ويمر يده على أفواهها فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شراباً من خيار الشراب . فتعجب الناس من ذلك جداً وعظموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالاً جزيلاً فلم يقبلاه وارتحلا قاصدين بيت المقدس والله أعلم .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا عثمان بن ساج وغيره ، عن موسى بن وردان ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد وعن مكحول عن أبي هريرة قال : إن عيسى بن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلم به وهو طفل فمجد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله لم يدع شمساً ولا قمراً ولا جبلاً ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره في تمجيده فقال : اللهم أنت القريب في علوك ، المتعال في دنوك ، الرفيع على كل شيء من خلقك . أنت الذي خلقت سبعاً في الهواء بكلماتك مستويات طباقاً أجبن وهن دخان من فرقك، فأتين طائعات لأمرك فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك ، وجعلت فيهن نوراً على سواد الظلام وضياء من ضوء الشمس بالنهار ، وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد ، فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك ، وجعلت فيهن مصابيح يهتدي بهن في الظلمات الحيران ، فتباركت اللهم في مفطور سمواتك وفيما دحوت من أرضك دحوتها على الماء فسمكتها على تيار الموج الغامر ، فأذللتها إذلال التظاهر ، فذل لطاعتك صعبها واستحيى لأمرك أمرها وخضعت لعزتك أمواجها ، ففجرت فيها بعد البحور الأنهار ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار ، ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتاداً على ظهر الماء ، فأطاعت أطوادها وجلمودها ، فتباركت اللهم فمن يبلغ بنعته نعتك، أم من يبلغ بصفته صفتك؟ تنشر السحاب وتفك الرقاب وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين ، لا إله إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنب ، لا إله إلا أنت سبحانك سترت السموات عن الناس ، لا إله إلا أنت سبحانك إنما يغشاك من عبادك

(1) الخبر رواه الطبري في تاريخه : ج ٢/٢١ و ٢٥ .

الأكياس ، نشهد أنك لست بإله استحدثناك ، ولا رب يبيد ذكره ، ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذرك ، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك ، نشهد أنك أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لك كفواً أحد .

وقال إسحاق بن بشر ، عن جويبر ومقاتل ، عن الضحاك عن ابن عباس : أن عيسى بن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ثم انطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول وكانوا يسمونه ابن البغية وذلك قوله تعالى ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ [النساء : ١٥٦] قال فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه في الكتاب فجعل لا يعلمه المعلم شيئاً إلاّ بدره إليه فعلمه أبا جاد فقال عيسى : ما أبو جاد ؟ فقال المعلم : لا أدري فقال عيسى : كيف تعلمني ما لا تدري ؟ فقال المعلم : إذاً فعلمني . فقال له عيسى : فقم من مجلسك ، فقام فجلس عيسى مجلسه فقال سلني : فقال المعلم ما أبو جاد فقال عيسى : الألف آلاء الله . والباء بهاء الله والجيم بهجة الله وجماله . فعجب المعلم من ذلك فكان أول من فسر أبا جاد .

ثم ذكر أن عثمان سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فأجابه على كل كلمة بحديث طويل موضوع لا يسأل ولا يتمادى . وهكذا روى ابن عدي من حديث إسماعيل بن عياش ، عن إسمعيل بن يحيى ، عن ابن أبي مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود ، وعن مسعر بن كدام عن عطية ، عن أبي سعيد رفع الحديث في دخول عيسى إلى الكتاب وتعليمه المعلم معنى حروف أبي جاد وهو مطول لا يفرح به . ثم قال ابن عدي وهذا الحديث باطل بهذا الإسناد لا يرويه غير اسمعيل ، وروى ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة قال كان عبد الله بن عمر يقول : كان عيسى بن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان فكان يقول لأحدهم : تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك ؟ فيقول نعم فيقول : خبأت لك كذا وكذا . فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها أطعميني ما خبأت لي . فتقول وأي شيء خبأت لك ؟ فيقول كذا وكذا . فتقول له : من أخبرك ؟ فيقول عيسى بن مريم . فقالوا والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم فجمعوهم في بيت وأغلقوا عليهم ، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم فسمع ضوضاءهم في بيت فسأل عنهم فقالوا : إنما هؤلاء قردة وخنازير . فقال اللهم كذلك فكانوا كذلك رواه ابن عساكر .

وقال اسحق بن بشر ، عن جويبر ، ومقاتل عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : وكان عيسى يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله ، ففشا ذلك في اليهود وترعرع عيسى ، فهمست به بنو إسرائيل ، فخافت أمه عليه فأوحى الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر فذلك قوله تعالى : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ [المؤمنون : ٥٠].

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه الربوة التي ذكر الله من صفتها أنها ذات قرار

ومعين ، وهذه صفة غريبة الشكل ، وهي أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض الذي أعلاه مستو يقر عليه وارتفاعه متسع ، ومع علوه فيه عيون الماء معين ، وهو الجاري السارح على وجه الأرض فقيل المراد المكان الذي ولدت فيه المسيح وهو نخلة بيت المقدس ولهذا ﴿ ناداها من تحتها الا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا ﴾[1] وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف . وعن ابن عباس بإسناد جيد أنها أنهار دمشق فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق . وقيل ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم والله أعلم . وقيل هي الرملة . وقال إسحق بن بشر قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبه ، قال إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت ايليا قال فقدم عليه يوسف ابن خال أمه فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم وتحدث الناس بقدومه وفزعوا لما كان يأتي من العجائب ، فجعلوا يعجبون منه فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره .

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها

قال أبو زرعة الدمشقي : حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني معاوية بن صالح عمن حدثه قال : « أنزلت التوراة على موسى في ست ليال خلون من شهر رمضان . ونزل الزبور على داود في اثنتي عشر ليلة خلت من شهر رمضان . وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة واثنتين وثمانين سنة . وأنزل الإنجيل على عيسى بن مريم في ثمانية عشرة ليلة خلت من رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عاماً وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في أربع وعشرين من شهر رمضان وقد ذكرنا في التفسير عند قوله : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ [البقرة: ١٨٥] الأحاديث الواردة في ذلك وفيها أن الإنجيل أنزل على عيسى بن مريم عليه السلام في ثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان .

وذكر ابن جرير في تاريخه[2] أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وقال إسحاق بن بشر وأنبأنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ومقاتل ، عن قتادة ، عن عبد الرحمن بن آدم ، عن أبي هريرة قال : أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى عيسى بن مريم : يا عيسى جدَّ في أمري ولا تهن واسمع وأطع يا بن الطاهرة البكر البتول : إنك من غير فحل وأنا خلقتك آية للعالمين ، إياي فاعبد ، وعليّ فتوكل خذ الكتاب بقوة ، فسر لأهل السريانية بلغ من بين يديك : إني أنا الحق الحي القائم[3] الذي لا أزول صدقوا

---

(١) سورة مريم الآية ٢٤ بلفظ : فناداها .

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٢١ .

(٣) العبارة في البيهقي : إني أنا الله الحي القيوم .

النبي الأمي العربي صاحب الجمل والتاج (وهي العمامة) والمدرعة والنعلين والهراوة (وهي القضيب) الأنجل العينين ، الصلت الجبين ، الواضح الخدين ، الجعد الرأس ، الكث اللحية ، المقرون الحاجبين ، الأقنى الأنف ، المفلج الثنايا ، البادي العنفقة[1] الذي كان عنقه ابريق فضة وكأن الذهب يجري في تراقيه له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره ، شثن الكف والقدم ، إذا التفت التفت جميعاً ، وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صبب ، عرقه في وجهه كاللؤلؤ ، وريح المسك تنفح منه ولم ير قبله ولا بعده مثله ، الحسن القامة الطيب الريح ، نكاح النساء ذا النسل القليل[2] ، إنما نسله من مباركة لها بيت يعني في الجنة من قصب لا نصب فيه ولا صخب تكفله يا عيسى في آخر الزمان كما كفل زكريا أمك له منها فرخان مستشهدان وله عندي منزلة ليست لأحد من البشر. كلامه القرآن ودينه الإسلام وأنا السلام طوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه »[3] .

قال عيسى يا رب وما طوبى ؟ قال : غرس شجرة أنا غرستها بيدي فهي للجنان كلها أصلها من رضوان وماؤها من تسنيم وبردها برد الكافور وطعمها طعم الزنجبيل وريحها ريح المسك من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً . قال عيسى يا رب إسقني منها قال : حرام على النبين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبي وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى يشرب منها أمة ذلك النبي . قال : يا عيسى أرفعك إليّ ؟ قال رب ولم ترفعني قال : أرفعك ثم اهبطك في آخر الزمان لترى من أمة ذلك النبي العجائب ولتعينهم على قتال اللعين الدجال أهبطك في وقت صلاة ثم لا تصلي بهم لأنها مرحومة ولا نبي بعد نبيهم . وقال هشام بن عمار ، عن الوليد بن مسلم ، عن عبد الرحمن بن زيد ، عن أبيه أن عيسى قال : يا رب انبئني عن هذه الأمة المرحومة قال : أمة أحمد هم علماء حكماء كأنهم انبياء يرضون مني بالقليل من العطاء وأرضى منهم باليسير من العمل ، وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله . ياعيسى هم أكثر سكان الجنة لأنه لم تذل السن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم ، ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت به رقابهم . رواه ابن عساكر . وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن بديل العقيلي ، عن عبد الله بن عوسجة قال : أوحى الله إلى عيسى بن مريم : أنزلني من نفسك كهمك واجعلني ذخراً لك في معادك وتقرب إليّ بالنوافل أحبك ولا تول غيري فأخذلك ، اصبر على البلاء وأرض بالقضاء ، وكن لمسرتي فيك فإن مسرتي أن أطاع فلا أعصى ، وكن مني قريباً وأحيي ذكري بلسانك، ولتكن مودتي في صدرك ، تيقظ من

---

(١) العنفقة : الشعيرات الخفيفة بين الشفة السفلى والذقن .

(٢) في البيهقي : زاد : كأنه أراد الذكور من نسله .

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل ـ سوى الجزء الأخير منه ـ عن مقاتل بن حيان ج ٣٧٨/١ وأورده ابن عساكر تاريخه المختصر ٣٤٤/١.

ساعات الغفلة واحكم في لطيف الفطنة، وكن لي راغباً راهباً ، وأمت قلبك في الخشية لي ، وراع الليل لحق مسرتي واظم نهارك ليوم الري عندي ، نافس في الخيرات جهدك واعترف بالخير حيث توجهت ، وقم في الخلائق بنصيحتي ، واحكم في عبادي بعدلي فقد أنزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان وجلاء الأبصار من غشاء الكلال ، ولا تكن حلساً كأنك مقبوض وأنت حي تنفس . يا عيسى بن مريم ما آمنت بي خليقة إلاّ خشعت ، ولا خشعت لي إلاّ رجت ثوابي ، فاشهدك أنها آمنة من عقابي ما لم تغير أو تبدل سنتي . يا عيسى بن مريم البكر البتول ابك على نفسك أيام الحياة بكاء من ودع الأهل وقلا الدنيا وترك اللذات لأهلها ، وارتفعت رغبته فيما عند إلهه وكن في ذلك تلين الكلام وتفشي السلام وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار ، حذار ما هو آت من أمر المعاد وزلازل شدايد الأهوال قبل أن لا ينفع أهل ولا مال ، واكحل عينك بملول[1] الحزن إذا ضحك البطالون وكن في ذلك صابراً محتسباً ، وطوبى لك إن ذلك ما وعدت الصابرين رح من الدنيا بالله يوم بيوم وذق مذاقة ما قد حرب منك أين طعمه وما لم يأتك كيف لذته فرح من الدنيا بالبلغة وليكفك منها الخشن الجشيب[2] ، قد رأيت إلى ما يصير ، اعمل على حساب فإنك مسؤول ، لو رأت عيناك ما أعددت لأوليائي الصالحين ذاب قلبك وزهقت نفسك .

وقال أبو داود في « كتاب القدر » : حدثنا محمد بن يحيى بن فارس ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : لقي عيسى بن مريم إبليس فقال : أما علمت أنه لن يصيبك إلاّ ما كتب لك ؟ قال إبليس : فارق بذروة هذا الجبل فترد[3] منه فانظر هل تعيش أم لا ـ فقال ابن طاوس ـ عن أبيه . فقال عيسى أما علمت أن الله قال : لا يجربني عبدي فإني أفعل ما شئت . وقال الزهري : إن العبد لا يبتلي ربه ولكن الله يبتلي عبده . قال أبو داود : حدثنا أحمد بن عبدة ، أنبأنا سفيان ، عن عمرو ، عن طاوس قال : أتى الشيطان عيسى بن مريم فقال : أليس تزعم أنك صادق فأت هوة فألق نفسك . قال : ويلك أليس قال يا ابن آدم لا تسألني هلاك نفسك فإني أفعل ما أشاء . وحدثنا أبو توبة الربيع بن نافع ، حدثنا حسين بن طلحة ، سمعت خالد بن يزيد قال : تعبد الشيطان مع عيسى عشر سنين أو سنتين أقام يوماً على شفير جبل ، فقال الشيطان أرأيت أن ألقيت نفسي هل يصيبني إلاّ ما كتب لي قال : إني لست بالذي ابتلي ربي ، ولكن ربي إذا شاء ابتلاني وعرفه أنه الشيطان ففارقه . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا شريح بن يونس ، حدثنا علي بن ثابت ، عن الخطاب بن القاسم ، عن أبي عثمان قال : كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل فأتاه إبليس فقال : أنت الذي تزعم أن كل

(١) ملول : جمع ملة ، وهي الرماد الحار ينضج فيه الخبز .

(٢) الجشيب : الغليظ ، وفي المطبوعة : الجنيب وهو تحريف .

(٣) في نسخ البداية فتروى ، وهو خطأ والصواب لغة ما أثبتناه .

شيء بقضاء وقدر قال : نعم . قال : ألق نفسك من هذا الجبل وقل قدر عليّ فقال : يا لعين الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله عزَّ وجلَّ. وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا الفضل بن موسى البصري ، حدثنا إبراهيم بن بشار ، سمعت سفيان بن عيينة يقول : لقي عيسى بن مريم إبليس فقال له إبليس : يا عيسى بن مريم الذي بلغ من عظم ربوبيتك إنك تكلمت في المهد صبياً . ولم يتكلم فيه أحد قبلك قال بل الربوبية للإِله الذي انطقني ثم يميتني ثم يحييني قال : فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيي الموتى قال بل الربوبية لله الذي يحيي [من يشاء][1] ويميت من أحييت ثم يحييه قال والله إنك لإِله في السماء وإله في الأرض قال: فصكه جبريل صكةً بجناحيه فما نباها دون قرون الشمس ، ثم صكه أخرى بجناحيه فما نباها دون العين الحامية ، ثم صكه أخرى فأدخله بحار السابعة فأساخه ، وفي رواية فأسلكه فيها حتى وجد طعم الحمأة ، فخرج منها وهو يقول : ما لقي أحد من أحد ما لقيت منك يا بن مريم . وقد روي نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر فقال الحافظ أبو بكر الخطيب : أخبرني أبو الحسن بن رزقويه ، أنبأنا أبو بكر أحمد بن سبدي ، حدثنا أبو محمد الحسن بن علي القطان ، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار ، أنبأنا علي بن عاصم ، حدثني أبو سلمة سويد ، عن بعض أصحابه قال صلى عيسى ببيت المقدس فانصرف فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس فاحتبسه فجعل يعرض عليه ويكلمه ويقول له : إنه لا ينبغي لك أن تكون عبداً فأكثر عليه وجعل عيسى يحرص على أن يتخلص منه فجعل لا يتخلص منه فقال له فيما يقول : لا ينبغي لك يا عيسى أن تكون عبداً قال : فاستغاث عيسى بربه ، فأقبل جبريل وميكائيل فلما رآهما إبليس كف ، فلما استقر معه على العقبة اكتنفا عيسى وضرب جبريل إبليس بجناحه فقذفه في بطن الوادي قال فعاد إبليس معه وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك فقال لعيسى : قد أخبرتك أنه لا ينبغي أن تكون عبداً إن غضبك ليس بغضب عبد ، وقد رأيت ما لقيت منك حين غضبت ، ولكن أدعوك لأمر هو لك آمر الشياطين فليطيعوك فإذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك ، أما إني لا أقول أن تكون إلهاً ليس معه إله ، ولكن الله يكون إلهاً في السماء وتكون أنت إلهاً في الأرض ، فلما سمع عيسى ذلك منه استغاث بربه ، وصرخ صرخة شديدة ، فإذا إسرافيل قد هبط فنظر إليه جبريل وميكائيل فكف إبليس ، فلما استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه ، فصك به عين الشمس ثم ضربه ضربة أخرى فأقبل إبليس يهوي ومر عيسى وهو بمكانه فقال يا عيسى لقد لقيت فيك اليوم تعباً شديداً فرمى به في عين الشمس فوجد سبعة أملاك عند العين الحامية قال : فغطوه فجعل كلما خرج[2] غطوه في تلك الحمأة قال والله ما عاد إليه بعد . قال وحدثنا إسماعيل العطار ، حدثنا أبو حذيفة ، قال واجتمع إليه شياطينه فقالوا : سيدنا لقد[3]

---

(١) ما بين معكوفين سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٢) في نسخ البداية المطبوعة : كلما صرخ .

(٣) في نسخة قد والصواب ما أثبتناه .

لقيت تعباً قال : إن هٰذا عبد معصوم ليس لي عليه من سبيل ، وسأضل به بشراً كثيراً وأبث فيهم أهواء مختلفة وأجعلهم شيعاً ويجعلونه وأمه إلٰهين من دون الله ، قال : وأنزل الله فيما أيد به عيسى وعصمه من إبليس قرآناً ناطقاً بذكر نعمته على عيسى فقال : ﴿ يا عيسى بن مريم إذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ﴾ [المائدة : ١١٠] يعني إذ قويتك بروح القدس يعني جبريل ﴿ تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير ﴾ [المائدة : ١١٠] الآية كلها وإذ جعلت المساكين لك بطانة وصحابة وأعواناً ترضى بهم وصحابة وأعواناً يرضون بك هادياً وقائداً إلى الجنة فذلك فاعلم خلقان عظيمان من لقيني بهما فقد لقيني بأزكى الخلائق وأرضاها عندي ، وسيقول لك بنو إسرائيل صمنا فلم يتقبل صيامنا ، وصلينا فلم يقبل صلاتنا ، وتصدقنا فلم يقبل صدقاتنا ، وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يرحم بكاؤنا ، فقل لهم ولم ذلك وما الذي يمنعني إن ذات يدي قلت أوليس خزائن السموات والأرض بيدي انفق منها كيف أشاء ، وإن البخل يعتريني[١] أولست أجود من سُئل[٢] وأوسع من أعطى أو أن رحمتي ضاقت وإنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتي . ولولا أن هؤلاء القوم يا عيسى بن مريم غروا[٣] أنفسهم بالحكمة التي تورث . في قلوبهم ما استأثروا به الدنيا أثره على الآخرة لعرفوا من أين أوتوا ، وإذاً لأيقنوا أن أنفسهم هي أعدى الأعداء لهم ، وكيف أقبل صيامهم وهم يتقوون عليه بالأطعمة الحرام ، وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركن إلى الذين يحاربوني ويستحلون محارمي وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلها . يا عيسى إنما أجزي عليها أهلها ، وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطر من دماء الأنبياء[٤]، ازددت عليهم غضباً . يا عيسى وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنه من عبدني وقال فيكما بقولي أن أجعلهم جيرانك في الدار ورفقائك في المنازل وشركاءك في الكرامة وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنه من اتخذك وأمك إلٰهين من دون الله أن أجعلهم في الدرك الأسفل من النار . وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أني مثبت هذا الأمر على يدي عبدي محمد وأختم به الأنبياء والرسل ومولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يتزين[٥] بالفحش ولا قوال بالخنا أسدده لكل أمر جميل واهب له كل خلق كريم ، واجعل التقوى ضميره والحكم معقوله والوفاء طبيعته والعدل سيرته والحق شريعته والإسلام ملته . اسمه أحمد ، أهدي به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأغني به بعد العائلة وارفع به بعد الضيعة أهدي به وافتح به بين

---

(١) في نسخ البداية المطبوعة : لا يعتريني .
(٢) في نسخ البداية المطبوعة : من سأل .
(٣) في نسخ البداية المطبوعة : عدوا وهو تحريف .
(٤) إشارة إلى أن بني اسرائيل أكثروا من قتل أنبيائهم والفتك بهم .
(٥) في نسخ البداية المطبوعة : يزر .

آذان صم وقلوب غلف ، وأهواء مختلفة متفرقة أجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إخلاصاً لأسمي وتصديقاً لما جاءت به الرسل الهمهم التسبيح والتقديس والتهليل في مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومنقلبهم ومثواهم يصلون لي قياماً وقعوداً وركعاً وسجوداً ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً قرباتهم دماؤهم وأناجيلهم في صدورهم وقربانهم في بطونهم رهبان بالليل ليوث في النهار ذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم .

وسنذكر ما يصدق كثيراً من هذا السياق مما سنورده من سورتي المائدة والصف إن شاء الله وبه الثقة . وقد روى أبو حذيفة إسحق بن بشر بأسانيده عن كعب الأحبار ، ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان الفارسي دخل حديث بعضهم في بعض قالوا : لما بعث عيسى بن مريم وجاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون من بني إسرائيل يعجبون منه ويستهزئون به ، فيقولون ما أكل فلان البارحة، وما ادخر في منزله فيخبرهم فيزداد المؤمنون إيماناً والكافرون والمنافقون شركاً[1] وكفراناً . وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوي إليه إنما يسيح في الأرض ليس له قرار ، ولا موضع يعرف به ، فكان أول ما أحيا من الموتى أنه مر ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهي تبكي فقال لها مالك أيتها المرأة ؟ فقالت : ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها ، وإني عاهدت ربي أن لا أبرح من موضعي هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله لي ، فأنظر إليها فقال لها عيسى أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت ؟ قالت : نعم ، قالوا فصلى ركعتين ثم جاء فجلس عند القبر فنادى يا فلانة قومي بإذن الرحمن فاخرجي قال فتحرك القبر ثم نادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب فقال لها عيسى: ماأبطأ بك عني ؟ فقالت لما جاءتني الصيحة الأولى بعث الله لي ملكاً فركب خلقي ، ثم جاءتني الصيحة الثانية فرجع إليّ روحي ، ثم جاءتني الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسي وحاجباي وأشفار عيني من مخافة القيمة ، ثم أقبلت على أمها فقالت يا أماه ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين يا أماه أصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا يا روح الله وكلمته سل ربي أن يردني إلى الآخرة وأن يهون عليّ كرب الموت فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً .

وقدمنا في عقيب قصة نوح أن بني إسرائيل سألوه : أن يحيي لهم سام بن نوح فدعا الله عزّ وجلّ وصلى لله فأحياه الله لهم فحدثهم عن السفينة وأمرها ثم دعا فعاد تراباً[2] . وقد روى السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس في خبر ذكره وفيه أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل مات وحمل على سريره فجاء عيسى عليه السلام فدعا الله عزّ وجلّ فأحياه الله عزّ وجلّ فرأى الناس أمراً هائلاً

---

(١) في نسخ البداية المطبوعة : شكاً .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٣١٥.

ومنظراً عجيباً قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ إذ قال الله يا عيسى بن مريم إذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحرٌ مبين وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ [المائدة : ١١٠ ـ ١١١] يذكره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه في خلقه إياه من غير أب بل من أم بلا ذكر وجعله له آية للناس ودلالة على كمال قدرته تعالى ثم إرساله بعد هذا كله ﴿ وعلى والدتك ﴾ في اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون ولهذا قال : ﴿ إذ أيدتك بروح القدس ﴾ وهو جبريل بالقاء روحه إلى أمه وقرنه معه في حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به ﴿ تكلم الناس في المهد وكهلاً ﴾ أي تدعو الناس إلى الله في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك ﴿ وإذ علمتك الكتاب والحكمة ﴾ أي الخط والفهم نص عليه بعض السلف[1] ﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ وقوله : ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ﴾ أي تصوره وتشكله من الطين على هيئته عن أمر الله له بذلك ﴿ فتنفخ فيه فتكون طيراً بإذني ﴾ أي بأمري يؤكد تعالى بذكر الإذن له في ذلك لرفع التوهم وقوله : ﴿ وتبرىء الأكمه ﴾ قال بعض السلف وهو الذي يولد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته ﴿ والأبرص ﴾ هو الذي لا طب فيه بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالاً ﴿ وإذ تخرج الموتى ﴾ أي من قبورهم أحياء بإذني وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مراراً متعددة مما فيه كفاية . وقوله : ﴿ وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحرٌ مبين ﴾ وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وانقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى ، وسلامة له من الردى وقوله : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ قيل المراد بهذا الوحي وحي إلهام أي أرشدهم الله إليه ودلهم عليه كما قال : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ [النحل : ٦٨] ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ﴾ [القصص : ٧] وقيل المراد

(١) قال الرازي في الآية : والأقرب عندي أن يقال : المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة ، ثم المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به . ثم بعد أن صار عالماً بالخط والكتابة ومحيطاً بالعلوم العقلية والشرعية ، علمه التوراة ثم بعد أن عظمت درجته في العلم وأحاط بأسرار الكتاب الذي أنزله تعالى على من قبله من الأنبياء ، أنزل عليه كتاباً آخر وأوقفه على أسرار فذلك هو الغاية القصوى .

وحي بواسطة الرسول وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق[1] ولهذا استجابوا قائلين : ﴿ آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ .

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى بن مريم أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ : ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما الفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣] وقال تعالى : ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وابرىء الأكمه والأبرص واحيي الموتى بإذن الله وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنامع الشاهدين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ [آل عمران: ٤٨ - ٥٤] .

كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء فبعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر ، وما ينتهي إليه وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل ، الذي لا يمكن صدوره إلاَّ عمن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له أسلموا سراعاً ولم يتلعثموا ، وهكذا عيسى بن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها وأنّى لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ، هذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بعث في زمن الفصحاء البلغاء فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فلفظه معجز تحدى به الأنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال فإن لم

---

(١) قال القرطبي في أحكامه : قال أبو عبيدة : أوحيت بمعنى أمرت ؛ والوحي في كلام العرب معناه الإلهام ويكون أقسام :
- وحي بمعنى ارسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام .
- وحي بمعنى الإلهام كما في هذه الآية ، أي ألهمتهم وقذفت في قلوبهم .
- وحي بمعنى الإعلام في اليقظة والمنام .

يفعلوا ولن يفعلوا وما ذاك إلاّ لأنه كلام الخالق عزّ وجل ، والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين ، استمر[1] أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم فانتدب له من بينهم طائفة صالحة ، فكانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته وذلك حين همَّ به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ، ورفعه إليه من بين أظهرهم وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى وهم في ذلك غالطون وللحق مكابرون وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه وكلا الفريقين في ذلك مخطئون قال تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ [آل عمران: ٥٤] وقال تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى للإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [الصافات: ٦ - ٨] إلى أن قال بعد ذلك : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ [الصف: ١٤] فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد قام فيهم خطيباً فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده ونوّه باسمه ، وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه إقامةً للحجة عليهم وإحساناً من الله إليهم كما قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) بعد أن شرح عيسى لهم تلك المعجزات ، بعد ادعائه النبوة ، أخذوا يتعنتون عليه وطالبوه بالمزيد ، فجاء بها وطالبهم بطاعته فيما يأمرهم به عن ربه ، وإقرارهم لله بالعبودية فظهر كفرهم وأعلنوه .

قال الرازي : اختلفوا في السبب الذي به ظهر كفرهم على وجوه :

- قال السدي : أنه تعالى لما بعثه رسولاً إلى بني اسرائيل جاءهم ودعاهم إلى دين الله فتمردوا وعصوا فخافهم واختفى عنهم . . . وبعد أن صار امره مشهوراً قصدوا قتله واظهروا الطعن فيه وكفروا به .

- إن اليهود كانوا عارفين بأنه هو المسيح المبشر به في التوراة ، وأنه ينسخ دينهم فكانوا أول الطاعنين فيه . . . ثم طلبوا قتله .

- أن عيسى ظن من قومه الذين دعاهم للإيمان لا يؤمنون فأحب امتحانهم ، فقال لهم (من أنصاري إلى الله) فما أجابه إلا الحواريون ، فأحس أن من سواهم كافرون مصرون على انكار دينه وطلب قتله .

قال محمد بن إسحاق : حدثني ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال : « دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصري من أرض الشام »[1] .

وقد روي عن العرباض بن سارية وأبي أمامة عن النبي ﷺ نحو هذا وفيه : « دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى »[2] وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم الآية ﴾ [البقرة: ١٢٩] ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيباً فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم ، وأنها بعده في النبي العربي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي هو من سلالة اسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام قال الله تعالى : ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحرٌ مبين ﴾ [الصف: ٦] يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ ثم حرض تعالى عباده المؤمنين على نصرة الإسلام وأهله ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله ﴾ أي من يساعدني في الدعوة إلى الله ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ وكان ذلك في قرية يقال لها الناصرة فسموا بذلك النصارى قال الله تعالى : ﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ﴾ يعني لما دعا عيسى بني إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى منهم من آمن ومنهم من كفر وكان ممن آمن به أهل انطاكية بكمالهم فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير بعث إليهم رسلاً ثلاثة أحدهم شمعون الصفا فآمنوا واستجابوا وليس هؤلاء هم المذكورون في سورة يس لما تقدم تقريره في قصة أصحاب القرية وكفر آخرون من بني إسرائيل وهم جمهور اليهود فأيد الله من آمن به على من كفر فيما بعد ، وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم كما قال تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة الآية ﴾ [آل عمران: ٥٥] فكل من كان إليه أقرب كان غالباً[3] فمن دونه ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذي لا شك فيه من أنه عبد الله ورسوله كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه ، واطروه ، وأنزلوه فوق ما أنزله الله به ، ولما كان النصارى أقرب في الجملة مما ذهب إليه

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ج ١/٨٣ ـ ٨٤ وسيرة ابن هشام ١/١٧٠ والخبر في طبقات ابن سعد ١/١٠٢ والحاكم في المستدرك ٢/٦٠٠ وصححه ، وأقره الذهبي .

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل ج ١/٨٠ و ٨٣ وأخرجه أحمد في مسنده ٤/١٢٧ ـ ١٢٨ والحاكم في المستدرك . وقال : هذا حديث صحيح الإسناد . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢٢٣ وقال : رواه أحمد والطبراني والبزار وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد وقد وثقه ابن حبان .

(٣) في نسخ البداية المطبوعة : عالياً وهو تحريف .

اليهود [فيه][1] عليهم لعائن الله كان النصارى قاهرين لليهود في أزمان الفترة[2] إلى زمن الإسلام وأهله .

ذكر خبر المائدة

قال الله تعالى : ﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ [المائدة: ١١٢ ـ ١١٥] قد ذكرنا في التفسير الآثار الواردة في نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وغيرهم من السلف ، ومضمون ذلك أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً ، فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها ، وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم ، وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم ، وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم : فوعظهم عيسى في ذلك وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلاّ أن يسأل لهم ذلك من ربه عزَّ وجلَّ . فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحاً من شعر وصف بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين وجعلت تدنو قليلاً قليلاً وكلما دنت سأل عيسى ربه عزَّ وجلَّ أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة ، فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول : ﴿ بسم الله خير الرازقين ﴾ فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة[3]. ويقال : وخل . ويقال : ورمان وثمار ولها رائحة عظيمة جداً قال الله لها كوني فكانت ثم أمرهم بالأكل منها فقالوا : لا نأكل حتى تأكل فقال : إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها فأبوا أن يأكلوا منها إبتداء فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى وكانوا قريباً من ألف وثلثمائة فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن ، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك . ثم قيل : إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتى قيل إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف . ثم كانت تنزل يوماً بعد يوم كما كانت

---

(١) سقطت من النسخ المطبوعة .

(٢) الفترة : بين ظهور المسيح وبعث محمد عليهما السلام .

(٣) في الرازي : سمكة مشوية بلا شوك ولا فلوس تسيل دسماً وخمسة أرغفة على واحد منها زيتون والثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد .

ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم . ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء فشق ذلك على كثير من الناس وتكلم منافقوهم في ذلك ، فرفعت بالكلية ومسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير .

وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً : حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي ، حدثنا سفيان بن حبيب ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن خلاس ، عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال : « نزلت المائدة من السماء خبز ولحم وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا فمسخوا قردة وخنازير »[1] ثم رواه ابن جرير عن بندار عن ابن أبي عدي ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن خلاس [بن عمرو] عن عمار موقوفاً وهذا أصح وكذا رواه من طريق سماك عن رجل من بني عجل عن عمار موقوفاً وهو الصواب والله أعلم . وخلاس عن عمار منقطع فلو صح هذا الحديث مرفوعاً لكان فيصلاً في هذه القصة فإن العلماء اختلفوا في المائدة هل نزلت أم لا فالجمهور أنها نزلت[2] كما دلت عليه هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ولا سيما قوله : ﴿ إني منزلها عليكم ﴾ كما قرره ابن جرير والله أعلم . وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح إلى مجاهد وإلى الحسن بن أبي الحسن البصري ، أنهما قالا : لم تنزل وانهم أبوا نزولها حين قال : ﴿ فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ ولهذا قيل إن النصارى لا يعرفون خبر المائدة وليس مذكوراً في كتابهم مع أن خبرها مما يتوفر الدواعي على نقله . والله أعلم . وقد تقصينا الكلام على ذلك في التفسير[3] فليكتب من هناك . ومن أراد مراجعته فلينظره من ثم ولله الحمد والمنة .

فصل

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا رجل سقط اسمه ، حدثنا حجاج بن محمد ، حدثنا أبو هلال محمد بن سليمان ، عن بكر بن عبد الله المزني قال : فقد الحواريون نبيهم عيسى فقيل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشي على الماء يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى ، وعليه كساء مرتد بنصفه ومؤتزر بنصفه ، حتى انتهى اليهم فقال لهم بعضهم قال أبو هلال ظننت أنه من أفاضلهم ـ ألا أجيء إليك يا نبي الله ؟ قال : بلى ، قال : فوضع إحدى

---

(١) رواه الطبري في تفسيره ٢ / ١٣٠ والترمذي في صحيحه ٤٨ كتاب تفسير القرآن ـ ٦ باب ٣٠٦١ مرفوعاً وقال لا نعرفه مرفوعاً من حديث الحسن بن قزعة . وورواه موقوفاً وقال : هذا أصح ولا نعلم للحديث المرفوع أصلاً . وورواه ابن كثير في تفسيره ٢ / ١٢٠ دار الفكر .

(٢) قال الرازي : نزلت ثم طارت ثم عصوا من بعدها فمسخوا قردة وخنازير ؛ ولم يذكره أنهم أكلوا منها . وقال . وقال الجمهور الأعظم من المفسرين : أنها نزلت .

(٣) رواه ابن كثير في التفسير ج ٢ / ١٢٠ دار الفكر .

رجليه على الماء ثم ذهب ليضع الأخرى ، فقال : أوه غرقت يا نبي الله . فقال : أرني يدك يا قصير الإيمان لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء . ورواه أبو سعيد بن الأعرابي عن إبراهيم بن أبي الجحيم ، عن سليمان بن حرب ، عن أبي هلال عن بكر بنحوه . ثم قال ابن أبي الدنيا : حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن سفيان ، حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، عن الفضيل بن عياض قال : قيل لعيسى بن مريم ، يا عيسى بأي شيء تمشي على الماء ؟ قال : بالإيمان واليقين . قالوا فإنا آمنا كما آمنت وأيقنا كما أيقنت قال : فامشوا إذا قال فمشوا معه في الموج فغرقوا . فقال لهم عيسى : مالكم ؟ فقالوا : خفنا الموج ، قال : ألا خفتم رب الموج ؟ قال : فأخرجهم ثم ضرب بيده إلى الأرض ، فقبض بها ثم بسطها فإذا في إحدى يديه ذهب ، وفي الأخرى مدر ، أو حصى فقال : أيهما أحلى في قلوبكم ؟ قالوا : هذا الذهب قال : فإنهما عندي سواء . وقدمنا في قصة يحيى بن زكريا عن بعض السلف أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من ورق الشجر ولا يأوي إلى منزل ولا أهل ولا مال ولا يدخر شيئاً لغد . قال بعضهم كان يأكل من غزل أمه صلوات الله وسلامه عليه .

وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال : كان عيسى عليه السلام إذا ذكر عنده الساعة صاح ويقول : لا ينبغي لابن مريم أن تذكر عنده الساعة ويسكت ، وعن عبد الملك بن سعيد بن بحر أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى . وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، حدثنا جعفر بن بلقان : أن عيسى كان يقول : اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الأمر بيد غيري وأصبحت مرتهناً بعملي ، فلا فقير أفقر مني ، اللهم لا تشمت بي عدوي ولا تسؤ بي صديقي ، ولا تجعل مصيبتي في ديني ، ولا تسلط عليَّ من لا يرحمني . وقال الفضيل بن عياض عن يونس بن عبيد ، كان عيسى يقول لا يصيب أحد حقيقة الإيمان حتى لا يبالي من أكل الدنيا[1] . قال الفضيل : وكان عيسى يقول فكرت في الخلق فوجدت من لم يخلق أغبط عندي ممن خلق . وقال إسحاق بن بشر ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن قال : إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة . قال : وإن الفرارين بذنوبهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى . قال : وبينما عيسى يوماً نائم على حجر قد توسده وقد وجد لذة النوم إذ مر به إبليس فقال : يا عيسى ألست تزعم أنك لا تريد شيئاً من عرض الدنيا ؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا فقال : [فقام عيسى][2] : فأخذ الحجر ورمى به إليه وقال : هذا لك مع الدنيا . وقال معتمر بن سليمان : خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف وكساء وتبان حافياً باكياً شعثاً مصفر اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش فقال : السلام عليكم يا بني إسرائيل ، أنا الذي أنزلت الدنيا منزلتها

---

(١) في نسخ البداية المطبوعة : لا نصيب حقيقة الإيمان حتى لا نبالي من أكل الدنيا .

(٢) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

بـإذن الله ولا عجب ولا فخر ، أتـدرون أين بيتي ؟ قالـوا : أين بيتـك يـا روح الله ؟ قـال بيتي المساجد ، وطيبي الماء ، وإدامي الجوع ، وسـراجي القمر بـالليل ، وصـلاتي في الشتاء مشـارق الشمس ، وريحـاني بقول الأرض ، ولبـاسي الصوف[1] وشعـاري خوف رب العـزة ، وجلسائي الزمنى والمساكين ، أصبح وليس لي شيءَ وأمسي وليس لي شيء ، وأنـا طيب النفس غير مكتـرث فمن أغنى مني وأربح . رواه ابن عساكر . وروى في ترجمة محمد بن الوليد بن ابـان بن حبان أبي الحسن العقيلي المصري ، حدثنا هانىء بن المتوكل الإسكندراني ، عن حيـوة بن شريـح ، حدثني الوليد بن أبي الوليد ، عن شفى بن ماتع[2] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « أوحى الله تعالى إلى عيسى : أن يا عيسى انتقل من مكان إلى مكان لئلا تعرف فتؤذى ، فوعزتي وجلالي لأزوجنك ألف حوراء ولأولمن عليك أربعمائة عام » . وهذا حديث غريب رفعه وقد يكون موقوفاً من رواية شفى بن ماتع[2] عن كعب الأحبار أو غيره من الاسرائيليين والله أعلم . وقال عبد الله بن المبارك عن سفيان بن عيينة ، عن خلف بن حوشب قال : قال عيسى للحواريين : كما تـرك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا . وقال قتادة : قال عيسى عليه السلام : سلوني فإني لين القلب وإني صغير عند نفسي . وقال إسماعيل بن عياش ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمـر قال : قال عيسى للحواريين : كلوا خبز الشعير ، واشربوا الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين بحق ما أقول لكم أن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، وأن مرارة الدنيا حـلاوة الآخرة وأن عبـاد الله ليسوا بالمتنعمين بحق ما أقول لكم ، إن شركم عالم يؤثر هواه على علمه يود أن الناس كلهم مثله . وروي نحوه عن أبي هريرة . وقال أبو مصعب عن مالـك أنه بلغـه أن عيسى كان يقـول : يابني إسرائيل عليكم بـالماء القـراح والبقل البـري وخبز الشعـير وإياكم وخبـز البر فـإنكم لن تقومـوا بشكره[3] . وقال ابن وهب عن سليمان بن بلال ، عن يحيى بن سعيد ، قال : كان عيسى يقول إعبروا الدنيا ولا تعمروها ، وكان يقول حب الدنيـا رأس كل خـطيئة ، والنـظر يزرع في القلب الشهوة . وحكي وهيب بن الورد مثله وزاد : ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً . وعن عيسى عليه السلام : يا بـن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت ، وكن في الدنيا ضيفاً ، واتخذ المساجد بيتاً ، وعلم عينك البكاء وجسدك الصبر وقلبك التفكر ، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة . وعنه عليه السلام أنه قال : كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر داراً فلا يتخذ الدنيا قراراً وفي هذا يقول سابق البربري :

---

(١) في نسخ البداية المطبوعة : الصون ، وهو تحريف .

(٢) في نسخ البداية المطبوعة : سفي بن نافع وهو تحريف .

شفى بن ماتع الأصبحي ثقة من الثالثة ، ذكره بعضهم في الصحابة خـطأ ، مات في خـلافة هشـام . تقريب التهذيب ٣٥٣/٩٣/١ .

(٣) رواه مالك في الموطأ ١٦٨٨ ص ٥١٥ .

لكمُ بيـوتٌ بمستَنّ السيـوفِ وهَـلْ ... يُبنَى عـلى المـاءِ بيتٌ أُسّـه مَـدَرُ

وقال سفيان الثوري قال عيسى بن مريم : لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء . وقال إبراهيم الحربي عن داود بن رشيد ، عن أبي عبد الله الصوفي قال قال عيسى : طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله . وعن عيسى عليه السلام : إن الشيطان مع الدنيا ومكره مع المال[1] وتزينه مع الهوى واستمكانه عند الشهوات . وقال الأعمش عن خيثمة : كان عيسى يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول : هكذا فاصنعوا بالقرى . وبه قالت امرأة لعيسى عليه السلام : طوبى لحجر حملك ولثدي أرضعك . فقال : طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه . وعنه طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته . وعنه : طوبى لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية وانتبهت إلى غير اثم . وعن مالك بن دينار قال : مر عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا : ما أنتن ريحها فقال : ما أبيض أسنانها . لينهاهم عن الغيبة . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا الحسين بن عبد الرحمن ، عن زكريا بن عدي قال : قال عيسى ابن مريم : يا معشر الحواريين ارضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا . قال زكريا وفي ذلك يقول الشاعر :

أرى رجالاً بأدنى الـدينِ قد قَنِعـوا ... ولا أراهُم رَضوا في العيشِ بالدّونِ

فاستغنِ بالدينِ عنْ دنيا الملوكِ كما ... استغنَى الملوكُ بـدُنياهُم عنِ الـدِّينِ

وقال أبو مصعب عن مالك قال عيسى بن مريم عليه السلام : لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فيها كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية وقال الثوري : سمعت أبي يقول عن إبراهيم التيمي ، قال : قال عيسى لأصحابه :بحق أقول لكم : من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير . وقال مالك بن دينار قال عيسى : إن أكل الشعير مع الرماد والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس . وقال عبد الله بن المبارك : أنبأنا سفيان ، عن منصور ، عن سالم بن أبي الجعد ، قال : قال عيسى : اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم انظروا إلى هذا الطير تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها ، فإن قلتم نحن أعظم بطوناً من الطير فانظروا إلى هذه الأباقر[2] من الوحوش والحمر فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها [اتقوا فضول الدنيا فإن فضول الدنيا عند الله رجز][3] . وقال صفوان بن عمرو : عن شريح بن عبد الله ، عن يزيد بن ميسرة ، قال : قال

---

(١) في نسخ البداية المطبوعة ، وفكرة من المال .

(٢) في نسخ البداية المطبوعة : الأباقير وهو تحريف .

(٣) ما بين معكوفين سقطت من أصول البداية ، واستدركت العبارة من نص الحديث في كتاب الزهد لابن المبارك ؛ وروى الحديث ابن مالك في الموطأ .

الحواريون للمسيح : يا مسيح الله انظر إلى مسجد الله ما أحسنه . قال : آمين آمين بحق ما أقول لكم لايترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً إلاّ أهلكه بذنوب أهله ، إن الله لا يصنع بالذهب ولا بالفضة ولا بهذه الأحجار التي تعجبكم شيئاً إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة وبها يعمر الله الأرض ، وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك . وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخه : أخبرنا أبو منصور أحمد بن محمد الصوفي ، أخبرتنا عائشة بنت الحسن بن إبراهيم الوركانية قالت : حدثنا أبو محمد عبد الله بن عمر بن عبد الله بن الهشيم املاء ، حدثنا الوليد بن أبان املاء ، حدثنا أحمد بن جعفر الرازي ، حدثنا سهيل بن إبراهيم الحنظلي ، حدثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز ، عن المعتمر ، عن ليث ، عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « مر عيسى عليه السلام على مدينة خربة ، فأعجبه البنيان فقال: أي رب مر هذه المدينة أن تجيبني ؟ فأوحى الله إلى المدينة أيتها المدينة الخربة جاوبي عيسى . قال : فنادت المدينة عيسى حبيبي وما تريد مني قال : ما فعل أشجارك وما فعل أنهارك وما فعل قصورك وأين سكانك ؟ قالت : حبيبي جاء وعد ربك الحق فيبست أشجاري ، ونشفت أنهاري وخربت قصوري ومات سكاني . قال : فأين أموالهم فقالت جمعوها من الحلال والحرام موضوعة في بطني . لله ميراث السموات والأرض . قال فنادى عيسى عليه السلام : تعجبت[1] من ثلاث أناس : طالب الدنيا والموت يطلبه ، وباني القصور والقبر منزله ، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه ! ابن آدم لا بالكثير تشبع ولا بالقليل تقنع تجمع مالك لمن لا يحمدك وتقدم على رب لا يعذرك إنما أنت عبد بطنك وشهوتك وإنما تملأ بطنك إذا دخلت قبرك وأنت يا بن آدم ترى حشد مالك في ميزان غيرك . هذا حديث غريب جداً وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك .

وقال سفيان الثوري عن أبيه ، عن إبراهيم التيمي ، قال : قال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم في السماء فإن قلب الرجل حيث كنزه. وقال ثور بن يزيد، عن عبد العزيز بن ظبيان قال قال عيسى بن مريم : من تعلم وعلم وعمل دعي عظيماً في ملكوت السماء . وقال أبو كريب روي أن عيسى عليه السلام قال : لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ويعبر بك النادي . وروى ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعاً أن عيسى قام في بني إسرائيل فقال : يا معشر الحواريين لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم والأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عزّ وجل . وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن رجل عن عكرمة، قال قال عيسى : لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لا يريدها شر من الخنزير . وكذا حكى وهب وغيره عنه

(١). في نسخ البداية المطبوعة : فعجبت وهو تحريف .

وعنه أنه قال لأصحابه : أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم ، وإن فيكم خصلتين من الجهل : الضحك من غير عجب والصبحة من غير سهر . وعنه أنه قيل له : من أشد الناس فتنة ؟ قال زلة العالم فإن العالم إذا زل يزل بزلته عالم كثير . وعنه أنه قال : يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم قولكم شفاء وعملكم داء مثلكم مثل شجرة الدفلى تعجب من رآها وتقتل من أكلها . وقال وهب قال عيسى : يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلوها ولا تدعون المساكين يدخلونها ، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه . وقال مكحول التقى يحيى وعيسى ، فصافحه عيسى وهو يضحك فقال له يحيى : يا بن خالة مالي أراك ضاحكاً كأنك قد أمنت ؟ فقال له عيسى : مالي أراك عابساً كأنك قد يئست ؟ فأوحى الله إليهما: إن أحبكما إليّ أبشكما بصاحبه . وقال وهب بن منبه : وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلى فيه ، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال : قد كنتم فيما هو أضيق منه في[1] أرحام أمهاتكم فإذا أحب[2] الله أن يوسع وسع . وقال أبو عمر الضرير : بلغني أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً . والآثار في مثل هذا كثيرة جداً . وقد أورده الحافظ ابن عساكر منها طرفاً صالحاً اقتصرنا منه على هذا القدر والله الموفق للصواب .

[ذكر][3] رفع عيسى عليه السلام إلى السماء
في حفظ الرب وبيان كذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب

قال الله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعلُ الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ [آل عمران : ٥٤ ـ ٥٥].

وقال تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلاً . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلاّ اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً[4] . وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم

---

(١) في نسخ البداية المطبوعة : من أرحام .
(٢) في نسخة : فإذا أراد .
(٣) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .
(٤) قال القرطبي : رفعه الله إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قاله الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبري ، وهو الصحيح عن ابن عباس وقاله الضحاك .

شهيداً﴾ [النساء : ١٥٥ ـ ١٥٩] فأخبر تعالى إنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان .

قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق : كان اسمه داود بن نورا[١] فأمر بقتله وصلبه ، فحصروه في دار ببيت المقدس وذلك عشية الجمعة ليلة السبت ، فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورفع عيسى من روزنة [من][٢] ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقى عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له ، وسلم لليهود عامة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب وضلوا بسبب ذلك ضلالاً مبيناً كثيراً فاحشاً بعيداً . وأخبر تعالى بقوله : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته ﴾ أي بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة فإنه ينزل ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلاّ الإسلام . كما بيّنا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء وكما سنورد ذلك مستقصى في « كتاب الفتن والملاحم » عند أخبار المسيح الدجال فنذكر ما ورد في نزول المسيح المهدي عليه السلام من ذي الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعي إلى الضلال . وهذا ذكر ما ورد في الآثار في صفة رفعه إلى السماء : قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين ، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال [لهم] : إن منكم من يكفر بي اثني عشرة مرة بعد أن آمن بي ، ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني فيكون معي في درجتي ؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال له : اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال [أنا : فقال عيسى][٣] اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقال : أنت هو ذاك . فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء . قال وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثني عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق ، فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ . قال ابن عباس وذلك قوله تعالى : ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على

---

(١) في الطبري : كان الملك اسمه : هيرودس الصغير .

(٢) سقطت من نسخ البداية المطبوعة . وروزنة : كوة ؛ وفي رواية : سقف البيت .

(٣) ما بين معكوفين في الحديث زيادة من تفسير القرطبي .

عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ [الصف : ١٤] وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس(١) على شرط مسلم ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية به نحوه . ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة عن أبي معاوية وهكذا ذكر غير واحد من السلف. وممن ذكر ذلك مطولاً محمد بن إسحق بن يسار قال : وجعل عيسى عليه السلام يدعو الله عزَّ وجلَّ أن يؤخر أجله يعني ليبلغ الرسالة ويكمل الدعوة ويكثر الناس الدخول في دين الله قيل وكان عنده من الحواريين اثني عشر رجلاً : بطرس ويعقوب بن زبدا ويحنس أخو يعقوب واندراوس وفليبس وابرثلما ومتى وتوماس ويعقوب بن حلقيا وتداوس وفتاتيا ويودس كريا يوطا وهذا هو الذي دل اليهود على عيسى . قال ابن إسحق : وكان فيهم رجل آخر اسمه سرجس كتمته النصارى ، وهو الذي ألقى شبه المسيح عليه ، فصلب عنه(٢) قال : وبعض النصارى يزعم أن الذي صلب عن المسيح وألقى عليه شبهه هو يودس بن كريا يوطا . والله أعلم .

وقال الضحاك عن ابن عباس : استخلف عيسى شمعون وقتلت اليهود يودس الذي ألقى عليه الشبه . وقال أحمد بن مروان : حدثنا محمد بن الجهم ، قال : سمعت الفراء يقول في قوله : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ قال : إن عيسى غاب عن خالته زماناً فأتاهم فقام رأس الجالوت اليهودي فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره فكسروا الباب ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى فطمس الله عينيه عن عيسى ، ثم خرج إلى أصحابه فقال : لم أره ومعه سيف مسلول ، فقالوا : أنت عيسى وألقى الله شبه عيسى عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه فقال جل ذكره : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب القمي ، عن هرون بن عنترة ، عن وهب بن منبه قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم : سحرتمونا لتبرزن إلينا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً فقال عيسى لأصحابه : من يشتري منكم نفسه اليوم بالجنة ؟ فقال رجل : أنا فخرج إليهم فقال : أنا عيسى ، وقد صوره الله على صورة عيسى ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى فظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ورفع الله عيسى من يومه ذلك .

قال ابن جرير(٣) : وحدثنا المثنى ، حدثنا إسحاق [بن الحجاج] ، حدثنا اسماعيل بن عبد الكريم ، حدثني عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول : إن عيسى بن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً فقال : احضروني

---

(١) روى الحديث القرطبي في تفسيره عن أبي بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس ورواها السيوطي ٢٣٨/٢ .

(٢) ذكره الطبري ٢٤/٢ وفي رواية أخرى عنده : اسمه : ايشوع بن فنديرا .

(٣) تاريخ الطبري ٢٢/٢ ـ ٢٣ . ما بين معكوفين زيادة استدركت من الطبري .

الليلة فإن لي إليكم حاجة ، فلما اجتمعوا إليه من الليل ، عشاهم وقام يخدمهم فلما فرغوا من الطعام ، أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه ، فتعاظموا ذلك وتكارهوه فقال ألا من رد عليَّ شيئاً الليلة مما أصنع فليس مني ولا أنا منه فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال : أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بي أسوة ، فإنكم ترون أني خيركم ، فلا يتعظم بعضكم على بعض وليبذل بعضكم لبعض نفسه كما بذلت نفسي لكم ، وأما حاجتي التي استعنتكم عليها فتدعون الله [لي] وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي ، فلما نصبوا أنفسهم للدعاء ، وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاءً ، فجعل يوقظهم ويقول سبحان الله أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها ؟ فقالوا : والله ما ندري مالنا والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطيق الليلة سمراً وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه ، فقال : يذهب بالراعي وتتفرق الغنم ، وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعى به نفسه . ثم قال الحق ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني ، فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا : هذا من أصحابه فجحد ، وقال : ما أنا بصاحبه فتركوه . ثم أخذه آخرون فجحد كذلك ، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه . فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهماً فأخذها ودلهم عليه ، وكان شبه عليهم قبل ذلك ، فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل ، وجعلوا يقودونه ، ويقولون : أنت كنت تحيي الموتى ، وتنتهر الشيطان ، وتبرىء المجنون ، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل ؟ ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبه لهم فمكث سبعاً . ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب ، فجاءهما عيسى فقال على م تبكيان قالتا : عليك . فقال : إني قد رفعني الله إليه ، ولم يصبني إلا خير ، و ن هذا شيء شبه لهم فأمرا الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر وفقد الذي كان باعه ودل عليه اليهود ، فسأل عنه أصحابه فقالوا : إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه فقال : لو تاب لتاب الله عليه . ثم سألهم عن غلام [كان][1] يتبعهم يقال له يحيى فقال : هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم فلينذرهم وليدعهم .

وهذا إسناد غريب عجيب وهو أصح مما ذكره النصارى من أن المسيح جاء إلى مريم وهي جالسة تبكي عند جذعه فأراها مكان المسامير من جسده وأخبرها أن روحه رفعت وأن جسده صلب وهذا بهت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل وزيادة باطلة في الإنجيل على خلاف الحق ومقتضى الدليل[2].

---

(١) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٢) في النسخ المطبوعة : ومقتضى النقل .

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب ، فيما بلغه ، أن مريم سألت من بيت الملك بعد ما صلب المصلوب بسبعة أيام وهي تحسب أنه ابنها ، أن ينـزل جسده ، فأجابهم إلى ذلك ودفن هنالك فقالت مريم لأم يحيى : ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح ؟ فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى : ألا تستترين فقالت : وممن أستتر ؟ فقالت من هذا الرجل الذي هو عند القبر . فقالت أم يحيى : إني لا أرى أحداً فرجت مريم أن يكون جبريل ، وكانت قد بعد عهدها به ، فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل ، وعرفته : يا مريم أين تريدين ؟ فقالت أزور قبر المسيح فأسلم عليه وأحدث عهداً به . فقال : يا مريم إن هذا ليس المسيح إن الله قد رفع المسيح وطهره من الذين كفروا . ولكن هذا الفتى الذي القى شبهه عليه وصلب وقتل مكانه . وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل به فهم يبكون عليه فإذا كان يوم كذا وكذا فأت غيضة كذا وكذا فإنك تلقين المسيح . قال : فرجعت إلى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة . فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى في الغيضة فلما رآها اسرع إليها وأكب عليها فقبل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل ، وقال يا أمه إن القوم لم يقتلوني ولكن الله رفعني إليه وأذن لي في لقائك والموت يأتيك قريباً فاصبري واذكري الله كثيراً ثم صعد عيسى فلم تلقه إلاّ تلك المرة حتى ماتت . قال : وبلغني أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة[1] رضي الله عنها وأرضاها .

وقال الحسن البصري كان عمر عيسى عليه السلام يوم رفع أربعاً وثلاثين سنة وفي الحديث : « إن أهل الجنة يدخلونها جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين »[2] . وفي الحديث الآخر : « على ميلاد عيسى وحسن يوسف » وكذا قال حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب أنه قال رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

فأما الحديث الذي رواه الحاكم في « مستدركه » ويعقوب بن سفيان الفسوي في « تاريخه » عن سعيد بن أبي مريم ، عن نافع بن يزيد ، عن عمارة بن غزية ، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أن أمه فاطمة بنت الحسين حدثته : أن عائشة كانت تقول أخبرتني فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها : أنه لم يكن نبي كان بعده نبي إلاّ عاش الذي بعده نصف عمر الذي كان قبله وأنه أخبرني أن عيسى بن مريم عاش عشرين ومائة سنة فلا أراني إلاّ ذاهب على رأس ستين .

---

(١) في الطبري : بقيت بعد رفعه (عيسى) ست سنين وكان جميع عمرها نيفاً وخمسين وسنة ؛ وذكر أنها حملت به وكان عمرها ثلاث عشرة وان عيسى عاش إلى أن رفع اثنتين وثلاثين سنة وبقيت بعده ست سنوات (وإذا حسبنا أشهر الحمل) يصبح عمرها ٥٢ سنة .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٣٩٩ عن أبي هريرة رفعه . وقال : قلت في الصحيح بعضه ، ورواه الطبراني في الصغ[illegible] الأ[illegible] [illegible]ناده حسن .

هذا لفظ الفسوي فهو حديث غريب .

قال الحافظ ابن عساكر : والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر ، وإنما أراد به مدة مقامه في أمته ، كما روى سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة ، قال : قالت فاطمة قال لي رسول الله ﷺ : أن عيسى بن مريم مكث في بني إسرائيل أربعين سنة وهذا منقطع . وقال جرير والثوري عن الأعمش إن إبراهيم مكث عيسى في قومه أربعين عاماً ويروى عن أمير المؤمنين علي أن عيسى عليه السلام رفع ليلة الثاني والعشرين من رمضان وتلك الليلة في مثلها توفي علي بعد طعنه بخمسة أيام . وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن عيسى لما رفع إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها وجاءته مريم فودعته ويكت ثم رفع وهي تنظر ، وألقى إليها عيسى برداً له وقال هذا علامة ما بيني وبينك يوم القيامة ، وألقى عمامته على شمعون ، وجعلت أمه تودعه باصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها ، وكانت تحبه حباً شديداً لأنه توفر عليها حبه من جهتي الوالدين إذ لا أب له وكانت لا تفارقه سفراً ولا حضراً . قال بعض الشعراء :

وكنتُ أرى كالموتِ من بينِ ساعةٍ فكيف ببينٍ كانَ موعدَه الحشرُ

وذكر إسحاق بن بشر ، عن مجاهد بن جبير : أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل الذي شبه لهم وهم يحسبونه المسيح وسلم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك ، تسلطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم وهو ملك دمشق في ذلك الزمان فقيل له إن اليهود قد تسلطوا على أصحاب رجل كان يذكر لهم أنه رسول الله وكان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ويفعل العجائب فعدوا عليه فقتلوه وأهانوا أصحابه وحبسوهم فبعث فجيء بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه فبايعهم في دينهم وأعلى كلمتهم وظهر الحق على اليهود وعلت كلمة النصارى عليهم وبعث إلى المصلوب[1] فوضع عن جذعه وجيء بالجذع الذي صلب عليه ذلك الرجل فعظمه فمن ثم عظمت النصارى الصليب ومن ها هنا دخل دين النصرانية في الروم وفي هذا نظر من وجوه : أحدها : أن يحيى بن زكريا نبي لا يقر على أن المصلوب عيسى فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق . الثاني أن الروم لم يدخلوا في دين المسيح إلا بعد ثلثمائة سنة وذلك في زمان قسطنطين بن قسطن باني المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره . الثالث أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ثم ألقوه بخشبته جعلوا مكانه مطرحاً للقمامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات فلم يزل كذلك حتى كان في زمان قسطنطين المذكور فعمدت أمه هيلانة الحرانية الفندقانية فاستخرجته من هنالك معتقدة أنه المسيح ووجدوا الخشبة التي صلب عليها المصلوب فذكروا أنه ما مسها ذو عاهةٍ إلا عوفي . فالله أعلم أكان هذا أم لا ؟ وهل كان

---

(١) نقل الخبر الطبري عن ابن إسحاق ؛ وفيه أن المصلوب سرجيس . ج ٢ / ٢٤ .

هذا لأن ذلك الرجل الذي بذل نفسه كان رجلاً صالحاً أو كان هذا محنة وفتنة لأمة النصارى في ذلك اليوم حتى عظموا تلك الخشبة ، وغشوها بالذهب واللآلىء ، ومن ثم اتخذوا الصلبانات وتبركوا بشكلها وقبلوها . وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبني مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة فهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التي يقال لها القمامة باعتبار ما كان عندها ، ويسمونها القيامة ، يعنون التي يقوم جسد المسيح منها . ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التي هي قبلة اليهود فلم يزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس فكنس عنها القمامة بردائه وطهرها من الأخباث والأنجاس ، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء وهو [المسجد][1] الأقصى .

[ذكر][2] صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ﴾ [المائدة: ٧٥] قيل سمي المسيح لمسحه الأرض وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام . وقيل لأنه كان ممسوح القدمين . وقال تعالى : ﴿ وقفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونور ﴾ [الحديد: ٢٧] وقال تعالى : ﴿ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ [البقرة: ٨٧] والآيات في ذلك كثيرة جداً وقد تقدم ما ثبت في الصحيحين : « ما من مولود إلاَّ والشيطان يطعن في خاصرته حين يولد فيستهل صارخاً إلاَّ مريم وابنها ذهب يطعن فطعن في الحجاب »[3] وتقدم حديث عمير بن هانىء ، عن جنادة ، عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إلّه إلاَّ الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » رواه البخاري وهذا لفظه ، ومسلم[4] .

وروى البخاري ومسلم من حديث الشعبي ، عن أبي بردة بن أبي موسى ، عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ : « إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران وإذا آمن بعيسى بن مريم ثم آمن بي فله أجران ، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه

---

(١) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .
(٢) سقطت من نسخ البداية المطبوعة .
(٣) تقدم تخريجه قريباً فليراجع .
(٤) تقدم تخريجه قريباً فليراجع .

فله أجران »[1] هذا لفظ البخاري . وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أنبأنا هشام ، عن معمر (ح) وحدثني محمود حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « ليلة أسري بي لقيت موسى قال فنعته فإذا رجل حسبته قال مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة . قال ولقيت عيسى فنعته النبي ﷺ فقال : « ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس ، يعني الحمام ، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به . الحديث »[2] وقد تقدم في قصتي إبراهيم وموسى ثم قال : حدثنا محمد بن كثير ، أنبأنا إسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال النبي ﷺ : « رأيت عيسى وموسى وإبراهيم . فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر . وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط »[3] . تفرد به البخاري . وحدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا أبو ضمرة ، حدثنا موسى بن عقبة ، عن نافع ، قال قال عبد الله بن عمر : ذكر النبي ﷺ يوماً بين ظهراني الناس المسيح الدجال فقال : إنَّ الله ليس بأعور إلَّا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية ، وأراني الليلة عند الكعبة في المنام فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال تضرب لمته بين منكبيه رجل الشعر، يقطر رأسه ماءً ، واضعاً يديه على منكبي رجلين ، وهو يطوف بالبيت فقلت من هذا ؟ فقالوا المسيح بن مريم . ثم رأيت رجلاً وراءه جعد قطط أعور عين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قطن . واضعاً يده على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت من هذا ؟ فقالوا المسيح الدجال . ورواه مسلم من حديث موسى بن عقبة . ثم قال البخاري : تابعه عبد الله بن نافع ثم ساقه من طريق الزهري ، عن سالم بن عمر قال الزهري: وابن قطن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية. فبين صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحين : مسيح المهدي ، ومسيح الضلالة ، ليعرف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ، ويعرف الآخر فيحذره الموحدون . وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى بن مريم رجلاً يسرق فقال له أسرقت قال كلا والذي لا إله إلاَّ هو فقال عيسى آمنت بالله وكذبت عيني » وكذا رواه [مسلم عن][4] محمد بن رافع عن عبد الرزاق[5] . وقال أحمد : حدثنا عفان ،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ١٤٥ والعتق ١٤، ١٦ وأحاديث الأنبياء ٤٨ وأخرجه مسلم في ١ كتاب الايمان ٢٤١ والترمذي في كتاب النكاح ٢٥ والنسائي في النكاح ٦٥ والامام أحمد في مسنده ٤/٣٩٥، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤١٤.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء وباب ٤٩ والترمذي في أول تفسير سورة الإسراء عن محمود بن غيلان . ورواه مسلم في الصحيح عن محمد بن رافع في ١ كتاب الايمان (٢٧٢) وأخرجه البيهقي في الدلائل ٢/٣٨٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ٢٤ ، ٤٨ وكتاب بدء الخلق ٧.

(٤) ما بين معكوفين سقطت من نسخ البداية المطبوعة .

(٥) أخرجه مسلم في ٤٣/٤٠/١٤٩/٢٣٦٨ .

حدثنا حماد بن سلمة ، عن حميد الطويل ، عن الحسن وغيره ، عن أبي هريرة قال : ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى رجلاً يسرق فقال يا فلان أسرقت فقال لا والله ما سرقت فقال آمنت بالله وكذبت بصري »[1] . وهذا يدل على سجية طاهرة حيث قدم حلف ذلك الرجل فظن أن أحداً لا يحلف بعظمة الله كاذباً على ما شاهده منه عياناً فقبل عذره ورجع على نفسه فقال آمنت بالله أي صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك . وقال البخاري : حدثنا محمد بن يوسف ،حدثنا سفيان ، عن المغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «تحشرون حفاة عراة غرلاً».ثم قرأ:﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فأول الخلق يكسى إبراهيم ثم يؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال ، فأقول : أصحابي فيقال : إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم . فأقول كما قال العبد الصالح عيسى بن مريم : ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك . وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [المائدة:١١٧ - ١١٨] »[2] تفرد به دون مسلم من هذا الوجه . وقال أيضاً : حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي ، حدثنا سفيان ، سمعت الزهري يقول : أخبرني عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله »[3] .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم ، حدثنا جرير بن حازم ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج يصلي إذ جاءته أمه فدعته فقال أجيبها أو أصلي فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات وكان جريج في صومعة فعرضت له امرأة وكلمته فأبى فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً فقيل لها ممن قالت من جريج فأتوه وكسروا صومعته فأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام قال فلان الراعي قالوا أنبني صومعتك من ذهب قال : لا إلا

---

(١) مسند أحمد ج ٣١٤/٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٤٥/٨١ ومسلم في صحيحه ٥٨/٥٦/٥١ والترمذي في سننه ٧/١٧/٤٤ ورواه النسائي وابن ماجه والدارمي في سننهم واحمد في مسنده ٢٢٠/١ - ٢٢٣ - ٢٢٩ ، ٤٩٥/٣ ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده حديث ٢٦٣٨ .

ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٣٤٥/١٠ - ٣٤٦ عن جابر وقال : رواه الطبراني في الأوسط بنحوه ورجال أحمد وثقوا .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٤٨ والدارمي في الرقاق ٦٨ وأحمد في مسنده ٢٢/١ ، ٢٤ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٦٠ .

من طين . وكانت امرأة ترضع ابناً لها في بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت اللهم اجعل ابني مثله فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلني مثله . ثم أقبل على ثديها يمصه . قال أبو هريرة كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص أصبعه ثم مُر بأمه فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه فترك ثديها فقال : اللهم اجعلني مثلها فقالت : لم ذلك ؟ فقال : الراكب جبار من الجبابرة وهذه الأمة يقولون سرقت وزنت ولم تفعل »[1] . وقال البخاري حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري أخبرني أبو سلمة أن أبا هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي »[2] تفرد به البخاري من هذا الوجه . ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي، داود الحفري ، عن الثوري ، عن أبي الزناد ، عن أبي سلمة عن أبي هريرة وقال أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان هو الثوري ، عن أبي اليزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام والأنبياء أخوة أولاد علات وليس بيني وبين عيسى نبي »[3] . وهذا إسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق نحوه . وقال أحمد : حدثنا يحيى ، عن ابن أبي عروبة ، حدثنا قتادة ، عن عبد الرحمن بن آدم ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الأنبياء أخوة لعلات . ودينهم واحد وأمهاتهم شتى . وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة ، والبياض سبط كان رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل بين ممصرتين فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ويعطل الملل ، حتى يهلك في زمانه كلها غير الإسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب وتقع الأمنة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً ، فيمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه »[4] . ثم رواه أحمد عن عفان ، عن همام ، عن قتادة ، عن عبد الرحمن عن أبي هريرة فذكر نحوه وقال : « فيمكث أربعين سنة . ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون »[5] . ورواه أبو داود عن هدبة بن خالد ، عن همام بن يحيى به نحوه . وروى هشام بن عروة عن صالح مولى أبي هريرة عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « فيمكث في الأرض أربعين سنة . وسيأتي بيان

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٢/٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٢) تقدم تخريجه قريباً فليراجع .

(٣) مسند أحمد ج ٢/٤٠٦ .

مسند أحمد ج ٢/٤٣٧ .

مسند أحمد ج ٢/٣١٩ ، ٤٠٦ ، ٤٨٢ .

نزوله عليه السلام في آخر الزمان في « كتاب الملاحم » كما بسطنا ذلك أيضاً في التفسير عند قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ [النساء : ١٥٩] وقوله : ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ الآية [الزخرف : ٦١] وأنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق[١] وقد أقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين : تقدم يا روح الله فصلِّ فيقول : لا بعضكم على بعض أمراء مكرمة الله هذه الأمة . وفي رواية فيقول له عيسى : إنما أقيمت الصلاة لك فيصلي خلفه . ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لد فيقتله بيده الكريمة . وذكرنا أنه قوي الرجاء حين بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التي هي من حجارة بيض وقد بنيت أيضاً من أموال النصارى حين حرقوا التي هدمت وما حولها فينزل عليها عيسى بن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ولا يقبل من أحد إلاّ الإسلام ، وأنه يحج من فج الروحاء حاجاً أو معتمراً أو لثنتيهما ، ويقيم أربعين سنة ، ثم يموت فيدفن فيما قيل في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه[٢] . وقد ورد في ذلك حديث ذكره ابن عساكر في آخر ترجمة المسيح عليه السلام في كتابه عن عائشة مرفوعاً أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر في الحجرة النبوية ولكن لا يصح إسناده وقال أبو عيسى الترمذي : حدثنا زيد بن أخزم الطائي ، حدثنا أبو قتيبة مسلم بن قتيبة ، حدثني أبو مودود المدني ، حدثنا عثمان بن الضحاك ، عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام ، عن أبيه عن جده ، قال : مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى بن مريم عليهمَ السلام يدفن معه[٣] . قال أبو مودود : وقد بقي من البيت موضع قبر . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن كذا قال . والصواب الضحاك بن عثمان المدني . وقال البخاري هذا الحديث لا يصح عندي ولا يتابع عليه . وروى البخاري عن يحيى بن حماد ، عن أبي عوانة ، عن عاصم الأحول ، عن أبي عثمان النهدي ، عن سلمان قال : الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة وعن قتادة خمسمائة وستون سنة . وقيل خمسمائة وأربعون سنة وعن الضحاك أربعمائة وبضع وثلاثون سنة . والمشهور ستمائة سنة[٤] . ومنهم من يقول ستمائة وعشرون سنة بالقمرية لتكون ستمائة بالشمسية والله أعلم .

وقال ابن حبان في صحيحه : « ذكر المدة التي بقيت فيها أمة عيسى على هديه » : حدثنا أبو

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢٠٥ عن أوس بن أوس عن النبي ﷺ . قال رواه الطبراني ورجاله ثقات .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١/٣٥٦ من عدة طرق عن الزهري .

(٣) ورواه الهيثمي في الزوائد ٨/٢٠٦ عن عبد الله بن سلام . قال : ورواه الطبراني وفيه عثمان بن الضحاك وثقه ابن حبان وضعفه أبو داود .

(٤) جاء في مروج الذهب : ٢/٢٨٥ : بين مولد المسيح إلى مولد النبي ﷺ ٥٢١ سنة ، وبين أن رفع الله المسيح وهو ابن ٣٣ سنة إلى سنة وفاة النبي ﷺ ٥٤٦ . وبين مبعث المسيح وهجرة النبي ﷺ ٥٩٤ سنة .

يعلى ، حدثنا أبو همام ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن الهيثم بن حميد ، عن الوضين بن عطاء ، عن نصر بن علقمة ، عن جبير بن نفير ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد قبض الله داود من بين أصحابه فما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتي سنة »[1]. وهذا حديث غريب جداً وإن صححه ابن حبان . وذكر ابن جرير[2] عن محمد بن إسحاق : أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع وصى الحواريين بأن يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له وعين كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب ، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم . وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة لوقا ومتى ومرقس ويوحنا، وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى الأخرى وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه وهما متى ويوحنا ومنهم اثنين من أصحاب أصحابه وهما مرقس ولوقا .
وكان ممن آمن بالمسيح وصدقه من أهل دمشق رجل يقال له ضينا وكان مختفياً في مغارة داخل الباب الشرقي قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من بولس اليهودي وكان ظالماً غاشماً مبغضاً للمسيح ، ولما جاء به . وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد . ثم رجمه حتى مات رحمه الله . ولما سمع بولص أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جهز بغاله وخرج ليقتله فتلقاه عند كوكبا ، فلما واجه أصحاب المسيح ، جاء إليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه . فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح ، فجاء إليه واعتذر مما صنع وآمن به فقبل منه وسأله أن يمسح عينيه ليرد الله عليه بصره ، فقال إذهب إلى ضينا عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك ، فجاء إليه فدعا فرد عليه بصره وحسن إيمان بولص بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله وبنيت له كنيسة باسمه فهي كنيسة بولص المشهورة بدمشق من زمن فتحها الصحابة رضي الله عنهم حتى خربت .

فصل

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء على أقوال، كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف كما أوردناه عند قوله : ﴿ **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾ [الصف: ١٤] قال ابن عباس وغيره : قال قائلون منهم : كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى

---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢٠٧ وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات وفي بعضهم خلاف .
(٢) تاريخ الطبري ٢/٢٤ : عين فطرس إلى رومية وتوماس إلى أرض بابل من أرض المشرق ، وفيليبس إلى أرض القيروان وقرطاجنة وهي افريقيا ويحنس إلى دفسوس وابن تلما إلى ارض الحجاز وسيمن إلى أرض البربر دون أفريقيا ويعقوبس إلى أوري شلم .

السماء وقال آخرون هو الله . وقال آخرون هو ابن الله[1] . فالأول هو الحق والقولان الآخران كفر عظيم كما قال : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ [مريم :٣٧] وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل . ثم بعد المسيح بثلثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمى والبلية الكبرى . اختلف البتاركة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين في المسيح على أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضبط ، واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين باني القسطنطينية وهم المجمع الأول[2] . فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات،فسموا الملكية[3]ودحض من عداهم وأبعدهم وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن إديوس الذي ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله فسكنوا البراري والبوادي وبنوا الصوامع والديارات والقلايات وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل وبنت الملكية الكنائس الهائلة عمدوا إلى ما كان من بناء اليونان فحولوا محاربيها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجدي .

بيان بناء بيت لحم والقمامة

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح وبنت أمه هيلانة القمامة يعني على قبر

---

(١) تقدم التعليق حول الفرق الثلاث التي اختلفت في رفعه عليه السلام . وقال صاحب الملل والنحل : لما رفع إلى السماء اختلف الحواريون وغيرهم فيه . وإنما اختلافاتهم تعود إلى أمرين :
- كيفية نزوله واتصاله بأمه وتجسد الكلمة .
- كيفية صعوده واتصاله بالملائكة وتوحد الكلمة . ص ١٠٠ .

(٢) حضر المجمع الأول بمدينة نيقية ألفان وثمانية وأربعون أسقفاً ، فتم اختيار ثلاثمائة وثمانية عشر اسقفاً متفقين ؛ فوضعوا شرائع النصرانية وكان رئيس هذا المجمع بطرق الأسكندرية . وحضر الاجتماع البطاركة الثلاثة الآخرون : بطرك انطاكية ـ بطرك مدينة رومية ـ بطرك القسطنطينية واتفقوا ـ على ما قال الشهرستاني وذلك قولهم :
« نؤمن بالله الواحد الآب مالك كل شيء ، وصانع ما يرى وما لا يرى وبالابن الواحد يسوع المسيح ، ابن الله الواحد ، بكر الخلائق كلها ، الذي ولد مع أبيه قبل العوالم كلها ، وليس بمصنوع ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم ، وخلق كل شيء من أجلنا ، ومن أجل معشر الناس ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنساناً ، وحبل به ، وولد من مريم البتول ، وقتل وصلب أيام فيلاطوس ودفن ، ثم قام في اليوم الثالث ، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى بين الأموات والأحياء ، ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه ، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا وبجماعة واحدة قدسية مسيحية جاثليقية وبقيام أبداننا ، وبالحياة الدائمة أبد الآبدين » الملل والنحل ص ١٠١ .

(٣) كذا في الأصول ، وهم المعروفون في كتب النحل والتفسير بالملكانية . قال الشهرستاني : وهم أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها قالوا : إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح . وقالوا : إن المسيح ناسوت كلي لا جزئي (١٠١).

لمصلوب[1] وهم يسلمون لليهود أنه المسيح . وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القوانين والأحكام . ومنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة وأحلوا أشياء هي حرام بنص التوراة ، ومن ذلك الخنزير وصلوا إلى الشرق ، ولم يكن المسيح صلى إلّا إلى صخرة بيت المقدس وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى . ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ثم حول إلى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل. وصوروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التي يسمونها بالأمانة وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثاني[2] واليعقوبية أصحاب يعقوب البرادعي أصحاب المجمع الثالث[3] يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها وها أنا أحكيها وحاكي الكفر ليس بكافر لابث على ما فيها ركة الألفاظ وكثرة الكفر والخبال المفضي بصاحبه إلى النار ذات الشواظ فيقولون نؤمن بإلّه واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض كل ما يرى وكل ما لا يرى وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور نور من نور إلّه حق من إلّه حق مولود غير مخلوق مساوٍ للأب في الجوهر الذي كان به كل شيء من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء وتانس وصلب على عهد ملاطس النبطي وتالم وقبر وقام في اليوم الثالث كما في الكتب وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب . وأيضاً فسيأتي بجسده ليدبر الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه وروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب والابن مسجود له ويمجد الناطق في الأنبياء كنسبة واحدة جامعة مقدسة يهولية واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وأنه حي قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه آمين .

كتاب أخبار الماضين

من بني إسرائيل وغيرهم إلى آخر زمن الفترة سوى أيام العرب وجاهليتهم فإنا سنورد ذلك بعد فراغنا من هذا الفصل إن شاء الله تعالى قال الله تعالى: **﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً ﴾** [طه : ٩٩] . وقال : **﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾** [يوسف : ٣].

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل : اخرجت الخشبة التي تزعم النصارى أن المسيح صلب عليها ، وجعلت ذلك اليوم عيداً، وهو عيد الصليب وهو لأربع عشرة تخلو من أيلول وبنت الكنيسة المعروفة بقمامة وتسمى القيامة . ١/ ٣٣٠ مروج الذهب ١/ ٣٢٩.

(٢) عقد بالقسطنطينية على مقدونس وأشياعه ، وعدة المجتمعين فيه من الأساقفة مائة وخمسون رجلاً .

(٣) عقد في ملك تدوس الصغير بن تدوس الكبير لأحدى وعشرين سنة من ملكه ، وعقد بمدينة أفسس ، وحضره مائتا أسقف وكان سببه ما ظهر من نسطورس بطرك القسطنطينية من مخالفته مذهبهم فلعنوه ونفوه .

خبر ذي القرنين

قال الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . إنّا مكّنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما . قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً . قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً . ثم أتبع سبباً . حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً . كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً . ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً . قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا . قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكّاء وكان وعد ربي حقاً ﴾ [الكهف: ٨٣ - ٩٨] . ذكر الله تعالى ذا القرنين هذا وأثنى عليه بالعدل ، وأنه بلغ المشارق والمغارب ، وملك الأقاليم وقهر أهلها ، وسار فيهم بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المظفر المنصور القاهر المقسط . والصحيح : أنه كان ملكاً من الملوك العادلين وقيل كان نبياً . وقيل رسولاً . وأغرب من قال ملكاً من الملائكة . وقد حكي هذا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : فإنه سمع رجلاً يقول لآخر يا ذا القرنين فقال : مه ما كفاكم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ذكره السهيلي . وقد روى وكيع عن إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال كان ذو القرنين نبياً . وروى الحافظ ابن عساكر من حديث أبي محمد بن أبي نصر ، عن أبي إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن أبي ذؤيب، حدثنا محمد بن حماد ، أنبأنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن أبي ذؤيب ، عن المقبري[1] عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « لا أدري أتبع كان لعيناً أم لا ولا أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا ولا أدري ذو القرنين كان نبياً أم لا »[2] . وهذا غريب من هذا الوجه . وقال إسحاق بن بشر عن عثمان بن الساج ، عن خصيف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان ذو القرنين ملكاً صالحاً رضي الله عمله وأثنى عليه في كتابه وكان منصوراً ، وكان الخضر وزيره . وذكر أن الخضر عليه السلام كان على مقدمة جيشه وكان عنده بمنزلة المشاور ، الذي هو من الملك بمنزلة الوزير في إصلاح الناس اليوم . وقد

---

(١) في أبي داود : عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد بن أبي سعيد .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة عن محمد بن المتوكل العسقلاني باب التخيير بين الأنبياء ح ٤٦٧٤ وفيه : ما أدري أتبع لعين هو أم لا ، وما أدري اعزير نبي هو أم لا ؟ .

ذكر الأزرقي[1] وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل وطافت معه بالكعبة المكرمة هو واسماعيل عليه السلام وروى عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما أن ذا القرنين حج ماشياً وأن إبراهيم لما سمع بقدومه تلقاه ودعا له ورضاه وأن الله سخر لذي القرنين السحاب[2] يحمله حيث أراد والله أعلم .

واختلفوا في السبب الذي سمي به ذا القرنين فقيل : لأنه كان له في رأسه شبه القرنين . قال وهب بن منبه : كان له قرنان من نحاس في رأسه وهذا ضعيف . وقال بعض أهل الكتاب لأنه ملك فارس والروم . وقيل : لأنه بلغ قرني الشمس غرباً وشرقاً . وملك ما بينهما من الأرض وهذا أشبه من غيره وهو قول الزهري وقال الحسن البصري : كانت له غديرتان من شعر يطافهما فسمي ذا القرنين . وقال إسحاق بن بشر : عن عبد الله بن زياد بن سمعان ، عن عمر بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أنه قال دعا ملكاً جباراً إلى الله فضربه على قرنه فكسره ورضه . ثم دعاه فدق قرنه الثاني فكسره فسمي ذا القرنين . وروى الثوري عن حبيب بن أبي ثابت ، عن أبي الطفيل ، عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن ذي القرنين فقال : كان عبداً ناصحَ اللهَ فناصحه ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فمات فسمي ذا القرنين . وهكذا رواه شعبة القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل عن علي به[3]. وفي بعض الروايات عن أبي الطفيل عن علي قال لم يكن نبياً ولا رسولاً ولا ملكاً ولكن كان عبداً صالحاً .

وقد اختلف في اسمه فروى الزبير بن بكار عن ابن عباس : كان اسمه عبد الله بن الضحاك ابن معد وقيل مصعب بن عبد الله بن قنان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون[4] بن نبت بن

---

(١) أخبار مكة ١/٧٤.

(٢) عن علي بن أبي طالب كما في تفسير القرطبي .

(٣) في ذي القرنين واسمه تنازع الناس وكثرت الأقوال حتى التناقض ؛ والخلاف فيه كثير ولا طائل تحته ـ قال ناس أنه من الملائكة ؛ ومنهم من قال نبياً ومنه من قال كان عبداً صالحاً .

إلى جانب ما ذكره ابن كثير في تسميته بذي القرنين قيل : .

ـ سمي بذي القرنين لأنه انقض في وقته قرنان من الناس .

ـ كان على رأسه ما يشبه القرنين . ـ كان لتاجه قرنان .

ـ عن النبي ﷺ : لأنه طاف قرني الدنيا يعني شرقها وغربها .

ـ لأنه رأى حلماً في المنام كأنه تعلق بطرفي الشمس وقرنيها .

ـ لأنه دخل النور والظلمة . ـ كان له ضفيرتان أي قرنان .

(راجع المسعودي ـ تفسير الرازي ـ تفسير القرطبي ـ المعارف لابن قتيبة) .

(٤) في أنساب السمعاني : غوث .

مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن قحطان .

وقد جاء في حديث أنه كان من حمير[١] وأمه رومية وأنه كان يقال له ابن الفيلسوف لعقله . وقد أنشد بعض الحميريين[٢] في ذلك شعراً يفتخر بكونه أحد أجداده فقال :

قَد كانَ ذو القرنَينِ جدّي مُسْلِماً ... مَلْكاً تدين له الملوكَ وتحشِد[٣]
بلغَ المشارقَ والمغاربَ يَبتغي ... اسبابَ أمرٍ مِنْ حَكيمٍ مُرشِدِ[٤]
فرأى مغيبَ الشّمسِ عندَ غُروبِها ... في عينِ ذي خلبٍ وثأطٍ حرمد[٥]
من بعدِهِ بلقيسُ كانتْ عمّتي ... مَلَكَتْهم حتّى أتاها الهدهدُ

قال السهيلي وقيل كان اسمه مرزبان بن مرزبة . ذكره ابن هشام[٦] وذكر في موضع[٧] آخر أن اسمه الصعب بن ذي مرائد وهو أول التبابعة وهو الذي حكم لإبراهيم في بئر السبع[٨] . وقيل إنه أفريدون بن أسفيان الذي قتل الضحاك وفي خطبة قس : يا معشر إياد بن الصعب ذو القرنين ، ملك الخافقين ، وأذل الثقلين ، وعمر ألفين . ثم كان ذلك كلحظة عين . ثم أنشد ابن هشام للأعشى :

والصّعبُ ذو القَرْنَيْن اصبحَ ثاوياً ... بالجنو في جَدَثٍ أشمَّ مقيماً

وذكر الدارقطني وابن ماكولا أن اسمه هرمس ويقال هرويس بن قيطون بن رومي بن لنطى

---

(١) قال أبو الريحان المنجم الهروي البيروني في كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية : قيل هو أبو كرب شمر بن عبير بن افريقس الحميري ؛ وقال : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لأن الأذواء كانوا من اليمن وهم الذين لا تخلو أساميهم من ذي .

وقال المسعودي في مروج الذهب : قيل ان بعض التبابعة غزا مدينة رومية وأسكنها خلقاً من اليمن ، وأن ذا القرنين الذي هو الأسكندر من أولئك العرب المتخلفين بها . تفسير الرازي ٢١/١٦٤ .

(٢) وهو تبع اليماني . كما في تفسير القرطبي والمسعودي ولم يذكر الأبيات .

(٣) في تفسير الرازي والقرطبي : قبلي بدل جدي ؛ وفي القرطبي تسجد بدل تحشد . وعجزه في الرازي :

ملكاً علا في الأرض غير مفند

(٤) في تفسير الرازي : عجزه : أسباب ملك من كريم سيد .

(٥) الخلب : الطين ، الثأط : الحمأة . الحرمد : الأسود .

(٦) قال ابن إسحاق : مرزبان بن مرذبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح ؛ وذكر ابن هشام : اسمه الاسكندر سيرة ابن هشام .

(٧) أي في التيجان .

(٨) قال السهيلي : والظاهر من علم الأخبار أنها اثنان : أحدهما كان على عهد إبراهيم عليه السلام ويقال انه قضى لابراهيم حين تحاكموا إليه في بئر السبع بالشام (وقد تقدم عن الأزرقي أنه طاف معه ماشياً وأسلم على يديه) ـ والآخر كان قريباً من عهد عيسى عليه السلام .

ابن كشلوخين بن يونان بن يافث بن نوح فالله أعلم. وقال إسحق بن بشر عن سعيد بن بشير عن قتادة قال اسكندر هو ذو القرنين وأبوه أول القياصرة وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام. فأما ذو القرنين الثاني فهو اسكندر بن فيلبس بن مصريم بن هرمس بن مطيون بن رومي بن لنطي بن يونان بن يافث بن يونة بن شرخون بن رومة بن شرفط بن توفيل بن رومي بن الأصفر بن يقز بن العيص بن إسحق بن إبراهيم الخليل كذا نسبه الحافظ ابن عساكر في تاريخه[1]. المقدوني اليوناني المصري باني اسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم، وكان متأخراً عن الأول بدهر طويل كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة وكان أرطاطاليس الفيلسوف وزيره وهو الذي قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس وأوطأ أرضهم. وإنما بهنا عليه لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد، وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرطاطاليس وزيره فيقع بسبب ذلك خطأ كبير وفساد عريض طويل كثير[2]، فإن الأول كان عبداً مؤمناً صالحاً وملكاً عادلاً وكان وزيره الخضر، وقد كان نبياً على ما قررناه قبل هذا[3]. وأما الثاني فكان مشركاً وكان وزيره فيلسوفاً وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة. فأين هذا من هذا لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبي لا يعرف حقائق الأمور. فقوله تعالى: ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾ كان سببه أن قريشاً سألوا اليهود عن شيء يمتحنون به علم رسول الله ﷺ فقالوا لهم سلوه عن رجل طواف في الأرض وعن فتية خرجوا لا يدري ما فعلوا فأنزل الله تعالى قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين. ولهذا قال: ﴿ قل سأتلوا عليكم منه ذكراً ﴾ أي من خبره وشأنه ﴿ ذكراً ﴾ أي خبراً نافعاً كافياً في تعريف أمره، وشرح حاله فقال: ﴿ إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ أي وسعنا مملكته في البلاد، وأعطيناه من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمات العظيمة، والمقاصد الجسيمة. قال قتيبة، عن أبي عوانة، عن سماك، عن حبيب بن حماد قال: كنت عند علي بن أبي طالب وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب فقال له: سخر له السحاب ومدت له الأسباب

---

(1) قال الطبري وابن الأثير: وأما الروم وكثير من أهل الأنساب فإنهم يقولون (وفي الكامل: يزعمون) أنه: الاسكندر بن بيلبوس بن مطريوس ويقال مصريم بن هرمس بن هروس بن ميطون بن رومي بن ليطي بن يونان بن يافث بن ثوبة بن سرحون بن رومية بن نزمط بن نوفيل بن رومى بن الأصفر بن أليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم.

ويقال: إنه أنه أخو دارا لأبيه.

(2) قال الرازي: إن تعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لا سبيل إليه.

(3) قال الرازي في تفسيره: من قال أنه كان نبياً احتج بوجوه:

- قوله ﴿ إنا مكّنا له في الأرض ﴾ والأولى حمله على التمكين في الدين، والتمكين الكامل في الدين هو النبوة.
- قوله ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ ومن جملة الأشياء النبوة.
- قوله ﴿ قلنا يا ذا القرنين . . . ﴾ والذي يتكلم معه الله لا بد وأن يكون نبياً.

وقال الدارقطني في كتاب الأخبار: إنَّ ملكاً يقال له رباقيل (رفائيل) كان ينزل على ذي القرنين.

ويسط له في النور [فكان الليل والنهار عليه سواء][1] وقال أزيدك فسكت الرجل وسكت علي رضي الله عنه . وعن أبي إسحاق السبيعي ، عن عمرو بن عبد الله الوادعي سمعت معاوية يقول : ملك الأرض أربعة . سليمان بن داود النبي عليهما السلام . وذو القرنين ورجل من أهل حلوان . ورجل آخر . فقيل له الخضر قال : لا . وقال الزبير بن بكار : حدثني إبراهيم بن المنذر ، عن محمد بن الضحاك ، عن أبيه ، عن سفيان الثوري قال : بلغني أنه ملك الأرض كلها أربعة : مؤمنان وكافران سليمان النبي وذو القرنين ونمرود وبخت نصر . وهكذا قال سعيد بن بشير : سواء . وقال إسحاق بن بشر ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة عن الحسن قال : كان ذي القرنين ملك بعد النمرود وكان من قصته أنه كان رجلاً مسلماً صالحاً أتى المشرق والمغرب مد الله له في الأجل ونصره حتى قهر البلاد ، واحتوى على الأموال ، وفتح المدائن ، وقتل الرجال ، وجال في البلاد والقلاع فسار حتى أتى المشرق والمغرب فذلك قول الله : ﴿ **ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً** ﴾ أي خبراً ﴿ **إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً** ﴾ أي علماً بطلب أسباب المنازل .

قال إسحاق ، وزعم مقاتل أنه كان يفتح المدائن ويجمع الكنوز فمن اتبعه على دينه وتابعه عليه وإلاّ قتله . وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعبيد بن يعلى والسدي وقتادة والضحاك ﴿ **وآتيناه من كل شيء سبباً** ﴾ يعني علماً وقال قتادة ومطر الوراق معالم الأرض ومنازلها وأعلامها وآثارها وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعني : تعليم الألسنة كان لا يغزو قوماً إلاّ حدثهم بلغتهم والصحيح أنه يعم كل سبب يتوصل به إلى نيل مقصوده في المملكة وغيرها فإنه كان يأخذ من كل أقليم من الأمتعة والمطاعم والزاد ما يكفيه ويعينه على أهل الإقليم الآخر .

وذكر بعض أهل الكتاب أنه مكث ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض ويدعو أهلها إلى عبادة الله وحده لا شريك له وفي كل هذه المدة نظر . والله أعلم . وقد روى البيهقي وابن عساكر حديثاً متعلقاً بقوله : ﴿ **وآتيناه من كل شيء سبباً** ﴾ مطولاً جداً وهو منكر جداً . وفي إسناده محمد بن يونس الكديمي وهو متهم فلهذا لم نكتبه لسقوطه عندنا والله أعلم وقوله : ﴿ **فاتبع سبباً** ﴾ أي طريقاً ﴿ **حتى إذا بلغ مغرب الشمس** ﴾ يعني من الأرض انتهى إلى حيث لا يمكن أحداً أن يجاوزه ووقف على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس الذي فيه الجزائر المسماة بالخالدات التي هي مبدأ الأطوال على أحد قولي أرباب الهيئة ، والثاني من ساحل هذا البحر كما قدمنا . وعنده شاهد مغيب الشمس فيما رآه بالنسبة إلى مشاهدته ﴿ **تغرب في عين حمئة** ﴾ والمراد بها البحر في نظره فإن من كان في البحر أو على ساحله ، يرى الشمس كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه ولهذا قال : ﴿ **وجدها** ﴾ أي في نظره ولم يقل : فإذا هي تغرب في عين حمئة أي ذات حمأة . قال كعب

---

(١) ما بين معكوفين زيادة استدركت من القرطبي وتفسير الطبرسي .

الأحبار : وهو الطين الأسود . وقرأه بعضهم حامية . فقيل يرجع إلى الأول . وقيل من الحرارة وذلك من شدة المقابلة لوهج ضوء الشمس وشعاعها . وقد روى الإمام أحمد : عن يزيد بن هارون ، عن العوام بن حوشب ، حدثني مولى لعبد الله بن عمرو عن عبد الله . قال نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال : « في نار الله الحامية لولا ما يزعها[1] من أمر الله لأحرقت ما على الأرض »[2] فيه غرابة وفيه رجل منهم لم يسم ورفعه فيه نظر وقد يكون موقوفاً من كلام عبد الله بن عمرو ، فإنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب المتقدمين فكان يحدث منها والله أعلم .

ومن زعم من القصاص أن ذا القرنين جاوز مغرب الشمس وصار يمشي بجيوشه في ظلمات مدداً طويلة فقد اخطأوا بعد النجعة . وقال ما يخالف العقل والنقل .

بيان طلب ذي القرنين عين الحياة

وقد ذكر ابن عساكر : من طريق وكيع ، عن أبيه ، عن معتمر بن سليمان ، عن أبي جعفر الباقر ، عن أبيه ، زين العابدين خبراً مطولاً جداً فيه : أن ذا القرنين كان له صاحب من الملائكة يقال له رناقيل[3] فسأله ذو القرنين هل تعلم في الأرض عيناً يقال لها عين الحياة فذكر له صفة مكانها فذهب ذو القرنين في طلبها ، وجعل الخضر على مقدمته فانتهى الخضر إليها في واد في أرض الظلمات فشرب منها ، ولم يهتد ذو القرنين إليها . وذكر اجتماع ذي القرنين ببعض الملائكة في قصر هناك وأنه أعطاه حجراً فلما رجع إلى جيشه سأل العلماء عنه فوضعوه في كفة ميزان وجعلوا في مقابلته ألف حجر مثله فوزنها حتى سأل الخضر فوضع قباله حجراً وجعل عليه حفنة من تراب فرجح به . وقال هذا مثل ابن آدم لا يشبع حتى يوارى بالتراب فسجد له العلماء تكريماً له وإعظاماً والله أعلم[4] . ثم ذكر تعالى أنه حكم في أهل تلك الناحية ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً . قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ﴾

---

(١) يزعها : يزجرها ويمنعها .

(٢) مسند أحمد ٢/٢٠٧ .

(٣) في قصص الأنبياء للثعلبي : « رفائيل » وفي الدر المنثور « زرفائيل » وهذا الملك على ما ذكره الدارقطني في « الأخبار » : هو الذي يطوي الأرض يوم القيامة . وينقصها فتقع اقدام الخلائق كلها بالساهرة ، فيما ذكره بعض أهل العلم ، والساهرة : أرض يجددها الله يوم القيامة .

(٤) ذكر الطبري وابن الأثير : فلما فرغ من أمر السد ، وبعد أن دانت له عامة الأرضين وملك التبت والصين ، دخل الظلمات مما يلي القطب الشمالي والشمس جنوبية ، فلهذا كانت ظلمة ، وإلا فليس في الأرض موضع إلا تطلع الشمس عليه أبداً ، فلما دخل الظلمات أخذ أربعمائة رجل من أصحابه يطلب عين الخلد ، فسار فيها ثمانية عشر يوماً ثم خرج ولم يظفر بها ، وكان الخضر على مقدمته فظفر بها وسبح فيها وشرب منها . . ورجع (ذو القرنين) إلى العراق فمات في طريقه بشهرزور . (تاريخ الطبري ٢/٩ ، الكامل في التاريخ ١/٢٨٧) .

[الكهف: ٨٧ - ٨٨] أي فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة ويبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزجر عند الكافر ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ [الكهف: ٨٩] فبدأ بالأهم وهو ثواب الآخرة وعطف عليه الإحسان منه إليه وهذا هو العدل والعلم والإيمان قال الله تعالى: ﴿ ثم اتبع سبباً ﴾ أي سلك طريقاً راجعاً من المغرب إلى المشرق فيقال إنه رجع في ثنتي عشرة سنة ﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ أي ليس لهم بيوت ولا أكنان يستترون بها من حر الشمس. قال كثير من العلماء ولكن كانوا يأوون إذا اشتد عليهم الحر إلى أسراب قد اتخذوها في الأرض شبه القبور[1] قال الله تعالى: ﴿ كذلك وقد احطنا بما لديه خبراً ﴾ أي ونحن نعلم ما هو عليه ونحفظه ونكلؤه بحراستنا في مسيره ذلك كله من مغارب الأرض إلى مشارقها.

وقد روي عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما من السلف: أن ذا القرنين حج ماشياً فلما سمع ابراهيم الخليل بقدومه تلقاه فلما اجتمعا دعا له الخليل ووصاه بوصايا ويقال إنه جيء بفرس ليركبها فقال: لا أركب في بلد فيه الخليل[2] فسخر الله له السحاب وبشره إبراهيم بذلك فكانت تحمله إذا أراد. وقوله تعالى: ﴿ ثم اتبع سبباً. حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ﴾ [الكهف: ٩٢ - ٩٣] يعني غشماً. يقال إنهم هم الترك أبناء عم يأجوج ومأجوج فذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدوا عليهم وأفسدوا في بلادهم وقطعوا السبل عليهم، وبذلوا له حملاً، وهو الخراج، على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إليهم فامتنع من أخذ الخراج اكتفاءاً بما أعطاه الله من الأموال الجزيلة ﴿ قال ما مكني فيه ربي خير ﴾ ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالاً وآلات ليبني بينهم وبينهم سداً وهو الردم بين الجبلين وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما وبقية ذلك بحار مغرقة وجبال شاهقة فبناه كما قال تعالى من الحديد والقطر وهو النحاس المذاب. وقيل الرصاص والصحيح الأول فجعل بدل اللبن حديداً وبدل الطين نحاساً ولهذا قال تعالى: ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ أي يعلوا عليه بسلالم[3] ولا غيرها ﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾ أي بمعاول ولا فؤوس ولا غيرها فقابل الأسهل بالأسهل والأشد بالأشد ﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾ أي قدر الله وجوده ليكون رحمة منه بعباده أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على من جاورهم في تلك المحلة ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ أي الوقت الذي قدر

---

(١) قال الحسن: كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، وكانت لا تحمل البناء، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا في الماء، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا، فيتراعون كما تتراعى البهائم. (القرطبي - تفسير الرازي).

(٢) تقدم الخبر في الأزرقي وفيه: قال: ما كنت لأركب وهذا (إبراهيم) يمشي فحج ماشياً.

(٣) قال القرطبي في تفسيره: كان ارتفاع السد مائتا ذراع وخمسون ذراعاً، وروي: في طوله ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ، وفي عرضه خمسون فرسخاً (عن وهب بن منبه).

خروجهم على الناس في آخر الزمان ﴿ جعله دكاء ﴾ أي مساوياً للأرض ولا بد من كون هذا ولهذا قال : ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ [الكهف: ٩٨] كما قال تعالى : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٦ - ٩٧] ولهذا قال ههنا : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج في بعض ﴾ [الكهف: ٩٩] يعني يوم فتح السد على الصحيح ﴿ ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً ﴾ وقد أوردنا الأحاديث المروية في خروج يأجوج ومأجوج في التفسير وسنوردها إن شاء الله في « كتاب الفتن والملاحم » من كتابنا هذا إذا انتهينا إليه بحول الله وقوته وحسن توفيقه ومعونته وهدايته .

قال أبو داود الطيالسي: عن الثوري: بلغنا أن أول من صافح ذو القرنين. وروي عن كعب الأحبار أنه قال لمعاوية : إن ذا القرنين لما حضرته الوفاة أوصى أمه إذا هو مات أن تصنع طعاماً وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن ، وتأذن له فيه إلاَّ من كانت ثكلى فلا تأكل منه شيئاً ، فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهن يدها فيه فقالت لهن سبحان الله كلكن ثكلى ؟ فقلن أي والله ما منّا إلاَّ من أثكلت فكان ذلك تسلية لأمه . وذكر إسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد عن بعض أهل الكتاب وصية ذي القرنين وموعظة أمه موعظة بليغة طويلة فيها حكم وأمور نافعة وأنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة وهذا غريب .

قال ابن عساكر ويلغني من وجه آخر أنه عاش ستاً وثلاثين سنة . وقيل كان عمره ثنتين وثلاثين سنة . وكان بعد داود بسبعمائة سنة وأربعين سنة . وكان بعد آدم بخمسة آلاف ومائة وإحدى وثمانين سنة . وكان ملكه ست عشرة سنة[1] . وهذا الذي ذكره إنما ينطبق على إسكندر الثاني لا الأول وقد خلط في أول الترجمة وآخرها بينهما والصواب التفرقة كما ذكرنا اقتداء بجماعة من الحفاظ والله أعلم . وممن جعلهما واحداً الإمام عبد الملك بن هشام راوي السيرة وقد أنكر ذلك عليه الحافظ أبو القاسم السهيلي رحمه الله إنكاراً بليغاً ورد قوله رداً شنيعاً وفرق بينهما تفريقاً جيداً كما قدمنا قال ولعل جماعة من الملوك المتقدمين تسموا بذي القرنين تشبهاً بالأول . والله أعلم .

ذكر أمتي يأجوج ومأجوج
وصفاتهم وما ورد من أخبارهم وصفة السد

هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه ثم الدليل على ذلك ما ثبت في الصحيحين: من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى يوم القيامة يا آدم [افيقول : لبيك وسعديك ، والخير في يديك] : قم فابعث بعث النار من ذريتك فيقول : يا رب وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة .

---

(١) في المسعودي خمس عشرة سنة ، وكان عمره لما ملك إحدى وعشرين سنة مات ابن ست وثلاثين .

فحينئذٍ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكـارى وما هم بسكـارى ولكن عذاب الله شديد » . [قال : فاشتد ذلك عليهم] قالوا يا رسـول الله أينا ذلـك الواحـد ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ابشروا فـإن منكم واحداً ومن يـأجوج ومـأجوج ألفـاً »[1] وفي رواية فقـال : « ابشروا فإن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلّا كثرتاه » . أي غلبتاه كثرة وهذا يدل على كثرتهم وإنهم أضعاف الناس مراراً عديدة . ثم هم من ذرية نوح لأن الله تعالى أخبر أنه استجاب لعبده نوح في دعائه على أهل الأرض بقوله : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديـاراً ﴾ وقال تعـالى : ﴿ فـأنجيناه وأصحـاب السفينة ﴾ وقـال : ﴿ وجعلنا ذريتـه هم البـاقين ﴾ وتقـدم في الحـديث المروي[2] في المسند والسنن أن نوحاً ولد له ثلاثة وهم سام وحام ويافث فسام أبو العرب وحام أبو السودان ويافث أبو الترك فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك وهم مغل المغول وهم أشد بأساً وأكثر فساداً من هؤلاء ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم . وقد قيل إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السد وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم فتركوا من ورائه . فلهذا قيل لهم الترك .

ومن زعم[3] أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم فاختلطت بتراب فخلقوا من ذلك وأنهم ليسوا من حواء فهو قول حكاه الشيـخ أبو زكـريا النـواوي في شرح مسلم وغيـره وضعفوه . وهو جدير بذلك إذ لا دليل عليه بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن . وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جداً . فمنهم من هو كالنخلة السحوق . ومنهم من هو غاية في القصر . ومنهم من يفترش أذناً من أذنيـه ويتغطى بالأخرى فكل هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان . والصحيح أنهم من بني آدم وعلى أشكـالهم وصفـاتهم . وقـد قـال النبي ﷺ : «إن الله خلق آدم وطـولـه ستـون ذراعـاً»[4] ثم لم يـزل الخلق ينقص حتى الآن . وهذا فيصل في هذا الباب وغيره . وما قيل من أن أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفاً[5] فإن صح في خبر قلنا به وإلّا فلا نرده إذ يحتمله العقل والنقل أيضاً قد يرشد إليه

---

(١) أخـرجـه مسلم في ١ كتـاب الايمـان ٩٦ بـاب يقـول الله لآدم ٢٢٢/٣٧٩ ص ٢٠١/١ والبخـاري حـديث رقم : ١٥٨٤ . وما بين معكوفين زيادة من مسلم .

وبعث النار : البعث هنا بمعنى المبعوث الموجه إليها ، ومعناه ميز أهل النار من غيرهم .

(٢) رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : ولد لنوح سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس والـروم والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم وولد حام القبط والبربر والسودان » . تقدم تخريجه .

(٣) قاله كعب الأحبار . وفي الخبر أن آدم احتلم ؛ وفي هذا نظر لأن الأنبياء لا يحتلمون قاله القرطبي .

(٤) أخرجه مسلم في ٥١/١١/٢٨/٢٨٤١ وأحمد في مسنده ج ٣١٥/٢.

(٥) رواه الهيثمي في الزوائد عن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ . قال رواه الطبراني في الأوسط وفيه يحيى بن سعيد العطار وهو ضعيف .

والله أعلم . بل قد ورد حديث مصرح بذلك إن صح قال الطبراني : حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصبهاني ، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات حدثنا أبو داود الطيالسي ، حدثنا المغيرة ، عن مسلم ، عن أبي إسحاق ، عن وهب بن جابر عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معائشهم ولن يموت منهم رجل إلَّا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً . وإن من ورائهم ثلاث أمم (تاويل وتاريس ومنسك)»[1] . وهو حديث غريب جداً وإسناده ضعيف . وفيه نكارة شديدة . وأما الحديث الذي ذكره ابن جرير في تاريخه أن رسول الله ﷺ ذهب إليهم ليلة الإسراء فدعاهم إلى الله فامتنعوا من إجابته ومتابعته وأنه دعا تلك الأمم التي هناك (تاريس وتاويل ومنسك) فأجابوه فهو حديث موضوع اختلقه أبو نعيم عمرو بن الصبح أحد الكذابين الكبار الذين اعترفوا بوضع الحديث والله أعلم .

فإن قيل فكيف دل الحديث المتفق عليه أنهم فداء المؤمنين يوم القيامة أنهم في النار ولم يبعث إليهم رسل . وقد قال الله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ فالجواب أنهم لا يعذبون إلَّا بعد قيام الحجة عليهم والأعذار إليهم كما قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [الإسراء : ١٥] فإن كانوا في زمن الذي قبل بعث محمد ﷺ قد أتتهم رسل منهم فقد قامت على أولئك الحجة وإن لم يكن قد بعث الله إليهم رسلاً فهم في حكم أهل الفترة . ومن لم تبلغه الدعوة وقد دل الحديث المروي من طرق[2] عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ : «إن من كان كذلك يمتحن في عرصات القيامة فمن أجاب الداعي دخل الجنة ومن أبى دخل النار » وقد أوردنا الحديث بطرقه وألفاظه وكلام الأئمة عليه عند قوله : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ وقد حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري إجماعاً عن أهل السنة والجماعة ، وامتحانهم لا يقتضي نجاتهم ، ولا ينافي الأخبار عنهم بأنهم من أهل النار لأن الله يطلع رسوله ﷺ على ما يشاء من أمر الغيب وقد اطلعه على أن هؤلاء من أهل الشقاء وأن سجاياهم تأبى قبول الحق والانقياد له فهم لا يجيبون الداعي إلى يوم القيامة فيعلم من هذا أنهم كانوا أشد تكذيباً للحق في الدنيا لو بلغهم فيها لأن في عرصات القيامة ينقاد خلق ممن كان مكذباً في الدنيا فإيقاع الإيمان هناك لما يشاهد من الأهوال أولى وأحرى منه في الدنيا والله أعلم . كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا فعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ [السجدة : ١٢] وقال تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ [مريم : ٣٨] . وأما الحديث الذي فيه أن رسول الله ﷺ : « دعاهم ليلة الإسراء فلم يجيبوا » فإنه حديث منكر بل موضوع وضعه عمرو بن الصبح .

---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٨/٦ وقال رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات .

(٢) رواه ابن كثير في تفسير سورة الإسراء ـ الآية ١٥ ـ ج ٤٨/٣ وما بعدها . (دار احياء التراث) .

وأما السد فقد تقدم أن ذا القرنين بناه من الحديد والنحاس وساوى به الجبال الصم الشامخات الطوال فلا يعرف على وجه الأرض بناء أجل منه ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم. قال البخاري : وقال رجل للنبي ﷺ رأيت السد قال : « وكيف رأيته ؟ » قال مثل البرد المحبر[1] فقال : « رأيته هكذا » . ذكره البخاري معلقاً بصيغة الجزم ولم أره مسنداً من وجه متصل أرتضيه غير أن ابن جرير رواه في تفسيره مرسلاً فقال : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال ذكر لنا أن رجلاً قال : يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال : « انعته لي » قال : كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء قال : « قد رأيته » .

وقد ذكر أن الخليفة الواثق بعث رسلاً من جهته وكتب لهم كتباً إلى الملوك يوصلونهم من بلاد إلى بلاد حتى ينهوا إلى السد فيكشفوا عن خبره وينظروا كيف بناه ذو القرنين على أي صفة ؟ فلما رجعوا أخبروا عن صفته وأن فيه باباً عظيماً وعليه أقفال وأنه بناء محكم شاهق منيف جداً وأن بقية اللبن الحديد والآلات في برج هناك وذكروا أنه لا يزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد ومحلته في شرقي الأرض في جهة الشمال في زاوية الأرض الشرقية الشمالية ، ويقال : إن بلادهم متسعة جداً وإنهم يقتاتون بأصناف من المعايش من حراثة وزراعة واصطياد من البر ومن البحر ، وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلاّ الذي خلقهم . فإن قيل فما الجمع بين قوله تعالى : ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴾ [الكهف:٩٧] وبين الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها قالت استيقظ رسول الله ﷺ من نوم محمراً وجهه وهو يقول : « لا إله إلاّ الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه »[2] وحلق تسعين قلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث[3]. وأخرجاه في الصحيحين : من حديث وهيب ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وعقد تسعين »[4]. فالجواب أما على قول من ذهب إلى أن هذا إشارة إلى فتح أبواب الشر والفتن وإن هذا استعارة محضة وضرب مثل فلا إشكال . وأما على قول من جعل ذلك إخباراً عن أمر محسوس كما هو الظاهر المتبادر فلا إشكال أيضاً لأن قوله : ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له

---

(١) البرد المحبر : الثوب المنمق .

(٢) أخرجه مسلم في ٥٢ كتاب الفتن ـ(١) باب ٢/ ٢٨٨٠ ص ٤/ ٢٢٠٧ ـ ٢٢٠٨ والبخاري حديث رقم : ١٥٨٢ .

(٣) الخبث : فسره الجمهور بالفسوق والفجور ، وقيل المراد : الزنى خاصة وقيل أولاد الزنى والظاهر أنه المعاصي مطلقاً ، ومعنى الحديث أن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام وإن كان هناك صالحون .

(٤) الحديث ٣/ ٢٨٨١ والبخاري رقم ١٥٨٣ راجع الحاشية رقم (٢) .

نقباً ﴾ أي في ذلك الزمان لأن هذه صيغة خبر ماضٍ ، فلا ينفي وقوعه فيما يستقبل بإذن الله لهم في ذلك قدراً وتسليطهم عليه بالتدريج قليلاً قليلاً حتى يتم الأجل ، وينقضي الأمر المقدور فيخرجون كما قال الله تعالى : ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ [الأنبياء : ٩٦] ولكن الحديث الآخر أشكل من هذا وهو ما رواه الإمام أحمد في مسنده قائلاً : حدثنا روح ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، حدثنا أبو رافع ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً فيعودون إليه كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرون غداً إن شاء الله ويستثني فيعودون إليه وهو كهيئة يوم تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون[1] المياه ، وتتحصن الناس في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم ، فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفاً[2] في أقفائهم فيقتلهم بها »[3]. قال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم » ورواه أحمد أيضاً عن حسن بن موسى عن سفيان عن قتادة به ، وهكذا رواه ابن ماجه من حديث سعيد عن قتادة إلاّ أنه قال حديث أبو رافع . ورواه الترمذي من حديث أبي عوانة عن قتادة به . ثم قال غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه . فقد أخبر في هذا الحديث أنهم كل يوم يلحسونه حتى يكادوا ينذرون شعاع الشمس من ورائه لرقته فإن لم يكن رفع هذا الحديث محفوظاً وإنما هو مأخوذ عن كعب الأحبار كما قاله بعضهم فقد استرحنا من المؤنة وإن كان محفوظاً فيكون محمولاً على أن صنيعهم[4] هذا يكون في آخر الزمان عند اقتراب خروجهم كما هو المروي عن كعب الأحبار أو يكون المراد بقوله : ﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾ أي نافذاً منه فلا ينفى أن يلحسوه ولا ينفذوه والله أعلم . وعلى هذا فيمكن الجمع بين هذا وبين ما في الصحيحين عن أبي هريرة فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد تسعين أي فتح فتحاً نافذاً فيه والله أعلم .

قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً فضربنا على آذانهم في

---

(١) في ابن ماجه : ينشفون الماء : أي ينزحونه .

(٢) النغف بالتحريك : دود يكون في أنوف الابل والغنم واحدتها : نغفة .

(٣) مسند أحمد ج ٢ / ٥١٠ والترمذي في ٤٨ كتاب تفسير القرآن ١٩ باب حديث ٣١٥٣ وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٤) في نسخ البداية المطبوعة : ضيعهم وهو تحريف والصواب ما أثبتناه .

الكهف سنين عدداً ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً . نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً . وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلاَّ الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً . وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً . وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم . قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً . وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً . سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب . ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم . قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلاَّ قليل فلا تمار فيهم إلاَّ مراءً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً . ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلاَّ أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً . ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً . قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به واسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا ﴾ [الكهف: ٩ ـ ٢٦].

كان سبب نزول قصة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة وغيره أن قريشاً بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ويسألونه عنها ليختبروا ما يجيب به فيها فقالوا : سلوه عن أقوام ذهبوا في الدهر فلا يدري ما صنعوا ، وعن رجل طواف في الأرض وعن الروح[1] ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ [الإسراء: ٨٥] ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾ [الكهف: ٨٣] وقال ههنا : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ أي ليسوا بعجب عظيم بالنسبة إلى ما أطلعناك عليه من الأخبار العظيمة والآيات الباهرة والعجائب الغريبة . والكهف : هو الغار في الجبل[2] . قال شعيب

---

(١) قال ابن إسحاق : إن الذي سأل يهود هو النضر بن الحارث من شياطين قريش وكان يؤذي رسول الله ﷺ ـ وزاد ابن إسحاق ـ فإن أخبركم فهو نبي وإلا فهو متقول .

(٢) وفي أقوال : الكهف : النقب (الغار) الواسع في الجبل ، فإذا صغر ولم يتسع فهو غار .

الجبائي واسم كهفهم حيزم ، وأما الرقيم فعن ابن عباس أنه قال : لا أدري ما المراد به . وقيل هو الكتاب المرقوم فيه أسماؤهم وما جرى لهم كتب من بعدهم اختاره ابن جرير وغيره . وقيل هو اسم الجبل الذي فيه كهفهم . قال ابن عباس وشعيب الجبائي واسمه بناجلوس . وقيل هو اسم واد عند كهفهم وقيل أسم قرية هنالك والله أعلم .

قال شعيب الجبائي : واسم كلبهم حمران[1] واعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم ، يدل على أن زمانهم متقدم على ما ذكره بعض المفسرين أنهم كانوا بعد المسيح ، وأنهم كانوا نصارى . والظاهر من السياق أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام . قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم : كانوا في زمن ملك يقال له دقيانوس وكانوا من أبناء الأكابر . وقيل من أبناء الملوك واتفق اجتماعهم في يوم عيد لقومهم فرأوا ما يتعاطاه قومهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان فنظروا بعين البصيرة وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة ، وألهمهم رشدهم فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء ، فخرجوا عن دينهم وانتموا إلى عبادة الله وحده لا شريك له . ويقال إن كل واحد منهم لما أوقع الله في نفسه ما هداه إليه من التوحيد انحاز عن الناس واتفق اجتماع هؤلاء الفتية في مكان واحد كما صح في البخاري : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فكل منهم سأل الآخر عن أمره ، وعن شأنه ، فأخبره ما هو عليه واتفقوا على الانحياز عن قومهم والتبري منهم والخروج من بين أظهرهم والفرار بدينهم منهم وهو المشروع حال الفتن وظهور الشرور . قال الله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدىً وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهةً لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾ [الكهف: ١٣ - ١٥] أي بدليل ظاهر على ما ذهبوا إليه وصاروا من الأمر عليه ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ [الكهف: ١٥ - ١٦] أي وإذ فارقتموهم في دينهم ، وتبرأتم مما يعبدون من دون الله ، وذلك لأنهم كانوا يشركون مع الله كما قال الخليل : ﴿ إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾ [الزخرف: ٢٧] وهكذا هؤلاء الفتية قال بعضهم إذ قد فارقتم قومكم في دينهم ، فاعتزلوهم بأبدانكم لتسلموا منهم أن يوصلوا إليكم شراً ﴿ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً ﴾ أي يسبل عليكم ستره وتكونوا تحت حفظه وكنفه ويجعل عاقبة أمركم إلى خير كما جاء في الحديث : « اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة »[2] ثم ذكر تعالى صفة الغار الذي آووا إليه وأن بابه موجه إلى نحو الشمال وأعماقه إلى جهة القبلة وذلك أنفع

(١) اختلف في اسمه قيل : فعن علي : ريان ، وابن عباس : قطمير . وعبد الله بن سلام : بسيط. وهب: نقيا.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ج ١٨١/٤ عن هيثم بن خارجة ثنا محمد بن أيوب بن ميسرة بن حلبس قال سمعت أبي يحدث عن بسر بن أبي أرطاة القرشي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يدعو . . . وذكر الحديث .

الأماكن أن يكون المكان قبلياً وبابه نحو الشمال فقال : ﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور ﴾ وقرىء تزوّر : ﴿ عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ﴾ فأخبر أن الشمس يعني في زمن الصيف وأشباهه تشرق أول طلوعها في الغار في جانبه الغربي ثم تشرع في الخروج منه قليلاً قليلاً وهو ازوارها[1] ذات اليمين فترتفع في جو السماء وتتقلص عن باب الغار ثم إذا تضيفت للغروب تشرع في الدخول فيه من جهته الشرقية قليلاً قليلاً إلى حين الغروب كما هو المشاهد بمثل هذا المكان والحكمة في دخول الشمس إليه في بعض الأحيان أن لا يفسد هواؤه[2] ﴿ وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله ﴾ أي بقاؤهم على هذه الصفة دهراً طويلاً من السنين لا يأكلون ولا يشربون ولا تتغذى أجسادهم في هذه المدة الطويلة من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ﴾ [الكهف : ١٦ ـ ١٨] قال بعضهم لأن أعينهم مفتوحة لئلا تفسد بطول الغمض ﴿ وتقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ قيل في كل عام يتحولون مرة من جنب إلى جنب[3] ويحتمل أكثر من ذلك فالله أعلم ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ قال شعيب الجبائي اسم كلبهم حمران ، وقال غيره الوصيد اسكفة الباب . والمراد أن كلبهم ، الذي كان معهم وصحبهم حال انفرادهم من قومهم ، لزمهم ولم يدخل معهم في الكهف بل ربض على بابه ووضع يديه على الوصيد وهذا من جملة أدبه ومن جملة ما أكرموا به فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولما كانت التبعية مؤثرة حتى كان في كلب هؤلاء صار باقياً معهم ببقائهم لأن من أحب قوماً سعد بهم فإذا كان هذا في حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للإكرام . وقد ذكر كثير من القصاص والمفسرين لهذا الكلب نبأ وخبراً طويلاً أكثره متلقى من الاسرائيليات وكثير منها كذب ومما لا فائدة فيه كاختلافهم في اسمه ولونه .

وأما اختلاف العلماء في محلة هذا الكهف فقال كثيرون هو بأرض أيلة . وقيل بأرض نينوى . وقيل بالبلقاء وقيل ببلاد الروم وهو أشبه . والله أعلم . ولما ذكر الله تعالى ما هو الأنفع من خبرهم والأهم من أمرهم ووصف حالهم حتى كأن السامع راءٍ والمخبر مشاهد لصفة كهفهم وكيفيتهم في ذلك الكهف وتقلبهم من جنب إلى جنب وأن كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد . قال :

---

(١) ازوراها : الزور الميل ، تزاور : تتنحى وتميل والأزور في العين : المائل النظر إلى ناحية ومن اللفظة قال عنترة :

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرة وتحمحم

(٢) قال الزجاج : كان ازورار الشمس عن الكهف فعلاً خارقاً للعادة وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف . قال : ولو كان الأمر عادياً مألوفاً فلم يكن ذلك من آيات الله ، علماً أن الله تعالى أخبر أنهم كانوا في متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح ونسيم الهواء ، فالمعنى أنه بقدرته منع وصول ضوء الشمس ، وهو ذلك التزاور والميل . (انظر القرطبي ـ تفسير الرازي) .

(٣) قال الرازي : « وأقول هذا عجيب لأنه تعالى لما قدر على أن يمسك حياتهم مدة ثلاثمائة سنة وأكثر فلم لا يقدر على حفظ أجسادهم أيضاً من غير تقليب ؟ » .

﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ أي لما عليهم من المهابة والجلالة في أمرهم الذي صاروا إليه ولعل الخطاب ههنا لجنس الإنسان المخاطب لا بخصوصية الرسول ﷺ كقوله : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ [التين : ٧] أي أيها الإنسان وذلك لأن طبيعة البشرية تفر من رؤية الأشياء المهيبة غالباً ولهذا قال : ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ ودل على أن الخبر ليس كالمعاينة كما جاء في الحديث ، لأن الخبر قد حصل ولم يحصل الفرار ولا الرعب . ثم ذكر تعالى أنه بعثهم من رقدتهم بعد نومهم بثلاثمائة سنة وتسع سنين فلما استيقظوا قال بعضهم[١] لبعض : ﴿ كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ﴾ [الكهف : ١٩] أي بدراهمكم هذه يعني التي معهم إلى المدينة ويقال كان اسمها دفسوس[٢] ﴿ فلينظر أيها أزكى طعاماً ﴾ أي أطيب[٣] مالاً ﴿ فليأتكم برزق منه ﴾ أي بطعام تأكلونه وهذا من زهدهم وورعهم ﴿ وليتلطف ﴾ أي في دخوله إليها ﴿ ولا يشعرن بكم أحداً أنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ أي إن عدتم في ملتهم بعد إذ أنقذكم الله منها وهذا كله لظنهم أنهم رقدوا يوماً أو بعض يوم أو أكثر من ذلك ولم يحسبوا أنهم قد رقدوا أزيد من ثلثمائة سنة وقد تبدلت الدول أطواراً عديدة وتغيرت البلاد ومن عليها وذهب أولئك القرن الذين كانوا فيهم وجاء غيرهم وذهبوا وجاء غيرهم ولهذا لما خرج أحدهم وهو تيذوسيس[٤] فيما قيل وجاء إلى المدينة متنكراً لئلا يعرفه أحد من قومه فيما يحسبه تنكرت له البلاد واستنكره من يراه من أهلها واستغربوا شكله وصفته ودراهمه ، فيقال إنهم حملوه إلى متوليهم ، وخافوا من أمره أن يكون جاسوساً أو تكون له صولة يخشون من مضرتها ، فيقال إنه هرب منهم ، ويقال بل أخبرهم خبره ومن معه وما كان من أمرهم فانطلقوا معه ليريهم مكانهم فلما قربوا من الكهف دخل إلى إخوانه فأخبرهم حقيقة أمرهم ومقدار ما رقدوا فعلموا أن هذا أمر قدره الله فيقال إنهم استمروا راقدين ويقال بل ماتوا بعد ذلك .

وأما أهل البلدة فيقال إنهم لم يهتدوا إلى موضعهم من الغار وعمّى الله عليهم أمرهم ، ويقال لم يستطيعوا دخوله حسا[٥] ويقال مهابة لهم .

---

(١) قال الطبري وصاحب بدائع الزهور : القائل هو : يمليخا .

(٢) في بدائع الزهور لابن إياس : افسوس من أرض رومية ولما جاء الإسلام غيروا اسمها وسموها ترسوس .

(٣) أزكى : أطيب ؛ والطعام الطيب هنا والمزكى : البعيد عن الغصب ؛ وقال ابن إياس هو الطعام الذي لا يوضع به شيء من شحم الخنزير . وقال ابن عباس : أحل ذبيحة .

(٤) تقدم التعليق ان اسمه يمليخا ؛ وفي الطبري أن تيذوسيس هو الملك الذي كان على المدينة حين قيامهم . وقال المسعودي : اسم الملك : أوالس .

(٥) قوله « حسا » كذا بالأصول ولعل المراد : جبناً أو تحسباً .

واختلفوا في أمرهم فقائلون يقولون ﴿ ابنوا عليهم بنياناً ﴾ أي سدوا عليهم باب الكهف لئلا يخرجوا أو لئلا يصل إليهم ما يؤذيهم وآخرون وهم الغالبون على أمرهم قالوا : ﴿ لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ أي معبداً يكون مباركاً لمجاورته هؤلاء الصالحين . وهذا كان شائعاً فيمن كان قبلنا ، فأما في شرعنا فقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[1] يحذر ما فعلوا وأما قوله : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ [الكهف: ٢١] فمعنى أعثرنا أطلعنا على أمرهم الناس . قال كثير من المفسرين ليعلم الناس أن المعاد حق ، وأن الساعة لا ريب فيها . إذا علموا أن هؤلاء القوم رقدوا أزيد من ثلثمائة سنة ثم قاموا كما كانوا من غير تغير منهم ، فإن من أبقاهم كما هم ، قادر على إعادة الأبدان وإن أكلتها الديدان وعلى إحياء الأموات وإن صارت أجسامهم وعظامهم رفاتاً وهذا مما لا يشك فيه المؤمنون ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس: ٨٢] . هذا ويحتمل عود الضمير في قوله ليعلموا إلى أصحاب الكهف إذ علمهم بذلك من أنفسهم أبلغ من علم غيرهم بهم ، ويحتمل أن يعود على الجميع والله أعلم . ثم قال تعالى : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ فذكر اختلاف الناس في كميتهم فحكى ثلاثة أقوال وضعف الأولين وقرر الثالث فدل على أنه الحق إذ لو قيل غير ذلك لحكاه ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح لوهاه فدل على ما قلناه[2] ولما كان النزاع في مثل هذا لا طائل تحته ولا جدوى عنده أرشد نبيه ﷺ إلى الأدب في مثل هذا الحال إذا اختلف الناس فيه أن يقول الله أعلم . ولهذا قال : ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ وقوله : ﴿ وما يعلمهم إلاّ قليل ﴾ أي من الناس ﴿ فلا تمار فيهم إلاّ مراءً ظاهراً ﴾ أي سهلاً ولا تتكلف أعمال الجدال في مثل هذا الحال ولا تستفت في أمرهم أحداً من الرجال ولهذا أبهم تعالى عدتهم في أول القصة فقال : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم ﴾ ولو كان في تعين عدتهم كبير فائدة لذكرها عالم الغيب والشهادة وقوله تعالى : ﴿ ولا تقولن لشيء إنّي فاعلٌ ذلك غداً إلاّ أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينَ ربي لأقرب من هذا رشدا ﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤] أدب عظيم أرشده الله تعالى إليه وحث خلقه عليه وهو ما إذا قال أحدهم إني سأفعل في المستقبل كذا ، فيشرع له أن يقول : إن شاء الله ليكون ذلك تحقيقاً لعزمه ، لأن العبد لا يعلم ما في غد ولا

---

(١) أخرجه مسلم في ٥ كتاب المساجد - ٣ باب ١٩ /٥٢٩ عن عروة بن الزبير عن عائشة عن النبي ﷺ . وأخرجه من علة طرق عن أبي هريرة وابن عباس ، وأخرجه البخاري حديث رقم : ٢٨٥ و ٢٨٧ .

(٢) ذكرهم الطبري قال : قال ابن إسحاق عدد الفتية ثمانية وكلبهم تاسعهم سماهم : مكسملينا - محسملينا - يمليخا - مرطوس - كسوطونس - بيرونس - رسمونس - بطونس - قالوس . (٢/ ٤٠ دار قاموس حديث) .
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كانوا سبعة واسماؤهم : مكسلمينا - يمليخا - مسلينتا - مرنوس - دبرنوس - ساونوس . والسابع الراعي / تفسير الرازي .

يدري أهذا الذي عزم عليه مقدر أم لا، وليس هذا الاستثناء تعليقاً وإنما هو الحقيقي ولهذا قال ابن عباس يصح إلى سنة ولكن قد يكون في بعض المحال لهذا ولهذا كما تقدم في قصة سليمان عليه السلام حين قال لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله فقيل له . قال : إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف فلم تلد منهن إلاّ امرأة واحدة نصف إنسان قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته »[1]. وقوله : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ وذلك لأن النسيان قد يكون من الشيطان ، فذكر الله يطرده عن القلب فيذكر ما كان قد نسيه . وقوله : ﴿ وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا ﴾ أي إذا اشتبه أمر ، وأشكل حال ، والتبس أقوال الناس في شيء فارغب إلى الله ييسره لك ويسهله عليك ثم قال : ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾. لما كان في الأخبار بطول مدة لبثهم فائدة عظيمة ذكرها تعالى وهذه التسع المزيدة بالقمرية وهي لتكميل ثلثمائة شمسية فإن كل مائة قمرية تنقص عن الشمسية ثلاث سنين ﴿ قال الله أعلم بما لبثوا ﴾ أي إذا سئلت عن مثل هذا وليس عندك في ذلك نقل فرد الأمر في ذلك إلى الله عزّ وجلّ ﴿ له غيب السموات والأرض ﴾ أي هو العالم بالغيب فلا يطلع عليه إلاّ من شاء من خلقه ﴿ أبصر به واسمع ﴾ يعني أنه يضع الأشياء في محالها لعلمه التام بخلقه وبما يستحقونه ثم قال : ﴿ ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ أي ربك المنفرد بالملك والمتصرف وحده لا شريك له .

قصة الرجلين المؤمن والكافر

قال الله تعالى في سورة الكهف بعد قصة أهل الكهف : ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ـ إلى قوله ـ هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقبا ﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٤٤] . قال بعض الناس هذا مثل مضروب ولا يلزم أن يكون واقعاً والجمهور أنه أمر قد وقع وقوله : ﴿ واضرب لهم مثلاً ﴾ يعني لكفار قريش في عدم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء وازدرائهم بهم وافتخارهم عليهم كما قال تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾ [يس: ١٣] كما قدمنا الكلام على قصتهم قبل قصة موسى عليه السلام والمشهور أن هذين كانا رجلين مصطحبين وكان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً[2] ويقال إنه كان لكل

---

(١) أخرجه البخاري في كفارات ٩ ـ والأيمان ٣ وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ٢٣، ٢٤ والترمذي في النذور ٧ والنسائي في الإيمان ٤٣ وابن ماجه في الكفارات ٦ ومالك في الموطأ نذور (١٠) وأحمد في مسنده ج ٢ /٢٧٥ .

(٢) قيل من بني اسرائيل أحدهما كافر اسمه براطوس ، والآخر مؤمن اسمه يهوذا . وقيل هما المذكوران في سورة =

منهما مال فأنفق المؤمن ماله في طاعة الله ومرضاته ابتغاء وجهه .. وأما الكافر فإنه اتخذ له بساتين وهما الجنتان المذكورتان في الآية على الصفة والنعت المذكور . فيهما أعناب ونخيل تحف تلك الأعناب والزروع في ذلك والأنهار سارحة هھنا وههنا للسقي والتنزه ، وقد استوثقت فيهما الثمار ، واضطربت فيها الأنهار ، وابتهجت الزروع والثمار وافتخر مالكهما على صاحبه المؤمن الفقير قائلاً له : ﴿ أنا اكثر منك مالاً وأعز نفرا ﴾ أي أوسع جناناً . ومراده : أنه خير منه ومعناه : ماذا أغنى عنك إنفاقك ما كنت تملكه في الوجه الذي صرفته فيه كان الأولى بك أن تفعل كما فعلت لتكون مثلي فافتخر على صاحبه : ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ﴾ أي وهو على غير طريقة مرضية قال : ﴿ ما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ وذلك لما رأى من اتساع أرضها ، وكثرة مائها ، وحسن نبات أشجارها ولو قد بادت كل واحدة من هذه الأشجار لاستخلف مكانها أحسن منها وزروعها دارة لكثرة مياهها . ثم قال : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ فوثق بزهرة الحياة الدنيا الفانية وكذب بوجود الآخرة الباقية الدائمة . ثم قال : ﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلبا ﴾ أي ولئن كان ثم آخرة ومعاد فلأجدن هناك خيراً من هذا وذلك لأنه اغتر بدنياه، واعتقد أن الله لم يعطه ذلك فيها إلا لحبه له : وحظوته عنده كما قال العاص بن وائل فيما قص الله من خبره وخبر خباب بن الأرت في قوله : ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا ﴾ وقال : ﴿ لأوتين مالاً وولداً . أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ [مريم : ٧٨] وقال تعالى إخباراً عن الإنسان إذا أنعم الله عليه ﴿ ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ [فصلت : ٥] قال الله تعالى : ﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ [فصلت : ٥٠] وقال قارون : ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ [القصص : ٧٨] أي لعلم الله بي أني أستحقه قال الله تعالى : ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ [القصص : ٧٨] وقد قدمنا الكلام على قصته في أثناء قصة موسى . وقال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴾ [سبأ : ٣٧] . وقال تعالى : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ [المؤمنون : ٥٥] . ولما اغتر هذا الجاهل بما خول به في الدنيا فجحد الآخرة وادعى أنها إن وجدت ليجدن عند ربه خيراً مما هو فيه ، وسمعه صاحبه يقول ذلك قال له : ﴿ وهو يحاوره ﴾ أي يجادله ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ﴾ [الكهف : ٣٧] أي أجحدت المعاد وأنت تعلم أن الله خلقك من تراب . ثم من نطفة ثم صورك أطواراً حتى صرت رجلاً سوياً سميعاً بصيراً تعلم وتبطش وتفهم فكيف أنكرت المعاد والله قادر على البداءة ﴿ لكنا هو الله ربي ﴾ أي لكن أنا أقول بخلاف ما قلت

= الصافات (قال قائل منهم . . .) وهما : من أهل مكة : أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي المؤمن والأسود بن عبد الأسود ، الكافر - (انظر القرطبي - تفسير الرازي) .

وأعتقد خلاف معتقدك ﴿ هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً ﴾ أي لا أعبد سواه . وأعتقد أنه يبعث الأجساد بعد فنائها ، ويعيد الأموات ، ويجمع العظام الرفات ، وأعلم أن الله لا شريك له في خلقه ولا في ملكه ولا إله غيره ، ثم أرشده إلى ما كان الأولى به أن يسلكه عند دخول جنته فقال : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلّا بالله ﴾ [الكهف : ٣٩] ولهذا يستحب لكل من أعجبه شيء من ماله أو أهله أو حاله أن يقول كذلك وقد ورد فيه حديث مرفوع في صحته نظر[١] .

قال أبو يعلى الموصلي : حدثنا جراح بن مخلد ، حدثنا عمرو بن يوسف ، حدثنا عيسى بن عون ، حدثنا عبد الملك بن زرارة ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلّا بالله »[٢] فيرى فيه أنه دون الموت وكان يتأول هذه الآية : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلّا بالله ﴾ قال الحافظ أبو الفتح الأزدي عيسى بن عون : عن عبد الملك بن زرارة ، عن أنس لا يصح . ثم قال المؤمن للكافر : ﴿ فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ ويرسل عليها حسباناً من السماء ﴾ قال ابن عباس والضحاك وقتادة أي عذاباً من السماء . والظاهر أنه المطر المزعج الباهر الذي يقتلع زروعها وأشجارها ﴿ فتصبح صعيداً زلقاً ﴾ وهو التراب الأملس الذي لا نبات فيه ﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ﴾ وهو ضد المعين السارح ﴿ فلن تستطيع له طلباً ﴾ يعني فلا تقدر على إسترجاعه قال الله تعالى : ﴿ وأحيط بثمره ﴾ أي جاءه أمر أحاط بجميع حواصله وخرب جنته ودمرها ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ﴾ [الكهف :٤٢] أي خربت بالكلية فلا عودة لها وذلك ضد ما كان عليه أمل حيث قال : ﴿ وما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ وندم على ما كان سلف منه من القول الذي كفر بسببه بالله العظيم فهو يقول : ﴿ يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً هنالك ﴾ [الكهف :٤٣] أي لم يكن أحد يتدارك ما فرط من أمره وما كان له قدرة في نفسه على شيء من ذلك كما قال تعالى : ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ [الطارق: ١٠] وقوله : ﴿ الولاية لله الحق ﴾ ومنهم من يبتدىء

---

(١) عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال لأبي موسى الا أدلك على كلمة من كنز الجنة ، قلت بل قال : لا حول ولا قوه إلا بالله أخرجه مسلم .

وأخرج الترمذي من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : من قال باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله . . . » قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وأخرجه أبو داود وابن ماجه في سننيهما .

(٢) روى الطبراني عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ : من أنعم الله عليه نعمة فأراد بقاءها فليكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وروى ابن ماجه عن محمد بن الحسن الخلال عن أنس ، قال قال رسول الله : « ما أنعم الله على عبد فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطي افضل مما أخذه » رواه في ثواب التسبيح .

بقوله : ﴿ هنالك الولاية لله الحق ﴾ وهو حسن أيضاً لقوله : ﴿ الملك يومئذٍ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ [الفرقان: ٢٦] فالحكم الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب في تلك الحال، وفي كل حال لله الحق . ومنهم من رفع الحق جعله صفة للولاية وهما متلازمتان وقوله : ﴿ هو خير ثواباً وخير عقبا ﴾ [الكهف: ٤٤] أي معاملته خير لصاحبها ثواباً وهو الجزاء وخير عقباً وهو العاقبة في الدنيا والآخرة . وهذه القصة تضمنت أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ولا يغتر بها ولا يثق بها بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه في كل حال نصب عينيه . وليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه . وفيها أن من قدم شيئاً على طاعة الله والإنفاق في سبيله عذب به ، وربما سلب منه معاملة له بنقيض قصده . وفيها أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق وأن مخالفته وبال ودمار على من رد النصيحة الصحيحة . وفيها أن الندامة لا تنفع إذا حان القدر ونفذ الأمر الحتم بالله المستعان وعليه التكلان .

قصة أصحاب الجنة

قال الله تعالى : ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا إنّا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون . كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ [القلم: ١٧ - ٣٣] . وهذا مثل ضربه الله لكفار قريش فيما أنعم به عليهم من إرسال الرسول العظيم الكريم اليهم فقابلوه بالتكذيب والمخالفة كما قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ [إبراهيم ٢٨ - ٢٩] . قال ابن عباس هم كفار قريش فضرب تعالى لهم مثلاً بأصحاب الجنة المشتملة على أنواع الزروع والثمار التي قد انتهت واستحقت أن تجد وهو الصرام[1] ولهذا قال : ﴿ إذ أقسموا ﴾ فيما بينهم ﴿ ليصرمنها ﴾ أي ليجدنها وهو الاستغلال ﴿ مصبحين ﴾ أي وقت الصبح حيث لا يراهم فقير ولا محتاج فيعطوه شيئاً فحلفوا على ذلك ، ولم يستثنوا في يمينهم ، فعجزهم الله وسلط عليها الآفة التي أحرقتها وهي السفعة[2] التي اجتاحتها ولم تبق بها شيئاً ينتفع به ولهذا قال : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت

---

(١) الصرام : يقال قد صرم العذق عن النخلة ، وأصرم النخل إذا حان وقت صرامه ، أي قطعه وقطاف ثمره .

(٢) السفعة : العين ؛ والمراد بها هنا عذاب ، وقيل إن الطائف هو جبريل فاقتلعها فأصبحت الجنة كالصريم ؛ وقال الكلبي : إن الله ارسل عليها ناراً من السماء فاحترقت وهم نائمون .

كالصريم ﴾ أي كالليل الأسود المنصرم من الضياء وهذه معاملة بنقيض المقصود ﴿ فتنادوا مصبحين ﴾ أي فاستيقظوا من نومهم فنادى بعضهم بعضاً قائلين : ﴿ أغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ أي باكروا إلى بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار ويكثر السؤال ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون ﴾ أي يتحدثون فيما بينهم خفية قائلين : ﴿ لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ أي اتفقوا على هذا واشتوروا عليه ﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ أي انطلقوا مجدين في ذلك قادرين عليه ، مضمرين على هذه النية الفاسدة . وقال عكرمة والشعبي : ﴿ وغدوا على حرد ﴾ أي غضب على المساكين ، وأبعد السدى في قوله أن اسم حرثهم حرد ﴿ فلما رأوها ﴾ أي وصلوا إليها ، ونظروا ما حل بها ، وما قد صارت إليه من الصفة المنكرة بعد تلك النضرة ، والحسن والبهجة فانقلبت بسبب النية الفاسدة فعند ذلك ﴿ قالوا إنا لضالون ﴾ أي قد نهينا عنها ، وسلكنا غير طريقها ثم قالوا : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا وحرمنا بركة[1] حرثنا ﴿ قال أوسطهم ﴾ . قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد هو أعدلهم وخيرهم ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ قيل يستثنون، قاله مجاهد والسدي وابن جرير وقيل تقولون خيراً بدل ما قلتم من الشر ﴿ قالوا سبحان ربنا إنّا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا إنّا كنا طاغين ﴾ . فندموا حيث لا ينفع الندم ، واعترفوا بالذنب بعد العقوبة ، وذلك حيث لا ينجع وقد قيل : إن هؤلاء كانوا أخوة وقد ورثوا هذه الجنة من أبيهم ، وكان يتصدق منها كثيراً ، فلما صار أمرها إليهم استهجنوا أمر أبيهم ، وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئاً ، فعاقبهم الله أشد العقوبة ولهذا أمر الله تعالى بالصدقة من الثمار ، وحث على ذلك يوم الجداد كما قال تعالى : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ [الأنعام : ١٤١] ثم قيل كانوا من أهل اليمن من قرية يقال لها ضروان[2] . وقيل من أهل الحبشة والله أعلم قال الله تعالى : ﴿ كذلك العذاب ﴾ أي هكذا نعذب من خالف أمرنا ولم يعطف على المحاويج من خلقنا ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾ أي أعظم وأحكم من عذاب الدنيا ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ [القلم : ٣٣] . وقصة هؤلاء شبيه بقوله تعالى : ﴿ ضرب[3] الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان

---

(١) روى ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً كان هيىء له ـ ثم تلا ـ ﴿ فطاف عليها طائف من ربك ﴾ الآيتين .

(٢) ضروان من أرض اليمن على فرسخ من صنعاء .

(٣) سورة النحل الآية ١١٢ ونصها : ﴿ وضرب الله . . . ﴾ قالوا فيها :

ضرب الله مثلاً لأهل مكة لما خرجوا إلى بدر حلفوا على أن يقتلوا محمداً ﷺ وأصحابه ، وإذا رجعوا إلى مكة طافوا بالكعبة وشربوا الخمور ، فأخلف الله ظنهم فقتلوا وأسروا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصرام فخابوا .

وقيل هو وعظ لأهل مكة بالرجوع إلى الله لما ابتلاهم بالجدب لدعاء النبي ﷺ عليهم؛ (أنظر تفسير القرطبي ـ تفسير الرازي) .

فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ [النحل: ١١٢ ـ ١١٣] قيل هذا مثل مضروب لأهل مكة وقيل هم أهل مكة أنفسهم ضربهم مثلاً لأنفسهم ولا ينافي ذلك والله أعلم ا هـ .

قصة أصحاب أيلة الذين اعتدوا في سبتهم

قال الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ [الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٦] وقال تعالى في سورة البقرة : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴾ [البقرة: ٦٥ ـ ٦٦] وقال تعالى في سورة النساء : ﴿ أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً ﴾ [النساء: ٤٧] . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم هم أهل ايلة . زاد ابن عباس بين مدين والطور . قالوا وكانوا متمسكين بدين التوراة في تحريم السبت في ذلك الزمان ، فكانت الحيتان قد ألفت منهم السكينة في مثل هذا اليوم ، وذلك أنه كان يحرم عليهم الإصطياد فيه وكذلك جميع الصنائع ، والتجارات ، والمكاسب ، فكانت الحيتان في مثل يوم السبت يكثر غشيانها لمحلتهم من البحر ، فتأتي من ههنا وههنا ظاهرة آمنة مسترسلة ، فلا يهيجونها ولا يذعرونها ﴿ ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ﴾ وذلك لأنهم كانوا يصطادونها فيما عدا السبت قال الله تعالى : ﴿ كذلك نبلوهم ﴾ أي نختبرهم بكثرة الحيتان في يوم السبت ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أي بسبب فسقهم المتقدم فلما رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها في يوم السبت بأن نصبوا الحبال والشباك والشصوص وحفروا الحفر التي يجري معها الماء إلى مصانع قد أعدوها إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها ففعلوا ذلك في يوم الجمعة ، فإذا جاءت الحيتان مسترسلة يوم السبت علقت بهذه المصايد ، فإذا خرج سبتهم أخذوها فغضب الله عليهم ولعنهم لما احتالوا على خلاف أمره ، وانتهكوا محارمه بالحيل التي هي ظاهرة للناظر ، وهي في الباطن مخالفة محضة فلما فعل ذلك طائفة منهم افترق الذين لم يفعلوا فرقتين . فرقة أنكروا عليهم صنيعهم هذا واحتيالهم على مخالفة الله وشرعه في ذلك الزمان . وفرقة أخرى لم يفعلوا ولم ينهوا بل أنكروا على الذين نهوا وقالوا : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾ يقولون ما الفائدة في نهيكم هؤلاء وقد استحقوا العقوبة لا محالة فأجابتهم الطائفة المنكرة بأن قالوا : ﴿ معذرة إلى ربكم ﴾ أي فيما أمرنا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فنقوم به خوفاً من عذابه ﴿ولعلهم يتقون﴾ أي لعل هؤلاء يتركون ما هم عليه من هذا الصنيع فيقيهم الله عذابه ويعفو عنهم إذا هم رجعوا

واستمعوا. قال الله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ أي لم يلتفتوا إلى من نهاهم عن هذا الصنيع الشنيع الفظيع ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء ﴾ وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر ﴿ وأخذنا الذين ظلموا ﴾ وهم المرتكبون الفاحشة ﴿ بعذاب بئيس ﴾ وهو الشديد المؤلم الموجع ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ . ثم فسر العذاب الذي أصابهم بقوله : ﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ . وسنذكر ما ورد من الآيات في ذلك .

والمقصود هنا أن الله أخبر أنه أهلك الظالمين ونجى المؤمنين المنكرين وسكت عن الساكتين . وقد اختلف فيهم العلماء على قولين : فقيل إنهم من الناجين وقيل إنهم من الهالكين ، والصحيح الأول عند المحققين وهو الذي رجع إليه ابن عباس إمام المفسرين وذلك عن مناظرة مولاه عكرمة فكساه من أجل ذلك حلة سنية تكرمة . قلت وإنما لم يذكروا مع الناجين لأنهم وإن كرهوا ببواطنهم تلك الفاحشة ، إلاَّ أنهم كان ينبغي لهم أن يحملوا ظواهرهم بالعمل المأمور به من الإنكار القولي الذي هو أوسط المراتب الثلاث : التي أعلاها الانكار باليد ذات البنان ، وبعدها الإنكار القولي باللسان ، وثالثها الإنكار بالجنان . فلما لم يذكروا نجوا مع الناجين إذ لم يفعلوا الفاحشة بل أنكروها . وقد روى عبد الرزاق : عن ابن جريج ، عن رجل ، عن عكرمة ، عن ابن عباس وحكى مالك : عن ابن رومان ، وشيبان عن قتادة وعطاء الخراساني ما مضمونه : أن الذين ارتكبوا هذا الصنع اعتزلهم بقية أهل البلد ونهاهم من نهاهم منهم ، فلم يقبلوا فكانوا يبيتون وحدهم ، ويغلقون بينهم وبينهم أبواباً حاجزاً لما كانوا يترقبون من هلاكهم فأصبحوا ذات يوم وأبواب ناحيتهم مغلقة لم يفتحوها وارتفع النهار واشتد الضحاء فأمر بقية أهل البلد رجلاً أن يصعد على سلالم ، ويشرف عليهم من فوقهم ، فلما أشرف عليهم إذا هم قردة لها أذناب يتعاوون ويتعادون ففتحوا عليهم الأبواب فجعلت القردة تعرف قراباتهم ولا يعرفهم قراباتهم ، فجعلوا يلوذون بهم ويقولون لهم الناهون : ألم ننهكم عن صنيعكم فتشير القردة برؤوسها أن نعم . ثم بكى عبد الله بن عباس وقال : إنا لنرى منكرات كثيرة . ولا ننكرها ولا نقول فيها شيئاً . وقال العوفي عن ابن عباس : صار شباب القرية قردة وشيوخها خنازير . وروى ابن أبي حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس : أنهم لم يعيشوا إلاَّ فواقاً ثم هلكوا ما كان لهم نسل وقال الضحاك عن ابن عباس أنه لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل هؤلاء ولم يشربوا ولم ينسلوا ، وقد استقصينا الآثار في ذلك في تفسير سورة البقرة والأعراف . ولله الحمد والمنة . وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وخنازير وإنما هو مثل ضربه الله ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ [الجمعة : ٥] وهذا صحيح إليه وغريب منه جداً ومخالف لظاهر القرآن ولما نص عليه غير واحد من السلف والخلف والله أعلم .

قصة أصحاب القرية

﴿ إذ جاءها المرسلون ﴾ تقدم ذكرها قبل قصة موسى عليه السلام .

قصة سبأ

سيأتي ذكرها في أيام العرب إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

قصة قارون وقصة بلعام

تقدمتا في قصة موسى .

وهكذا (قصة الخضر) و (قصة فرعون والسحرة) كلها في ضمن قصة موسى و (قصة البقرة) تقدمت في قصة موسى .

وقصة ﴿ الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ﴾ في قصة حزقيل .

وقصة ﴿ الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى ﴾ في قصة شمويل .

وقصة ﴿ الذي مرَّ على قرية ﴾ في قصة عزير .

قصة لقمان

قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد . وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إنَّ الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفُصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليَّ ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأتِ بها الله إن الله لطيف خبير . يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إنَّ الله لا يحب كل مختار فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ [لقمان: ١٢ ـ ١٩] هو لقمان بن عنقاء بن سدون[١] . ويقال لقمان بن ثاران[٢] حكاه السهيلي عن ابن جرير والقتيبي . قال السهيلي وكان نوبياً من أهل أيلة . قلت وكان رجلاً صالحاً ذا عبادة وعبارة وحكمة عظيمة . ويقال كان قاضياً في زمن داود عليه السلام فالله أعلم . وقال سفيان الثوري عن الأشعث ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان عبداً حبشياً نجاراً[٣]. وقال قتادة: عن عبد الله بن الزبير : قلت لجابر بن عبد الله ما انتهى إليكم في شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفطس من النوبة . وقال

---

(١) في مروج الذهب : لقمان بن عنقاء بن مربد بن صاوون . وكان نوبياً مولى للقين بن جسر .

(٢) قال ابن قتيبة في المعارف : كان اسم ابنه ثاران . وفي القرطبي : قال السهيلي : اسم ابنه ثاران في قول الطبري والقتبي .

(٣) في المعارف : عن سعيد بن المسيب : كان خياطاً . وزاد : كان عبداً حبشياً .

يحيى بن سعيد الأنصاري : عن سعيد بن المسيب قال : كان لقمان من سودان مصر ذو مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة(١) . وقال الأوزاعي حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد : لا تحزن من أجل أنك أسود فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر . وقال الأعمش عن مجاهد كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين وفي رواية مصفح القدمين . وقال عمر بن قيس : كان عبداً أسود غليظ الشفتين مصفح القدمين فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم فقال له : ألست الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا ؟ قال : نعم ، قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني رواه ابن جرير عن ابن حميد عن الحكم عنه . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الرحمن ابن أبي يزيد بن جابر قال : إنَّ الله رفع لقمان الحكيم لحكمته ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال ألست عبد ابن فلان الذي كنت ترعى غنمي بالأمس؟ قال : بلى قال فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قدر الله وأداء الأمانة وصدق الحديث وترك ما لا يعنيني . وقال ابن وهب : أخبرني عبد الله بن عياش الفتياني عن عمر مولى عفرة ، قال : وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان أنت عبد بني النحاس ؟ قال : نعم قال : فأنت راعي الغنم الأسود ؟ قال : أما سوادي فظاهر فما الذي يعجبك من أمري قال وطء الناس بساطك وغشيهم بابك ورضاهم بقولك قال يا ابن أخي إن صنعت ما أقول لك كنت كذلك قال : ما هو؟ قال لقمان : غضي بصري وكفي لساني ، وعفة مطعمي ، وحفظي فرجي ، وقيامي بعدتي ، ووفائي بعهدي ، وتكرمتي ضيفي ، وحفظي جاري ، وتركي ما لا يعنيني ، فذاك الذي صيرني كما ترى . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن فضيل ، حدثنا عمرو بن واقد ، عن عبدة بن رباح ، عن ربيعة ، عن أبي الدرداء أنه قال يوماً وذكر لقمان الحكيم فقال : ما أوتي عن أهل ، ولا مال ، ولا حسب ، ولا خصال ولكنه كان رجلاً ضمضامة ، سكيتاً طويل التفكر ، عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد يبزق ، ولا يتنحنح ، ولا يبول ، ولا يتغوط ، ولا يغتسل ، ولا يعبث ، ولا يضحك ، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلَّا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد ، وكان قد تزوج وولد له أولاد فماتوا فلم يبك عليهم وكان يغشى السلطان ويأتي الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر فبذلك أوتي ما أوتي . ومنهم من زعم أنه عرضت عليه النبوة فخاف أن لا يقوم بأعبائها فاختار الحكمة لأنها أسهل عليه وفي هذا نظر . والله أعلم . وهذا مروي عن قتادة كما سنذكره . وروى ابن أبي حاتم وابن جرير

---

(١) وفي المعارف : روى يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أنه قال : كان لقمان نبياً . وعلق صاحب المعارف : ولم يكن نبياً في قول أكثر الناس . وفي بدائع ابن إياس عن وهب بن منبه قال : كان من الأنبياء ثلاثة سود الألوان : لقمان وذو القرنين ونبي الله صاحب الأخدود . ج ١ ص ٢٥٠ .

من طريق وكيع عن اسرائيل عن جابر الجعفي عن عكرمة أنه قال كان لقمان نبياً وهذا ضعيف لحال الجعفي .

والمشهور عن الجمهور أنه كان حكيماً ولياً ولم يكن نبياً ، وقد ذكره الله تعالى في القرآن فأثنى عليه ، وحكى من كلامه فيما وعظ به ولده الذي هو أحب الخلق إليه ، وهو أشفق الناس عليه فكان من أول ما وعظ به أن قال : ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان: ١٣]. فنهاه عنه وحذره منه . وقد قال البخاري : حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير : عن الأعمش ، عن ابراهيم ، عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس بذاك ألم تسمع إلى قول لقمان : ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ رواه مسلم من حديث سليمان بن مهران الأعمش به . ثم اعترض تعالى بالوصية بالوالدين وبيان حقهما على الولد وتأكده ، وأمر بالإحسان إليهما حتى ولو كانا مشركين ، ولكن لا يطاعان على الدخول في دينهما إلى أن قال مخبراً عن لقمان فيما وعظ به ولده ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ [لقمان: ١٦] ينهاه عن ظلم الناس ولو بحبة خردل فإن الله يسأل عنها ويحضرها حوزة الحساب ويضعها في الميزان كما قال تعالى: ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ وقال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وأخبره أن هذا الظلم لو كان في الحقارة كالخردلة ، ولو كان في جوف صخرة صماء ، لا باب لها ولا كوة ، أو لو كانت ساقطة في شيء من ظلمات الأرض أو السموات في اتساعهما وامتداد أرجائهما ، لعلم الله مكانها ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ أي علمه دقيق فلا يخفى عليه الذر مما ترا آي للنواظر ، أو توارى كما قال تعالى : ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين ﴾ [الأنعام: ٥٩]وقال : ﴿ وما من غائبة في السماء والأرض إلاّ في كتاب مبين ﴾ [النمل: ٧٥] وقال : ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين ﴾[سبأ: ٣] وقد زعم السدي في خبره عن الصحابة أن المراد بهذه الصخرة ، الصخرة التي تحت الأرضين السبع وهكذا حكى عن عطية العوفي وأبي مالك والثوري والمنهال بن عمر وغيرهم وفي صحة هذا القول من أصله نظر . ثم إن في هذا المراد نظر آخر فإن هذه الآية نكرة غير معرفة فلو كان المراد بها ما قالوه لقال فتكن في الصخرة وإنما المراد فتكن في صخرة أي صخرة كانت كما قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدكم يعمل في « خرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله

للناس كائناً ما كان »[1] . ثم قال : ﴿ يا بني أقم الصلاة ﴾ أي أدها بجميع واجباتها من حدودها وأوقاتها وركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها وما شرع فيها واجتنب ما ينهى عنه فيها . ثم قال : ﴿ وامر بالمعروف وانه عن المنكر ﴾ أي بجهدك وطاقتك أي إن استطعت بالبد فباليد ، وإلا فبلسانك فإن لم تستطع فبقلبك ثم أمره بالصبر فقال : ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ وذلك أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في مظنة أن يعادى وينال منه ، ولكن له العاقبة ، ولهذا أمره بالصبر على ذلك ومعلوم أن عاقبة الصبر الفرج وقوله : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ التي لا بد منها ولا محيد عنها . وقوله : ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ [لقمان:١٨] قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك ويزيد بن الأصم وأبو الجوزاء وغير واحد معناه لا تتكبر على الناس وتميل خدك حال كلامك لهم وكلامهم لك على وجه التكبر عليهم والازدراء لهم . قال أهل اللغة وأصل الصعر داء يأخذ الابل في أعناقها فتلتوي رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر الذي يميل وجهه إذا كلم الناس أو كلموه على وجه التعظم عليهم .

قال أبو طالب في شعره :

وكُنّا قديماً لا نُقرّ ظُلامةً ... إذا ما ثَنَوا صُعْر الخدودِ نُقيمها

وقال عمرو بن حيي[2] التغلبي :

وكنّا إذا الجبّار صَعّر خدَّه ... أقمنا لَـهُ من مَيْلِه فتقوّما[3]

وقوله : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ ينهاه عن التبختر في المشية على وجه العظمة والفخر على الناس كما قال تعالى : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ [الاسراء:٣٧]. يعني لست بسرعة مشيك تقطع البلاد في مشيتك هذه ، ولست بدقك الأرض برجلك تخرق الأرض بوطئك عليها ، ولست بتشامخك وتعاظمك وترفعك تبلغ الجبال طولاً ، فاتئد على نفسك فلست تعدو قدرك . وقد ثبت في الحديث بينما رجل يمشي في برديه يتبختر فيهما ، إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلل فيها إلى يوم القيامة[4]

---

(١) مسند أحمد ج٣٠/٢٨ .

(٢) في القرطبي : حُنى التغلبي .

(٣) قال ابن عطية : تقوما خطأ لأن قافية الشعر مخفوضة وقبله في معجم الشعراء للمرزباني :

تعاطى الملوك الحق ما قصدوا بنا ... وليس علينا قتلهم بمحرم

وقال المرزباني وهذا البيت - بيت الشاهد ؛ يروى من قصيدة المتلمس التي أولها :

يعيرني أمي رجال ولن ترى ... أخا كرم إلا بأن يتكرما

(٤) أخرجه البخاري في كتاب اللباس (٥) وكتاب الأنبياء (٥٤) ومسلم في كتاب اللباس ٤٩ - ٥٠ والنسائي في الزينة (١٠١) وابن ماجه في الفتن ٢٢ والدارمي في المقدمة (٤٠) وأحمد في مسنده ٢/٦٦ - ٢٦٧ - ٣١٥، ٣٩٠، ٤١٣، ٤٥٦، ٤٦٧، ٥٣١، ٣/٤٠ .

وفي الحديث الآخر : « إياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة لا يحبها الله »(١) كما قال في هذه الآية : ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ ولما نهاه عن الاختيال في المشي أمره بالقصد فيه ، فإنه لا بد له أن يمشي فنهاه عن الشر وأمره بالخير ، فقال : ﴿ واقصد في مشيك ﴾ أي لا تتباطأ مفرطاً ولا تسرع إسراعاً مفرطاً ولكن بين ذلك قواماً كما قال تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ [الفرقان : ٦٣] ثم قال : ﴿ واغضض من صوتك ﴾ [لقمان : ١٩] يعني إذا تكلمت لا تتكلف رفع صوتك ، فإن أرفع الأصوات وأنكرها صوت الحمير. وقد ثبت في الصحيحين الأمر بالاستعاذة عند سماع صوت الحمير بالليل فإنها رأت شيطاناً(٢)، ولهذا نهى عن رفع الصوت حيث لا حاجة إليه ، ولا سيما عند العطاس فيستحب خفض الصوت ، وتخمير الوجه كما ثبت به الحديث من صنيع رسول الله ﷺ فأما رفع الصوت بالأذان ، وعند الدعاء إلى الفئة للقتال ، وعند الإهلاك ونحو ذلك فذلك مشروع فهذا مما قصه الله تعالى عن لقمان عليه السلام في القرآن من الحكم والوصايا النافعة الجامعة للخير المانعة من الشر وقد وردت آثار كثيرة في أخباره ومواعظه وقد كان له كتاب يؤثر عنه يسمى بحكمة لقمان ونحن نذكر من ذلك ما تيسر إن شاء الله تعالى .

قال الإمام أحمد : حدثنا علي بن إسحاق ، أنبأنا ابن المبارك ، أنبأنا سفيان ، أخبرني نهيك ابن يجمع الضبي ، عن قزعة ، عن ابن عمر قال أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إن لقمان الحكيم كان يقول إن الله إذا استودع شيئاً حفظه »(٣). وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن الأوزاعي عن موسى بن سليمان ، عن القاسم بن مخيمرة أن رسول الله ﷺ قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني إياك والتقنع فإنه مخونة بالليل مذمة بالنهار » . وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عمارة ، حدثنا ضمرة ، حدثنا السري بن يحيى قال لقمان لابنه : « يا بني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك ». وحدثنا أبي ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أنبأنا ابن المبارك ، أنبأنا عبد الرحمن المسعودي ، عن عون بن عبد الله ، قال قال لقمان لابنه : يا بني إذا أتيت نادي قوم فادمهم بسهم الاسلام ـ يعني السلام ـ ثم اجلس بناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فاجل سهمك معهم ، وإن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٦٥/٤، ٦٣/٥، ٦٤، ٣٧٨ وأخرجه أبو داود في سننه كتاب اللباس باب ٢٤ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق (١٥) وأبو داود في كتاب الأدب (١٠٦) والترمذي في كتاب الدعوات (٥٦).

أقول في الآية : ـ دليل على تعريف قبح رفع الصوت في المخاطبة والملاحاة بقبح أصوات الحمير لأنها عالية .

ـ هذه الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم ، أو بترك الصياح جملة .

(٣) مسند أحمد ج ٨٧/٢.

أفاضوا في غير ذلك فحول عنهم إلى غيرهم : وحدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا ضمرة ، عن حفص بن عمر ، قال وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة حتى نفد الخردل فقال : يا بني لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل تفطر قال فتفطر ابنه . وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا يحيى بن عبد الباقي المصيصي ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحراني ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي ، عن ابن سفيان المقدسي ، عن خليفة بن سلام ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من أهل الجنة لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن » قال الطبراني يعني الحبشي وهذا حديث غريب منكر . وقد ذكر له الإمام أحمد في كتاب الزاهد ترجمة ذكر فيها فوائد مهمة جمة فقال : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن رجل عن مجاهد ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ قال الفقه والإصابة في غير نبوة . وكذا روي عن وهب بن منبه ، وحدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن أشعث ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً . وحدثنا أسود ، حدثنا حماد ، عن علي بن يزيد ، عن سعيد بن المسيب أن لقمان كان خياطاً[1] . وحدثنا سياد ، حدثنا جعفر ، حدثنا مالك يعني ابن دينار قال: قال لقمان لابنه : يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة . وحدثنا يزيد ، حدثنا أبو الأشهب عن محمد بن واسع ، قال كان لقمان يقول لابنه : يا بني اتق الله ولا تري الناس أنك تخشى الله ليكرموك بذلك وقلبك فاجر . وحدثنا يزيد بن هرون ، ووكيع قالا : حدثنا أبو الأشهب ، عن خالد الربعي ، قال كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً فقال له سيده : اذبح لي شاة ، فذبح له شاة ، فقال : ائتني بأطيب مضغتين فيها فأتاه باللسان والقلب ، فقال [له][2] : أما كان فيها شيء أطيب من هذين . قال : لا . قال : فسكت عنه ما سكت ثم قال له اذبح لي شاة فذبح له شاة فقال له : وألق أخبثها مضغتين فرمى باللسان والقلب . فقال أمرتك أن تأتيني بأطيبها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقي أخبثها مضغتين فألقيت اللسان والقلب ، فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا[3]. وحدثنا داود بن رشيد ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا معمر ، عن أبي عثمان رجل من أهل البصرة يقال له الجعد أبو عثمان قال : قال لقمان لابنه : لا ترغب في ود الجاهل فيرى أنك ترضى عمله ، ولا تهاون بمقت الحكيم فيزهده فيك . وحدثنا داود بن أسيد ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن ضمضم بن زرعة ، عن

---

(١) أنظر كتاب المعارف لابن قتيبة : رواه عن يزيد بن هارون عن حماد به . ص ٢٥ .

(٢) زيادة من تفسير القرطبي .

(٣) في هذا المعنى رفع اكثر من حديث من ذلك قوله ﷺ : « الا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » وجاء في اللسان قوله ﷺ : « من وقاه الله شر اثنتين ولج الجنة : ما بين لحييه ورجليه » .

شريح بن عبيد الحضرمي ، عن عبد الله بن زيد قال : قال لقمان : ألا أن يد الله على أفواه الحكماء ، لا يتكلم أحدهم إلاّ ما هيأ الله له . وحدثنا عبد الرزاق : سمعت ابن جريج قال : كنت أقنع رأسي بالليل ، فقال لي عمر : أما علمت أن لقمان قال : القناع بالنهار مذلة معذرة أو قال معجزة بالليل فلم تقنع رأسك بالليل ؟ قال : قلت له : إن لقمان لم يكن عليه دين . وحدثني حسن بن الجنيد ، حدثنا سفيان قال لقمان لابنه : يا بني ما ندمت على السكوت قط ، وإن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وحدثنا عبد الصمد ووكيع قالا : حدثنا أبو الأشهب ، عن قتادة أن لقمان قال لابنه : يا بني اعتزل الشر يعتزلك فإن الشر للشر خلق . وحدثنا أبو معاوية : حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه قال مكتوب في الحكمة يا بني إياك والرغب ، فإن الرغب كل الرغب يبعد القريب من القريب ويزيل الحكم كما يزيل الطرب . يا بني إياك وشدة الغضب فإن شدة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم . قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا نافع بن عمر ، عن ابن أبي مليكة ، عن عبيد بن عمير قال قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني اختر المجالس على عينك ، فإذا رأيت المجلس يذكر فيه الله عزَّ وجلَّ فاجلس معهم فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك وإن تك غبياً يعلموك وإن يطلع الله عليهم برحمة تصيبك معهم . يا بني لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر الله فيه ، فإنك إن تك عالماً لا ينفعك علمك ، وإن تك غبياً يزيدوك غبياً وان يطلع الله إليهم بعد ذلك بسخط يصيبك معهم يا بني لا تغبطوا أمراء رحب الذراعين يسفك دماء المؤمنين فإن له عند الله قاتلاً لا يموت .

وحدثنا أبو معاوية حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه قال مكتوب في الحكمة : بني لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء . وقال مكتوب في الحكمة أو في التوراة : « الرفق رأس الحكمة » وقال مكتوب في التوراة كما ترحمون تُرحمون وقال مكتوب في الحكمة : « كما تزرعون تحصدون » وقال مكتوب في الحكمة أحب خليلك وخليل أبيك . وحدثنا عبد الرزاق عن معمر ، عن أيوب ، عن أبي قلابة قال : قيل للقمان أي الناس أصبر ؟ قال : صبر لا يتبعه أذىً . قيل فأي الناس أعلم ؟ قال من ازداد من علم الناس إلى علمه . قيل فأي الناس خير قال الغني . قيل الغني من المال قال لا ولكن الغني الذي إذا التمس عنده خير وجد وإلاّ أغنى نفسه عن الناس .

وحدثنا سفيان هو ابن عيينة قال قيل للقمان أي الناس شر قال الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً . وحدثنا أبو الصمد ، عن مالك بن دينار قال : وجدت في بعض الحكمة يبدد الله عظام الذين يتكلمون بأهواء الناس ووجدت فيها لا خير لك في أن تعلم ما لم تعلم ولما تعمل بما قد علمت فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطباً فحزم حزمة ثم ذهب يحملها فعجز عنها فضم إليه أخرى . وقال عبد الله بن أحمد : حدثنا الحكم بن أبي زهير ، وهو الحكم بن موسى ، حدثنا الفرج بن

فضالة ، عن أبي سعيد قال قال لقمان لابنه : يا بني لا يأكل طعامك إلاّ الأتقياء وشاور في أمرك العلماء . وهذا مجموع ما ذكره الإمام أحمد في هذه المواضع وقد قدمنا من الآثار كثيراً لم يروها كما أنه ذكر أشياء ليست عندنا والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي ، حدثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة قال : خير الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة على النبوة . قال : فأتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة قال فأصبح ينطق بها . قال سعد سمعت قتادة يقول : قيل للقمان كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك ؟ فقال : إنه لو أوسل إليّ بالنبوة عزمة[1] لرجوت فيه الفوز منه[2] ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ولكن خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة فكانت الحكمة أحب إليّ . وهذا فيه نظر لأن سعيد بن بشير عن قتادة قد تكلموا فيه ، والذي رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ قال يعني الفقه والإسلام ولم يكن نبياً ولم يوح إليه . وهكذا نص على هذا غير واحد من السلف[3] منهم مجاهد وسعيد بن المسيب وابن عباس والله أعلم .

قصة أصحاب الأخدود

قال الله تعالى : ﴿ والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ [البروج: ١ - ١٠]. قد تكلمنا على ذلك مستقصى في تفسير هذه السورة ولله الحمد . وقد زعم محمد بن إسحاق : أنهم كانوا بعد مبعث المسيح ، وخالفه غيره فزعموا أنهم كانوا قبله . وقد ذكر غير واحد أن هذا الصنيع مكرر في العالم مراراً في حق المؤمنين من الجبارين الكافرين ولكن هؤلاء المذكورون في القرآن قد ورد فيهم حديث مرفوع ، وأثر أورده ابن إسحاق ، وهما متعارضان وها نحن نوردهما لتقف عليهما . قال الإمام أحمد : حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر الساحر قال للملك إني قد كبرت سني وحضر أجلي فادفع إليّ غلاماً فلأعلمه

---

(١) عزمة : عزائم الله فرائضه التي أوجبها على عباده .

(٢) في تفسير القرطبي : لرجوت فيها العون منه .

(٣) قال ابن عطية : عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ : « لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكر حسن اليقين ، أحب الله تعالى فأحبه فمن عليه بالحكمة وخيره في أن يجعله خليفة يحكم بالحق . فقال : رب ، إن خيرتني قبلت العافية وتركت البلاء ، وان عزمت عليّ فسمعاً وطاعة » .

السحر فدفع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر وكان بين الملك وبين الساحر راهب فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه ، فأعجبه نحوه وكلامه وكان إذا أتى الساحر ضربه ، وقال ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال إذا أراد الساحر أن يضربك فقل حبسني أهلي ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل حبسني الساحر ، قال فبينا هو ذات يوم إذ أتى على دابة[1] فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا فقال اليوم أعلم أمر الساحر أحب إلى الله أم أمر الراهب ؟ قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس ، ورماها فقتلها ، ومضى [الناس] فأخبر الراهب بذلك . فقال : أي بني أنت أفضل مني وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل عليّ فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم الله على يديه ، وكان جليس للملك فعمي فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : اشفني ولك ما ههنا اجمع فقال : ما أنا اشفي أحداً ، إنما يشفي الله عزَّ وجلَّ ، فإن آمنت به ودعوت الله شفاك فآمن فدعا الله فشفاه . ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان من رد عليك بصرك ؟ فقال : ربي قال : أنا . قال : لا ربي ، وربك الله قال : ولك رب غيري ؟ قال : نعم ربي وربك الله فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام [فبعث إليه] فأتي به فقال : أي بني بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ، قال : ما أشفي أنا أحداً إنما يشفي الله عزَّ وجلَّ ، قال : أنا قال : لا قال : أولك رب غيري ؟ قال ربي وربك الله . قال : فأخذه أيضاً بالعذاب ، ولم يزل به حتى دل على الراهب ، فأتى الراهب فقال : ارجع عن دينك ، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه وقال للأعمى ارجع عن دينك ، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه [في الأرض] وقال للغلام ، ارجع عن دينك فأبى فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا وقال إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلاّ فدهدهوه [من فوقه] فذهبوا به فلما علوا الجبل قال : اللهم أكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل ، فدهدهوا أجمعون . وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك فقال كفانيهم الله ، فبعث به مع نفر في قرقرة[2] فقال : إذا لججتم البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاغرقوه في البحر فلججوا به البحر فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت [فانكفأت بهم السفينة][3] فغرقوا أجمعون ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك ، فقال : ما فعل أصحابك فقال كفانيهم الله [عزَّ وجلَّ] ثم قال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني ، وإلاّ فإنك لا تستطيع قتلي قال : وما هو قال تجمع الناس في

---

(١) في الترمذي : أن الدابة كانت أسداً .

(٢) قرقرة : وفي المسند وصحيح مسلم قرقور وهو الصواب ، والقرقور : السفينة الصغيرة .

(٣) من صحيح مسلم .

صعيد واحد ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي[1] . ثم قل : بسم الله رب الغلام ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، ففعل ووضع السهم في كبد القوس ، ثم رماه وقال بسم الله رب الغلام فوقع السهم في صدغه فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات[2] فقال الناس : آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام ، فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر فقد والله نزل بك ، قد آمن الناس كلهم ، فأمر بأفواه السكك فحفر فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران ، وقال : من رجع عن دينه فدعوه ، وإلا فاقحموه فيها ، وقال : فكانوا يتعادون فيها ويتواقعون[3] فجاءت امرأة بابن لها ترضعه فكأنها تقاعست أن تقع في النار ، فقال الصبي : اصبري يا أماه فإنك على الحق »[4] كذا رواه الإمام أحمد ورواه مسلم والنسائي من حديث حماد بن سلمة زاد النسائي وحماد بن زيد كلاهما عن ثابت به . ورواه الترمذي من طريق عبد الرزاق عن معمر ، عن ثابت بإسناده نحوه وجرد إيراده كما بسطنا ذلك في التفسير .

وقد أورد محمد بن إسحاق هذه القصة على وجه آخر فقال : حدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب وحدثني أيضاً بعض أهل نجران عن أهلها أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان وكان في قرية من قراها قريباً من نجران ـ ونجران هي القرية العظمى التي إليها جماع أهل تلك البلاد ـ ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلها فيمون ، ولم يسموه لي بالاسم الذي سماه ابن منبه ، قالوا رجل نزلها فابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي فيها الساحر ، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر ، فبعث التامر ابنه عبد الله بن التامر مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم ، فوحد الله وعبده ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام ، حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان يعلمه فكتمه إياه ، وقال له : يا ابن أخي إنك لن تحمله ، أخشى ضعفك عنه ، والتامر لا يظن إلا أن ابنه عبد الله يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان ، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه وتخوف ضعفه فيه ، عمد إلى قداح[5] فجمعها ، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه في قدح لكل اسم قدح ، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ، ثم جعل يقذفها [فيها] قدحاً قدحاً ، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه ، فوثب القدح حتى خرج منها لم تضره شيئاً ، فأخذه ثم أتى به صاحبه ، فأخبره أنه قد علم

---

(١) الكنانة : بالكسر : جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها ، أو من خشب لا جلود فيها .

(٢) في الترمذي : أن الغلام دفن ، قال : فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل .

(٣) في المسند : يتدافعون .

(٤) مسند أحمد ج ٦/١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ . وما بين معكوفين في الحديث زيادة من المسند .

(٥) قداح : بالكسر جمع قدح : السهم قبل أن ينصل ويراش .

الاسم الأعظم الذي قد كتمه [إياه] فقال : وما هو؟ قال : كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع . قال : أي ابن أخي قد أصبته ، فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل . فجعل عبد الله بن التامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلاّ قال : يا عبد الله أتوحد الله وتدخل في ديني ، وأدعو الله لك فيعافيك عما أنت فيه من البلاء [فيقول : نعم ، فيوحد الله ويسلم ، حتى لم يبق أحد بنجران به ضر إلاّ أتاه فاتبعه على دينه] ؟ ودعا له فعوفي ، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال [له] أفسدت عليّ أهل قريتي ، وخالفت ديني ودين آبائي ، لأمثلن بك . قال : لا تقدر على ذلك . فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل ، فيطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض ما به بأس . وجعل يبعث به إلى مياه بنجران . بحور لا يلقى فيها شيء إلاّ هلك ، فيلقى به فيها فيخرج ليس به بأس ، فلما غلبه قال له عبد الله بن التامر ، والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت سلطت عليّ فقتلتني ، قال : فوحد الله ذلك الملك وشهد شهادة عبد الله بن التامر ، ثم ضربه بعصا في يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله . وهلك الملك مكانه ، واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن التامر وكان على ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحكمه . ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحزاب[1] فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران . قال ابن إسحاق فهذا حديث محمد بن كعب وبعض أهل نجران عن عبد الله بن التامر فالله أعلم أي ذلك كان . قال : فسار إليهم ذو نواس بجنده [من حمير] فدعاهم إلى اليهودية ، وخيرهم بين ذلك أو القتل . فاختاروا القتل فخدوا الأخدود ، وحرق بالنار وقتل بالسيف ، ومثّل بهم فقتل منهم قريباً من عشرين ألفاً[2]. ففي ذي نواس وجنده أنزل الله على رسوله : ﴿قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود﴾ الآيات [البروج : ٤ - ٥]. وهذا يقتضي أن هذه القصة غير ما وقع في سياق مسلم وقد زعم بعضهم أن الأخدود وقع في العالم كثيراً كما قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو اليمان أنبأنا صفوان ، عن عبد الرحمن بن جبير قال : كانت الأخدود في اليمن زمان تبع وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد ، واتخذ أتوناً وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد وفي العراق في أرض بابل في زمان بخت نصر حين صنع الصنم ، وأمر الناس فسجدوا له فامتنع دانيال وصاحباه عزريا ومشايل فأوقد لهم أتوناً وألقى فيها الحطب والنار ثم ألقاهما فيه فجعلها الله عليهم برداً وسلاماً وأنقذهم منها ، وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط فأكلتهم النار وقال اسباط عن السدي في قوله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ قال كان الأخدود

---

(١) في تفسير القرطبي : الأحداث .

(٢) ما بين معكوفين في الخبر من تفسير القرطبي واستدركت لمقتضى السياق .

- في القرطبي وابن إسحاق : الثامر بالثاء .

- ذو نواس : واسمه زرعة بن تبان أسعد الحميري .

ثلاثة : خد بالشام وخد بالعراق وخد باليمن رواه بن أبي حاتم . وقد استقصيت ذكـر أصحاب الأخدود والكلام على تفسيرها في سورة البروج ولله الحمد والمنة .

بيان للأذن في الرواية عن اخبار بني اسرائيل

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا همام ، حدثنا زيد ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال : قال « حدثوا عني ولا تكذبوا عليّ ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوء مقعده من النار وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » . وقال أيضاً : حدثنا عفان ، حدثنا همام ، أنبأنا زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : قال « لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه » وقال : « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج حدثوا عني ولا تكذبوا عليّ قال : « ومن كذب عـليّ - قال همـام احسبه قـال - متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وهكـذا رواه مسلم والنسائي من حـديث همام ورواه أبـو عوانـة الأسفراييني عن أبي داود السجستاني عن هدبة ، عن همام ، عن زيد بن أسلم به . ثم قال : قال أبو داود : أخطأ فيه همام ، وهو من قول أبي سعيد كذا قال . وقد رواه الترمذي عن سفيان ، عن وكيع ، عن سفيان بن عيينة ، عن زيد بن أسلم ببعضه مرفوعاً فـالله أعلم . قال الإمـام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم ، أنبأنا الأوزاعي ، حدثنا حسان بن عطية ، حدثني أبو كبشة السلولي : أن عبد الله بن عمرو بن العـاص حدثـه أنه سمـع رسول الله ﷺ يعني يقـول : « بلغوا عني ولـو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عـليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . ورواه أحمد أيضاً عن عبد الله بن نمير ، وعبد الرزاق كلاهما عن الأوزاعي به . وهكذا رواه البخاري عن أبي عاصم النبيل عن الأوزاعي به . وكذا رواه الترمذي عن بندار عن أبي عاصم ثم رواه عن محمد بن يحيى الذهلي عن محمد بن يوسف العرياني عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حسان بن عطية وقال حسن صحيح[1] . وقال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثنى - أبو موسى - حدثنا هشام بن معاوية، حدثنا أبي ، عن قتـادة ، عن أبي حسان ، عن عبـد الله بن عمرو قـال كان نبي الله ﷺ يحدثنا عامة ليلة عن بني إسرائيل حتى نصبـح ما نقـوم فيها إلّا لمعـظم صلاة ورواه أبـو داود عن محمد بن مثنى ، ثم قال البزار حدثنا محمد بن مثنى ، حدثنا عفان ، حدثنا أبو هلال عن قتادة ، عن أبي حسان ، عن عمران بن حصين[2] ، قال كان رسول الله ﷺ « يحـدثنا عـامة ليلة عن بني

---

(١) حديث : من كذب عليّ متعمداً . . .» متواتر ، رواه عن النبي ثمـانية وتسعـون صحابيـاً منهم العشرة ، ولا يعرف ذلك لغيره فيض القدير ٦/٢١٤ .

وقال المنذري في الترغيب : وهذا الحديث قد روي عن غير واحد من الصحابة في الصحاح والسنن والمسانيـد وغيرها حتى بلغ مبلغ التواتر . والله أعلم ١/١١١. روى الحديث الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٤٢ باب : فيمن كذب على رسول الله ﷺ من طرقه المختلفة مطولاً وعلل رواته وناقليه

(٢) في نسخ البداية المطبوعة حسين وهو تحريف .

إسرائيل لا يقوم إلاّ لمعظم صلات»[1] قال البزار وهشام أحفظ من أبي هلال يعني أن الصواب عن عبد الله بن عمرو لا عن عمران بن حصين والله أعلم . وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، هو القطان ، عن محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج »[2] إسناد صحيح ولم يخرجوه . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا وكيع ، حدثنا ربيع بن سعد الجعفي ، عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « حدثوا عن بني إسرائيل فإنه قد كان فيهم الأعاجيب »[3] ثم أنشأ يحدث ﷺ : قال خرجت طائفة من بني إسرائيل حتى أتوا مقبرة من مقابرهم فقالوا لو صلينا ركعتين ودعونا الله عزّ وجلّ فيخرج لنا رجلاً قد مات نسائله يحدثنا عن الموت ففعلوا فبينما هم كذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر من تلك القبور بين عينيه أثر السجود فقال يا هؤلاء ما أردتم إليّ فقدمت منذ مائة عام فما سكنت عني حرارة الموت حتى الآن فادعوا الله أن يعيدني كما كنت وهذا حديث غريب . إذا تقرر جواز الرواية عنهم فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحاً فأما ما يعلم أو يظن بطلانه لمخالفته الحق الذي بأيدينا عن المعصوم ، فذاك متروك مردود لا يعرج عليه ثم مع هذا كله لا يلزم من جواز روايته أن تعتقد صحته لما رواه البخاري قائلاً : حدثنا محمد بن يسار ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا علي بن المبارك ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون »[3] تفرد به البخاري من هذا الوجه .

وروى الإمام أحمد من طريق الزهري عن أبي نملة الأنصاري ، عن أبيه أنه كان جالساً عند رسول الله ﷺ فقال : إذا جاء رجل من اليهود فقال : يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم » فقال اليهودي : أنا أشهد أنها تتكلم فقال رسول الله ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان حقاً لم تكذبوهم وإن كان باطلاً لم تصدقوهم »[4] تفرد به أحمد . وقال الإمام أحمد : حدثنا شريح بن

---

(1) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٩١/١ عن عمران بن حصين وفيه : لمعظم الصلاة . وقال : رواه البزار وأحمد والطبراني في الكبير وإسناده صحيح .

(2) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٥١/١ وقال : رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف وبقية رجاله رجال الصحيح .

(3) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٩١/١ وقال : رواه البزار عن شيخه جعفر بن محمد بن أبي وكيع عن ابيه ولم اعرفهما وبقية رجاله ثقات . وفي هامشه قال : « إنما قال البزار حدثنا جعفر بن محمد بن أبي وكيع نا عبد الله بن نمير ، ما رأيت فيه عن أبيه ـ فليحرر هذا ـ كما في هامش الأصل » .

(4) مسند أحمد ١٣٦/٤ .

النعمان ، حدثنا هشيم ، أنبأنا مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله ، أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قال فغضب وقال : « أمتهوكون فيها يا بن الخطاب ؟ والذي نفسي به لقد جئتكم به بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي به لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلاّ أن يتبعني »[1] . تفرد به أحمد وإسناده على شرط مسلم ، فهذه الأحاديث دليل على أنهم قد بدلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية ، وحرفوها ، وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ، ولا سيما ما يبدونه من المعربات التي لم يحيطوا بها علماً وهي بلغتهم فكيف يعبرون عنها بغيرها ، ولأجل هذا وقع في تعريبهم خطأ كبير ، ووهم كثير ، مع ما لهم من المقاصد الفاسدة والآراء الباردة ، وهذا يتحققه من نظر في كتبهم التي بأيديهم ، وتأمل ما فيها من سوء التعبير ، وقبيح التبديل والتغيير ، وبالله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير. وهذه التوراة التي يبدونها ويخفون منها كثيراً فيما ذكروه فيها تحريف وتبديل وتغيير وسوء تعبير يعلم من نظر فيها وتأمل ما قالوه وما أبدوه وما أخفوه وكيف يسوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب باطلة من حيث معناها وألفاظها . وهذا كعب الأحبار من أجود من ينقل عنهم وقد أسلم في زمن عمر ، وكان ينقل شيئاً عن أهل الكتاب فكان عمر رضي الله عنه يستحسن بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق وتأليفاً لقلبه فتوسع كثير من الناس في أخذ ما عنده وبالغ أيضاً هو في نقل تلك الأشياء التي كثير منها ما يساوي مداده . ومنها ما هو باطل لا محالة . ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق الذي بأيدينا . وقد قال البخاري : وقال أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، عن الزهري : أخبرني حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب[2] . يعني من غير قصد منه . وروى البخاري من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على رسوله أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يُشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً الا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم[3] . وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن

(١) مسند أحمد ج ٣٨٧/٣. ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد قال : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وفيه مجالد بن سعيد ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما ١٧٤/١ .

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ باب قول النبي ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب ص ١٦٠/٨ دار الفكر ـ بيروت .

(٣) انظر المرجع السابق .

ـ قوله لم يشب : أي لم يخلط بغيره .

ـ قوله أحدث : أي أقرب نزولاً .

شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل[1] والله أعلم .

قصة جريج أحد عباد بني اسرائيل

قال الإمام أحمد : حدثنا وهب بن جرير ، حدثني أبي سمعت محمد بن سيرين ، يحدث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى بن مريم »[2] قال وكان في بني إسرائيل رجل عابد يقال له جريج ، فابتنى صومعة وتعبد فيها ، قال : فذكر بنو إسرائيل عبادة جريج فقالت بغي منهم لئن شئتم لأفتننه فقالوا: قد شئنا ذاك قال فأتته فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأمكنت نفسها من راعٍ كان يؤوي غنمه ، إلى أصل صومعة جريج فحملت فولدت غلاماً فقالوا ممن ؟ قالت من جريج ، فأتوه فاستنزلوه فشتموه وضربوه وهدموا صومعته فقال : ما شأنكم ؟ قالوا إنك زنيت بهذه البغي فولدت غلاماً فقال وأين هو؟ قالوا هو هذا . قال فقام فصلى ودعا ثم انصرف إلى الغلام فطعنه باصبعه فقال بالله يا غلام من أبوك ؟ فقال أنا ابن الراعي فوثبوا إلى جريج فجعلوا يقبلونه ، وقالوا : نبني صومعتك من ذهب . قال : لا حاجة لي في ذلك ابنوها من طين كما كانت. قال وبينما امرأة في حجرها ابن لها ترضعه إذ مر بها راكب ذو شارة[3] فقالت: اللهم اجعل ابني مثل هذا ؟ قال فترك ثديها ، وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلني مثله . قال : ثم عاد إلى ثديها فمصه . قال أبو هريرة فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي صنيع الصبي ووضع إصبعه في فيه يمصها . ثم مرت بأمة تضرب فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثلها قال فترك ثديها وأقبل على الأمة فقال اللهم اجعلني مثلها قال فذاك حين تراجعا الحديث[4]. فقالت : خلفي[5] مر الراكب ذو الشارة ، فقلت : اللهم اجعل ابني مثله . فقلت : اللهم لا تجعلني مثله ، ومررت بهذه الأمة فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها ، فقلت اللهم اجعلني مثلها[6] فقال يا أمتاه إن الراكب ذو الشارة جبار من الجبابرة وإن هذه الأمة يقولون : زنت ولم تزن وسرقت ولم تسرق ، وهي تقول حسبي الله . وهكذا رواه البخاري في أحاديث الأنبياء وفي المظالم عن مسلم بن إبراهيم ومسلم في كتاب الأدب عن زهير بن حرب عن يزيد بن هرون كلاهما عن جرير بن حازم به طريق

---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٩٢/١ عن أبي الزعرا عن عبد الله وفيه: «وقد أضلوا أنفسهم إما أن يحدثوكم بصدق فتكذبونهم أو بباطل فتصدقونهم » رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون .

(٢) مسند أحمد ج ٣٠٧/٢، ٣٠٨ وأخرجه مسلم في ٤٥ كتاب البر والأدب ٢ باب تقديم بر الوالدين ٢٥٥٠/٨ .

(٣) ذو الشارة : الشارة الهيئة واللباس .

(٤) صحيح مسلم في ٤٥ كتاب الأدب ٢٥٥٠/٨/٢ والبخاري في أحاديث الأنبياء حديث رقم : ٦٥٣ .

(٥) في صحيح مسلم : حلقى : أي أصابه الله بوجع في حلقه .

(٦) هنا : إشارة إلى سلامتها من المعاصي ؛ يعني اللهم اجعلني سالماً من المعاصي مثلها كما هي سالمة .

أخرى وسياق آخر(١) .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، حدثنا حميد بن هلال ، عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كان جريج يتعبد في صومعته قال : فأتته أمه فقالت يا جريج أنا أمك وكلمني قال وكان أبو هريرة يصف كيف كان رسول الله ﷺ وضع يده على حاجبه الأيمن قال وصادفته يصلي قال : يا رب أمي وصلاتي ، فاختار صلاته فرجعت ، ثم أتته فصادفته يصلي فقالت : يا جريج أنا أمك فكلمني فقال : يا رب أمي وصلاتي فاختار صلاته ، فقالت : اللهم هذا جريج وانه ابني واني كلمته فأبى أن يكلمني اللهم فلا تمته حتى تريه المومسات . ولو دعت عليه أن يفتتن لافتتن . قال : وكان راع يأوي إلى ديره فخرجت امرأة فوقع عليها الراعي فولدت غلاماً فقيل ممن هذا ؟ فقالت : هو من صاحب الدير فأقبلوا بفؤوسهم ومساحيهم وأقبلوا إلى الدير فنادوه فلم يكلمهم فأقبلوا يهدمون ديره ، فنزل إليهم فقالوا سل هذه المرأة ـ قال أراه تبسم ـ قال : ثم مسح رأس الصبي فقال من أبوك ؟ قال راعي الضأن قالوا يا جريج نبني ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة قال : لا ولكن اعيدوه كما كان ففعلوا ورواه مسلم في الاستيذان عن شيبان بن فروخ عن سليمان بن المغيرة به(٢) .

سياق آخر قال الإمام أحمد(٣) حدثنا عفان حدثنا حماد أنبأنا ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يتعبد في صومعته فأتته أمه ذات يوم فنادته فقالت : أي جريج ، أي بني ، أشرف عليّ أكلمك أنا أمك اشرف عليّ فقال : أي ربي صلاتي وامي فأقبل على صلاته ، ثم عادت فنادته مراراً فقالت : أي جريج أي بني اشرف عليّ فقال : أي رب صلاتي وامي فأقبل على صلاته فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه المومسة وكانت راعية ترعى غنماً لأهلها ثم تأوي إلى ظل صومعته فأصابت فاحشة فحملت فأخذت . وكان من زنى منهم قتل، فقالوا ممن؟ قالت من جريج صاحب الصومعة فجاؤوا بالفؤوس والمرور، فقالوا: أي جريج أي مرائي ؟ انزل فأبى وأقبل على صلاته يصلي فأخذوا في هدم صومعته فلما رأى ذلك نزل ، فجعلوا في عنقه وعنقها حبلاً فجعلوا يطوفون بهما في الناس فوضع أصبعه على بطنها فقال : أي غلام من أبوك ؟ فقال : أبي فلان راعي الضأن ، فقبلوه وقالوا إن شئت بنينا لك صومعتك من

---

(١) تراجعا الحديث : معناه أقبلت على الرضيع تحدثه ، وكانت ، أولاً ، لا تراه أهلاً للحديث ، فلما تكرر منه الكلام علمت أنه أهل له فسألته وراجعته .

(٢) صحيح مسلم ٢٥٥٠/٧/٢/٤٥ وأحمد في مسنده ٤٣٣/٢ .

ـ المومسات : الزواني البغايا المتجاهرات بذلك ، الواحدة : مومسة .

ـ ديره : الدير الكنيسة المنقطعة عن العمارة ، تنقطع فيها رهبان النصارى لتعبدهم ، وهو بمعنى الصومعة .

ـ مساحيهم : المساحي : جمع مسحاة وهي كالمجرفة إلا أنها من حديد .

ذهب وفضة قال أعيدوها كما كانت وهذا سياق غريب وإسناده على شرط مسلم ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه[1] .

فهؤلاء ثلاثة تكلموا في المهد عيسى بن مريم عليه السلام وقد تقدم الكلام على قصته. وصاحب جريج ابن البغي من الراعي كما سمعت واسمه يابوس كما ورد مصرحاً به في صحيح البخاري والثالث ابن المرأة التي كانت ترضعه فتمنت له أن يكون كصاحب الشارة الحسنة فتمنى أن يكون كتلك الأمة المتهومة بما هي بريئة منه وهي تقول : حسبي الله ونعم الوكيل . كما تقدم في رواية محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعاً . وقد رواه الإمام أحمد عن هوذة عن عوف الأعرابي عن خلاس عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بقصة هذا الغلام الرضيع وهو إسناد حسن .

وقال البخاري : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن عبد الرحمن الأعرج حدثه أنه سمع أبا هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « بينما امرأة ترضع ابنها إذ مر بها راكب وهي ترضعه فقالت اللهم لا تمت ابني حتى يكون مثل هذا فقال : اللهم لا تجعلني مثله ، ثم رجع في الثدي ومر بامرأة تجر ويلعب بها ، فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه فقال : اللهم اجعلني مثلها . فقال أما الراكب فإنه كافر . وأما المرأة فإنهم يقولون إنها تزني وتقول حسبي الله ويقولون تسرق وتقول حسبي الله . وقد ورد في من تكلم في المهد أيضاً شاهد يوسف كما تقدم وابن ماشطة آل فرعون والله أعلم .

قصة برصيصا

وهي عكس قضية جريج فإن جريجاً عُصم وذلك فتن . قال ابن جرير : حدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي ، أنبأنا أبي ، عن أبيه ، عن جده ، عن الأعمش ، عن عمارة ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ [الحشر : ١٦ ـ ١٧] . قال ابن مسعود وكانت امرأة ترعى الغنم وكان لها اخوة أربعة وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب قال : فنزل الراهب ففجر بها فحملت ، فأتاه الشيطان فقال له اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل تصدق ويسمع قولك فقتلها ثم دفنها قال فأتى الشيطان أخوتها في المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا . فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك قالوا : لا بل قصها علينا قال فقصها فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك قالوا فوالله ما هذا إلَّا لشيء فانطلقوا فاستعدوا[2] ملكهم على

---

(١) مسند أحمد ج ٢/٣٨٥ .

(٢) استعدوا ملكهم : أي استعانوا به فانصفهم منه .

ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه . ثم انطلقوا به فأتاه الشيطان ، فقال : إني أنا أوقعتك في هذا ، ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي سجدة واحدة وانجيك مما أوقعتك فيه قال فسجد له فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل . وهكذا روي عن ابن عباس وطاوس ومقاتل ابن حيان نحو ذلك .

وقد روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسياق آخر . فقال ابن جرير : حدثنا خلاد بن أسلم ، حدثنا النضر بن شميل ، أنبأنا شعبة ، عن أبي إسحاق : سمعت عبد الله بن نهيك ، سمعت علياً يقول : إن راهباً تعبد ستين سنة ، وإن الشيطان أراده فأعياه فعمد إلى امرأة فأجنها ولها أخوة فقال لأخوتها عليكم بهذا القس فيداويها قال : فجاؤوا بها إليه فداواها وكانت عنده ، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته فأتاها فحملت فعمد إليها فقتلها فجاء إخوتها فقال الشيطان للراهب أنا صاحبك إنك اعييتني أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك اسجد لي سجدة ، فسجد له قال : إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين فذلك قوله : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ .

قصة الثلاثة الذين أووا إلى الغار فانطبق عليهم

فتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم ففرج عنهم . قال الإمام البخاري : حدثنا اسماعيل بن خليل ، أخبرنا علي بن مسهر ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر فآووا إلى غار فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلاّ الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه فقال واحداً منهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرق[1] من أرز فذهب وتركه وإني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره أني اشتريت منه بقراً وأنه أتاني يطلب أجره فقلت اعمد إلى تلك البقرة فسقها فقال لي إنما لي عندك فرق من أرز فقلت له اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق فساقها فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا . فانساخت عنهم الصخرة . فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت آتيها كل ليلة بلبن غنم لي فابطأت عنها ليلة فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغون[2] من الجوع وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي فكرهت أن أوقظها وكرهت أن ادعها فيستكنا لشربتها فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا . فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء . فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لي ابنة عم من أحب الناس إليّ وإني راودتها عن نفسها فأبت إلاّ أن آتيها بمائة دينار

---

(١) فرق : بفتح الراء واسكانها والفتح أشهر : هو إناء يسع ثلاثة آصع .

(٢) يتضاغون : يصيحون ويستغيثون من الجوع .

فطلبتها حتى قدرت فأتيتها بها فدفعتها إليها فأمكنتني من نفسها فلما قعدت بين رجليها[1] قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلاّ بحقه[2] فقمت وتركت المائة دينار ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ففرج الله عنهم فخرجوا ، رواه مسلم عن سويد بن سعيد عن علي بن مسهر به وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به عن مروان بن معاوية ، عن عمرو بن حمزة بن عبد الله بن عمر ، عن سالم ، عن أبيه عن النبي ﷺ بنحوه[3]. ورواه الإمام أحمد من حديث وهب بن منبه عن النعمان بن بشير ، عن النبي ﷺ بنحو من هذا السياق وفيه زيادات ورواه البزار من طريق أبي إسحاق عن رجل من بجيلة عن النعمان بن بشير مرفوعاً مثله ورواه البزار في مسنده من حديث أبي حنش عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ بنحوه .

خبر الثلاثة الأعمى والأبرص والأقرع

روى البخاري ومسلم من غير وجه : عن همام بن يحيى ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، حدثني عبد الرحمن بن أبي عمرة أن أبا هريرة حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص[4] وأعمى وأقرع بدا لله أن يبتليهم فبعث الله إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال له : أي شيء أحب إليك فقال لون حسن ، وجلد حسن قد قذرني الناس قال : فمسحه فذهب عنه فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً . فقال : أي المال أحب إليك قال الإبل أو قال البقر ـ هو شك في ذلك أن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر ـ فأعطي ناقة عشراء[5] فقال يبارك لك فيها . قال وأتى الأقرع فقال له : أي المال أحب إليك قال : شعر حسن ، ويذهب عني هذا قد قذرني الناس فمسحه فذهب وأعطي شعراً حسناً قال : فأي المال أحب إليك قال : البقر فأعطاه بقرة حاملاً وقال يبارك لك فيها قال وأتى الأعمي فقال : أي شيء أحب إليك قال : يرد الله إليّ بصري فأبصر به الناس قال : فمسحه فرد الله إليه بصره قال : فأي المال أحب إليك قال : الغنم فأعطاه شاة والداً[6] فانتج هذان وولد هذا فكان لهذا واد من الابل ولهذا واد من البقر ولهذا وادٍ من الغنم ثم أنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلاّ بالله ثم بك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ عليه في سفري فقال له : إن الحقوق كثيرة فقال له كأني أعرفك ألم تكن أبرص

---

(١) قعدت بين رجليها : أي جلست مجلس الرجل للوقاع .

(٢) لا تفض الخاتم إلا بحقه : الخاتم كناية عن بكارتها ، وقولها بحقه: أي بنكاح لا بزنى .

(٣) مسند الإمام أحمد ١١٦/٢ . صحيح البخاري كتاب الوكالة ـ باب إذا زرع بمال قوم بغير اذنهم ص ٦٩/٣ .

(٤) أبرص : البرص بياض يظهر في ظاهر البدن ، لفساد مزاج . قاموس .

(٥) ناقة عشراء : هي الحامل القريبة الولادة .

(٦) شاة والدا : أي وضعت ولدها ، وهو معها .

يقذرك الناس فقيراً فأعطاك الله عزّ وجلّ فقال : لقد ورثت لكابر عن كابر ، فقال إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا فرد عليه مثل ما رد عليه هذا . فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت . وأتى الأعمى في صورته فقال رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلّا بالله ثم بك اسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري فقال قد كنت أعمى فردّ الله إليّ بصري وفقيراً فقد أغناني فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزّ وجلّ فقال أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك . هذا لفظ البخاري في أحاديث بني إسرائيل[1] .

حديث الذي استلف من صاحبه ألف دينار فأداها

قال الإمام أحمد : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا ليث ، عن جعفر بن ربيعة ، عن عبد الرحمن بن هرمز ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه ذكر : « أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال ائتني بشهداء أشهدهم قال : كفى بالله شهيداً قال : ائتني بكفيل قال كفى بالله كفيلاً قال : صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى فخرج في البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها ، وأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ثم زجج[2] موضعها ثم أتى بها البحر . ثم قال : اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلاناً ألف دينار فسألني كفيلاً فقلت كفى بالله كفيلاً فرضي بذلك ، وسألني شهيداً فقلت كفى بالله شهيداً فرضي بذلك ، وإني قد جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً وإني أستودعتكها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً يجيئه بماله فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً فلما كسرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه قال هل كنت بعثت إليّ بشيء قال : ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت فيه قال : فإن الله أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة فانصرف بألفك راشداً . هكذا رواه الإمام أحمد مسنداً وقد علقه البخاري[3] في غير موضع من صحيحه بصيغة الجزم عن الليث بن سعد وأسنده في بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه ، والعجب

---

(١) أخرجه مسلم في ٥٣ كتاب الزهد ٢٩٦٤/١٠ ص ٢٢٧٥/٤ ـ ٢٢٧٦ . والحديث في صحيح البخاري رقم : ١٦٢٦ .

(٢) زجج : أي سوى موضع النقر واصلحه .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب في اللقطة ـ باب إذا وجد خشبة . . ج ٩٣/٣ دار الفكر ، وفي كتاب الأجارة ـ باب الكفالة ج ٥٦/٣ .

من الحافظ أبي بكر البزار كيف رواه في مسنده عن الحسن بن مدرك عن يحيى بن حماد ، عن أبي عوانة ، عن عمر بن سلمة ، عن أبيه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ثم قال لا يروى إلّا من هذا الوجه بهذا الإسناد .

قصة أخرى شبيهة بهذه القصة في الصدق والأمانة

قال البخاري : حدثنا إسحاق بن نصر أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اشترى رجل من رجل عقاراً »[1] له فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب فقال له الذي اشترى العقار خذ ذهبك مني إنما اشتريت منك الأرض ولم ابتع منك الذهب وقال الذي له الأرض إنما بعتك الأرض وما فيها فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه ألكما ولد قال أحدهما لي غلام ، وقال الآخر لي جارية قال انكحوا الغلام الجارية وانفقوا على أنفسهما منه وتصدقا . هكذا روى البخاري هذا الحديث في أخبار بني إسرائيل وأخرجه مسلم[2] عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به وقد روى أن هذه القصة وقعت في زمن ذي القرنين . وقد كان قبل بني إسرائيل بدهور متطاولة والله أعلم

قال إسحاق بن بشر في كتابه المبتدأ عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن : أن ذا القرنين كان يتفقد أمور ملوكه وعماله بنفسه وكان لا يطلع على أحد منهم خيانة إلّا أنكر ذلك عليه ، وكان لا يقبل ذلك حتى يطلع هو بنفسه . قال فبينما هو يسير متنكراً في بعض المدائن، فجلس إلى قاض من قضاتهم أياماً لا يختلف إليه أحد في خصومة فلما أن طال ذلك بذي القرنين ولم يطلع على شيء من أمر ذلك القاضي وهم بالانصراف إذا هو برجلين قد اختصما إليه فادعى أحدهما فقال : أيها القاضي إني اشتريت من هذا داراً عمرتها ووجدت فيها كنزاً وإني دعوته إلى أخذه فأبى عليّ فقال له القاضي : ما تقول ؟ قال : ما دفنت وما علمت به فليس هو لي ولا أقبضه منه قال المدعي : أيها القاضي مر من يقبضه فتضعه حيث أحببت فقال القاضي تفر من الشر ، وتدخلني فيه ما أنصفتني وما أظن هذا في قضاء الملك فقال القاضي هل لكما أمراً نصف مما دعوتماني إليه قالا : نعم قال : للمدعي ألك ابن ؟ قال نعم وقال للآخر ألك ابنة ؟ قال : نعم قال : اذهبا فزوج ابنتك من ابن هذا وجهزهما من هذا المال وادفعا فضل ما بقي إليهما يعيشان به فتكونا ملياً بخيره وشره فعجب ذو القرنين حين سمع ذلك ثم قال للقاضي : ما ظننت أن في الأرض أحداً يفعل مثل هذا أو قاضٍ يقضي بمثل هذا فقال القاضي وهو لا يعرفه وهل أحد يفعل غير هذا قال

---

(١) العقار : هو الأرض وما يتصل بها ، وحقيقة العقار الأصل ، سمي بذلك من العُقر ومنه : عقر الدار .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٣٠ كتاب الأقضية ١١ باب ٢١/١٧٢١ ص ٣/١٣٤٥ والحديث في البخاري رقم : ١٦٣٠ .

ذو القرنين : نعم قال القاضي فهل يمطرون في بلادهم فعجب ذو القرنين من ذلك وقال بمثل هذا قامت السموات والأرض .

قصة أخرى

قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن أبي عدي ، عن شعبة ، عن قتادة عن أبي الصديق الناجي ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله فقال هل من توبة قال لا فقتله فجعل يسأل فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا فأدركه الموت فناء بصدره[1] نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوحى إلى هذه أن تباعدي وقال قيسوا ما بينهما فوجد إلى هذه أقرب بشبر فغفر له هكذا رواه ههنا مختصراً وقد رواه مسلم عن بندار به ومن حديث شعبة ومن وجه آخر عن قتادة به مطولاً[2].

• حديث آخر

قال البخاري : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ثم أقبل على الناس فقال بينما رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها فقالت إنا لم نخلق لهذا إنما خلقنا للحرث فقال الناس سبحان الله بقرة تكلم فقال فإني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم (قال) وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة فطلب حتى كأنه استنقذها منه فقال له الذئب هذا ! استنقذتها مني فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري فقال الناس سبحان الله ذئب يتكلم قال فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما »[3]. ثم (قال) وحدثنا علي قال حدثنا سفيان ، عن مسعر ، عن سعد بن إبراهيم ، عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بمثله . وقد أسنده البخاري في المزارعة عن علي بن المديني ومسلم عن محمد بن عباد كلاهما عن سفيان بن عيينة وأخرجاه من طريق شعبة كلاهما عن مسعر به . وقال الترمذي حسن صحيح وأخرج مسلم الطريق الأول من حديث سفيان بن عيينة وسفيان الثوري كلاهما عن أبي الزناد .

حديث آخر

قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم ، عن سعد ، عن أبيه ، عن

---

(١) نأى بصدره : أي نهض .

(٢) أخرجه مسلم في ٤٩ كتاب التوبة ٨ باب ح ٤٦/٤٧، ٢٧٦٦ وأخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ح ٥٤ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل أصحاب النبي (٥) وكتاب الأنبياء (٥٤) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ١٢ وأحمد في مسنده ج ٢/٢٤٥، ٥٠٢ .

أبي سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : إنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب »[1] لم يخرجه مسلم من هذا الوجه وقد روى عن إبراهيم بن سعد عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها .

حديث آخر

قال البخاري : حدثنا عبد الله بن مسلمة ، عن مالك ، عن ابن شهاب ، عن حميد بن عبد الرحمن [بن عوف] أنه سمع معاوية بن أبي سفيان عام حج على المنبر فتناول قُصة من شعر كانت في يدي حرسيٌ فقال يا أهل المدينة أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه ويقول : « إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم »[2] . وهكذا رواه مسلم وأبو داود من حديث مالك وكذا رواه معمر ويونس وسفيان بن عيينة عن الزهري بنحوه . وقال الترمذي حديث صحيح . وقال البخاري حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة قال سمعت سعيد بن المسيب قال قدم معاوية بن أبي سفيان المدينة آخر قدمة قدمها فخطبنا فأخرج من كمه كبسة[3] شعر وقال ما كنت أرى أحداً يفعل هذا غير اليهود إن النبي ﷺ : « سماه الزور » ـ يعني الوصال في الشعر ـ تابعه غندر عن شعبة والعجب أن مسلماً رواه من غير وجه عن غندر عن شعبة ومن حديث قتادة عن سعيد بن المسيب به[4] .

حديث آخر

قال البخاري ، حدثنا سعيد بن تليد ، حدثنا ابن وهب . قال : أخبرني جرير بن حازم ، عن أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فسقته فغفر لها به » . ورواه مسلم عن أبي الطاهر بن السرح عن ابن وهب به[5] .

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٦) والأنبياء (٥٤) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (٢٣) والترمذي في المناقب (١٧) وأحمد في مسنده ٦/٥٥ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٣٧ كتاب اللباس ١٢٢/٢١٢٧ ورواه عن معمر : وفي روايته : إنما عذب بنو اسرائيل . والحديث في صحيح البخاري رقم ١٦٢٧ .

(٣) كبة : هي شعر مكفوف بعضه على بعض .

(٤) صحيح مسلم ٣٧/١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٥) أخرجه مسلم في ٣٩ كتاب السلام ١٥٤/ ١٥٥/٢٢٤٥ . والبخاري في الأنبياء (٥٤).
ـ يطيف : أي يدور حولها .
ـ ركية : بئر .
ـ موقها : الموق هو الخف ، فارسي معرب ، والمعنى أنها نزعت له بموقها أي استقت .

حديث آخر

قال البخاري : حدثنا عبد الله بن أسماء ، حدثنا جويرية ، عن نافع ، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، فلا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » . وكذا رواه مسلم عن عبد الله بن محمد بن أسماء به[1] .

حديث آخر

قال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا المستمر بن الريان ، حدثنا أبو نضرة عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « كان في بني إسرائيل امرأة قصيرة فصنعت رجلين من خشب فكانت تمشي بين امرأتين قصيرتين[2] واتخذت خاتماً من ذهب وحشت تحت فصه أطيب الطيب والمسك فكانت إذا مرت بالمجلس حركته فنفح ريحه »[3] . رواه مسلم من حديث المستمر وخليد بن جعفر كلاهما عن أبي نضرة عن أبي سعيد مرفوعاً قريباً منه وقال الترمذي حديث صحيح .

حديث آخر

قال البخاري حدثنا آدم حدثنا شعبة عن منصور سمعت ربعي بن حراش يحدث عن ابن مسعود قال : قال النبي ﷺ : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى « إذا لم تستح فاصنع ما شئت »[4] تفرد به البخاري دون مسلم وقد رواه بعضهم عن ربعي بن حراش عن حذيفة مرفوعاً وموقوفاً أيضاً والله أعلم .

حديث آخر

قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القسم ، حدثنا عبد الحميد ـ يعني ابن بهرام ـ حدثنا شهر بن حوشب قال : قال أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل وامرأة له في السلف الخالي لا يقدران على شيء فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته [مسغبة]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٣٩/ كتاب السلام ٢٢٤٣/١٥٢ والبخاري في آذان ٩٠ وفي كتاب المساقاة (٩) والأنبياء ٥٤ ، وابن ماجه في الاقامة ١٥٢ وأحمد في مسنده ٢٥١/٤ .

(٢) عند مسلم : طويلتين .

(٣) مسند أحمد ج ٤٠/٣ ، ومسلم في صحيحه ٤٠ كتاب الألفاظ من الأدب (٥) باب استعمال المسك ١٨ ـ ٢٢٥٢/١٩ .

(٤) البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء ٥٤ والأدب ١٧٨ وأبو داود في كتاب الأدب (٦) وابن ماجه في الزهد (١٧) ومالك في الموطأ سفر ٤٦ وأحمد في مسنده ج ١٢١/٤ ، ١٢٢ ـ ٢٧٣/٥ .

شديدة ، فقال لامرأته : عندك شيء قالت : نعم أبشر أتاك رزق الله فاستحثها فقال : ويحك ابتغي إن كان عندك شيء قالت : نعم هنيئة نرجو رحمة الله حتى إذا طال عليه المطال قال : ويحك قومي فابتغي إن كان عندك شيء فائتيني به فإني قد بلغت الجهد وجهدت فقالت : نعم الآن ينضج التنور فلا تعجل ، فلما أن سكت عنها ساعة ، وتحينت أيضاً أن يقول لها قالت من عند نفسها لو قمت فنظرت إلى تنوري فقامت فوجدت تنورها ملآن من جنوب الغنم ورحاها تطحن فقامت إلى الرحى فنفضتها واستخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم قال أبو هريرة : فوالذي نفس أبي القاسم بيده عن قول محمد ﷺ : لو أخذت ما في رحييها ولم تنفضها لطحنت إلى يوم القيامة »[1] .

وقال أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن هشام ، عن محمد ، عن أبي هريرة قال : دخل رجل على أهله فلما رأى ملبهم من الحاجة خرج إلى البرية فلما رأت امرأته ما لقي قامت إلى الرحى فوضعتها وإلى التنور فسجرته ثم قالت : اللهم ارزقنا فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت قال وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً قال : فرجع الزوج قال : أصبتم بعد شيئاً قالت امرأته : نعم من ربنا فرفعتها إلى الرحى ثم قامت فذكر ذلك للنبي ﷺ قال : « أما أنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة » قال شهدت النبي ﷺ وهو يقول : « والله لأن يأتي أحدكم بحزمة حطب ثم يحمله فيبيعه فيستعفف منه خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله »[2] .

قصة الملكين التائبين

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا المسعودي ، عن سماك بن حرب ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ، عن أبيه قال : بينما رجل فيمن كان قبلكم كان في مملكته ففكر فعلم أن ذلك منقطع عنه وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه ، [فتسرب] فانساب ذات ليلة من قصره ، وأصبح في مملكة غيره ، وأتى ساحل البحر فكان به يضرب اللبن بالآجر ، فيأكل ويتصدق بالفضل ، ولم يزل كذلك حتى رقي أمره [وعبادته وفضله] إلى ملكهم فأرسل إليه فأبى أن يأتيه ، فركب إليه الملك ، فلما رآه ولى هارباً فركض في أثره فلم يدركه ، فناداه : يا عبد الله إنه ليس عليك مني بأس ، فقام حتى أدركه فقال له : من أنت رحمك الله ؟ فقال : أنا فلان ابن فلان صاحب مملكة كذا وكذا ففكرت في أمري فعلمت إنما أنا فيه منقطع ، وأنه قد شغلني عن عبادة ربي عزّ وجلّ ، فتركته وجئت ههنا أعبد ربي فقال له : ما أنت بأحوج لما صنعت مني قال : فنزل عن دابته فسيبها وتبعه فكانا جميعاً يعبدان الله عزّ وجلّ فدعوا الله أن يميتهما جميعاً فماتا» . قال عبد الله

---

(١) مسند أحمد ج ٢/٤٢١ .

المسغبة : الجوع مع التعب .

(٢) مسند أحمد ج ٢/٢٥٧ وفيه : والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب إلى الجبل فيحتطب ثم يأتي به يحمله على ظهره فيبيعه فيأكل خير له من أن يسأل الناس . . » .

فلو كنت برملية[1] مصر لأريتكم قبورهما بالنعت الذي نعت لنا رسول الله ﷺ .

حديث آخر

قال البخاري : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا أبو عوانة ، عن قتادة ، عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ : « إن رجلاً كان قبلكم رغسه الله مالاً فقال لبنيه لما حضر : أي أب كنت لكم ؟ قالوا : خير أب . قال : فإني لم أعمل خيراً قط فإذا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم اذروني في يوم عاصف ففعلوا . فجمعه الله عزَّ وجلَّ فقال : ما حملك ؟ فقال : مخافتك . فتلقاه برحمته »[2] . ورواه في مواضع أخر . ومسلم من طرق عن قتادة به . ثم رواه البخاري ومسلم من حديث ربعي بن حراش عن حذيفة عن النبي ﷺ بنحوه . ومن حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

حديث آخر

قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن ابن شهاب ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا . قال فلقي الله فتجاوز عنه »[3] . وقد رواه في مواضع أخر ومسلم من طريق الزهري به .

حديث آخر

قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثني ملك ، عن محمد بن المنكدر ، عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون ؟ قال أسامة قال رسول الله ﷺ : « الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل وعلى من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه »[4] . قال أبو النضر لا يخرجكم إلَّا فراراً منه . ورواه مسلم من حديث مالك ، ومن طرق أخر عن عامر بن سعد به : حدثنا

---

(١) مسند أحمد ج ٤٥١/١ ما بين معكوفين من المسند .
رملية في المسند رميلة ، ولم أجدها ، وورد في معجم البلدان رميلة : قال السمعاني رميلة من قرى بيت المقدس .

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد (٣٥) والأنبياء (٥٤) وكتاب الرقاق (٢٥) وأخرجه مسلم في كتاب التوبة ٢٥ و ٢٧ . والنسائي في الجنائز ١١٧ وابن ماجه في الزهد ٣٠ والدارمي في الرقاق ٩٢ والموطأ جنائز ٥٢ وأحمد في مسنده ٥/١، ٣٩٨، ٢٦٩/٢ ، ٣٠٤، ١٣/٣، ١٧، ١٩ - ١١٨/٤، ٤٤٧، ٣/٥، ٣٨٣، ٤٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء (٥٤) ومسلم في كتاب المساقاة (٣١) وأحمد في مسنده ج ٢٦٣/٢ ، ٣٣٢، ٣٣٩.

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء (٥٤) وكتاب القدر (١٥) والطب (٣١) ومسلم في السلام ، ٩٢، ٩٤، ٩٥ وأحمد في مسنده ج ١٨٢/١ ، ٣٥/٥، ٢١٣.

موسى بن اسماعيل ، حدثنا داود بن أبي الفرات ، حدثنا عبد الله بن بريدة ، عن يحيى بن يعمر عن عائشة قالت سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون أخبرني : « أنه عذاب يبعثه الله على من يشاء من عباده وأن الله جعله رحمة للمؤمنين ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لن يصيبه إلّا ما كتب الله له إلّا كان له مثل أجر شهيد » . تفرد به البخاري عن مسلم من هذا الوجه(١) .

حديث اخر

قال البخاري : حدثنا قتيبة ، حدثنا ليث ، عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه إلّا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ، فكلمه أسامة .. فقال : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب ثم قال : « إنما هلك الذين من قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »(٢) . وأخرجه بقية الجماعة من طرق عن الليث بن سعد به .

حديث اخر

وقال البخاري : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا عبد الملك بن ميسرة : سمعت النزال بن سبرة الهلالي ، عن ابن مسعود قال سمعت رجلًا قرأ ، وسمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها فجئت به إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فعرفت في وجهه الكراهية وقال : « كلاكما محسن ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا »(٣)تفرد به البخاري دون مسلم .

حديث اخر

قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا ابراهيم ، عن صالح ، عن ابن شهاب ، قال : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : إن أبا هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم »(٤). تفرد به دون مسلم وفي سنن أبي داود : « صلوا في

---

(١) البخاري في صحيحه كتاب الطب (٣١) وبرواية أخرى عند مسلم في كتاب الامارة (١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ١٨ ، الأنبياء ٥٤ حدود ١٢ ومسلم في حدود ٨ ، ٩ ـ وأبو داود في حدود ٤ والترمذي حدود ٦ والنسائي ـ سارق ٥ ، ٦ وابن ماجه حدود ٦ والدارمي حدود ٥ وأحمد في مسنده ٣/٢٨٦ ـ ٥/٩ ، ٦/٣٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في خصومات (١) والأنبياء (٥٤) وأحمد في مسنده : ١/٤٠٥ ، ٤١٢ ـ ٥/١٢٤ .

(٤) البخاري في الصحيح كتاب الأنبياء (٥٠) وأبو داود ترجل ١٨ والنسائي في الزينة ١٤ وأحمد في مسنده ٢/٢٤٠ ، ٢٦٠ ، ٣٠٩ ، ٤٠١ .

نعالكم خالفوا اليهود »(1) .

حديث اخر

قال البخاري : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن طاوس ، عن ابن عباس : سمعت عمر يقول : قاتل الله فلاناً ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها . فباعوها »(2) . رواه مسلم من حديث ابن عيينة . ومن حديث عمرو بن دينار به ثم قال البخاري تابعه جابر وأبو هريرة عن النبي ﷺ ولهذا الحديث طرق كثيرة وسيأتي في باب الحيل من كتاب الأحكام إن شاء الله وبه الثقة .

حديث اخر

قال البخاري : حدثنا عمران بن ميسرة ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا خالد عن أبي قلابة ، عن أنس بن مالك ، قال : ذكروا النار والناقوس ، فذكروا اليهود والنصاري : « فأمر بلال أن يشفع الأذان وأن يوتر الإقامة »(3) . وأخرجه بقية الجماعة من حديث أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي به . والمقصود من هذا مخالفة أهل الكتاب في جميع شعارهم فإن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة كان المسلمون يتحينون وقت الصلواة بغير دعوة إليها . ثم أمر من ينادي فيهم وقت الصلاة (الصلاة جامعة) ثم أرادوا أن يدعوا إليها بشيء يعرفه الناس فقال قائلون : نضرب بالناقوس وقال آخر : نوري ناراً ، فكرهوا ذلك لمشابهة أهل الكتاب فأري عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري في منامه الأذان فقصها على رسول الله ﷺ فأمر بلالاً فنادى كما هو مبسوط في موضعه من باب الأذان في كتاب الأحكام .

حديث اخر

قال البخاري : حدثنا بشر بن محمد ، أنبأنا عبد الله ، أنبأنا معمر ويونس عن الزهري ، أخبرني عبيد الله بن عبد الله : أن عائشة وابن عباس قالا : لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى

---

(1) سنن أبي داود: صلاة (88). ح 652 ص 1/176 وفيه قال ﷺ: «خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم » عن شداد بن أوس .

(2) صحيح البخاري : أنبياء (50) تفسير سورة رقم 6/6 . بيوع: 103، 112 . ومسلم في المساقاة : 72 . والنسائي في البيوع :93 . وأحمد في مسنده : 1/25، 2/213 ـ 3/324، 326 .

(3) صحيح البخاري الأذان : 1 ـ 23 أنبياء : (50) ومسلم في صحيحه كتاب الصلاة : 2 ـ 3 ـ 5 . وأبو داود في صلاة 29 ـ والترمذي في سننه كتاب الصلاة 27 والنسائي في سننه : اذان (2) وابن ماجه في سننه : أذان : 6 ـ والدارمي في سننه صلاة : 6 وأحمد في مسنده 3/102 ـ 1089 .

اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[1] يحذر ما صنعوا وهكذا رواه في غير موضع ومسلم من طرق عن الزهري به .

حديث اخر

قال البخاري : حدثنا سعيد بن أبي مريم ، حدثنا أبو غسان ، قال : حدثني زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه[2] ، فقلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال النبي ﷺ : « فمن ؟ » وهكذا رواه مسلم من حديث زيد بن أسلم به .

والمقصود من هذا الإخبار عما يقع من الأقوال والأفعال المنهى عنها شرعاً ، مما يشابه أهل الكتاب قبلنا أن الله ورسوله ينهيان عن مشابهتهم في أقوالهم وأفعالهم ، حتى ولو كان قصد المؤمن خيراً لكنه تشبّه ففعله في الظاهر فعلهم، وكما نهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لئلا تشابه المشركين الذين يسجدون للشمس حينئذٍ ، وإن كان المؤمن لا يخطر بباله شيء من ذلك بالكلية وهكذا قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ﴾ [البقرة: ١٠٤]. فكان الكفار يقولون للنبي ﷺ في كلامهم معه : راعنا أي انظر إلينا ببصرك ، واسمع كلامنا ، ويقصدون بقولهم راعنا من الرعونة فنهى المؤمنين أن يقولوا ذلك ، وإن كان لا يخطر ببال أحد منهم هذا أبداً . فقد روى الإمام أحمد والترمذي من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم فليس للمسلم أن يتشبه بهم لا في أعيادهم ولا مواسمهم ولا في عباداتهم »[3] . لأن الله تعالى شرف هذه الأمة بخاتم الأنبياء الذي شرع له الدين العظيم القويم الشامل الكامل الذي لو كان موسى بن عمران الذي أنزلت عليه التوراة وعيسى بن مريم الذي أنزل عليه الإنجيل حيين لم يكن لهما شرع متبع بل لو كانا موجودين بل وكل الأنبياء لما ساغ لواحد منهم أن يكون على غير هذه الشريعة المطهرة المشرفة المكرمة المعظمة فإذا كان الله تعالى قد منّ علينا بأن جعلنا من أتباع محمد ﷺ فكيف يليق بنا أن نتشبه بقوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل قد بدلوا دينهم وحرفوه وأولوه حتى صار كأنه غير ما شرع لهم أولاً . ثم هو

---

(١) صحيح البخاري : أنبياء (٥)؛ صلاة (٥٥) مغازي ٨٣. ومسلم في صحيحه : كتاب المساجد : ٢٢ والنسائي مساجد ١٣ والدارمي في سننه : صلاة (١٢٠) وأحمد في مسنده ٦/ ٢٢٩، ٢٧٥ .

(٢) صحيح البخاري : أنبياء (٥٠)، اعتصام (١٤) ومسلم في كتاب العلم/١٦؛ وابن ماجه في سننه في كتاب الفتن ١٧ وأحمد في مسنده ج ٢/ ٣٢٥.

(٣) مسند أحمد ج ٢/ ٥٠، ٦٢.

بعد ذلك كله منسوخ والتمسك بالمنسوخ حرام لا يقبل الله منه قليلاً ولا كثيراً ولا فرق بينه وبين الذي لم يشرع بالكلية والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

حديث اخر

قال البخاري : حدثنا قتيبة ، حدثنا الليث ، عن نافع ، عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « إنما أجلكم من أجل من خلا من قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال : من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ، ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى المغرب على قيراطين قيراطين ألا لكم الأجر مرتين، فغضب اليهود والنصارى فقالوا نحن أكثر عملاً وأقل عطاء قال الله تعالى : ﴿ هل ظلمتكم من حقكم شيئاً فقالوا : لاقال : فإنه فضلي أوتيه من أشاء ﴾[1] وهذا الحديث فيه دليل على أن مدة هذه الأمة قصيرة بالنسبة إلى ما مضى من مدد الأمم قبلها لقوله إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس ، فالماضي لا يعلمه إلاَّ الله ، كما أن الآتي لا يعلمه إلاَّ هو ، ولكنه قصير بالنسبة إلى ما سبق ولا اطلاع لأحد على تحديد ما بقي إلاَّ الله عزَّ وجلَّ كما قال الله تعالى: ﴿ لا يجليها لوقتها إلاَّ هو ﴾[الأعراف: ١٨٧]وقال: ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها ﴾ [النازعات: ٤١ - ٤٣] . وما تذكره بعض الناس من الحديث المشهور عند العامة من أنه : « عليه السلام لا يؤلف تحت الأرض » فليس له أصل في كتب الحديث وورد فيه حديث أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة وفي صحته نظر[2] . والمراد من هذا التشبيه بالعمال تفاوت أجورهم وأن ذلك ليس منوطاً بكثرة العمل وقلته ، بل بأمور أخر معتبرة عند الله تعالى ، وكم من عمل قليل أجدى ما لا يجديه العمل الكثير ، هذه ليلة القدر العمل فيها أفضل من عبادة ألف شهر سواها وهؤلاء أصحاب محمد ﷺ أنفقوا في أوقات لو أنفق غيرهم من الذهب مثل أُحد ما بلغ من أحدهم ولا نصيفه من تمر وهذا رسول الله ﷺ بعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره وقبضه وهو ابن ثلاث وستين على المشهور وقد برز في هذه المدة التي هي ثلاث وعشرون سنة في العلوم النافعة والأعمال الصالحة على سائر الأنبياء قبله حتى على نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ويعمل بطاعة

---

(١) صحيح البخاري : أنبياء (٥٠) فضائل القرآن (١٧)، والترمذي في كتاب الأدب ٩٢ وأحمد في مسنده ١١٢/٢، ١٢٤ .

(٢) قال الهروي في « الموضوعات الصغرى » ٣٧٩/ ٢٠٠ لا أصل له باطل .

الله ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساء ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، فهذه الأمة إنما شرفت وتضاعف ثوابها ببركة سيادة نبيها وشرفه وعظمته كما قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ [الحديد : ٢٨ ـ ٢٩] .

فصل

وأخبار بني إسرائيل كثيرة جداً في الكتاب والسنة النبوية ، ولو ذهبنا نتقصى ذلك لطال الكتاب ولكن ذكرنا ما ذكره الإمام أبو عبد الله البخاري في هذا الكتاب ففيه مقنع وكفاية وهو تذكرة وأنموذج لهذا الباب والله أعلم . وأما الأخبار الاسرائيلية فيما يذكره كثير من المفسرين والمؤرخين فكثيرة جداً ومنها ما هو صحيح موافق لما وقع ، وكثير منها بل أكثرها مما يذكره القصاص مكذوب مفترى وضعه زنادقتهم وضلالهم وهي ثلاثة أقسام : منها ما هو صحيح لموافقته ما قصه الله في كتابه أو أخبر به رسول الله ﷺ ومنها ما هو معلوم البطلان لمخالفته كتاب الله وسنة رسوله ، ومنها ما يحتمل الصدق والكذب فهذا الذي أمرنا بالتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه كما ثبت في الصحيح : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل إليكم »[1] . وتجوز روايته مع هذا الحديث المتقدم : « وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج »[2] .

تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم

أما اليهود فقد أنزل الله عليهم التوراة على يدي موسى بن عمران عليه السلام وكانت كما قال الله تعالى : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء ﴾ [الأنعام : ١٥٤] وقال تعالى : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ﴾ [الأنعام : ٩١] وقال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين ﴾ [الأنبياء : ٤٨] وقال تعالى : ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ [الصافات : ١١٧ ـ ١١٨] وقال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [المائدة : ٤٤] فكانوا يحكمون بها وهم متمسكون بها

---

(١) تقدم تخريجه فليراجع في مكانه .

(٢) تقدم تخريجه فليراجع في مكانه .

برهة من الزمان ، ثم شرعوا في تحريفها وتبديلها وتغييرها وتأويلها وإبداء ما ليس منها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ [آل عمران:٧٨] فأخبر تعالى أنهم يفسرونها ويتأولونها ويضعونها على غير مواضعها وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء وهو أنهم يتصرفون في معانيها ويحملونها على غير المراد، كما بدلوا حكم الرجم بالجلد ، والتحميم مع بقاء لفظ الرجم فيها ، وكما أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، مع أنهم مأمورون بإقامة الحد والقطع على الشريف والوضيع . فأما تبديل ألفاظها فقال قائلون : بأنها جميعها بدلت ، وقال آخرون : لم تبدل واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾ [المائدة:٤٣] وقوله : ﴿ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ﴾الآية [الأعراف:١٥٧] وبقوله : ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ [آل عمران:٩٣] وبقصة الرجم فإنهم كما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر وفي صحيح مسلم عن البراء بن عازب وجابر بن عبد الله وفي السنن عن أبي هريرة وغيره لما تحاكموا إلى رسول الله ﷺ في قصة اليهودي واليهودية اللذين زنيا فقال لهم : ما تجدون في التوراة[١] في شأن الرجم ؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون فأمرهم رسول الله ﷺ بإحضار التوراة فلما جاؤوا بها وجعلوا يقرأونها ويكتمون آية الرجم التي فيها ووضع عبد الله بن صور يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له رسول الله ﷺ : « ارفع يدك يا أعور ، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم ، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما وقال : « اللهم إني أول من أحيا أمرك إذأماتوه » ، وعند أبي داود : أنهم لما جاؤوا بها نزع الوسادة من تحته فوضعها تحتها وقال آمنت بك وبمن أنزلك ، وذكر بعضهم أنه قام لها ولم أقف على إسناده والله أعلم[٢] . وهذا كله يشكل على ما يقوله كثير من المتكلمين وغيرهم : أن التوراة انقطع تواترها في زمن بخت نصر ولم يبق من يحفظها إلا العزيز ، ثم العزير إن كان نبياً فهو معصوم والتواتر إلى المعصوم يكفي ، اللهم إلا أن يقال إنها لم تتواتر إليه لكن بعده زكريا ويحيى وعيسى وكلهم كانوا متمسكين بالتوراة فلو لم تكن صحيحة معمولاً بها لما اعتمدوا عليها وهم أنبياء

---

(١) ما تجدون في التوراة : قال العلماء : هذا السؤال ليس لتقليدهم ولا لمعرفة الحكم منهم ، وإنما هو لإلزامهم بما يعتقدونه في كتابهم .

(٢) الحديث أخرجوه من عدة طرق وبروايات مختلفة ، صحيح البخاري توحيد (٥١) جنائز (٦٠) مناقب ٢٦ تفسير آل عمران/٦ اعتصام ١٦ ومسلم في كتاب الحدود : ١٣ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨ والترمذي في سننه حدود (١٠) وابن ماجه في سننه حدود (١٠) وأبو داود في سننه حدود (٢٥) والدارمي في سننه : حدود (١٥) ومالك في الموطأ حدود (١) وأحمد في مسنده ج ٧/٢، ٦٢، ٦٣، ٧٦، ١٢٦، ٢٨٠ ـ ٢٥٥/٤، ٩١/٥، ٩٢، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ١٠٤، ١٠٨.

معصومون . ثم قد قال الله تعالى فيما أنزل على رسوله محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء منكراً على اليهود في قصدهم الفاسد إذ عدلوا عما يعتقدون صحته عندهم وأنهم مأمورون به حتماً إلى التحاكم إلى رسول الله ﷺ وهم يعاندون ما جاء به لكن لما كان في زعمهم ما قد يوافقهم على ما ابتدعوه من الجلد والتحميم[1] المصادم لما أمر الله به حتماً وقالوا : إن حكم لكم بالجلد والتحميم فاقبلوه وتكونون قد اعتذرتم بحكم نبي لكم عند الله يوم القيامة ، وإن لم يحكم لكم بهذا بل بالرجم فاحذروا أن تقبلوا منه ، فأنكر الله تعالى عليهم في هذا القصد الفاسد الذي إنما حملهم عليه الغرض الفاسد وموافقة الهوى لا الدين الحق فقال : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ الآية ، [المائدة : ٤٣ - ٤٤] ولهذا حكم بالرجم قال : اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، وسألهم ما حملهم على هذا ولم تركوا أمر الله الذي بأيديهم ؟ فقالوا : إنَّ الزنا قد كثر في أشرافنا ، ولم يمكنا أن نقيمه عليهم ، وكنا نرجم من زنى من ضعفائنا . فقلنا تعالوا إلى أمر نَصف نفعله مع الشريف والوضيع فاصطلحنا على الجلد والتحميم فهذا من جملة تحريفهم وتبديلهم وتغييرهم وتأويلهم الباطل وهذا إنما فعلوه في المعاني مع بقاء لفظ الرجم في كتابهم كما دل عليه الحديث المتفق عليه فلهذا قال من قال : هذا من الناس إنه لم يقع تبديلهم إلاَّ في المعاني وإن الألفاظ باقية وهي حجة عليهم إذ لو أقاموا ما في كتابهم جميعه لقادهم ذلك إلى اتباع الحق ومتابعة الرسول محمد ﷺ كما قال الله تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ [الأعراف : ١٥٧] الآية . . وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة ﴾ الآية [المائدة : ٦٦] وقال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ الآية [المائدة : ٦٨] وهذا المذهب وهو القول بأن التبديل إنما وقع في معانيها لا في ألفاظها حكاه البخاري عن ابن عباس في آخر كتابه الصحيح وقرر عليه ولم يرده . وحكاه العلامة فخر الدين الرازي في تفسيره عن أكثر المتكلمين .

ليس للجنب لمس التوراة

وذهب فقهاء الحنفية إلى أنه لا يجوز للجنب مس التوراة وهو محدث ، وحكاه الحناطي في فتاويه عن بعض أصحاب الشافعي وهو غريب جداً . وذهب آخرون من العلماء إلى التوسط في هذين القولين منهم شيخنا الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية رحمه الله فقال : أما من ذهب إلى

---

(١) التحميم : تسويد الوجوه بالحمم وهو الفحم .

أنها كلها مبدلة من أولها إلى آخرها ولم يبق منها حرف إلاّ بدلوه فهذا بعيد ، وكذا من قال لم يبدل شيء منها بالكلية بعيد أيضاً ، والحق أنه دخلها تبديل وتغيير وتصرفوا في بعض ألفاظها بالزيادة والنقص ، كما تصرفوا في معانيها وهذا معلوم عند التأمل ولبسطه موضع آخر والله أعلم . كما في قوله في قصة الذبيح : اذبح ابنك وحيدك وفي نسخة بكرك إسحاق . فلفظة إسحاق مقحمة مزيدة بلا مرية . لأن الوحيد وهو البكر إسماعيل لأنه ولد قبل إسحاق بأربع عشرة سنة فكيف يكون الوحيد البكر إسحاق . وإنما حملهم على ذلك حسد العرب أن يكون إسماعيل غير الذبيح ، فأرادوا أن يذهبوا بهذه الفضيلة لهم ، فزادوا ذلك في كتاب الله افتراء على الله وعلى رسول الله ﷺ وقد اغتر بهذه الزيادة خلق كثير من السلف والخلف ووافقوهم على أن الذبيح إسحاق والصحيح الذبيح إسماعيل كما قدمنا والله أعلم . وهكذا في توراة السامرة في العشر الكلمات زيادة الأمر بالتوجه إلى الطور في الصلاة وليس ذلك في سائر نسخ اليهود والنصارى .

وهكذا يوجد في الزبور المأثور عن داود عليه السلام مختلفاً كثيراً وفيه أشياء مزيدة ملحقة فيه وليست منه والله أعلم . قلت وأما ما بأيديهم من التوراة المعربة فلا يشك عاقل في تبديلها وتحريف كثير من ألفاظها وتغيير القصص والألفاظ والزيادات والنقص البين الواضح وفيها من الكذب البين والخطأ الفاحش شيء كثير جداً فأما ما يتلونه بلسانهم ويكتبونه بأقلامهم فلا إطلاع لنا عليه والمظنون بهم أنهم كذبة خونة يكثرون الفرية على الله ورسله وكتبه .

وأما النصارى فأناجيلهم الأربعة من طريق مرقس ولوقا ومتى ويوحنا أشد اختلافاً وأكثر زيادة ونقصاً وأفحش تفاوتاً من التوراة وقد خالفوا أحكام التوراة والإنجيل في غير ما شيء قد شرعوه لأنفسهم فمن ذلك صلاتهم إلى الشرق وليست منصوصاً عليها ولا مأموراً بها في شيء من الأناجيل الأربعة وهكذا تصويرهم كنائسهم وتركهم الختان ونقلهم صيامهم إلى زمن الربيع وزيادته إلى خمسين يوماً وأكلهم الخنزير ووضعهم الأمانة الكبيرة؛ وإنما هي الخيانة الحقيرة والرهبانية[1] وهي ترك التزويج لمن أراد التعبد وتحريمه عليه

---

(١) قال ﷺ : لا رهبانية في الإسلام . وقال ﷺ : إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وافطروا وقوموا وناموا ؛ فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر . . . وآتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم . . ﴾ ، في الآية وكلام النبي ﷺ نهى عن الرهبانية .

قال الرازي في تفسيره : الحكمة في نهي الله تعالى عن الرهبانية فيها وجوه :

ـ أن الرهبانية المفرطة والاحتراز التام عن الطيبات واللذات مما يوقع الضعف في الأعضاء الرئيسة التي هي القلب والدماغ ، فتختل الفكرة وتشوش العقل . وأن أكمل السعادات إنما هو معرفة الله تعالى . فإذا كانت الرهبانية الشديدة مما يوقع الخلل في ذلك بالطريق الذي بيناه لا جرم وقع النهي عنها .

وكتبهم القوانين التي وضعتها لهم الأساقفة الثلاثمائة والثمانية عشر[1] فكل هذه الأشياء ابتدعوها ووضعوها في أيام قسطنطين بن قسطن باني القسطنطينية وكان زمنه بعد المسيح بثلاثمائة سنة وكان أبوه أحد ملوك الروم وتزوج أمه هيلانة في بعض أسفاره للصيد من بلاد حران وكانت نصرانية على دين الرهابين المتقدمين فلما ولد لها منه قسطنطين المذكور تعلم الفلسفة وبهر فيها وصار فيه ميل بعض الشيء إلى النصرانية التي أمه عليها ، فعظم القائمين بها بعض الشيء وهو على اعتقاد الفلاسفة ، فلما مات أبوه واستقل هو في المملكة سار في رعيته سيرة عادلة فأحبه الناس ، وساد فيهم وغلب على ملك الشام بأسره مع الجزيرة ، وعظم شانه وكان أول القياصرة . ثم اتفق اختلاف في زمانه بين النصارى ومنازعة بين بترك الاسكندرية اكصندروس وبين رجل من علمائهم يقال له عبدالله بن أريوس فذهب اكصندروس إلى أن عيسى ابن الله تعالى الله عن قوله وذهب ابن أريوس إلى أن عيسى عبد الله ورسوله واتبعه على هذا طائفة من النصارى ، واتفق الأكثرون الأخسرون على قول بتركهم ومنع ابن أريوس من دخول الكنيسة هو وأصحابه فهذب يستعدي على اكصندروس وأصحابه ، إلى ملك قسطنطين فسأله الملك عن مقالته فعرض عليه عبد الله بن أريوس ما يقول في المسيح من أنه عبد الله ورسوله واحتج على ذلك فحال إليه وجنح إلى قوله فقال له قائلون فينبغي أن تبعث إلى خصمه فتسمع كلامه فأمر الملك باحضاره وطلب من سائر الأقاليم كل أسقف وكل من عنده في دين النصرانية وجمع البتاركة الأربعة من القدس وانطاكية ورومية والإسكندرية فيقال إنهم اجتمعوا في مدة سنة وشهرين ما يزيد على ألفي أسقف فجمعهم في مجلس واحد وهو المجمع الأول من مجامعهم الثلاثة المشهورة ، وهم مختلفون اختلافاً متبايناً منتشراً جداً . فمنهم الشرذمة على المقالة التي لا يوافقهم أحد من الباقين عليها فهؤلاء خمسون على مقالة . وهؤلاء ثمانون على مقالة أخرى . وهؤلاء عشرة على مقالة وأربعون على أخرى ومائة على مقالة ومائتان على مقالة وطائفة على مقالة ابن أريوس وجماعة على مقالة أخرى فلما تفاقم أمرهم وانتشر اختلافهم حار فيهم الملك قسطنطين مع أنه سيء الظن بما عدا دين الصابئين من أسلافه اليونانيين فعمد إلى أكثر جماعة منهم على مقالة من مقالاتهم فوجدهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً قد اجتمعوا على مقالة اكصندروس ولم يجد طائفة بلغت عدتهم فقال هؤلاء أولى بنصر قولهم لأنهم أكثر الفرق فاجتمع بهم خصوصاً ووضع سيفه وخاتمه إليهم وقال : إني رأيتكم أكثر الفرق قد اجتمعتم على مقالتكم هذه

= ـ إن اشتغال النفس بطلب اللذات ، إنما هو مسلم لكن في حق النفوس الضعيفة أما النفوس المستعلية الكاملة فإنها لا يكون استعمالها في الأعمال الحسية مانعاً لها من الاستكمال بالسعادات العقلية ؛ فالرهبانية الخالصة دليل على نوع من الضعف والقصور .

ـ إن من استوفى اللذات الحسية كان غرضه منها الاستعانة بها على استيفاء اللذات العقلية .

ـ الرهبانية التامة توجب خراب الدنيا وانقطاع الحرث والنسل . ١١/٧٠ ـ ٧١ .

(١) في المجمع السكوني الأول .

فأنا أنصرها وأذهب إليها فسجدوا له وطلب منهم أن يضعوا له كتاباً في الأحكام وأن تكون الصلاة إلى الشرق لأنها مطلع الكواكب النيرة وأن يصوروا في كنائسهم صوراً لها جثث فصالحوه على أن تكون في الحيطان فلما توافقوا على ذلك أخذ في نصرهم وإظهار كلمتهم وإقامة مقالتهم وإبعاد من خالفهم وتضعيف رأيه وقوله ، فظهر أصحابه بجاهه على مخالفيهم وانتصروا عليهم وأمر ببناء الكنائس على دينهم وهم الملكية نسبة إلى دين الملك فبني في أيام قسطنطين بالشام وغيرها في المدائن والقرى أزيد من اثنتي عشر ألف كنيسة ، واعتنى الملك ببناء بيت لحم يعني على مكان مولد المسيح وبنت أمه هيلانة قمامة بيت المقدس على مكان المصلوب الذي زعمت اليهود والنصارى بجهلهم وقلة علمهم أنه المسيح عليه الصلاة والسلام ، ويقال إنه قتل من أعداء أولئك وخدَّ لهم الأخاديد في الأرض ، وأجج فيها النار ، وأحرقهم بها كما ذكرناه في سورة البروج . وعظم دين النصرانية وظهر أمره جداً بسبب الملك قسطنطين وقد أفسده عليهم فساداً لا إصلاح له ولا نجاح معه ولا فلاح عنده وكثرت أعيادهم بسبب عظمائهم وكثرت كنائسهم[1] على أسماء عبادهم ، وتفاقم كفرهم ، وغلظت مصيبتهم ، وتخلد ضلالهم ، وعظم وبالهم ، ولم يهد الله قلوبهم ولا أصلح بالهم بل صرف قلوبهم عن الحق ، وأمال عن الاستقامة ثم اجتمعوا بعد ذلك مجمعين في قضية النسطورية واليعقوبية ، وكل فرقة من هؤلاء تكفر الأخرى وتعتقد تخليدهم في نار جهنم ، ولا يرى مجامعتهم في المعابد والكنائس وكلهم يقول بالأقانيم[2] الثلاثة أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة . ولكن بينهم اختلاف في الحلول والاتحاد فيما بين اللاهوت والناسوت هل تدرعه[3] أوحل فيه أو اتحد به ، واختلافهم في ذلك شديد وكفرهم بسببه غليظ ، وكلهم على الباطل إلاّ من قال من الأريوسية أصحاب عبد الله بن أريوس إن المسيح عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، كما يقول المسلمون فيه سواء ولكن لما استقر أمر الاريوسية على هذه المقالة تسلط عليهم الفرق الثلاثة بالإبعاد والطرد حتى قلوا فلا يعرف اليوم منهم أحد فيما يعلم . والله أعلم .

كتاب الجامع لأخبار الأنبياء المتقدمين

قال الله تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٣] وقال تعالى :

---

(١) قال براستد في العصور القديمة : وكان ارتقاء الفنون بين المسيحيين الأولين بطيئاً ، ولكن الحاجة إلى وجود أماكن للاجتماع أدت إلى نبوغ بنائين من الدرجة الأولى بين المسيحيين الأولى فبنوا في عهد قسطنطين أماكن للاجتماع مهيبة جداً على نمط الباسيليكا التجارية القوية . ص ٦٦٢ .

(٢) الأقانيم الثلاثة : قال الشهرستاني : يعنون بالأقانيم الصفات كالوجود والحياة والعلم وسموها : الأب والابن وروح القدس ، وإنما العلم تدرع وتجسد دون سائر الأقانيم .

(٣) تدرع : من فعل ادرع أي دخل ، يقال : ادرع الليل : دخل في ظلمته ، وكل ما أدخلته في جوف الشيء فقد أدرعته .

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق يعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً . رسلاً مبشرين منذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥] . وقد روى ابن حبان في صحيحه ، وابن مردويه في تفسيره وغيرهما من طريق إبراهيم بن هشام عن يحيى بن محمد الغساني الشامي ـ وقد تكلموا فيه ـ حدثني أبي ، عن جدي ، عن أبي إدريس ، عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ، كم الأنبياء ؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » . قلت : يا رسول الله كم الرسل منهم ؟ قال : « ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير » قلت : يا رسول الله من كان أولهم ؟ قال : « آدم » قلت يا رسول الله نبي مرسل ؟ قال : « نعم » خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً[١] . ثم قال يا أبا ذر أربعة سريانيون آدم وشيث ونوح وخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر وأول نبي من بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك »[٢] . وقد أورد هذا الحديث أبو الفرج بن الجوزي في الموضوعات . وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر فقال : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا معان بن رفاعة ، عن علي بن زيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : قلت يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً »[٣] . وهذا أيضاً من هذا الوجه ضعيف فيه ثلاثة من الضعفاء معان وشيخه وشيخ شيخه . وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا أحمد بن إسحاق ، أبو عبد الله الجوهري البصري ، حدثنا مكي بن إبراهيم ، حدثنا موسى بن عبيدة اليزيدي[٤] ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « بعث الله ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف إلى بني إسرائيل وأربعة آلاف إلى سائر الناس »[٥] موسى وشيخه ضعيفان أيضاً وقال أبو يعلى أيضاً : حدثنا أبو الربيع ، حدثنا محمد بن

---

(١) قبلاً : أي عياناً ومقابلة .

(٢) أخرج قسماً منه الهيثمي في زوائده ١/ ١٦٠ وقال : رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط بنحوه وعند النسائي طرف منه وفيه المسعودي وهو ثقة ولكنه اختلط.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٥٩ وفيه : أن أبا ذر سأل رسول الله ﷺ ، قال الهيثمي : ورواه أحمد والطبراني في الكبير . وفي ٨/ ٢١٠ عن أبي أمامة أن رجلاً قال يا رسول الله : . . . .

قال الهيثمي ورواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن خليد الحلبي وهو ثقة وأخرجه أحمد في مسنده ٥/ ٢٦٦ .

(٤) كذا في الأصل اليزيدي ، وهو تحريف والصواب الربذي والرجل معروف ومشهور وهو ضعيف جداً (قاله الهيثمي) .

(٥) رواه الهيثمي في زوائده ؛ وقال رواه أبو يعلى وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف جداً . ٨/ ٢١٠ .

ثابت العبدي ، حدثنا معبد بن خالد الأنصاري ، عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي ثم كان عيسى ثم كنت أنا »[1]. يزيد الرقاشي ضعيف . وقد رواه الحافظ أبو بكر الاسماعيلي عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا أحمد بن طارق ، حدثنا مسلم بن خالد ، حدثنا زياد بن سعد ، عن محمد بن المنكدر ، عن صفوان بن سليم ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت على أثر ثمانية آلاف نبي منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل »[2]. وهذا إسناد لا بأس به لكني لا أعرف حال أحمد بن طارق هذا . والله أعلم .

حديث اخر

قال عبد الله بن الإمام أحمد وجدت في كتاب أبي بخطه حدثني عبد المتعالي بن عبد الوهاب ، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي ، حدثنا مجالد ، عن أبي الوداك قال : قال أبو سعيد : هل تقر الخوارج بالدجال ؟ قال : قلت : لا . فقال : قال رسول الله ﷺ : « إني خاتم ألف نبي أو أكثر وما بعث الله نبياً يتبع إلاّ وحذر أمته منه وإني قد بيّن لي فيه ما لم يبين لأحد منهم وأنه أعور وأن ربكم ليس بأعور ، وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصص وعينه اليسرى كأنها كوكب دري ، معه من كل لسان ، ومعه صورة الجنة خضراء يجري فيها الماء وصورة النار سوداء تدخن »[3] وهذا حديث غريب . وقد روي عن جابر بن عبد الله ؛ فقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لخاتم ألف نبي أو أكثر وإنه ليس منهم نبي إلاّ وقد أنذر قومه الدجال ، وإنه قد تبين لي فيه ما لم يتبين لأحد منهم ، وإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور »[4]. وهذا إسناد حسن وهو محمول على ذكر عدد من أنذر قومه الدجال من الأنبياء لكن في الحديث الآخر : « ما من نبي إلاّ وقد أنذر أمته الدجال » . فالله أعلم .

وقال البخاري : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن فرات [يعني القزاز] قال : سمعت أبا حازم [يحدث] قال : قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته

---

(١) رواه الهيثمي في الزوائد ٢١١/٨ وقال : رواه أبو يعلى وفيه محمد بن ثابت العبدي وهو ضعيف .

(٢) رواه الهيثمي في زوائده ٢١٠/٨ وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه إبراهيم بن مهاجر بن مسمار وهو ضعيف ، ووثقه ابن معين ويزيد الرقاشي وثق على ضعفه .

(٣) مسند أحمد ج ٧٩/٣ ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٤٦/٨ وقال : رواه أحمد وفيه مجالد بن سعيد وثقه النسائي في رواية وقال في أخرى ليس بالقوي . وضعفه جماعة . وروى الهيثمي في مجمع الزوائد عن أبي سعيد : ٣٣٦/٧ : وفيه : ومعه مثل الجنة والنار فجنته عين ذات دخان وناره روضة خضراء ، وقال : قلت هو في الصحيح باختصار ، ورواه أبو يعلى والبزار وفيه الحجاج بن أرطاة وهو مدلس . وعطية ضعيف وقد وثق .

(٤) رواه الهيثمي في زوائده ٣٤٧/٨ وقال : رواه البزار وفيه مجالد بن سعيد وقد ضعفه الجمهور وفيه توثيق .

يحدث عن النبي ﷺ قال : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم[1] الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون . قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله قال : « فوا[2] بيعة الأول فالأول أعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم »[3] . وكذا رواه مسلم عن بندار ومن وجه آخر عن فرات به نحوه .

وقال البخاري : حدثنا عمرو بن حفص ، حدثنا أبي ، حدثني الأعمش ، حدثني شقيق قال : قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » رواه مسلم من حديث الأعمش به نحوه . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن زيد بن أسلم ، عن رجل عن أبي سعيد الخدري قال : وضع رجل يده اليمنى على النبي ﷺ فقال : والله ما أطيق أن أضع يدي عليك من شدة حمَّاك فقال النبي ﷺ : « إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر إن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالقمل حتى يقتله ، وإن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالفقر حتى يأخذ العَباء فيجوبها وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء »[4] هكذا رواه الإمام أحمد من طريق زيد بن أسلم ، عن رجل ، عن أبي سعيد وقد رواه ابن ماجة : عن دحيم عن ابن أبي فديك ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد فذكره . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن مصعب بن سعد ، عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء » . ثم الصالحون . ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عليه ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على [ظهر] الأرض وما عليه خطيئة »[5] . وورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث عاصم بن أبي النجود . وقال الترمذي حسن صحيح . وتقدم في الحديث : « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد وأمهاتنا شتى »[6] والمعنى أن شرائعهم وإن اختلفت في الفروع ، ونسخ بعضها بعضاً حتى انتهى الجميع إلى ما شرع الله لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين إلّا أن كل نبي بعثه الله فإنما دينه

---

(١) تسوسهم : أي يتولون أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية ؛ والسياسة ، القيام على الأمر بما يصلحه .

(٢) أي إذا بويع لخليفة بعد خليفة ، فبيعة الأول صحيحة يجب الوفاء بها ، وبيعة الثاني باطلة يحرم الوفاء بها .

(٣) أخرجه البخاري في ٦٠ كتاب الأنبياء (٥٠) بباب ما ذكر عن بني اسرائيل . ومسلم في ٣٣ كتاب الامارة باب (١٠) حديث ٤٤ ص ١٤٧١/٣ وابن ماجه في الجهاد . وأحمد في مسنده ٩٧/٢ . ما بين معقوفين في الحديث زيادة استدركت من دلائل النبوة للبيهقي ٣٣٨/٦ .

(٤) مسند أحمد ج ٩٤/٣ .

(٥) مسند أحمد ج ١٧٢/١ . وابن ماجه في الفتن ٢٣ .

(٦) تقدم تخريجه فليراجع .

الإسلام ، وهو التوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له كما قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ يوحى إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ الآية [النحل: ٣٦] . فأولاد العلات أن يكون الأب واحداً والأمهات متفرقات ، فالأب بمنزلة الدين وهو التوحيد والأمهات بمنزلة الشرائع في اختلاف أحكامها كما قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ [المائدة: ٤٨] وقال: ﴿لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ﴾ [الحج: ٦٧] وقال : ﴿ ولكل وجهة هو موليها ﴾ [البقرة: ١٤٨] على أحد القولين في تفسيرها .

والمقصود أن الشرائع وإن تنوعت في أوقاتها إلاّ أن الجميع آمرة بعبادة الله وحده ، لا شريك له وهو دين الإسلام الذي شرعه الله لجميع الأنبياء ، وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلاّ من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣١] وقال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا﴾ الآية [المائدة: ٤٤] . فدين الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو الإخلاص له وحده دون ما سواه ، والإحسان أن يكون على الوجه المشروع في ذلك الوقت المأمور به ، ولهذا لا يقبل الله من أحد عملاً بعد أن بعث محمداً ﷺ على ما شرعه له كما قال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى : ﴿ وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ [الأنعام: ١٩] وقال تعالى : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ [هود: ١٧]. وقال رسول الله ﷺ : « بعثت إلى الأحمر والأسود »(١) . قيل أراد العرب والعجم . وقيل الإنس والجن . وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم »(٢) والأحاديث في هذا كثيرة جداً . والمقصود أن أخوة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد ح ٣ وأحمد في مسنده ١/ ٢٥٠ ، ٣٠١ ، ٤/ ٤١٦ ، ٥/ ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٢ مطولاً . والدارمي في سننه ، كتاب السير (٢٨) عن جابر بن عبد الله ، والبخاري في (٨) كتاب الصلاة (٥٦) باب .

وأبو داود عن أبي ذر في كتاب الصلاة باب : في المواضع التي لا تجوز فيها الصلاة . ١/ ١٣٢ مختصراً .

(٢) أخرجه الدارمي في سننه مقدمة ٣٩ وأحمد في مسنده ج ٣/ ٤٧١ ، ٤/ ٢٦٦ عن عبد الله بن ثابت وفي آخره : « انكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين » .

العلات أن يكونوا من أب واحد وأمهاتهم شتى مأخوذ من شرب العلل بعد النهل . وأما أخوة الأخياف فعكس هذا أن تكون أمهم واحدة من آباء شتى . وأخوة الأعيان فهم الأشقاء من أب واحد وأم واحدة والله سبحانه وتعالى أعلم . وفي الحديث الآخر « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة »[1] وهذا من خصائص الأنبياء أنهم لا يورثون ، وما ذاك إلا لأن الدنيا أحقر عندهم من أن تكون مخلفة عنهم ، ولأن توكلهم على الله عزّ وجلّ في ذراريهم أعظم وأشد وآكد من أن يحتاجوا معه إلى أن يتركوا لورثتهم من بعدهم ما لا يستأثرون به عن الناس ، بل يكون جميع ما تركوه صدقة لفقراء الناس ، ومحاويجهم وذو خلتهم . وسنذكر جميع ما يختص بالأنبياء عليهم السلام مع خصائص نبينا ﷺ وعليهم أجمعين في أول كتاب النكاح من كتاب الأحكام الكبير حيث ذكره الأئمة من المصنفين اقتداء بالامام أبي عبد الله الشافعي رحمة الله عليه وعليهم أجمعين . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن عبد الرحمن ، أن[2] عبد رب الكعبة قال : انتهيت إلى عبد الله بن عمرو ، وهو جالس في ظل الكعبة فسمعته يقول : بينا نحن مع رسول الله ﷺ في سفر إذ نزل منزلاً فمنا من يضرب خباءه ، ومنا من هو في جشرة ، ومنا من ينتضل إذ نادى مناديه : الصلاة جامعةً قال فاجتمعنا قال فقام رسول الله ﷺ فخطبنا فقال : « إنه لم يكن نبي قبلي إلاّ دل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وحذرهم ما يعلمه شراً لهم ، وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها ، وإن آخرها سيصيبها بلاء شديد وأمور ينكرونها تجيء فتن يريق بعضها بعضاً ، تجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي . ثم تنكشف . ثم تجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه . ثم تنكشف فمن سره منكم أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه موتته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » . قال فأدخلت رأسي من بين الناس فقلت أنشدك بالله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال فأشار بيده إلى أذنيه وقال : سمعته أذناي ، ووعاه قلبي . قال : فقلت هذا ابن عمك - يعني معاوية - يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، وأن نقتل أنفسنا وقد قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [النساء : ٢٩] قال فجمع يديه فوضعهما على جبهته ثم نكس هنيهة . ثم رفع رأسه فقال أطعه في طاعة الله واعصه في معصية الله ورواه أحمد أيضاً عن وكيع عن الأعمش به وقال فيه أيها الناس إنه لم يكن نبي قبلي إلاّ كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيراً لهم وينذره ما يعلمه شراً لهم وذكر تمامه بنحوه . وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه من طرق عن الأعمش به ورواه مسلم أيضاً من حديث الشعبي عن

(١) تقدم تخريجه فليراجع في مكانه .

(٢) في نسخ البداية المطبوعة أن والصواب ابن من المسند .

عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ بنحوه[1] .

آخر الجزء الثامن من خط المصنف رحمه الله تعالى يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أخبار العرب وكان الفراغ من تتمة هذا المجلد في سابع عشر شوال سنة سهر ربيعه من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام بدمشق المحروسة على يد أفقر عباد الله وأحوجهم إلى رحمته وعفوه وغفرانه ولطفه وكرمه إسماعيل الدرعي الشافعي الأنصاري غفر الله تعالى له وختم له بخير ولأحبابه ولأخوانه ولمشايخه ولجميع المسلمين والصلاة والسلام على محمد خير خلقه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

ذكر أخبار العرب

قيل إن جميع العرب[2] ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام والتحية والإكرام . والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل إسماعيل وقد قدمنا أن العرب العاربة[3] منهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجرهم والعماليق وأمم آخرون لا يعلمهم إلاّ الله كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام وفي زمانه أيضاً . فأما العرب المستعربة[4] وهم عرب الحجاز فمن ذرية[5] اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . وأما عرب اليمن وهم حمير فالمشهور أنهم من قحطان واسمه مهزم قاله ابن ماكولا وذكروا أنهم كانوا أربعة أخوة قحطان[6] وقاحط ومقحط وفالغ وقحطان بن

---

(١) مسند أحمد ج ١٦١/٢ ، ١٩١ . وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الامارة ٤٦ والنسائي في سننه - بيعة ٢٥ . وابن ماجة في سننه : الفتن ٩ .

- جشرة : إخراج الدواب للرعي .

- النضل : الهزل والاعياء والتعب .

(٢) قال الجوهري في الصحاح : العرب جيل من الناس وهم أهل الأمصار والأعراب سكان البادية والنسبة إلى العرب عربي وإلى الأعراب اعرابي والذي عليه العرف العام إطلاق لفظة العرب مشتقة من الاعراب .

وقال ابن حزم في الجمهرة ص ٧: جميع العرب يرجعون إلى ولد ثلاثة رجال . وهم عدنان وقحطان وقضاعة .

وجاء في سبائك الذهب : ص ١٣: أعلم أن العرب كلها ترجع إلى أصلين : عدنان وقحطان .

(٣) قال في نهاية الأرب : ١٨ : فالعاربة هم العرب الأولى الذي فهمهم الله اللغة العربية ابتداءاً فتكلموا بها فقيل لهم عاربة أي بمعنى الراسخة في العروبية . وقد يقال فيهم العرب العرباء . وهم العرب البائدة الذين بادوا ودرست آثارهم .

(٤) المستعربة : قال في نهاية الأرب : المستعربة هم الداخلون في العروبية من بعد العجمة أخذاً من استفعل بمعنى الصيرورة .

(٥) قال ابن حزم في الجمهرة : عدنان من ولد اسماعيل بلا شك في ذلك . إلا أن تسمية الأسماء بينه وبينه قد جهلت جملة .

قال في سبائك الذهب : لا خلاف بينهم [النسابين] في أن عدنان من ولد اسماعيل .

(٦) قال ابن حزم : قحطان . فمختلف فيه من ولد من هو ؟ قالوا : من ولد اسماعيل - عليه السلام - وهذا باطل

هود . وقيل هو هود . وقيل هود أخوه وقيل من ذريته وقيل إن قحطان من سلالة اسماعيل حكاه ابن إسحاق وغيره فقال بعضهم هو قحطان بن [الهميسع] تيمن بن قيذر [بنت][1] بن إسماعيل . وقيل غير ذلك في نسبه إلى إسماعيل والله أعلم .

وقد ترجم البخاري في صحيحه على ذلك فقال[2] : (باب نسبة اليمن إلى اسماعيل عليه السلام) حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن يزيد بن أبي عبيد حدثنا سلمة رضي الله عنه قال خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون بالسيوف فقال ارموا بني اسماعيل وأنا مع بني فلان لأحد الفريقين فأمسكوا بأيديهم فقال مالكم قالوا وكيف نرمي وأنت مع بني فلان فقال ارموا وأنا معكم كلكم .

انفرد به البخاري وفي بعض ألفاظه : « ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ارموا وأنا مع ابن الأدرع » فأمسك القوم فقال ارموا وأنا معكم كلكم .

قال البخاري : وأسلم[3] بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة يعني وخزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ حين ارسل الله عليهم سيل العرم كما سيأتي بيانه وكانت الأوس والخزرج منهم وقد قال لهم عليه الصلاة والسلام ارموا بني إسماعيل فدل على أنهم من سلالته وتأوله آخرون على أن المراد بذلك جنس العرب لكنه تأويل بعيد إذ هو خلاف الظاهر بلا دليل .

لكن الجمهور على أن العرب القحطانية من عرب اليمن وغيرهم ليسوا من سلالة إسماعيل .

وعندهم أن جميع العرب ينقسمون إلى قسمين قحطانية وعدنانية فالقحطانية شعبان[4] سبأ

= بلا شك . وقيل من ولد هود ـ عليه السلام ـ وهذا باطل بيقين قوله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ . وقال صاحب تاريخ حماة : بني قحطان هم العاربة وأن العاربة هم بنو اسماعيل فقط . وقال في مروج الذهب إن قحطان من ولد عابر . . . بن سام . وهو أبو اليمن كلها وهو أول من تكلم بالعربية لإعرابه عن المعاني وإبانته عنها . وقال الطبري ج ١/١٠٤ قحطان أول من ملك اليمن .

(١) من سيرة ابن كثير ، وفي سيرة ابن هشام نابت . ما بين معكوفين .

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب بدء الخلق ج ٤/١٥٦ .

(٣) في البخاري : ومنهم أسلم .

(٤) قال السمعاني في الأنساب ص ٥ : والعرب على طبقات ست : شعب وقبيلة وعمارة وبطن وفخذ وفصيلة وما بينها من الآباء فإنما يعرفها أهلها .

وحكى أبو عبيد ، عن ابن الكلبي عن أبيه : تقديم الفصيلة مقام العمارة قال صاحب سبائك الذهب : ولا يخفى أن الترتيب الأول أولى .

وحضر موت [1]والعدنانية شعبان أيضاً ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان والشعب الخامس وهم قضاعة مختلف فيهم[2] فقيل إنهم عدنانيون قال ابن عبد البر وعليه الأكثرون ويروى هـذا عن ابن عباس وابن عمر وجبير بن مطعم وهو اختيار الزبير بن بكار وعمه مصعب الزبيرى وابن هشام وقد ورد في حديث قُضاعة بن معد ولكنه لا يصح قاله ابن عبد البر وغيره ويقال إنهم لن [3] يزالوا في جـاهليتهم وصدر من الإسلام ينتسبون إلى عدنان فلما كان في زمن خالـد بن يزيـد بن معاوية وكانوا أخواله انتسبوا إلى قحطان فقال في ذلك أعشى بن ثعلبة في قصيدة له :

أبلغ قضـاعـةَ في القِـرطـاس أنهم ... لـولا خـلائفُ آلِ الله مـا عُتقـوا
قـالت قضـاعــةُ إنـا من ذوي يمنٍ ... واللّهُ يعلم مـا برّوا ومـا[4] صَدقـوا
قـدِ ادّعـوا والـدأ مـا نـالَ أمُّهم ... قـد يعلمـون ولكنْ ذلـكَ الفَرَق

وقد ذكر أبـو عمرو السهيـلي أيضاً من شعـر العرب مـا فيه إيـداع في تفسير[5] قضـاعة في انتسابهم إلى اليمن والله أعلم .

والقول الثاني أنهم من قحطان وهو قول ابن إسحاق والكلبي وطائفة من أهل النسب . قال ابن إسحاق وهو قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقد قال بعض شعرائهم وهو عمرو بن مرة[6] صحابي له حديثان :

---

(١) وسبأ اسمه عبـد شمس وهو أول من سبى وأسر الأعـادي . وحضرموت وبنوه قبيلة من بني قحـطان . قال الجوهري : وحضرموت اسم بلد وقبيلة .

(٢) قال في سبائك الذهب: وهم قبيلة من حمير من القحطانيـة . وهذا هـو المشهور في قضـاعة وعليـه جرى الكلبي وابن اسحاق .

(٣) كذا في الأصل وفي سيرة ابن كثير : لن والصواب لم .

(٤) كذا في الأصل وما وفي سيرة ابن كثير ولا .

(٥) كذا في الأصل ، وفي سيرة ابن كثير تعيير ، و

(٦) عمرو بن مرة بن عبس بن مالك بن الحرث بن مازن بن سعـد بن مالـك بن رفاعـة بن نصر بن غطفـان بن قيس بن جهينة . قال ابن سعد : كان في عهد النبي ﷺ شيخاً كبيراً ، يكنى أبا طلحة ويقال أبا مريم وقيل أبا مرة .وهـو أول من ألحق قضاعة باليمن .

قال ابن حبان وأبو عمر مات في خلافة معاوية . وقال ابن سميع مات في خلافة عبد الملك بن مروان .

له في جامع الترمذي حديث واحد في كتاب الأحكام وهو عند أحمد وفيه قوله لمعاوية : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من إمام يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة إلا أغلق الله تعالى أبواب السماء دون حاجته ومسألته ومسكنته .

وله في مسند أحمد حديثان آخران أحدهما في ذم الحقوق .

وله عند الطبراني عدة أحاديث منها حديث في قصة إسلامه .

تقريب ابن حجر ج ٢/ ٧٩ الإصابة ٣/ ١٥ مسند أحمد : جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٥ .

يـا أيهـا الـداعي ادعُنـا وأبشرِ وكـن قـضـاعـيـاً ولا تُـنـزِّرِ
نحنُ بنو الشيخ الهجانِ الأزهر[1] قضـاعـة بـن مـالـكِ بن حِمير
النَّسَبُ المعـرُوف غـيرُ المـنكَـرِ في الحجـر المنقـوشِ تحتَ المنبـر

قال بعض أهل النسب هو قضاعة بن مالك بن عمر بن مرة بن زيد بن حمير وقال ابن لهيعة عن معروف بن سويدعن أبي عشابة[2] محمد بن موسى عن عقبة بن عامر قال قلت يا رسول الله أما نحن من معد قال لا قلت فمن نحن قال أنتم قضاعة بن مالك بن حمير قال أبو عمر بن عبد البر ولا يختلفون أن جهينة بن زيد بن أسود بن أسلم بن عمران بن إلحاف بن قضاعة قبيلة عقبة بن عامر الجهني فعلى هذا قضاعة في اليمن في حمير بن سبأ وقـد جمـع بعضهم بين هذين القولين بما ذكره الزبير بن بكاز وغيره من أن قضاعة امرأة من جرهم تزوجها مالك بن حمير فولدت له قُضـاعة ثم خلف عليها معد بن عدنان وابنها صغير وزعم بعضهم أنه كان حـلا فنسب إلى زوج أمه[3] كـما كانت عادة كثير منهم ينسبون الرجل إلى زوج أمه والله أعلم .

وقـال محمد بن سـلام البصري النسـابة : العـرب ثلاثـة جراثيم العـدنانيـة والقحـطانيـة وقضاعة . قيل له فأيهما اكثر العدنانية أو القحطانية فقال ماشاءت قضاعة أن تيامنت فالقحطانية أكثر وإن تعددت فالعدنانية أكثر وهذا يدل على أنهم يتلومون في نسبهم فإن صح حديث ابن لهيعة المقدم فهو دليل على أنهم من القحطانية والله أعلم . وقـد قال الله تعـالى : ﴿ يا أيها الناس إنَّـا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[4] .

قال علماء النسب يقال شعوب . ثم قبائل ثم عمائر . ثم بطون . ثم أفخاذ ، ثم فصائل . ثم عشائر[5] . والعشيرة أقرب الناس إلى الرجل وليس بعدها شيء . ولنبدأ أولاً بذكر القحطانية

---

(١) الهجان : الكريم العالي النسب . والأزهر : المشهور .

(٢) قوله أبي عشابة كذا بالأصـل بباء . وليس بـين الرجـال من تكنى بهذه الكنيـة والموجـود أبو عشـانة المعـافري المصري . واسمه حي بن يؤمن .

(٣) في أصول الأحساب : فجاءت بقُضاعة على فراش مالك بن مرة فنسبته العرب إلى زوج أمـه ، وقيل إن اسم الجرهمية قضاعة فلما جاءت بولدها سمته باسمها ، وقيل كان اسـمه عمراً . . وقيل كان اسمها عكبرة .
وقال الطبري في ذلك : ج ٢ / ١٩٠ : ونزار كان يكنى أبا إياد أمه مُعانة بنت جوشم بن جلهمة بن عمرو وأخوته لأمه وأبيه : . . . وعد منهم قضاعة ، وبه كان معد يكنى . وفي أنساب السمعاني ؛ ص ٦ قال رسول الله ﷺ : قضاعة من معد وكان به يكنى .

(٤) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٥) تقدم التعليق على طبقات الأنساب .
وقال النووي في تحرير التنبيه : وزاد بعضهم العشيرة قبل الفصيلة .
وقال الجوهري في الصحاح : وعشيرة الرجل هم رهطه الأدنون .

ثم نذكر بعدهم عرب الحجاز وهم العدنانية وما كان من أمر الجاهلية ليكون ذلك متصلاً بسيرة رسول الله ﷺ إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

وقد قال البخاري (باب ذكر قحطان) حدثنا عبد العزيز بن عبد الله [قال] حدثنا سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبي المغيث[1] عن أبي هريرة [رضي الله عنه] عن النبي ﷺ قال لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه وكذا رواه مسلم عن قتيبة عن الدراوردي عن ثور بن زيد به .

قال السهيلي وقحطان أول من قيل له أبيت اللعن وأول من قيل له أنعم صباحاً .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة عن جرير حدثني راشد بن سعد المقرائي عن أبي حي ، عن ذي فجر أن رسول الله ﷺ قال : « كان هذا الأمر في حمير فنزعه الله منهم فجعله في قريش (و س ي ع و د ا ل ى هـ م) قال عبد الله كان هذا في كتاب أبي وحيث حدثنا به تكلم به على الاستواء يعني : « وسيعود إليهم » .

قصة سبأ

قال الله تعالى : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلاّ الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾[2] .

قال علماء النسب منهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ عبد شمس[3] بن يشجب بن يعرب بن قحطان قالوا وكان أول من سبى من العرب فسمي سبأ لذلك . وكان يقال له الرائش لأنه كان يعطي الناس الأموال من متاعه . قال السهيلي : ويقال إنه أول من تتوج . وذكر بعضهم أنه كان مسلماً وكان له شعر بشر فيه بوجود رسول الله ﷺ فمن ذلك قوله :

سيملِكُ بعدَنا ملكاً عظيماً ... نبيٌّ لا يرخِّص في الحرام
ويملِك بعدَه منهم ملوكٌ ... يدينون العبادَ بغيرِ ذام

---

(١) في البخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر قحطان : أبي الغيث ، وكذلك في سيرة ابن كثير .
(٢) سورة سبأ الآيات من ١٥ ـ ١٩ .
(٣) في جمهرة أنساب العرب : اسم سبأ عامر .

ويملك بعدهم منا ملوكٌ يصير الملكُ فينا باقتسام
ويملك بعدَ قحطانٍ نبيّ تقيّ جَبينُه خيرُ الأنام[1]
يُسمى أحمداً يا ليتَ أني أعمّر بعدَ مبعثِه بعام
فأعضدُه وأحبُوه بنصري بكلّ مدجّج وبكلّ رام
متى يظهرْ فكونوا ناصِريه ومَنْ يلقاهُ يُبْلغه سلامي

حكاه ابن دحية في كتابه التنوير في مولد البشير النذير .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن دعلة[2] سمعت عبد الله بن العباس يقول إن رجلاً سأل النبي ﷺ عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض قال : « بل هو رجل ولد عشرة فسكن اليمن منهم ستة وبالشام منهم أربعة . فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير [وعرباً كلها] . وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان .

وقد ذكرنا في التفسير أن فروة بن مسيك الغطيفي[3] هو السائل عن ذلك كما استقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه هناك ولله الحمد .

والمقصود أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها وقد كان فيهم التبابعة بأرض اليمن واحدهم تُبّع وكان لملوكهم تيجان يلبسونها وقت الحكم كما كانت الأكاسرة ملوك الفرس يفعلون ذلك وكانت العرب تسمي كل من ملك اليمن مع الشحر وحضرموت تُبّعاً ، كما يسمون من ملك الشام مع الجزيرة قيصر ، ومن ملك الفرس كسرى ، ومن ملك مصر فرعون ، ومن ملك الحبشة النجاشي ، ومن ملك الهند بطليموس ، وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس . وقد قدمنا قصتها مع سليمان عليه السلام وقد كانوا في غبطة عظيمة وأرزاق دارة وثمار وزروع كثيرة وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد فلما بدلوا نعمة الله كفراً أحلوا قومهم دار البوار .

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبياً وزعم السدي أنه

---

(١) كذا في الأصل ، وفي تفسير ابن كثير : مخبت .

(٢) في المسند ٣١٦/١ : ثنا أبو عبد الرحمن ثنا عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمي ، عن عبد الله بن هبيرة السبائي عن عبد الرحمن بن وعلة قال :

(٣) في أنساب السمعاني : السائل فروة بن مسيك المرادي . وفيه الذين تيامنوا : فالأسد وكندة وحمير والأشعريون ومذحج ، فقال رجل يا رسول الله ما أنمار قال : هم الذين منهم بجيلة وخثعم .

وفي إسناد آخر ذكر : هوازن وعك وسقط اسم مذحج . ويذهب جواد علي في أن سبأ هو اسم لشعب وليس لرجل وأن هذا الشعب كان يحكم ناحية صغيرة من اليمن ثم اتسع شيئاً فشيئاً .

أرسل إليهم اثني عشر ألف نبي فالله أعلم . والمقصود أنهم لما عدلوا عن الهدى[1] إلى الضلال وسجدوا للشمس من دون الله وكان ذلك في زمان بلقيس وقبلها أيضاً واستمر ذلك فيهم حتى أرسل الله عليهم سيل العرم[2] كما قال تعالى : ﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدرٍ قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلاّ الكفور ﴾[3] .

ذكر غير واحد من علماء السلف والخلف من المفسرين وغيرهم أن سد مأرب كان صنعته[4] أن المياه تجري من بين جبلين فعمدوا في قديم الزمان فسدّوا ما بينهما ببناء محكم جداً حتى ارتفع الماء فحكم على أعالي الجبلين وغرسوا فيهما البساتين والأشجار المثمرة الأنيقة ، وزرعوا الزروع الكثيرة ، ويقال كان أول من بناه سبأ بن يعرب[5] وسلط إليه سبعين وادياً يفد إليه وجعل له ثلاثين فرضة يخرج منها الماء ومات ولم يكمل بناؤه فكملته حمير بعده وكان اتساعه فرسخاً في فرسخ[6] وكانوا في غبطة عظيمة وعيش رغيد وأيام طيبة حتى ذكر قتادة وغيره أن المرأة كانت تمر بالمكتل على رأسها فتمتلىء من الثمار ما يتساقط فيه من نضجه وكثرته وذكروا أنه لم يكن في بلادهم شيء من البراغيث ولا الدواب المؤذية لصحة هوائهم وطيب فنائهم كما قال تعالى : ﴿ لقد كان لسبأ في سكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾ [سبأ : ١٥] وكما قال تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ [إبراهيم : ٣] فلما عبدوا غير الله وبطروا نعمته وسألوا بعد تقارب ما بين قراهم وطيب ما بينها من البساتين وأمن الطرقات سألوا أن يباعد بين أسفارهم وأن يكون سفرهم في مشاق وتعب وطلبوا أن يبدلوا بالخير شراً كما سأل بنو إسرائيل بدل المن والسلوى البقول والقثاء والفوم والعدس والبصل فسلبوا تلك النعمة العظيمة والحسنة العميمة بتخريب البلاد والشنات على وجوه العباد كما

---

(١) قال القرطبي في الجامع : ١٤/ ٢٨٥ : بعد أن اعرضوا عن أمره واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين .

(٢) العَرِم : قال ابن عباس : العرم : السد وقال عطاء : العرم اسم الوادي .
وقال الزجاج : العرم اسم الجرذ الذي نقب السُكر عليهم ـ فنسب السيل إليه .
وقال ابن الأعرابي : العرم من أسماء الفار .

(٣) سورة سبأ الآية ١٦ .

(٤) قال جواد علي في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٢/ ١٠٠ ـ ٢١٢ : أن المكربون (لقب أصحاب سبأ) هم الذين بدأوا إقامة السدود ، وقد بدأت السدود عمليات هندسية صغيرة غرضها احتجاز مياه الأمطار الموسمية وقد أقيمت مجموعة من السدود . إلى عهد المكرب يثع أمر بين فأقام هو وابنه سلسلة من السدود أكملت سد مأرب . وعثر ميلر في أنقاضه على كتابات تعود إلى أن بناءه كان في القرن الثامن قبل الميلاد .

(٥) تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٧٤ : العرم وهو سد أصم طوله من الشرق إلى الغرب نحو ثمانمائة ذراع وعلوه بضعة عشر ذراعاً وعرضه ١٥٠ ذراعاً .

قال تعالى : ﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ .

قال غير واحد أرسل الله على أصل السد الفار وهو الجرذ ويقال الخلد فلما فطنوا لذلك أرصدوا عندها السنانير[1] فلم تغن شيئاً إذ قد حم القدر ولم ينفع الحذر كلا لا وزر فلما تحكم في أصله الفساد سقط وانهار فسلك الماء القرار فقطعت تلك الجداول والأنهار وانقطعت تلك الثمار ومادت تلك الزروع والأشجار وتبدلوا بعدها برديء الأشجار والأثمار كما قال العزيز الجبار : ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد هو الأراك وثمره البرير وأثل وهو الطرفاء[2] . وقيل يشبهه . وهو حطب لا ثمر له ﴿ وشيء من سدر قليل ﴾ وذلك لأنه لما كان يثمر النبق كان قليلاً مع أنه ذو شوك كثير وثمره بالنسبة إليه كما يقال في المثل لحم جمل غُث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلاّ الكفور ﴾ أي إنما نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا ، وكذّب رسلنا ، وخالف أمرنا ، وانتهك محارمنا . وقال تعالى : ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ وذلك أنهم لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم احتاجوا أن يرتحلوا منها وينتقلوا عنها فتفرقوا في غور البلاد ونجدها أيدى سبأ شَذَرَ مَذَرَ[3] فنزلت طوائف منهم الحجاز ومنهم خزاعة نزلوا ظاهر مكة وكان من أمرهم ما سنذكره ومنهم المدينة المنورة اليوم فكانوا أول من سكنها ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير فحالفوا الأوس والخزرج وأقاموا عندهم وكان من أمرهم ما سنذكره ونزلت طائفة أخرى منهم الشام وهم الذين تنصروا فيما بعد وهم غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم وسنذكرهم عند ذكر فتوح الشام في زمن الشيخين رضي الله عنهما .

قال محمد بن إسحاق حدثني أبو عبيدة قال : قال الأعشى بن قيس بن ثعلبة وهو ميمون بن قيس :

وفي ذَاكَ لِلمُؤْتَسي أسوةٌ ومأرمُ عفّى عليها العَرِمْ[4]

---

(١) قال القرطبي في أحكامه : قال وهب : كانوا يزعمون أنهم يجدون في عملهم وكهانتهم أنه يخرب سدهم فأرة فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا إلى جانبها هرّة .

(٢) قال أبو عبيدة : الخمط : هو كل شجرة ذي شوك فيه مرارة . وقال الزجاج: الخمط كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله .

والأثل : واحدته أثلة وجمعه أثلات . وقال الحسن : الأثل الخشب وقال أبو عبيدة : الأثل : هو شجر النضار .

(٣) مثل كانت العرب تضربه في سبأ فتقول : تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ .

(٤) كذا في الأصل مأرم والصواب من ابن هشام : مأرب .

رُخـام بَـنَـتْـه لهـم حِمْـيـر إذا جـاءَ مَـوّارهُ لم يَـرمْ[1]
فـأروى الـزَّرع وأعـنـابهـا عـلى سعةٍ مـاؤهم إذ قسِمْ[2]
فـصـاروا أيـاديَ لا يـقـدرو ن على شُربِ طفلٍ إذا ما فُطِمْ[3]

وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أن أول من خرج من اليمن قبل سيل العرم عمرو بن عامر اللخمي ولخم هو ابن عدي بن الحارث بن مرة بن أزد[4]بن زيد بن مهع[5]بن عمرو بن عريب بن يشجب بن زيد بن كهلان بن سبأ . ويقال لخم بن عدي بن عمرو بن سبأ قاله ابن هشام . قال ابن إسحاق وكان سبب خروجه من اليمن فيما حدثني أبو زيد الأنصاري أنه رأى جرذاً يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم ، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك ، فاعتزم على النقلة عن اليمن فكاد قومه فأمر أصغر ولده إذا أغلظ عليه ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي . وعرض أمواله . فقال أشراف من أشراف اليمن : اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله وانتقل في ولده وولد ولده . وقالت الأزد لا نتخلف عن عمرو بن عامر ، فباعوا أموالهم وخرجوا معه ، فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان ، فحاربتهم عك ، فكانت حربهم سجالاً ، ففي ذلك قال عباس بن مرداس :

وعكّ بن عدنانَ الّذين تلعّبوا[6] بغسّانَ حتى طُرِدوا كلَّ مَطرِدِ

قال فارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلاد فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ونزل الأوس

---

(١) مواره : بضم الميم وفتحها : تلاطم مائه وتموجه .

(٢) كذا في الأصل الزرع : وفي سيرة ابن كثير وابن هشام : الزروع وهو الصواب . وفي كتاب الإكليل للهمداني :
فأروى الحروث وأعنابها على ساعة ماؤهم ينقسم .

(٣) في ابن هشام : ما يقدرون .

(٤) في ابن هشام أدد وهو الصواب .

(٥) في ابن هشام : هميسع وهو الصواب . وفي جمهرة أنساب العرب ص ٤٨٥ : ابن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ . وزاد ولخم هو مالك .

(٦) في أصول الأحساب : تلقبوا .

قال ابن هشام ؛ وغسان ماء بسد مأرب في اليمن ويقال غسان : ماء بالمشلل جبل وراء عزور : واد قريب من المدينة . قريب من الجحفة . وهي قرية على طريق المدينة في مكة .

وقال صاحب فهرست المعجم الجغرافي : رحل آل جفنة من اليمن ، إلى الشام ونزلوا بماء يقال له غسان فسموا به وأقاموا ببادية الشام . .

ولقد لاحظنا الرأيين هنا لما بينهما من خلاف .

والخزرج يثرب ونزلت خزاعة مراً[1] ونزلت أزد السراة السراة[2] ونزلت أزد عمان عمان ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه وفي ذلك أنزل الله هذه الآيات[3] وقد روي عن السدي قريب من هذا .

وعن محمد بن إسحاق في روايته أن عمرو بن عامر كان كاهناً وقال غيره كانت امرأته طريفة بنت الخير الحميرية كاهنة فأخبرت بقرب هلاك بلادهم وكأنهم رأوا شاهد ذلك في الفأر الذي سلط على سدهم ففعلوا ما فعلوا والله أعلم . وقد ذكرت قصته مطولة عن عكرمة فيما رواه ابن أبي حاتم في التفسير .

فصل

وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن لما أصيبوا بسيل العرم بل أقام أكثرهم بها وذهب أهل مأرب الذين كان لهم السد فتفرقوا في البلاد وهو مقتضى الحديث المتقدم عن ابن عباس أن جميع قبائل سبأ لم يخرجوا من اليمن بل إنما تشاءم منهم أربعة وبقي باليمن ستة وهم مذحج وكندة وأنمار والأشعريون وأنمار هو أبو خثعم وبجيلة وحمير فهؤلاء ست قبائل من سبأ أقاموا باليمن واستمر فيهم الملك والتبايعة حتى سلبهم ذلك ملك الحبشة بالجيش الذي بعثه صحبة أميريه أبرهة وأرياط نحواً من سبعين سنة ثم استرجعه سيف بن ذي يزن الحميري . وكان ذلك قبل مولد رسول الله ﷺ بقليل كما سنذكره مفصلاً قريباً إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان .

ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن علياً وخالد بن الوليد ثم أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل وكانوا يدعون إلى الله تعالى ويبينون لهم الحجج ثم تغلب على اليمن الأسود العنسي وأخرج نواب رسول الله ﷺ منها فلما قتل الأسود استقرت اليد الاسلامية عليها في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه كما سنبين ذلك بعد البعثة إن شاء الله تعالى .

قصة ربيعة بن نصر بن أبي حارثة بن عمرو بن عامر

المتقدم ذكره اللخمي كذا ذكره ابن إسحاق وقال السهيلي : ونساب اليمن تقول نصر بن ربيعة[4] بن نصر بن الحارث بن نمارة بن لخم وقال الزبير بن بكار ربيعة بن نصر بن مالك بن

---

(١) مرٌ وهو الذي يقال له مر الظهران ، وهو على مرحلة من مكة .

(٢) السراة : جبل مشرف على عرفة ينقاد إلى صنعاء وإنما سمي بذلك لعلوه ويقال له سراة :

(٣) قال الله تعالى : ﴿ لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ .

(٤) في السهيلي : وبعضهم يقول فيه : نصر بن ربيعة وهو في قول نساب اليمن ربيعة بن نصر .

شعوذ بن مالك بن عجم بن عمرو بن نمارة بن لخم ولخم أخو جذام وسمي لخماً لأنه لخم أخاه أي لطمه فعضّه الآخر في يده فجذمها فسمي جذاماً .

وكان ربيعة أحد ملوك حمير التبابعة وخبره مع شق وسطيح الكاهنين وإنذارهما بوجود رسول الله ﷺ .

أما سطيح فاسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن غسان .

وأما شق فهو ابن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن قيس[1] بن عبقر بن أنمار بن نزار ومنهم من يقول أنمار بن أراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نابت[2] بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ويقال إن سطيحاً كان لا أعضاء له وإنما كان مثل السطيحة ووجهه في صدره وكان إذا غضب انتفخ وجلس وكان شق نصف إنسان ويقال إن خالد بن عبد الله بن القسري كان سلالته وذكر السهيلي أنهما ولدا في يوم واحد وكان ذلك يوم ماتت طريفة بنت الخير الحميرية ويقال إنها تفلت في فم كل منهما فورث الكهانة عنها وهي امرأة عمرو بن عامر المتقدم ذكره والله أعلم .

قال محمد بن إسحاق وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة فرأى رؤيا هائلة هالته وفظع[3] بها فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً ولا منجماً من أهل مملكته إلاّ جمعه إليه فقال لهم إني قد رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها فأخبروني بها وبتأويلها . فقالوا[4] اقصصها علينا نخبرك بتأويلها . فقال : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم بتأويلها[5] لأنه لا يعرف تأويلها إلاّ من عرفها قبل أن أخبره بها . فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى شق وسطيح ، فإنه ليس أحد أعلم منهما ، فهما يخبرانه بما سأل عنه .

فبعث إليهما فقدم إليه سطيح قبل شق فقال له : إني قد رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها فأخبرني بها فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها فقال أفعل . رأيت حُمَمَة[6] خرجت من ظلمة .

= وفي جمهرة ابن حزم : نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن مسعود بن مالك بن عمم بن نمارة بن لخم . ولخم هو مالك بن عدي .

(١) في ابن هشام : مَسْ . وفي الطبري : ابن نذير بن قيس .

(٢) في ابن هشام وفي الاشتقاق لابن دريد : نبت .

(٣) فظع بها : اشتدت عليه ، يقال فظع به الأمر : اشتد عليه .

(٤) في ابن هشام : قالوا له :

(٥) في ابن هشام : عن تأويلها . وفي الطبري بتأويلها .

(٦) حممة : فحمة ، وأراد هنا فحمة فيها نار . وفي المسعودي جمرة خرجت ظلمة .

فوقعت بأرض تهمة[1] . فأكلت منها كل ذات جمجمة . فقال له الملك ما اخطأت منها شيئاً يا سطيح فما عندك في تأويلها ، قال : أحلف بما بين الحرتين من حنش لتهبطن أرضكم الحبش [2] . فليملكن ما بين أبين إلى جُرَش [3] فقال له الملك : يا سطيح إن هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن أفي زماني أم بعده . فقال : لا وأبيك بل بعده بحين . أكثر من ستين أو سبعين . يمضين من السنين قال أفيدوم ذلك من سلطانهم [4] أم ينقطع قال بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ثم يقتلون [5] ويخرجون منها هاربين قال ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم قال يليهم أرم [بن] ذي يزن يخرج عليهم من عدن . فلا يترك منهم أحداً باليمن . قال أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع قال بل ينقطع قال : ومن يقطعه ، قال : نبي زكي . يأتيه الوحي من قبل العلي قال وممن هذا النبي ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر . يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر . قال وهل للدهر من آخر قال نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون . يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون .

قال أحق ما تخبرني قال نعم . والشفق والغسق والفلق إذا اتسق إن ما أنبأتك به لحق .

قال ثم قدم عليه شق فقال له كقوله لسطيح وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان قال نعم رأيت حممة خرجت من ظلمة . فوقعت بين روضة وأكمة . فأكلت منها كل ذات نسمة . [قال][6]: فلما قال له ذلك عرف أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد إلاّ أن سطيحاً قال وقعت بأرض تهمة فأكلت منها كل ذات جمجمة . وقال شق وقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة فقال له الملك ما أخطأت يا شق منها شيئاً فما عندك في تأويلها فقال أحلف بما بين الحرتين من انسان . لينزلن أرضكم السودان فليغلبن على كل طفلة[7] البنان وليملكن ما بين أبين إلى نجران فقال له الملك وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن أفي زماني . أم بعده قال لا بل بعده بزمان . ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان . ويذيقهم أشد الهوان . قال ومن هذا العظيم

(١) تهمة : الأرض المنخفضة المتصوبة نحو البحر ومنها سميت تهامة .

(٢) الحبش : يقال إنهم بنو حبش بن كومش بن حام بن نوح وبه سميت الحبشة .

(٣) أبين : بفتح أوله ويكسر ، مخلاف باليمن منه عدن . وفي معجم البلدان : أبين : موضع في جبل عدن .
جرش : بضم أوله وفتح ثانيه : من مخاليف اليمن من جهة مكة . وفتحت جرش في زمن النبي ﷺ سنة ١٠ هـ .

(٤) في الطبري وابن هشام : ملكهم بدل سلطانهم .

(٥) في الطبري : يقتلون بها أجمعون .

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من ابن هشام .

(٧) طفلة : الناعمة الرخصة .

الشان ؟ قال غـلام لبسر. بدني ولا مدن[1] يخرج عليهم من بيت ذي يزن [فلا يترك منهم أحداً باليمن] . قال أفيدوم سلطانه أم ينقطع قال بل ينقطع برسول مرسل يأتي بالحق والعدل من أهل الدين والفضل يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل قال : وما يوم الفصل ؟ قال يـوم يجزى فيـه الولات يدعى فيه من السماء بدعوات تسمع منها الأحيـاء والأموات ويجمـع الناس فيـه للميتات يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات . قال أحق ما تقول قال إي ورب السماء والأرض . وما بينهما من رفع وخفض . إن ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض[2] .

قال ابن إسحاق فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قالا فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خرزاذ فأسكنهم الحيرة قال ابن إسحاق فمن بقية ولد ربيعة بن نصر النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمـرو بن عدي بن ربيعـة بن نصر يعني الذي كان نائباً على الحيرة لملوك الأكاسرة وكانت العرب تفد إليه وتمتدحه وهـذا الذي قـاله محمد بن إسحاق من أن النعمان بن المنذر من سلالة ربيعة بن نصر قاله أكثر الناس . وقد روى ابن إسحاق أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما جيء بسيف النعمان بن المنذر سأل جبير بن مطعم عنه ممن كان ؟ فقال : من أشلاء قنص بن معد بن عدنان قال ابن إسحاق فالله أعلم أي ذلك كان .

قصة تبع أبي كرب مع أهل المدينة
(وكيف أراد غزوة البيت الحرام ثم شرفه وعظمه وكساه الحلل فكان أول من كساه)

قال ابن إسحاق فلما هلك ربيعة بن نصر رجع ملك اليمن كله إلى حسان بن تبان أسعد أبي كرب وتبان أسعد تبع الآخر ابن كلكيكرب[3] بن زيد وزيد تبع الأول بن عمرو ذي الأذعار[4] بن أبرهة ذي المنار بن الرائش بن عدي[5] بن صيفي بن سبأ الأصغر بن كعب كهف الظلم بن زيد بن سهـل بن عمرو بن قس[6] بن معـاوية بن جشم بن عبـد شمس بن وائل بن الغـوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أنس[7] بن الهميسع بن العربحج والعربحج هو حمير بن سبأ الأكبر بن يعرب بن

---

(١) مدنّ : وهو المقصر في الأمور وفي ابن الأثير : مزن : المتهمَ بالأمر .

(٢) أمض : الشك بلغة حمير . وقال أبو عمرو : أمض : أي باطل .

(٣) في ابن هشام كلي كرب وفي الطبري : بن ملكيكرب .

(٤) اتفق الطبري وابن إسحاق على أن ذا الأذعار هو عمرو وخالفهما المسعودي في مروج الذهب فقال : ذو الأذعار هو العبد بن ابراهة وكان ملكة خمساً وعشرين وسنة .

(٥) في الطبري : ابن قيس بن صيفي .

(٦) في ابن هشام والطبري : ابن قيس .

(٧) في الطبري وابن هشام : ابن أيمن بن الهميسع بن العَرْنجج والعـرنجج : هـو من قولهم اعـرنجج الـرجل في أمره : إذا جد فيه . كأنه افعنلل .

يشجب بن قحطان . قال عبد الملك بن هشام سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . قال ابن إسحاق وتبان أسعد أبو كرب هو الذي قدم المدينة[1] وساق الحبرين من اليهود إلى اليمن وعمر البيت الحرام وكساه وكان ملكه قبل ملك ربيعة بن نصر .

وكان قد جعل طريقه حين رجع من غزوة بلاد المشرق[2] على المدينة وكان قد مر بها في بدأته فلم يهج أهلها وخلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة فقدمها وهو مجمع لإخرابها واستئصال أهلها وقطع نخلها[3] . فجمع له هذا الحي من الأنصار ورئيسهم عمرو بن طلحة[4] أخو بني النجار ثم أحد بني عمرو بن مبذول واسم مبذول عامر بن مالك بن النجار واسم النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة [بن] عمرو بن عامر .

وقال ابن هشام : عمرو بن طلحة[4] هو عمرو بن معاوية بن عمرو بن عامر بن مالك بن النجار وطلة أمه وهي بنت عامر بن زريق الخزرجية .

قال ابن إسحاق : وقد كان رجل من بني عدي بن النجار يقال له أحمر عدا على رجل من أصحاب تبع وجده يجد[5] عذقاً له فضربه بمنجله فقتله وقال إنما التمر لمن أبره فزاد ذلك تبعاً حنقاً عليهم . فاقتتلوا فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل فيعجبه ذلك منهم ويقول والله إن قومنا لكهام[6] وحكى ابن إسحاق عن الأنصار : أن تبعاً إنما كان حنقه على اليهود أنهم منعوهم منه .

قال السهيلي ويقال إنه إنما جاء لنصرة الأنصار أبناء عمه على اليهود الذين نزلوا عندهم في المدينة على شروط فلم يفوا بها واستطالوا عليهم والله أعلم .

قال ابن إسحاق فبينا تبع على ذلك من قتالهم إذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بني قريظة عالمان راسخان[7] حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالوا له أيها الملك لا تفعل فإنك إن

---

(١) في مروج الذهب ج ٨٢/٢ : أن تبع بن حسان بن كليكرب هو الذي قدم المدينة يريد هدم الكعبة . فمنعه أحبار اليهود ، فكساها القصب اليماني .

(٢) في ابن هشام والطبري : حين أقبل من المشرق .

(٣) قيل إن تبعاً لم يقصد غزوها ، وإنما قصدها وقتل من اليهود مقتلة عظيمة بسبب شكاية من شكاهم إليه من الأوس والخزرج بسبب سوء الجوار انظر الطبري ج ٣٩/٢ وشرح السيرة لأبي ذر .

(٤) في الطبري وابن هشام : عمرو بن الطلّة .

(٥) يجد : يقطع .

(٦) كذا في الأصل لكهام ، والصواب كما في الطبري وابن هشام : لكرام .

(٧) هما : كعب وأسد من بني قريظة وكانا ابني عم وكانا أعلم أهل زمانهما . طبري ج ٩٥/٢ .

أبيت إلّا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك جل[1] العقوبة فقال لهما ولم ذلك قالا هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان تكون داره وقراره فتناهى [عن ذلك] ورأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما .

قال ابن إسحاق : وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها فتوجه إلى مكة وهي طريقه إلى اليمن حتى إذا كان بين عسفان وامج [2] أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان فقالوا له أيها الملك الا ندلك على بيت مال داثراً غفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة قال : بلى ؛ قالوا : بيت بمكة يعبده أهله ، ويصلون عنده .

وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده

فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحبرين فسألهما عن ذلك، فقالا له : ما أراد القوم إلّا هلاكك وهلاك جندك ما نعلم بيتاً لله عزّ وجلّ اتخذه في الأرض لنفسه غيره ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعاً قال : فماذا تأمرانني أن أصنع إذا أنا قدمت عليه قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله : تطوف به ، وتعظمه وتكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتذلل له[3]، حتى تخرج من عنده ، قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك قالا أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم عليه السلام وإنه لكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله ، وبالدماء التي يهريقون عنده ، وهم نجس أهل شرك ـ أو كما قالا له ـ فعرف نصحهما وصدق حديثهما ، وقرب النفر من هُذيل، فقطع أيديهم وأرجلهم[4] ثم مضى حتى قدم مكة، فطاف بالبيت، ونحر عنده، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام ـ فيما يذكرون ـ ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل ،

---

(١) في الطبري وابن هشام : عاجل .

وفي تراجعه عن المدينة وفضل ابن الطلة وامتناعه عن تُبّع بقول خالد بن مالك بن النجار :

أصحا أم انتهى ذكره   أم قضى من لذة وطره
يا بني النجار إن لنا   فيهم قبل الأوان تره
سيد سامي الملوك ومن   يغزُ عمراً لا يجد قدره

وفي أخبار الأزرقي : حتى إذا كان بالدف من جدان بين أمج وعسفان ج ١ /١٣٣ . وجاء في تعليله : أن هذيل حسداً لقريش على ولايتهم البيت فعلوا ذلك .

(٢) عسفان : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة . وقيل على ستة وثلاثين ميلاً من مكة .

وأمج : بلد من أعراض المدينة وقيل وادٍ .

(٣) في الطبري : وتتذلل له ؛ وفي ابن هشام : وتذل له .

(٤) في أخبار الأزرقي : فضربت أعناقهم وصلبهم، ١ /١٣٣ .

وأُري في المنام أن يكسوا البيت فكساء الخصف[1] ثم أُري في المنام أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه المعافر[2] ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك فكساء الملاء[3] والوصائل ، وكان تبع فيما يزعمون أول من كسا البيت وأوصى به ولاته من جرهم وأمرهم بتطهيره وأن لا يقربوه دماً ولا ميتة ولا مثلاثا[4] وهي المحايض وجعل له باباً ومفتاحاً ففي ذلك قالت سبيعة بنت الأحب تذكر ابنها خالد به عبد مناف بن كعب بن سعدبن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب وتنهاه عن البغي بمكة وتذكر له ما كان من أمر تبع فيها :

أبنيّ لا تظلِمْ بمكّـ ـكّةَ لا الصغيرَ ولاَ الكَبير
واحفَظْ محارِمَها بُـ ـنيّ ولا يغرّنْك الغَرور
أبنيّ من يَظلمْ بمكّـ ـةَ يلقَ أطرافَ الشُّرور
أبنيّ يَضرِبُ وجهَه ويلجْ بخدّيهِ السَّعير[5]
أبنيّ قد جرّبتُها فوجدتُ ظالِمَها يَبور
اللّهُ آمَنَها وما بُنيتْ بِعَرْصَتها قُصور
واللّهُ آمنَ طَيرَها والعصمُ تأمَنُ في ثَبير[6]
ولقدْ غزاها تُبّع فكسا بنيّتها الحبير
وأذلّ ربي ملكَه فيها فأوفى بالنّذور
يمشي إليها حافياً بفنائها ألفا بعير
ويظلّ يُطعمُ أهلَها لحمَ المهارَى والجَزور
يسقيهمُ العَسل المصفّى والرحيضَ من الشّعير[7]

---

(1) كذا في الأصل فكساء الخصف وفي الطبري وابن هشام : فكساه الخصف ؛ والخصف : حصر تنسخ من خوص النخل ومن الليف .

(2) كذا في الأصل فكساء المعافر ؛ وفي الطبري وابن هشام : فكساه المعافر . والمعافر ثياب تنسب إلى قبيلة يمنية . وفي أخبار الأزرقي : كساها الانطاع ١/ ٢٥٠ .

(3) كذا في الأصل فكساء الملاء والصواب كما في الطبري وابن هشام فكساه الملاء والوصائل . والملاء جمع ملاءة وهي الملحفة .

والوصائل : ثياب مخططة يمنية توصل بعضها ببعض . وفي أخبار الأزرقي : ثياب حبرة من عصب اليمن . وقال أسعد في ذلك :

وكسونا البيت الذي حرم اللـ ـه ملاء ومعضداً وبرودا

(4) في الطبري : ميلاثاً .

(5) في ابن هشام وسيرة ابن كثير : يلج .

(6) العصم : الوعول التي تعتصم في الجبال . وثبير : جبل بمكة .

(7) الرحيض : المنقى والمصفى .

والـفـيـلَ أهـلَكَ جـيـشَـه   يُـرمـون فيهـا بـالـصّخـور
والـمُلْك في أقصَى الـبـبـلا   دِ وفي الأعـاجم والخُـزور (١)
فـاسمـع إذا حـدّثت واف   هم كيفَ عـاقـبـةُ الأمـور

قال ابن إسحاق ثم خرج تبع متوجهاً إلى اليمن بمن معه من الجنود(٢) وبالحبرين حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه فأبوا عليه حتى يحاكموه إلى النار التي كانت باليمن .

قال ابن إسحاق : حدثني أبو مالك بن ثعلبة بن أبي مالك القرظي قال سمعت إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله يحدث : أن تبعاً لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك وقالوا : لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا فدعاهم إلى دينه وقال : إنه خير من دينكم قالوا تحاكمنا(٣) إلى النار قال : نعم . قال : وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأخذ(٤) الظالم ولا تضر المظلوم فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلديها حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه فخرجت النار إليهم فلما أقبلت(٥) نحوهم حادوا عنها وهابوها فزجرهم(٦) من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباههما ولم تضرهما فأصفقت عند ذلك حمير على دينها(٧) فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن .

قال ابن إسحاق وقد حدثني محدث(٨) أن الحبرين ومن خرج من حمير إنما اتبعوا النار ليردوها وقالوا : من ردها فهو أولى بالحق . فدنا منها رجال حمير بأوثانهم ليردوها ، فدنت منهم لتأكلهم فحادوا عنها ولم يستطيعوا ردها فدنا منها الحبران بعد ذلك وجعلا يتلوان التوراة وهي تنقص(٩)

---

(١) كذا في الأصل الخزور وهو تحريف ، وفي ابن هشام وسيرة ابن كثير : الخنزير والخزير : أمة من العجم ويقال لهم الخزر أيضاً .

(٢) في الطبري وابن هشام : من جنوده .

(٣) في الطبري وابن هشام وسيرة ابن كثير : فحاكمنا .

(٤) في ابن هشام والطبري : تأكل .

(٥) في الطبري وابن هشام وسيرة ابن كثير : أقبلت .

(٦) في الطبري وابن هشام وسيرة ابن كثير : فذمرهم : أي حضهم وشجعهم .

(٧) في سيرة ابن كثير وابن هشام والطبري : فأصفقت حمير عند ذلك على دينه : أي اجتمعت .

(٨) في الطبري : عن بعض أصحابه .

(٩) كذا في الأصل والمطبوعة تنقص وهو تحريف والصواب في الطبري وابن هشام وسيرة ابن كثير : تنكص .

عنها ، حتى رداها إلى مخرجها الذي خرجت منه فأصفقت عند ذلك حمير على دينها والله أعلم أي ذلك كان .

قال ابن إسحاق وكان رئام بيتاً لهم يعظمونه وينحرون عنده ويُكَلَّمون فيه[1] إذ كانوا على شركهم فقال الحبران لتبع : إنما هو شيطان يفتنهم بذلك فخلّ بيننا وبينه قال : فشأنكما به فاستخرجا منه فيما يزعم أهل اليمن كلباً أسود فذبحاه ثم هدما ذلك البيت فبقاياه اليوم كما ذكر لي بها آثار الدماء التي كانت تهراق عليه .

وقد ذكرنا في التفسير الحديث الذي ورد عن النبي ﷺ : «لا تسبوا تبعاً فإنه قد كان أسلم » قال السهيلي وروى معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا أسعد الحميري فإنه أول من كسى الكعبة » .

قال السهيلي وقد قال تبع حين أخبره الحبران عن رسول الله ﷺ شعراً :

شهدتُ على أحمدٍ أنه ... رسولٌ منَ الله باري النسم
فلو مد عمري إلى عمره ... لكنتُ وزيراً له وابنَ عم
وجاهدت بالسيف أعداءه ... وفرجتُ عن صدره كلَّ هم

قال ولم يزل هذا الشعر تتوارثه الأنصار ويحفظونه بينهم وكان عند أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه .

قال السهيلي وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب القبور أن قبراً حفر بصنعاء فوجد فيه امرأتان معهما لوح من فضة مكتوب بالذهب وفيه هذا قبر لميس وحبى ابنتي تبع ماتا[2] وهما تشهدان ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما .

ثم صار الملك فيما بعد إلى حسان بن تبان أسعد وهو أخو[3] اليمامة الزرقاء التي صلبت على باب مدينة جو[4] فسميت من يومئذٍ اليمامة .

---

(١) في ابن هشام والطبري : منه وهي أكثر مناسبة .

(٢) كذا في الأصل والمطبوعة وهو تحريف والصواب : ماتتا من سيرة ابن كثير .

(٣) في الطبري حسان بن تبع واليمامة الزرقاء ليست أخته بل هي أخت رياح بن مرة رجل من طسم هرب من اليمامة وأخبر حسان بخبر أخته اليمامة .

وفي نهاية الأرب للقلقشندي : سبأ بن سعد صاحب الحادثة .

(٤) كانت اليمامة تسمى جوّ أو القرية ، وبها أتى حسان باليمامة ابنة مرة ففقئت عيونها فإذا فيها عروق سود ، من أثر كحل حجر الإثمد . وأمر حسان بأن تسمى جوّ اليمامة . أنظر الطبري ج ٢/ ٣٨ و ١٠٠ .

قال ابن إسحاق فلما ملك ابنه حسان بن أبي كرب تبان أسعد سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم حتى إذا كانوا ببعض أرض العراق كرهت حمير وقبائل اليمن السير معه وأرادوا الرجعة إلى بلادهم وأهليهم فكلموا أخاً له يقال له عمرو وكان معه في جيشه فقالوا له أقتل أخاك حسان ونملكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا فأجابهم فاجتمعوا على ذلك إلاّ ذارعين الحميري فإنه نهى عمراً عن ذلك فلم يقبل منه فكتب ذو رعين رقعة فيها هذان البيتان :

أَلا مَن يشتري سَهَراً بنومٍ ... سعيدٌ مَن يبيتُ قريرَ عَينْ
فأما حِمْيرٌ غَدرت وخانَت[1] ... فمعذرةُ الإلهِ لذي رُعَين

ثم استودعها عمراً[2] . فلما قتل عمرو أخاه حسان ورجع إلى اليمن منع منه النوم وسلط عليه السهر فسأل الأطباء والحذاق[3] من الكهان والعرافين عما به فقيل له إنه والله ما قتل رجل أخاه قط أو ذا رحم بغياً إلاّ ذهب نومه وسلط عليه السهر فعند ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه فلما خلص إلى ذي رعين قال له إن لي عندك براءة قال وما هي قال الكتاب الذي دفعته إليك فأخرجه فإذا فيه البيتان فتركه ورأى أنه قد نصحه وهلك عمرو فمرج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا[4] .

وثوب لخنيعة[5] ذي شناتر على ملك اليمن

وقد ملكها سبعاً وعشرين سنة[6] . قال ابن إسحاق فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت الملك يقال له لخنيعة ينوف ذو شناتر فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة منهم وكان مع ذلك أمرءاً فاسقاً يعمل عمل قوم لوط فكان يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه في مشربة له

---

(١) في الاشتقاق لابن دريد ٤ ٢٢٥ : فإن تك حمير غدرت وخانت .

(٢) زاد ابن الأثيرج ١ /٤٢٠ قال : فلما بلغ حسان ما أجمع عليه أخوه وقبائل اليمن قال لعمرو :

يا عمرو لا تعجل عليّ منيتي ... فالملك تأخذه بغير حشود

فأبى إلا قتله ، فقتله بموضع رحبة مالك .

(٣) في الطبري وابن هشام وسيرة ابن كثير : والحزاة : جمع حاز وهو الذي ينظر في النجوم ويقضي بها .

(٤) ملك عمرو بن تبع بعد أخيه أربعاً وستين سنة ثم ملك بعده تبع بن حسان بن كليكرب ثم عمرو بن تبع ثم مرثد بن عبد كلال ثم وليعة بن مرثد ثم ابراهة بن الصباح بن وليعة ثم عمرو بن ذي قيفان . على ما ذكره صاحب مروج الذهب ١ /٨٢ وكانت مدة ملكهم بعد عمرو أخي حسان ٢٥٣ سنة .

وفيما ذكره المسعودي أن تبع بن حسان كان قبل حسان تبان أسعد كما ورد سابقاً .

(٥) قوله لخنيعة بالنون وهو كذلك في سيرة ابن هشام والطبري وقال ابن دريد : لحيعة وفي ابن الأثير : لختيعة تنوف ذو شناتر وفي القاموس : لختيعة ذو الشناتر من ملوك اليمن .

وفي مروج الذهب : ذو شناتر ولم يكن من أهل بيت الملك .

(٦) في مروج الذهب : ثلاثين سنة وقيل : تسعاً وعشرين ١ /٨٣.

قد صنعها لذلك لئلا يملك بعد ذلك(١) ثم يطلع من شربته(٢) تلك إلى حرسه ومن حضر من جنده قد أخذ مسواكاً(٣) فجعله في فيه ليعلمهم أنه قد فرغ منه حتى بعث إلى زرعة(٤) ذي نواس بن تبان أسعد أخي حسان وكان صبياً صغيراً حين قتل أخوه حسان ثم شب غلاماً جميلاً وسيماً ذا هيئة وعقل فلما أتاه رسوله عرف ما يريد منه فأخذ سكيناً جديداً لطيفاً(٥) فخبأه بين قدميه ونعله ثم أتاه فلما خلا معه وثب إليه فواثبه ذو نواس فوجأه حتى قتله ثم حز رأسه فوضعه في الكوة التي كان يشرف منها ووضع مسواكه في فيه ثم خرج على الناس فقالوا له : ذا نواس أرطب أم يباس فقال سل نحماس استرطبان ذو نواس استرطبان لا بأس(٦) فنظروا إلى الكوة فإذا رأس لخنيعة مقطوع فخرجوا في أثر ذي نواس حتى أدركوه فقالوا ما ينبغي أن يملكنا غيرك إذ أرحتنا من هذا الخبيث .

فملكوه عليهم واجتمعت عليه حمير وقبائل اليمن فكان آخر ملوك حمير وتسمى يوسف فأقام في ملكه زماناً ، وبنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام على الإنجيل أهل فضل واستقامة من أهل دينهم لهم(٧) رأس يقال له عبد الله بن الثامر .

ثم ذكر ابن إسحاق سبب دخول أهل نجران في دين النصارى وأن ذلك كان على يدي رجل يقال له فيميون(٨) كان من عباد النصارى بأطراف الشام وكان مجلب الدعوة وصحبه رجل

---

(١) كانت حمير لا تملك من أبناء الملوك من نُكح به .

(٢) في المطبوعة شربته وفي الطبري وابن الأثير وابن هشام : مشربته .

(٣) في ابن الأثير والطبري وابن هشام : سواكاً .

(٤) في مروج الذهب : يوسف ذو نواس بن زرعة بن تبع الأصفر بن حسان بن كليكرب .
وفي أخبار الدينوري ص ٦١ ، اسمه زرعة بن زيد بن كعب كهف الظلم بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن جشم وإنما سمي ذا نواس للذؤابة تنوس على شعره .

(٥) في الطبري وابن هشام : حديداً لطيفاً . وفي ابن الأثير : لطيفاً .

(٦) في ابن هشام والطبري نخماس . وفي ابن الأثير نحاس .
والعبارة وردت هكذا في الأصل سل نخماس استرطبان أم يباس وهي غير واضحة وسياق العبارة في الأغاني : « كان الغلام إذا خرج من عند لخنيعة وقد لاط به قطعوا مشافر ناقته وذنبها وصاحوا به : أرطب أم يباس ولما خرج ذو نواس من عنده وركب ناقة له . قالوا : ذو نواس أرطب أم يباس ؟ فقال : ستعلم الأحراس ، است ذي نواس ، است رطبان أم يباس » .

(٧) كذا في الأصل وابن هشام والعبارة فيها خلل واضح ، والصواب في الطبري : أهل فضل واستقامة لهم من أهل دينهم رأس ، وفي كامل ابن الأثير : على استقامة ، لهم رئيس يقال له . . .

(٨) في ابن الأثير أن عبد الله بن الثامر كان أصل النصرانية بنجران .
وفي الطبري أن عبد الله بن الثامر كان موقع أصل ذلك الدين (النصرانية) بنجران . وقال الدينوري في الأخبار الطوال : أن عبد الله بن الثامر ملك النصارى في نجران أبى أن يهوّد فقتله ذو نواس . وفي الطبري أن

يقال له صالح فكان[1] يتعبدان يوم الأحد ويعمل فيميون بقية الجمعة في البناء وكان يدعوا للمرضى والزمنى وأهل العاهات فيشفون ، ثم استأسره وصاحبه بعضُ الأعراب فباعوهما بنجران فكان الذي اشترى فيميون يراه إذا قام في مصلاه بالبيت الذي هو فيه في الليل يمتلىء عليه البيت نوراً فأعجبه ذلك من أمره . وكان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة [لها عيد كل سنة][2] يعلقون عليها حُليّ نسائهم ويعكفون عندها فقال فيميون لسيده : أرأيت إن دعوت الله على هذه الشجرة فهلكت أتعلمون أن الذي أنتم عليه باطل . قال نعم فجمع له أهل نجران وقام فيميون إلى مصلاه فدعا الله عليها فأرسل الله عليها قاصفاً فجعفها[3] من أصلها ورماها إلى الأرض فاتبعه أهل نجران على دين النصرانية وحملهم على شريعة الإنجيل حتى حدثت فيهم الأحداث التي دخلت على أهل دينهم بكل أرض فمن هنالك كانت النصرانية بنجران من أرض العرب .

ثم ذكر ابن إسحاق قصة عبد الله بن الثامر حين تنصر على يدي فيميون وكيف قتله وأصحابه ذو نواس وخدّ لهم الأخدود[4]. وقال ابن هشام وهو الحفر المستطيل في الأرض مثل الخندق وأجج فيه النار وحرقهم بها وقتل آخرين حتى قتل قريباً من عشرين ألفاً كما قدمنا ذلك مبسوطاً في أخبار بني إسرائيل وكما هو مستقصى في تفسير سورة ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ من كتابنا التفسير ولله الحمد[5] .

خروج الملك باليمن من حمير إلى الحبشة السودان

كما أخبر بذلك شق وسطيح الكاهنان وذلك أنه لم ينج من أهل نجران إلاّ رجل واحد يقال له دوس ذو ثعلبان[6] على فرس له ، فسلك الرمل فأعجزهم فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذي نواس وجنوده وأخبره بما بلغ منهم ، وذلك لأنه نصراني على دينهم .

= عبد الله بن الثامر قتله ملك كان قبل ذي نواس وان ذا نواس قتل من كان بعده من أهل دينه ج ١٠٥/٢ . وكان عبد الله بن الثامر قد تنصر على يدي فيميون ، واستجمع أهل نجران على دينه . الطبري ابن الأثير - ابن هشام .

(١) الصواب : فكانا يتعبدان .

(٢) ما بين معكوفين من الطبري وابن هشام .

(٣) فجعفها : قطعها ، وفي ابن الأثير : ريحاً فجففتها والقتها . وفي ابن هشام والطبري : ريحاً فجعفتها من أصلها .

(٤) يقال إن الذين خددوا الأخدود ثلاثة : تبع صاحب اليمن ، وقسطنطين بن هلاني حين صرف النصارى عن التوحيد إلى عبادة الصليب ، وبختنصر من أهل بابل حين أمر الناس أن يسجدوا فامتنع دانيال وأصحابه ، فألقاهم في النار .

(٥) راجع الآيات ٤ ، ٤ ، ٥ ، ٦ من سورة البروج .

(٦) في رواية للطبري أن الذي أفلت هو جبار بن فيض من أهل نجران . ثم قال : « الثبت عندي أنه دوس ذو ثعلبان » . ج ١٠٦/٢ . وهو يوافق ما ذكره ابن اسحاق وابن الأثير .

فقال له بعدت بلادك منا ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين وهو أقرب إلى بلادك . فكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأره . فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمر عليهم رجلاً منهم يقال له أرياط[1] ومعه في جنده ابرهة الأشرم فركب ارياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس وسار إليه ذو نواس في حمير ومن اطاعه من قبائل اليمن . فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه فلما رأى ذو نواس ما نزل به ويقومه وجه فرسه في البحر ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى به إلى غمرة ، فأدخله فيها فكان آخر العهد به ودخل أرياط اليمن وملكها[2].

---

(١) أورد الطبري وصية النجاشي إلى أرياط في مسيره إلى اليمن :
إن أنت ظهرت عليهم فاقتل ثلث رجالهم .
واخرب ثلث بلادهم واسب ثلث نسائهم وأبنائهم .

(٢) تناول جواد علي في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٣/ ١٥٠ وما بعدها مسألتي علاقة الأحباش باليمن والنصرانية واليهودية في جنوب الجزيرة وأتى على كل الآراء التي أوردها العلماء في ذلك وخلاصتها :

تناول جواد علي في كتابه : تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ٣ ص ١٥٠ وما يليها) مسألتي علاقة الأحباش باليمن والنصرانية واليهودية في جنوبي الجزيرة وأتى على كل الآراء التي أوردها العلماء في ذلك بتفصيل كامل ، ونحن نورد خلاصة ذلك فيما يلي :

١ ـ من العلماء من يذهب إلى أن أصل الأحباش من جنوبي الجزيرة ، هاجروا إلى العدوة الأفريقية لأسباب كثيرة ، منها استيلاء البرثيين على سواحل بلاد العرب الشرقية ، ومن هؤلاء العلماء أدوارد جلازر في كتابه « الأحباش » .

٢ ـ إن لفظ أثيوبيا يوناني معناه الوجه المحترق أو الأسود ، وقد أطلق على أرض الحبشة وعلى مناطق واسعة لا تدخل في الحبشة اليوم تشمل جنوب مصر وسواحل أفريقيا المطلة على البحر الأحمر والمحيط الهندي جنوبي بلاد العرب ، وهي تقابل لفظ كوش الوارد في التوراة ، مما يدل على أن الاتصال كان وثيقاً من قديم الزمان بين الشعوب التي تسكن هذه النواحي .

٣ ـ إن أصل الأحباش الذين هاجروا من جنوبي جزيرة العرب إلى أفريقية غير معروف .

٤ ـ لا يعرف على وجه التحديد مكان أرض « حبشت » في جزيرة العرب ، والموضع الذي نزلوا فيه أول ما عبروا باب المندب . ويرى هرمل أن الحضارمة القدماء أقرب العرب الجنوبيين إلى الحبش الجنوبيين ، بدليل تقارب اللهجة الحضرمية القديمة المبينة في المسند واللغة الحبشية .

٥ ـ يذهب جلازر إلى أن الحبش هاجروا إلى أفريقية بين سنتي ٣٧٠ و ٣٧٨ ميلادية ، ويرى هرمل أن رحلتهم منها كانت سنة ٣٧٥ ، وكان ذلك في عهد ملكين من ملوك الحبش هما «الأعميدة» وابنه عيزان وكان عيزان يلقب بلقب بملك أكسوم وحمير وريدان والحبشة وسلع وتيهاء وصيمو والبجة وقسو . وكان مركز الدولة في أكسوم ؛ أي أن ما دخل في زمامها من بلاد العرب كان تابعاً لها .

٦ ـ وحوالي سنة ٣٧٨ قام زعيم عربي اسمه « ملك كرب يهأمن » بطرد الأحباش من اليمن وانشأ ملكاً عربياً ، وتلقب بملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات ، وخلفه أبناه أبو كرب أسعد ورا أمر أيمن ، وكانوا يعبدون إلهاً =

. . . .

= يسمى ذو سموى أي إله السماء ، ولوحظ أن بلاد اليمن أخذت تسير بعد ذلك نحو ديانة التوحيد .

٧ - يرى المستشرقون أن أبا كرب أسعد هو أسعد كامل تبع ، الذي يرى الأخباريون انه أول من تهود من ملوك اليمن ، وليس لدينا دليل على ذلك ، والثابت أن هذا الملك كان يتعبد لإله يسمى ذو سموت أو إله السماء .

٨ - وكانت لهؤلاء الملوك جميعاً عناية بمجموعة السدود التي تعرف بسد مأرب ، وأول أخبار نسمعها عن تصدعه حوالي سنة ٤٥٠ أو ٤٥١ ميلادية في عهد الملك شرحبيل يعفر ، فاستعان بالحميرين وقبائل حضرموت لإصلاح الصدوع .

٩ - كانت عاصمة سبأ مدينة حتى نهاية القرن الثالث للميلاد ، ثم حلت محلها مدينة ظفار ، ويرى جلازر أن نجم مأرب أخذ في الأفول منذ القرن الأول للميلاد ، وان سبب هذا هو غزو الحبش لليمن . ويرى هارتماغ أن السبب ثورة الهمدانيين على الحميرين وانتصارهم ، ويرى جواد علي أن السبب قد يكون تحول التجارة عن مأرب بسبب تغير طرق التجارة وتأثير الطرق البحرية التي أخذت تنافس الطرق البرية ، وكانت سفن البيزنطيين قد أخذت طريقها في البحر الأحمر « فسلبت من اليمانيين ثروة عظيمة ولم يبق في امكانهم الانفاق على السد لإدامته والمحافظة عليه ، وهذا ما اضطر القبائل إلى الهجرة من هذه الجنة التي وجهها الجفاف بالتدريج » ولكن الملوك لم يهجروا مأرب دفعة واحدة ، إذ تدل النصوص على أنهم أقاموا بها أمداً من الوقت بعد ذلك .

١٠ - وآخر ملوك حمير كما يقول الأخباريون هو ذو نواس (وإن كان بعضهم يذهب إلى أن ابنه ذا جدن خلفه) وللإخباريين عنه قصص طويل ، وفي أيامه غزا الأحباش اليمن من جديد . ولم تورد النصوص المدونة بالمسند لدى نواس ذكراً ، والنص الذي يحدثنا عن غزو الأحباش لليمن هذه المرة يسمى نص « حصن غراب » وتاريخه سنة ٥٢٥ بعد الميلاد .

١١ - ولا يذكر مؤرخو الرومان أن ملك حمير - عندما غزا الأحباش اليمن - كان يهودياً ويكتفي بروكوبيوس بالقول بأن النجاشي كان نصرانياً ، وبلغه أن الحميرين كانوا يضطهدون النصارى ويعذبونهم ، ولذلك أرسل أسطولاً استولى على أرض حمير وأقام عليها ملكاً حميرياً نصرانياً ، وذكر أن بعض الحميريين كانوا على اليهودية ، أما بقيتهم فكانوا وثنيين على مذهب الهيلينيين . أما الرواية الحبشية فتذهب إلى أن معظم أهل سبأ كانوا وثنيين ، وأن بعضهم كانوا يهوداً ، وأن اليهودية دخلت اليمن بعد تشتت اليهود عقب قضاء الرومان على دولة اسرائيل وهدم الامبراطور تيتوس لمعبد سليمان في أورشليم . والمفهوم أن اليهودية دخلت اليمن عن طريق الحجاز .

١٢ - أما النصرانية فلم تدخل اليمن من طريق واحد ، « وإنما دخلتها من البر والبحر ، دخلتها من البر من ديار الشام فالحجاز فاليمن ، ومن العراق أيضاً مع القوافل التجارية المستمرة التي كانت بين اليمن والعراق ، ودخلتها من البحر بواسطة السفن اليونانية والرومانية ، ودخلتها كذلك مع الأحباش الذين تنصروا أيضاً في القرن الرابع للميلاد » .

١٣ - وقد قامت بين اليهودية والنصرانية منافسة في اليمن ، وانتصرت اليهودية بتولي ذي نواس اليهودي العرش ، وتسميه كتابات اليونان والسريان دميانوس ودمنوس . وقد اضطهد ذو نواس النصارى ، فكان ذلك سبباً في غزو الأحباش لليمن سنة ٥٢٥ على ما ذكرناه .

١٤ - وأقام الأحباش ابرهة الحميري حاكماً على اليمن ، وكان نصرانياً . ثم اختلف أبرهة مع النجاشي ، فأرسل =

وقد ذكر ابن إسحاق هاهنا أشعاراً للعرب فيما وقع من هذه الكائنة الغريبة وفيها فصاحة وحلاوة وبلاغة وطلاوة ولكن تركنا إيرادها خشية الاطالة وخوف الملالة وبالله المستعان .

خروج أبرهة الأشرم على أرياط واختلافهما

قال ابن إسحاق : فأقام أرياط بأرض اليمن سنين[1] في سلطانه ذلك ثم نازعه ابرهة [الحبشي ـ وكان في جنده] حتى تفرقت الحبشة عليهما . فانحاز إلى كل منهما طائفة [منهم] ثم سار أحدهما إلى الآخر . فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط : إنك لن تصنع بأن تلقى الحبشةُ بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً شيئاً ، فابرز لي وأبرز لك ، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده ، فأرسل إليه أرياط : أنصفت . فخرج إليه أبرهة ، وكان رجلاً قصيراً لحيماً [حادراً][2] وكان ذا دين في النصرانية وخرج إليه أرياط وكان رجلاً جميلاً عظيماً طويلاً وفي يده حربة له . وخلف أبرهة غلام ـ يقال له عتودة ـ يمنع ظهره . فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخه . فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته فبذلك سمي أبرهة الأشرم . وحمل عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله[3]، وانصرف جند أرياط إلى أبرهة . فاجتمعت عليه الحبشة باليمن وودى أبرهة أرياط . فلما بلغ ذلك النجاشي ملك الحبشة الذي بعثهم إلى اليمن غضب غضباً شديداً على أبرهة وقال عدا على أميري فقتله بغير أمري ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته فحلق أبرهة رأسه وملأ جراباً من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشي ثم كتب إليه : أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا في أمرك وكلٌّ طاعته لك إلاّ أني كنت أقوى على أمر الحبشة واضبط لها وأسوس منه . وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسم الملك وبعثت إليه بجراب تراب من أرضي ليضعه تحت قدمه فيبر قسمه فيَّ . فلما انتهى ذلك

= هذا الأخير جيشاً بقيادة أرياط ليقضي على أبرهة . وتمكن أبرهة من قتل أرياط ثم استرضى النجاشي . وقد ترك لنا أبرهة نصاً على درجة كبيرة من الأهمية ، أورده جواد علي كاملاً ، يذكر فيه ترميمه لسد مأرب مرتين ، وكان أبرهة نائباً لملك الحبشة ولكنه تلقب بملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها في النجاد وفي تهامة ، وهو اللقب القديم لملوك حمير المستقلين . وقد عظم شأن أبرهة ووفدت عليه وفود ملك الفرس والمنذر والحارث بن جبلة ورؤساء القبائل . وقد انتشرت المسيحية في اليمن بعد ذلك وبنيت الكنائس الكثيرة واهمها الكنيسة المعروفة بالقليس ، وتركزت النصرانية بصفة خاصة في نجران على ما هو معروف .

١٥ ـ وقد ظل سلطان الأحباش على اليمن حتى ثار عليهم سيف بن ذي يزن وحرر بلاده منهم . واستعان بالفرس ، مما أدى إلى غزوهم اليمن على ما هو معروف .

(١) في مروج الذهب : عشرين سنة ، وفي أخبار الأزرقي : سنتين .

(٢) ما بين معقوفين في الحديث زيادة من الطبري .

(٣) في الأخبار الطوال : أن ابرهة ضرب أرياط بالسيف على مفرق رأسه فقتله ، مخالفاً بروايته ابن الأثير والطبري والمسعودي .

إلى النجاشي رضي عنه وكتب إليه أن أثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري فأقام أبرهة باليمن .

سبب قصد ابرهة بالفيل مكة ليخرب الكعبة

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول ﴾[1] .

قيل أول من ذلل الفيلة إفريدون بن أثفيان[2] الذي قتل الضحاك قاله الطبري وهو أول من اتخذ للخيل السرج . وأما أول من سخر الخيل وركبها فطهمورث[3] وهو الملك الثالث من ملوك الدنيا ويقال إن أول من ركبها اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ويحتمل أنه أول من ركبها من العرب والله تعالى أعلم .

ويقال إن الفيل مع عظمة خلقه يفرق من الهر . وقد احتال بعض أمراء الحروب في قتال الهنود بإحضار سنانير إلى حومة الوغى فنفرت الفيلة[4] .

قال ابن إسحاق ثم إن أبرهة بني القليس[5] بصنعاء كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض وكتب إلى النجاشي إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب .

فذكر السهيلي أن أبرهة استذل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة الخسيسة وسخرهم فيها أنواعاً من السخر . وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة . وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاماً وأحجاراً وأمتعة عظيمة وركب فيها صلباناً من ذهب وفضة . وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس وجعل ارتفاعها عظيماً جداً واتساعها باهراً[6] فلما هلك بعد ذلك أبرهة وتفرقت الحبشة كان من يتعرض لأخذ شيء من بنائها وامتعتها أصابته الجن بسوء . وذلك لأنها كانت مبنية على اسم صنمين ـ كعيب وامرأته ـ وكان طول كل منهما ستون ذراعاً . فتركها أهل

---

(١) سورة الفيل الآيات .

(٢) في آبن الأثير اثغيان وهو أول من ذلل الفيلة وامتطاها ونتج للبغال .
وفي مروج الذهب ١/ ٢٣١ افريدون بن اثقابان .

(٣) في الطبري وابن الأثير : أول من اتخذ زينة الملوك من الخيل والبغال والحمير .

(٤) في مروج الذهب ج ٢/ ٩ : والفيل يهرب من السنانير وهي القطاط ولا يقف لها البتة . وقد ذكر من ملوك الفرس أنها كانت توقي الفيلة . . . بتخلية السنانير عليها . وفي ذلك يقول هارون بن موسى أحد أمراء السند وكان قد واجه ملك الهند فواجه الفيل بقط معه فهرب الفيل وكان ذلك سبب هزيمة الملك :

وكنت قد أعددت هراً له ... قليل التهيب للزنديل

(٥) في الأخبار الطوال : بيعة .

(٦) في رواية للطبري ج ٢/ ١١٠ أن أبرهة كتب إلى قيصر يطلب مساعدته فأعانه بالصناع والفسيفساء والرخام .

اليمن على حالها . فلم تزل كذلك إلى زمن السفاح[1] أول خلفاء بني العباس فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم فنقضوها حجراً حجراً ودرست آثارها إلى يومنا هذا .

قال ابن إسحاق فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي غضب رجل من النسأة من كنانة[1] اللذين ينسئون شهر الحرام[2] إلى الحل بمكة أيام الموسم كما قررنا ذلك عند قوله : ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر ﴾ الآية[3] .

قال ابن إسحاق فخرج الكناني حتى أتى القليس فقعد فيه[4] أي أحدث حيث لا يراه أحد ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر أبرهة بذلك . فقال من صنع هذا . فقيل له صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تحجه العرب بمكة لما سمع بقولك أنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا فغضب فجاء فقعد فيها أي أنه ليس لذلك بأهل . فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه . ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت . ثم سار وخرج معه بالفيل[5] وسمعت بذلك العرب فاعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام . فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر . فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريده من هدمه وإخرابه . فأجابه من أجابه إلى ذلك . ثم عرض له فقاتله . فهزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نفر فأتي به أسيراً . فلما أراد قتله ، قال له ذو نفر : يا أيها الملك لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من القتل[6] . فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق ، وكان أبرهة رجلاً حليماً ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له حتى إذا كان بأرض خثعم[7] عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي[8]

---

(١) في ابن الأثير والطبري : من بني فُقَيم .

(٢) كانوا يحلون الشهر من الأشهر الحرم ، ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر . . ونسأت الشيء فهو منسوء إذا أخرته . وكانوا يحرمون القتال في المحرم ، فإذا احتاجوا إلى ذلك حرموا صفراً بدله وقاتلوا في المحرم .

(٣) سورة التوبة الآية ٣٧.

(٤) في ابن هشام والطبري وابن الأثير : فيها وهو الصواب .

(٥) قال ابن الأثير ١/٤٤٢ : كان اسمه محموداً ، وقيل كان معه ثلاثة عشر فيلاً ، وإنما وحد الله الفيل لأنه عنى به كبيرها محموداً . وقال الضحاك : ثمانية فيلة .

(٦) في ابن هشام : قتلي .

(٧) في الاشتقاق لابن دريد : خثعم اسم جبل سمي به بنو عفرس بن خلف بن أفتل بن أنمار لأنهم نزلوا عنده وقيل لأنهم تخثعموا أي تلطخوا بالدم عند حلف عقدوه بينهم .

(٨) في ابن هشام والطبري : قبيلي .

في قبيلتي خثعم وهما شهران وناهس[1] ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً فأتي به فلما همّ بقتله قال له نفيل أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب وهاتان يداي لك على قبيلتيّ خثعم ـ شهران وناهس ـ بالسمع والطاعة . فخلى سبيله[2] وخرج به معه يدله حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف في رجال ثقيف فقالوا له أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف . وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد ـ يعنون اللآت ـ إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم .

قال ابن إسحاق واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة . قال فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة . فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمغمس[3] . فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك فرجمت قبره العرب فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس وقد تقدم في قصة ثمود أن أبا رغال كان رجلاً منهم وكان يمتنع بالحرم فلما خرج منه أصابه حجر فقتله وأن رسول الله ﷺ قال لأصحابه « وآية ذلك أنه دفن معه غصنان من ذهب » فحفروا فوجدوهما قال وهو أبو ثقيف .

قلت والجمع بين هذا وبين ما ذكر ابن إسحاق أن أبا رغال هذا المتأخر وافق اسمه اسم جده الأعلى ورجمه الناس كما رجموا قبر الأول أيضاً والله أعلم . وقد قال جرير :

إذا مـاتَ الـفَـرزْدَقَ فـارجُمـوه ... كـرجِـمْـكُـمْ لـقـبـرِ أبي رُغَـالِ

الظاهر أنه الثاني .

قال ابن إسحاق فلما نزل أبرهة بالمغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مفصود[4] على خيل له حتى انتهى إلى مكة . فساق إليه أموال [أهل] تهامة من قريش وغيرهم . وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ـ وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ـ فهمّت قريش وكنانة وهذيل[5] ومن كان بذلك الحرم [من سائر الناس][6] بقتاله . ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا

---

(١) يقال إن خثعم ثلاث : شهران وناعس وأكلب نهاية الارب وقال أبو عبيدة : ويقال هو أكلب بن ربيعة بن نزار . قال ابن حزم في الجمهرة : وأكلب بن ربيعة بن نزار دخلوا في بني خثعم فقالوا : أكلب بن ربيعة بن عفرس .

(٢) في الطبري : فأعفاه .

(٣) المغمس : واقع بين الجعرانة والشرايع في طريق السيل إلى الطائف ؛ على ثلثي فرسخ من مكة .

(٤) في الطبري وابن الأثير : مقصود ؛ وفي نسخة للازرقي كالأصل .

(٥) في الأزرقي زاد : خزاعة .

(٦) ما بين معكوفين زيادة من الطبري .

ذلك . وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم ، فإن هو لم يرد حربي فائتني به فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له عبد المطلب بن هاشم [بن عبد مناف بن قصي] . فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب والله ما نريد حربه ومالنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام - أو كما قال - فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال له حناطة فانطلق معي إليه فإنه قد أمرني أن آتيه بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذي نفر وكان له صديقاً - حتى دخل عليه وهو في محبسه فقال له يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر وما غناء رجل أسير بيديّ ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشياً ؟ ما عندي غناء في شيء مما نزل بك إلاّ أن أُنيساً سائس الفيل صديق لي . فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك واسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك . فقال حسبي . فبعث ذو نفر إلى أُنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين[1] مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت . قال : أفعل . فكلم أُنيس أبرهة فقال له أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين[1] مكة وهو الذي يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال فأئذن له عليك فليكلمك في حاجته [وأحسن إليه][2] فأذن له أبرهة قال وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجلهم فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه . فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه ثم قال لترجمانه قل له حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان فقال : حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي . فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لترجمانه : قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني . أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمني فيه ؟ فقال له عبد المطلب إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه . فقال ما كان ليمتنع مني . قال أنت وذاك . فرد على عبدالمطلب إبله .

قال ابن إسحاق ويقال إنه كان قد دخل مع عبد المطلب على أبرهة يعمر[3] بن نفاثة بن

---

(١) في الطبري وابن هشام والأزرقي : صاحب عير مكة .

(٢) ما بين معكوفين زيادة من الطبري .

(٣) كذا في الأصل وابن هشام والأزرقي ؛ وفي الطبري : يعمرو بن نفاثة بن عدي بن الدُئل . واختلف في الدئل =

عدي بن الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة سيد بني بكر(١) وخويلد بن واثلة(٢) سيد هذيل فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البت فأبى عليهم ذلك فالله أعلم أكان ذلك أم لا .

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في رؤوس الجبال [خوفاً عليهم من معرة الجيش](٣) . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده . وقال عبد المطلب ـ وهو آخذ بحلقة باب الكعبة ـ :

لاهُمَّ إنَّ العبدَ يمـ ـنع رَحْلَه فامنَعْ رِحَالَك(٤)
لا يَغلِبنَّ صَليبهم ومحالُهم غدْواً مِحالَك
إن كنتَ تاركَهم وقبـ ـلتَنا فأمرٌ ما بدا لَك

قال ابن هشام هذا ما صح له منها(٥) .

وقال ابن إسحاق ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال يتحرزون فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل(٦) . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة

= بهمز أو الديل . والمعروف أن الدئل هم الذين من بني كنانة وهم الهون أيضاً وأما الديل فهم من الأزد ، وفي اياد وفي عبد القيس .

راجع نهاية الأرب للقلقشندي ـ جمهرة انساب العرب لابن حزم ـ الأنساب للسمعاني . لسان العرب مادة دأل .

(١) في ابن هشام والأزرقي كالأصل وفي الطبري : بني كنانة . وبنو بكر كما في جمهرة ابن حزم هم بطن من بطون كنانة .

(٢) في الطبري والأزرقي وابن هشام واثلة . .

(٣) زيادة اقتضاها السياق ، من الطبري وابن الأثير والأزرقي وابن هشام .

والتحرز : التمنع ، ويروى التحوز : وهو أن ينحاز إلى جهة يتمنع .

ومعرة الجيش : شدته ، أي عند نزولهم بقوم فيأكلوا من زروعهم بغير علم وقيل وطأتهم من مروا به من مسلم أو معاهد واصابتهم إياهم في حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه .

(٤) لا هُمَّ وفي الأزرقي يا رب . لا هم أصلها اللهم والعرب تحذف الألف واللام منها وتكتفي بما بقي .

(٥) زاد السهيلي :

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

وقد ذكر الطبري قصيدة أخرى لعبد المطلب غير هذه القصيدة ج ٢ /١١٢ ـ ١١٣ . وذكر الأزرقي قصيدة أخرى له ص ١٤٥ : منها :

قلت والأشرم تردى خيله إن ذا الأشرم غر بالحرم

(٦) زاد ابن هشام والطبري وابن الأثير : بمكة إذا دخلها .

وهيأ فيله وعبى جيشه ، وكان اسم الفيل محموداً . فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب[1] حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال أبرك محمود وارجع راشداً من حيث أتيت . فإنك في بلد الله الحرام وأرسل أذنه . فبرك الفيل .

قال السهيلي أي سقط إلى الأرض وليس من شأن الفيلة أن تبرك وقد قيل إن منها ما يبرك كالبعير فالله أعلم[2] .

وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى فضربو رأسه بالطبر زين[3] ليقوم فأبى فادخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول . ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان[4] مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحداً إلّا هلك وليس كلهم أصابت . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاؤوا. ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن فقال نفيل في ذلك :

الا حـيِّيـتِ عنّـا يـا رُدَيـنـا	نَعِمنـاكُم مـعَ الإصبـاحِ عَيْنـا
رديـنـةُ لـو رأيتِ فـلا تَـريـه	لـدى جنبِ المحصَّبِ ما رأينـا[5]
إذاً لـعـذَرْتـنِي وحمِـدتِ أمـري	ولم تـأسي عـلى مـا فـاتَ بينـا
حَمِـدتُ الله إذْ أبـصـرتُ طيـراً	وخِفْتُ حجـارةً تُلقـى عَلَينـا[6]
وكـلّ القـومِ يسـألُ عن نفيـل	كـأنّ عـليّ لـلحُبْـشَـانِ دَينـا

---

(١) نُفيل بن حبيب الخثعمي كما في الطبري وابن الأثير والأزرقي . وقال في الروض الأنف هو : نفيل بن عبد الله بن جزء بن عامر بن مالك بن واهب بن جليحة بن أكلب بن ربيعة بن عفرس بن جلف بن أفتل . وهو خثعم . ويتفق معه ابن حزم ٣٩١ في نسبه إلا أنه يقول : نفيل بن حبيب بن عبد الله . . . وهو دليل الحبشة إلى البيت .

(٢) عبارة السهيلي : قوله فبرك الفيل فيه نظر لأن الفيل لا يبرك فيحتمل أن يكون فعل فعل البارك الذي يلزم موضعه ولا يبرح فعبر بالبروك عن ذلك ويحتمل أن يكون بروكه سقوطه إلى الأرض لما دهمه من أمر الله تعالى ، وقد سمعت أن في الفيلة صنفاً يبرك كما يبرك الجمل . راجع حياة الحيوان الكبرى للدميري ج ٢ /٢٣٢ .

(٣) الطبرزين : آلة معقفة من الحديد ، وطبر كلمة فارسية معناها الفأس . وفي حياة الحيوان عند الدميري : فضربوه بالحديد .

(٤) قال ابن الأثير في النهاية مادة بلس : قال عباد بن موسى أظنها الزرازير . ١/١١١.

(٥) في الطبري وابن الأثير : ولم تريه وفي الأزرقي : ولن تريه . وقبله في الطبري وابن الأثير :

آتـانـا قـابـس مـنـكـم عـشـاء   فـلم يـقـدر لـقـابـسـكـم لـديـنـا

(٦) في الطبري وابن الأثير : إذ عاينت بدل أبصرت .

قال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك علـى كل منهـل . وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط[1] أنملة أنملة كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدة تمث[2] قيحاً ودماً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر . فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون .

قال ابن إسحاق : حدثني يعقوب بن عتبة[3]، أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رُئي بها مرائر الشجر الحرمل ، والحنظل والعشر[4] ذلك العام .

قال إبن إسحاق : فلما بعث الله محمداً ﷺ كان مما يعدد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ماردٍ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول ﴾[5] .

ثم شرع ابن إسحاق وابن هشام يتكلمان على تفسير هذه السورة والتي بعدها وقد بسطنا القول في ذلك في كتابنا التفسير بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى وله الحمد والمنة .

قال ابن هشام الأبابيل الجماعات ولم تتكلم لها العرب بواحد علمناه[6]. قال : وأما السجيل فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب : الشديد الصلب[7]. قال : وزعم

---

(١) في الطبري : تسقط أنامله أنملة أنملة . وفي ابن الأثير ، فسقطت أعضاؤه عضواً عضواً .

(٢) في الطبري وابن هشام : تمث بالثاء أي ترشح وتنزف .

(٣) هو يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس الثقفي المدني كما في أخبار الأزرقي وكان فقيهاً عالماً بالسيرة توفي عام ١٢٨ هـ .

(٤) الحرمل : شجر لا يأكله شيء سوى المعزى .
والعشر : شجر مر له صمغ ولبن وتعالج بلبنه الجلود قبل دباغتها .
وأما القول بأن الحصبة والجدري أول ما رؤيا في العرب بعد الفيل وأيضاً العشر والحرمل والشجر فهذا مما لا ينبغي أن يعرض عليه ولا يعول عليه كثيراً فالأمراض والأشجار مذ خلق الله العالم ، ومذ وجد الانسان على الأرض وقبل الفيل بدهور .

(٥) سورة الفيل

(٦) أبابيل : قال صاحب القاموس في « أبل » : فرق جمع بلا واحد . والإبالة القطعة من الطير أو المتابعة منها .
قال صاحب اللسان « أبل » : الأبابيل جماعة في تفرقة ، واحدها إبِّيل وإبّول . وزعم الرؤاسي أن واحدها إبّالة .

(٧) قال صاحب اللسان : السِّجيل : حجارة كالمدر ، ومن قرأ السُّجيل فهو الصلب الشديد .
وقال أبو عبيدة : تأويله كثيرة شديدة . وقال أبو إسحاق : سجيل من سجلت إذا أعطيت وعند الجوهري :

بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة وأنها سنج وجل[1] فالسنج الحجر ؛ والجل الطين . يقول : الحجارة من هذين الجنسين الحجر والطين . قال : والعصف ورق الزرع الذي لم يقصب . وقال الكسائي سمعت بعض النحويين يقول واحد الأبابيل أبيل وقال كثيرون من السلف الأبابيل الفرق من الطير التي يتبع بعضها بعضاً من ههنا وههنا . وان ابن عباس كان له خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب وعن عكرمة كانت رؤوسها كرؤوس السباع خرجت عليهم من البحر وكانت خضراً . وقال عبيد بن عمير كانت سوداً بحرية في مناقيرها وأكفها الحجارة . وعن ابن عباس كانت أشكالها كعنقاء مغرب وعن ابن عباس كان أصغر حجر منها كرأس الانسان ومنها ما هو كالإبل . وهكذا ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق . وقيل كانت صغاراً والله أعلم[1]*

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن عبيد بن عمير قال لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً انشئت من البحر أمثال الخطاطيف كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار حجرين في رجليه وحجراً في منقاره قال فجاءت حتى صفت على رؤوسهم . ثم صاحت وألقت ما في رجليها ومناقيرها . فما يقع حجر على رأس رجل إلّا خرج من دبره . ولا يقع على شيء من جسده إلّا خرج من الجانب الآخر[2] . ويعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً .

وقد تقدم أن ابن إسحاق قال وليس كلهم اصابته الحجارة يعني بل رجع منهم راجعون إلى اليمن حتى أخبروا أهلهم بما حل بقومهم من النكال وذكروا أن ابرهة رجع وهو يتساقط أنملة أنملة فلما وصل إلى اليمن انصدع صدره فمات لعنه الله[3] .

---

* حجارة طبخت بنار جهنم مكتوب فيها اسماء القوم .

(۱) في تفسير القرطبي : قال عبد المطلب : إنها اشباه اليعاسيب . وقال الكلبي : في مناقيرها حصى كحصى الحذف . امام كل فرقة طائر يقودها ، أحمر المنقار ، أسود الرأس طويل العنق . وقال سعيد بن جبير : خضر لها مناقير صفر . وقيل كانت بيضاً .

(۲) قال القرطبي في تفسيره : قيل : كان الحجر يقع على بيضة أحدهم فيخرقها ويقع في دماغه ، ويخرق الدابة والفيل . ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقعه .

(۳) في تفسير القرطبي ج ۱۹۳/۲۰ : وكان أصحاب الفيل ستين ألفاً ، لم يرجع منهم احد إلّا أميرهم ، ورجع معه شرذمة لطيفة ، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا .

وفي رواية للقرطبي : ولم يسلم منهم إلّا رجلاً من كندة ـ نفيل بن حبيب ـ .

وجاء في أخبار الأزرقي : وأقام بمكة فلال من الجيش وعسفاء وبعض من ضمه العسكر ، فكانوا بمكة يعتملون ويرعون لأهل مكة .

وروى ابن إسحاق قال حدثني عبد الله بن أبي بكر عن سمرة[١] عن عائشة قالت لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان[٢]. وتقدم أن سائس الفيل كان اسمه أنيساً فأما قائده فلم يسم والله أعلم .

وذكر النقاش في تفسيره أن السيل احتمل جثثهم فألقاها في البحر[٣] . قال السهيلي وكانت قصة الفيل أول المحرم من سنة ست وثمانين وثمانمائة[٤] من تاريخ ذي القرنين .

قلت وفي عامها ولد رسول الله ﷺ على المشهور . وقيل كان قبل مولده بسنين كما سنذكر إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

ثم ذكر ابن إسحاق ما قالته العرب من الأشعار في هذه الكائنة العظيمة التي نصر الله فيها بيته الحرام الذي يريد أن يشرفه ويعظمه ويطهره ويوقره ببعثة محمد ﷺ وما يشرع له من الدين القويم الذي أحد أركانه الصلاة بل عماد دينه وسيجعل قبلته إلى هذه الكعبة المطهرة ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نصرة لقريش إذ ذاك على النصارى الذين هم الحبشة : فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب لها من مشركي قريش وإنما كان النصر للبيت الحرام وإرهاصاً وتوطئة لبعثة محمد ﷺ .

فمن ذلك ما قاله عبدالله بن الزبعرى السهمي :

تنكّلوا عن بطنِ مكّة إنها ... كانت قديماً لا يُرام حَريمها[٥]
لم تُخلَق الشّعرى ليالِيَ حُرِّمت ... إذْ لا عزيزَ من الأنام يرومها[٦]
سائلْ أميرَ الحَبْشِ عنها ما رأى ... فلسوفَ يُنبي الجاهلينَ عليمُها[٧]

---

(١) كذا في الأصل سمرة . وفي ابن هشام والطبري وابن الأثير : عمرة .
وعمرة هي بنة عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الأنصارية المدنية الفقيهة . كانت في حجر عائشة وروت عنها الكثير توفيت سنة ٩٨ هـ وقيل سنة ١٠٦ هـ عن سبع وسبعين سنة .

(٢) جاء في تفسيره عن عتاب بن أسيد قال: وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس ٢٠/١٩٥ .

(٣) في الطبري ج ٢/١١٥ : وبعث الله سيلاً أتياً فذهب بهم فألقاهم في البحر .

(٤) في السهيلي سنة اثنتين وثمانين ، وفي مروج الذهب ج ٢/٢٩٦ .
وفي الطبري لمضي ٤٢ سنة من ملك كسرى انوشروان وفي هذا العام كان يوم جبلة .
وفي أيام العرب في الجاهلية يوم جبلة كان قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة . نهاية الأرب ٤١٤ وقال ابن سيد الناس : ص ٢٧ : ذكر أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي قال : كان قدوم الفيل مكة لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم . وافقه المسعودي . وزاد كان قدوم ابرهة مكة لسبع عشرة خلت من المحرم ولست عشرة ومائتين من تاريخ العرب ولسنة أربعين من ملك كسرى .

(٥) تنكلوا ورويت تنكبوا ومعناها : انصرفوا وارجعوا خوفاً .

(٦) الشعرى : وهما شعريان ـ اسم نجم ـ الغميصاء والأخرى تتبع الجوزاء .

(٧) في ابن هشام الجيش بدل الحبش .

ستّـون ألفـاً لم يَـؤوبـوا أرضَهم   بلْ لم يعشْ بعدَ الايابِ سَقيمُها[1]
كـانتْ بهـا عـادَ وجـرهمُ قبلَهم   واللّهُ من فـوقِ العبـادِ يُقيـمهـا

ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت الأنصاري المدني :

ومنْ صُنعـهِ يـومَ فَيـلِ الحبُـو   شِ إذْ كـلّما بـعـثُـوه رَزَم
محاجـنُهـم تحـتَ أقـرابـه   وقـدْ شَـرَمـوا أنفَـه فـانخَـرم[2]
وقـد جَـعـلوا سـوْطَـه مُـغْـولاً   إذا يَمّـمـوه قَـفـاهُ كَـلـم
فـولّى وأدبَـرَ أدراجَـه   وقـدْ باءَ بـالـظلم من كـان ثَم
فـأرسـلَ من فـوقهم حـاصبـاً   فلفّهـم مثـلَ لـفّ القـزَم[3]
تحضّ عـلى الـصّبـر أحبـارُهـم   وقـد ثـأجـوا كـثُؤاجِ الـغَنَم[4]

ومن ذلك قول أبي الصلت ربيعة بن أبي ربيعة وهب بن علاج الثقفي قال ابن هشام ويروى لامية بن أبي الصلت :

إن آيـاتِ ربّـنـا ثـاقـبـاتٌ   مـا يُمـارِي فيهنّ إلاّ الكَـفُـور[5]
خـلَقَ الـليـلَ والـنهـارَ فـكـلٌ   مستـبـيـنٌ حسـابُـهُ مـقـدور
ثـم يجلو الـنهـارُ رب رحـيـم   بمـهـاةٍ شعـاعـهـا منـشـور
حبسَ الفيـلَ بـالمغمس حتى   صـارَ يحبـو كـأنـه معـقـور
لازمـاً حـلقـة الجـرانِ كـمـا قـ   ـد من صخـرِ كبكـبِ محـدور[6]
حـولَـه من ملوكِ كِنـدة أبـطا   ل ملاويث في الحروب صقـور[7]
خـلفـوه ثـم ابـذعـروا جميعـاً   كـلهم عـظم سـاقِـه مكسـور
كـل دين يـومَ القيـامة عنـد الـلـ   ـه إلاّ ديـنَ الحـنـيـفـةِ بـور

ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت أيضاً :

فقُـومـوا فَصَلّوا ربكم وتمسحـوا   بأركانِ هذا البيت بين الأخاشب[8]

---

(١) في ابن هشام حذفت بل ، ونبه السهيلي على أن بل زيادة زادها بعضهم ممن ظن خطأ أن البيت مكسور .
(٢) في الأزرقي : وقد كلموا أنفه بالخزم .
(٣) في الأزرقي : يلفهم .
(٤) في الأزرقي : يحث على الطير أجنادهم .
(٥) في الأزرقي : إن آيات ربنا بينات .
(٦) في ابن هشام كما قطّر بدل كما قدّ . وكبكب : اسم جبل .
(٧) ملاويث جمع ملاث وهو الشديد والشريف .
(٨) الأخاشب : جبال مكة وجبال منى .

فعندكمَ منه بلاء مصدق | غداةَ أبي يكسوم هادي الكتائب
كتيبتُه بالسهلِ تمشي ورَجله | على القاذفاتِ في رؤوس المناقب
فلما أتاكم نصرُ ذي العرش ردهم | جنود المليكِ بين ساف وحاصب[١]
فولوا سِراعاً هاربين ولم يؤب | إلى أهلهِ ملحبش غير عصائب[٢]

ومن ذلك قول عبيد الله بن قيسِ الرقيات في عظمة البيت وحمايته بهلاك من أراده بسوء :

كاده الأشرم الذي جاء بالفيـ | ـلِ فولى وجيشه مهزوم
واستهلت عليهم الطير بالجنـ | ـدَل حتى كأنه مرجوم
ذاك من يغزه من الناسِ يرْ | جع وهو فل من الجيوشِ ذميم

قال ابن إسحاق : وغيره فلما هلك ابرهة ملك الحبشة[٣] بعده ابنه يكسوم . ثم من بعده أخوه مسروق بن ابرهة وهو آخر ملوكهم . وهو الذي انتزع سيفُ بن ذي يزن الحميري الملك من يده بالجيش الذين قدم بهم من عند كسرى أنو شروان كما سيأتي بيانه .

وكانت قصة الفيل في المحرم سنة ست وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذي القرنين وهو الثاني إسكندر بن فلبس المقدوني الذي يؤرخ له الروم . ولما هلك أبرهة وابناه وزال ملك الحبشة عن اليمن هجر القُليس الذي كان بناه أبرهة وأراد صرف حج العرب إليه لجهله وقلة عقله . وأصبح يباباً لا أنيس به . وكان قد بناه على صنمين وهمًا كعيب وامرأته وكانا من خشب طول كل منهما ستون ذراعاً في السماء وكانا مصحوبين من الجان ولهذا كان لا يتعرض أحد إلى أخذ شيء من بناء القليس وأمتعته إلاّ أصابوه بسوء . فلم يزل كذلك إلى أيام السفاح أول خلفاء بني العباس فذكر له أمره وما فيه من الأمتعة والرخام الذي كان أبرهة نقله إليه من صرح بلقيس الذي كان باليمن فبعث إليه من خربه حجراً حجراً وأخذ جميع ما فيه من الأمتعة والحواصل هكذا ذكره السهيلي والله أعلم .

خروج الملك عن الحبشة ورجوعه إلى سيف بن ذي يزن

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : فلما هلك ابرهة ملك الحبشة يكسوم بن ابرهة وبه كان يكنى فلما هلك يكسوم ملك اليمن من الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة . قال : فلما طال البلاء على أهل اليمن[٤] خرج سيف بن ذي يزن الحميري وهو سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك بن

(١) في الأزرقي : فلما أجازوا بطن نعمان ردهم .
(٢) في الأزرقي : بالجيش ، وفي هامشه قال : كذا في تصحيحات الطبعة الأوروبية .
(٣) في ابن هشام : ملك اليمن في الحبشة وفي الطبري : ملك اليمن ابنه في الحبشة .
(٤) أذل مسروق اليمن ، حمير وقبائل اليمن ، ووطئتهم الحبشة فنكحوا نساءهم وقتلوا رجالهم واتخذوا أبناءهم

زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن العرنجج ، وهو حمير بن سبأ - وكان سيف يكنى أبا مرة - حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكي إليه ما هو فيه ، وسأله أن يخرجهم عنه ويليهم ، وهو يخرج إليهم من شاء من الروم ، فيكون له ملك اليمن ، فلم يشكه [ولم يجد عنده شيئاً مما يريد] .

فخرج[1] حتى أتى النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق ، فشكا إليه أمر الحبشة فقال له النعمان إن لي على كسرى وفادة في كل عام فاقم عندي حتى يكون ذلك ففعل ثم خرج معه فأدخله على كسرى وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذي فيه تاجه وكان تاجه مثل القنقل[2] العظيم فيما يزعمون يضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة معلقاً بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك ، وكانت عنقه لا تحمل تاجه إنما يستر عليه بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك ثم يدخل رأسه في تاجه فإذا استوى في مجلسه كشف عنه الثياب فلا يراه أحد لم يره قبل ذلك إلا برك هيبة له . فلما دخل عليه [سيف] طأطأ رأسه فقال الملك : إن هذا الأحمق يدخل عليّ من هذا الباب الطويل ثم يطأطىء رأسه . فقيل ذلك لسيف فقال إنما فعلت هذا لهمي لأنه يضيق عنه كل شيء .

ثم قال : أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة . قال كسرى أي الأغربة الحبشة أم السند قال بل الحبشة فجئتك لتنصرني ويكون ملك بلادي لك فقال له كسرى بعدت بلادك مع قلة خيرها فلم أكن لأورط جيشاً من فارس بأرض العرب لا حاجة لي بذلك ، ثم أجازه بعشرة آلاف درهم وافٍ[3] وكساه كسوة حسنة فلما قبض ذلك منه سيف خرج فجعل ينثر تلك الورق للناس ، فبلغ ذلك الملك فقال إن لهذا لشأناً ثم بعث إليه فقال عمدت إلى حباء الملك تنثره للناس قال وما أصنع بحباك ، ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهب وفضة ، يرغبه فيها [مما رأى من زهادته فيها إنما

= تراجعة بينهم وبين العرب (انظر الطبري - ابن الأثير) وقال المسعودي : عم آذان سائر الناس وزاد على أبيه وأخيه . . .

(١) في مروج الذهب ج ٢/٨٦ : أقام سيف على باب قيصر سبع سنين فأبى نجدته وقال له : أنتم يهود والحبشة نصارى وليس في الديانة أن ننصر المخالف . فمضى إلى كسرى فاستنجده فوعده أنو شروان بالنصرة ، وشغل بحرب الروم . ومات سيف فأتى بعده ابنه معد يكرب بن سيف .

الأخبار الطوال ٦٣ ذهب إليه في انطاكية .

وفي ابن الأثير ان ذي يزن الذي طلب المساعدة الأولى من كسرى .

(٢) القنقل : مكيال ، يسع ثلاثة وثلاثين مناً (والمن : وزان رطلين تقريباً) .

(٣) وافٍ : وفى الدرهم المثقال ، وذلك إذا عدله .

جئت الملك ليمنعني من الظلم ويدفع عني الذل][1]. فجمع كسرى مرازبته فقال لهم : ما ترون في أمر هذا الرجل وما جاء له . فقال قائل : أيها الملك إن في سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل فلو أنك بعثتهم معه فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردت بهم وإن ظفروا كان ملكاً أزددته ، فبعث معه كسرى من كان في سجونه وكانوا ثمانمائة رجل واستعمل عليهم وهرز وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حسباً وبيتاً فخرجوا في ثمانِ سفائن فغرقت سفينتان ووصل إلى ساحل عدن[2] ست سفائن[3] فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه وقال له رجلي ورجلك حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً فقال له وهرز : أنصفت وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن وجمع إليه جنده[4] فأرسل إليهم وهرز ابناً له[5] ليقاتلهم فيختبر قتالهم ، فقتل ابن وهرز فزاده ذلك حنقاً عليهم فلما تواقف الناس على مصافهم . قال وهرز : أروني ملكهم فقالوا له أترى رجلاً على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء . قال : نعم . قالوا ذلك ملكهم فقال اتركوه قال فوقفوا طويلاً ثم قال علام هو ؟ قالوا قد تحول على الفرس . قال اتركوه فتركوه طويلاً ثم قال علام هو ؟ قالوا على البغلة قال وهرز : بنت الحمار ذل وذل ملكه ، إني سأرميه فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا فأثبتوا حتى أوذنكم فإني قد أخطأت الرجل وإن رأيتم القوم قد استداروا به ولاثوا فقد أصبت الرجل فاحملوا عليهم . ثم وتر قوسه وكانت فيما يزعمون لا يوترها غيره من شدتها وأمر بحاجبيه فعصبا له ثم رماه فصك الياقوتة التي بين عينيه وتغلغلت النشابة في رأسه حتى خرجت من قفاه ، ونكس عن دابته واستدارت الحبشة ولاثت به ، وحملت عليهم الفرس فانهزموا فقتلوا وهربوا في كل وجه ، وأقبل وهرز ليدخل صنعاء حتى إذا أتى بابها قال لا تدخل رايتي منكسة أبداً اهدموا هذا الباب فهدم ، ثم دخلها ناصباً رايته فقال سيف بن ذي يزن الحميري :

يظن الناسُ بالملكيـ ... ـن أنهما قد التأما
ومن يسمعْ بلأمِهما ... فإن الخطب قد فَقُما
قتلنا القَيْلَ مسروقاً ... وروينا الكثيبَ دما
وإن القيلَ قيلَ النا ... سِ وهرز مقسَم قِسَما
يذوق مشعشَعاً حتى ... نفيءَ السبيَ والنَّعما

---

(١) ما بين معكوفين في الحديث زيادة من الطبري اقتضاها اكتمال المعنى .

(٢) في مروج الذهب : أتوا ساحل حضرموت في مكان يقال له : مثوب ، فأمرهم وهرز أن يحرقوا السفن ليعلموا أنه الموت .

(٣) في الطبري : فيهن ستمائة رجل .

(٤) في الطبري : مائة ألف من الحبشة وحمير والأعراب . وكهلان ومن سائر من سكن اليمن من الناس . مروج الذهب ٢/٨٧.

(٥) في الطبري : يقال له : نوزاذ .

ووفدت العرب من الحجاز وغيرها على سيف يهنئونه بعود الملك إليه وامتدحوه . فكان من جملة من وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم ، فبشره سيف برسول الله ﷺ وأخبره بما يعلم من أمره وسيأتي ذلك مفصلاً في باب البشارات به عليه الصلاة والسلام .

قال ابن إسحاق : وقال أبو الصلبت بن أبي ربيعة الثقفي قال ابن هشام ويروى لامية بن أبي الصلت(١) :

لِيطلبِ الوِتـرَ أمثالُ ابن ذي يَـزَن ... ريّم في البحرِ للأعـداءِ أحـوالا(٢)
يمّمَ قيصـراً لمـا حـانَ رحلتـه ... فلم يجد عندَه بعضَ الذي سالا(٣)
ثم انثنى نحـو كسرى بعـدَ عاشـرةٍ ... من السنين يهين النفسَ والمالا(٤)
حتى أتى ببني الأحـرارِ يحملهـم ... إنك عَمري لقد أسرعتَ قَلقالا(٥)
لله درُّهـم من عـصْبـةٍ خـرجـوا ... ما إن أرى لهمُ في الناسِ أمثالا(٦)
غُلبـاً مـرازبـةً بيضـاً أسـاورةً ... أُسْداً تُربّبُ في الغَيْضـات أشبالا(٧)
يـرمُـون عن سُـدُفٍ كـأنها غبطٌ ... بزَمْخَرٍ يُعجِل المـرميّ إعجـالا(٨)
أرسلتَ أُسداً على سود الكلابِ فقد ... أضحى شريدُهم في الأرضِ فُلّالا
فاشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مرتفقاً ... في رأس غمدان دارا منك محلالا(٩)
واشربْ هنيئاً فقـد شالتْ نعـامتُهم ... وأسبلِ اليومَ في بُرْديك إسبالا(١٠)
تلكَ المكـارمُ لا قَعْبـانِ من لبـنٍ ... شِيبـا بمـاءٍ فـعـادا بعـدُ أبـوالا

يقال ـ إن غمدان ـ قصر باليمن بناه يعرب بن قحطان وملكه بعده واحتله واثلة بن حمير بن سبأ ويقال كان ارتفاعه عشرين طبقة فالله أعلم .

---

(١) في المسعودي ٢/٩٠ : لأبي زمعة جد أمية بن أبي الصلت
(٢) في المسعودي : في لجة البحر أحوالاً وأحوالاً .
(٣) في الطبري : أتى هرقل وقد شالت نعامتهم . . . قالا ،
(٤) في الطبري : ثم انتحى نحو كسرى بعد سابعة . وفي الشعر والشعراء بعد تاسعة .
(٥) في الطبري : انك لعمري لقد أطولت . والأحرار يعني : الفرس .
وفي المسعودي : تخالهم في سواد الليل أجبالاً .
(٦) في الطبري : ما إن ترى . وفي المسعودي : ما إن رأيت .
(٧) في الطبري : غر جحاجحة بيض مرازبة . وفي ابن هشام : بيضاً مرازبة غلباً أساورة والغلب : الشداد . والأساورة : رماة الفرس .
(٨) في الطبري وابن هشام : شدف بدل سدف . وشدف عظام الأشخاص وهنا يعني القسي .
(٩) غمدان : قصر بناه يشرح بن يحصب وقيل بناه سليمان عليه السلام وقد هدم في عهد عثمان رضي الله عنه .
(١٠) شالت نعامتهم : اشارة إلى هلاكهم . فالهالك ترتفع رجلاه وينتكس رأسه فتظهر نعامة قدميه وترتفع .

قال ابن إسحاق : وقال عدي بن زيد الحميري وكان أحد بني تميم :

ما بعدَ صنعاءَ كان يعمُرها ... ولاة ملكٍ جزْلٍ مَواهِبُها
رفعها من بني لذي قزع الـ ... ـمزْنِ وتندى مسكاً محاربُها
محفوفة بالجبالِ دون عرى الـ ... ـكائدِ ما يُرتقى غواربُها
يأنس فيها صوتُ النهامِ إذا ... جاوَبها بالعشيّ قاصبها(١)
ساقتْ إليها الأسبابُ جندَ بني الـ ... أحرارِ فرسانُها مواكبها
وفوّزتْ بالبغال توسَق بالحـ ... ـتفِ وتَسعى بها توالبُها(٢)
حتى يراها الأقوالُ من طرفِ المـ ... ـنقل مخضرّةً كتائبها
يومَ ينادون آل بربَرَ واليكـ ... ـسُومَ لا يفلحن هاربها
فكان يوماً باقي الحديثِ وزا ... لتْ إمّة ثابت مراتبها(٣)
وبُدّل الهيجُ بالزرافة والأ ... يام خُون جَمٌّ عجائبها(٤)
بعدَ بني تُبَّعٍ نخاورة ... قد اطْمأنّتْ بها مَرازِبها

قال ابن هشام : وهذا الذي عنى سطيح بقوله يليه إرم ذي يزن يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهن أحداً باليمن . والذي عنى شق بقوله : غلام ليس بدني ولا مدن يخرج من بيت ذي يزن .

قال ابن إسحاق : وأقام وهرز والفرس باليمن فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناء (٥) الذين باليمن اليوم .

وكان ملك الحبشة باليمن فيما بين أن دخلها ارياط إلى أن قتلت الفرس مسروق بن أبرهة وأخرجت الحبشة اثنتين وسبعين سنة توارث ذلك منهم أربعة : أرياط ثم أبرهة ثم يكسوم بن أبرهة ثم مسروق بن أبرهة .

ما ال إليه أمر الفرس باليمن

قال ابن هشام : ثم مات وهرز فأمر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن ثم مات

---

(١) النهام : ذكر البوم القاصب : صاحب الزمارة .

(٢) توالبها : جمع تولب وهو ولد الحمار .

(٣) في بعض النسخ أمّة وهو خطأ والصواب إمّة : وهي النعمة .

(٤) في ابن هشام وسيرة ابن كثير : الفيج بدل الهيج : وهو المنفرد في مشيته . والزرافة : الجماعة .

(٥) في النهاية لابن الأثير : ويقال لأولاد فارس الأبناء ، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن ، فقيل لأولادهم الأبناء وغلب عليهم هذا الاسم لأن امهاتهم من غير جنس آبائهم .

المرزبان فأمر كسرى ابنه التينجان ثم مات فأمر ابن التينجان[1] ، ثم عزله عن اليمن وأمر عليها باذان وفي زمنه بُعث رسول الله ﷺ .

قال ابن هشام فبلغني عن الزهري أنه قال : كتب كسرى إلى باذان : أنه بلغني أن رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي فسر إليه فاستتبه فإن تاب وإلاّ فابعث إليّ برأسه ، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله ﷺ فكتب إليه رسول الله ﷺ إنّ الله قد وعدني أن يقتل كسرى في يوم كذا وكذا من شهر كذا ، فلما أتى باذان الكتابُ وقف لينتظر وقال إن كان نبياً فسيكون ما قال فقتل الله كسرى في اليوم الذي قال رسول الله ﷺ . قال ابن هشام : على يدي ابنه شيرويه . قلت : وقال بَعضهم بنوه تمالأوا على قتله، وكسرى هذا هو ابرويز بن هرمز بن أنو شروان بن قباز[2] ، وهو الذي غلب الروم في قوله تعالى : ﴿ آلم غلبت الروم في أدنى الأرض ﴾ . كما سيأتي بيانه .

قال السهيلي : وكان قتله ليلة الثلاثاء لعشر خلون من جمادي الأولى سنة تسع[3] من الهجرة . وكان والله أعلم لما كتب إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام فغضب ومزق كتابه ، كتب إلى نائبه باليمن يقول له ما قال . وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لرسول باذان : إن ربي قد قتل الليلة ربَّك فكان كما قال رسول الله ﷺ قتل تلك الليلة بعينها ، قتله بنوه لظلمه بعد عدله بعدما خلعوه وولوا ابنه شيرويه فلم يعش بعد قتله أباه إلاّ ستة أشهر أو دونها[4] . وفي هذا يقول خالد بن حق الشيباني :

وكسرى إذ تقسّمه بنوه ... بأسيافٍ كما اقتسم اللحام
تمخضت المنون له بيوم ... ألا ولكلّ حاملةٍ تمام

قال الزهري : فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه من الفرس إلى رسول الله ﷺ فقالت الرسل : إلى من نحن يا رسول الله . قال أنتم منا وإلينا أهل البيت . قال :

---

(١) في الطبري ج ٢/١٢١ ابن الأثير ج ١/٤٥١ : اسمه : خر خسره بن البينجان .
وفي مروج الذهب : ٢/٨٣ ملك النوشجان بن وهرز بعد وهرز ثم رجل يقال له سبحان ثم خرزاد ثم ابن سبحان ثم المرزبان ثم بعد خر خسرو وكان مولده باليمن ثم بعده باذان .
وفي اخبار الدينوري : بعد وهرز وجه كسرى إلى أرض اليمن باذان فلم يزل ملكاً عليها إلى أن قام الإسلام .
وقال ابن الأثير : وقد اختلفوا في ولاة اليمن للأكاسرة اختلافاً كثيراً

(٢) في الطبري وابن الأثير والمسعودي : قباذ ، وفي قصة مقتله قال الطبري ٢/١٥٩ : وثبت فارس على كسرى فقتلته وساعدهم على ذلك ابنه شيرويه : وكان الذي قتله مهر هرمز بن مردنشاه فاذوسبان نيمروذ . وزاد ابن الأثير : ان شيرويه أمر بقتل مهرمهز بعد دفن أبيه .

(٣) في الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١/٢٦٠ : سنة سبع .

(٤) في الطبري ٢/١٦٦ وابن الأثير ١/٤٩٧ ثمانية أشهر ، وفي المسعودي ج ١/٢٩١ سنة وستة أشهر . وكان هلاكه بالطاعون .

الزهري ومن ثم قال رسول الله ﷺ سلمان منّا أهل البيت . قلت والظاهر أن هذا كان بعدما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ولهذا بعث الأمراء إلى اليمن لتعليم الناس الخير ودعوتهم إلى الله عزَّ وجلَّ ، فبعث أولاً خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب ، ثم أتبعهما أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل . ودانت اليمن وأهلها للإسلام ومات باذان فقام بعده ولد شهر بن باذان ، وهو الذي قتله الأسود العنسي حين تنبأ وأخذ زوجته كما سيأتي بيانه وأجلى عن اليمن نواب رسول الله ﷺ فلما قتل الأسود عادت اليد الإسلامية عليها . وقال ابن هشام : وهذا هو الذي عنى به سطيح بقوله : نبي زكي يأتيه الوحي من قبل العلي . والذي عنى شق بقوله بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل .

قال ابن إسحاق : وكان في حجر باليمن فيما يزعمون كتاب بالزبور كتب بالزمان الأول : لمن ملك ذَمار ؟ الحمير الأخيار ، لمن ملك ذَمار ؟ للحبشة الأشرار . لمن ملك ذَمار ؟ لفارس الأحرار[1] ، لمن ملك ذمار لقريش التجار . وقد نظم بعض الشعراء هذا المعنى فيما ذكره المسعودي :

حين شُدّت ذِمارُ قِيلَ لمنْ انـ ـتِ فقالت لِحِميَرِ الأخيار
ثم سِيلتْ من بعدِ ذاك فقالـ ـت أنا للحُبْشِ أخبثِ الأشرار
ثم قالوا من بعد ذاك لمن أنـ ـتِ فقالت لفارسِ الأحرار
ثم قالوا من بعد ذاك لمن أنـ ـت فقالت إلى قريش التُّجار[2]

ويقال إن هذا الكلام الذي ذكره محمد بن إسحاق ، وجد مكتوباً عند قبر هود عليه السلام حين كشفت الريح عن قبره بأرض اليمن وذلك قبل زمن بلقيس بيسير في أيام مالك بن ذي المنار أخي عمرو ذي الأذعار بن ذي المنار ويقال كان مكتوباً على قبر هود أيضاً وهو من كلامه عليه السلام حكاه السهيلي والله أعلم .

---

(١) سمى حمير الأخيار: لأنهم كانوا أهل دين .
وسمى الحبشة الأشرار : لما احدثوا في اليمن من الفتن والعبث والفساد ، وهمّهم بهدم بيت الله الحرام .
فارس الأحرار: لأنهم لم يؤدوا الإتاوة لسلطان أجنبي ولم تخضع بلادهم لسيطرة ولم يدينوا الملك غريب عنهم .

(٢) في مروج الذهب ٢/ ٩٤ : كانت ملوك اليمن تنزل بمدينة ظفار ، وكان على باب ظفار مكتوب بالقلم الأول في حجر أسود :

يوم شيدت ظفار قيل : لمن أنـ ـت الأخيار
أن ملكي للأحبش الأشرار
ثم سلبت من بعد ذلك ؟ فقالت إن ملكي لفارس الأحرار
ثم سيلت : ما بعد ذالك فقالت إن ملكي إلى قريش التجار

قصة الساطرون صاحب الحضر

وقد ذكر قصته هاهنا عبد الملك بن هشام لأجل ما قاله بعض علماء النسب : إن النعمان بن المنذر الذي تقدم ذكره في ورود سيف بن ذي يزن عليه وسؤاله في مساعدته في رد ملك اليمن إليه إنه من سلالة الساطرون صاحب الحضر وقد قدمنا عن ابن إسحاق أن النعمان بن المنذر من ذرية ربيعة بن نصر(١) وأنه روي عن جبير بن مطعم أنه من أشلاء قيصر(٢)بن معد بن عدنان فهذه ثلاثة أقوال في نسبه فاستطرد ابن هشام في ذكر صاحب الحضر . والحضر حصن عظيم بناه هذا الملك وهو الساطرون على حافة الفرات وهو منيف مرتفع البناء ، واسع الرحبة والفناء ، دوره بقدر مدينة عظيمة وهو في غاية الأحكام والبهاء والحسن والسناء ، وإليه يجبى ما حوله من الأقطار والأرجاء . واسم الساطرون الضيزن بن معاوية بن عبيد بن أجرم من بني سليح بن حلوان بن الحاف بن قضاعة كذا نسبه ابن الكلبي . وقال غيره : كان من الجرامقة وكان أحد ملوك الطوائف وكان يقدمهم إذا اجتمعوا لحرب عدو من غيرهم وكان حصنه بين دجلة والفرات(٣) .

قال ابن هشام : وكان كسرى سابور ذو الأكتاف غزا الساطرون ملك الحضر وقال غير(٤) ابن هشام : إنما الذي غزا صاحب الحضر سابور بن أردشير بن بابك أول ملوك بني ساسان أذل ملوك الطوائف ورد الملك إلى الأكاسرة . وأما سابور ذو الأكتاف بن هرمز فبعد ذلك بدهر طويل والله أعلم ذكره السهيلي .

قال ابن هشام : فحصره سنتين ـ وقال غيره أربع سنين(٥)، وذلك لأنه كان أغار على بلاد سابور في غيبته بأرض العراق ـ فأشرفت بنت الساطرون(٦) وكان اسمها النضيرة فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جميلاً ، فدست إليه : أتتزوجني إن فتحتُ لك باب الحضر ؟ فقال : نعم ! فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر ،

---

(١) قال الطبري في تاريخه ٢/٢٨ : وهذا قول مضر وحماد الراوية وهو باطل .

(٢) كذا في الأصل قيصر ، والصواب في الطبري قنص . وجاء في ٢/٢٨ عنده : ولم يأت في قنص بن معد شيء أثبت من قول جبير بن مطعم : أن النعمان كان من ولده .

(٣) في الطبري ٢/٦١ ابن الأثير ١/٣٨٧ بجبال تكريت بين دجلة والفرات مدينة يقال لها الحضر وكان بها رجل من الجرامقة يقال له الساطرون . وزعم الكلبي أنه من العرب من قضاعة وأنه الضيزن بن معاوية بن عبيد بن الأجرام بن عمرو بن النخع بن سيح بن حلفان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وامه من تزيد بن حلوان واسمها جيهلة .

(٤) الطبري ج ٢/٦١ ابن الأثير ج ١/٣٨٧ المسعودي مروج الذهب ٢/٢٧١ .

(٥) في خبر الطبري وابن الأثير أربع سنين . وفي المسعودي : أقام عليه سابور شهراً .

(٦) في هشام : ساطرون ، وفي المسعودي : والساطرون واسيطرون هذه ألقاب .

وكان لا يبيت إلّا سكران فأخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه ، وبعثت بها مع مولى لها ، ففتح الباب ـ ويقال بل دلتهم على نهر يدخل منه الماء متسع فولجوا منه إلى الحضر ، ويقال بل دلتهم على طلسم كان في الحضر وكان في علمهم أنه لا يفتح حتى تؤخذ حمامة ورقاء وتخضب رجلاها(١) بحيض جارية بكر زرقاء ثم ترسل فإذا وقعت على سور الحضر سقط ذلك الطلسم فيفتح الباب ففعل ذلك فانفتح الباب ، فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحضر وخربه وسار بها معه فتزوجها . فبينا هي نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تململ لا تنام فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس(٢) ، فقال لها سابور أهذا الذي أسهرك ! قالت : نعم ؟ قال فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت : كان يفرش لي الديباج ويلبسني الحرير ويطعمني المخ ويسقيني الخمر(٣) . قال : أفكان جزاء أبيك ما صنعت به . أنت إليّ بذلك أسرع ، فربطت قرون(٤) رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها ففيه يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

ألم تَرَ للحضْرِ إذْ أهلُه ... بنعمي وهلْ خالِد مَن نَعِم
أقامَ به شاهبورُ الجنو ... دَ حولَيْن تضربُ فيه القَدم
فلمّا دعا ربه دعوةً ... أنابَ إليه فلم ينتقم(٥)
فهل زادَه ربه قوّةً ... ومثل مجاوِره لم يقم
وكانَ دعا قومَه دعوةً ... هلموا إلى أمرِكم قد صُرِم
فموتوا كِراماً بأسيافكم ... أرىٰ الموتَ يجشِمه من جشم

وقال عدي بن زيد في ذلك :

والحضرَ صابتْ عليه داهيةٌ ... مِن فوقه أيد مناكبها(٦)
ربيَّةٌ لم توق والدَها ... لحينها إذ أضاعَ راقبها(٧)
إذ غبقته صهباء صافية ... والخمر وهل يَهيم شاربُها
فأسلمتْ أهلَها بليلتها ... تظنّ أن الرئيسَ خاطبها(٨)

---

(١) في الطبري وابن الأثير والمسعودي : فاكتب في رجلها .

(٢) في الطبري وابن الأثير والمسعودي : ورقة من ورق الآس (الريحان) ملتزقة بعكنة من عكنها قد آثرت فيها .

(٣) في الطبري وابن الأثير والمسعودي : الزبد والمخ وشهد الأبكار من النحل وصفو الخمر .

(٤) ثم عصب غدائرها (الطبري ـ ابن الأثير ـ المسعودي) .

(٥) كذا في ابن هشام والذي في الطبري :

فلما رأى ربه فعله ... أتاه طروقاً فلم ينتقم

(٦) كذا في ابن هشام : وفي المسعودي : صبت بدل صابت . وعجزه : من قصره قد آبد ساكنها .

(٧) كذا في ابن هشام وفي المسعودي : ربيبة بدل ربية .

(٨) كذا في ابن هشام والذي في المسعودي : واسلمت أهلها لليلتها .

فكـان حظَّ العـروسِ إذ جَشر الـ ـصبح دمـاء تجـري سبائبهـا[1]
وخـرّب الحضر واستبيـح وقـد أحـرقَ في خـدرِهـا مشـاجبهـا

وقال عدي بن زيد أيضاً :

أيهـا الشـامت المعـيّر بـالـدهـ ـر أأنـت المبـرّأ المـوفـور
أم لـديـك العهـد الـوثيق من الأ يـام بـل أنت جـاهـل مغـرور
مـن رأيـت المنـون خـلدن أم من ذا عليـهِ من أن يضـام خفـير
أين كسـرى كسـرى الملوك أنـو شـروانَ أم أيـن قبـله سـابـور
وبنـو الأصفـر الكـرامَ ملوك الـ ـروم لم يـبـقَ منهـم مـذكـور
وأخـو الحضر إذ بنـاه وإذ دجلـ ـة تجـبـى إلـيـه والخـابـور
شـاده مـرمـراً وجـلله كـلـ ـسـاً فـللطير في ذِراه وكـور
لم يهـبـه ريـب المنـون فـبـا نَ الملك عـنه فبابـه مهجـور[2]
وتـذكـر ربَ الخـورنـق إذ أشـرف يـومـاً وللهـدى تفكـير
سـره مـالـه وكـثـرة مـا يـمـ ـلك والبحر معرضاً والسـدير[3]
فـارعـوى قلبـه وقـال ومـا غِبـ ـطة حـي إلى الممـاتِ يـصـير
ثـم اضـحَـوا كـأنهم ورق جـ ـف فـألـوَت بـه الصَبـا والـدَبـور

قلت : ورب الخورنق الذي ذكره في شعره رجل من الملوك المتقدمين وعظه بعض علماء زمانه في أمره الذي كان قد أسرف فيه وعتا وتمرد فيه واتبع نفسه هواها ولم يراقب فيها مولاها فوعظه بمن سلف قبله من الملوك والدول وكيف بادوا ولم يبق منهم أحد وأنه ما صار إليه عن غيره إلّا وهو منتقل عنه إلى من بعده ، فأخذته موعظته وبلغت منه كل مبلغ فارعوى لنفسه ، وفكر في يومه وأمسه ، وخاف من ضيق رمسه . فتاب وأناب ونزع عما كان فيه وترك الملك ولبس زي الفقراء وساح في الفلوات وحظي بالخلوات وخرج عما كان الناس فيه من اتباع الشهوات وعصيان رب السموات وقد ذكر قصته مبسوطة الشيخ الإمام موفق بن قدامة المقدسي رحمه الله في كتاب التوابين وكذلك أوردها بإسناد متين الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتاب الروض الأنف المرتب أحسن ترتيب وأوضح تبيين .

خبر ملوك الطوائف

وأما صاحب الحضر وهو ساطرون فقد تقدم أنه كان مقدماً على سائر لملوك الطوائف وكان

---

(١) جشر : طلع وأضاء . سبائبها : طرائقها .
(٢) في الطبري : فباد بدل فبان .

من زمن اسكندر بن فلبيس المقدوني اليوناني وذلك لأنه لما غلب على ملك الفرس دارا بن دارا وأذل مملكته وخرب بلاده واستباح بيضة قومه ونهب حواصله ومزق شمل الفرس شذر مذر عزم أن لا يجتمع لهم بعد ذلك شمل ولا يلتئم لهم أمر فجعل يقر كل ملك على طائفة من الناس في أقليم من أقاليم الأرض ما بين عربها وأعاجمها فاستمر كل ملك منهم يحمي حوزته ويحفظ حصته ويستغل محلته فإذا هلك قام ولده من بعده أو أحد قومه فاستمر الأمر كذلك قريباً من خمسمائة سنة حتى كان ازدشير بن بابك من بني ساسان بن بهمن بن أسفنديار بن يشتاسب بن لهراسب فأعاد ملكهم إلى ما كان عليه ورجعت الممالك برمتها إليه وأزال ممالك ملوك الطوائف ولم يبق منهم تلد ولا طارف وكان تأخر عليه حصار صاحب الحضر الذي كان أكبرهم وأشدهم وأعظمهم إذ كان رئيسهم ومقدمهم فلما مات أزدشير تصدى له ولده سابور فحاصره حتى أخذه كما تقدم والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر بني اسماعيل وما كان من أمور الجاهلية إلى زمان البعثة

تقدم ذكر اسماعيل نفسه عليه السلام مع ذكر الأنبياء وكيف كان من أمره حين احتمله أبوه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مع أمه هاجر فاسكنها بوادي مكة بين جبال فاران[1] حيث لا أنيس به ولا حسيس وكان إسماعيل رضيعاً ثم ذهب وتركهما هنالك عن أمر الله له بذلك ليس عند أمه سوى جراب[2] فيه تمر ووكاء فيه ماء فلما نفد ذلك أنبع الله لهاجر زُمزم التي هي طعام طعم وشفاء سقم كما تقدم بيانه في حديث ابن عباس الطويل الذي رواه البخاري[3] رحمه الله . ثم نزلت جرهم وهم طائفة من العرب العاربة من أمم العرب الأقدمين عند هاجر بمكة على أن ليس لهم في الماء شيء إلّا ما يشربون منه وينتفعون به فاستأنست هاجر بهم وجعل الخليل عليه السلام يطالع أمرهم في كل حين يقال إنه كان يركب البراق من بلاد بيت المقدس في ذهابه وإيابه ثم لما ترعرع الغلام وشب وبلغ مع أبيه السعي كانت قصة الذبح كما تقدم بيان أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح ثم لما كبر تزوج من جرهم امرأة[4] ثم فارقها وتزوج غيرها وتزوج بالسيدة[5] بنت

---

(١) فاران : كلمة عبرانية معربة ، وهي من اسماء مكة ذكرها في التوراة ، وقيل هي اسم لجبال مكة . ياقوت ٤/٢٢٤ .

(٢) في الأزرقي : شنة فيها ماء تشرب منها وتدر على ابنها وليس معها زاد ـ ١/٥٥ .

(٣) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق ـ باب يزفون النسلان في المشي ج ٢/١١٣ .

(٤) في الأزرقي : عمارة بنت سعيد بن أسامة . والذي في الروض الآنف : جداء بنت سعد وهي المرأة التي أمره أبوه بتطليقها ثم تزوج أخرى : سامة بنت مهلهل ، وقيل عاتكة .
امرأة من العماليق بنت صبدي الطبقات ١/٥١ المسعودي : الجداء بنت سعد ٢/٥١ .

(٥) كذا في الروض الآنف وفي الطبري ـ وفي ابن هشام رعلة ١/٥ وفي الأزرقي ١/٨٦ .
وقال الكلبي رعلة بنت يشجب بن يعرب بن لوزان بن جرهم الطبقات ١/٥١ .
المسعودي : سامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف بن هيني بنت نبت ٢/٥٢ .

مضاض بن عمرو الجرهمي وجماعته بالبنين الأثنى عشر كما تقدم ذكرهم وهم : نابت وقيذر . ومنشا . ومسمع . وماشي . ودما . وأذر . ويطور . ونيشي . وطيما . وقيذما هكذا ذكره محمد بن إسحاق[1] وغيره عن كتب أهل الكتاب وله ابنة واحدة اسمها نسمة[2] وهي التي زوجها من ابن أخيه العيصو بن إسحاق بن إبراهيم فولد له منها الروم وفارس والأشبان أيضاً في أحد القولين .

ثم جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون في أنسابهم إلى ولديه نابت وقيذر[3] ، وكان الرئيس بعده والقائم بالأمور الحاكم في مكة والناظر في أمر البيت وزمزم نابت بن إسماعيل وهو ابن أخت الجرهميين .

ثم تغلبت جرهم على البيت طمعاً في بني أختهم فحكموا بمكة وما والاها عوضاً عن بني إسماعيل مدة طويلة فكان أول من صار إليه أمر البيت بعد نابت مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن عيير[4] بن نبت بن جرهم .

وجرهم بن قحطان ويقال جرهم بن يقطن بن عيبر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح

---

(١) قال الطبري ١٦١/١ وقد ينطق اسماء أولاد اسماعيل بغير الألفاظ التي ذكرت عن ابن إسحاق :
نابت متفق عليه .
قيدر ـ قيذر ـ قيدار .
أذبل ـ أدبيل ـ أدبال ـ أدب ايل .
مبشا ـ منشا ـ مشا ـ مبشام ـ منشى .
مسمع ـ مشماعة .
ماشي ـ مامي .
دما ـ دمار ـ دوما .
ادر ـ اذر ـ آزر ـ اذور .
قيذما ـ قيدمان ـ قيدما ـ
نيش ـ نفيس ـ يافيش ـ فنس .
طيما ـ طما ـ ظيما .
يطور ـ تطور ـ طور ـ قمطور .
مسعودي ٥٢/٢
نابت ـ قيدار ـ ادبيل ـ مبسم ـ مشمع ـ دوما ـ دوام ـ مسا ـ حداد ـ تيما ـ يطور ـ نافش .

(٢) في الطبري ج ١٦٢/١ : بسمة تزوجها عيص بن إبراهيم فولدت له الروم بن عيص فكل بني الأصفر من ولده ويعض الناس يزعم أن الأشبان من ولده ولا أدري أمن بنت اسماعيل أم لا .

(٣) في الطبري والأزرقي : فمن نابت وقيدار نشر الله العرب وزاد الأزرقي : وكان أكبرهم قيدار ونابت .

(٤) في السهيلي والمسعودي : ابن هيني . وفي رواية للمسعودي ان ملك جرهم يومئذ الحارث بن مضاض وهو أول من ولي البيت . ٥٤/٢ ـ ٥٥ .

الجرهمي . وكان نازلاً بأعلى مكة بقعيقعان[1] .

وكان السميدع سيد قطوراء نازلاً بقومه في أسفل مكة[2]وكل منهما يعشر من مر به مجتازاً إلى مكة .

ثم وقع بين جرهم وقطوراء فاقتتلوا [قتالاً شديداً] فقتل السميدع واستوثق الأمر لمضاض وهو الحاكم بمكة والبيت لا ينازعه في ذلك ولد إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم وانتشارهم بمكة وبغيرها وذل لخؤولتهم له ولعظمة البيت الحرام [أن يكون به بغي أو قتال][3] .

ثم صار الملك بعده إلى ابنه الحارث ثم إلى عمرو بن الحارث .

ثم بغت جرهم بمكة واكثرت فيها الفساد وألحدوا بالمسجد الحرام[4]حتى ذكر أن رجلاً منهم يقال له اساف بن بغى وامرأة يقال لها نائلة بنت وائل[5] اجتمعا في الكعبة فكان منه اليها الفاحشة فمسخهما الله حجرين فنصبهما الناس قريباً من البيت ليعتبروا بهما فلما طال المطال بعد ذلك بمدد عبداً من دون الله في زمن خزاعة كما سيأتي بيانه في موضعه . فكانا صنمين منصوبين يقال لهما إساف ونائلة .

فلما اكثرت جرهم البغي بالبلد الحرام تمالأت عليهم خزاعة الذين كانوا نزلوا حول الحرم

---

(١) في الأزرقي : وكان في أعلى مكة وكان يعشر من دخلها من أعلاها وكان حوزهم وجه الكعبة والركن الأسود والمقام وموضع زمزم مصعداً يميناً وشمالاً وقعيقعان إلى أعلى الوادي .

(٢) أسفل مكة واجيادين وكان حوزهم المسفلة ظهر الكعبة والركن اليماني والغربي واجيادين والثنية إلى الرمضة وازرقي ١/٨٢ . وفي المسعودي السميدع بن هوير بن لاوى بن قبطور بن وجرهم وقطورا يومئذ أهل مكة ١/٨١ - ٨٥ . كركر بن حيد ٢/٥٤ .

(٣) ما بين معكوفين زيادة من الأزرقي .

وفي المسعودي أن القتال كان على الجرهميين ثم اصطلحوا وصارت ولاية البيت إلى العماليق . ثم كانت لجرهم عليهم وأقاموا ولاة للبيت نحو ثلاثمائة سنة .

وكان أول ملوكهم مضاض بن عمرو .

ثم عمرو بن مضاض ثم الحارث بن عمرو ثم عمرو بن الحارث ثم مضاض بن الحارث بن عمرو بن مضاض بن عمرو .

(٤) قال في الأزرقي ٨٦: فقام مضاض بن عمرو بن الحارث فيهم فقال : يا قوم احذروا البغي فإنه لا بقاء لأهله قد رأيتم من كان قبلكم من العماليق استخفوا بالحرم فلم يعظموه وتنازعوا بينهم واختلفوا . . . فلا تستخفوا بحق الحرم وحرمة بيت الله ولا تظلموا من دخله وجاءه معظماً لحرمته أو آخر جاءه بائعاً لسلعته أو مرتغباً في جواركم .

(٥) في الأزرقي : اساف بن سهيل اساف بن يعلى - بن عمرو ونايلة بنت عمرو بن ذيب وقيل نائلة بنت زيد من جرهم نائلة بنت سهل - بنت زفيل .

وفي ابن هشام : اساف بن بغى ونائلة بنت ديك ١/٨٤ وقيل غير ذلك (ابن الكلبي - معجم البلدان - شرح القاموس)

وكانوا من ذرية عمرو بن عامر الذي خرج من اليمن لأجل ما توقع من سيل العرم كما تقدم . وقيل إن خزاعة من بني اسماعيل فالله أعلم .

والمقصود أنهم اجتمعوا لحربهم وآذنوهم بالحرب واقتتلوا واعتزل بنو إسماعيل كلا الفريقين فغلبت خزاعة وهم بنو بكر بن عبد مناة وغبشان[١] واجلوهم عن البيت فعمد عمرو[٢] بن الحارث بن مضاض الجرهمي وهو سيدهم إلى غزالي الكعبة وهما من ذهب وحجر الركن وهو الحجر الأسود وإلى سيوف محلاة وأشياء أخر فدفنها في زمزم وعلم زمزم وارتحل بقومه فرجعوا إلى اليمن . وفي ذلك يقول عمرو بن الحارث بن مضاض[٣] :

وقـائلةٍ والـدمـعُ سكْـبٌ مبـادر	وقد شرقتْ بـالدمع منها المحـاجر
كأنْ لم يكن بين الحُجون إلى الصَّفا	أنيسٌ ولم يسمُر بمكَّة سـامر[٤]
فـقلتُ لهـا والـقلبُ مني كـأنمـا	يُلجلجُـه بين الجنـاحَينْ طـائر
بـلى نحنُ كنّـا أهلَهـا فـأزالنـا[٥]	صروفُ الليـالي والجدودُ العـواثر
وكنـا ولاةَ البيت من بعـد نـابتٍ	نَـطوْف بذاك البيت والخيرُ ظـاهر
ونحن وَلينـا البيتَ من بعـد نـابتٍ	بعزٍّ فـما يحـظى لـدينـا المُكـاثر
ملَكنـا فعـززنـا فـأعـظِمْ بملكنـا	فـليس لحيٍّ غيـرنـا ثَم فـاخـر
ألم تنكحوا من خيرِ شخصٍ علمتُه[٦]	فـابنـاؤه منـا ونحنُ الأصـاهـر
فـإن تنثني الـدنيـا علينـا بحـالهـا	فـإنَّ لهـا حـالاً وفيهـا التشـاجر
فـأخـرجَنـا منهـا المليكُ بقـدرةٍ	كـذلك يـا للناسِ تجري المقادر[٧]

---

(١) بنو غبشان ، منهم الحارث وهو غبشان بن عبد عمرو بن بوي بن ملكان بن أفصى بطن من خزاعة .

(٢) في الأزرقي : مضاض بن عمرو ؛ وكان مضاض حسب رواية الأزرقي قد انعزل عن جرهم بعد بغيهم ولم يشترك في القتال بينهم وبين خزاعة .

وبعد نصر خزاعة جاءهم بنو اسماعيل فسألوهم السكنى معهم وحولهم فأذنوا لهم . وأرسل مضاض يستأذن النزول مكة فرفضوا فانطلق مضاض نحو اليمن إلى أهله .

(٣) في الأزرقي مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض في قصيدة طويلة ١/ ٩٧. وفي المسعودي الحارث بن مضاض الأصغر . وفي ابن هشام عمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاض .

(٤) الحجون : الجبل المشرف على مسجد الحرس بأعلى مكة .

والصفا : مكان عالٍ في أصل جبل أبي قبيس جنوبي المسجد الحرام .

(٥) في ياقوت والمسعودي : فأبادنا .

(٦) في الأزرقي : فانكح جدي خير شخص علمته .

(٧) في التيجان : بالانسان بدل يا للناس وفي الأزرقي بين الناس .

أقــولُ إذا نــام الخــلْقُ ولم أنــم — أذا العرشُ لا يبعد سهيلٌ وعامر(١)
وبــدِّلتُ منهــا أوجُهــاً لا أحبهــا — قبــائــل منهــا حمــير ويحــابــر(٢)
وصــرْنا أحــاديثــاً وكُنــا بغبــطةٍ — بــذلــك عضَّتنا السنونُ الغــوابــر
فسحَتْ دمــوعُ العيـن تبكي لبلدةٍ — بهــا حَــرَم أمْنٌ وفيهــا المشــاعــر
وتبكي لبيــتٍ ليس يؤذَى حَمــامــه — يــظلّ بــه أمنــاً وفيــه العصــافــر(٣)
وفيــه وحــوشٌ لا تــرام أنيســةً — إذا خــرجت منــه فليست تغــادر

قال ابن إسحاق : وقال عمرو بن الحارث بن مضاض أيضاً يذكر بني بكر وغبشـان الذين خلفوا بعدهم بمكة :

يا أيها الناسُ سِيروا إن قُصارَكم(٤) — أن تصبحـوا ذاتَ يوم لا تسيرونا
حُثــوا المطيَّ وأرْخــوا من أزِمّتهــا — قبـلَ الممــاتِ وقضّــوا مــا تقضــونــا
كـنـا أنــاســاً كـما كنتم فغيّــرنــا — دهــر فأنتم كــما صرنـا تصيرونـا(٥)

قال ابن هشام : هذا ما صح له منها وحدثني بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب وأنها وجدت مكتوبة في حجـر باليمن ولم يسم قـائلها . وذكـر السهيلي لهـذه الأبيات أخوة وحكى عندها حكاية معجبة وانشادات معربة . قال : وزاد أبو الـوليد الأزرقي في كتابه فضائل مكة على هذه الأبيات المذكورة المنسوبة إلى عمرو بن الحارث بن مضاض :

قــد مــالَ دهــرٌ علينــا ثم أهلكَنــا — بــالبغي فينا وبزِّ النــاسَ نــاسونــا(٦)
واستخبِروا في صنيع النــاس قبلَكم — كــما استبــانَ طــريقٌ عنــده الهــونــا
كنــا زمــانــاً ملوكَ النــاس قبلَكم — بمسكنٍ في حَــرامِ الله مسكــونــا

قصة خزاعة وعمرو بن يحيى وعبادة العرب للأصنام

قال ابن إسحاق : ثم أن غبشان من خُزاعة وليت البيت دون بني بكر بن عبد مناة ، وكان

---

(١) سهيل وعامر : جبل من جبال مكة (الروض الأنف ـ معجم البلدان) .
(٢) في الأزرقي : منهم بدل منها وشطره : وحمير قد بدلتها واليحابر .
(٣) في الأزرقي والاعلام والروض اختلاف يسير في رواية البيت .
(٤) في ابن هشام والأزرقي قصركم : أي غايتكم ونهايتكم . وفي الأزرقي : يا أيها الحي .
(٥) في ابن هشام عجزه : دهر فأنتم كما كنا تكونونا .
وفي الأزرقي :
إنــا كــما كـنـتـمــوا كنــا فـغـيــرنــا — دهــر فــســوف كــما صــرنــا تصيــرونــا
(٦) في الأزرقي : فيه بدل فينا . وبر بدل وبز .

الذي يليه منهم عمرو بن الحارث الغبشاني ، وقريش إذ ذاك حلول وصرم[1] ، وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة . قالوا[2] : وإنما سميت خزاعة بخزاعة لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام فنزلوا بمر الظهران فأقاموا به . قال عون بن أيوب الأنصاري ثم الخزرجي في ذلك[3] :

فلمّا هبطْنا بطنَ مرّ تخزّعت خُزاعةُ مِنا في حلولِ كراكر[4]
حمتْ كل وادٍ من تِهامةَ واحتمت بصُمّ القَنا والمرهَفاتِ البواتر

وقال أبو المطهر اسماعيل بن رافع الأنصاري الأوسي :

فلما هبطنا بطن مكة أحمدت خزاعةُ دارَ الآكل المتحامل
فحّلت أكاريسا وشتّت قنابلاً على كل حيّ بين نجد وساحل[5]
نفَوا جرهماً عن بطن مكّة واحتبَوا بعزٍّ خزاعي شديدِ الكواهل

فوليت خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابراً عن كابر حتى كان آخرهم حليل[6] بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي الذي تزوج قصي بن كلاب ابنته حبى فولدت له بنيه الأربعة عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدا ، ثم صار أمر البيت إليه كما سيأتي بيانه وتفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة . واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلاثمائة[7] سنة وقيل خمسمائة سنة والله أعلم . وكانوا سوس[8] في ولايتهم وذلك لأن في زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحي[9] لعنه الله فإنه أول من دعاهم إلى ذلك وكان ذا مال جزيل جدا . يقال : إنه فقأ أعين عشرين بعيراً وذلك عبارة عن أنه ملك عشرين ألف بعير وكان من عادة العرب أن من ملك ألف بعير فقأ عين واحد منها لأنه يدفع بذلك العين عنها .

---

(١) صرم : جماعات متفرقة .

(٢) قالوا : عن ابن هشام وغيره .

(٣) كذا في ابن هشام وياقوت ، وفي الأزرقي حسان بن ثابت الأنصاري ، ونسب صاحب التيجان الأبيات إلى عمرو بن أنيف الغساني .

(٤) كذا في الأصل والأزرقي والروض الآنف . وفي ابن هشام : خيول . والحلول : البيوت الكبيرة . وكراكر : جماعات الخيل .

(٥) الأكاريس : الجماعات من الناس . والقنابل : جمع قنبلة : وهي القطعة من الخيل .

(٦) في المسعودي : خليل .

(٧) كذا في المسعودي ، وفي الأزرقي خمسمائة سنة .

(٨) كذا في الأصل : ولعلها : وكانوا مشؤومين في ولايتهم .

(٩) أبوه لحي وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وأمه فهيرة بنت عامر بن عمرو بن مضاض بن عمرو الجرهمي . كما في الأزرقي .

وممن ذكر ذلك الأزرقي وذكر السهيلي : أنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة وكسى عشرة آلاف حلة في كل سنة يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ويلت لهم السويق [1] . قالوا : وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع لشرفه فيهم ومحلته عندهم وكرمه عليهم .

قال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق ويقال ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا . فقال لهم : ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه[2] . فأعطوه صنماً يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

قال ابن إسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل عليه السلام أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم ، والتمسوا الفسح في البلاد، إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيث ما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم حتى خلفت الخلوف[3] ونسوا ما كانوا عليه .

وفي الصحيح عن أبي رجاء العطاردي . قال : كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا بها .

قال ابن إسحاق : واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات ؛ وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم عليه السلام يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفات والمزدلفة ، وهدى البدن ، والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه . فكانت كنانة وقريش إذا هلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده . يقول الله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾[4] أي ما يوحدونني لمعرفة حقي إلا

---

(١) وذكر الأزرقي : كان أول من أطعم الحج سدايف الإبل ولحمانها على الثريد وعم جميع الحاج بثلاثة أثواب من برود اليمن .

(٢) في ابن هشام : فيعبدوه .

(٣) خلوف : جمع خلف وهو القرن بعد القرن .

(٤) سورة يوسف الآية ١٠٦ .

جعلوا معي شريكاً من خلقي[1] .

وقد ذكر السهيلي وغيره : أن أول من لبى هذه التلبية عمرو بن لحي وأن ابليس تبدى له في صورة شيخ فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه ويقول كما يقول واتبعه العرب في ذلك .

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا سمعهم يقولون لبيك لا شريك لك يقول : « قَدِ قَدِ » أي حسب حسب .

وقد قال البخاري ثنا اسحاق بن إبراهيم حدثنا يحيى بن آدم ثنا اسرائيل عن أبي حفص عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : إنَّ أول من سيب السوائب وعبد الأصنام ، أبو خزاعة عمرو بن عامر وإني رأيته يجر أمعاءه في النار .

تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وهذا يقتضي أن عمرو بن لحي هو أبو خزاعة الذي تنسب إليه القبيلة بكمالها كما زعمه بعضهم من أهل النسب فيما حكاه ابن إسحاق وغيره ولو تركنا مجرد هذا لكان ظاهراً في ذلك بل كالنص ولكن قد جاء ما يخالفه من بعض الوجوه . فقال البخاري وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهري . قال سمعت سعيد بن المسيب قال : البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس ـ والسائبة ـ التي كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء . قال وقال أبو هريرة : قال النبي ﷺ : رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه[2] في النار . كان أول من سيب السوائب . وهكذا رواه البخاري أيضاً ومسلم من حديث صالح بن كيسان عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة به . ثم قال البخاري ورواه ابن الهاد عن الزهري قال الحاكم أراد البخاري رواه ابن الهاد عن عبد الوهاب بن بخت عن الزهري كذا قال .

وقد رواه أحمد عن عمرو بن سلمة الخزاعي عن الليث بن سعد عن يزيد بن الهاد عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول : رأيت عمرو بن عامر يجر قصبه في

---

(١) قال في مروج الذهب ٢/١٣٧ : كانت العرب في جاهليتها فرقاً :
ـ منهم الموحد المقر بخالقه المصدق بالبعث والنشور .
ـ وكان من العرب من أقر بالخالق وانكر الرسل وعكف على عبادة الأصنام وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها ونحروا لها البدن ونسكوا لها النسائك .
ـ ومنهم من أقر بالخالق وكذب بالرسل والبعث .
ـ ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية .
ـ ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهجمته .
ـ ومنهم صنف يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله .

(٢) قصبه : أمعاءه .

النار ، وكان أول من سيب السوائب وبحر البحيرة ولم يذكر بينهما عبد الوهاب بن بخت كما قال الحاكم فالله أعلم .

وقال أحمد أيضاً حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ، وهو أول من سيب السوائب . وهذا منقطع من هذا الوجه . والصحيح الزهري عن سعيد عنه كما تقدم وقوله في هذا الحديث والذي قبله الخزاعي يدل على أنه ليس والد القبيلة بل منتسب إليها مع ما وقع في الرواية من قوله أبو خزاعة تصحيف من الراوي من أخو خزاعة أو أنه كان يكنى بأبي خزاعة ولا يكون ذلك من باب الإخبار بأنه أبو خزاعة كلهم والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لأكثم بن الجون الخزاعي يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف[1] يجر قصبه في النار فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به ولا بك منه » . فقال أكثم : عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله قال : « لا إنك مؤمن وهو كافر ، إنه كان أول من غير دين اسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة[2] وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي » . ليس في الكتب من هذا الوجه[2] . وقد رواه ابن جرير عن هناد بن عبدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله وليس في الكتب أيضاً . وقال البخاري حدثني محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكرماني حدثنا حسان بن إبراهيم حدثنا يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : « رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ورأيت عمراً يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب » . تفرد به البخاري . وروى الطبراني من طريق صالح عن ابن عباس مرفوعاً في ذلك . والمقصود أن عمرو بن لحي لعنه الله كان قد ابتدع لهم أشياء في الدين غير بها دين الخليل فاتبعه العرب في ذلك فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً بيناً فظيعاً شنيعاً وقد أنكر الله تعالى عليهم في كتابه العزيز في غير ما آية منه فقال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لم تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾ [النحل : ١١٦] الآية . وقال تعالى : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ [المائدة : ١٠٦] وقد تكلمنا على هذا كله مبسوطاً وبينا اختلاف السلف في تفسير ذلك فمن أراده فليأخذه من ثم ولله الحمد والمنة . وقال تعالى : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسئلن عما كنتم تفترون ﴾ [النحل : ٥٦] . وقال

---

(١) قمعة : عمير وسمي قمعة لأنه انقمع وقعد . وخندف لقب بنت عمران بن الحاف بن قضاعة ؛ وقد خرجت مسرعة فقيل لها : تخندفين ، فسميت خندف .

(٢) ومثله في الأزرقي وفيه : ونصب الأصنام ، وهو أول من غير دين الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ؛ ١/١٠٠ .

تعالى : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ [الأنعام : ١٣٦] [وقال تعالى] : ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلّا من نشاء بزعمهم وانعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ [الأنعام : ١٣٨] . [وقال تعالى] : ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم أنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ [الأنعام : ١٣٩ ـ ١٤٠][1] .

وقال البخاري في صحيحه[2] .

باب جهل العرب

حدثنا أبو النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر[3] عن سعيد بن جبير عن ابن عباس [رضي الله عنهما] قال إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ وقد ذكرنا تفسير هذه الآية وما كانوا ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة التي ظنها كبيرهم عمرو بن لحي قبحه الله مصلحة ورحمة بالدواب والبهائم وهو كاذب مفتر في ذلك ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام فيه بل قد تابعوه فيما هو أطم من ذلك وأعظم بكثير وهو عبادة الأوثان مع الله عزَّ وجلَّ وبدلوا ما كان الله بعث به إبراهيم خليله من الدين القويم والصراط المستقيم من توحيد عبادة الله وحده لا شريك له وتحريم الشرك وغيروا شعائر الحج ومعالم الدين بغير علم ولا برهان ولا دليل صحيح ولا ضعيف واتبعوا في ذلك من كان قبلهم من الأمم المشركين وشابهوا قوم نوح وكانوا أول من أشرك بالله وعبد الأصنام ولهذا بعث الله إليهم نوحاً وكان أول رسول بعث ينهى عن عبادة الأصنام كما تقدم بيانه في قصة نوح ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن

---

(١) وانعام حرمت ظهورها أي ما يسيبونه لآلهتهم . وقال مجاهد : المراد البحيرة والوصيلة والحام . فالبحيرة : الناقة التي انتجت خمسة أبطن وكان آخرها ذكراً بحروا أذنها واعفوا ظهرها من الركوب والحَمل والذبح .
الوصيلة : الناقة التي وصلت بين عشرة أبطن ومن الشاه التي وصلت سبعة أبطن .
والحامي : الفحل من الإبل يضرب الضراب المعدود قبل عشرة أبطن فإذا بلغ ذلك قالوا : هذا حام ، أي حمى ظهره فيترك .

(٢) كتاب بدء الخلق ـ باب قصة زمزم وجهل العرب ج ٤/ ١٦٠ ـ ١٦١ .

(٣) أبو النعمان هو محمد بن الفضل عارم . وأبو عوانة اسمه الوضاح بن عبد الله اليشكري وأبو بشر : واسمه جعفر بن أبي وحشية .

وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ﴾ [نوح: ٢٣] الآية قال ابن عباس كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم فلما طال عليهم الأمد عبدوهم وقد بيّنا كيفية ما كان من أمرهم في عبادتهم بما أغنى عن إعادته ههنا .

قال ابن إسحاق وغيره : ثم صارت هذه الأصنام في العرب بعد تبديلهم دين اسماعيل فكان ود لبني كلب بن مرة[١] بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . وكان منصوباً بدومة الجندل وكان سواع لبني هذيل بن الياس بن مدركة بن مضر . وكان منصوباً بمكان يقال له رهاط[٢] . وكان يغوث لبني أنعم من طيء ولأهل جرش من مذحج[٣] وكان منصوباً بجرش . وكان يعوق منصوباً بأرض همدان[٤] من اليمن لبني خيوان بطن من همدان . وكان نسر منصوباً بأرض حمير لقبيلة يقال لهم ذو الكلاع[٥] .

قال ابن إسحاق : وكان لخولان بأرضهم صنم يقال له عم أنس[٦] يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله فيما يزعمون فما دخل في حق عم أنس من حق الله الذي قسموه له تركوه له وما دخل في حق الله من حق عم أنس ردوه عليه وفيهم أنزل الله : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ قال : وكان لبني مِلْكان بن كنانة بن خزيمة بن مدركة صنم يقال له سعد ، صخرة بفلاة[٧] من أرضهم طويلة فاقبل رجل منهم بإبل له مؤبلة ليقفها عليه ، التماس بركته ، فيما يزعم فلما رأته الابل وكانت مرعية لا تركب وكان الصنم يهراق عليه الدماء نفرت منه فذهبت في كل وجه وغضب ربها [الملكاني] وأخذ حجراً فرماه به ثم قال لا بارك الله فيك نفرت على إبلي ثم خرج في طلبها فلما اجتمعت له قال :

---

(١) في ابن هشام وجمهرة أنساب العرب : وبرة ؛ وسدنته بنو الفرافصة بن الأحوص بن كلب .

(٢) كذا في الأصل وابن هشام ومعجم البلدان ورهاط : من أرض ينبع . وفي جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٢ : وفي المحبر ٣١٦ كان بنعمان ونعمان وادٍ بقرب مكة من بلاد هذيل . .
وسدنته : بنو صاهلة من هذيل وفي ياقوت سدنته بنو لحيان من هذيل .

(٣) عبارة ابن الكلبي في الأصنام : واتخذت مذحج وأهل جرش ، لم يجعل جرش من مذحج ؛ والمعروف ان جرش في حمير وفي نهاية الأرب للقلقشندي حرش بطن من حمير ص ٢١٥ ، ومذحج من كهلان بن سبأ . وفي الجمهرة : كان لمذحج .

(٤) في الجمهرة ٤٩٢ : في أرحب .

(٥) في الجمهرة : كان لحمير بنجران . وذو الكلاع ، رهطه أحاظة بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد وهم بطن من حمير ص ٤٧٨ - ٤٩٢ .

(٦) في ابن هشام : عميانس ، وفي عمود النسب للشنقيطي كالأصل . وفي الجمهرة لابن حزم : يعوق كان يعبده همدان وخولان .

(٧) في معجم البلدان والأصنام لابن الكلبي : الفلاة بساحل جدة . ولم يذكر الصنم في المحبر .

أتينـا إلى سعـدٍ ليجمـعَ شملنـا … فشتّتنا سعدٌ فـلا نحنُ من سعـدِ
وهـل سعـدُ إلاّ صخـرةٌ بِتنـوفـةٍ[1] … من الأرض لا يدعو لغيّ ولا رُشْـدِ

قال ابن إسحاق : وكان في دوس صنم[2] لعمرو بن حممة الدوسي . قال [ابن إسحاق] وكانت قريش قد اتخذت صنماً على بئر في جوف الكعبة يقال له هبل وقد تقدم فيما ذكره ابن هشام أنه أول صنم نصبه عمرو بن لحي لعنه الله .

قال ابن إسحاق : واتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم[3] ينحرون عندهما ثم ذكر أنهما كانا رجلاً وامرأة فوقع عليها في الكعبة فمسخهما الله حجرين . ثم قـال [ابن إسحاق] : حـدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة[4] أنها قالت سمعت عائشة تقول : ما زلنا نسمع أن اسافاً ونائلة كانا رجلاً وامرأة من جرهم أحـدثا في الكعبة فمسخهما الله عـزَّ وجلَّ حجرين والله أعلم . وقد قيل إن الله لم يمهلهما حتى فجرا فيها بل مسخهما قبل ذلك فعنـد ذلك نصباً عند الصفا والمروة فلما كان عمرو بن لحي نقلهما فوضعهما على زمـزم وطاف النـاس بهما وفي ذلك يقول أبو طالب :

وحيث يُنيـخُ الأشعـرونَ ركـابَهُم … بمفضي السيـول من أسـافٍ ونـائل

وقد ذكر الواقدي : أن رسول الله ﷺ لما أمر بكسر نائلة يـوم الفتح خـرجت منها سـوداء شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل والثبور . وقـد ذكر السهيـلي : أن أجا وسلمى وهمـا جبلان بأرض الحجاز إنما سميا باسم رجل اسمه أجا بن عبد الحي فجر بسلمى بنت حام فصلبا في هذين الجبلين فعرفا بهما قال : وكان بين أجا وسلمى صنم لطي يقال له قلس[5] .

قال ابن إسحاق : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه فإذا أراد الرجـل منهم سفراً تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره . وإذا قدم من سفره تمسح به فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله . قال فلما بعث الله محمداً ﷺ بالتوحيد قالت قريش : « أجَعَلَ الآلهة إلَهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ».

---

(١) تنوفة : القفر من الأرض الذي لا ينبت شيئاً .
(٢) يسمى : ذو الكفين كما في ابن حزم ص ٤٩٤ وأصنام ابن الكلبي ص ٣٧ والمحبر ص ٢١٨ .
(٣) كان أحد الصنمين أولاً بلصق الكعبة ، والآخر في موضع زمزم فنقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة إلى الآخر ـ أنظر الألوسي ـ وأصنام ابن الكلبي . وعند ابن حزم : إساف كان بالصفا ونائلة كانت بالمروة ص ٤٩٢ .
(٤) تقدم التعليق فليراجع .
(٥) في جمهرة ابن حزم وياقوت : قلس كان بنجد قريباً من فيد سدنته بنو بولان .

قال ابن إسحاق : وقد كانت[1] العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، وتهدي لها كما تهدي للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها . وهي مع ذلك تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها[2] بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده . وكانت لقريش وبني كنانة العزى بنخلة[3] وكانت سدنتها وحجابها بني[4] شيبان من سُلَيم حلفاء بني هاشم . وقد خربها خالد بن الوليد زمن الفتح كما سيأتي .

قال [ابن إسحاق] : وكانت اللات لثقيف بالطائف وكانت سدنتها وحجابُها بني[5] معتب من ثقيف وخربها أبو سفيان والمغيرة بن شعبة[6] بعد مجيء أهل الطائف كما سيأتي . قال [ابن إسحاق]: وكانت مناة للأوس والخزرج، ومن دان بدينهم من أهل المدينة[7]، على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد . وقد خربها أبو سفيان أيضاً وقيل علي بن أبي طالب كما سيأتي . قال [ابن إسحاق] : وكان ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة . وكان يقال له الكعبة اليمانية ، ولبيت مكة الكعبة الشامية وقد خربه جرير بن عبد الله البجلي كما سيأتي . قال : وكان قلس لطي ومن يليها بجبلي طي بين أجا وسلمى ، وهما جبلان مشهوران كما تقدم . قال : وكان رآم بيتاً لحمير وأهل اليمن كما تقدم ذكره في قصة تبع أحد ملوك حمير وقصة الحبرين حين خرباه وقتلا منه كلباً أسود . قال : وكانت رضاء بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ولها يقول المستوغر واسمه كعب بن ربيعة بن كعب [حين هدمها] :

ولقد شددت على رضاءٍ شَدةً ... فتركتُها قفراً بقاعٍ أسحما[8]
وأعان عبد الله في مكروهها ... وبمثل عبد الله أغشى المحرما

---

(١) في ابن هشام : وكانت .
(٢) في ابن هشام : لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم . . .
(٣) نخلة : هي نخلة الشامية بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال ، وكانت العزى بوادٍ منها (معجم البلدان) وعند ابن حزم : العزى يعبدها غطفان وتعظمها قريش وغنيّ وباهلة .
(٤) كذا في الأصل : والصواب بنو شيبان كما في ابن هشام . وعند ابن حزم : سدنتها : بنو صرمة بن مرّة .
(٥) كذا في الأصل والصواب كما في ابن هشام بنو معتب . وعند ابن حزم : آل أبي العاصي من بني مالك بن ثقيف . وعند ابن الكلبي : من ثقيف بنو عتاب بن مالك .
(٦) كذا في الأصل والمحبر ٣١٥. وعند ابن حزم : هدمه خالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة ص ٤٩١ واقتصر في الأصنام ص ١٧ على المغيرة .
(٧) في ابن هشام : يثرب .
(٨) القاع : المنخفض من الأرض . ورواية العجز عند ابن الكلبي : فتركتها تلا تنازع أسحما .

ويقال إن المستوغر هذا عاش ثلاثمائة سنة وثلاثين سنة وكان أطول مضر كلها عمراً وهو الذي يقول :

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وعمرتُ من عدد السنين مئينا
مائة حدتْها بعدها مائتان لي ... وازددتُ من عدد الشهور سنينا
هل ما بقي إلاّ كما قد فاتنا ... يوم يمرّ وليلة تحدونا

قال ابن هشام : ويروى هذه الأبيات لزهير بن جناب بن هبل . قال السهيلي : ومن المعمرين الذين جازوا المائتين والثلاثمائة زهير هذا وعبيد بن شربة ودغفل بن حنظلة النسابة والربيع بن ضبع الفزاري وذو الأصبع العدواني ونصر بن دهمان بن أشجع بن ريث بن غطفان ، وكان قد اسود شعره بعد ابيضاضه وتقوم ظهره بعد اعوجاجه . قال [ابن إسحاق] : وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب بن [1] وائل وإياد بسنداد وله يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة [2] :

بينَ الخورنقِ والسدير وبارقٍ ... والبيتِ ذي الشُرفاتِ من سنداد

وأول هذه القصيدة :

ولقد علمتُ وأنّ تطاولَ بي المدى ... أنّ السبيلَ سبيلُ ذي الأعوادِ
ماذا أؤمّل بعد آل محرّق ... تركوا منازلَهم وبعد إياد
نزلوا بأنقرةٍ يسيل عليهمُ ... ماءُ الفرات يجيء من أطواد
أرض الخورنقِ والسديرِ وبارق ... والبيتِ ذي الكعبات من سنداد[3]
جَرَت الرياحُ على محلّ ديارهم ... فكأنّما كانوا على ميعاد[4]
وأرى النعيمَ وكلما يُلهى به ... يوماً يَصيرُ إلى بِلىً ونَفاد[5]

قال السهيلي : الخورنق قصر بناه النعمان الأكبر لسابور ليكون ولده فيه عنده[6]، وبناه

---

(١) في ابن هشام : ابني . وسنداد : منازل لإياد اسفل سواد الكوفة وراء نجران الكوفة (معجم البلدان) .

(٢) في رواية عند ابن هشام : للأسود بن يعفر النهشلي .

(٣) في معجم البلدان « سنداد » : أهل الخورنق وشطره : والقصر ذي الشرفات من سنداد .

(٤) في معجم البلدان : عراص ديارهم .

(٥) صدره في معجم البلدان : فإذا النعيم وكل ما يلهى به .

(٦) قال ابن الكلبي كما نقل عنه ياقوت : أمر ببنائه بهرام جور بن يزدجرد بن سابور ذي الاكتاف وذلك انه كان لا يبقى له ولد وكان قد لحق ابنه بهرام جور في صغره علة فسأل عن منزل مرىء صحيح من الأدواء . فأشار عليه أطباؤه أن يخرجه إلى أرض العرب . فأنفذه إلى النعمان وأمره أن يبني له قصراً . فبناه له وأنزله إياه وعالجه حتى برأ من مرضه . « مادة خورنق » .

رجل يقال له سنمار في عشرين سنة(١) ولم يُر بناء أعجب منه فخشي النعمان أن يبني لغيره مثله فألقاه من أعلاه فقتله ففي ذلك يقول الشاعر :

جـزاني جـزاه الله شرَّ جـزائـه — جـزاءَ سِنِّمـارٍ ومـا كـانَ ذا ذَنْب
سوى رَصْفِهِ البنيـانَ عشرين حجّـةً — يعـدّ عليه بـالقـرامِـد والسكب(٢)
فلما انتهى البنيـانُ يـومـاً تمـامـه — وآضَ كمِثْل الطود والباذخ الصعْب(٣)
رمى بسنّمـارٍ عـلى حُـقّ رأسـه — وذاك لعمرُ اللّهِ من أقبح الخطب(٤)

قال السهيلي : أنشده الجاحظ في كتاب الحيوان . والسنمار من أسماء القمر .

والمقصود أن هذه البيوت كلها هدمت لما جاء الإسلام جهز رسول الله ﷺ إلى كل بيت من هذه سرايا تخربه ، وإلى تلك الأصنام من كسرها ، حتى لم يبق للكعبة ما يضاهيها ، وعبد الله وحده لا شريك له . كما سيأتي بيانه وتفصيله في مواضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

خبر عدنان جدّ عرب الحجاز

لا خلاف أن عدنان من سلالة اسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام واختلفوا في عدة الآباء بينه وبين اسماعيل . على أقوال كثيرة فاكثر ما قيل أربعون أباً وهو الموجود عند أهل الكتاب أخذوه من كتاب رخيا كاتب أرميا بن حلقيا على ما سنذكره وقيل بينهما ثلاثون وقيل عشرون وقيل خمسة عشر وقيل عشرة وقيل تسعة وقيل سبعة وقيل إن أقل ما قيل في ذلك أربعة لما رواه موسى بن يعقوب عن عبد الله بن وهب بن زمعة الزمعي عن عمته عن أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال : « معد بن عدنان بن أدد بن زند بن اليرى بن اعراق الثرى » . قالت : أم سلمة فزند هو الهميسع واليرى هو نابت وإعراق الثرى هو إسماعيل لأنه ابن إبراهيم وإبراهيم لم تأكله النار كما أن النار لا تأكل الثرى . قال الدارقطني : لا نعرف زنداً إلاّ في هذا الحديث وزند بن الجون وهو أبو دلامة الشاعر .

قال الحافظ أبو القاسم السهيلي وغيره من الأئمة : مدة ما بين عدنان إلى زمن اسماعيل أكثر من أن يكون بينهما أربعة أباء أو عشرة أو عشرون وذلك أن معد بن عدنان كان عمره زمن بخت نصر ثنتي عشرة سنة . وقد ذكر أبو جعفر الطبري وغيره أن الله تعالى أوحى في ذلك الزمان إلى أرمياء بن حلقيا أن اذهب إلى بخت نصر فأعلمه أني قد سلطته على العرب وأمر الله أرميا أن يحمل

---

(١) في معجم البلدان : بناه رجل من الروم يقال له سنمار في ستين سنة
(٢) في معجم البلدان : سوى رمّة البنيان ، ستين حجة .
(٣) في معجم البلدان : فلما رأى البنيان تمّ سحوقه .
(٤) في معجم البلدان : فقال : اقذفوا بالعلج من فوق رأسه . . . من أعجب الخطب .

معه معد بن عدنان على البراق كي لا تصيبه النقمة فيهم فإني مستخرج من صلبه نبياً كريماً أختم به الرسل ففعل أرميا ذلك واحتمل معداً على البراق إلى أرض الشام فنشأ مع بني إسرائيل ممن بقي منهم بعد خراب بيت المقدس وتزوج هناك امرأة اسمها معانة بنت جوشن من بني دب بن جرهم قبل أن يرجع إلى بلاده ثم عاد بعد أن هدأت الفتن وتمحضت جزيرة العرب وكان رخيا كاتب أرمياء قد كتب نسبه في كتاب عنده ليكون في خزانة أرمياء فيحفظ نسب معد كذلك والله أعلم . ولهذا كره مالك رحمه الله رفع النسب إلى ما بعد عدنان .

قال السهيلي : وإنما تكلمنا في رفع هذه الأنساب على مذهب من يرى ذلك ولم يكرهه كابن إسحاق والبخاري والزبير بن بكار والطبري وغيرهم من العلماء ، وأما مالك رحمه الله فقد سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك ، وقال له من أين له علم ذلك فقيل له فإلى إسماعيل فأنكر ذلك أيضاً وقال ومن يخبره به وكره أيضاً أن يرفع في نسب الأنبياء مثل أن يقال إبراهيم بن فلان بن فلان هكذا ذكره المعيطي في كتابه .

قال : وقول مالك هذا نحو مما روي عن عروة بن الزبير أنه قال ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسماعيل ، وعن ابن عباس أنه قال بين عدنان واسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون وروي عن ابن عباس أيضاً أنه كان إذا بلغ عدنان يقول كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً والأصح عن ابن مسعود مثله . وقال عمر بن الخطاب إنما تنسب إلى عدنان ، وقال أبو عمر بن عبد البر في كتابه الأنباه في معرفة قبائل الرواه : روى ابن لهيعة[1] عن أبي الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يقول ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا ما وراء قحطان إلاّ تخرصاً ، وقال أبو الأسود : سمعت أبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة وكان من أعلم قريش بأشعارهم وأنسابهم يقول ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان في شعر شاعر ولا علم عالم .

قال أبو عمر : وكان قوم من السلف منهم عبد الله بن مسعود وعمرو بن ميمون الأزدي ومحمد بن كعب القرظي إذا تلوا ﴿ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلاّ الله ﴾ قالوا : كذب النسابون .

قال أبو عمر رحمه الله : والمعنى عندنا في هذا غير ما ذهبوا والمراد أن من ادعى احصاء بني آدم فإنهم لا يعلمهم إلاّ الله الذي خلقهم ، وأما أنساب العرب فإن أهل العلم بأيامها وأنسابها قد وعوا وحفظوا جماهيرها وأمهات قبائلها ، واختلفوا في بعض فروع ذلك .

---

(١) ابن لهيعة : هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن لهيعة الحضرمي الغافقي المصري ، كان مكثراً من الحديث والأخبار والرواية . توفي بمصر سنة سبعين ومائة . وكان عمره احدى وثمانين سنة ، وكان مولده سنة سبع وتسعين (ابن خلكان) .

قال أبو عمر : والذي عليه أئمة هذا الشأن في نسب عدنان قالوا عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت[1] بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام وهكذا ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة .

قال ابن هشام : ويقال عدنان بن أد يعني عدنان بن أد بن أدد[2] ثم ساق أبو عمر بقية النسب إلى آدم كما قدمناه في قصة الخليل عليه السلام . وأما الأنساب إلى عدنان من سائر قبائل العرب فمحفوظة شهيرة جداً لا يتمارى فيها اثنان والنسب النبوي إليه أظهر وأوضح من فلق الصبح وقد ورد حديث مرفوع بالنص عليه كما سنورده في موضعه بعد الكلام على قبائل العرب وذكر أنسابها وانتظامها في سلك النسب الشريف والأصل المنيف إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلّا بالله العزيز الحكيم . وما أحسن ما نظم النسب النبوي الإمام أبو العباس عبد الله بن محمد الناشيء في قصيدته المشهورة المنسوبة إليه وهي قوله :

مدحتُ رسولَ الله أبغي بمدحه ... وُفورَ حظوظي من كريمِ المآربِ
مدحتُ امرءاً فاقَ المديحَ موحّداً ... بأوصافه عن مُبعِدٍ ومقاربِ
نَبيّاً تسامى في المشارقِ نورُه ... فلاحتْ هواديه لأهل المغاربِ
أتتنا به الأنباءُ قبلَ مجيئه ... وشاعتْ به الأخبارُ في كلّ جانبِ
وأصبحتِ الكهّانُ تهتفُ باسمِهِ ... وتنفي به رجمَ الظنونِ الكواذبِ
وأُنطِقت الأصنامُ نطقاً تبرّأت ... إلى الله فيه من مقالِ الأكاذبِ
وقالت لأهلِ الكفرِ قولاً مبيّناً ... أتاكم نبيٌّ من لؤيِّ بنِ غالبِ
ورامَ استراقَ السمعِ جنٌّ فزيّلتْ ... مقاعدَهم منها رجومُ الكواكبِ
هدانا إلى ما لم نكنْ نهتدي له ... لطولِ العمى من واضحاتِ المذاهبِ
وجاء بآياتٍ تبيّنُ أنها ... دلائلُ جبّارٍ مثيبٍ معاقبِ
فمنها انشقاقُ البدرِ حين تعمّمت ... شعوبُ الضيا منه رؤوس الأخاشبِ
ومنها نبوعُ الماءِ بينَ بَنانه ... وقد عدِمَ الورّادُ قربَ المشاربِ
فروى به جمّاً غفيراً وأسهلت ... بأعناقِه طوعاً أكفّ المذانبِ
وبئرٍ طغتْ بالماء من مسّ سهمِه ... ومن قبلُ لم تسمح بمذقةِ شاربِ

---

(١) ابن قتيبة في المعارف ساق نسب عدنان إلى قيدار بن اسماعيل أخي نابت . وهذا ما فعله الجواني في أصول الأحساب والزبيدي في روضة الألباب . وهكذا قال هشام بن محمد الكلبي كما في رواية ابن الأعرابي عنه (المسعودي) وقال المسعودي : ٢٨٩/٢ : وقد نهى النبي أن يتجاوز عن معد ، وقد اختلف أهل النسب [في رواياتهم] فالواجب الواقف عند أمره عليه السلام ونهيه .،

(٢) في ابن هشام : ويقال عدنان بن أد . وفي رواية الكلبي : عدنان بن أد بن أدد .

وضــرعِ مــراهُ فــاستــدرّ ولم يكنْ | بــه دِرّة تَصغي إلى كفّ حــالــب
ونُــطقٍ فَصيــحٍ من ذِراع مبينــةٍ | لـكيـدِ عــدوّ لـلعــداوة نــاصب
وإخبــارِه بــالأمـر من قبـلِ كــونــه | وعنــدَ بــواديــه بمــا في العــواقب
ومـن تلكم الآيــاتِ وحـي أتى بــه | قــريب المــآني مستجمّ العجــائب
تقــاصرتِ الأفكــارُ عنـه فلم يـطعْ | بليغــاً ولم يخطر عـلى قلب خــاطب
حوى كلّ عِلمٍ واحتوى كلّ حكمة | وفــاتَ مــرامَ المستـمــرّ المــوارب
أتــانــا بــه لا عن رويّــة مــرتــءٍ | ولا صُحْف مُسْتَمْلٍ ولا وصفِ كاتب
يـواتيـه طــوراً في إجابةِ ســائــلٍ | وافتــاءِ مستفْتٍ ووعظ مخــاطب
واتيـان بـرهـانٍ وفـرضِ شـرائـعٍ | وقصِّ أحــاديــثٍ ونصّ مــآرب
وتصــريفِ أمثــالٍ وتثبيتِ حجّــة | وتعريفِ ذي جَحدٍ وتـوقيف كاذب
وفي مجمع النادي وفي حومةِ الـوغى | وعنـدَ حدوثِ المعضِلات الغرائب
فيأتي عـلى مـا شئتَ من طُرقـاتـه | قــويمَ المعـاني مستــدرّ الضــرائب
يصـدّق منـه البعضُ بعضـاً كـأنمـا | يـلاحَظ معنــاه بـعــينِ المــراقب
وعجْـزُ الـورى عن أن يجيئـوا بمثـلِ مـا | وصفنــاهُ معلومٌ بـطول التجــارب
تــأبّى بـــعبــدِ الله أكـرم والـدٍ | تبلّجَ منْـه عن كـريمِ المنــاسب[1]
وشيبةَ ذي الحمدِ الـذي فخرتْ بـه | قـريشُ على أهـلِ العلى والمنـاصب
ومن كــان يُستسقى الغمامُ بـوجهه | ويُصــدَر عن آرائــه في النــوائب
وهــاشم البــاني مُشيْــد افتخــارِه | بغـرّ المسـاعي وامتنــانِ المــواهب
وعبدِ منَاف وهـو علّم قـومَـه اشـ | ـتطاط الأماني واحتكامَ الرغائب[2]
وإن قصيــاً من كــريمِ غــراســه | لفي مَنهلٍ لم يدنُ من كف قـاضب
بــه جَمع الله القبــائــلَ بعــدمــا | تقسّمهــا نهبُ الأكـفّ الســوالـب
وحلّ كلابٌ من ذرى المجدِ معقلاً | تقــاصَرَ عنــه كــلّ دانٍ وغــائب
ومــرة لم يحـلل مــريــرةَ عــزمــه | سِفــاهُ سفيهٍ أو مَحُــوبــةُ حــائب
وكعب علا عن طالبِ المجدِ كعبُه | فنـال بـأدنى السعي أعــلا المراتب
وألـوى لؤيٌّ بــالعــداة فـطُوّعت | لــه همُ الشمّ الأنــوفِ الأغــالب
وفي غــالبٍ بأسٌ أبي البـأس دونهم | يـدافـع عنهم كــلّ قِـرنٍ مغــالب
وكـانت لفهـرٍ في قـريش خَطابـة | يعـوذُ بهـا عنـدَ اشتجـارِ المُخـاطب
ومـا زالَ منهم مالـكٌ خيرَ مـالـكٍ | وأكـرم مَصحـوبٍ وأكرمَ صـاحب

(١) تبلج : أضاء .
(٢) اشتطاط : ابتعاد .

وللنضرِ طولٌ يقصرُ الطَّرفُ دونَه بحيثُ التقى ضوءَ النجومِ الثواقب
لعَمري لقد أبدى كنانةُ قبله محاسنَ تأبى إن تطوعَ لغالب
ومن قبله أبقى خُزيمةُ حمدَه تليدَ تُراثٍ عن حميدِ الأقارب
ومدركةٌ لم يدركِ الناسُ مثلَه أعفَّ وأعلى عن دنيِّ المكاسب
وإلياسُ كان اليأسُ منه مُقارِناً لأعدائه قبلَ اعتدادِ الكتائب
وفي مُضَرٍ يُستجمعُ الفخرُ كله إذا اعتركت يوماً زحوفُ المقانب
وحلَّ نزارٌ من رياسةِ أهله محلّاً تسامى عن عيونِ الرواقب
وكان معدٌّ عدةً لوليّه إذا خافَ من كيدِ العدوِّ المحارب
وما زال عدنانُ إذا عُدَّ فضلُه توحّد فيه عن قرينٍ وصاحب
وأدّ تأدّى الفضلُ منه بغايةٍ وأرثٍ حواهُ عن قرومٍ اشايب
وفي أُدَدٍ حلْمٌ تزيّن بالحِجا إذا الحلم أزهاهُ قطوبُ الحواجب
وما زال يَستعلي هميسعُ بالعلى ويتبعُ آمالَ البعيدِ المراغب
ونبتٍ نبتّهُ دوحةُ العزِّ وابتنى معاقلَه في مشمخرِّ الأهاضب
وحيزتْ لِقيذارٍ سماحةُ حاتمٍ وحكمةُ لقمانٍ وهمّةُ حاجب
هُموا نسلُ اسماعيلَ صادقِ وعدِه فما بعده في الفخر مسعىً لذاهب
وكان خليلُ الله أكرمَ من عَنَت له الأرضُ من ماشٍ عليها وراكب
وتارحُ ما زالت له أرْيحيّةٌ تُبيّنُ منه عن حميدِ المضارب
وناحورُ نحّارُ العِدى حُفظت له مآثرُ لما يُحصِها عدُّ حاسب
وأشرعُ في الهيجاءِ ضَيْغمُ غابةٍ يقدّ الطلى بالمرهَفاتِ القواضب
وأرغو نابٌ في الحروب محكَّم ضنينٌ على نفس المشيحّ المغالب
وما فالغٌ في فضله تِلْوِ قومِه ولا عابرٌ من دونهم في المراتب
وشالخ وارفخشذ وسام سمتْ بهم سجايا حمتْهم كلَّ زارٍ وعائب
وما زال نوحٌ عندي ذي العرش فاضلاً يعدّده في المصطَفَين الأطايب
ولمكُ أبوهُ كان في الروع رائعاً جريئاً على نفس الكميِّ المضارب
ومن قبلِ لمكٍ لم يزل متوشلخ يذود العدى بالذائدات الشوازب
وكانت لادريسَ النبيِّ منازلٌ منَ الله لم تُقرن بهمة راغب
ويارِدُ بحرٌ عند آلِ سراتِه أبيّ الخزايا مستدقّ المآرب
وكانت لمهلاييلَ فهمٌ فضائلٍ مهذبةٍ من فاحشاتِ المثالب
وقينانُ من قبلُ اقتنى مجدَ قومِه وفادَ بشأوِ الفضلِ وخدَ الركائب
وكان أنوشُ ناشَ للمجد نفسَه ونزّهها عن مُردياتِ المطالب

وما زال شيثٌ بالفضائل فاضلاً — شريفاً بريشاً من ذميم المعائب
وكلّهم من نورِ آدم أقبسوا — وعن عوده أجنوا ثمار المناقب
وكان رسول الله أكرمَ منجَب — جرى في ظهور الطيّبين المناجب
مقابلةٌ آباؤه أمهاتِه — مُبرّأة من فاضحات المثالب
عليه سلامُ الله في كل شارقٍ — ألاحَ لنا ضوءاً وفي كلّ غارب

هكذا أورد القصيدة الشيخ أبو عمر بن عبد البر وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي في تهذيبه من شعر الأستاذ أبي العباس عبد الله بن محمد الناشي المعروف بابن شرَشير[1] أصله من الأنبار ورد بغداد ثم ارتحل إلى مصر فأقام بها حتى مات سنة ثلاث وتسعين ومائتين وكان متكلماً معتزلياً يحكي عنه الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتابه المقالات فيما يحكي عن المعتزلة وكان شاعراً مطبقاً حتى أن من جملة اقتداره على الشعر كان يعاكس الشعراء في المعاني فينظم في مخالفتهم ويبتكر ما لا يطيقونه من المعاني البديعة والألفاظ البليغة حتى نسبه بعضهم إلى التهوس والاختلاط وذكر الخطيب البغدادي أن له قصيدة على قافية واحدة قريباً من أربعة آلاف بيت ذكرها الناجم وأرخ وفاته كما ذكرنا .

قلت : وهذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته وفصاحته وبلاغته وعلمه وفهمه وحفظه وحسن لفظه واطلاعه واضطلاعه واقتداره على نظم هذا النسب الشريف في سلك شعره وغوصه على هذه المعاني التي هي جواهر نفيسة من قاموس بحره فرحمه الله وأثابه وأحسن مصيره وإيابه .

أصول انساب عرب الحجاز إلى عدنان

وذلك لأن عدنان ولد له ولدان معد وعك .

قال السهيلي : ولعدنان أيضاً ابن اسمه الحارث وآخر يقال له المذهب . قال وقد ذكر أيضاً في بنيه الضحاك . وقيل إن الضحاك ابن لمعد لا ابن عدنان. قال وقيل إن عدن الذي تعرف به مدينة عدن وكذلك أبين كانا ابنين لعدنان حكاه الطبري[2] فتزوج عك في الأشعريين وسكن في

---

(١) ابن شرشير : اسم طائر يصل إلى الديار المصرية في زمن الشتاء وهو أكبر من الحمام بقليل وهو كثير الوجود بساحل دمياط وباسمه سمي الرجل .
وابن شرشير هو الناشىء الأكبر ، كان نحوياً عروضياً متكلماً أقام ببغداد مدة طويلة ثم رحل إلى مصر وأقام بها إلى آخر عمره . كان متبحراً في عدة علوم من جلتها علم المنطق وكان بقوة علم الكلام نقض علل النحاة وأدخل على قواعد العروض شبهاً ومثلها بغير أمثلة الخليل مات سنة ٢٩٣ (شذرات الذهب ٢١٤/٢).

(٢) في نهاية الأرب ٣٢١ : قال الزهري : كان لعدنان ستة أولاد : معد ، وعبل واسمه الديب ، وعدن وبه سميت عدن من اليمن ، وأد ، وأبي الضحاك ، والعني . وأمهم مهدد .
وقال في جهرة الأنساب ص ٩ : ولد عدنان : معد ، وعك وقيل اسمه الحارث وقد قيل : عك بن الديث بن عدنان .

بـلادهم من اليمن فصارت لغتهم واحـدة فزعم بعض أهـل اليمن أنهم منهم فيقولـون عـك بن عدنان بن عبد الله بن الأزد بن يغوث ويقال[1] عك بن عدنان بن الـذيب بن عبد الله بن الأسـد ويقال الريث بدل الذيب والصحيح ما ذكرنا من أنهم من عدنان . قال عباس بن مرداس :

وعـكّ بن عـدنـانَ الـذين تلعّبــوا بغسّـانَ حتى طُـرِّدوا كـلَّ مَـطرد[2]

وأما معد فولد له أربعة نزار وقضاعة وقنص وإياد[3] وكان قضاعة بكره وبه كان يكنى وقد قدمنا الخلاف في قضاعة ولكن هذا هو الصحيح عند ابن إسحاق وغيره والله أعلم .

وأما قنص فيقال إنهم هلكوا ولم يبق لهم بقية إلاّ أن النعمان بن المنذر الذي كان نائباً لكسرى على الحيرة كانَ من سلالته على قول طائفة من السلف وقيل بل كان من حمير كما تقدم والله أعلم .

وأما نزار فولد له ربيعة ومضر وأنمار قال ابن هشام وإياد بن نزار كما قال الشاعر :

وفُـتــوٍ حُـســن أوجـهــهــم مـن إيـاد بن نـزار بـن معـدّ

قال [ابن هشام] : وإياد ومضر شقيقان أمهما سودة بنت عك بن عدنان وأم ربيعة وأنمـار شقيقـة بنت عـك بن عـدنـان . ويقــال جمعـة بنت عــك بن عـدنــان : قــال ابن إسحــاق فــأمــا أنمــار فهــو والــد خثعم وبجيلة[4] قبيلة جـريــر بـن عبـد الله الـبجـلي قــال وقــد تيامنت فلحقت باليمن . قـال ابن هشام : وأهـل اليمن يقولـون : أنمار بن أراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نبت بن ملك بن زيد بن كهلان بن سبأ . قلت : والحديث المتقدمَ في ذكر سبأ يدل على هذا والله أعلم .

قالوا : وكان مضر أول من حدا وذلك لأنه كان حسن الصوت فسقط يوماً عن بعيره فوثبت يده فجعل يقول وايدياه وايدياه فأعنقت الإبـل لذلـك . قال ابن إسحـاق : فولـد مضر بن نزار

= والظاهر أن كلمة الديث مقحمة ، فكل الذين عرضوا لعك بن عدنان لم يذكروه في نسبهم . وفي الجمهرة أن الضحاك ولد لمعد بن عدنان .

(1) هذا قول ابن قتيبة في المعارف ، وابن دريد في الاشتقاق والجواني في أصول الأحساب .

(2) كذا في الأصل وفي ابن هشام : تلقبوا .

(3) لا خلاف بين النسابين في نسب نزار لمعد ، وأما سائر ولده فمختلف فيهم وفي عددهم . وفي الجمهرة لم يأت على قضاعة ، وذكر عبيد الرماح بن معد ، واعتبر الضحاك ولداً لمعد . وفي الطبري زاد : قناصة وسنام وحيدان وحيدة وحيادة وجنيد وجنادة والقحم . والعرف وعوف وشك .

(4) في نهاية الأرب : قال ابن الكلبي : إن انمار هذا لا عقب له إلا ما يقال في بجيلة وخثعم فإنه يقال انهم ابناء انمار . وقال في العبر : وبجيلة تنكر هذا . وأما انمار فهو كما قال أبو عبيد : خثعم وعنفر والغوث وهنية وخزيمة وامهم بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة ص ٢١٦ .

رجلين الياس وعيلان[1] وولد لالياس مدركة وطابخة وقمعة[2] وأمهم خندف بنت عمران بن الحاف بن قضاعة . قال ابن إسحاق وكان اسم مدركة عامراً واسم طابخة عمراً ولكن اصطاد صيداً فبينا هما يطبخانه إذ نفرت الإبل فذهب عامر في طلبها حتى أدركها وجلس الآخر يطبخ فلما راحا على أبيهما ذكرا له ذلك فقال لعامر : أنت مدركة وقال لعمرو : أنت طابخة قال : وأما قمعة فيزعم نساب مضر أن خزاعة من ولد عمرو بن لحي بن قمعة بن الياس . قلت : والأظهر أنه منها لا والدهم وأنهم من حمير كما تقدم[3] والله أعلم .

قال ابن إسحاق : فولد مدركة خزيمة وهذيل وأمهما امرأة من قضاعة وولد خزيمة كنانة وأسداً وأسدة[4] والهون وزاد أبو جعفر الطبري[5] : في أبناء كنانة على هؤلاء الأربعة عامراً والحارث والنضير وغنماً وسعداً وعوفاً وجرولاً والحدال وغزوان . قال [ابن إسحاق] وولد كنانة النضر[6] ومالكاً وعبد مناة وملكان .

قريش نسباً واشتقاقاً وفضلاً وهم بنو النضر بن كنانة

قال ابن إسحاق : وأم النضر برة بنت مرّ بن أد بن طابخة [بن الياس بن مضر] وسائر بنيه لامرأة أخرى . وخالفه ابن هشام فجعل برة بنت مرأم النضر ومالك وملكان . وأم عبد مناة هالة بنت سويد بن الغطريف من أزد شنوءة[7]. قال ابن هشام : النضر هو قريش فمن كان من ولده فهو قرشي[8] ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي . وقال : ويقال : فهر بن مالك هو قريش .

---

(١) في نهاية الأرب ٣٧٦ : وفي الروض الأنف إياس . وعيلان قيل هو قيس عيلان وامها اسمى بنت سود بنت أسلم بن الحارث بن قضاعة وفي كتاب نسب قريش ص ٧ هي الحنفاء ابنة إياد بن معد وفي الطبري : أم الياس الرباب بنت حيدة بن معد .

(٢) قمعة وهو عمير وسمي قمعة لأنه انقمع في الخباء وقعد (نهاية الأرب ص ٢٢٨ - الجمهرة ص ١٠).

(٣) كذا في نهاية الأرب والجمهرة وتقدم التعليق فليراجع .

(٤) لم يذكر ابن قتيبة في المعارف أسدة ، وفي الجمهرة : إن لخماً وجذام وعاملة هم بنو أسدة بن خزيمة ص ١١ . وأم كنانة عوانة بنت سعد بن قيس بن عيلان .

(٥) كذا في الأصل والعبارة مختلة المعنى . وعبارة الطبري بتمامها ج ١٨٨/٢ .

(٦) النضر واسمه قيس كما في الطبري . وفي جمهرة الأنساب ملك بدل مالك وقال لم يعقب لكنانة ولد غير هؤلاء .

(٧) وفي الطبري : أم عبد مناة فكيهة وقيل فكهة وهي الذفراء بنت هني بن بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاعة .

(٨) قرشي : قال صاحب اللسان في مادة قرش : قريش غير مصروف إذا أردت القبيلة ، والنسب إليه قرشي نادر ، وقريشي على القياس . قال :

بكل قريشي عليه مهابة ... سريع إلى داعي الندى والتكرم

قال ابن بري : اثبات الياء في النسب إلى قريش .

وقال في التهذيب : إذا نسبوا إلى قريش قالوا : قرشي بحذف الزيادة وللشاعر إذا اضطر أن يقول قريشي .

فمن كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي . وهذان القولان قد حكاهما غير واحد من أئمة النسب كالشيخ أبي عمر بن عبد البر والزبير بن بكار ومصعب وغير واحد . قال أبو عبيد وابن عبد البر : والذي عليه الأكثرون أنه النضر بن كنانة لحديث الأسعد[١] بن قيس . قلت : وهو الذي نص عليه هشام بن محمد بن السائب الكلبي وأبو عبيدة معمر بن المثنى وهو جا مذهب الشافعي رضي الله عنه . ثم اختار أبو عمر أنه فهر بن مالك واحتج بأنه ليس أحد اليوم ممن ينتسب إلى قريش إلاّ وهو يرجع في نسبه إلى فهر بن مالك ثم حكى اختيار هذا القول عن الزبير بن بكار ومصعب الزبيري وعلي بن كيسان قال : وإليهم المرجع في هذا الشأن وقد قال الزبير بن بكار : وقد أجمع نساب قريش وغيرهم أن قريشاً إنما تفرقت من فهر بن مالك والذي عليه من أدركت من نساب قريش أن ولد فهر بن مالك قرشي وأن من جاوز فهر بن مالك بنسبه فليس من قريش ثم نصر هذا القول نصراً عزيزاً وتحامى له بأنه ونحوه أعلم بأنساب قومهم وأحفظ لما آثرهم[٢] .

وقد روى البخاري[٣] من حديث كليب بن وائل قال قلت لربيبة النبي ﷺ - يعني زينب [بنت أبي سلمة] - في حديث ذكره أخبريني عن النبي ﷺ أكان من مضر ؟ قالت فممن كان إلا من مضر . من بني النضر بن كنانة . وقال الطبراني ثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي ثنا الحسن بن صالح عن أبيه عن الجشيش[٤] الكندي قال جاء قوم من كندة إلى رسول الله ﷺ فقالوا أنت منا وادعوه فقال : « لا ، نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفُ أمنا ولا ننتفي من أبينا »[٥].

---

(١) كذا في الأصل : والصواب كما في البخاري والبيهقي والسمعاني : الأشعث .

(٢) اختلف النسابون في قريش فمنهم من قال اسم شخص ومنهم من قال اسم حي أو اسم قبيلة .
قيل هو قريش بن بدر بن يخلد بن النضر وبه سميت قريشاً .
وقيل ان النضر بن كنانة كان اسمه قريشاً وقيل القرشي .
وقيل أن فهر بن مالك هو جماع قريش ، وقيل قريش ولده ولا قريش غيرّهم ولا يكون قريشي إلا منهم ولا من ولد فهر أحد إلا قريشي .
وقيل إن قريشاً اسم لفهر وان فهر لقب عليه .
وقال المبرد : إن التسمية لقريش وقعت لقصي بن كلاب .
وعند القلقشندي : أن قريش قبيلة من كنانة غلب عليهم اسم أبيهم فقيل لهم قريش على ما ذهب إليه جمهور النسابين وهو الأصح من الوجهين عند الشافعية .
(انظر الأنساب للسمعاني - الطبري - ابن الأثير - جمهرة الأنساب - نهاية الأرب - طبقات ابن سعد) .

(٣) اول كتاب المناقب فتح الباري (٦ : ٥٢٥) ورواه الاسماعيلي من رواية حبان بن هلال ، عن عبد الواحد .

(٤) في أسد الغابة : جفشيش .

(٥) لا نقفو أمنا : أي لانتهمها ولا نقذفها ، يقال قفا فلان فلاناً إذا قذفه بما ليس فيه ، وقيل معناه لا نترك النسب

وقال الإمام أبو عثمان سعيد بن يحيى بن سعيد ثنا أبي ثنا الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال جاء رجل من كندة يقال له الجشيش إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إنا نزعم أن عبد مناف منا ، فأعرض عنه ، ثم عاد فقال : مثل ذلك ثم أعرض عنه ، ثم عاد فقال مثل ذلك فقال النبي ﷺ : « نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفُ أمنا ولا ننتفي من أبينا » فقال الأشعث ألا كنت سكت من المرة الأولى فأبطل ذلك قولهم على لسان نبيه ﷺ وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه والكلبي ضعيف والله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد[1] حدثنا بهز وعفان قالا ثنا حماد بن سلمة . قال ثني عقيل بن أبي طلحة وقال عفان عقيل بن طلحة السلمي عن مسلم بن الهيصم عن الأشعث بن قيس أنه قال أتيت رسول الله ﷺ في وفد كندة . قال عفان ـ لا يروني أفضلهم قال فقلت يا رسول الله · انا نزعم أنكم منا قال : فقال رسول الله ﷺ : نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفف أمنا ولا ننتفي من أبينا . قال : فقال الأشعث بن قيس : فوالله لا أسمع أحداً نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلاّ جلدته الحد . وهكذا رواه ابن ماجه[2] من طرق عن حماد بن سلمة به وهذا إسناد جيد قوي وهو فيصل في هذه المسألة فلا التفات إلى قول من خالفه والله أعلم ولله الحمد والمنة . وقد قال جرير بن عطية التميمي يمدح هشام بن عبد الملك بن مروان :

فما الأمّ التي وَلَدت قريشاً   بمُقْرِفَة النِّجارِ ولا عقيم[3]
وما قِرْمٌ بأنجبَ من أبيكم   ولا خالٌ بأكرمَ من تميم[4]

قال ابن هشام : يعني أم النضر بن كنانة وهي برة بنت مرّ أخت تميم بن مر .

وأما اشتقاق قريش فقيل من التقرش وهو التجمع بعد التفرق وذلك في زمن قصي بن كلاب فإنهم كانوا متفرقين فجمعهم بالحرم[5] كما سيأتي بيانه وقد قال حذافة بن غانم العدوي[6] :

أبوكم قُصيّ كان يُدعى مُجمِّعا   به جمّع اللّهُ القبائلَ من فِهْر

= إلى الآباء ونتتسب إلى الأمهات (النهاية ٢/٣٠٣) .

(١) مسند الإمام أحمد ج ٥/٢١١ وأخرجه البيهقي في الدلائل ج ١/١٧٣ وفيه : مسلم بن هيضم .

(٢) كتاب الحدود ـ باب ـ من نفى رجلاً من قبيلته (٢/٨٧١) .

(٣) المقرفة يعني اللئيمة ، والنجار : الأصل . العقيم : التي لا تحمل .

(٤) القرم : استعاره هنا للرجل السيد ؛ وهو الفحل من الإبل .

(٥) في الطبري ج ٢/١٨٢ : وجمع قبائل قريش فأنزلهم أبطح مكة وكان بعضهم في الشعاب ورؤوس جبال مكة فقسم منازلهم بينهم فسمي مجمعاً .

(٦) في الطبري : مطرود وفي الأزرقي فكالأصل .

وقال بعضهم : كان قصي يقال له قريش قيل من التجمع والتقرش التجمع كما قال أبو خلدة اليشكري[١] :

اخـوةٌ قرّشـوا الـذنـوبَ علينـا ... في حـديثٍ من دهـرِنـا وقـديم[١]

وقيل سميت قريش من التقرش وهو التكسب والتجارة حكاه ابن هشام رحمه الله . وقال الجوهري : القرش الكسب والجمع وقد قرش يقرش قال الفراء : وبه سميت قريش وهي قبيلة وأبوهم النضر بن كنانة فكل من كان من ولده فهو قرشي دون ولد كنانة فما فوقه . وقيل من التفتيش قال هشام بن الكلبي كان النضر بن كنانة تسمى قريشاً لأنه كان يقرش عن خلة الناس وحاجتهم فيسدها بماله والتقريش هو التفتيش وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيرفدونهم بما يبلغهم بلادهم فسموا بذلك من فعلهم وقرشهم قريشاً وقد قال الحارث بن حلزة في بيان أن التقرش التفتيش :

أيها الـنـاطقُ المـقـرِّشِ عنّا ... عنـدَ عمروٍ فهـلْ لـه إبقـاء[٢]

حكى ذلك الزبير بن بكار وقيل قريش تصغير قرش[٣] وهو دابة في البحر قال بعض الشعراء :

وقـريشٌ هـي التي تـسكـن البحـ ... ـرَ بهـا سُمِّيت قـريشٌ قـريشـا

قال البيهقي[٤] : أخبرنا أبو نصر بن قتادة أنا أبو الحسن علي بن عيسى المالِيني حدثنا محمد ابن الحسن بن الخليل النسوي أن أبا كريب حدثهم حدثنا وكيع بن الجراح عن هشام بن عروة عن أبيه عن أبي ركانة العامري أن معاوية قال لابن عباس : فلم سميت قريش قريشاً ؟ فقال : لدابة تكون في البحر تكون أعظم دوابه ، فيقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلاّ أكلته قال فأنشدني في ذلك شيئاً فأنشد[ته] شعر الجمحي إذ يقول :

وقـريشٌ هـي التي تـسكـن البحـ ... ـر بهـا سميت قـريش قـريشـا
تـأكـلُ الـغـثَّ والـسـمـينَ ولا ... تتـركنْ لـذي الجنـاحين ريشـا[٥]
هـكـذا في البـلادِ حـيّ قـريش ... يـأكلون البـلادَ أكـلا كـميشـا

---

(١) في ابن هشام : أبو جلدة وفيه : من عمرنا بدل من دهرنا .

(٢) في الطبري : لهن انتهاء وفي اللسان : وهل لذاك بقاء .

(٣) في اللسان : قريش دابة في البحر لا تدع دابة إلا أكلتها فجميع الدواب تخافها ، وروي عن ابن عباس أن النضر كان في سفينة فطلعت عليهم دابة قريش فرماها بسهم فقتلها وحملها إلى مكة فسمي باسمها (نهاية الأرب ٣٥٦).

(٤) أخرجه في دلائل النبوة ج ١ / ١٨٠ ـ ١٨١ وفيه أبي ريحانة العامري بدل من أبي ركانة .

(٥) في البيهقي : ولا تترك فيها لذي جناحين ريشا .

ولهم آخرَ الزمانِ نبيٌّ   يُكثرُ القتلَ فيهمْ والخموشا

وقيل سموا بقريش بن الحارث[1] بن يخلد بن النضر بن كنانة وكان دليل بني النضر وصاحب ميرتهم فكانت العرب تقول : قد جاءت عير قريش قالوا وابن بدر بن قريش هو الذي حفر البئر المنسوبة إليه[2] التي كانت عندها الوقعة العظمى يوم الفرقان[3] يوم التقى الجمعان والله أعلم .

ويقال في النسبة إلى قريش قرشي وقريشي قال الجوهري وهو القياس . قال الشاعر :

لكل قريشيٍّ عليهِ مهابةٌ   سريعٌ إلى داعي النَّدا والتكرم

قال فإذا أردت بقريش الحي صرفته وإن أردت القبيلة منعته قال الشاعر في ترك الصرف :

* وكفى قريشَ المعضلاتِ وسادَها[4] *

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي عمرو الأوزاعي قال : حدثني شداد أبو عمار حدثني واثلة بن الأسقع قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله [تعالى] اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى هاشماً من قريش واصطفاني من بني هاشم »[5] . قال أبو عمر بن عبد البر يقال بنو عبد المطلب فصيلة رسول الله ﷺ وبنو هاشم فخذه وبنو عبد مناف بطنه وقريش عمارته وبنو كنانة قبيلته ومضر شعبه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

ثم قال ابن إسحاق : فولد النضر بن كنانة مالكاً ومخلداً[6] قال ابن هشام والصلت وأمهم جميعاً بنت سعد بن الظرب العدواني[7] . قال كثير بن عبد الرحمن وهو كُثير عزّة أحد بني مُليح بن عمرو من خزاعة :

---

(١) في ابن حزم : قريش بن بدر بن يخلد بن النضر . ١/٩ وفي الطبري قريش بن بدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة .

(٢) في الطبري : سميت بدراً بدراً .

(٣) يوم الفرقان : وقعة بدر التي أظهر الله بها الإسلام وفرّق بين الحق والباطل . وبين بدر والمدينة سبعة بُرُد .

(٤) البيت لعدي بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك وصدره في اللسان :

غلب المسامح الوليد سماحة . . .

وقيل في قريش أن بعضهم نظر إلى النضر فقال انظروا إلى النضر كأنه جملٌ قريش .

وقيل سميت قريشاً من أجل أنها تقرشت عن الغارات . وقيل لغلبة قريش وقهرهم سائر القبائل .

(٥) أخرجه مسلم في أول كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي ﷺ ح ١ ص ١٧٨٢ . وأخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/١٠٧ وأخرجه البيهقي في دلائله ١/١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٦) في ابن هشام والطبري : يخلد .

(٧) في الطبري عكرشة بنت الحارث بن عمرو بن قيس العدواني وعند ابن إسحاق عاتكة بنت عدوان . وفي ابن الأثير : اسمها عاتكة ولقبها عكرشة .

أليس أبي بالصَّلتِ أم ليس إخوتي لكلِّ هجانٍ من بني النضْر أزهرا[1]
رأيت ثيابَ العصب مختلطَ السّدى بنا وبهمْ والحضرميّ المخصَّرا[2]
فإن لم تكونوا من بني النضر فاتركوا أراكاً بأذنابِ الفَواتجِ أخضرا[3]

قال ابن هشام : وبنو مليح بن عمرو يعزون إلى الصلت بن النضر[4] .

قال ابن إسحاق : فولد مالك بن النضر فهر بن مالك ، وأمه جندلة بنت الحارث[5] بن مضاض الأصغر وولد فهر غالباً ومحارباً والحارث وأسداً وأمهم ليلى بنت سعد بن هذيل بن مدركة[6] .

قال ابن هشام : وأختهم لأبيهم جندلة بنت فهر . قال ابن إسحاق : فولد غالب بن فهر لؤي بن غالب وتيم بن غالب وهم الذين يقال لهم بنو الأدرم[7] وأمهما سلمى بنت عمرو الخزاعي[8] . قال ابن هشام وقيس بن غالب وأمه سلمى بنت كعب بن عمرو الخزاعي وهي أم لؤي[9] قال ابن إسحاق : فولد لؤي بن غالب أربعة نفر كعباً وعامراً وسامة وعوفاً . قال ابن هشام ويقال : والحارث وهم جشم بن الحارث في هزان من ربيعة وسعد بن لؤي وهما بُنانة في شيبان بن ثعلبة وبنانة[10] حاضنة لهم وخزيمة بن لؤي وهم عايلة في شيبان بن ثعلبة .

---

(١) الهجان : الكريم الأصل والعالي النسب ؛ والأزهر : المشهور .

(٢) ثياب العصب : ثياب يمنية . الحضرمي : النعال . والمخصرة التي تضيق من جانبيها .

(٣) كذا في الأصل وفي ابن هشام الفدائج : وهي رؤوس الأودية وقيل هي عيون .

(٤) الصلت بن مالك ، وولده دخلوا في بني مليح من خزاعة ، وهم رهط كثير بن عبد الرحمن؛(الأنباه على قبائل الرواة ٩٣ - ٩٤ - جمهرة ابن حزم ١٢/١).

(٥) في الطبري وابن الأثير جندلة بنت عامر بن الحارث . وقال أبو عبيدة عمر بن المثنى : سلمى بنت أد بن طابخة بن إلياس بن مضر . .

(٦) في الطبري : ولد فهر غالب الحارث ومحارب وأسد وعوف وجون وذئب وأمهم ليلى بنت الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة .

(٧) الأدرم : المدفون الكمين من اللحم ، وهو أيضاً المنقوص الدقن وغالب كان كذلك ، وبنو الأدرم هم اعراب مكة ، وهم من قريش الظواهر لا من قريش البطاح . راجع الطبري .

(٨) في الطبري وابن الأثير : عاتكة بنت النضر بن مخلد بن كنانة وهي أولى العواتك اللاتي ولدن رسول الله ﷺ من قريش .

(٩) في الطبري : أم كعب ماوية . وأم عوف الباردة بنت عوف بن غنم بن عبد الله بن غطفان خرجت إلى قومها لما مات لؤي وتزوجها سعد بن ذبيان بن بغيض وتبنى عوفاً .

(١٠) بنانة حاضنة لهم وهي من بني القين كما عند ابن إسحاق وفي الطبري بنانة أمهم . واعتبر الطبري مخالفاً ابن هشام في أن عائلة أم خزيمة .

ثم ذكر ابن إسحاق خبر سامة بن لؤي وأنه خرج إلى عُمان ، فكان بها . وذلك لشنآن كان بينه وبين أخيه عامر فأخافه عامر فخرج عنه هارباً إلى عمان وأنه مات بها غريباً وذلك أنه كان برعى (١) ناقته فعلقت حية بمشفرها فوقعت لشقها ثم نهشت الحية سامة حتى قتلته فيقال إنه كتب بأصبعه على الأرض :

عينُ فابكي لسامةَ بنِ لؤيّ ... عُلِقَتْ ما بسامة العَلّاقة (٢)
لا أرى مثلَ سامةَ بن لؤي ... يومَ حلّوا به قتيلاً لناقه
بلّغا عامراً وكعباً رسولاً ... أن نفسي إليهما مشتاقة
إن تكن في عُمانَ داري فإني ... غالبيّ خرجتُ من غير فاقه
رُبّ كأسٍ هرقتَ يابن لؤي ... حَذَر الموتِ لم تكن مهراقه
رُمتَ دفعَ الحتوف يابن لؤي ... ما لمن رامَ ذاك بالحتف طاقه
وخروس السرى تركت رزيّاً ... بعد جِدّ وجِدّةٍ ورشاقه (٣)

قال ابن هشام : وبلغني أن بعض ولده أتى رسول الله ﷺ فانتسب إلى سامة بن لؤي فقال له رسول الله ﷺ : « آلشاعر ؟ فقال له بعض أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت قوله » ؟

ربّ كأسٍ هرقت يابن لؤي ... حذَر الموتِ لم تَكنْ مهراقه

فقال : « أجل » . وذكر السهيلي عن بعضهم أنه لم يعقب . وقال الزبير ولد أسامة (٤) بن لؤي غالباً والنبيت والحارث قالوا وكانت له ذرية بالعراق (٥) يبغضون علياً ومنهم علي بن الجعد كان يشتم أباه لكونه سماه علياً ومن بني سامة بن لؤي محمد بن عرعرة بن اليزيد شيخ البخاري (٦) .

= ووافق ابن قتيبة في المعارف ، والسيرة في اعتبار الحارث ولداً للؤي وخالفهما الطبري وابن دريد حيث لم يذكر في ولد لؤي اسماً للحارث .

(١) كذا بالأصل ، وفي ابن هشام : بينا هو يسير على ناقته ، إذ وضعت رأسها ترتع فأخذت حية بمشفرها فهصرتها حتى وقعت الناقة .

ويخالف صاحب الأغاني في روايته لقصة سامة بن إسحاق ، بل كان الخلاف بين سامة وأخيه كعب .

(٢) العلاقة : هنا : الحية التي تعلقت بالناقة .

(٣) خروس السرى : يريد ناقة صموتاً على السرى لا تضجر منه .

رزياً في ابن هشام ردياً والردى : التي سقطت من الأعياء .

(٤) كذا بالأصل والصواب سامة .

(٥) وهم بنو ناجية الذين قتلهم علي رضي الله عنهم على الردة وسباهم كما عند ابن حزم في الجمهرة ص ١٣ والأغاني ووفيات الأعيان ١/٣٤٩.

(٦) كذا في الأصل اليزيد وهو تصحيف .

وقال ابن إسحاق : وأما عوف بن لؤي فإنه خرج ـ فيما يزعمون ـ في ركب من قريش حتى إذا كان بأرض غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان ، أبطىء به ، فانطلق من كان معه من قومه ، فأتاه ثعلبة بن سعد ، وهو أخوه في نسب بني ذبيان ، فحبسه وزوجه والتاطه[1] وآخاه . فشاع نسبه في ذبيان . وثعلبة ـ فيما يزعمون ـ[2] .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن جعفر[3] بن الزبير أو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن الحصين أن عمر بن الخطاب قال : لو كنت مدعياً حياً من العرب أو ملحقهم بنا لادعيت بني مرة بن عوف ، إنا لنعرف منهم الأشباه مع ما نعرف من موقع ذلك الرجل حيث وقع يعني عوف بن لؤي .

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم أن عمر بن الخطاب قال لرجال منهم من بني مرة : إن شئتم أن ترجعوا إلى نسبكم فارجعوا إليه . قال ابن إسحاق : وكان القوم أشرافاً في غطفان ، هم سادتهم وقادتهم[4] . قوم لهم صيت في غطفان وقيس كلها فأقاموا على نسبهم قالوا وكانوا يقولون إذا ذكر لهم نسبهم ما ننكره وما نجحده وإنه لأحب النسب إلينا ثم ذكر أشعارهم في انتمائهم إلى لؤي قال ابن إسحاق : وفيهم كان البسل[5] وهو تحريم ثمانية أشهر لهم من كل سنة من بين العرب وكانت العرب تعرف لهم ذلك ويأمنونهم فيها ويؤمنونهم أيضاً قلت : وكانت ربيعة ومضر إنما يحرمون أربعة أشهر من السنة وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم واختلفت ربيعة ومضر في الرابع وهو رجب فقالت : مضر هو الذي بين جمادى وشعبان وقالت ربيعة

= هو محمد بن عريرة بن البرند كما في تقريب التهذيب والكاشف للذهبي وشذرات الذهب توفي سنة ٢١٣ هـ . روى عنه البخاري .

(١) تقدم التعليق على خروج أم عوف البارقة وزواجها في بني ذبيان .
التاطه : ألصقه به ، وضمه إليه وألحقه بنسبه .

(٢) نقص في العبارة ، لعل الساقط سهواً من الناسخ ، وتكملته كما في ابن هشام : « الذي يقول لعوف حين أُبطىء به فتركه قومه :

أحبس عليّ ابن لؤي جملك ... تركك القوم ولا منزل لك

وفي الطبري القائل فزارة بن ذبيان وأوله : عرّج عليّ .

(٣) ينتمي إلى الزبير بن العوام الأسدي حدث عن عمه عروة وابن عمه عباد بن عبيد الله كان فقيهاً عالماً وثقه النسائي . وابن سعد والدارقطني وذكره البخاري في الأوسط .

(٤) ومنهم : هرم بن سنان بن مرة بن أبي حارثة ، وخارجة بن سنان ، والحارث بن عوف ، والحصين بن حمام وهاشم بن حرملة .

(٥) البسل : الحلال والحرام فهو من الأضداد .

هو الذي بين شعبان وشوال وقد ثبت في الصحيحين[1] عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال في خطبة حجة الوداع : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » فنص على ترجيح قول مضر لا ربيعة وقد قال الله عزّ وجلّ : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثني عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ﴾ فهذا رد على بني عوف بن لؤي في جعلهم الأشهر الحرم ثمانية فزادوا على حكم الله وأدخلوا فيه ما ليس منه وقوله في الحديث ثلاث متواليات رد على أهل النسيء الذين كانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر . وقوله فيه ورجب مضر رد على ربيعة .

قال ابن إسحاق : فولد كعب بن لؤي ثلاثة ، مرة ، وعدياً ، وهصيصاً وولد مرة ، ثلاثة أيضاً كلاب بن مرة ، وتيم بن مرة ، ويقظة بن مرة من أمهات ثلاث[2] . قال وولد كلاب رجلين قصي[3] بن كلاب وزهرة بن كلاب وأمهما فاطمة بنت سعد بن سيل أحد [بني] الجُدَرَة من جعثمة الأسد من اليمن حلفاء بني الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة وفي أبيها يقول الشاعر :

ما نرى في الناسِ شخصاً واحداً ... مَن علمناه كسعد بن سيل
فارساً أضبطَ فيه عسرة ... وإذا ما واقف القِرنَ نزل[4]
فارساً يستدرج الخيلَ كما اسـ ... ـتدرجَ الحر القطاميُّ الحجل[5]

قال السهيلي : سيل اسمه خير بن جمالة[6] وهو أول من طليت له السيوف بالذهب والفضة .

قال ابن إسحاق : وإنما سمو الجدرة ، لأن عامر بن عمرو بن خزيمة[7] بن جعثمة تزوج بنت الحارث بن مضاض الجرهمي وكانت جرهم إذ ذاك ولاة البيت . فبنى للكعبة جداراً فسمي عامر بذلك الجادر فقيل لولده الجدرة لذلك .

---

(١) رواه البخاري عن ابي بكرة بن أبي شيبة في ٦٤ كتاب المغازي ٧٧ باب حجة الوداع . ومسلم في ٢٨ كتاب القسامة (٩) باب تغليظ الدماء ج ٢٩ ص ١٣٠٥/٣ .

(٢) في الطبري أم كلاب هند بنت سرير بن ثعلبة بن الحارث بن فهر بن مالك من بني كنانة . وتيم ويقظة أمهما كما ذكر ابن الكلبي : اسماء بنت عدي بن حارثة وأما ابن إسحاق فقال أمهما : هند بنت حارثة البارقية .

(٣) قصي اسمه زيد مات أبوه وهو فطيم فخرجت امه وتزوجت في بني ربيعة فسمى زيد قصياً لبعده عن دار قومه (راجع الطبري) .

(٤) الأضبط الذي يعمل بكلتا يديه . والقرن : الذي يقاوم بصلابة في الحرب .

(٥) الحر القطامي : هنا - يعني الصقر .

(٦) وفي الطبري : خير بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر بن عمرو بن جعثمة .

(٧) في الطبري والروض الأنف : عمرو بن جعثمة ، باسقاط خزيمة .

خبر قصي بن كلاب وارتجاعه ولاية البيت الى قريش وانتزاعه ذلك من خزاعة

وذلك أنه لما مات أبوه كلاب تزوج أمه ربيعة بن حرام من عذرة وخرج بها وبه إلى بلاده ثم قدم قصي مكة وهو شاب فتزوج حبى ابنة رئيس خزاعة حليل بن حبشية(١) . فأما خزاعة فزعم أن حليلاً أوصى إلى قصي بولاية البيت لما رأى من كثرة نسله من ابنته وقال أنت أحق بذلك مني . قال ابن إسحاق : ولم نسمع ذلك إلّا منهم وأما غيرهم فإنهم يزعمون أنه استغاث بإخوته من أمه وكان رئيسهم رزاح بن ربيعة وأخوته وبني كنانة وقضاعة ومن حول مكة من قريش وغيرهم فأجلاهم عن البيت واستقل هو بولاية البيت لأن إجازة الحجيج كانت إلى صوفة(٢) وهم بنو الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر فكان الناس لا يرمون الجمار حتى يرموا ولا ينفرون من منى حتى ينفروا فلم يزل كذلك فيهم حتى انقرضوا فورثهم ذلك بالقُعْدَد بنو سعد بن زيد مناة بن تميم فكان أولهم صفوان بن الحارث بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم وكان ذلك في بيته حتى قام على آخرهم الإسلام وهو كرب بن صفوان . وكانت الاجازة من المزدلفة في عدوان حتى قام الإسلام على آخرهم وهو أبو سيارة عميلة بن الأعزل وقيل اسمه العاص واسم الأعزل خالد وكان يجيز بالناس على أتان له عوراء مكث يدفع عليها في الموقف أربعين سنة وهو أول من جعل الدية مائة وأول من كان يقول أُشرق ثبير كيما نغير حكاه السهيلي .

---

(١) والسبب في عودته إلى مكة كما يرويه الطبري وابن إسحاق ؛ هو تعييره بنسبه لأنه ادعى في بني ربيعة ، ومرة تساب مع آخر فعيره وقال له : لست منا . . . فأخبرته أمه بنسبه وشرفه فعاد إلى مكة في حاج قضاعة . وفي مكة تزوج حبى بنت حليل .

وأقام قصي في مكة مع حليل وولدت له حبى عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى فلما انتشر ماله وعظم شرفه هلك حليل فرأى قصي أنه أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة وبني بكر . فكلم رجالاً من قريش وبني كنانة لمساعدته ، وكتب إلى أخيه في بني ربيعة . . . فاقتتلوا بمفضى مأزمي منى وكثرت القتلى في الحرم ودخلت قبائل العرب بينهم واصطلحوا على أن يحكموا بينهم يعمر بن عوف . . . فحكم إلى قصي بحجابة الكعبة وولاية البيت .

وقيل إن حليل كان ربما أعطى المفاتيح إلى ابنته حبى لما كبر وضعف ، وربما كان قصي أخذها في بعض الأحيان ففتح البيت للناس وأغلقه ولما هلك حليل أوصى بولاية البيت لقصي فرفضت خزاعة فهاجت الحرب بينها وبينه .

ويذكر أيضاً أن حليل لما كبر وضعف اعطى أبا غبشان المفاتيح وهو من خزاعة فابتاعها منه قصي بزق خمر . وصارت ولاية البيت له . (راجع الطبري ـ ابن هشام ـ الروض الأنف ـ ابن الأثير ـ الأزرقي) .

(٢) صوفة وهم الغوث وولده وسمي صوفة لأن أمه حين جعلته ربيطاً في الكعبة علقت برأسه صوفة ؛ وقيل ألبسته ثوباً من الصوف .

ويقال : إن من ولي من البيت شيئاً من غير أهله أو قام بخدمة في البيت يقال لهم صوفة وصوفان .

وكان عامر بن الظرب العدواني لا يكون بين العرب نائرة(١) إلّا تحاكموا إليه فيرضون بما يقضي به فتحاكموا إليه مرة في ميراث خنثى فبات ليلته ساهراً يتروى ماذا يحكم به فرأته جارية له كانت ترعى عليه غنمه اسمها سخيلة ، فقالت له مالك لا أبالك ؟ الليلة ساهراً ؟ فذكر لها ما هو مفكر فيه ، وقال لعلها يكون عندها في ذلك شيء فقالت اتبع القضاء المبال(٢) فقال فرجتها والله يا سخيلة وحكم بذلك .

قال السهيلي : وهذا الحكم من باب الاستدلال بالإمارات والعلامات وله أصل في الشرع قال الله تعالى : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ [يوسف:١٨] حيث لا أثر لأنياب الذئب فيه . وقال تعالى : ﴿ إن كان قميصه قدّ من قُبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قدّ من دُبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ [يوسف: ٢٦ ـ ٢٧] .

وفي الحديث : « انظروها فإن جاءت به أورق جعداً جمالياً فهو للذي رميت به » .

قال ابن إسحاق : وكان النسيء في بني فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر . قال ابن إسحاق : وكان أول من نسأ الشهور على العرب ، القَلَمَّسْ(٣) وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي ثم قام بعده ابنه عباد ثم قلع بن عباد ثم أمية بن قلع ثم عوف بن أمية ثم كان آخرهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن قلع بن عباد بن حذيفة وهو القلمس فعلى أبي ثمامة قام الاسلام(٤) وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فخطبهم فحرم الأشهر الحرم فإذا أراد أن يحل منها شيئاً أحل المحرم وجعل مكانه صفراً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيقول : (اللهم إني أحللت أحد الصفرين الصفر الأول وانسأت الآخر للعام المقبل) فتتبعه العرب في ذلك ففي ذلك يقول عمير بن قيس أحد بني فراس بن غنم [بن ثعلبة] بن مالك بن كنانة ويعرف عمير بن قيس هذا بجدل الطعان(٥) :

لقد علمتْ معدّ أن قومي كرامُ الناس أن لهم كراما

---

(١) النائرة : الكائنة الشنيعة تكون بين القوم .

(٢) أي دعه يقعد ، كما في ابن إسحاق ، فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل ، وإن بال من حيث تبول المرأة فهي امرأة .

(٣) القلمس : سمي به لجوده إذ القلمس من أسماء البحار .

(٤) قال السهيلي : وجدت له خبراً يدل على أنه أسلم فإنه حضر الحج في زمن عمر فرأى ، ناس يزدحمون على الحجر الأسود فقال : أيها الناس : إني قد أجرته منكم فخفقه عمر بالدرة . وقال ويحك إن الله قد أبطل أمر الجاهلية . الإصابة ج ٢٤٧/١ .

(٥) في ابن هشام جذل الطعان سمي بذلك لثباته في الحرب كأنه جذل شجرة واقف . وقال أبو عبيدة جذل الطعان هو علقمة بن فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة انظر (سيرة ابن هشام ـ الروض الأنف ـ شرح السيرة لأبي ذر) .

فأي الناس فاتونا بوتر وأي الناس لم نعلك لجاما[1]
ألسنا الناسئين على معدٍّ شهورَ الحِلّ نجعلُها حراما

وكان قصي في قومه سيداً رئيساً مطاعاً معظماً والمقصود أنه جمع قريشاً من متفرقات مواضعهم من جزيرة العرب واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب على حرب خزاعة وإجلائهم عن البيت وتسليمه إلى قصي فكان بينهم قتال[2] كثيرة ودماء غزيرة ثم تداعوا إلى التحكيم فتحاكموا إلى يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة فحكم بأن قصياً أولى بالبيت من خزاعة وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر موضوع بشدخه تحت قدميه وأن ما أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ففيه الدية مؤداة وأن يخلى بين قصي وبين مكة والكعبة فسمي يعمر يومئذٍ الشداخ .

قال ابن إسحاق : فولى قصي البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة فملّكوه ، إلاّ أنه أقر العرب على ما كانوا عليه ، لأنه يرى ذلك ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره فأقر آل صفوان وعدوان والنسأة ومرة بن عوف على ما كانوا عليه ، حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله ، قال [ابن إسحاق] فكان قصي أول بني كعب أصاب ملكاً أطاع له به قومه وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء[3] ، فحاز شرف مكة كله . وقطع مكة رباعاً بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة .

قلت : فرجع الحق إلى نصابه ، ورد شارد العدل بعد إيابه ، واستقرت بقريش الدار ، وقضت من خزاعة المراد والأوطار ، وتسلمت بيتهم العتيق القديم لكن بما أحدثت خزاعة من عبادة الأوثان ونصبها إياها حول الكعبة ونحرهم لها وتضرعهم عندها واستنصارهم بها وطلبهم الرزق منها . وأنزل قصي قبائل قريش أباطح مكة ، وأنزل طائفة منهم ظواهرها ، فكان يقال قريش البطاح ، وقريش الظواهر . فكانت لقصي بن كلاب جميع الرئاسة من حجابة البيت وسدانته واللواء وبنى داراً لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات سماها دار الندوة إذا أعضلت قضية

---

(١) الوتر : طلب الثأر .

(٢) اقتتلوا عند مفضى مأزمي منى . فسمي المكان المفجر لما فجر فيه وسفك فيه من الدماء وانتهك من حرمته (الأزرقي ١/١٠٦).

(٣) زاد الأزرقي : القيادة .

والحجابة : أن تكون مفاتيح البيت عنده لا يدخله أحد إلا بإذنه .

السقاية : يعني سقاية زمزم .

الرّفادة : طعام تجمعه قريش كل عام لأهل الموسم .

الندوة : دار تخذها قصي للاجتماع بأهل المشورة والرأي .

اجتمع الرؤساء من كل قبيلة فاشتوروا فيها وفصلوها ولا يعقد عقد لواء ولا عقد نكاح إلاّ بها ولا تبلغ جارية أن تدرع فتدرع إلاّ بها وكان باب هذه الدار إلى المسجد الحرام . ثم صارت هذه الدار فيما بعد إلى حكيم بن حزام[1] بعد بني عبد الدار فباعها في زمن معاوية بمائة ألف درهم فلامه على بيعها معاوية ، وقال بعت شرف قومك بمائة ألف ؟ فقال إنما الشرف اليوم بالتقوى والله لقد ابتعتها في الجاهلية بزق خمر وها أنا قد بعتها بمائة ألف وأشهدكم أن ثمنها صدقة في سبيل الله فأينا المغبون . ذكره الدارقطني في أسماء رجال الموطأ وكانت إليه سقاية الحجيج فلا يشربون إلاّ من ماء حياضه وكانت زمزم إذذاك مطموسة من زمن جرهم قد تناسوا أمرها من تقادم عهدها ولا يهتدون إلى موضعها قال الواقدي : وكان قصي أول من أحدث وقيد النار بالمزدلفة ليهتدي إليها من يأتي من عرفات . والرفادة وهي إطعام الحجيج أيام الموسم إلى أن يخرجوا راجعين إلى بلادهم .

قال ابن إسحاق : وذلك أن قصياً فرضه عليهم فقال لهم : يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم ، وأن الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق بالضيافة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم . ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك في كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى . فجرى ذلك من أمره في الجاهلية حتى قام الإسلام ، ثم جرى في الإسلام إلى يومك هذا . فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضي الحج .

قلت : ثم انقطع هذا بعد ابن إسحاق ثم أمر بإخراج طائفة من بيت المال فيصرف في حمل زاد وماء لأبناء السبيل القاصدين إلى الحج وهذا صنيع حسن من وجوه يطول ذكرها ، ولكن الواجب أن يكون ذلك من خالص بيت المال ، من أحل ما فيه والأولى أن يكون من جوالي الذمة لأنهم لا يحجون البيت العتيق وقد جاء في الحديث : « من استطاع الحج فلم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً »[2] .

وقال قائلهم[3] في مدح قصي وشرفه في قومه :

قصيّ لعمري كان يدعى مجمّعاً ... به جمع الله القبائلَ من فِهر

---

(١) هو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي .
وفي ابن الأثير ج ٢/٢٣ : أن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار باعها من معاوية فجعلها دار الإمارة بمكة .
وفي جمهرة ابن حزم أن عكرمة كانت له الندوة وباعها من حكيم بن حزام في الجاهلية ولعله الصواب إذ أن حكيم الذي باعها زمن معاوية .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) هو حذافة بن غانم الجمحي كما في الأزرقي : وفيه : أبوهم قصي .

هموا ملأوا البطحاء مجداً وسؤدداً — وهم طردوا عنا غُواة بني بكر

قال ابن إسحاق : ولما فرغ قصي من حربه انصرف أخوه رزاح بن ربيعة إلى بلاده بمن معه واخوته من أبيه الثلاثة وهم حن ومحمود وجلهمة[1] . قال رزاح في إجابته قصياً :

ولما أتى من قصيٍّ رسولٌ — فقال الرسول أجيبوا الخليلا
نهضنا إليه نقودُ الجيا — دَ ونطرح عنّا الملولَ الثقيلا
نسير بها الليلَ حتى الصبا — ح ونكمي النهارَ لئلا نزولا[2]
فهنّ سراعٌ كوردِ القطا — يجبْنَ بنا مِن قصيٍّ رسولا
جمعنا من السر من اشمذين — ومن كل حيٍّ جمعنا قبيلا[3]
فيا لك حلبة ما ليلة — تزيد على الألف سيباً رسيلا
فلما مررْنَ على عسجر — وأسهلنَ من مستناخٍ سبيلا[4]
وجاوزنَ بالرُكن من ورقا — نَ وجاوزن بالعرج حياً حلولا[5]
مررن على الحل ما ذُقنه — وعالجنَ من مرّ ليلاً طويلا[6]
نُدني من العوْذِ أفلاءها — إرادةَ أن يسترقن الصهيلا[7]
فلما انتهينا إلى مكةٍ — أبحنا الرجالَ قبيلاً قبيلا
نعاورهم ثم حدَّ السيو — ف وفي كل أوْبٍ خلسنا العقولا
نخبّزهم بصِلاب النسو — ر خبز القويّ العزيزِ الذليلا[8]
قتلنا خزاعةَ في دارها — وبَكراً قتلنا وجيلاً فجيلا
نفيناهمُ من بلاد المليـ — ـكِ كما لا يحلّون أرضاً سهولا
فأصبح سِيْبُهُم في الحديـ — ـدِ ومن كل حيٍّ شفَيْنا الغليلا

قال ابن إسحاق : فلما رجع رزاح إلى بلاده نشره الله ونشر حنا ، فهما قبيلا عذرة إلى اليوم .

قال ابن إسحاق : وقال قصي بن كلاب في ذلك :

أنا ابن العاصمين بني لؤي — بمكة منزلي وبها ربيت

---

(١) في الطبري هؤلاء ليس بأخوته بل أولاد ربيعة بن حرام من امرأة أخرى غير أم قصي .

(٢) نكمي : نكمن .

(٣) الأشمذين ، قيل قبيلتان . وقيل جبلان بين المدينة وخيبر .

(٤) في ابن هشام عسجد وكلاهما موضع بعينه (أنظر معجم البلدان) .

(٥) ورقان والعرج موضعان : جبل وواد . (معجم البلدان ومعجم ما استعجم) .

(٦) في ابن هشام : الحل .

(٧) العوذ : جمع عائذ : وهي الناقة التي لها أولاد .

(٨) نخبزهم : نسوقهم سوقاً شديداً .

إلى البـطحـاءِ قـدْ علمتْ معـدٌ ومـروتُهـا رضيتُ بهـا زضيت
فـلست لـغـالـب أنْ لم تـأثّـل بهـا أولادُ قيـذَرَ والـنـبـيـت[1]
رزاحَ نـاصِـري وبـه أسـامـي فلستُ أخـافُ ضيـماً مـا حييت

وقد ذكر الأموي عن الأشرم عن أبي عبيدة عن محمد بن حفص : أن رزاحاً إنما قدم بعدما نفى قصي خزاعة والله أعلم .

فصل

ثم لما كبر قصي فوض أمر هذه الوظـائف التي كانت إليـه من رئاسـات قريش وشـرفها من الرفـادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة إلى ابنه عبد الدار وكان أكبر ولده . وإنما خصصـه بها كلها لأن بقية أخوته عبد مناف وعبد الشمس وعبداً كانوا قد شرفوا في زمن أبيهم وبلغوا في قومهم شرفاً كبيراً فأحب قصي أن يلحق بهم عبد الدار في السؤدد فخصصـه[2] بذلـك فكان أخـوته لا ينازعونه في ذلك فلما انقرضوا تشاجر أبناؤهم في ذلك وقالوا إنما خصص قصي عبد الـدار بذلـك ليلحقه بإخوته فنحن نستحق ما كان آباؤنا يستحقونه وقال بنو عبد الدار هذا أمر جعله لنـا قصي فنحن أحق به واختلفوا اختـلافاً كثيراً وانقسمت بطون قـريش فرقتـين ففرقـة بايعت عبـد الدار وحالفتهم وفرقة بايعت بني عبد مناف وحالفوهم على ذلك ووضعوا أيديهم عند الحلف في جفنة[3] فيها طيب ثم لما قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة فسموا حلف المطيبين . وكان منهم من قبائل قريش بنو أسد بن عبد العـزى بن قصي وبنو زهـرة وبنو تيم وبنـو الحارث بن فهـر وكان مـع بني عبد الدار بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي[4] واعتزلت بنو عامر بن لؤي ومحارب بن فهر الجميع فلم يكونوا مع واحد منهما ثم اصطلحوا واتفقوا على أن تكون الرفـادة والسقايـة لبني عبد مناف وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار فانبرم الأمر على ذلك واستمر .

وحكى الأموي عن الأشرم عن أبي عبيدة قال : وزعم قوم من خزاعـة أن قصياً لمـا تزوج حبى بنت حليـل ونقل حليـل عن ولاية البيت جعلهـا إلى ابنته حبى واستنـاب عنها أبـا غبشـان

---

(١) قيذر والنبيت من أولاد اسماعيل عليه السـلام .

(٢) قال له قصي : أما والله لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها . . . فأعطاه دار الندوة التي لا تقضي قريش أمراً إلا فيها . (الطبري ـ ابن الأثير ـ ابن هشام) .

(٣) التي أعطتهم الجفنة هي أم حكيم البيضـاء بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ وتـوأمة أبيـه (جمهرة ابن حـزم ـ الروض الأنف) .

(٤) في الطبري وابن الأثير وابن هشام : وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً ، على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً ، فسموا الأحلاف .
وتعبوا للقتال . ثم تداعوا إلى الصلح وتحاجز الناس عن الحرب .

سليم بن عمرو بن لؤي بن ملكان بن قصي بن حارثة بن عمرو بن عامر فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق خمر وقعود فكان يقال (أخسر من صفقة أبي غبشان) ولما رأت خزاعة ذلك اشتدوا على قصي فاستنصر أخاه فقدم بمن معه وكان ما كان ثم فوض قصي هذه الجهات التي كانت إليه من السدانة والحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية إلى ابنه عبد الدار كما سيأتي تفصيله وإيضاحه وأقر الإجازة من مزدلفة في بني عدوان وأقر النسيء في فقيم وأقر الإجازة وهو النفر في صوفة كما تقدم بيان ذلك كله مما كان بأيديهم قبل ذلك .

قال ابن إسحاق : فولد قصي أربعة نفر وامرأتين عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبداً وتخمر[1] وبرة ، وأمهم كلهم حبى بنت حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي وهو آخر من ولي البيت من خزاعة ومن يده أخذ البيت قصي بن كلاب . قال ابن هشام : فولد عبد مناف بن قصي أربعة نفر هاشماً وعبد شمس والمطلب وأمهم عاتكة بنت مرة بن هلال ونوفل بن عبد مناف وأمه واقدة بنت عمرو المازنية . قال ابن هشام : وولد لعبد مناف أيضاً أبو عمرو وتماضر وقلابة وحية وريطة وأم الأخثم وأم سفيان . قال ابن هشام : وولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر ، وخمس نسوة : عبد المطلب ، وأسداً ، وأبا صيفي ، ونضلة والشفا ، وخالدة ، وضعيفة ، ورقية ، وحية ؛ فأم عبد المطلب ورقية : سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد[2] بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار من المدينة وذكر أمهات الباقين[3] . قال وولد عبد المطلب عشرة نفر وست نسوة وهم العباس وحمزة وعبد الله وأبو طالب ـ واسمه عبد مناف ـ لا عمران والزبير والحارث ، وكان بكر أبيه وبه كان يكنى ، وجحل ، ومنهم من يقول حجل ، وكان يلقب بالغيداق لكثرة خيره ، والمقوم وضرار وأبو لهب ـ واسمه عبد العزى ـ وصفية ، وأم حكيم البيضاء ، وعاتكة ، وأميمة ، وأروى ، وبرة ، وذكر أمهاتهم إلى أن قال وأم عبد الله وأبي طالب والزبير وجميع النساء إلّا صفية فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

قال [ابن هشام] فولد عبد الله محمداً رسول الله ﷺ سيد ولد آدم وأمه آمنة بنت وهب بن

---

(١) لم يرد ذكر تخمر في الطبري . وعند ابن الأثير لم يذكر إلا أولاده البنين الأربعة . وعبداً ، عبد قصي في الطبري وابن الأثير .

(٢) في الطبري : ابن لبيد بن حرام .
وفي رواية عنده وعند ابن الأثير ، اسمها : سلمى بنت عمرو بن زيد الخزرجية النجارية .

(٣) أم أسد : قيلة بنت عامر بن مالك الخزاعية ؛ وأم أبي صيفي وحية : هند بنت عمرو بن ثعلبة الخزرجية ، وأم نضلة والشفاء امرأة من قضاعة ، وأم خالدة وضعيفة واقدة بنت أبي عدي المازنية . (ابن هشام) .

عبد مناف بن زهرة[1] بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ثم ذكر أمهاتها فأغرق إلى أن قال فهو أشرف ولد آدم حسباً ، وأفضلهم نسباً من قبل أبيه وأمه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . وقد تقدم حديث الأوزاعي عن شداد أبي عمار عن واثلة بن الأسقع قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى هاشماً من قريش واصطفاني من بني هاشم » رواه مسلم وسيأتي بيان مولده الكريم وما ورد فيه من الأخبار والآثار وسنورد عند سرد النسب الشريف فوائد أخر ليست هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان .

ذكر جمل من الأحداث في الجاهلية

قد تقدم ما كان من أخذ جرهم ولاية البيت من بني إسماعيل طمعوا فيهم لأنهم أبناء بناتهم وما كان من توثب خزاعة على جرهم وانتزاعهم ولاية البيت منهم ثم ما كان من رجوع ذلك إلى قصي وبنيه واستمرار ذلك في أيديهم إلى أن بعث الله رسوله ﷺ فأقر تلك الوظائف على ما كانت عليه .

ذكر جماعة مشهورين في الجاهلية

خبر خالد بن سنان العبسي الذي كان في زمن الفترة وقد زعم بعضهم أنه كان نبياً والله أعلم .

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن زهير التستري حدثنا يحيى بن المعلى بن منصور الرازي حدثنا محمد بن الصلت حدثنا قيس بن الربيع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : قال : جاءت بنت خالد بن سنان إلى النبي ﷺ فبسط لها ثوبه وقال : « بنت نبي ضيعه قومه » . وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يحيى بن المعلى بن منصور عن محمد بن الصلت عن قيس عن سالم عن سعيد عن ابن عباس . قال ذكر خالد بن سنان عند رسول الله ﷺ فقال : « ذاك نبي ضيعه قومه » . ثم قال ولا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه وكان قيس بن الربيع[2] ثقة في نفسه إلا أنه كان رديء الحفظ وكان له ابن يدخل في أحاديثه ما ليس منها والله أعلم .

قال البزار : وقد رواه الثوري عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير مرسلاً وقال الحافظ أبو

---

(١) ذهب ابن قتيبة في المعارف إلى القول أن زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهرة ، وهو خطأ على ما ورد عند ابن إسحاق والطبري وغيرهما أن زهرة هو جد بني زهرة وهو زهرة بن كلاب ومن ولده الحارث وعبد مناف ومن ولد عبد مناف وهب (انظر جمهرة الأنساب ص ١٢٨).

(٢) قيس بن الربيع أبو محمد الكوفي صدوق تغير لما كبر ، مات سنة بضع وستين ومائة وقال العجلي : الناس يضعفونه . وقال ابن معين : ليس بشيء وقال أبو حاتم : ليس بقوي وقال ابن عدي : عامة رواياته مستقيمة (ثقات العجلي ـ الكاشف ٢/٣٤٨ ـ التقريب ٢/١٢٨).

يعلى الموصلي : حدثنا المعلى بن مهدي الموصلي قال حدثنا أبو عوانة عن أبي يونس عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً من عبس يقال له خالد بن سنان قال لقومه : إني أطفيء عنكم نار الحرتين فقال له رجل من قومه[1] والله يا خالد ما قلت لنا قط إلا حقاً فما شأنك وشأن نار الحرتين تزعم أنك تطفئها فخرج خالد ومعه أناس من قومه فيهم عمارة بن زياد فأتوها فإذا هي تخرج من شق جبل فخط لهم خالد خطة فأجلسهم فيها فقال إن أبطأت عليكم فلا تدعوني باسمي فخرجت كأنها خيل شقر يتبع بعضها بعضاً فاستقبلها خالد فجعل يضربها بعصاه وهو يقول : بدا بدا بدا كل هدى زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج منها وثيابي بيدي حتى دخل معها الشق فأبطأ عليهم فقال لهم عمارة بن زياد والله إن صاحبكم لو كان حياً لقد خرج إليكم بعد قالوا فادعوه باسمه . قال فقالوا إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه فدعوه باسمه فخرج وهو آخذ برأسه فقال ألم أنهكم أن تدعوني باسمي فقد والله قتلتموني فادفنوني فإذا مرت بكم الحمر فيها حمار أبتر فأنبشوني فإنكم تجدوني حياً فدفنوه فمرت بهم الحمر فيها حمار أبتر فقلنا أنبشوه فإنه أمرنا أن ننبشه فقال لهم عمارة لا تنبشوه لا والله لا تحدث مضر أنا ننبش موتانا وقد كان قال لهم خالد إن في عكن امرأته لوحين فإن أشكل عليكم أمر فانظروا فيهما فإنكم ستجدون ما تسألون عنه قال ولا يمسها حائض فلما رجعوا إلى امرأته سألوها عنها فأخرجتها اليهم وهي حائض فذهب ما كان فيهما من علم[2] .

قال أبو يونس : قال سماك بن حرب سئل عنه النبي ﷺ فقال : « ذاك نبي أضاعه قومه » قال أبو يونس : قال سماك بن حرب إن ابن خالد بن سنان أتى النبي ﷺ فقال : « مرحباً بابن أخي » . فهذا السياق موقوف على ابن عباس وليس فيه أنه كان نبياً والمرسلات التي فيها أنه نبي لا يحتج بها هاهنا والأشبه أنه كان رجلاً صالحاً له أحوال وكرامات فإنه إن كان في زمن الفترة فقد ثبت في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أولى الناس بعيسى بن مريم أنا لأنه ليس بيني وبينه نبي » . وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبياً لأن الله تعالى قال : ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾[3] وقد قال غير واحد من العلماء إن الله تعالى لم يبعث بعد إسماعيل نبياً في العرب إلا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء الذي دعا به إبراهيم الخليل باني الكعبة المكرمة التي جعلها الله قبلة لأهل الأرض شرعاً وبشرت به الأنبياء لقومهم حتى كان آخر من بشر به عيسى بن مريم عليه السلام وبهذا المسلك بعينه يردّ ما ذكره السهيلي وغيره من إرسال نبي من العرب يقال له شعيب بن ذي مهذم بن شعيب بن صفوان صاحب مدين وبعث إلى العرب أيضاً حنظلة بن صفوان فكذبوهما فسلط الله على العرب بخت نصر فنال منهم من القتل والسبي نحو ما نال من بني

(١) في المستدرك للحاكم قال : هو عمارة بن زياد .

(٢) من الأساطير الغريبة ليس من سبيل لتصديقها والقبول بها .

(٣) سورة السجدة الآية ٣.

إسرائيل وذلك في زمن معد بن عدنان والظاهر أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين يدعون إلى الخير والله أعلم . وقد تقدم ذكر عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف في أخبار خزاعة بعد جرهم .

حاتم الطائي أحد أجواد الجاهلية

وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرىء القيس بن عدي بن أحزم بن أبي أحزم(١) واسمه هرومة(٢) بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء أبو سفانة الطائي والد عدي بن حاتم الصحابي ، كان جواداً ممدحاً في الجاهلية ، وكذلك كان ابنه في الإسلام . وكانت لحاتم مآثر وأمور عجيبة وأخبار مستغربة في كرمه يطول ذكرها ، ولكن لم يكن يقصد بها وجه الله والدار الآخرة ، وإنما كان قصده السمعة والذكر . قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا محمد بن معمر حدثنا عبيد بن واقد القيسي حدثنا أبو نصر هو الناجي عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال ذكر حاتم عند النبي ﷺ فقال : « ذاك أراد أمراً فأدركه » (حديث غريب) قال الدارقطني تفرد به عبيد بن واقد عن أبي نصر الناجي ويقال إن اسمه حماد .

قال ابن عساكر : وقد فرق أبو أحمد الحاكم بين أبي نصر الناجي وبين أبي نصر حماد ولم يسم الناجي ووقع في بعض روايات الحافظ ابن عساكر عن أبي نصر شيبة الناجي والله أعلم .

وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن إسماعيل حدثنا سفيان عن سماك بن حرب عن مرى بن قطري عن عدي بن حاتم قال قلت لرسول الله ﷺ : « إن أبي كان يصل الرحم ويفعل ويفعل فهل له في ذلك ؟ يعني من أجر. قال: «إن أباك طلب شيئاً فأصابه». وهكذا رواه أبو يعلى عن القواريري عن غندر عن شعبة عن سماك به . وقال : « إن أباك أراد أمراً فأدركه » يعني الذكر . وهكذا رواه أبو القاسم البغوي عن علي بن الجعد عن شعبة به سواء وقد ثبت في الصحيح في الثلاثة الذين تسعر بهم جهنم منهم الرجل الذي ينفق ليقال إنه كريم فيكون جزاؤه أن يقال ذلك في الدنيا وكذا في العالم والمجاهد وفي الحديث الآخر في الصحيح أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة فقالوا له كان يقري الضيف ويعتق ويتصدق فهل ينفعه ذلك فقال : « إنه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » . هذا وقد كان من الأجواد المشهورين أيضاً المطعمين في السنين الممحلة والأوقات المرملة .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي(٤) أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثني أبو بكر محمد بن عبد الله بن

---

(١) كذا في بلوغ الأرب للألوسي ؛ وفي جمهرة ابن حزم : أخزم بن أبي أخزم .

(٢) في الأغاني ٣٦٣/١٧ عن ابن السكيت : هزومة .

(٣) مسند أحمد ج ٢٥٨/٤ بتغيير في بعض ألفاظه .

(٤) أخرجه البيهقي في الدلائل ج ٣٤١/٥.

يوسف العماني ، حدثنا أبو سعيد عبيد بن كثير بن عبد الواحد الكوفي ، حدثنا ضرار بن صرد ، حدثنا عاصم بن حميد ، عن أبي حمزة الثمالي ، عن عبد الرحمن بن جندب ، عن كميل بن زياد النخعي ، قال : قال علي بن أبي طالب : يا سبحان الله ! ما أزهد كثيراً من الناس في خير عجباً ، لرجل يجيئه أخوه المسلم في حاجة(١) فلا يرى نفسه للخير أهلاً ، فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً لكان ينبغي له أن يسارع في مكارم الأخلاق فإنها تدل على سبيل(٢) النجاح . فقام إليه رجل وقال : فداك أبي وأمي يا أمير المؤمنين أسمعته من رسول الله ﷺ . قال نعم ! وما هو خير منه : لما أتي بسبايا طيء وقعت جارية حمراء لَعْسَاء زلفا(٣) عَيْطَاء ، شماء الأنف ، معتدلة القامة والهامة ، درماء الكعبين خدلجة الساقين(٤) لفاء الفخذين ، خميصة الخصرين ، ضامرة الكشحين ، مصقولة المتنين . قال فلما رأيتها أعجبت بها وقلت : لأطلبن إلى رسول الله ﷺ فيجعلها في فيئي فلما تكلمت أنسيت جمالها لما رأيت من فصاحتها ، فقالت : يا محمد : إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإني ابنة سيد قومي ، وإن أبي كان يحمي الذمار ، ويفك العاني ويشبع الجائع ، ويكسو العاري ، ويقري الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، وأنا ابنة حاتم طيء . فقال النبي ﷺ : « يا جارية هذه(٥) صفة المؤمنين حقاً لو كان أبوك مؤمناً(٦) لترحمنا عليه ، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق . فقام أبو بردة بن ينار(٧) فقال يا رسول الله ، والله يحب مكارم الأخلاق ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق » .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني عمر بن بكر عن أبي عبد الرحمن الطائي - هو القاسم بن عدي - عن عثمان عن عركى بن حليس الطائي عن أبيه عن جده وكان أخا عدي بن حاتم لأمه قال قيل لنوار امرأة حاتم(٨) حدثينا عن حاتم قالت كل أمره كان عجباً أصابتنا سنة حصت كل شيء فاقشعرت لها الأرض واغبرت لها السماء وضنت المراضع على أولادها وراحت الابل حدباً حدابير ما تبض بقطرة وحلقت المال وأنا لفي ليلة صنّبر بعيدة ما بين الطرفين إذ تضاغى الأصبية

---

(١) في الدلائل : الحاجة .

(٢) في الدلائل : سبل .

(٣) في الدلائل : ذلفاء ، وفي الأغاني حماء : وهي بيضاء . وعيطاء : طويلة العنق .

(٤) في الدلائل : درماء العين ، خدلة الساقين ؛ وهو خطأ والصواب ما أثبتناه : ودرماء المرأة التي لا تستبين كعوبها ؛ وخدلجة : ممتلئة .

(٥) وهي ابنة حاتم واسمها سفانة وبها كان يكنى وقد أسلمت .

(٦) في الدلائل : مسلماً .

(٧) في الدلائل : دينار ، وفي الكنى والأسماء للدولابي ص ١٧ : نيار واسمه هانيء .

(٨) في الأغاني ج ١٧/٣٨٧ : اسمها ماوية .

من الجوع عبد الله وعدي وسفانة فوالله إن وجدنا شيئاً نعللهم به فقام إلى أحد الصبيـان فحمله وقمت إلى الصبية فعللتها فوالله إن سكتا إلاّ بعد هدأة من الليل ثم عدنا إلى الصبي الآخر فعللناه حتى سكت وما كاد ثم افترشنا قطيفة لنا شامية ذات خمل فأضجعنا الصبيان عليها ونمت أنا وهو في حجرة والصبيانَ بيننا ثم أقبل عليَّ يعللني لأنام وعرفت ما يريد فتناومت فقال مالك أنمت فسكت فقال : ما أراها إلاّ قد نامت وما بي نوم فلما أدلهم الليل وتهورت النجوم وهدأت الأصوات وسكنت الرجل إذ جانب البيت قد رفع فقال من هذا ؟ فولى حتى قلت إذاً قد أسحرنا أو كدنا عاد فقال من هذا ؟ قالت جارتك فلانة يا أبا عـدي ما وجـدت على أحـد معولاً غيـرك أتيتك من عنـد أصيبة يتعاوون عواء الذئاب من الجوع قال أعجليهم عليّ قالت النوار : فوثبتُ . فقلت . ماذا صنعت أضطجع والله لقد تضاغى اصبيتك فما وجدت ما تعللهم فكيف بهذه وبولدها فقال أسكتي فوالله لأشبعنك إن شاء الله . قالت : فأقبلت تحمل اثنين وتمشي جنبتيها أربعة كأنها نهامة حولها رئـالها فقام إلى فرسه فوجأ بحربته في لبته ثم قدح زنده وأورى ناره ثم جاء بمدية فكشط عن جلده ثم دفع المدية إلى المرأة ثم قال : دونك ثم قال ابعثي صبيانك فبعثتهم ثم قال سوءة أتأكلون شيئاً دون أهل الصرم فجعل يطوف فيهم حتى هبوا وأقبلوا عليه والتفع في ثوبه ثم اضطجع ناحية ينظر إلينا والله ما ذاق مزعة وانه لأحوجهم إليه فأصبحنا وما على الأرض منه إلاّ عظم وحافر .

وقـال الدارقطني : حدثني القاضي أبو عبد الله المحاملي حدثنا عبد الله بن أبي سعد وحدثنا عثيم بن ثوابة بن حاتم الطائي عن أبيه عن جده قال : قالت امرأة حاتم لحـاتم : يا أبـا سفانـة اشتهي أن آكل أنا وأنت طعاماً وحدنا ليس عليه أحد فأمرها فحولت خيمتها من الجماعة على فرسخ وأمر بالطعام فهيء وهي مرخاة ستورها عليه وعليها فلما قارب نضج الطعام كشف عن رأسه ثم قال :

فـلا تـطبخي قِـدري وسـترك دونها ... عـليّ إذنْ مـا تـطبخـينَ حـرامُ
ولكنْ بهـذاكَ اليفـاعِ فـأوقـدي ... بـجـزلٍ إذا أوقـدتْ لا بضـرامُ

قال ثم كشف الستور وقدم الطعام ودعا الناس فأكـل وأكلوا فقالت مـا أتممت لي ما قلت فأجابها لا تطاوعني نفسي ونفسي أكرم عليّ من أن يثني عليّ هذا وقد سبق لي السخاء ثم أنشأ يقول :

أمـارسُ نفسي البخلَ حتى أعـزّهـا ... واتـركُ نفسَ الجود مـا أستثيرُهـا[1]
ولا تـشـتـكـيـني جـارتي غـيرَ أنها ... إذا غـاب عنهـا بعلُهـا لا أزورُهـا
سيبلغُهـا خَيـري ويـرجـع بعلُهـا ... إليهـا ولم تقصرُ عليها ستـورُهـا

ومن شعر حاتم :

---

(١) أمارس : أعالج . أعزها : أغلبها وأقوى عليها .

إذا ما بتّ اشربُ فوق ريّ … لسكر في الشراب فلا رويتُ
إذا ما بت أختِلُ عرسَ جاري … ليخفيني الظلامُ فلا خفيت
أأفضح جارتي وأخونُ جاري … فلا والله أفعلُ ما حييت

ومن شعره أيضاً :

ما ضرَّ جاراً لي أجاوره … أن لا يكونَ لِبابِهِ سِترُ(١)
أغضي إذا ما جارتي بَرزت … حتى يواريَ جارتي الخِدْر

ومن شعر حاتم أيضاً :

وما من شيمتي شتمُ ابنِ عمي … وما أنا مُخْلِفٌ مَن يرتجيني
وكلمة حاسدٍ من غير جرم … سمعتُ وقلتُ مرّي فانقذيني
وعابوها عليّ فلم تَعِبْني … ولم يعرَقْ لها يوماً جبيني
وذي وجهين يلقاني طليقاً … وليس إذا تغيَّب يأتسيني
ظفرتُ بعيبه فكففْتُ عنه … محافظةً على حَسَبي وديني

ومن شعره :

سلي البائسَ المقرورَ يا أمّ مالكٍ … إذا ما أتاني بين ناري ومجزري
أأبسط وجهي إنه أولُ القِرى … وابذلُ معروفي له دون مُنْكَري

وقال أيضاً :

وانك إن أعطيتَ بطنك سُؤلَه … وفرجَك نالا منتهَى الذمّ أجمعا

وقال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكرياء الجريري حدثنا الحسين بن القاسم الكوكبي حدثنا أبو العباس المبرد أخبرني الثوري عن أبي عبيدة . قال لما بلغ حاتم طيء قول المتلمس :

قليلُ المالِ تُصلحُه فيبقى … ولا يبقى الكثيرُ على الفَسادِ
وحِفظُ المال خيرٌ من فَناه … وعسفٍ في البلادِ بغير زاد

قال : ماله قطع الله لسانه حمل الناس على البخل فهلا قال :

---

(١) في الأغاني ١٧/٣٨٦ :

وما ضر جاراً يا ابنة القوم فاعلمي … يجاورني ألا يكون لها ستر
بعيني عن جارات قومي غفلة … وفي السمع مني عن حديثهم وقر

قال : ليس البيتان في ديوانه .

وفي الشعر والشعراء نسب البيتان لمسكين الدارمي ١/٥٣٠ ونسبه في الأغاني له في رواية ج ٢٠/٢١٤ وفيه

ما ضر جاراً لي أجاوره … ألا يكون لبابه ستر

فلا الجودُ يُفني المالَ قبلَ فنائه ولا البخلُ في مال الشحيح يزيدُ
فلا تلتمسْ مالاً بعيش مقتّرٍ لكلِّ غدٍ رزقٌ يعود جديد
ألم ترَ أنّ المالَ غادٍ ورائح وأنّ الذي يُعطيك غيرُ بعيدِ[1]

قال القاضي أبو الفرج ولقد أحسن في قوله: «وان الذي يعطيك غير بعيد». ولو كان مسلماً لرجي له الخير في معاده وقد قال الله في كتابه: ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ [النساء: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعاني ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وعن الوضاح بن معبد الطائي قال: وفد حاتم الطائي على النعمان بن المنذر فأكرمه وأدناه ثم زوده عند انصرافه جملين ذهباً وورقاً غير ما أعطاه من طرائف بلده فرحل، فلما أشرف على أهله تلقته أعاريب طيء. فقالت: يا حاتم أتيت من عند الملك وأتينا من عند أهالينا بالفقر! فقال حاتم: هلم فخذوا ما بين يدي فتوزّعوه. فوثبوا إلى ما بين يديه من حباء النعمان فاقتسموه. فخرجت إلى حاتم طريفة جاريته، فقالت له: اتق الله وابقِ على نفسك، فما يدع هؤلاء ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً. فأنشأ يقول:

قالت طريفةُ ما تَبقى دراهمُنا وما بنا سَرَفٌ فيها ولا خَرَقُ
إن يفنَ ما عندنا فالله يرزقنا ممن سوانا ولسنا نحنُ نرتزق
ما يألف الدرهمُ الكاري خِرقَتَنا إلاّ يمرّ عليها ثم ينطلق
إنا إذا اجتمعت يوماً دراهمُنا ظلّت إلى سُبُلِ المعروفِ تستبق

وقال أبو بكر بن عياش: قيل لحاتم هل في العرب أجود منك. فقال: كل العرب أجود مني. ثم أنشأ يحدث. قال: نزلت على غلام من العرب يتيم ذات ليلة، وكانت له مائة من الغنم، فذبح لي شاة منها وأتاني بها، فلما قرّب إليّ دماغها قلت: ما أطيب هذا الدماغ! قال: فذهب فلم يزل يأتيني منه حتى قلت قد اكتفيت، فلما أصبحت إذا هو قد ذبح المائة شاة وبقي لا شيء له؟ فقيل فما صنعت به فقال: ومتى أبلغ شكره ولو صنعت به كل شيء. قال: على كل حال فقال أعطيته مائة ناقة من خيار إبلي.

وقال محمد بن جعفر الخرائطي في كتاب «مكارم الأخلاق» حدثنا العباس بن الفضل الربعي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني حماد الراوية ومشيخة من مشيخة طيء. قالوا: كانت عنترة[2] بنت عفيف بن عمرو بن امرىء القيس أم حاتم طيء لا تمسك شيئاً سخاء وجوداً؛

(١) في البيت إقواء.
(٢) كذا في الأصل، وفي مكارم الأخلاق غنية، وفي الشعر والشعراء عنبة، وفي الأغاني ج ١٧ / ٣٦٥ عتبة.

وكان اخوتها يمنعونها فتأبى وكانت امرأة موسرة فحبسوها في بيت سنة يطعمونها قوتها لعلها تكف عما تصنع . ثم اخرجوها بعد سنة وقد ظنوا أنها قد تركت ذلك الخلق فدفعوا إليها صرمة[1] من مالها وقالوا استمتعي بها ، فأتتها امرأة من هوازن وكانت تغشاها فسألتها فقالت : دونك هذه الصرمة فقد والله مسني من الجوع ما آليت أن لا أمنع سائلاً ثم أنشأت تقول :

لَعَمري لقِدماً عضّني الجوعُ عضة ... فآليتُ أن لا أمنعَ الدهرَ جائعا

فقولا لهذا اللائمي اليومَ أعفني ... وإن أنتَ لم تفعل فعضَّ الأصابعا

فماذا عساكم أن تقولوا لأختِكم ... سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا

وماذا ترون اليومَ إلاّ طبيعةً ... فكيف بتركي يا بنَ امي الطبائعا[2]

وقال الهيثم بن عدي عن ملحان بن عركي بن عدي بن حاتم عن أبيه عن جده . قال : شهدت حاتماً يكيد[3] بنفسه، فقال لي: أي بني إني أعهد من نفسي ثلاث خصال والله ما خاتلت جارة لريبة قط ، ولا أوتمنت على أمانة إلاّ أديتها ، ولا أوتي أحد من قبلي بسوء . وقال ابو بكر الخرائطي : حدثنا علي بن حرب ، حدثنا عبد الرحمن بن يحيى العدوي ، حدثنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبي مسكين ـ يعني جعفر بن المحرر بن الوليد ـ عن المحرر[4] مولى أبي هريرة قال : مر نفر من عبد القيس بقبر حاتم طيىء فنزلوا قريباً منه فقام إليه بعضهم يقال له أبو الخيبري فجعل يركض قبره برجله . ويقول : يا أبا جعد أقرنا . فقال له بعض أصحابه : ما تخاطب من رمة[5] وقد بليت ؟ وأجنهم الليل فناموا ، فقام صاحب القول فزعاً يقول : يا قوم عليكم بمطيكم فإن حاتماً أتاني في النوم وأنشدني شعراً وقد حفظته يقول[6] :

أبا الخيبريّ وأنتَ امرؤ ... ظلومُ العشيرة شتّامُها

أتيتَ بصحبكَ تبغي القِرى ... لدى حفرةٍ قد صَدَت هامُها

أتبغي لي الذنبَ عند المبيـ ... ـتِ وحولَك طيْءٌ وانعامُها

---

(١) الصرمة : القطعة من الإبل ما بين العشر إلى الثلاثين أو إلى الخمسين والأربعين . أو ما بين العشرة إلى الأربعين أو ما بين عشرة إلى بضع عشرة (القاموس) .

(٢) في الديوان ٤٢ : ولا ما ترون إلا . . . طبائعاً .

(٣) يكيد بنفسه : يجود ، وهو يحتضر .

(٤) كذا في الأصل المحرر وفي الأغاني محرز ، وفيه : الحديث عن المحرز عن الوليد مولى أبي هريرة قال : سمعت محرز بن أبي هريرة (في التقريب محرر بن أبي هريرة) ولم أجد للوليد ذكراً لا في التقريب أو في ثقات العجلي والكاشف .

(٥) الرمة : العظم البالي والجمع رمم .

(٦) الأبيات في الأغاني ج ١٧/ ٣٧٥ بتغيير في الألفاظ ، وفيه أن الذي انشدها عدي بن حاتم ، وهو من جاءه حاتم في النوم .

وإنــا لـنُـشْـبِـعُ أضـيـافَـنـا وتــأتي المـطيّ فـنـعـتـامُـهـا

قال وإذا ناقة صاحب القول تكوس[1] عقيراً فنحروها وقاموا يشتوون ويأكلون . وقالوا والله لقد أضافنا حاتم حياً وميتاً . قال : وأصبح القوم واردفوا صاحبهم وساروا فإذا رجل ينوه بهم راكباً جملاً ويقود آخر . فقال : أيكم أبو الخيبري قال أنا قال إن حاتماً أتاني في النوم فأخبرني أنه قـرى أصحابك ناقتك وأمرني أن أحملك وهذا بعير فخذه ودفعه إليه .

شيء من أخبار عبد الله بن جدعان

هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة سيد بني تيم وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وكان من الكرماء الأجواد في الجاهلية المطعمين للمسنتـين وكان في بدء أمره فقيراً مملقاً وكان شريراً يكثر من الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلته وأبغضوه حتى أبوه فخرج ذات يوم في شعاب مكة حائراً بائراً فرأى شقاً في جبل فظن أن يكون به شيئاً يؤذي فقصده لعله يموت فيستريح مما هو فيه فلما اقترب منه إذا ثعبان يخرج إليـه ويثب عليه فجعل يحيد عنه ويتب فلا يُغني شيئاً فلما دنا منه إذا هو من ذهب وله عينان هما ياقـوتتان فكسـره وأخذه ودخل الغار فإذا فيه قبور لرجال من ملوك جرهم ومنهم الحارث بن مضاض الذي طـالت غيبته فلا يدري أين ذهب ووجد عند رؤوسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفاتهم ومدد ولايتهم وإذا عندهم من الجواهر واللآلىء والذهب والفضة شيء كثير فأخذ منه حاجته ثم خرج وعلم باب الغار ثم انصرف ، إلى قومه فأعطاهم حتى أحبوه وسادهم وجعل يطعم الناس وكلما قلّ ما في يده ذهب إلى ذلك الغار فأخذ حاجته ثم رجع فممن ذكر هـذا عبد الملك بن هشـام في كتاب « التيجـان » وذكره أحمد بن عمار في كتاب « ري العاطش وأنس الواحش » وكانت له جفنة يأكل منها الراكب على بعيره ووقع فيها صغـير فغرق . وذكـر ابن قتيبة وغيـره أن رسول الله ﷺ قـال : « لقد كنت استظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكة عُمَيٍّ »[2] أي وقت الظهيرة .

وفي حديث مقتل أبي جهل أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « تطلبوه بين القتلى وتعرفوه بشجة في ركبته ، فإني تزاحمت أنا وهو على مأدبة لابن جدعان فدفعته فسقط على ركبته فانهشمت

---

(١) كاس البعير : في القاموس: مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب . وقال الزمخشري في الأسـاس أي قلب على رأسه .

(٢) الصكة شدة الهاجرة ، وتضاف إلى عمي ، رجل من العمالقة أغار على قـومهم في الظهيـرة فاجتـاحهم . قال الألوسي في بلوغ الأرب : سميت الهاجرة صكة عمي لخبر ذكره أبو حنيفة في الأنـواء، وهو أن عميـاً رجل من عدوان ، وقيل من إياد ، وكان فقيهاً فقدم في قومه معتمراً أو حاجاً فلما كان على مرحلتين من مكة قال لقومه وهم في وسط الظهيرة من أتى مكة غداً في مثل هذا الوقت كان له أجر عمرتين فصكوا الإبل صكة شديدة حتى أتوا مكة من الغداة . فسميت الظهيرة صكة عمي . ١ / ٨٩ ـ ٩٠.

فأثرها باقٍ في ركبته » . فوجدوه كذلك . وذكروا أنه كان يطعم التمر والسويق ويسقي اللبن حتى سمع قول أمية بن أبي الصلت :

ولقدْ رأيتُ الفاعلين وفِعلَهم ... فرأيتُ أكرمَهم بني الديّان
البرّ يلبكُ بالشهادِ طعامهم ... لا ما يعللنا بنو جدعان

فأرسل ابن جدعان إلى الشام ألفي بعير [وعادت] تحمل البر والشهد والسمن ، وجعل منادياً ينادي كل ليلة على ظهر الكعبة أن هلموا إلى حفنة ابن جدعان . فقال أمية في ذلك :

له داعٍ بمكةَ مشمعلّ ... وآخرُ فوق كَعبتها ينادي[1]
إلى ردحٍ من الشيزى مِلاءٍ ... لباب البر يلبك بالشهاد[2]

ومع هذا كله فقد ثبت في الصحيح لمسلم أن عائشة قالت : يا رسول الله إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقري الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ فقال : « لا ، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » .

امرؤ القيس بن حجر الكندي صاحب احدى المعلّقات

وهي أفخرهن وأشهرهن التي أولها :

* قِفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل *

قال الإمام أحمد : حدثنا هشام[3] حدثنا أبو الجهم[4] عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار » وقد روى هذا الحديث عن هشام جماعة كثيرون منهم بشر بن الحكم ، والحسن بن عرفة ، وعبد الله بن هارون أمير المؤمنين المأمون أخو الأمين ويحيى بن معين ، وأخرجه ابن عدي من طريق عبد الرزاق عن الزهري به وهذا منقطع ورديء من وجه آخر عن أبي هريرة ولا يصح من غير هذا الوجه .

---

(١) مشمعل : المبادر والمجتهد ، اشمعل القوم في الطلب إذا بادروا فيه وتفرقوا والبيت في الأغاني وبلوغ الأرب :
وآخر فوق دارته ينادي

(٢) ردح جمع رداح وهي الجفنة العظيمة قال الآلوسي وهي سترة تكون في مؤخر البيت أو قطعة تزاد فيه والرداح الجفيفة العظيمة . والشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع وروى الجوهري صدر البيت هكذا :
إلى ردح من الشيزى عليها

(٣) في المسند ج ٢٢٨/٢ هشيم بدل من هشام ، وهو هُشيم بن بشير بن القاسم بن دينار ، أبو معاوية السلمي الواسطي توفي سنة ١٨٣ هـ (التقريب ـ الكاشف) ثقة ثبت ، كثير التدليس .

(٤) في المسند أبو الجهيم الواسطي .

وقال الحافظ ابن عساكر : هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن يعرب بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة . أبو يزيد ويقال أبو وهب ويقال أبو الحارث الكندي . كان بأعمال دمشق وقد ذكر مواضع منها في شعره فمن ذلك قوله :

قِفَانبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ بسِقْطِ اللِّوى بينَ الدَّخول فَحَوْمَلِ
فتوضحَ فالمقراةَ لم يعفُ رسمُها لما نسجَتْها من جَنوبٍ وشَمْأَل

قال وهذه مواضع معروفة بحوران . ثم روى من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي حدثني فروة بن سعيد بن عفيف بن معدي كرب عن أبيه عن جده . قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل وفد من اليمن فقالوا يا رسول الله لقد أحيانا الله ببيتين من شعر امرىء القيس . قال : وكيف ذاك ؟ قالوا أقبلنا نريدك حتى إذا كنا ببعض الطريق اخطأنا الطريق فمكثنا ثلاثاً لا نقدر على الماء فتفرقنا إلى أصول طلح وسمر ليموت كل رجل منا في ظل شجرة فبينا نحن بآخر رمق إذا راكب يوضع على بعير فلما رآه بعضنا قال والراكب يسمع :

ولما رأتْ أنّ الشريعةَ هَمُّها وان البياضَ منْ فَرائِضها دامي[1]
تَيَمَّمَتِ العينَ التي عند ضارجٍ يُفيءُ عليها الظلّ عَرْمَضُها طامي[2]

فقال الرا كب : ومن يقول هذا الشعر وقد رأى ما بنا من الجهد ؟ قال قلنا امرؤ القيس بن حُجر قال : والله ما كذب هذا ضارج عندكم فنظرنا فإذا بيننا وبين الماء نحو من خمسين ذراعاً فحبونا إليه على الركب فإذا هو كما قال امرؤ القيس عليه العرمض يفيء عليه الظل فقال رسول الله ﷺ : « ذاك رجل مذكور في الدّنيا منسي في الآخرة ، شريف في الدنيا خامل في الآخرة ، بيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار »[3].

وذكر الكلبي : أن امرأ القيس أقبل براياته يريد قتال بني أسد حين قتلوا أباه فمر بتبالة[4] وبها ذو الخلُصة وهو صنم وكانت العرب تستقسم عنده فاستقسم فخرج القدح الناهي ثم الثانية ثم الثالثة كذلك فكسر القداح وضرب بها وجه ذي الخلصة وقال عضضت بأير أبيك لو كان أبوك المقتول لما عوقتني . ثم أغار على بني أسد فقتلهم قتلاً ذريعاً قال ابن الكلبي : فلم يستقسم عند ذي الخلصة حتى جاء الإسلام . وذكر بعضهم أنه امتدح قيصر ملك الروم يستنجده في بعض

---

(١) الشريعة : مشرعة الماء .

(٢) ضارج : موضع ببلاد عبس .

(٣) القصة في الشعر والشعراء ١/٥٨ وما بعدها وعيون الأخبار ١/١٤٣ ـ ١٤٤ والأغاني ٧/١٢٣ .

(٤) تبالة : موضع ببلاد اليمن بينها وبين مكة ٥٢ فرسخاً ومعجم البلدان ٢/١٠ .

الحروب ويسترفده فلم يجد ما يؤمله عنده فهجاه بعد ذلك فيقال إنه سقاه سماً فقتله فالجأه الموت إلى جنب قبر امرأة عند جبل يقال له عسيب فكتب هنالك :

أجـارتَـنـا إن المـزارَ قـريـبُ ... وإني مـقيـمٌ مـا اقـامَ عسـيـبُ[1]
أجـارتَنـا إنـا غـريبـان هـهنـا ... وكـلّ غـريبٍ للغـريـب نسيبُ

وذكروا أن المعلقات السبع كانت معلقة بالكعبة ، وذلك أن العرب كانوا إذا عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش فإن أجازوها علقوها على الكعبة تعظيماً لشأنها فاجتمع من ذلك هـذه المعلقات السبع فالأولى لامرىء القيس بن حجر الكندي كما تقدم وأولها :

قفـانبـك من ذكـرى حبيب ومنـزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومـلِ

والثانية للنـابغة الـذبياني : واسمـه زياد بن معـاوية ويقـال زياد بن عمـرو بن معاويـة بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض وأولها :

يـا دارُ ميّـةَ بـالعليـاءِ فـالسّنَـدِ ... أقـوتْ وطـالَ عليهـا سـالفُ الأبـدِ

والثالثة لزهير بن أبي سُلمى ربيعة بن رياح المزني وأولها :

أمِــن أمِّ أوفـى دمـنـةٌ لم تَـكـلَّمِ ... بِحَـوْمـانـةِ الـدُّراج فـالمُتَثَلَّمِ[2]

والرابعة لـطَرْفَةَ بن العبـد بن سفيان بن سعـد بن مالـك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثعلبـة بن عُكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل وأولها :

لِخَـولـةَ أطـلالٌ بِبُـرقَـةِ ثَهْمـدِ ... تلوحُ كباقي الوشْمِ في ظـاهر اليـدِ

والخامسة لعنترة بن شداد بن معاوية بن قُـراد بن مخزوم بن ربيعـة بن مالـك بن غالب بن قُطَيعَة بن عبس العبسي وأولها :

هـل غـادرَ الشعـراءُ من مُتـردَّمِ ... أم هـل عَـرَفتَ الـدار بعـد تـوهمِ

والسادسة لعلقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس أحد بني تميم وأولها :

طحـا بكَ قلبٌ في الحسان طروبُ ... بُعَيـد الشبـاب عصرَ حـانَ مشيبُ

---

(١) عسيب : جبل بعالية نجد .
وامرؤ القيس بالاجماع مـات مسمـومـاً بـأنقرة في طـريق بلد الـروم ؛ وقـد ذكـر في أنقـرة . معجم البلدان ٤/١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٢) المتثلم : جبل في بلاد بني مرة معجم البلدان ج ٥/٥٣ .

والسابعة ـ ومنهم من لا يثبتها في المعلقات وهو قول الأصمعي وغيره ـ وهي للبيد بن ربيعة ابن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر وأولها :

عفتِ الديارُ مَحَلُّها فَمُقَامُها ... بِمِنىً تأبد غَوْلُها فَرِجامُها

فأما القصيدة التي لا يعرف قائلها فيما ذكره أبو عبيدة والأصمعي والمبرد وغيرهم فهي قوله :

هل بالطلول لسائلٍ ردّ ... أم هل لها بتكلُّمٍ عهدُ

وهي مطولة وفيها معانٍ حسنة كثيرة .

أخبار أمية بن أبي الصلت الثقفي

قال الحافظ ابن عساكر : هو أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف[1] بن عقدة بن عزة[2] بن عوف بن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن أبو عثمان ويقال أبو الحكم الثقفي شاعر جاهلي قدم دمشق قبل الإسلام وقيل إنه كان مستقيماً[3] وإنه كان في أول أمره على الإيمان ثم زاغ عنه وإنه هو الذي أراده الله تعالى بقوله : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾[4] .

قال الزبير بن بكار : فولدت رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف أمية الشاعر ابن أبي الصلت واسم أبي الصلت ربيعة بن وهب بن علاج بن أبي سلمة بن ثقيف وقال غيره كان أبوه من الشعراء المشهورين بالطائف وكان أمية أشعرهم .

وقال عبد الرزاق قال الثوري : أخبرني حبيب بن أبي ثابت أن عبد الله بن عمرو قال في قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ هو أمية بن أبي الصلت وكذا رواه أبو بكر بن مردويه عن أبي بكر الشافعي عن معاذ بن المثنى عن مسدد عن أبي عوانة عن عبد الملك بن عمير عن نافع بن عاصم بن مسعود . قال : إني لفي حلقة فيها عبد الله بن عمرو فقرأ رجل من القوم الآية التي في الأعراف : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا

---

(١) في الأغاني : ابن عمرو .

(٢) في الأغاني : عنزة وفي الإصابة غيرة .

(٣) في ابن عساكر : ويقال إنه كان نبياً .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٧٥ .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص وزيد بن أسلم : نزلت في أمية ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك الوقت ، وتمنى أن يكون هو ذلك الرسول ؛ ولما أرسل الله محمد ﷺ حسده وكفر به . وفيه قال رسول الله ﷺ : آمن شعره وكفر قلبه . وقيل غير ذلك القرطبي ٧/ ٣٢٠.

فانسلخ منها ﴾ فقال هل تدرون من هو ؟ فقال بعضهم : هو صيفي بن الراهب . وقال آخر : بل هو بلعم رجل من بني إسرائيل فقال لا ! قال فمن ؟ قال هو أمية بن أبي الصلت وهكذا قال أبو صالح والكلبي وحكاه قتادة عن بعضهم . وقال الطبراني : حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن شبيب الربعي حدثنا محمد بن مسلمة بن هشام المخزومي حدثنا اسماعيل بن الطريح بن اسماعيل الثقفي حدثني أبي عن أبيه عن مروان بن الحكم عن معاوية بن أبي سفيان عن أبيه . قال : خرجت أنا وأمية بن أبي الصلت الثقفي تجاراً إلى الشام فكلما نزلنا منزلاً أخذ أمية سفراً له يقرأه علينا فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى فجاؤوه واكرموه واهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم ثم رجع في وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما وقال لي هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله . قلت : لا إرب لي فيه والله لئن حدثني بما أحب لا أثق به ولئن حدثني بما أكره لأجدن منه . قال فذهب وخالفه شيخ من النصارى فدخل عليّ فقال ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ قلت لست على دينه قال وإن فإنك تسمع منه عجباً وتراه . ثم قال لي أثقفي أنت ؟ قلت لا ولكن قرشي ؟ قال فما يمنعك من الشيخ فوالله إنه ليحبكم ويوصي بكم . قال فخرج من عندنا ومكث أمية عندهم حتى جاءنا بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه فوالله ما نام ولا قام حتى أصبح كئيباً حزيناً ساقطاً غبوقه على صبوحه ما يكلمنا ولا نكلمه . ثم قال : ألا ترحَلُ . قلت وهل بك من رحيل ؟ قال نعم ! فرحلنا فسرنا بذلك ليلتين ثم قال في الليلة الثالثة : لا تحدث يا أبا سفيان قلت وهل بك من حديث والله ما رأيت مثل الذي رجعت به من عند صاحبك قال أما إن ذلك لشيء لست فيه إنما ذلك لشيء وجلت منه من منقلبي قلت وهل لك من منقلب . قال : أي والله لأموتن ثم لأحيين قال قلت هل أنت قابل أماني قال على ماذا ؟ قلت على أنك لا تبعث ولا تحاسب قال فضحك ثم قال : بلى ! والله يا أبا سفيان لنبعثن ثم لنحاسبن وليدخلن فريق الجنة وفريق النار . قلت : ففي أيهما أنت أخبرك صاحبك قال لا علم لصاحبي بذلك لا فيّ ولا في نفسه . قال فكنا في ذلك ليلتين يعجب مني وأضحك منه حتى قدمنا غوطة دمشق فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين فارتحلنا حتى نزلنا قرية من قرى النصارى فلما رأوه جاؤوه واهدوا له وذهب معهم إلى بيعتهم فما جاء إلاّ بعد منتصف النهار فلبسَ ثوبيه وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأةٍ من الليل فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه فوالله ما نام ولا قام وأصبح حزيناً كئيباً لا يكلمنا ولا نكلمه . ثم قال : ألا ترحل ؟ قلت : بلى إن شئت . فرحلنا كذلك في بثه وحزنه ليالي . ثم قال لي : يا أبا سفيان هل لك في المسير لنتقدم أصحابنا قلت هل لك فيه قال نعم ! فسرنا حتى برزنا من أصحابنا ساعة ثم قال : هيا صخر . فقلت : ما تشاء ؟ قال حدثني عن عتبة بن ربيعة أيجتنب المظالم والمحارم قلت : إي والله قال : ويصل الرحم ويأمر بصلتها . قلت إي والله ! قال وكريم الطرفين وسط في العشيرة قلت نعم ! قال فهل تعلم قرشياً أشرف منه ؟ قلت

لا والله لا أعلم قال أمحوج هو قلت لا بل هو ذو مال كثير قال وكم أتى عليه من السن فقلت قد زاد على المائة قال فالشرف والسن والمال أزرين به قلت ولم ذاك يزري به لا والله بل يزيده خيراً قال هو ذاك . هل لك في المبيت قلت لي فيه قال فاضطجعنا حتى مر الثقل قال فسرنا حتى نزلنا في المنزل وبتنا به ثم ارتحلنا منه فلما كان الليل قال لي يا أبا سفيان قلت ما تشاء قال هل لك في مثل البارحة قلت هل لك فيه قال : نعم فسرنا على ناقتين بختيتين حتى إذا برزنا قال : هيا صخر ، هيه عن عتبة بن ربيعة قال قلت هيها فيه قال أيجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها قلت إي والله إنه ليفعل قال وذو مال قلت وذو مال قال أتعلم قرشياً أسود منه قلت : لا والله ما أعلم ؟ قال كم أتى له من السن قلت قد زاد على المائة قال فإن السن والشرف والمال أزرين به قلت كلا والله ما أزرى به ذلك وأنت قائل شيئاً فقله . قال لا تذكر حديثي يأتي منه ما هو آت ثم قال فإن الذي رأيت أصابني أني جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ثم قلت أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر قال هو رجل من العرب قلت قد علمت أنه من العرب فمن أي العرب هو قال من أهل بيت تحُجه العرب قلت وفينا بيت تحجه العرب قال هو من إخوانكم من قريش فأصابني والله شيء ما أصابني مثله قط وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة وكنت أرجو أن أكون إياه قلت فإذا كان ما كان فصفه لي قال رجل شاب حين دخل في الكهولة . بُدُوّ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها وهو محوج كريم الطرفين متوسط في العشيرة أكثر جنده من الملائكة قلت وما آية ذلك قال قد رجفت الشام منذ هلك عيسى بن مريم عليه السلام ثمانين رجفة كلها فيها مصيبة وبقيت رجفة عامة فيها مصائب . قال أبو سفيان : فقلت هذا والله الباطل لئن بعث الله رسولاً لا يأخذه إلّا مسناً شريفاً . قال أمية : والذي حلفت به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان تقول إن قول النصراني حق . هل لك في المبيت ؟ قلت نعم لي فيه قال فبتنا حتى جاءنا الثقل ثم خرجنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة مرحلتان ليلتان أدركنا راكب من خلفنا فسألناه فإذا هو يقول أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلها وأصابتهم فيها مصائب عظيمة . قال أبو سفيان فأقبل على أمية فقال كيف ترى قول النصراني يا أبا سفيان قلت أرى وأظن والله إن ما حدثك به صاحبك حق قال أبو سفيان فقدمنا مكة فقضيت ما كان معي ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجراً فكنت بها خمسة أشهر ثم قدمت مكة فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يسلمون عليّ ويسألون عن بضائعهم حتى جاءني محمد بن عبد الله وهند عندي تلاعب صبيانها فسلم عليّ ورحب بي وسألني عن سفري ومقامي ولم يسألني عن بضاعته ثم قام . فقلت : لهند والله إن هذا ليعجبني ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلّا وقد سألني عنها وما سألني هذا عن بضاعته . فقالت لي هند : أو ما علمت شأنه فقلت وأنا فزع ما شأنه قالت يزعم أنه رسول الله فوقذتني وتذكرت قول النصراني فرجفت حتى قالت لي هند مالك ؟ فانتبهت فقلت إن هذا لهو الباطل لهو أعقل من أن يقول هذا قالت بلى والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه وإن له لصحابة على دينه قلت هذا هو الباطل قال وخرجت فبينا أنا أصرف بالبيت

إذ بي قد لقيته فقلت له إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي فأبى علي . وقال إذن لا آخذها قلت فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي فأرسل إلى بضاعته فأخذها وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره . قال أبو سفيان : فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية بن أبي الصلت فقال لي يا أبا سفيان ما تشاء هل تذكر قول النصراني فقلت أذكره وقد كان فقال : ومن ؟ قلت محمد بن عبد الله قال ابن عبد المطلب قلت ابن عبد المطلب ثم قصصت عليه خبر هند قال فالله يعلم ؟ وأخذ يتصبب عرقاً . ثم قال : والله يا أبا سفيان لعله . إن صفته لهي ولئن ظهر وأنا حي لأطلبن من الله عزَّ وجلَّ في نصره عذراً قال : ومضيت إلى اليمن فلم أنشب أن جاءني هنالك استهلاله وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبي الصلت بالطائف فقلت يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته فقال قد كان لعمري قلت فأين أنت منه يا أبا عثمان فقال والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبداً قال أبو سفيان وأقبلت إلى مكة فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة فوجدت أصحابه يضربون ويحقرون قال أبو سفيان فجعلت أقول فأين جنده من الملائكة قال فدخلني ما يدخل الناس من النفاسة وقد رواه الحافظ البيهقي في كتاب الدلائل من حديث اسماعيل بن طريح به ولكن سياق الطبراني الذي أوردناه أتم وأطول والله أعلم .

وقال الطبراني : حدثنا بكر بن أحمد بن نفيل حدثنا عبد الله بن شبيب حدثنا يعقوب بن محمد الزهري حدثنا مجامع بن عمرو الأسدي حدثنا ليث بن سعد عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة بن الزبير عن معاوية بن أبي سفيان عن أبي سفيان بن حرب أن أمية بن أبي الصلت كان بغزة أو بايلياء فلما قفلنا قال لي أمية يا أبا سفيان هل لك أن تتقدم على الرفقة فنتحدث قلت نعم ! قال ففعلنا فقال لي يا أبا سفيان إيه عن عتبة بن ربيعة قلت : كريم الطرفين ويجتنب المحارم والمظالم قلت نعم قال وشريف مسن قلت وشريف مسن قال السن والشرف ازريابه فقلت له كذبت ما ازداد سناً إلّا ازداد شرفاً قال يا أبا سفيان إنها كلمة ما سمعت أحداً يقولها لي منذ تبصرت فلا تعجل عليَّ حتى أخبرك قال قلت هات قال : إني كنت أجد في كتبي نبياً يبعث من حرتنا هذه فكنت أظن بل كنت لا أشك إني أنا هو فلما دارست أهل العلم إذاً هو من بني عبد مناف فنظرت في بني عبد مناف فلم أجد أحداً يصلح لهذا الأمر غير عتبة بن ربيعة فلما أخبرتني بسنه عرفت أنه ليس به حين جاوز الأربعين ولم يوح إليه قال أبو سفيان فضرب الدهر ضربه فأوحى إلى رسول الله ﷺ وخرجت في ركب من قريش أريد اليمن في تجارة فمررت بأمية فقلت له كالمستهزىء به يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تنعته قال أما إنه حق فاتبعه قلت ما يمنعك من اتباعه قال ما يمنعني إلّا الاستحياء من نساء ثقيف إني كنت أحدثهن أني هو ثم يرينني تابعاً لغلام من بني عبد مناف ثم قال أمية كأني بك يا أبا سفيان قد خالفته ثم قد ربطت كما يربط الجدي حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن الكلبي قال بينا أمية راقد ومعه ابنتان له إذ فزعت إحداهما فصاحت عليه فقال لها ما شأنك قالت رأيت نسرين كشطا سقف البيت فنزل أحدهما إليك فشق بطنك والآخر واقف على ظهر البيت فناداه فقال أوعى قال نعم قال أزكى قال لا فقال ذاك خير أريد بأبيكما فلم يفعله وقد رُوِيَ من وجه آخر بسياق آخر فقال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن سعيد بن المسيب وعثمان بن عبد الرحمن عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال قدمت الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت على رسول الله ﷺ بعد فتح مكة وكانت ذات لب وعقل وجمال وكان رسول الله ﷺ بها معجباً فقال لها ذات يوم يا فارعة هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً فقالت نعم وأعجب من ذلك ما قد رأيت قالت كان أخي في سفر فلما انصرف بدأني فدخل عليّ فرقد على سريري وأنا احلق اديماً في يدي إذ أقبل طائران أبيضان أو كالطيرين أبيضين فوقع على الكوة أحدهما ودخل الآخر فوقع عليه فشق الواقع عليه ما بين قصه إلى عانته ثم أدخل يده في جوفه فأخرج قلبه فوضعه في كفه ثم شمه فقال له الطائر الآخر أوعى قال وعى قال أزكى قال أبي ثم رد القلب إلى مكانه فالتأم الجرح أسرع من طرفة عين ثم ذهبا فلما رأيت ذلك دنوت منه فحركته فقلت هل تجد شيئاً . قال : لا إلاّ توهينا في جسدي ـ وقد كنت ارتعبت مما رأيت ـ فقال مالي أراكي مرتاعة . قالت فأخبرته الخبر فقال خير أريد بي ثم صرف عني ثم انشأ يقول :

باتت همومي تسري طوارقُها ... أكفّ عيني والدمعُ سابقها

مما أتاني من اليقين ولم ... أوتَ براةً يقص ناطقها

أم مَن تلظّى عليه واقدةُ النـ ... ـنار محيطٌ بهم سرادقها

أم أسكن الجنة التي وعد الـ ... أبرار مصفوفة نمارقها

لا يستوي المنزلانِ ثَمَّ ولا الـ ... أعمال لا تستوي طرائقُها

هما فريقان فرقةٌ تدخلُ الجنْـ ... ـنة حفّت بهم حدائقها

وفرقةٌ منهم قد أدخلت الـ ... ـنار فساءتهُمُ مرافقها

تعاهدت هذه القلوبُ إذا ... همت بخير عاقتْ عوائقُها

وصدّها للشقاءِ عن طَلَب الـ ... ـجنة دنيا اللّهُ ماحقُها

عبدٌ دعا نفسَه فعاتَبَها ... يعلم أنَّ البصير رامقُها

ما رغّب النفس في الحياةِ وان ... تحيى قليلاً فالموتُ لاحقها

يوشِكُ من فرّ من منيّته ... يوماً على غرّةٍ يوافقها

إن لم تمتْ غبطةً تمتْ هرماً ... للموتِ كأسٌ والمرء ذائقها

قال ثم انصرف إلى رحله فلم يلبث إلاّ يسيراً حتى طعن في حيارته فأتاني الخبر فانصرفت إليه فوجدته منعوشاً قد سجى عليه فدنوت منه فشهق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف ورفع صوته . وقال : لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما ، لا ذو مال فيفديني ولا ذو أهل فتحميني . ثم أغمي

عليه إذ شهق شهقة فقلت قد هلك الرجل . فشق بصره نحو السقف فرفع صوته . فقال : لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما ، لا ذو براءة فاعتذر ، ولا ذو عشيرة فانتصر . ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف . فقال : لبيكما لبيكما هـا أنا ذا لـديكما ، بـالنعم محفود وبـالذنب محصود ، ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة . فقال : لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما .

إنْ تـغـفـرِ اللهُمَّ تـغـفـر جمّـا وأي عـبـدٍ لـكَ لا أَلَمَّـا

ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة فقال :

كـل عـيشٍ وان تـطاولَ دهـراً صـائـرٌ مـرّة(٢) إلى أن يـزولا
ليتني كنتُ قبـلَ مـا قـدْ بـدا لي في قـلالِ الجبال أرعى الـوعـولا

قالت : ثم مات . فقال رسول الله ﷺ : « يا فارعة إن مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها » . الآية وقد تكلم الخطابي على غريب هذا الحديث . وروى الحافظ ابن عساكر عن الزهري أنه قال قال أمية بـن أبي الصلت :

ألا رسـولٌ لـنـا منّـا يخـبّـرنـا ما بعد غـايتنا من رأس مجـرانـا

قال ثم خرج أمية بن أبي الصلت إلى البحرين وتنبأ رسول الله ﷺ وأقام أمية بالبحرين ثماني سنين ثم قدم الطائف فقال لهم : ما يقول محمد بن عبد الله قالوا يـزعم أنه نبي هـو الذي كنت تتمنى . قال : فخرج حتى قدم عليه مكة فلقيه . فقال : يا بـن عبد المطلب ما هذا الـذي تقول قال أقول : إني رسول الله وأن لا إله إلاّ هو . قال : إني أريد أن أكلمك فعدني غداً قال فموعدك غداً قال فتحب أن آتيك وحدي أو في جماعة من أصحابي وتأتيني وحدك أو في جماعة من أصحابك فقال رسول الله ﷺ أي ذلك شئت قال فإني آتيك في جماعة فأت في جماعة قال فلما كان الغد غدا أمية في جماعة من قريش قال وغدا رسول الله ﷺ معه نفر من أصحابه حتى جلسوا في ظل الكعبة . قـال : فبدأ أمية فخطب ثم سجع ثم أنشد الشعر حتى إذا فـرغ الشعر قـال أجبني يـا بـن عبد المطلب . فقال رسول الله ﷺ : (بسم الله الرحمن الرحيم . يس والقرآن الحكيم) حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجر رجليه قال فتبعته قريش يقولون ما تقول يا أمية قال أشهد أنه على الحق . فقالوا : هل تتبعه قال حتى أنظر في أمره قال ثم خرج أمية إلى الشام وقدم رسول الله ﷺ المدينة فلما قتل أهل بدر قدم أمية من الشام حتى نزل بدراً ثم ترحل يريد رسول الله ﷺ فقال قائل : يا أبا الصلت ما تريد ؟ قال أريد محمداً قال وما تصنع ؟ قال أومن به والقى إليه مقاليد هذا الأمر قال : أتدري من في القليب ؟ قال لا قال : فيه عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وهما ابنا خالك ـ وأمه ربيعة بنت عبد شمس ـ قال فجدع أذني ناقته وقطع ذنبها ثم وقف على القليب يقول :

مـا ذا بـبَـدرٍ فـالـعـقـنـ ـقلُ من مرازبـةٍ جَحاجـح

القصيدة إلى آخرها كما سيأتي ذكرها بتمامها في قصة بـدر إن شاء الله . ثم رجع إلى مكة

والطائف وترك الإسلام . ثم ذكر قصة الطيرين وقصة وفاته كما تقدم وأنشد شعره عند الوفاة :

كل عيشٍ وإن تطاول دهرا ... صائرٌ مرةً إلى أن يزولا
ليتني كنت قبلَ ما قد بدا لي ... في قِلالِ الجبالِ أرعى الوعولا
فاجعلِ الموتَ نصْبَ عينيك واحذر ... غَوْلةَ الدهرِ إنّ للدهر غولا
نائلاً ظفرُها القساورَ والصد ... عان والطفلَ في المنار الشكيلا
وبغاثَ النيافِ واليعفرَ النا ... فر وَالعوهجَ البسرامَ الضئيلا

فقوله : القساور جمع قسورة وهو الأسد . والصدعان ثيران الوحش واحدها صدع والطفل الشكل من حمرة العين ، والبغاث الرخم ، والنياف الجبال ، واليعفر الظبي ، والعوهج ولد النعامة . يعني أن الموت لا ينجو منه الوحوش في البراري ولا الرخم الساكنة في رؤوس الجبال ولا يترك صغيراً لصغره ولا كبيراً لكبره . وقد تكلم الخطابي وغيره على غريب هذه الأحاديث وقد ذكر السهيلي في كتابه التعريف والإعلام : أن أمية بن أبي الصلت أول من قال باسمك اللهم ، وذكر عند ذلك قصة غريبة وهو أنهم خرجوا في جماعة من قريش في سفر فيهم حرب بن أمية والد أبي سفيان قال فمروا في مسيرهم بحية فقتلوها فلما أمسوا جاءتهم امرأة من الجان فعاتبتهم في قتل تلك الحية ومعها قضيب فضربت به الأرض ضربة نفرت الإبل عن آخرها فذهبت وشردت كل مذهب وقاموا فلم يزالوا في طلبها حتى ردوها فلما اجتمعوا جاءتهم أيضاً فضربت الأرض بقضيبها فنفرت الابل فذهبوا في طلبها فلما أعياهم ذلك قالوا والله هل عندك لما نحن فيه من مخرج فقال لا والله ولكن سأنظر في ذلك قال فساروا في تلك المحلة لعلهم يجدون أحداً يسألونه عما قد حل بهم من العناء إذا نار تلوح على بعد فجاؤوها فإذا شيخ على باب خيمة يوقد ناراً وإذا هو من الجان في غاية الضآلة والدمامة فسلموا عليه فسألهم عما هم فيه فقال إذا جاءتكم فقل بسمك اللهم فإنها تهرب فلما اجتمعوا وجاءتهم الثالثة أو الرابعة قال في وجهها أمية بسمك اللهم فشردت ولم يقر لها قرار لكن عدت الجن على حرب بن أمية فقتلوه بتلك الحية فتبره أصحابه هنالك حيث لا جار ولا دار ففي ذلك يقول الجان :

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفْرُ ... وليس قُربَ قبرِ حربٍ قبرُ

وذكر بعضهم : أنه كان يتفرس في بعض الأحيان في لغات الحيوانات فكان يمر في السفر على الطير فيقول لأصحابه : إن هذا يقول كذا وكذا فيقولون لا نعلم صدق ما يقول حتى مروا على قطيع غنم قد انقطعت منه شاة ومعها ولدها فالتفتت إليه فثغت كأنها تستحثه . فقال : أتدرون ما تقول له قالوا لا قال إنها تقول أسرع بنا لا يجيء الذئب فيأكلك كما أكل الذئب أخاك عام أول فاسرعوا حتى سألوا الراعي هل أكل له الذئب عام أول حملاً بتلك البقعة فقال نعم . قال : ومر يوماً على بعير عليه امرأة راكبة وهو يرفع رأسه إليها ويرغو . فقال : إنه يقول لها إنك رحلتيني وفي

الحداجة مخيط فانزلوا تلك المرأة وحلوا ذلك الرحل فإذا فيه مخيط كما قال .

وذكر ابن السكيت : أن أمية بن أبي الصلت بينما هو يشرب يوماً إذ نعب غراب . فقال : له بفيك التراب مرتين . فقيل له ما يقول ؟ فقال : إنه يقول إنك تشرب هذا الكأس الذي في يدك ثم تموت . ثم نعب الغراب فقال إنه يقول وآية ذلك أني أنزل على هذه المزبلة فآكل منها فيعلق عظم في حلقي فأموت . ثم نزل الغراب على تلك المزبلة فأكل شيئاً فعلق في حلقه عظم فمات . فقال : أمية أما هذا فقد صدق في نفسه ولكن سأنظر هل صدق فيّ أم لا ثم شرب ذلك الكأس الذي في يده ثم اتكأ فمات . وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن مهدي عن الثوري عن عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : إن أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *

وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم .

فقال الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا زكريا بن إسحاق حدثنا إبراهيم بن ميسرة أنه سمع عمرو بن الشريد يقول قال الشريد كنت ردفاً لرسول الله ﷺ فقال لي : أمعك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء ؟ قلت نعم ! قال فانشدني فانشدته بيتاً فلم يزل يقول لي كلما أنشدته بيتاً أيه حتى أنشدته مائة بيت قال ثم سكت النبي ﷺ وسكت .

وهكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة عن أبي تميم بن ميسرة به . ومن غير وجه عن عمرو بن الشريد عن أبيه الشريد بن سويد الثقفي عن النبي ﷺ وفي بعض الروايات فقال رسول الله ﷺ : « أن كاد يسلم » .

وقال يحيى بن محمد بن صاعد حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا أبو أسامة حدثنا حاتم بن أبي صفرة عن سماك بن حرب عن عمرو بن نافع عن الشريد الهمداني وأخواله ثقيف قال خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع فبينا أنا أمشي ذات يوم إذا وقع ناقة خلفي فإذا رسول الله ﷺ فقال الشريد فقلت نعم : قال ألا أحملك قلت بلى وما من إعياء ولكني أردت البركة في ركوبي مع رسول الله ﷺ فأناخ فحملني فقال : أمعك من شعر أمية بن أبي الصلت ؟ قلت نعم ! قال هات فأنشدته قال أظنه قال مائة بيت فقال عند الله علم أمية بن أبي الصلت .

ثم قال ابن صاعد هذا حديث غريب فأما الذي يروي أن رسول الله ﷺ قال في أمية : « آمن شعره وكفر قلبه » فلا أعرفه والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن محمد ـ هو أبو بكر بن أبي شيبة ـ حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن عكرمة عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ صدق أمية في شيء من شعره قال :

زحلٌ وثورٌ تحتَ رِجلِ يمينه ... والنّسر للأخرى وليثٌ مرصد
والشمس تبدو كلّ آخرِ ليلة ... حمراءَ يُصبح لونها يتورّد
تأبى فما تَطلع لنا في رِسْلها ... إلاّ معذَّبة وإلاّ تجلد

فقال رسول الله ﷺ صدق . وفي رواية أبي بكر الهذلي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : إن الشمس لا تطلع حتى ينخسها سبعون ألف ملك يقول لها اطلعي اطلعي فتقول لا أطلع على قوم يعبدونني من دون الله فإذا همت بالطلوع أتاها شيطان يريد أن يثبطها فتطلع بين قرنيه وتحرقه فإذا تضيفت للغروب عزمت لله عزّ وجل فيأتيها شيطان يريد أن يثبطها عن السجود فتغرب من قرنيه وتحرقه . أورده ابن عساكر مطولاً . ومن شعره في حملة العرش :

فمن حامل إحدى قوائم عرشه ... ولولا إلهُ الخلقِ كلّوا وأبلدوا
قيامٌ على الأقدامِ عانونَ تحته ... فرائصُهم منْ شدّة الخوف ترعد

رواه ابن عساكر وروى عن الأصمعي أنه كان ينشد من شعر أمية :

مجّدوا الله فهو للمجدِ أهْلٌ ... ربنا في السماء أمسى كبيرا
بالبناء الأعلى الذي سَبَقَ النـ ... ـناس وسوّى فوقَ السماء سريرا
شرجعاً [ما] ينالُه بصرُ العيـ ... ـن ترى دونهُ الملائكَ صورا

ثم يقول الأصمعي : الملائك جمع ملك والصور جمع أصور وهو المائل العنق وهؤلاء حملة العرش . ومن شعر أمية بن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جدعان التيمي :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤكَ إن شيمتك الحياءُ
وعلمُك بالحقوق وأنتَ فرعٌ ... لك الحسَب المهذّبُ والسناء
كريمٌ لا يغيّره صباحٌ ... عن الخُلُق الجميل ولا مساء
يباري الريحَ مكرمةً وجودا ... إذا ما الكلبُ أحجره الشتاء
وأرضُك أرضُ مَكرمةٍ بنتها ... بنو تَيْمٍ وأنتَ لها سماء
إذا أثنى عليك المرءُ يوماً ... كفاه من تعرّضه الثناء

وله فيه مدائح أخر . وقد كان عبد الله بن جدعان هذا من الكرماء الأجواد الممدّحين المشهورين وكان له جفنة يأكل الراكب منها وهو على بعيره من عرض حافتها وكثرة طعامها ، وكان يملأها لباب البر يلبك بالشهد والسمن ، وكان يعتق الرقاب ويعين على النوائب وقد سألت عائشة النبي ﷺ أينفعه ذلك ؟ فقال إنه لم يقل يوماً من الدهر (رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين) ومن شعر أمية البديع :

لا ينكِتون الأرض عند سؤالهم ... كتطلّب العلاّت بالعيدان
بل يُسفِرون وجوهَهم فترى لها ... عند السؤال كأحسن الألوان

وإذا المقلّ أقام وسْط رحالهم ... ردّوه ربَّ صواهلٍ وقيان
وإذا دعوتهمُ لكلّ مُلمّةٍ ... سدّوا شعاعَ الشمسِ بالفرسان

آخر ترجمة أمية بن أبي الصلت .

بحيرا الراهب

الذي توسم في رسول الله ﷺ النبوة وهو مع عمه أبي طالب حين قدم الشام في تجار من أهل مكة وعمره إذ ذاك اثنتي[1] عشرة سنة فرأى الغمامة تظله من بينهم . فصنع لهم طعاماً ضيافة واستدعاهم كما سيأتي بيان ذلك في السيرة وقد روى الترمذي في ذلك حديثاً بسطنا الكلام عليه هنالك وقد أورد له الحافظ ابن عساكر شواهد وسائغات في ترجمة بحيرا ولم يورد ما رواه الترمذي وهذا عجب وذكر ابن عساكر أن بحيرا كان يسكن قرية يقال لها الكفر بينها وبين بصرى ستة أميال وهي التي يقال لها (دير بحيرا) قال ويقال : إنه كان يسكن قرية يقال لها منفعة بالبلقاء وراء زيرا والله أعلم .

ذكر قسّ بن ساعدة الإيادي

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب « هواتف الجان » : حدثنا داود القنطري ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني أبو عبد الله المشرقي ، عن أبي الحارث الوراق ، عن ثور بن يزيد ، عن مورق العجلي ، عن عبادة بن الصامت . قال : لما قدم وفد إياد على النبي ﷺ قال : « يا معشر وفد إياد ما فعل قس بن ساعدة الإيادي » . قالوا : هلك يا رسول الله . قال : « لقد شهدته يوماً بسوق عكاظ على جمل أحمر يتكلم بكلام معجب مونق لا أجدني أحفظه» . فقام إليه أعرابي من أقاصي القوم فقال : أنا أحفظه يا رسول الله . قال : فسر النبي ﷺ بذلك قال : « فكان بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : يا معشر الناس اجتمعوا فكل من فات فات ، وكل شيء آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وبحر عجاج ، نجوم تزهر ، وجبال مرسية ، وأنهار مجرية ، إن في السماء لخبرا ، وإن في الأرض لعبرا ، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا ، أم تركوا فناموا . أقسم قس بالله قسماً لا ريب فيه . إن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا ثم أنشأ يقول :

في الذاهبين الأولـ ... ـين من القرون لنا بصائرْ
لما رأيتُ موارداً ... للموت ليس لها مصادر
ورأيتُ قومي نحوها ... يمضي الأصاغرُ والأكابر
لا مَن مضى يأتي اليـ ... ـك ولا من الباقين غابر
أيقنتُ أني لا محا ... لةَ حيثُ صار القومُ صائر

وهذا إسناد غريب من هذا الوجه وقد رواه الطبراني من وجه آخر فقال في كتابه « المعجم

---

(١) في الأصل اثني وهو خطأ .

الكبير » : حدثنا محمد بن السري بن مهران بن الناقد البغدادي ، حدثنا محمد بن حسان السهمي ، حدثنا محمد بن الحجاج ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن ابن عباس . قال : قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ فقال : « أيكم يعرف القس بن ساعدة الإيادي » . قالوا : كلنا يعرفه يا رسول الله . قال : « فما فعل » ؟ قالوا : هلك ، قال : فما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس وهو يقول : يا أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبراً ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور . وأقسم قس قسماً حقاً لئن كان في الأمر رضي ليكون بعده سخط . إن لله لديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه . مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون . أرضوا بالمقام فأقاموا . أم تركوا فناموا . ثم قال رسول الله ﷺ أفيكم من يروي شعره ؟ فأنشده بعضهم :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائرْ
لما رأيت موارداً للموت ليس ما مصادر
ورأيت قومي نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلي ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا لة حيث صار القوم صائر

وهكذا أورده الحافظ البيهقي في كتابه دلائل النبوة من طريق محمد بن حسان السلمي به . وهكذا رويناه في الجزء الذي جمعه الأستاذ أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه في أخبار قس قال حدثنا عبد الكريم بن الهيثم الديرعا قولي عن سعيد بن شبيب ، عن محمد بن الحجاج ، عن إبراهيم الواسطي نزيل بغداد ، ويعرف بصاحب الفريسة . وقد كذبه يحيى بن معين وأبو حاتم الرازي والدارقطني واتهمه غير واحد منهم ابن عدي بوضع الحديث . وقد رواه البزار وأبو نعيم من حديث محمد بن الحجاج هذا ورواه ابن درستويه وأبو نعيم من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وهذه الطريق أمثل من التي قبلها وفيه : إن أبا بكر هو الذي أورد القصة بكمالها نظمها ونثرها بين يدي رسول الله ﷺ : ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث أحمد بن موسى بن إسحاق الحطمي . حدثنا علي بن الحسين بن محمد المخزومي حدثنا أبو حاتم السجستاني حدثنا وهب بن جرير عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس . قال قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله ﷺ فقال لهم : « ما فعل حليف لكم يقال له قس بن ساعدة الأيادي » وذكر القصة مطولة . وأخبرنا الشيخ المسند الرحلة أحمد بن أبي طالب الحجار إجازة إن لم يكن سماعاً قال أجاز لنا جعفر بن علي الهمداني قال أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفي سماعاً وقرأت على شيخنا الحافظ أبي عبد الله الذهبي أخبرنا أبو علي الحسن بن علي بن أبي بكر الخلال سماعاً قال أنا جعفر بن علي سماعاً قال أنا السلفي سماعاً

أنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي أنا أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى السعدي أنا أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن علي المقرىء حدثنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي قال حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن أحمد السعدي ـ قاضي فارس ـ حدثنا أبو داود سليمان بن سيف بن يحيى بن درهم الطائي من أهل حزان حدثنا أبو عمرو سعيد بن يربع عن محمد بن إسحاق حدثني بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه قال : كان الجارود بن المعلى بن حنش بن معلى العبدي نصرانياً حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها عالماً بسير الفرس وأقاويلها بصيراً بالفلسفة والطب ظاهر الدهاء والأدب كامل الجمال ذا ثروة ومال وأنه قدم على النبي ﷺ وافداً في رجال من عبد القيس ذوي اراء وأسنان وفصاحة وبيان وحجج وبرهان فلما قدم على النبي ﷺ وقف بين يديه وأشار إليه وأنشأ يقول :

يا نبيَّ الهُدى أتتك رجالٌ ... قطعت فدفداً وآلا فآلا
وطوتْ نحوك الصحاصحَ تهوى ... لا تعدّ الكلالَ فيك كلالا
كل بهاء قصّر الطرفُ عنها ... أرقلتها قِلاصُنا ارقالا
وطوتها العتاقُ يجمح فيها ... بكماةٍ كانجمٍ تتلالا
تبتغي دفْعَ بأسِ يومٍ عظيمٍ ... هائل أوجعَ القلوبَ وهالا
ومزاداً لمحشر الخلق طُراً ... وفراقاً لمن تمادى ضلالا
نحو نورٍ من الإله وبرها ... نٍ وَبِرّ ونعمةٍ أن تنالا
خصَّك الله يا بن آمنةَ الخـ ... ـير بها إذ أتتْ سجالا سجالا
فاجعل الحظ منكَ يا حجة اللـ ... ـه جزيلاً لا حظّ خُلفٍ أحالا

قال فأدناه النبي ﷺ وقرب مجلسه وقال له . يا جارود لقد تأخر الموعود بك وبقومك . فقال الجارود : فداك أبي وأمي أما من تأخر عنك فقد فاته حظه وتلك أعظم حوبة وأغلظ عقوبة وما كنت فيمن رآك أو سمع بك فعداك واتبع سواك وإني الآن على دين قد علمت به قد جئتك وها أنا تاركه لدينك أفذلك مما يمحص الذنوب والمآثم والحوب ؟ ويرضى الرب عن المربوب فقال له رسول الله ﷺ : أنا ضامن لك ذلك واخلص الآن لله بالوحدانية ودع عنك دين النصرانية . فقال الجارود : فداك أبي وأمي مديدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك محمد عبده ورسوله . قال : فأسلم وأسلم معه أناس من قومه فسر النبي ﷺ بإسلامهم ، وأظهر من إكرامهم ما سروا به وابتهجوا به . ثم أقبل عليهم رسول الله ﷺ فقال : أفيكم من يعرف قس بن ساعدة الأيادي فقال الجارود فداك أبي وأمي كلنا نعرفه وإني من بينهم لعالم بخبره واقف على أمره كان قس يا رسول الله سبطاً من أسباط العرب عمر ستمائة سنة تقفز منها خمسة أعمار في البراري والقفار يضج بالتسبيح على مثال المسيح لا يقره قرار ولا تكنه دار ولا يستمتع به جار . كان يلبس الأمساح ويفوق السياح ، ولا يفتر من رهبانيته يتحسى في سياحته بيض النعام ويأنس بالهوام ،

ويستصبح بالظلام ، يبصر فيعتبر ، ويفكر فيختبر ، فصار لذلك واحداً تضرب بحكمته الأمثال ، وتكشف به الأهوال . أدرك رأس الحواريين سمعان ، وهو أول رجل تألّه من العرب ووحّد ، وأقر وتعبد ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذر سوء المآب ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، ووعظ بالموت وسلم بالقضاء ، على السخط والرضا ، وزار القبور ، وذكر النشور ، وندب بالأشعار ، وفكر في الأقدار ، وأنبأ عن السماء والنماء ، وذكر النجوم وكشف الماء ، ووصف البحار ، وعرف الآثار ، وخطب راكباً ، ووعظ دائباً ، وحذر من الكرب ، ومن شدة الغضب ، ورسّل الرسائل ، وذكر كل هائل ، وأرغم في خطبه ، وبين في كتبه ، وخوف الدهر ، وحذر الأزر ، وعظّم الأمر ، وجنب الكفر ، وشوق إلى الحنيفية ، ودعا إلى اللاهوتية . وهو القائل في يوم عكاظ . شرق وغرب ، ويتم وحزب ، وسلم وحرب ، ويابس وزطب ، وأجاج وعذب ، وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليل ونهار ، وأناث وذكور ، وبرار وبحور ، وحب ونبات ، وآباء وأمهات ، وجمع واشتات ، وآيات في إثرها آيات ، ونور وظلام ، ويسر وإعدام ، ورب وأصنام ، لقد ضل الأنام ، نشوّ مولود ، ووأد مفقود ، وتربية محصود ، وفقير وغني ، ومحسن ومسيء ، تباً لأرباب الغفلة ، ليصلحن العامل عمله ، وليفقدن الآمل أمله ، كلا بل هو إله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، رب الآخرة والأولى . أما بعد : فيا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ وأين العليل والعواد ؟ كل له معاد يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد ، لتحشرن على الانفراد ، في يوم التناد ، إذا نفخ في الصور ، ونقر في الناقور ، وأشرقت الأرض ، ووعظ الواعظ ، فانتبذ القانط وأبصر اللاحظ ، فويل لمن صدف عن الحق الأشهر ، والنور الأزهر ، والعرض الأكبر ، في يوم الفصل ، وميزان العدل ، إذا حكم القدير ، وشهد النذير ، وبعد النصير ، وظهر التقصير ، ففريق في الجنة وفريق في السعير . وهو القائل :

ذكّر القلبَ من جواه ادّكار ... وليالٍ خلالهنّ نهارُ
وسجال هواطل من غمام ... ثرن ماء وفي جواهنّ نار
ضوءها يطمس العيون وأرعا ... دشداد في الخافقين تطار
وقصور مشيدة حوت الخـ ... ـير وأخرى خلت بهن قفار
وجبال شوامخ راسيات ... وبحار مياههن غزار
ونجوم تلوح في ظلم اللـيـ ... ـل نراها في كل يوم تدار
ثم شمس يحثها قمر اللـيـ ... ـل وكل متابع موّار
وصغير وأشمط وكبير ... كلهم في الصعيد يوماً مزار
وكبير مما يقصر عنه ... حدسه الخاطر الذي لايحار
فالذي قد ذكرت دل على اللـ ... ـه نفوساً لها هدى واعتبار

قال فقال رسول الله ﷺ : مهما نسيت فلست أنساه بسوق عكاظ ، واقفاً على جمل أحمر يخطب الناس : اجتمعوا فاسمعوا ، وإذا سمعتم فعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، وقولوا وإذا قلتم فاصدقوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، واحياء وأموات ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وضوء وظلام ، وليل وأيام ، وبر وآثام ، إن في السماء خبراً ، وإن في الأرض عبراً ، يحار فيهن البصرا ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحار لا تفور ، ومنايا دوان ، ودهر خوان ، كحد النسطاس ، ووزن القسطاس . اقسم قس قسماً ، لا كاذباً فيه ولا آثماً ، لئن كان في هذا الأمر رضى ، ليكونن سخط . ثم قال : أيها الناس إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه وهذا زمانه وأوانه . ثم قال مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، ارضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا . والتفت رسول الله ﷺ : إلى بعض أصحابه فقال : أيكم يروي شعره لنا ؟ فقال أبو بكر الصديق : فداك أبي وأمي أنا شاهد له في ذلك اليوم حيث يقول :

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... يمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماض إلي ... ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا ... لة حيث صار القوم صائر

قال : فقام إلى رسول الله ﷺ شيخ من عبد القيس عظيم الهامة ، طويل القامة ، بعيد ما بين المنكبين فقال : فداك أبي وأمي وأنا رأيت من قس عجباً . فقال له رسول الله ﷺ : ما الذي رأيت يا أخا بني عبد القيس ؟ فقال : خرجت في شبيبتي أربع بعيراً لي فدعني أقفو أثره في تنائف قفاف ذات ضغابيس وعرصات جثجاث بين صدور جذعان ، وغمير حوذان ، ومهمه ظلمان ، ورصيع ليهقان ، فبينا أنا في تلك القلوات أجول بسبسبها وأرنق فدفدها إذا أنا بهضبة في نشزاتها أراك كباث مخضوضلة واغصانها متهدلة كأن بريرها حب الفلفل وبواسق اقحوان ، وإذا بعين خرارة وروضة مدهامة ، وشجرة عارمة ، وإذا أنا بقس بن ساعدة في أصل تلك الشجرة وبيده قضيب . فدنوت منه وقلت له : أنعم صباحاً ! فقال : وأنت فنعم صباحك ! وقد وردت العين سباع كثيرة فكان كلما ذهب سبع منها يشرب من العين قبل صاحبه ضربه قس بالقضيب الذي بيده . وقال : اصبر حتى يشرب الذي قبلك فذعرت من ذلك ذعراً شديداً ، ونظر إلي فقال لا تخف . وإذا بقبرين بينهما مسجد فقلت ما هذان ؟ القبران ؟ قال قبر أخوين كانا يعبدان الله عزَّ وجلَّ بهذا الموضع فأنا مقيم بين قبريهما عبد الله حتى الحق بهما . فقلت له : أفلا تلحق بقومك فتكون معهم في خيرهم وتبيانهم على شرهم ؟ فقال لي : ثكلتك أمك أو ما علمت أن ولد إسماعيل تركوا دين أبيهم واتبعوا الأضداد وعظموا الأنداد ثم أقبل على القبرين وانشأ يقول :

خليليّ هُبّا طالما قد رقَدتُما أجدّ كما لا تقضيانِ كَراكُما
أرى النومَ بين الجلد والعَظمِ منكما كأنّ الذي يسقي العقارَ سقاكما
أمِن طولِ نومٍ لا تجيبان داعياً كأنّ الذي يسقي العقارَ سقاكما
ألم تعلما أني بنجرانَ مفرَداً ومالِيَ فيه من حبيبٍ سواكما
مقيمٌ على قبريكما لستُ بارحاً إيابَ الليالي أو يجيبُ صَداكما
أأبكيكما طولَ الحياةِ وما الذي يردّ على ذي لوعةٍ أن بكاكما
فلو جُعلتْ نفس لنفس أمرىء فدىً لجدتُ بنفسي أن تكونَ فِداكما
كأنكما والموتَ أقرب غايةٍ بروحيَ في قبريكما قدْ أتاكما

قال فقال رسول الله ﷺ : رحم الله قساً أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة واحدة . وهذا الحديث غريب جداً من هذا الوجه وهو مرسل إلاّ أن يكون الحسن سمعه من الجارود والله أعلم .

وقد رواه البيهقي : والحافظ أبو القاسم بن عساكر من وجه آخر من حديث محمد بن عيسى ابن محمد بن سعيد القرشي الأخباري ثنا أبي ثنا علي بن سليمان بن علي عن علي بن عبدالله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . قال : قدم الجارود بن عبد الله فذكر مثله أو نحوه مطولاً بزيادات كثيرة في نظمه ونثره ، وفيه ما ذكره عن الذي ضل بعيره فذهب في طلبه قال فبت في واد لا آمن فيه حتفي ، ولا أركن إلى غير سيفي ، أرقب الكوكب ، وأرمق الغيهب ، حتى إذا الليل عسعس ، وكاد الصبح أن يتنفس ، هتف بي هاتف يقول :

يا أيها الراقدُ في الليلِ الأجمّ قد بعثَ الله نبياً في الحَرَمِ
من هاشم أهلِ الوفاءِ والكرمْ يجلو دجيّاتِ الدياجي والبُهم

قال فأدرت طرفي فما رأيت له شخصاً ولا سمعت له فحصاً ، قال فأنشأت أقول :

يا أيها الهاتفُ في داجي الظُّلَم أهلاً وسهلاً بك من طيْفٍ ألم
بين هَداك الله في لحنِ الكلِم ماذا الذي تدعو إليهِ يُغتنم

قال فإذا أنا بنحنحة وقائلاً يقول : ظهر النور ، وبطل الزور ، وبعث الله محمداً بالحبور ، صاحب النجيب الأحمر ، والتاج والمغفر ، والوجه الأزهر ، والحاجب الأقمر ، والطرف الأحور ، صاحب قول شهادة أن لا إله إلاّ الله وذلك محمد المبعوث إلى الأسود والأبيض أهل المدر والوبر ثم أنشأ يقول :

الحمدُ للهِ الذي لم يخلقِ الخلقَ عبثْ
لم يُخلِنا يوماً سُدى من بعدِ عيسى واكترث
أرسلَ فينا أحمداً خيرَ نبيّ قد بُعث
صلى عليه الله ما حجّ له ركبٌ وحث

وفيه من إنشاء قس بن ساعدة :

يا ناعيَ الموتِ والملحود في جدثٍ ... عليهمُ من بقايا قولهمْ خِرَق
دَعهم فإنَّ لهم يوماً يصاح بهم ... فهم إذا انتبهوا من نومهم أرِقوا
حتى يعودوا بحالٍ غير حالهمُ ... خَلقاً جديداً كما مِن قبله خُلقوا
منهم عُراة ومنهم في ثيابهمُ ... منها الجديدُ ومنها المنهجُ الخَلِق

ثم رواه البيهقي عن محمد بن عبد الله بن يوسف بن أحمد الأصبهاني . حدثنا أبو بكر أحمد بن سعيد بن فرضخ الأخيمي بمكة ثنا القاسم بن عبد الله بن مهدي ثنا أبو عبيد الله سعيد بن عبد الرحمن المخزومي ثنا سفيان بن عيينة عن أبي حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . فذكر القصة وذكر الأنشاد قال فوجد واعبد رأسه صحيفة فيها :

يا ناعيَ الموتِ والأمواتُ في جَدثٍ ... عليهم من بقايا نومهم خِرق
دعهم فإن لهم يوماً يُصاح بهم ... كما تَنبهُ من نوماته الصعِق
منهم عراةٌ وموتىَ في ثيابهم ... منها الجديدُ ومنها الأزرَق الخَلِق

فقال رسول الله ﷺ : والذي بعثني بالحق لقد آمن قس بالبعث . وأصله مشهور وهذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على إثبات أصْل القصة وقد تكلم أبو محمد بن درستويه على غريب ما وقع في هذا الحديث وأكثره ظاهر إن شاء الله تعالى وما كان فيه غرابة شديدة نبهنا عليه في الحواشي .

وقال البيهقي : أنا أبو سعيد بن محمد بن أحمد الشعيثي ثنا أبو عمرو بن أبي طاهر المحمدي آباذي لفظاً ثنا أبو لبابة محمد بن المهدي الأموردي ثنا أبي ثنا سعيد بن هبيرة ثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن أنس بن مالك قال قدم وفد أياد على النبي ﷺ فقال : ما فعل قس بن ساعدة ! قالوا هلك . قال أما إني سمعت منه كلاماً أرى أني أحفظه فقال بعض القوم نحن نحفظه يا رسول الله قال هاتوا : فقال قائلهم إني واقف بسوق عكاظ فقال : يا أيها الناس استمعوا واسمعوا وعوا ، كل من عاش مات ، وكل من مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرسية وأنهار مجرية إن في السماء لخبرا ، وإن في الأرض لعبرا ، أرى الناس يموتون ولا يرجعون أرضوا بالاقامة فأقاموا ، أم تركوا فناموا ، اقسم قس قسماً بالله لا آثم فيه ، إن لله ديناً هو أرضى مما أنتم عليه ثم أنشأ يقول :

في الذاهبين الأول ... ين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مصارعاً ... للقوم ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... يمضي الأكابر والأصاغر
أيقنت أني لا محا ... لة حيث صار القوم صائر

ثم ساقه البيهقي من طرق أخر قد نبهنا عليها فيما تقدم ثم قال بعد ذلك كله وقد روى هذا الحديث عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس بزيادة ونقصان . وروى من وجه آخر عن الحسن البصري منقطعاً وروى مختصراً من حديث سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة . قلت : وعبادة بن الصامت كما تقدم وعبد الله بن مسعود كما رواه أبو نعيم في كتاب الدلائل عن عبد الله بن محمد بن عثمان الواسطي عن أبي الوليد طريف بن عبيد الله مولى علي بن أبي طالب بالموصل عن يحيى بن عبد الحميد الحماني عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود فذكره . وروى أبو نعيم أيضاً حديث عبادة المتقدم وسعد بن أبي وقاص . ثم قال البيهقي وإذا روى الحديث من أوجه أخر وإن كان بعضها ضعيفاً دل على أن للحديث أصلاً والله أعلم .

زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه

هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي القرشي العدوي . وكان الخطاب والد عمر بن الخطاب عمه وأخاه لأمه وذلك لأن عمرو بن نفيل كان قد خلف على امرأة أبيه بعد أبيه ، وكان لها من نفيل أخوه الخطاب قاله الزبير بن بكار ومحمد بن إسحاق . وكان زيد بن عمرو قد ترك عبادة الأوثان وفارق دينهم وكان لا يأكل إلاّ ما ذبح على اسم الله وحده . قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري . ثم يقول : اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم ثم يسجد على راحلته . وكذا رواه أبو أسامة عن هشام به وزاد وكان يصلي إلى الكعبة ويقول إلهي إله إبراهيم ، وديني دين إبراهيم . وكان يحيي الموؤودة ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها ادفعها إليّ أكفلها فإذا ترعرعت فإن شئت فخذها وإن شئت فادفعها . أخرجه النسائي من طريق أبي أسامة وعلقه البخاري فقال : وقال الليث كتب إلى هشام بن عروة عن أبيه به وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق : وقد كان نفر من قريش زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى وعبد الله بن جحش بن رياب بن يعمر بن صبرة بن برة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسعد بن أسد بن خزيمة . وأمه أميمة بنت عبد المطلب . واخته زينب بنت جحش التي تزوجها رسول الله ﷺ بعد مولاه زيد بن حارثة كما سيأتي بيانه . حضروا قريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم ، فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك النفر إلى بعض وقالوا تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض . فقال قائلهم تعلمن والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين إبراهيم وخالفوه ما وثن يعبد ؟ لا يضر ولا ينفع فابتغوا لأنفسكم فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل كتاب من اليهود والنصارى والملل

كلها . الحنيفية دين إبراهيم ، فلما ورقة بن نوفل فتنصر واستحكم في النصرانية وابتغى الكتب من أهلها حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب ولم يكن فيهم أعدل أمراً واعدل ثباتاً من زيد بن عمرو بن نفيل اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها إلّا دين الحنيفية دين إبراهيم يوحد الله ويخلع من دونه ولا يأكل ذبائح قومه فإذا هم بالفراق لما هم فيه . قال : وكان الخطاب قد آذاه أذىً كثيراً حتى خرج منه إلى أعلى مكة ووكل به الخطاب شباباً من قريش وسفهاء من سفهائهم فقال لا تتركوه يدخل فكان لا يدخلها إلّا سراً منهم فإذا علموا به أخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم أو يتابعه أحد إلى ما هو عليه . وقال موسى بن عقبة سمعت من أرضى يحدث عن زيد بن عمرو بن نفيل كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض لم تذبحوها على غير اسم الله . انكاراً لذلك وإعظاماً له ؟ وقال يونس عن ابن إسحاق وقد كان زيد بن عمرو بن نفيل قد عزم على الخروج من مكة فضرب في الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم وكانت امرأته صفية بنت الحضرمي كلما أبصرته قد نهض للخروج وأراده آذنت الخطاب بن نفيل فخرج زيد إلى الشام يلتمس ويطلب في أهل الكتاب الأول دين إبراهيم ويسأل عنه ولَمْ يزل في ذلك فيما يزعمون حتى أتى الموصل والجزيرة كلها ثم أقبل حتى أتى الشام فجال فيها حتى أتى راهباً ببيعة من أرض البلقاء كان ينتهي إليه علم النصرانية فيما يزعمون فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم فقال له الراهب إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، لقد درس من علمه وذهبَ من كان يعرفه ، ولكنه قد أظل خروج نبي وهذا زمانه . وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئاً منها فخرج سريعاً حين قال له الراهب ما قال يريد مكة حتى إذا كان بأرض لخم عدواً عليه فقتلوه فقال ورقة يرثيه :

رشدتَ وأنعمتَ ابنَ عمرو وإنما تجنبتَ تنوراً من النارِ حاميا
بدينكَ ربّاً ليسَ ربٌّ كمثلِه وتركِكَ أوثانَ الطواغي كماهيا
وقد تُدرك الانسانَ رحمةُ ربه ولو كان تحتَ الأرض ستينا واديا

وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة : حدثنا أحمد بن طارق الوابشي ثنا عمرو بن عطية عن أبيه عن ابن عمر عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يتأله في الجاهلية فانطلق حتى أتى رجلاً من اليهود فقال له أحب أن تدخلني معك في دينك . فقال له اليهودي لا أدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من غضب الله . فقال من غضب الله أفر . فانطلق حتى أتى نصرانياً فقال له أحب أن تدخلني معك في دينك ، فقال لست أدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من الضلالة . فقال من الضلالة أفر . قال له النصراني فإني أدلك على دين إن تبعته اهتديت . قال أي دين ؟ قال دين إبراهيم قال فقال اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم عليه أحيى وعليه أموت . قال فذكر شأنه للنبي ﷺ فقال : هو أمة وحده يوم القيامة . وقد روى موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر نحو هذا وقال محمد بن سعد حدثنا علي بن محمد بن عبد الله بن سيف القرشي عن اسماعيل عن مجالد

عن الشعبي عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قل قال زيد بن عمرو بن نفيل : شاممت اليهودية والنصرانية فكرهتهما فكنت بالشام وما والاها حتى أتيت راهباً في صومعة فذكرت له اغترابي عن قومي وكراهتي عبادة الأوثان واليهودية والنصرانية . فقال له : أراك تريد دين إبراهيم يا أخا أهل مكة إنك لتطلب ديناً ما يوجد اليوم (أحد يدين) به وهو دين أبيك إبراهيم كان حنيفاً لم يكن يهودياً ولا نصرانياً كان يصلي ويسجد إلى هذا البيت الذي ببلادك فالحق ببلدك فإن الله يبعث من قومك في بلدك من يأتي بدين إبراهيم الحنيفية وهو أكرم الخلق على الله . وقال يونس عن ابن إسحاق حدثني بعض آل زيد بن عمرو بن نفيل : إن زيداً كان إذا دخل الكعبة قال لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً ، عذت بما عاذ به إبراهيم وهو قائم ، إذ قال إلهي أنفي لك عان راغم ، مهما تجشمني فإني جاشم ، البر أبغي لا انحال ، ليس مهجر كمن قال . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا المسعودي عن نفيل بن هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي عن أبيه عن جده أن زيد بن عمرو وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل ، فقال لزيد بن عمرو من أين أقبلت يا صاحب البعير؟ فقال من بنية إبراهيم ، فقال وما تلتمس قال ألتمس الدين قال ارجع فإنه يوشك أن يظهر في أرضك . قال :

فأما ورقة فتنصر وأما أنا فعزمت على النصرانية فلم يوافقني فرجع وهو يقول :

لبيكَ حقّاً حقا تعبُّداً ورِقّا
البر أبغي لا انحالْ فهل مهجَّرَ كَمَن قال

آمنت بما آمن به إبراهيم وهو يقول : انفي لك عان راغم ، مهما تجشمني فإني جاشم ، ثم يخر فيسجد قال وجاء ابنه يعني سعيد بن زيد أحد العشرة رضي الله عنه فقال : يا رسول الله إن أبي كما رأيت وكما بلغك فاستغفر له ، قال نعم فإنه يبعث يوم القيامة أمة واحدة . قال وأتى زيد بن عمرو بن زيد على رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة وهما يأكلان من سفرة لهما ، فدعواه لطعامهما فقال زيد بن عمرو : يا بن أخي أنا لا آكل مما ذبح على النصب . وقال محمد بن سعد حدثنا محمد بن عمرو حدثني أبو بكر بن أبي سبرة عن موسى بن ميسرة عن ابن أبي مليكة عن حجر بن أبي أهاب . قال : رأيت زيد بن عمرو وأنا عند صنم بوانة بعدما رجع من الشام وهو يراقب الشمس فإذا زالت استقبل للكعبة فصلى ركعة سجدتين ثم يقول هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا أعبد حجراً ولا أصلي له ولا آكل ما ذبح له ولا استقسم الأزلام وإنما أصلي لهذا البيت حتى أموت . وكان يحج فيقف بعرفة ، وكان يلبي فيقول : لبيك لا شريك لك ولا ند لك ثم يدفعه من عرفة ماشياً وهو يقول لبيك متعبداً مرقوقاً .

وقال الواقدي : حدثني علي بن عيسى الحكمي عن أبيه عن عامر بن ربيعة قال سمعت زيد ابن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب ولا أراني أدركه وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي فان طالت بك مدة فرأيته فاقرئه مني السلام وسأخبرك

ما نعته حتى لا يخفى عليك قلت: هلم! قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بكثير الشعر ولا بقليله وليست تفارق عينه حمرة وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد وهذا البلد مولده ومبعثه ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره ، فإياك أن تخدع عنه فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكان من اسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك وينعتونه مثل ما نعته لك ويقولون لم يبق نبي غيره . قال عامر بن ربيعة : فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وأقرائه منه السلام فرد عليه السلام وترحم عليه وقال قد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً .

وقال البخاري في صحيحه : ذكر زيد بن عمرو بن نفيل . حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا فضيل بن سليمان حدثنا موسى بن عقبة حدثني سالم عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكل منها . ثم قال زيد إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلاّ ما ذكر اسم الله عليه وأن زيد بن عمرو يعيب على قريش ذبائحهم ويقول الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ثم يذبحونها على غير اسم الله انكاراً لذلك وإعظاماً له .

قال موسى بن عقبة : وحدثني سالم بن عبد الله ولا أعلمه إلاّ يحدث به عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال إني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني ، فقال إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله قال زيد وما أفر إلاّ من غضب الله تعالى ولا أحمل من غضب الله شيئاً ولا أستطيعه فهل تدلني على غيره ؟ قال ما أعلمه إلاّ أن تكون حنيفاً قال زيد وما الحنيف ؟ قال دين إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلاّ الله فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى فذكر مثله فقال لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من على غيره قال ما أعلمه إلاّ أن تكون حنيفاً قال وما الحنيف ؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلاّ الله فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج فلما برز رفع يديه فقال اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم . قال وقال الليث : كتب إلى هشام بن عروة عن أبيه عن اسماء بنت أبي بكر قالت رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول يا معشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري وكان يحيي الموؤودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها انتهى ما ذكره البخاري .

وهذا الحديث الأخير قد أسنده الحافظ ابن عساكر من طريق أبي بكر بن أبي داود عن عيسى بن حماد عن الليث عن هشام عن أبيه عن اسماء فذكر نحوه . وقال عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء قالت سمعت زيد بن عمرو بن نفيل وهو مسند ظهره إلى

الكعبة يقول : يا معشر قريش إياكم والزنا فإنه يورث الفقر . وقد ساق ابن عساكر هاهنا أحاديث غريبة جداً وفي بعضها نكارة شديدة . ثم أورد من طرق متعددة عن رسول الله ﷺ أنه قال : يبعث يوم القيامة أمة واحدة . فمن ذلك ما رواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا يوسف بن يعوقب الصفار حدثنا يحيى بن سعيد الأموي عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال سئل رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يستقبل القبلة في الجاهلية ويقول إلهي إله إبراهيم وديني دين إبراهيم ويسجد . فقال رسول الله ﷺ يحشر ذاك أمة وحده بيني وبين عيسى بن مريم . إسناده جيد حسن . وقال الواقدي : حدثني موسى بن شيبة عن خارجة بن عبد الله بن كعب بن مالك قال سمعت سعيد بن المسيب يذكر زيد بن عمرو بن نفيل فقال توفي وقريش تبني الكعبة قبل أن ينزل الوحي على رسول الله ﷺ بخمس سنين، ولقد نزل به وأنه ليقول أنا على دين إبراهيم فأسلم ابنه سعيد بن زيد واتبع رسول الله ﷺ وأتى عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد رسول الله ﷺ فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل فقال : غفر الله له ورحمه فإنه مات على دين إبراهيم قال فكان المسلمون بعد ذلك اليوم لا يذكره ذاكر منهم إلاّ ترحّم عليه واستغفر له ، ثم يقول سعيد بن المسيب رحمه الله وغفر له . وقال محمد بن سعد عن الواقدي حدثني زكريا بن يحيى السعدي عن أبيه قال مات زيد بن عمرو بن نفيل بمكة ودفن بأصل حراء ، وقد تقدم أنه مات بأرض البلقاء من الشام لما عدا عليه قوم من بني لخم فقتلوه بمكان يقال له ميفعة والله أعلم .

وقال الباغندي عن أبي سعيد الأشج عن أبي معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين . وهذا إسناد جيد وليس هو في شيء من الكتب . ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله ما قدمناه في بدء الخلق من تلك القصيدة :

إلى الله أهدي مِدْحَتي وثنائيا ... وقولاً رضيّاً لا يني الدهرَ باقيا
إلى المَلِكِ الأعلى الذي ليس فوقَه ... إلٰه ولا ربٌّ يكونُ مدانيا

وقد قيل إنها لامية بن أبي الصلت والله أعلم . ومن شعره في التوحيد ما حكاه محمد بن إسحاق والزبير بن بكار وغيرهما :

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الأرضُ تحملُ صخراً ثِقالا
دَحاها فلمّا استوتْ شَدّها ... سواءً وأرسى عليها الجبالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له المزْنُ تحملُ عَذْباً زلالا
إذا هيَ سِيقت إلى بلدةٍ ... أطاعتْ فصبّت عليها سِجالا
وأسْلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الريحُ تُصرَّف حالاً فحالا

وقال محمد بن إسحاق حدثني هشام بن عروة قال روى أبي أن زيد بن عمرو قال :

أربٌّ واحدٌ أم ألفُ ربّ — أدينُ إذا تقسّمتِ الأمورُ
عزلْت اللاتَ والعزّى جميعاً — كذلك يفعلُ الجَلْد الصبور
فلا العزّى أدينُ ولا ابنتيها — ولا صنمَيْ بني عمروٍ أزور
ولا غُنماً أدين وكان ربّاً — لنا في الدهرِ إذْ حِلمي يسير
عجبتُ وفي الليالي مُعجِباتٌ — وفي الأيامِ يعرفُها البصير
بأنّ اللّهَ قد أفنى رجالاً — كثيراً كان شأنهمُ الفُجور
وأبقى آخرينَ ببِرِّ قوم — فَيربلُ منهمُ الطفلُ الصغير
وبينا المرءُ يعثرُ ثابَ يوماً — كما يتروّح الغُصن النضير
ولكن أعبدُ الرحمنَ ربي — ليغفرَ ذنبيَ الربُّ الغفور
فتقوى اللّهِ ربكمُ احفظوها — متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرارَ دارُهم جِنانٌ — وللكفّارِ حاميةٌ سعير
وخزيٌ في الحياةِ وإن يموتوا — يُلاقوا ما تضيقُ به الصدور

هذا تمام ما ذكره محمد بن إسحاق من هذه القصيدة . وقد رواه أبو القاسم البغوي عن مصعب بن عبد الله عن الضحاك بن عثمان عن عبد الرحمن بن أبي الزناد قال قال هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت قال زيد بن عمرو بن نفيل :

عزلتُ الجنَّ والجنّانَ عني — كذلك يفعلُ الجَلْد الصبورُ
فلا العزّى أدين ولا ابنتيها — ولا صنمي بني طَسْمٍ أدير
ولا غنماً أدينُ وكان رّباً — لنا في الدهر إذ حِلمي صغير
أرباً واحداً أم ألف رب — أدين إذا تقسمت الأمور
ألم تعلم بأن الله أفنى — رجالاً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم — فيربو منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثر ثاب يوماً — كما يتروح الغصن النضير

قالت فقال ورقة بن نوفل :

رشدتَ وأنعمتَ ابنَ عمرو وإنما — تجنبتَ تنوراً من النار حاميا
لدينك ربّاً ليس ربا كمثله — وتركك جنان الجبال كما هيا
أقولُ إذا أهبطتُ أرضاً مخوفةً — حنانيْكَ لا تُظهر عليّ الأعاديا
حنانيكَ أن الجن كانت رجاءَهم — وأنتَ إلهي ربّنا ورجائيا
لتدركنْ المرءَ رحمة ربه — وإن كان تحتَ الأرض سبعين واديا
أدين لربٍ يستجيبُ ولا أرى — أدينُ لمن لا يسمعِ الدهر واعيا
أقول إذا صليتُ في كل بَيعةٍ — تباركتَ قد اكثرتُ باسمِك داعيا

تقدم أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام هو وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش فتنصروا إلاّ زيداً فإنه لم يدخل في شيء من الأديان بل بقي على فطرته من عبادة الله وحده لا شريك له متبعاً ما أمكنه من دين إبراهيم على ما ذكرناه . وأما ورقة بن نوفل فسيأتي خبره في أول المبعث . وأما عثمان بن الحويرث فأقام بالشام حتى مات فيها عند قيصر . وله خبر عجيب ذكره الأموي ومختصره أنه لما قدم على قيصر فشكى إليه ما لقي من قومه كتب له إلى ابن جفنة ملك عرب الشام ليجهز معه جيشاً لحرب قريش فعزم على ذلك فكتب إليه الأعراب تنهاه عن ذلك لما رأوا من عظمة مكّة وكيف فعل الله بأصحاب الفيل ، فكساه ابن جفنة قميصاً مصبوغاً مسموماً فمات من سمه فرثاه زيد بن عمرو بن نفيل بشعر ذكره الأموي تركناه اختصاراً وكانت وفاته قبل المبعث بثلاث سنين أو نحوها والله سبحانه وتعالى أعلم .

شيء من الحوادث في زمن الفترة

فمن ذلك بنيان الكعبة

وقد قيل : إن أول من بناه آدم وجاء في ذلك حديث مرفوع عن عبد الله بن عمرو وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف، وأقوى الأقوال أن أول من بناه الخليل عليه السلام . كما تقدم وكذلك رواه سماك بن حزب عن خالد بن عرعرة عن علي بن أبي طالب قال : ثم تهدم فبنته العمالقة ثم تهدم فبنته جرهم ثم تهدم فبنته قريش . قلت : سيأتي بناء قريش له وذلك قبل المبعث بخمس سنين وقيل بخمس عشرة سنة وقال الزهري كان رسول الله ﷺ قد بلغ الحلم . وسيأتي ذلك كله في موضعه إن شاء الله وبه الثقة .

كعب بن لؤي

روى أبو نعيم من طريق محمد بن الحسن بن زبالة عن محمد بن طلحة التيمي عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي سلمة . قال : كان كعب بن لؤي يجمع قومه يوم الجمعة وكانت قريش تسميه العروبة فيخطبهم فيقول : أما بعد فاسمعوا وتعلموا ، وافهموا واعلموا ، ليل ساج ، ونهار ضاح ، والأرض مهاد ، والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعلام ، والأولون كالآخرين ، والأنثى والذكر والروح وما يهيج إلى بلى فصلوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم . فهل رأيتم من هالك رجع ؟ أو ميت نشر ؟ الدار أمامكم ، والظن غير ما تقولون ، حرمكم زينوه وعظموه ، وتمسكوا به فسيأتي له نبأ عظيم ؛ وسيخرج منه نبي كريم ، ثم يقول :

نهارٌ وليلٌ كلَّ يوم بحادثٍ ... سواءٌ علينا ليلُها ونهارُها
يؤوبان بالأحداث حتى تأوّيا ... وبالنعَم الضافي علينا ستورها
على غفلةٍ يأتي النبيُّ محمد ... فيخبر أخباراً صدوقٌ خبيرها

ثم يقول : والله لو كنت فيها ذا سمع وبصر ، ويد ورجل ، لتنصبت فيها تنصب الجمل ،

ولأرقلت بها إرقال العجل . ثم يقول :

يا ليتني شاهداً نجواء دعوته حينَ العشيرةُ تبغي الحقَّ خِذلانا

قال وكان بين موت كعب بن لؤي ومبعث رسول الله ﷺ خمسمائة عام وستون سنة .

تجديد حفر زمزم

على يدي عبد المطلب بن هاشم التي كان قد درس رسمها بعد طم جرهم لها إلى زمانه .

قال محمد بن إسحاق : ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم في الحجر وكان أول ما ابتدى به عبد المطلب من حفرها كما حدثني يزيد بن أبي حبيب المصري عن مرثد بن عبد الله المزني عن عبد الله بن رزين الغافقي أنه سمع علي بن أبي طالب يحدث حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها . قال قال عبد المطلب إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال لي احفر طيبة . قال قلت وما طيبة ؟ قال ثم ذهب عني قال فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فجاءني فقال احفر برة . قال قلت وما برة ؟ قال ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فجاءني فقال احفر المضنونة قال قلت وما المضنونة ؟ قال ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني قال احفر زمزم . قال قلت وما زمزم ؟ قال : لا تنزف أبداً ولا تزم ، تسقي الحجيج الأعظم ، وهي بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل . قال : فلما بين لي شأنها ودل على موضعها وعزف أنه قد صدق غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب وليس له يومئذٍ ولد غيره فحفر فلما بدا لعبد المطلب الطمى كبر فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته . فقاموا إليه فقالوا : يا عبد المطلب إنها بئر ابينا اسماعيل وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها . قال : ما أنا بفاعل إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم قالوا له فانصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها . قال : فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه قالوا كاهنة بني سعد بن هذيم قال : نعم وكانت بإشراف الشام فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أمية وركب من كل قبيلة من قريش نفر فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز حتى إذا كانوا ببعضها نفد ماء عبد المطلب وأصحابه فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة فاستسقوا من معهم فأبوا عليهم وقالوا إنَّا بمفازة وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم فقال عبد المطلب إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القوة فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه . فقالوا : نعما أمرت به فحفر كل رجل لنفسه حفرة ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشى ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه ألقينا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض لا نبتغي لأنفسنا لعجز فعسى أن يرزقنا ماء ببعض البلاد فارتحلوا حتى إذا بعث عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم ثم دعا قبائل قريش وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال فقال هلموا إلى الماء فقد سقانا الله فجاؤوا فشربوا واستقوا

كلهم ثم قالوا قد والله قضى لك علينا والله ما نخاصمك في زمزم أبداً إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشداً فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبين زمزم .

قال ابن إسحاق فهذا ما بلغني عن علي بن أبي طالب في زمزم قال ابن إسحاق وقد سمعت من يحدث عن عبد المطلب أنه قيل له حين أمر بحفر زمزم :

ثم ادع بالماءِ الروَى غيرِ الكدِر　　يسقي حجيجَ الله في كل مبر

ليسَ يخافُ منه شيء ما عمر

قال فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش فقال تعلموا أني قد أمرت أن أحفر زمزم قالوا فهل بُيِّنَ لك أين هي ؟ قال : لا ! قالوا فارجع إلى مضجعك الذي رأيت فيه ما رأيت فإن يك حقاً من الله يبين لك وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك فرجع ونام فأتى فقيل له :

احفر زمزم . إنك إن حفرتها لن تندم . وهي تراث من أبيك الأعظم . لا تنزف أبداً ولا تزم . تسقى الحجيج الأعظم . مثل نعام جافل لم يقسم . ينذر فيها ناذر بمنعم . تكون ميراثاً وعقداً محكم . ليست لبعض ما قد تعلم . وهي بين الفرث والدم .

قال ابن إسحاق : فزعموا أن عبد المطلب حين قيل له ذلك قال وأين هي ؟ قيل له عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غداً . فالله أعلم أي ذلك كان . قال فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذٍ ولد غيره . زاد الأموي ومولاه أصرم فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين أساف ونائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر فقامت إليه قريش وقالت والله لا نتركك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر عندهما فقال عبد المطلب لابنه الحارث : ذُدْ عني حتى أحفر فوالله لأمضين لما أمرت به فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه فلم يحفر إلَّا يسيراً حتى بدا له الطمى فكبر وعرف أنه قد صدق فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالتين من ذهب اللتين كانت جرهم قد دفنتهما ووجد فيها أسيافاً قلعية وأدرعاً . فقالت له قريش : يا عبد المطلب لنا معك في هذا شرك وحق قال لا ولكن هلم إلى أمر نصف بيني وبينكم نضرب عليها بالقداح قالوا وكيف نصنع قال اجعل للكعبة قدحين ولي قدحين ولكم قدحين فمن خرج قدحاه على شيء كان له ومن تخلف قدحاه فلا شيء له . قالوا : أنصفت فجعل للكعبة قدحين أصفرين وله أسودين ولهم أبيضين ثم أعطوا القداح للذي يضرب عند هبل وهبل أكبر أصنامهم ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد : أعل هبل . يعني هذا الصنم . وقام عبد المطلب يدعو الله . وذكر يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق أن عبد المطلب جعل يقول :

اللهم أنتَ الملِكُ المحمود　　ربيَ أنت المبدِيء المعيد

وممسك الراسيةِ الجلمودِ　　مِن عندك الطارفُ والتليد

إن شئتَ ألهمتَ كما تريد ... لموضع الحِليةِ والحديدِ
فبيِّنَ اليوم لما تريد ... إني نَذرتُ العاهدَ المعهودا
أجعله ربِّ لي فلا أعودُ

قال وضرب صاحب القداح فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة ، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب ، وتخلف قدحا قريش . فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب الغزالين من ذهب فكان أول ذهب حلية للكعبة فيما يزعمون . ثم أن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحاج وذكر ابن إسحاق وغيره أن مكة كان فيها أبيار كثيرة قبل ظهور زمزم في زمن عبد المطلب ثم عددها ابن إسحاق وسماها وذكر أماكنها من مكة وحافريها إلى أن قال فعفت زمزم على البئار كلها وانصرف الناس كلهم إليها لمكانها من المسجد الحرام ولفضلها على ما سواها من المياه ولأنها بئر اسماعيل بن إبراهيم وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها وعلى سائر العرب . وقد ثبت في صحيح مسلم في حديث إسلام أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال في زمزم : إنها لطعام طعم . وشفاء سقم . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن الوليد عن عبد الله بن المؤمل عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : ماء زمزم لما شرب منه . وقد رواه ابن ماجه من حديث عبد الله بن المؤمل وقد تكلموا فيه ولفظه ماء زمزم لما شرب له . وورواه سويد بن سعيد عن عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن أبي الموالي عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبي ﷺ قال : ماء زمزم لما شرب له . ولكن سويد بن سعيد ضعيف والمحفوظ عن ابن المبارك عن عبد الله بن المؤمل كما تقدم وقد رواه الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً ماء زمزم لما شرب له وفيه نظر والله أعلم . وهكذا روى ابن ماجه أيضاً والحاكم عن ابن عباس أنه قال لرجل إذا شربت من زمزم فاستقبل الكعبة واذكر اسم الله وتنفس ثلاثاً وتضلع منها فإذا فرغت فاحمد الله فإن رسول الله ﷺ قال : إن آية ما بيننا وبين المنافقين لا يتضلعون من ماء زمزم . وقد ذكر عن عبد المطلب أنه قال : اللهم إني لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حل وبل . وقد ذكره بعض الفقهاء عن العباس بن عبد المطلب ، والصحيح أنه عن عبد المطلب نفسه فإنه هو الذي جدد حفر زمزم كما قدمنا والله أعلم . وقد قال الأموي في مغازيه : حدثنا أبو عبيد أخبرني يحيى بن سعيد عن عبد الرحمن بن حرملة سمعت سعيد بن المسيب يحدث أن عبد المطلب بن هاشم حين احتفر زمزم . قال : لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حل وبل . وذلك أنه جعل لها حوضين حوضاً للشرب ، وحوضاً للوضوء . فعند ذلك قال : لا أحلها لمغتسل لينزه المسجد عن أن يغتسل فيه . قال أبو عبيد قال الأصمعي : قوله وبل اتباع قال أبو عبيد والاتباع لا يكون بواو العطف وإنما هو كما قال معتمر بن سليمان أن بل بلغة حمير مباح ثم قال أبو عبيد حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود أنه سمع زراً أنه سمع العباس يقول : لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حل وبل . وحدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن عبد الرحمن بن علقمة أنه سمع ابن عباس

يقول ذلك وهذا صحيح اليهما ، وكأنهما يقولان ذلك في أيامهما على سبيل التبليغ والاعلام بما اشترطه عبد المطلب عند حفره لها فلا ينافي ما تقدم والله أعلم . وقد كانت السقاية إلى عبد المطلب أيام حياته ثم صارت إلى ابنه أبي طالب مدة ثم اتفق أنه أملق في بعض السنين فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف إلى الموسم الآخر وصرفها أبو طالب في الحجيج في عامه فيما يتعلق بالسقاية فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبي طالب شيء فقال لأخيه العباس أسلفني أربعة عشر ألفاً أيضاً إلى العام المقبل أعطيك جميع ما لك فقال له العباس : بشرط إن لم تعطني تترك السقاية لي أكفكها فقال : نعم فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبي طالب ما يعطي العباس فترك له السقاية فصارت إليه ثم من بعده صارت إلى عبد الله ولده ثم إلى علي بن عبد الله بن عباس ثم إلى داود بن علي ثم إلى سليمان بن علي ثم إلى عيسى بن علي ثم أخذها المنصور واستناب عليها مولاه أبا رزين ذكره الأموي .

نذر عبد المطلب ذبح ولده

قال ابن إسحاق : وكان عبد المطلب فيما يزعمون نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة . فلما تكامل بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه وهم : الحارث . والزبير . وحجل . وضرار . والمقوم . وأبو لهب . والعباس . وحمزة . وأبو طالب . وعبد الله . جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله عزّ وجلّ بذلك فأطاعوه وقالوا كيف نصنع ؟ قال ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتوني ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على هبل في جوف الكعبة وكانت تلك البئر هي التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة ، وكان عند هبل قداح سبعة وهي الأزلام التي يتحاكمون إليها إذا أعضل عليهم أمر من عقل أو نسب أو أمر من الأمور جاؤوه فاستقسموا بها فما أمرتهم به أو نهتهم عنه امتثلوه . والمقصود أن عبد المطلب لما جاء يستقسم بالقداح عند هبل خرج القدح على ابنه عبد الله وكان أصغر ولده وأحبهم إليه ، فأخذ عبد المطلب بيد ابنه عبد الله وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلى أساف ونائلة ليذبحه فقامت إليه قريش من انديتها فقالوا : ما تريد يا عبد المطلب ؟ قال اذبحه فقالت له قريش وبنوه أخوة عبد الله والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يجيء بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا . وذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق أن العباس هو الذي اجتذب عبد الله من تحت رجل أبيه حين وضعها عليه ليذبحه فيقال إنه شج وجهه شجاً لم يزل في وجهه إلى أن مات ثم أشارت قريش على عبد المطلب أن يذهب إلى الحجاز فإن بها عرافة لها تابع فيسألها عن ذلك ثم أنت على رأس أمرك إن أمرتك بذبحه فاذبحه وإن أمرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته فانطلقوا حتى أتوا المدينة فوجدوا العرافة وهي سجاح فيما ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق بخيبر فركبوا حتى جاؤوها فسألوها وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه فقالت لهم ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله فرجعوا من عندها فلما خرجوا قام

عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها فقالت لهم قد جاءني الخبر ، كم الدية فيكم ؟ قالوا عشر من الإبل وكانت كذلك قالت فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الابل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم وإن خرجت على الابل فانحروها عنه فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم فخرجوا حتى قدموا مكة فلما اجمعوا على ذلك الأمر قام عند المطلب يدعو الله ثم قربوا عبد الله وعشراً من الإبل ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشراً ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشراً فلم يزالوا يزيدون عشراً عشراً ويخرج القدح على عبد الله حتى بلغت الأبل مائة . ثم ضربوا فخرج القدح على الابل فقالت عند ذلك قريش لعبد المطلب وهو قائم عند هبل يدعو الله قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب . فعندها زعموا أنه قال لا حتى اضرب عليها بالقداح ثلاث مرات فضربوا ثلاثاً ويقع القدح فيها على الابل فنحرت ثم تركت لا يصد عنها انسان ولا يمنع . قال ابن هشام ويقال ولا سبع وقد روى أنه لما بلغت الابل مائة خرج على عبد الله أيضاً فزادوا مائة أخرى حتى بلغت مائتين فخرج القدح على عبد الله فزادوا مائة أخرى فصارت الابل ثلاثمائة . ثم ضربوا فخرج القدح على الابل فنحرها عند ذلك عبد المطلب والصحيح الأول والله أعلم . وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن يونس بن يزيد عن الزهري عن قبيصة بن ذؤيب أن ابن عباس سألته امرأة أنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الابل وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب . وسألت عبد الله بن عمر فلم يفتها بشيء بل توقف . فبلغ ذلك مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة فقال إنهما لم يصيبا الفتيا ثم أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ونهاها عن ذبح ولدها ولم يأمرها بذبح الإبل ، وأخذ الناس بقول مروان بذلك والله أعلم .

تزويج عبد المطلب ابنه عبد الله من آمنة بنت وهب الزهرية

قال ابن إسحاق : ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبد الله فمر به ـ فيما يزعمون ـ على امرأة من بني أسد بن عبد العزى بن قصي وهي أم قتال أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهي عند الكعبة فنظرت إلى وجهه فقالت أين تذهب يا عبد الله ؟ قال مع أبي قالت لك مثل الأبل التي نحرت عنك وقع علي الآن . قال أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه فخرج به عبد المطلب حتى أتى وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وهو يومئذٍ سيد بني زهرة سناً وشرفاً فزوجه ابنته آمنة بنت وهب وهي يومئذٍ سيدة نساء قومها فزعموا أنه دخل عليها حين أملكها مكانه فوقع عليها فحملت منه برسول الله ﷺ ثم خرج من عندها فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت فقال لها ما لك لا تعرضين علي اليوم ما كنت عرضت بالأمس ؟ قالت له فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس لي بك حاجة .
وكانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ـ وكان قد تنصر واتبع الكتب ـ أنه كائن في هذه الأمة نبي

فطمعت أن يكون منها فجعله الله تعالى في أشرف عنصر وأكرم محتد وأطيب أصل كما قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ وسنذكر المولد مفصلاً ومما قالت أم قتال بنت نوفل من الشعر تتأسف على ما فاتها من الأمر الذي رامته وذلك فيما رواه البيهقي من طريق يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق رحمه الله :

عليكَ بآلِ زهرةَ حيثُ كانوا — وآمنةَ التي حَمَلت غلاما
ترى المهديَّ حينَ نزا عليها — ونوراً قد تَقَدّمه أماما

إلى أن قالت :

فكلُّ الخَلْق يرجوهُ جميعاً — يسودُ الناسَ مهتدياً إماما
براه اللّهُ من نورٍ صَفَاه — فأذهبَ نورُه عنا الظلاما
وذلكَ صُنْعُ ربك إذ حَباهُ — إذا ما سارَ يوماً أو أقاما
فيهدي أهلَ مكةَ بعدَ كفرٍ — ويفرضُ بعدَ ذلكمُ الصياما

وقال أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي : حدثنا علي بن حرب حدثنا محمد بن عمارة القرشي حدثنا مسلم بن خالد الزنجي حدثنا ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : لما انطلق عبد المطلب بابنه عبد الله ليزوجه مر به على كاهنة من أهل تبالة متهودة قد قرأت الكتب ، يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية فرأت نور النبوة في وجه عبد الله فقالت يا فتى هل لك أن تقع عليّ الآن وأعطيك مائة من الابل ؟ فقال عبد الله :

أما الحرامُ فالمماتُ دونَه — والحل لا حِل فأستبينه
فكيفَ بالأمرِ الذي تبغينَه — يحمي الكريمُ عِرضَه ودينه

ثم مضى مع أبيه فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فأقام عندها ثلاثاً . ثم إن نفسه دعته إلى ما دعته إليه الكاهنة فأتاها فقالت : ما صنعت بعدي ؟ فأخبرها . فقالت والله ما أنا بصاحبة ريبة ولكني رأيت في وجهك نوراً فأردت أن يكون في . وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد . ثم أنشأت فاطمة تقول :

إني رأيتُ مخيلةً لمعت — فتلألأت بحسناتم القَطْر
فلمأتُها نوراً يضيءُ له — ما حولَه كإضاءةِ البَدر
ورجوتُها فخراً أبوءُ به — ما كل قادحِ زندِه يُوري
لله ما زُهريةٌ سلبت — ثوبيك ما استلبتْ وما تدري

وقالت فاطمة أيضاً :

بني هاشمٍ قد غادرتْ من أخيكُمُ — أمينةُ إذ للباهِ يعتركان
كما غادرَ المصباحُ عند خُموده — فتائلَ قد مِيثَت له بدِهان

وما كل ما يحوي الفتى من تِلادهِ ... بحزم ولا ما فاتَه لِتَواني
فأجمِلْ إذا طالبتَ أمراً فانه ... سيكفيكه جَدَّانِ يعتلجان
سيكفيكه إما يد مقْفلّلة ... وإما يدٌ مبسوطةٌ ببنان
ولما حوت منه أمينة ما حوت ... حوت منه فخراً ما لذلك ثان

وروى الإمام أبو نعيم الحافظ في كتاب دلائل النبوة من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن عبد العزيز بن عمران عن عبد الله بن جعفر عن ابن عون عن المسور بن مخرمة عن ابن عباس قال إن عبد المطلب قدم اليمن في رحلة الشتاء فنزل على حبر من اليهود قال فقال لي رجل من أهل الديور ـ يعني أهل الكتاب يا عبد المطلب أتأذن لي أن أنظر إلى بعضك ؟ قال نعم إذا لم يكن عورة. قال ففتح إحدى منخري فنظر فيه ثم نظر في الآخر فقال أشهد أن في إحدى يديك ملكاً وفي الأخرى نبوة وإنا نجد ذلك في بني زهرة فكيف ذلك ؟ قلت لا أدري قال هل لك من شاغة ؟ قلت وما الشاغة ؟ قال زوجة . قلت أما اليوم فلا قال فإذا رجعت فتزوج فيهم . فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فولدت حمزة وصفية ثم تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب فولدت رسول الله ﷺ فقالت قريش حين تزوج عبد الله بآمنة فلج أي فاز وغلب عبد الله على أبيه عبد المطلب .

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ ولما سأل هرقل ملك الروم لأبي سفيان تلك الأسئلة عن صفاته عليه الصلاة والسلام قال : كيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب . قال كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها ، يعني في أكرمها أحساباً وأكثرها قبيلة صلوات الله عليهم أجمعين .

فهو سيد ولد آدم وفخرهم في الدنيا والآخرة. أبو القاسم . وأبو إبراهيم . محمد . وأحمد . والماحي الذي يُمحى به الكفر . والعاقب الذي ما بعده نبي . والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه . والمقفي . ونبي الرحمة . ونبي التوبة . ونبي الملحمة . وخاتم النبيين . والفاتح . وطه . ويس . وعبد الله .

قال البيهقي[١] : وزاد بعض العلماء فقال سماه الله في القرآن رسولاً . نبياً . أميناً[٢]

---

(١) دلائل النبوة ج ١/١٦٠ .

(٢) كذا في الأصل ، والصواب كما في البيهقي : أمياً .

شاهداً . مبشراً . نذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . ورؤوفاً رحيماً . ومذكراً . وجعله رحمة ونعمة وهادياً[١] .

وسنورد الأحاديث المروية في أسمائه عليه الصلاة والسلام في باب نعقده بعد فراغ السيرة . فإنه قد وردت أحاديث كثيرة في ذلك اعتنى بجمعها الحافظان الكبيران أبو بكر البيهقي وأبو القاسم بن عساكر وأفرد الناس في ذلك مؤلفات حتى رام بعضهم أن يجمع له عليه الصلاة والسلام ألف اسم . وأما الفقيه الكبير أبو بكر بن العربي المالكي شارح الترمذي بكتابه الذي سماه الأحوذي فانه ذكر من ذلك أربعة وستين اسماً والله أعلم .

وهو ابن عبد الله وكان أصغر ولد أبيه عبد المطلب وهو الذبيح الثاني المفدى بمائة من الابل كما تقدم .

قال الزهري : وكان أجمل رجال قريش وهو أخو الحارث والزبير وحمزة وضرار وأبي طالب - واسمه عبد مناف - وأبي لهب - واسمه عبد العزى - والمقوم - واسمه عبد الكعبة - وقيل هما اثنان وحجل واسمه المغيرة والغيداق وهو كبير الجود - واسمه نوفل - ويقال إنه حجل . فهؤلاء أعمامه عليه الصلاة والسلام . وعماته ست وهن أروى . وبرة . وأميمة . وصفية . وعاتكة . وأم حكيم - وهي البيضاء - وستكلم على كل منهم فيما بعد إن شاء الله تعالى . كلهم أولاد عبد المطلب - واسمه شيبة - يقال لشيبة كانت في رأسه ويقال له شيبة الحمد لجوده . وإنما قيل له عبد المطلب لأن أباه هاشماً لما مر بالمدينة في تجارته إلى الشام نزل على عمرو بن زيد بن لبيد بن حرام بن خداش بن خندف[٢] بن عدي بن النجار الخزرجي النجاري وكان سيد قومه فأعجبته ابنته سلمى. فخطبها إلى أبيها فزوجها منه واشترط عليه مقامها عنده وقيل بل اشترط عليه أن لا تلد إلّا عنده بالمدينة فلما رجع من الشام بنى بها وأخذها معه إلى مكة فلما خرج في تجارة أخذها معه وهي حبلى فتركها بالمدينة ودخل الشام فمات بغزة ووضعت سلمى ولدها فسمته شيبة فأقام عند أخواله بني عدي بن النجار سبع سنين[٣] ثم جاء عمه المطلب بن عبد مناف فأخذه خفية من أمه فذهب به إلى مكة . فلما رآه الناس ورأوه على الراحلة قالوا من هذا معك ؟ فقال عبدي ثم جاؤوا فهنأوه به وجعلوا يقولون له عبد المطلب لذلك فغلب عليه وساد في قريش سيادة عظيمة وذهب بشرفهم ورآستهم . فكان جماع أمرهم عليه وكانت إليه السقاية والرفادة بعد المطلب وهو الذي جدد حفر زمزم بعدما كانت مطمومة من عهد جرهم وهو أول من طلى الكعبة بذهب في أبوابها من تينك

---

(١) زاد البيهقي : ونذيراً مبيناً وسماه عبداً .

(٢) في الطبري : جندب . وفي الجمهرة اتفق مع ابن هشام : ابن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار .

(٣) في الطبري زاد : أو ثماني سنين .

الغـزالتين اللتـين من ذهب وجدهمـا في زمزم مـع تلك الأسياف القلعيـة[١]. قال ابن هشـام : وعبد المطلب أخو أسد وفضلة[٢] وأبي صيفي وحية وخالدة ورقية والشفاء وضعيفة . كلهم أولاد هاشم واسمه عمـرو وإنما سمي هـاشماً لهشمـه الثريـد مع اللحم لقـومه في سني المحـل كما قـال مطرود بن كعب الخزاعي في قصيدته وقيل[٣] للزبعري والد عبد الله :

عمـرو الذي هَشَم الثـريدَ لقـومـه ورجـالُ مكـةَ مُسْنِتـون عجـافُ
سُنَّتْ إليْـه الـرحلتـان كـلاهمـا سَفَـر الشتـاءِ ورِحلةُ الأصيـاف

وذلك لأنه أول من سن رحلتي الشتاء والصيف وكان أكبر ولد أبيه . وحكى ابن جرير أنه كان توءم أخيه عبد شمس وأن هاشماً خرج ورجله ملتصقة برأس عبد شمس فما تخلصت حتى سال بينهما دم فقال الناس[٤] بذلك يكون بين أولادهما حروب فكانت وقعة بني العباس مع بني أمية بن عبد شمس سنة ثلاث وثلاثين ومائة من الهجرة . وشقيقهم الثالث المطلب وكان المطلب أصغر ولد أبيه وأمهم عاتكة بنت مرة بن هلال . ورابعهم نوفل من أم أخرى وهي واقدة بنت عمرو المازنية وكانوا قد سادوا قومهم بعد أبيهم وصارت إليهم الرياسة وكان يقال لهم المجيرون[٥] وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم ليدخلوا في التجارات إلى بلادهم فكان هاشم قـد أخذ أماناً من ملوك الشام والروم وغسان وأخذ لهم عبد شمس من التجاشي الأكبر ملك الحبشة ، وأخذ لهم نوفل من الأكاسرة ، وأخذ لهم المطلب أماناً من ملوك حمير . ولهم يقول الشاعر :

يـا أيهـا الـرجـلُ المحـوّلُ رحلَه ألاّ نـزلـتَ بـآلِ عبـدِ منـافِ

وكان إلى هاشم السقاية والرفادة بعد أبيه ، وإليه وإلى أخيه المطلب نسب ذوي القربى ، وقد كانوا شيئاً واحداً في حالتي الجاهلية والإسلام لم يفترقوا ، ودخلوا معهم في الشعب ، وانخذل عنهم بنو عبد شمس ونوفل . ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته :

جزى الله عنّا عبـدَ شمسٍ ونوفـلاً عُقـوبـةَ شرّ عـاجـلاً غـير آجـل

ولا يعرف بنو أب تباينوا في الوفاة مثلهم ، فإن هاشماً مات بغزة من أرض الشام ، وعبد

---

(١) تقدم التعليق على ذلك في الحرب بين جرهم وخزاعة ، واعتكاف عمرو بن الحارث بن مضاض قومه والقتال إلى جانبهم . . . فليراجع .

(٢) كذا في الأصل وفي ابن هشام وجمهرة أنساب العرب : نضلة .

(٣) في الطبري قال الكلبي للزبعري .

(٤) في الطبري : فتطير من ذلك فقيل تكون بينهما دماء .

وعنده في رواية أخرى أن عبد شمس هو أكبر ولد عبد مناف . وفي جمهرة الأنساب : كان هاشم وعبد منـاف توأمين وخرج عبد شمس في الولادة قبل هاشم .

(٥) عند الطبري : فكانوا أول من أخذ لقريش العصم فانتشروا من الحرم .

وفي الطبري وابن الأثير : المجيرون = المخيرون .

شمس مات بمكة[1] ، ونوفل مات بسلامان من أرض العراق ، ومات المطلب ـ وكان يقال له القمر لحسنه ـ بردمان من طريق اليمن . فهؤلاء الأخوة الأربعة المشاهير وهم هاشم ، وعبد شمس ، ونوفل ، والمطلب . ولهم أخ خامس ليس بمشهور وهو أبو عمرو واسمه عبد ، وأصل اسمه عبد قصي[2] . فقال الناس عبد بن قصي درج ولا عقب له . قاله الزبير بن بكار وغيره . وأخوات ست وهنّ: تماضر ، وحية ، وريطة ، وقلابة ، وأم الأخثم ، وأم سفيان . كل هؤلاء أولاد عبد مناف ومناف اسم صنم وأصل اسم عبد مناف المغيرة . وكان قد رأس في زمن والده ، وذهب به الشرف كل مذهب . وهو أخو عبد الدار الذي كان أكبر ولد أبيه وإليه أوصى بالمناصب كما تقدم وعبد العزى وعبد وبرة وتخمر وأمهم كلهم حبى بنت حليل بن حبشي[3] بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي وأبوها آخر ملوك خزاعة وولاة البيت منهم ، وكلهم أولاد قصي واسمه زيد . وإنما سمي بذلك لأن أمه تزوجت بعد أبيه بربيعة بن حزام بن عذرة فسافر بها إلى بلاده وابنها صغير فسمي قصياً لذلك . ثم عاد إلى مكة وهو كبير ولمّ شعث قريش وجمعها من متفرقات البلاد ، وأزاح يد خزاعة عن البيت ، وأجلاهم عن مكة ورجع الحق إلى نصابه وصار رئيس قريش على الإطلاق وكانت إليه الوفادة[4] والسقاية ـ وهو سنّها ـ والسدانة والحجابة واللواء وداره دار الندوة كما تقدم بسط ذلك كله ـ ولهذا قال الشاعر :

قُصَيٌّ ، لعَمري كان يُدعى مجمِّعاً ... بــه جمعَ اللّهُ القبــائلَ من فِهْــرِ

وهو أخو زهرة كلاهما ابنا كلاب أخي تيم ويقظة أبي مخزوم ثلاثتهم أبناء مرة أخي عدي وهصيص وهم أبناء كعب وهو الذي كان يخطب قومه كل جمعة ويبشرهم بمبعث رسول الله ﷺ وينشد في ذلك أشعاراً كما قدمنا ، وهو أخو عامر وسامة وخزيمة وسعد والحارث وعوف سبعتهم أبناء لؤي أخي تيم الأدرم وهما أبناء غالب أخي الحارث ومحارب ثلاثتهم أبناء فهر ، وهو أخو الحارث وكلاهما ابن مالك . وهو أخو الصلت ويخلد ، وهم بنو النضر الذي إليه جماع قريش : على الصحيح كما قدمنا الدليل عليه ، وهو أخو مالك وملكان وعبد مناة وغيرهم كلهم أولاد كنانة أخي أسد وأسدة والهون أولاد خزيمة ، وهو أخو هذيل وهما ابنا مدركة ـ واسمه عمرو أخو طابخة واسمه عامر وقمعة ثلاثتهم أبناء الياس وأخي الياس هو غيلان والد قيس كلها وهما ولدا مضر أخي

---

(١) في ابن الأثير : وقبر بأجياد .
ونوفل مات بسلمان من طريق العراق .
المطلب بردمان من أرض اليمن .

(٢) لم يذكره ابن هشام في أولاد عبد مناف بل ذكره وكذلك الطبري في أولاد قصي ؛ وذكر أنه لم يعقب أنظر جمهرة أنساب العرب ، وزاد ابن هشام اسم لأبي عمرو من أولاد عبد مناف .

(٣) كذا في الأصول والصواب حبشية (الطبري ـ ابن هشام) .

(٤) كذا في الأصول وفادة والصواب الرفادة وقد وردت كثيراً (الطبري ـ ابن هشام) .

ربيعة . ويقال لهما الصريحان من ولد إسماعيل وأخواهما أنمار وإياد تيامناً ، اربعتهم ابناء نزار أخي قضاعة - في قول طائفة ممن ذهب إلى أن قضاعة حجازية عدنانية - وقد تقدم بيانه كلاهما أبناء معد بن عدنان .

وهذا النسب بهذه الصفة لا خلاف فيه بين العلماء فجميع قبائل عرب الحجاز ينتهون إلى هذا النسب ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله تعالى : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى ﴾[1] لم يكن بطن من بطون قريش إلاّ ولرسول الله ﷺ نسب يتصل بهم . وصدق ابن عباس رضي الله عنه فيما قال وأزيد مما قال ، وذلك أن جميع قبائل العرب العدنانية تنتهي إليه بالآباء وكثير منهم بالأمهات أيضاً كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره في أمهاته وأمهات آبائه وأمهاتهم ما يطول ذكره . وقد حرره ابن إسحاق رحمه الله والحافظ ابن عساكر .

وقد ذكرنا في ترجمة عدنان نسبه وما قيل فيه وأنه من ولد إسماعيل لا محالة وإن اختلف في كم بينهما أبا[2] ؟ على أقوال قد بسطناها فيما تقدم والله أعلم .

وقد ذكرنا بقية النسب من عدنان إلى آدم وأوردنا قصيدة أبي العباس الناشىء المتضمنة ذلك ، كل ذلك في أخبار عرب الحجاز ولله الحمد .

وقد تكلم الامام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في أول تاريخه[3] على ذلك كلاماً مبسوطاً جيداً محرراً نافعاً . وقد ورد حديث في انتسابه عليه السلام إلى عدنان وهو على المنبر ولكن الله أعلم بصحته ، كما قال الحافظ أبو بكر البيهقي[4] أنبأنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عمر بن حفص المقرىء - ببغداد - حدثنا أبو عيسى بكار بن أحمد بن بكار [قال] حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى بن سعد[5] - املاء سنة ست وتسعين ومائتين - ، [قال] : حدثنا أبو جعفر محمد بن أبان القلانسي [قال] : حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن ربيعة القدامي [قال] حدثنا مالك بن أنس ، عن الزهري عن أنس [بن مالك] وعن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام . قال[6] : بلغ النبي ﷺ أن رجالاً من كندة يزعمون أنهم منه وأنه منهم فقال : « إنما كان يقول ذلك : العباس ، وأبو سفيان بن حرب [إذا قدما المدينة ليأمنا] فيأمنا بذلك . وإنا لن ننتفي من

---

(١) سورة الشورى الآية : ٢٣ .
(٢) كذا بالأصول والصواب : كم أبٍ بينهما .
(٣) راجع الطبري بداية الجزء الثاني .
(٤) دلائل النبوة ج ١ / ١٧٤ وفيه : أبو الحسن علي بن احمد بن محمد بن حفص وصحح الحديث من الدلائل .
(٥) في البيهقي : سعيد .
(٦) في البيهقي : قالا :

باثنا ، نحن بنو النضر بن كنانة » : قال : وخطب النبي ﷺ فقال : « أنا محمد ، بن عبد الله ، بن عبدالمطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصي ، بن كلاب بن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نذار[١] وما افترق الناس فرقتين إلاّ جعلني الله في خيرها[٢] فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهر الجاهلية . وخرجت من نكاح ، ولم أخرج من سِفاح ، من لدن آدم ، حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفساً ، وخيركم أباً » وهذا حديث غريب جداً من حديث مالك . تفرد به القدامي[٣] وهو ضعيف . ولكن سنذكر له شواهد من وجوه أخر . فمن ذلك قوله : « خرجت من نكاح لا من سِفاح » قال عبد الرزاق أخبرنا ابن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه أبي جعفر الباقر في قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ قال لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية قال وقال رسول الله ﷺ : « إني خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » وهذا مرسل جيد . وهكذا رواه البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن محمد بن إسحاق الصنعاني عن يحيى بن أبي بكير عن عبد الغفار بن القاسم عن جعفر بن محمد عن أبيه . قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله أخرجني من النكاح ولم يخرجني من السفاح » وقد رواه ابن عدي موصولاً فقال حدثنا أحمد بن حفص حدثنا محمد بن أبي عمرو العدني المكي حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال أشهد على أبي حدثني عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء » هذا غريب من هذا الوجه ولا يكاد يصح . وقال هشيم حدثنا المديني عن أبي الحويرث عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : «ما ولدني من نكاح أهل الجاهلية شيء ، ما ولدني إلاّ نكاح كنكاح الإسلام » وهذا أيضاً غريب أورده الحافظ ابن عساكر ثم أسنده من حديث أبي هريرة وفي إسناده ضعف والله أعلم . وقال محمد بن سعد أخبرنا محمد بن عمر حدثني محمد بن عبد الله بن مسلم عن عمه الزهري عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : « ولدت من نكاح غير سفاح » ثم أورد ابن عساكر من حديث أبي عاصم عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ قال من نبي إلى نبي حتى أخرجت نبياً . ورواه عن عطاء . وقال محمد بن سعد أخبرنا هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية .

---

(١) في البيهقي : نزار .

(٢) في البيهقي : خيرهما .

(٣) القدامي من أهل المصيصة كان يقلب الأخبار ، قلب على مالك أكثر من مائة حديث وخمسين حديثاً ذكره ابن حبان في المجروحين ٢/٣٩ ولم يرد ذكره في ثقات العجلي ، له ترجمة في تقريب التهذيب ، ابن الربيع الكرماني أبو عبد الرحمن، ثقة ١/٤٤٦ والكاشف ٢/١١٢ .

وثبت في صحيح البخاري[1] من حديث عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه » .

وفي صحيح مسلم[2] من حديث الأوزاعي عن شداد أبي عمار عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم اسماعيل واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو نعيم[3] عن سفيان عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن المطلب بن أبي وداعة قال قال العباس بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس « فصعد المنبر فقال : من أنا ؟ » قالوا أنت رسول الله قال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً . فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً »[4] صلوات الله وسلامه عليه دائماً أبداً إلى يوم الدين .

وقال يعقوب بن سفيان حدثنا عبيد الله بن موسى عن اسماعيل بن أبي خالد عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت يا رسول الله إن قريشاً إذا التقوا ، لقي بعضهم بعضاً بالبشاشة ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها. فغضب رسول الله ﷺ عند ذلك غضباً شديداً ثم قال : « والذي نفس محمد بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله » فقلت يا رسول الله إن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم فجعلوا مثلك كمثل نخلة في كبوة من الأرض . فقال رسول الله ﷺ : « إن الله [عزَّ وجلَّ] يوم خلق الخلق جعلني في خيرهم ، ثم لما فرقهم جعلني في خيرهم قبيلة[5]. ثم حين جعل البيوت جعلني

(١) الحديث أخرجه البخاري في ٦١ كتاب المناقب (٢٣) باب صفة النبي ﷺ فتح الباري ٥٦٦/٦ . وفيه عن سعيد بن أبي سعيد المقبري . وأخرجه البيهقي عنه في دلائله ١٧٥/١ .

(٢) صحيح مسلم أول كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي ح ١ ص ١٧٨٢ .

(٣) أبو نعيم وهو الفضل بن دكين .

(٤) مسند أحمد ج ١٦٦/٤ ـ ١٦٧ وأخرجه الترمذي في ٥٠ كتاب المناقب ـ باب فضل النبي ﷺ ٦٥٣/٥ وقال : حديث حسن .

(٥) أخرجه البيهقي بإسناده في دلائل النبوة ج ١٦٧/١ ـ ١٦٨ .

في الكلام نقص واضح وتمامه من الدلائل : ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين ، ثم حين جعل القبائل جعلني في خير قبيلة .

وأخرجه ابن ماجه في المقدمة (١١) باب ح (١٤٠) ص (٥٠/١) والترمذي في كتاب المناقب وقال : هذا حديث حسن صحيح . وفي الزوائد : رجال إسناده ثقات .

في خير بيوتهم فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » . ورواه أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن فضيل عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث عن ربيعة بن الحارث قال بلغ النبي ﷺ فذكره بنحو ما تقدم ولم يذكر العباس[1] . وقال يعقوب بن سفيان حدثني يحيى بن عبد الحميد حدثني قيس بن عبد الله عن الأعمش عن عليلة[2] بن ربعي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً ، فذلك قوله [تعالى] : ﴿ وأصحاب اليمين ﴾[3] و﴿ أصحاب الشمال ﴾[4] ، فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين ، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثالثاً ، فذلك قوله [تعالى] : و﴿ أصحاب الميمنة ﴾[5] ﴿ والسابقون السابقون ﴾[6] فأنا من السابقين ، وأنا خير السابقين ، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة فذلك قوله [تعالى] : ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[7] وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً وذلك قوله [عزَّ وجلَّ] : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾[8] ، «فأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب » . وهذا الحديث فيه غرابة ونكارة . وروى الحاكم والبيهقي[9] من حديث محمد بن ذكوان خال ولد حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن ابن عمر قال : إنا لقعود بفناء النبي ﷺ إذ مرت به امرأة ، فقال بعض القوم هذه ابنة رسول الله ﷺ قال أبو سفيان : مثل محمد في بني هاشم مثل الريحانة في وسط النتن . فانطلقت المرأة فأخبرت النبي ﷺ فجاء رسول الله ﷺ : يعرف في وجهه الغضب . فقال : « ما بال أقوال تبلغني عن أقوام إن الله خلق السماوات سبعاً فاختار العلياء منها فأسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم ، واختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم فأنا خيار من خيار ، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم » هذا أيضاً حديث غريب[10] . وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا

---

(١) أخرجه من هذا الوجه أحمد في مسنده ج ٤/١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) كذا في الأصول والصواب عباية بن ربعي . ذكره العقيلي في الضعفاء الكبير ٣/٤١٥ .

(٣) سورة الواقعة الآية ٣٧ .

(٤) سورة الواقعة الآية ٤١ .

(٥) سورة الواقعة الآية ٨ .

(٦) سورة الواقعة الآية ١٠ .

(٧) سورة الحجر الآية ١٣ .

(٨) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .

(٩) دلائل النبوة ج ١/١٧١ والحاكم في المستدرك ٤/٧٣ .

(١٠) سرده العقيلي في الضعفاء وقال لا يتابع عليه . وضعف العقيلي يزيد بن عوانة .

فخر » وروى الحاكم والبيهقي أيضاً(١) من حديث موسى بن عبيدة [قال] حدثنا عمرو بن عبد الله بن نوفل عن الزهري عن أبي أسامة أو أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل [عليه السلام] قلبت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد ، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم » قال الحافظ البيهقي وهذه الأحاديث وإن كان في رواتها من لا يحتج به فبعضها يؤكد بعضاً ومعنى جميعها يرجع إلى حديث واثلة بن الأسقع [وأبي هريرة] والله أعلم .

قلت وفي هذا المعنى يقول أبو طالب يمتدح النبي ﷺ :

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخرٍ ... فعبدُ منافٍ سِرُّها وصميمُها
فإن حَصلتْ أشرافُ عبد منافِها ... ففي هاشمٍ أشرافُها وقديمُها
وإن فَخَرتْ يوماً فإنَّ محمداً ... هو المصطَفَى من سرها وكريمُها
تداعت قريشٌ غثها وسمينُها ... علينا فلم تظفر وطاشتْ حُلومها(٢)
وكنّا قديماً لا نقر ظُلامةً ... إذا ما ثنوا صَعر الخدود نقيمها(٣)
ونحمي حِماها كل يوم كريهةٍ ... ونضرب عن أحجارها مَن يرومها
بنا انتعشَ العودُ الذواء وإنما ... بأكنافنا تَندى وتنمَى أرومَها(٤)

وقال أبو السكن زكريا بن يحيى الطائي في الجزء المنسوب إليه المشهور : حدثني عمر بن أبي زحر بن حصين ، عن جده حميد بن منهب ، قال : قال جدي خريم بن أوس : هاجرت إلى رسول الله ﷺ فقدمت عليه منصرفه من تبوك ، فأسلمت ، فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول : يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك ، فقال رسول الله ﷺ قل ، لا يفضض الله فاك ، فأنشأ يقول :

من قبلها طِبتَ في الظلال وفي ... مستودعٍ حيثُ يُخصف الورقُ
ثم هبطتَ البلاد لا بشر أنـ ... ـت ولا مُضغةٌ ولا علَق
بل نطفةٌ تركب السفينَ وقد ... ألجمَ نَسراً وأهلَه الغَرَق
تنقل من صلْبٍ إلى رحِم ... إذا مضى عالَم بدا طبق

= محمد بن ذكوان اتفقوا على ضعفه ، وقال البخاري منكر الحديث ؛ وقال ابن حبان : سقط الاحتجاج به وقال الدارقطني : ضعيف وقال أبو حاتم : منكر الحديث كثير الخطأ .

(١) دلائل النبوة ج ١/١٧٦ وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢١٧ وعزاه للطبراني في الأوسط .

(٢) الغث : اللحم الضعيف ، هنا استعاره لضعيف النسب .

(٣) قال الله تعالى : ولا تصعر خدك للناس أي لا تميله إمالة المتكبر والمتعجرف .

(٤) الاروم : الأصول ، جمع أرومة .

حتى احتوى بيتُك المهيمن من ... خِندفِ علياءَ تحتها النطق
وأنتَ لما وُلدتَ أشرقتِ الأ ... رضُ وضاءت بنورك الأفُق
فنحن في ذلك الضياءِ وفي الـ ... ـنورِ وسُبُلِ الرشادِ نخترق

وقد روى هذا الشعر لحسان بن ثابت .

فروى الحافظ أبو القاسم بن عساكر من طريق أبي الحسن بن أبي الحديد : أخبرنا محمد بن أبي نصر أنا عبد السلام بن محمد بن أحمد القرشي حدثنا أبو حصين محمد بن إسماعيل بن محمد التميمي حدثنا محمد بن عبد الله الزاهد الخراساني حدثني اسحاق بن إبراهيم بن سنان حدثنا سلام بن سليمان أبو العباس المكفوف المدائني حدثنا ورقاء بن عمر عن ابن أبي نجيح عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : فداك أبي وأمي أين كنت وآدم في الجنة ؟ قال فتبسم حتى بدت نواجذه ثم قال : « كنت في صلبه وركب بي السفينة في صلب أبي نوح وقذف بي في صلب أبي إبراهيم لم يلتق أبواي على سِفاح قط لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسيبة إلى الأرحام الطاهرة صفيّ مهدي[1] لا ينشعب شعبتان إلّا كنت في خيرهما وقد أخذ الله بالنبوة ميثاقي وبالإسلام عهدي ونشر في التوراة والأنجيل ذكري وبين كل نبي صفتي تشرق الأرض بنوري والغمام بوجهي وعلمني كتابه وزادني شرفاً في سمائه وشق لي اسماً من أسمائه فذو العرش محمود وأنا محمد وأحمد ووعدني أن يحبوني بالحوض والكوثر وأن يجعلني أول شافع وأول مشفع ثم أخرجني من خير قرن لأمتي ، وهم الحمّادون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » قال ابن عباس فقال حسان بن ثابت في النبي ﷺ :

قبلها طبت في الظلال وفي ... مستودع يوم يخصف الورقُ
ثم سكنت البلاد لا بشر أنـ ... ـت ولا نطفة ولا علق
مطهر تركب السفين وقد ... ألجم نسراً وأهله الغرق
تنقل من صلب إلى رحم ... إذا مضى طبق بدا طبق

فقال النبي ﷺ : « يرحم الله حساناً » فقال علي بن أبي طالب وجبت الجنة لحسان ورب الكعبة ثم قال الحافظ ابن عساكر هذا حديث غريب جداً .

قلت : بل منكر جداً والمحفوظ أن هذه الأبيات للعباس رضي الله عنه ثم أوردها من حديث أبي السكن زكريا بن يحيى الطائي كما تقدم .

قلت : ومن الناس من يزعم أنها للعباس بن مرداس السلمي فالله أعلم .

تنبيه : قال القاضي عياض ـ في كتابه الشفاء ـ : « وأما أحمد الذي أتى في الكتب وبشرت به الأنبياء فمنع الله بحكمته أن يسمى به أحد غيره ولا يدعى به مدعو قبله ، حتى لا يدخل لبس على

---

(١) كذا بالأصل ، وفي سيرة ابن كثير : صفياً مهذباً .

ضعيف القلب أوشـك . وكذلك محمد لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم ، إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد . فسمى قوم قليل من العرب أبنـاءهم بذلـك رجاء أن يكون أحدهم وهـو ﴿ والله أعلم حيث يجعل رسـالاته ﴾ وهـم : محمـد بن احيحة بن الجـلاح الأوسي . ومحمـد بن سلمة[1] الأنصـاري . ومحمد بن البـراء الكندي[2] . ومحمـد بن سفيان بن مجاشع . ومحمد بن حمران الجعفي . ومحمد بن خزاعي السلمي لا سابع لهم . ويقال إن أول من سمي محمداً محمد بن سفيان بن مجاشع . واليمن تقول بل محمد بن اليحمد من الأزد . ثم إن الله حمى كل من تسمى به أن يدّعي النبوة أو يدّعيها له أحد ، أو يظهر عليه سبب يشكل[3] أحداً في أمره حتى تحققت الشيمتان له ﷺ لم ينازع فيهما » . هذا لفظه .

باب مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولد صلوات الله عليه وسلامه يوم الاثنين .

لما رواه مسلم في صحيحه من حديث غيلان بن جرير بن[4] عبد الله بن معبد الزماني[5] عن أبي قتادة أن أعرابياً قال يا رسول الله ، ما تقول في صوم يوم الاثنين فقال : « ذاك يوم ولدت فيه وانزل عليّ فيه » . وقال الإمام أحمد[6] حدثنا وموسى بن داود حدثنـا ابن لهيعة عن خـالد بن أبي عمران عن حنش الصنعاني عن ابن عباس قال : ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين ، واستنبىء يوم الاثنين ، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، وقدم المـدينة يـوم الاثنين ، وتـوفي يوم الاثنين ، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين . تفرد به أحمد ورواه عمرو بن بكير عن ابن لهيعة وزاد نزلت سورة المائدة يوم الاثنين ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ . وهكذا رواه بعضهم عن موسى بن داود به وزاد أيضاً وكانت وقعة بدر يوم الاثنين . وممن قال هذا يزيد بن حبيب وهذا منكر جداً . قال ابن عساكر والمحفوظ أن بدراً ونزول : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ يوم الجمعة وصدق ابن عساكر . وروى عبد الله بن عمر عن كريب عن ابن عباس ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين . وهكذا روي من غير هذا الوجه عن ابن عباس أنه ولد يـوم الاثنين . وهـذا ما لا خلاف فيه أنه ولد ﷺ يوم الاثنين . وأبعد بل اخطأ من قال ولد يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من ربيع الأول نقله الحافظ ابن دحية فيما قرأه في كتاب أعلام الروى باعلام الهدى لبعض الشيعة . ثم

---

(١) كذا بالأصول والصواب محمد بن مسلمة .

(٢) كذا بالأصول وفي سيرة ابن كثير : البكري .

(٣) في سيرة ابن كثير : يشكك .

(٤) كذا في الأصل ابن عبدالله وهو خطأ وعند مسلم عن عبد الله .
أخرجه مسلم في ١٣ كتاب الصيام ٣٦ باب استحباب صيام ثلاثة أيام . . . ص ٨١٩.

(٥) الزماني نسبة إلى زمان بن مالك بطن من ربيعة .

(٦) مسند أحمد ج ١ /٢٧٧.

شرع ابن دحية في تضعيفه وهو جدير بالتضعيف إذ هو خلاف النص . ثم الجمهور على أن ذلك كان في شهر ربيع الأول فقيل لليلتين خلتا منه قاله ابن عبد البر في الاستيعاب ورواه الواقدي عن أبي معشر نجيح بن عبد الرحمن المدني . وقيل لثمان خلون منه حكاه الحميدي عن ابن حزم . ورواه مالك وعقيل ويونس بن يزيد وغيرهم عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم ونقل ابن عبد البر عن أصحاب التاريخ أنهم صححوه وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسى الخوارزمي ورجحه الحافظ أبو الخطاب بن دحية في كتابه التنوير في مولد البشير النذير وقيل لعشر خلون منه نقله ابن دحية في كتابه ورواه ابن عساكر عن أبي جعفر الباقر ورواه مجالد عن الشعبي كما مر . وقيل لثنتي عشرة خلت منه نص عليه ابن إسحاق ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن عفان عن سعيد بن مينا عن جابر وابن عباس أنهما قالا : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثامن عشر من شهر ربيع الأول وفيه بعث وفيه عرج به إلى السماء وفيه هاجر وفيه مات . وهذا هو المشهور عند الجمهور والله أعلم . وقيل لسبع عشرة[1] خلت منه كما نقله ابن دحية عن بعض الشيعة . وقيل لثمان بقين منه نقله ابن دحية من خط الوزير أبي رافع بن الحافظ أبي محمد بن حزم عن أبيه والصحيح عن ابن حزم الأول أنه لثمان مضين منه كما نقله عنه الحميدي وهو أثبت . والقول الثاني : إنه ولد في رمضان نقله ابن عبد البر عن الزبير بن بكار وهو قول غريب جداً وكان مستنده أنه عليه الصلاة والسلام أوحي إليه في رمضان بلا خلاف وذلك على رأس أربعين سنة من عمره فيكون مولده في رمضان وهذا فيه نظر والله أعلم . وقد روى خيثمة بن سليمان الحافظ عن خلف بن محمد كردوس الواسطي عن المعلى بن عبد الرحمن عن عبد الحميد بن جعفر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين في ربيع الأول وانزلت عليه النبوة يوم الاثنين في أول شهر ربيع الأول وأنزلت عليه البقرة يوم الاثنين في ربيع الأول . وهذا غريب جداً رواه ابن عساكر . قال الزبير بن بكار حملت به أمه في أيام التشريق في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى . وولد بمكة بالدار المعروفة بمحمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان . ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عثمان بن عقبة بن مكرم عن المسيب بن شريك عن شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده قال حمل برسول الله ﷺ في يوم عاشوراء في المحرم وولد يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل . وذكر غيره أن الخيزران وهي أم هارون الرشيد لما حجت أمرت ببناء هذه الدار مسجداً . فهو يعرف بها اليوم . وذكر السهيلي أن مولده عليه الصلاة والسلام كان في العشرين من نيسان . وهذا أعدل الزمان والفصول وذلك لسنة اثنتين وثمانين وثمانمائة لذي القرنين فيما ذكر أصحاب الزيج . وزعموا أن الطالع كان لعشرين درجة من الجدي وكان المشتري وزحل مقترنين في ثلاث درج من العقرب وهي درجة وسط السماء . وكان

---

(١) في الأصل لسبعة عشر ، وهو خطأ .

موافقاً من البروج الحمل وكان ذلك عند طلوع القمر أول الليل نقله كله ابن دحية والله أعلم .

قال ابن إسحاق : وكان مولده عليه الصلاة والسلام عام الفيل وهذا هو المشهور عن الجمهور . قال إبراهيم بن المنذر الحزامي : وهو الذي لا يشك فيه أحد من علمائنا أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل وبعث على رأس أربعين سنة من الفيل . وقد رواه البيهقي من حديث أبي اسحاق السبيعي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل وقال محمد بن إسحاق حدثني المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده قيس بن مخرمة قال ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل ، كنا لِدَين . قال وسأل عثمان رضي الله عنه قباث بن اشيم أخا بني يعمر بن ليث أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله ﷺ أكبر مني وأنا أقدم منه في الميلاد . ورأيت خَزَق الفيل أخضر محيلاً . ورواه الترمذي والحاكم من حديث محمد بن إسحاق به .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ عام عكاظ ابن عشرين سنة .

وقال ابن إسحاق : كان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة . وكان بناء الكعبة بعد الفجار بخمسة عشر سنة ، والمبعث بعد بنائها بخمس سنين . وقال محمد بن جبير بن مطعم : كانت عكاظ بعد الفيل بخمس عشرة سنة ، وبناء الكعبة بعد عكاظ بعشر سنين ، والمبعث بعد بنائها بخمس عشرة سنة . وروى الحافظ البيهقي من حديث عبد العزيز بن أبي ثابت المديني [قال] حدثنا الزبير بن موسى ، عن أبي الحويرث قال : سمعت عبد الملك بن مروان ، يقول لقباث بن أشيم الكناني ثم الليثي : يا قباث أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ قال : رسول الله ﷺ أكبر مني ، وأنا أسن [منه] . ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، ووقفت بي أمي على روث الفيل محيلاً أعقله . وتنبأ رسول الله ﷺ على رأس أربعين سنة . وقال يعقوب بن سفيان حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير [قال] حدثنا نعيم يعني ابن ميسرة - عن بعضهم عن سويد بن غفلة أنه قال : أنا لِدة رسول الله ﷺ ولدت عام الفيل . قال البيهقي وقد روي عن سويد بن غفلة أنه قال أنا أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين . قال يعقوب وحدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا عبد العزيز بن أبي ثابت حدثني عبد الله بن عثمان بن أبي سليمان النوفلي عن أبيه عن محمد بن جبير بن مطعم . قال : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، وكانت بعده عكاظ بخمس عشرة سنة ، وبني البيت على رأس خمس وعشرين سنة من الفيل ، وتنبأ رسول الله ﷺ على رأس أربعين سنة من الفيل .

والمقصود أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل على قول الجمهور فقيل بعده بشهر ، وقيل بأربعين يوماً ، وقيل بخمسين يوماً - وهو أشهر - وعن أبي جعفر الباقر كان قدوم الفيل للنصف من المحرم ، ومولد رسول الله ﷺ بعده بخمس وخمسين ليلة ، وقال آخرون بل كان عام الفيل قبل مولد رسول الله ﷺ بعشر سنين . قاله ابن أبزى . وقيل بثلاث وعشرين سنة رواه شعيب بن

شعيب عن أبيه عن جده كما تقدم وقيل بعد الفيل بثلاثين سنة . قاله موسى بن عقبة عن الزهري رحمه الله . واختاره موسى بن عقبة أيضاً رحمه الله . وقال أبو زكريا العجلاني : بعد الفيل بأربعين عاماً ، رواه ابن عساكر وهذا غريب جداً ، وأغرب منه ما قال خليفة بن خياط حدثني شعيب بن حبان عن عبد الواحد بن أبي عمرو عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ؛ قال : ولد رسول الله ﷺ قبل الفيل بخمس عشرة سنة وهذا حديث غريب ومنكر وضعيف أيضاً ، قال خليفة بن خياط والمجتمع عليه أنه عليه السلام ولد عام الفيل .

صفة مولده الشريف عليه الصلاة والسلام

قد تقدم أن عبد المطلب لما ذبح تلك الإبل المائة عن ولده عبد الله حين كان نذر ذبحه فسلمه الله تعالى لما كان قدر في الأزل من ظهور النبي الأمي ﷺ خاتم الرسل وسيد ولد آدم من صلبه ، فذهب كما تقدم فزوجه أشرف عقيلة في قريش آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة الزهرية ، فحين دخل بها وأفضى إليها حملت برسول الله ﷺ ، وقد كانت أم قتال رقيقة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل توسمت ما كان بين عيني عبد الله قبل أن يجامع آمنة من النور ، فودت أن يكون ذلك متصلاً بها لما كانت تسمع من أخيها من البشارات بوجود محمد ﷺ ، وأنه قد أزف زمانه فعرضت نفسها عليه . قال بعضهم ليتزوجها وهو أظهر والله أعلم ، فامتنع عليها فلما انتقل ذلك النور الباهر إلى آمنة بمواقعته إياها كأنه تندم على ما كانت عرضت عليه . فتعرض لها لتعاوده . فقالت لا حاجة لي فيك وتأسفت على ما فاتها من ذلك وأنشدت في ذلك ما قدمناه من الشعر الفصيح البليغ . وهذه الصيانة لعبد الله ليست له وإنما هي لرسول الله ﷺ ، فإنه كما قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ وقد تقدم الحديث المروي من طريق جيد أنه قال عليه الصلاة والسلام : « ولدت من نكاح لا من سِفاح » .

والمقصود أن أمه حين حملت به توفي أبوه عبد الله وهو حمل في بطن أمه على المشهور . قال محمد بن سعد حدثنا محمد بن عمر ـ هو الواقدي ـ حدثنا موسى بن عبيدة اليزيدي . وحدثنا سعيد بن أبي زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة . قال : خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام إلى غزة في عير من عيران قريش يحملونه تجارات ، ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا فمروا بالمدينة وعبد الله بن عبد المطلب يومئذٍ مريض ، فقال أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار ، فأقام عندهم مريضاً شهراً ومضى أصحابه فقدموا مكة فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله فقالوا خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجار وهو مريض . فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث . فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة فرجع إلى أبيه فأخبره ، فوجد عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته وجداً شديداً ، ورسول الله ﷺ يومئذٍ حمل . ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفي خمس وعشرون سنة .

قال الواقدي : هذا هو أثبت الأقاويل في وفاة عبد الله وسنه عندنا . قال الواقدي : وحدثني معمر عن الزهري أن عبد المطلب بعث عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمراً فمات . قال محمد بن سعد وقد أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه وعن عوانة بن الحكم . قالا : توفي عبد الله بن عبد المطلب بعدما أتى على رسول الله ﷺ ثمانية وعشرين شهراً ، وقيل سبعة أشهر . وقال محمد بن سعد : والأول أثبت أنه توفي ورسول الله ﷺ حمل . وقال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن حسن عن عبد السلام عن ابن خربوذ . قال : توفي عبد الله بالمدينة ورسول الله ﷺ ابن شهرين ، وماتت أمه وهو ابن أربع سنين ، ومات جده وهو ابن ثمان سنين ، فأوصى به إلى عمه أبي طالب . والذي رجحه الواقدي وكاتبه الحافظ محمد بن سعد أنه عليه الصلاة والسلام توفي أبوه وهو جنين في بطن أمه وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه . وقد تقدم في الحديث « ورؤيا أمي الذي رأت حين حمل بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » وقال محمد بن إسحاق فكانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولي :

أعيذه بالواحد من شر كل حاسد
من كل بر عاهد وكل عبد رائد
يذود عني ذائد فإنه عند الحميد الماجد
حتى أراه قد أتى المشاهد

وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام ، فإذا وقع فسميه محمداً . فإن اسمه في التوراة أحمد ، يحمده أهل السماء وأهل الأرض ، واسمه في الانجيل أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض ، واسمه في القرآن محمد . وهذا وذاك يقتضي أنها رأت حين حملت به عليه السلام كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام . ثم لما وضعته رأت عياناً تأويل ذلك كما رأته قبل ذلك ها هنا والله أعلم .

وقال محمد بن سعد : أنبأنا محمد بن عمر ـ هو الواقدي ـ حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهري . وقال الواقدي : حدثنا موسى بن عبدة عن أخيه ومحمد بن كعب القرظي . وحدثني عبد الله بن جعفر الزهري عن عمته أم بكر بنت المسود عن أبيها . وحدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم المزني وزياد بن حشرج عن أبي وجزة . وحدثنا معمر عن أبي نجيح عن مجاهد . وحدثنا طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس : دخل حديث بعضهم في حديث بعض . أن آمنة بنت وهب قالت لقد علقت به ـ تعني رسول الله ﷺ ـ فما وجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب ، ثم وقع إلى الأرض معتمداً على يديه ، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء . وقال بعضهم وقع جاثياً على ركبتيه ، وخرج معه نور

ضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رؤيت أعناق الإبل ببصرى ، رافعاً رأسه إلى السماء . وقال الحافظ أبو بكر البيهقي أنبأنا محمد بن عبد الله الحافظ أنبانا محمد بن إسماعيل [قال] أنبأنا محمد بن إسحاق حدثنا يونس بن مبشر بن الحسن [قال] حدثنا يعقوب بن محمد الزهري ، [قال] حدثنا عبد العزيز بن عمران حدثنا عبد الله بن عثمان بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم عن أبيه عن ابن أبي سويد الثقفي عن عثمان بن أبي العاص ، [قال] : حدثتني أمي أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ ليلة ولدته ، قالت فما شيء أنظره في البيت إلّا نور ، وإني أنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول ليقعن علي .

وذكر القاضي عياض عن الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف أنها كانت قابلته وأنها أخبرت به حين سقط على يديها واستهل سمعت قائلاً يقول يرحمك الله ، وإنه سطع منه نور رُئيت منه قصور الروم .

قال محمد بن إسحاق : فلما وضعته بعثت إلى عبد المطلب جاريتها ـ وقد هلك أبوه وهي حبلى ويقال إن عبد الله هلك والنبي ﷺ ابن ثمانية وعشرين شهراً فالله أعلم أي ذلك كان ـ فقالت قد ولد لك غلام فانظر إليه ، فلما جاءها أخبرته وحدثته بما كانت رأت حين حملت به ، وما قيل لها فيه ، وما أمرت أن تسميه . فأخذه عبد المطلب فأدخله على هبل في جوف الكعبة ، فقام عبد المطلب يدعو ويشكر الله عزَّ وجلَّ ويقول :

الحمدُ للهِ الذي أعطاني ... هذا الغلام الطيِّبَ الأردانِ
قد سادَ في المهدِ على الغِلمان ... أعيذُه بالبيتِ ذي الأركان
حتى يكونَ بُلغةَ الفتيان ... حتى أراه بالغَ البنيان
أعيذه من كل ذي شَنآن ... من حاسدٍ مضطرب العنان
ذي هِمَّةٍ ليس له عينان ... حتى أراه رافعَ اللسان
أنتَ الذي سمِّيتَ في القرآن ... في كُتبٍ ثابتة المثاني

* أحمدُ مكتوبٌ على اللسان *

وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن حاتم الدرابودي ـ بمرو ـ [قال] : حدثنا أبو عبد الله البوشنجي ، حدثنا أبو أيوب : سليمان بن سلمة الخبائري ، حدثنا يونس بن عطاء بن عثمان بن ربيعة بن زياد بن الحارث الصدائي ـ بمصر ـ حدثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن أبيه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه . قال : ولد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً ، قال فأعجب [به] جده عبد المطلب وحظي عنده . وقال : ليكونن لابني هذا شأن فكان له شأن . وهذا الحديث في صحته نظر . وقد رواه الحافظ ابن عساكر من حديث سفيان بن محمد المصيصي عن هشيم عن يونس بن عبيد عن الحسن عن

أنسٍ . قال قال رسول الله ﷺ : من كرامتي على الله أني ولدت مختوناً ولم ير سوأتي أحد ثم أورده من طريق الحسن بن عرفة عن هشيم به . ثم أورده من طريق محمد بن محمد بن سليمان ـ هو الباغندي ـ حدثنا عبد الرحمن بن أيوب الحمصي حدثنا موسى بن أبي موسى المقدسي حدثني خالد بن سلمة عن نافع عن ابن عمر . قال : ولد رسول الله ﷺ مسروراً مختوناً . وقال أبو نعيم : حدثنا أبو أحمد محمد بن أحمد الغطريفي حدثنا الحسين بن أحمد بن عبد الله المالكي حدثنا سليمان بن سلمة الخبائري حدثنا يونس بن عطاء حدثنا الحكم بن أبان حدثنا عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس . قال : ولد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً ، فأعجب ذلك جده عبد المطلب وحظي عنده ، وقال ليكونن لابني هذا شأن ، فكان له شأن . وقد ادعى بعضهم صحته لما ورد له من الطرق حتى زعم بعضهم أنه متواتر وفي هذا كله نظر ، ومعنى مختوناً أي مقطوع الختان ، ومسروراً أي مقطوع السرة من بطن أمه . وقد روى الحافظ ابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن عيينة البصري حدثنا علي بن محمد المدائني السلمي حدثنا سلمة بن محارب بن مسلم بن زياد عن أبيه عن أبي بكرة أن جبريل ختن النبي ﷺ حين طهر قلبه وهذا غريب جداً . وقد روى أن جده عبد المطلب ختنه وعمل له دعوة جمع قريشاً عليها والله أعلم .

وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأني محمد بن كامل القاضي ـ شفاهاً ـ أن محمد بن إسماعيل حدثه ـ يعني السلمي ـ حدثنا أبو صالح : عبد الله بن صالح حدثني معاوية بن صالح ، عن أبي الحكم التنوخي ، قال : كان المولود إذا ولد في قريش دفعوه إلى نسوة من قريش إلى الصبح يكفأن عليه برمة ، فلما ولد رسول الله ﷺ دفعه عبد المطلب إلى نسوة فكفأن عليه برمة ، فلما أصبحن أتين فوجدن البرمة قد انفلقت عنه باثنتين ووجدنه مفتوح العينين شاخصاً ببصره إلى السماء . فأتاهن عبد المطلب ، فقلن له : ما رأينا مولوداً مثله ، وجدناه قد انفلقت عنه البرمة ، ووجدناه مفتوحاً عينيه شاخصاً ببصره إلى السماء . فقال : احفظنه فإني أرجو أن يكون له شأن ، أو أن يصيب خيراً ، فلما كان اليوم السابع ذبح عنه ، ودعا له قريشاً ، فلما أكلوا قالوا : يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ، ما سميته ؟ قال سميته محمداً ، قالوا فما رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ قال أردت أن يحمده الله [تعالى] في السماء وخلقه في الأرض قال أهل اللغة : كل جامعٍ لصفات الخير يسمى محمداً كما قال بعضهم :

إليك ـ أبيت اللعنَ ـ أعملتُ ناقتي   إلى الماجدِ القِرْم الكريم المحمَدِ

وقال بعض العلماء : ألهمهم الله عزَّ وجلَّ أن سموه محمداً لما فيه من الصفات الحميدة ليلتقي الاسم والفعل ، ويتطابق الاسم والمسمى في الصورة والمعنى ، كما قال عمه أبو طالب ويروى لحسان :

وشقّ له من اسمه ليجله   فذو العرشِ محمود وهذا محمد

وسنذكر أسماءه عليه الصلاة والسلام وشمائله وهي صفاته الظاهرة وأخلاقه الطاهرة ودلائل نبوته وفضائل منزلته في آخر السيرة إن شاء الله .

قال الحافظ أبو بكر البيهقي :: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا احمد بن شيبان الرملي حدثنا أحمد بن إبراهيم الحبلي حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا زهير عن محارب بن دثار عن عمرو بن يثربي عن العباس بن عبد المطلب قال قلت : يا رسول الله ! دعاني إلى الدخول في دينك أمارة لنبوتك ، رأيتك في المهد تناغي القمر وتشير إليه بإصبعك ، فحيث أشرت إليه مال . قال : « إني كنت أحدثه ويحدثني ويلهيني عن البكاء ، واسمع وجبته حين يسجد تحت العرش » . ثم قال تفرد به الليثي وهو مجهول .

فصل

فيما وقع من الآيات ليلة مولده عليه الصلاة والسلام

قد ذكرنا في باب هواتف الجان ما تقدم من خرور كثير من الأصنام ليلتئذ لوجوهها وسقوطها عن أماكنها ، وما رآه النجاشي ملك الحبشة ، وظهور النور معه حتى أضاءت له قصور الشام حين ولد ، وما كان من سقوطه جاثياً رافعاً رأسه إلى السماء ، وانفلاق تلك البرمة عن وجهه الكريم ، وما شوهد من النور في المنزل الذي ولد فيه ودنو النجوم منهم وغير ذلك .

حكى السهيلي عن تفسير بقي بن مخلد الحافظ أن ابليس رن أربع رنات : حين لعن ، وحين أهبط ، وحين ولد رسول الله ﷺ ، وحين انزلت الفاتحة . قال محمد بن إسحاق : وكان هشام بن عروة يحدث عن أبيه عن عائشة قالت : كان يهودي قد سكن مكة يتجر بها فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال في مجلس من قريش : يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم والله ما نعلمه فقال الله أكبر ، أما إذا أخطأكم فلا بأس انظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس . لا يرضع ليلتين وذلك أن عفريتاً من الجن ادخل أصبعه في فمه فمنعه الرضاع فتصدع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله وحديثه فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله فقالوا قد والله ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمداً فالتقى القوم فقالوا هل سمعتم حديث اليهودي وهل بلغكم مولد هذا الغلام ؟ فانطلقوا حتى جاؤوا اليهودي فأخبروه الخبر . قال فاذهبوا معي حتى أنظر إليه . فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة فقالوا اخرجي إلينا ابنك فاخرجته وكشفوا له عن ظهره . فرأى تلك الشامة . فوقع اليهودي مغشياً عليه . فلما أفاق قالوا له ما لك ويلك ؟ قال قد ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل ، فرحتم بها يا معشر قريش . والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني صالح بن إبراهيم عن يحيى بن عبد الرحمن بن أسعد

بن زرارة قال حدثني من شئت من رجال قومي ممن لا أتهم عن حسان بن ثابت . قال : إني لغلام يفعة ابن سبع سنين ـ أو ثمان سنين ـ أعقل ما رأيت وسمعت. إذا بيهودي في يثرب يصرخ ذات غداة يا معشر يهود فاجتمعوا إليه ـ وأنا أسمع ـ فقالوا ويلك مالك ؟ قال قد طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة . وروى الحافظ أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة من حديث أبي بكر بن عبد الله العامري عن سليمان بن سحيم وذريح بن عبد الرحمن كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال سمعت أبي مالك بن سنان يقول جئت بني عبد الأشهل يوماً لأتحدث فيهم ونحن يومئذٍ في هدنة من الحرب ، فسمعت يوشع اليهودي يقول : أظل خروج نبي يقال له أحمد يخرج من الحرم . فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلي ـ كالمستهزىء به ما صفته ؟ فقال رجل ليس بالقصير ولا بالطويل في عينيه حمرة يلبس الشملة ويركب الحمار . سيفه على عاتقه وهذا البلد مهاجره . قال فرجعت إلى قومي بني خدرة وأنا يومئذٍ أتعجب مما يقول يوشع فأسمع رجلاًن منا يقول ويوشع يقول هذا وحده !؟ كل يهود يثرب يقولون هذا . قال أبي مالك بن سنان فخرجت حتى جئت بني قريظة فأجد جمعاً فتذاكروا النبي ﷺ . فقال الزبير بن باطا : قد طلع الكوكب الأحمر الذي لم يطلع إلاّ لخروج نبي أو ظهوره ولم يبق أحد إلاّ أحمد وهذا مهاجره . قال أبو سعيد فلما قدم النبي ﷺ أخبره أبي هذا الخبر فقال رسول الله ﷺ : « لو أسلم الزبير لأسلم ذووه من رؤساء اليهود إنما هم له تبع » وقال أبو نعيم : حدثنا عمر بن محمد حدثنا ابراهيم بن السندي حدثنا النضر بن سلمة حدثنا إسماعيل بن قيس بن سليمان بن زيد بن ثابت عن أم سعد بنت سعد بن الربيع سمعت زيد بن ثابت يقول : كان أحبار يهود بني قريظة والنضير يذكرون صفة النبي ﷺ فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبي وأنه لا نبي بعده . واسمه أحمد ومهاجره إلى يثرب فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنكروا وحسدوا وكفروا . وقد أورد هذه القصة الحافظ أبو نعيم في كتابه من طرق أخرى ولله الحمد .

وقال أبو نعيم ومحمد بن حبان : حدثنا أبو بكر بن أبي عاصم حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد ، قال قال زيد بن عمرو بن نفيل قال لي حبر من أحبار الشام : قد خرج في بلدك نبي ـ أو هو خارج ـ قد خرج نجمه فارجع فصدقه واتبعه .

ذكر ارتجاس ايوان كسرى

وسقوط الشرفات وخمود النيران ورؤيا الموبذان وغير ذلك من الدلالات

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب هواتف الجان : حدثنا علي بن حرب حدثنا أبو أيوب يعلى بن عمران ـ من آل جرير بن عبد الله البجلي ـ حدثني مخزوم بن هاني المخزومي عن أبيه ـ وأتت عليه خمسون ومائة سنة ـ قال : لما كانت الليلة التي ولد فيها

رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس ، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة ، ورأى الموبذان إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادهم ، فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك ، فتصبر عليه تشجعاً ، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرازبته فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره . ثم بعث إليهم ، فلما اجتمعوا عنده . قال : أتدرون فيم بعثت إليكم ؟ قالوا : لا ، إلاّ أن يخبرنا الملك [ذلك] ، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران فازداد غماً إلى غمه ، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله ، فقال الموبذان وأنا ـ أصلح الله الملك ـ قد رأيت في هذه الليلة رؤيا ثم قص عليه رؤياه في الإبل ، فقال أي شيء يكون هذا يا موبذان ؟ قال حدث يكون في ناحية العرب ـ وكان أعلمهم من انفسهم ـ فكتب عند ذلك : من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر ؛ أما بعد فوجه إليّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه ، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة الغساني ، فلما ورد عليه قال له : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ فقال لتخبرني أو ليسألني الملك عما أحب ، فإن كان عندي منه علم وإلاّ أخبرته بمن يعلم . فأخبره بالذي وجه به إليه فيه . قال علم ذلك عند خال لي يسكن مشارف الشام يقال له سطيح ، قال فائته فاسأله عما سألتك عنه ثم ائتني بتفسيره . فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح وقد أشفى على الضريح . فسلم عليه وكلمه فلم يرد إليه سطيح جواباً فانشأ يقول :

أصمُّ أم يسمع غِطريفَ اليَمَن ... أم فادَ فَار لَمَّ بهِ شأو العنن
يا فاصلَ الخطة أعيَتْ من ومن ... أتاكَ شيخُ الحي من آل سنن
وأمه من آلِ ذئب بن حجَن ... أزرقُ نهمُ الناب صرّار الأذن
أبيضُ فضفاض الرداء والبدَن ... رسول قَيْل العُجْم يسري للوسن
يجوبُ بي الأرضَ علنداةٌ شزن ... لا يَرهب الرعدَ ولا ريبَ الزمن
ترفعني وجنا وتهوي بي وجَن ... حتى أتى عاري الجآجي والقطن
تلفه في الريح بوغاءُ الدِّمن ... كأنما حثحث من حضني ثكن

قال فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول : عبد المسيح ، على جمل مشيح ، أتى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاس الايوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى إبلاً صعاباً ، تقود خيلاً عراباً ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادها ، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادي السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاماً . يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات وكل ما هو آت آت . ثم قضى سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول :

شَمِّرْ فإنك ماضي العزمِ شمّير ... لا يُفْزعنّك تفريق وتغيير
إن يمسِ مَلك بني ساسان أفرطهم ... فإن ذا الدهرَ أطوارٌ دهارير

فـربمـا ربمـا أضحَـوا بمنـزلـةٍ   يخاف صَولَهم الأسـدُ المهاصيـر
منهم أخـو الصَّرح بهرامٌ وإخـوتـه   والهـرْمُزانُ وشـابـورٌ وسـابـور
والنـاسُ أولاد عـلاتٍ فمن عَلمـوا   أنْ قـد أقـلَّ فمحقـورٌ ومهجـور
ورب قـومٍ لهم صحبـان ذي أذُن   بـدتْ تـلهِّيـهـمُ فيـه المـزاميـر
وهم بنـو الام إمـا إن رأوا نَشَبـاً   فـذاك بـالغيبِ محفـوظٌ ومنصـور
والخـيرُ والشرّ مقرونـان في قَرَنٍ   فـالخـير متَّـبَـع والشرّ محـذور

قال فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بما قال له سطيح ، فقال كسرى ألى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً كانت أمور وأمور ، فملك منهم عشرة في أربع سنين ، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه . ورواه البيهقي من حديث عبد الرحمن بن محمد بن إدريس عن علي بن حرب الموصلي بنحوه .

قلت : كان آخر ملوكهم ـ الذي سلب منه الملك يزدجرد بن شهريار بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان وهو الذي انشق الايوان في زمانه . وكان لأسلافه في الملك ثلاثة آلاف سنة ومائة وأربعة وستون سنة . وكان أول ملوكهم خيومرت بن أميم بن لاوذ بن سام بن نوح .

أما سطيح هذا فقال الحافظ ابن عساكر في تاريخه هو الربيع ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن بن الأزد . ويقال الربيع بن مسعود وأمه ردعا بنت سعد بن الحارث الحجوري وذكر غير ذلك في نسبه . قال وكان يسكن الجابية ثم روى عن أبي حاتم السجستاني قال سمعت المشيخة منهم أبو عبيلة وغيره قالوا وكان من بعد لقمان بن عاد . ولد في زمن سيل العرم وعاش إلى ملك ذي نواس وذلك نحو من ثلاثين قرناً وكان مسكنه البحرين وزعمت عبد القيس أنه منهم وتزعم الأزد أنه منهم وأكثر المحدثين يقولون هو من الأزد ولا ندري ممن هو غير أن ولده يقولون إنه من الأزد . وروي عن ابن عباس أنه قال : لم يكن شيء من بني آدم يشبه سطيحاً إنما كان لحماً على وضم ليس فيه عظم ولا عصب إلاَّ في رأسه وعينيه وكفيه وكان يطوي كما يطوى الثوب من رجليه إلى عنقه . ولم يكن فيه شيء يتحرك إلاَّ لسانه . وقال غيره إنه كان إذا غضب انتفخ وجلس . ثم ذكر ابن عباس أنه قدم مكة فتلقاه جماعة من رؤسائهم منهم عبد شمس وعبد مناف أبناء قصي فامتحنوه في أشياء فأجابهم فيها بالصدق ، فسألوه عما يكون في آخر الزمان . فقال خذوا مني ومن إلهام الله إياي : أنتم الآن يا معشر العرب في زمان الهرم سواء بصائركم وبصائر العجم ، لا علم عندكم ولا فهم ، وينشأ من عقبكم ذوو فهم ، يطلبون أنواع العلم فيكسرون الصنم ، ويتبعون الردم، ويقتلون العجم ، يطلبون الغنم . ثم قال والباقي الأبد ، والبالغ الأمد ليخرجن من ذا البلد ، نبي مهتد ، يهدي إلى الرشد ، يرفض يغوث والفند ، يبرأ عن عبادة الضدد ، يعبد رباً انفرد ، ثم يتوفاه الله بخير دار محموداً ، من الأرض مفقوداً ، وفي

السماء مشهوداً ، ثم يلي أمره الصديق إذا قضى صدق ، وفي رد الحقوق لا خرق ولا نزق ، ثم يلي أمره الحنيف ، مجرب غطريف ، قد أضاف المضيف ، وأحكم التحنيف . ثم ذكر عثمان ومقتله وما يكون بعد ذلك من أيام بني أمية ثم بني العباس . وما بعد ذلك من الفتن والملاحم ساقه ابن عساكر بسنده عن ابن عباس بطوله . وقد قدمنا قوله لربيعة بن نصر ملك اليمن حين أخبره برؤياه قبل أن يخبره بها ثم ما يكون في بلاد اليمن من الفتن وتغيير الدول حتى يعود إلى سيف بن ذي يزن فقال له : أفيدوم ذلك مّن سلطانه أم ينقطع ؟ قال بل ينقطع . قال ومن يقطعه ؟ قال نبي زكي يأتيه الوحي من قبل العلي قال وممن هذا النبي ؟ قال من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر قال وهل للدهر من آخر ؟ قال نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون . قال أحق ما تخبرني ؟ قال نعم والشفق والغسق والقمر إذا اتسق إن ما أنبأتك عليه لحق . ووافقه على ذلك شق سوآ بسواء بعبارة أخرى كما تقدم . ومن شعر سطيح قوله :

عليكم بتقوى اللّهِ في السرّ والجَهْرِ ... ولا تُلبِسوا صدْقَ الأمانة بالغَدْرِ
وكونوا لجارِ الجنْبِ حِصناً وجنة ... إذا ما عَرتهُ النائباتُ منَ الدهر

وروى ذلك الحافظ ابن عساكر ثم أورد ذلك المعافى بن زكريا الجريري فقال : وأخبار سطيح كثيرة وقد جمعها غير واحد من أهل العلم . والمشهور أنه كان كاهناً وقد أخبر عن النبي ﷺ وعن نعته ومبعثه . وروى لنا بإسناد الله به أعلم أن النبي ﷺ سئل عن سطيح فقال : « نبي ضيعه قومه » .

قلت : أما هذا الحديث فلا أصل له في شيء من كتب الإسلام المعهودة ولم أره بإسناد أصلاً . ويروى مثله في خبر خالد بن سنان العبسي ولا يصح أيضاً وظاهر هذه العبارات تدل على علم جيد لسطيح وفيها روائح التصديق لكنه لم يدرك الإسلام كما قال الجريري . فإنه قد ذكرنا في هذا الأثر أنه قال لابن أخته : يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادي السماوة وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليس الشام لسطح شاماً يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات وكل ما هو آت آت ثم قضى سطيح مكانه وكان ذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بشهر ـ أو شية ـ أي أقل منه ـ وكانت وفاته بأطراف الشام مما يلي أرض العراق ـ فالله أعلم بأمره وما صار إليه . وذكر ابن طرار الحريري أنه عاش سبعمائة سنة . وقال غيره خمسمائة سنة ، وقيل ثلاثمائة سنة فالله أعلم . وقد روى ابن عساكر أن ملكاً سأل سطيحاً عن نسب غلام اختلف فيه فأخبره على الجلية في كلام طويل مليح فصيح . فقال له الملك يا سطيح ألا تخبرني عن علمك هذا ؟ فقال إن علمي هذا ليس مني ولا بجزم ولا بظن ولكن أخذته عن أخ لي قد سمع الوحي بطور سيناء . فقال له أرأيت أخاك هذا الجني أهو معك لا يفارقك ، فقال انه ليزول حيث أزول ، ولا أنطق إلاّ بما يقول . وتقدم أنه ولد هو وشق بن مصعب بن يشكر بن رهم بن بسر بن

عقبة الكاهن الآخر ولدا في يوم واحد ، فحملا إلى الكاهنة طريفة بنت الحسين الحميدية فتفلت في أفواههما فورثا منها الكهانة وماتت من يومها . وكان نصف إنسان ويُقال إن خالد بن عبد الله القسري من سلالته ، وقد مات شق قبل سطيح بدهر .

وأما عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن نفيلة الغساني النصراني فكان من المعمرين وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه وقال هو الذي صالح خالد بن الوليد على . . وذكر له معه قصة طويلة وأنه أكل من يده سم ساعة فلم يصبه سوء لأنه لما أخذه قال : بسم الله وبالله رب الأرض والسماء الذي لا يضر مع اسمه أذى . ثم أكله فعلته غشية فضرب بيديه على صدره ثم عرق وأفاق رضي الله عنه وذكر لعبد المسيح أشعاراً غير ما تقدم .

وقال أبو نعيم : حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن ، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبه حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا المسيب بن شريك حدثنا محمد بن شريك عن شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده . قال : كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعى عيصا من أهل الشام وكان متخفراً بالعاص بن وائل وكان الله قد آتاه علماً كثيراً وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة من طيب ورفق وعلم . وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة في كل سنة فيلقى الناس ويقول إنه يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة يدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه ومن أدركه واتبعه أصاب حاجته ومن أدركه فخالفه أخطأ حاجته وبالله ما تركت أرض الخمر والخمير والأمن ولا حللت بأرض الجوع والبؤس والخوف إلا في طلبه وكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه فيقول ما جاء بعد . فيقال له فصفه فيقول لا . ويكتم ذلك للذي قد علم أنه لاقٍ من قومه مخافة على نفسه أن يكون ذلك داعية إلى أدنى ما يكون إليه من الأذى يوماً . ولما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبد الله بن عبد المطلب حتى أتى عيصا فوقف في أصل صومعته ثم نادى : يا عيصاه . فناداه من هذا ؟ فقال أنا عبد الله فأشرف عليه فقال كن أباه فقد ولد المولود الذي كنت أحدثكم عنه يوم الاثنين ويبعث يوم الاثنين ويموت يوم الاثنين قال فإنه قد ولد لي مع الصبح مولود . قال فما سميته ؟ قال محمداً قال والله لقد كنت أشتهي أن يكون هذا المولود فيكم أهل البيت لثلاث خصال نعرفه بها منها أن نجمه طلع البارحة وأنه ولد اليوم وأن اسمه محمد . انطلق إليه فإن الذي كنت أخبركم عنه ابنك . قال فما يدريك أنه ابني ولعله أن يولد في هذا اليوم مولود غيره ؟ قال قد وافق ابنك الاسم ولم يكن الله ليشبه علمه على العلماء فإنه حجة . وآية ذلك أنه الآن وجع فيشتكي أياماً ثلاثة ، فيظهر به الجوع ثلاثاً ثم يعافى . فاحفظ لسانك فإنه لم يحسد أحد حسده قط ولم يُبغ على أحد كما يُبغى عليه . إن تعش حتى يبدو مقاله ثم يدعو لظهر لك من قومك ما لا تحتمله إلا على صبر وعلى ذلك فاحفظ لسانك ودار عنه قال فما عمره ؟ قال إن طال عمره وإن قصر لم يبلغ السبعين ، يموت في وتردونها من الستين في إحدى وستين أو ثلاث وستين في أعمار جل أمته . قال

وحمل برسول الله ﷺ في عاشر المحرم . وولد يوم الاثنين لثنتي عشرة خلت من رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل .

هكذا رواه أبو نعيم وفيه غرابة .

حواضنه ومراضعه عليه الصلاة والسلام

كانت أم أيمن واسمها بركة تحضنه ، وكان قد ورثها عليه الصلاة والسلام من أبيه فلما كبر أعتقها وزوجها مولاه زيد بن حارثة[1] ، فولدت له أسامة بن زيد رضي الله عنهم . وأرضعته مع أمه عليه الصلاة والسلام مولاة عمه أبي لهب ثويبة[2] قبل حليمة السعدية . أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما[3] من حديث الزهري عن عروة بن الزبير عن زينب بنت أم سلمة[4] عن أم حبيبة بنت أبي سفيان . قالت : يا رسول الله أنكح أختي بنت أبي سفيان ـ ولمسلم عزة بنت أبي سفيان ـ . فقال رسول الله ﷺ : « أو تحبين ذلك ؟ » قلت نعم ! لست لك بمخلية ، وأحب من شاركني في خير أختي . فقال النبي ﷺ : « فإن ذلك لا يحل لي » قالت فإنا نحدث انك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة ـ وفي رواية درة بنت أبي سلمة قال : « بنت أم سلمة ؟ » قلت نعم قال : « إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي . إنها لابنة أخي من الرضاعة . أرضعتني وأبا سلمة ثويبة . فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا اخواتكن » زاد البخاري قال عروة . وثويبة مولاة لأبي لهب أعتقها فارضعت رسول الله ﷺ . فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر خيبة[5] . فقال له ماذا لقيت ؟ فقال أبو لهب لم ألق بعدكم خيراً غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة ـ وأشار إلى النقرة[6] التي بين الابهام والتي تليها من الأصابع ـ .

وذكر السهيلي وغيره : أن الرائي له هو أخوه العباس . وكان ذلك بعد سنة من وفاة أبي لهب بعد وقعة بدر . وفيه أن أبا لهب قال للعباس إنه ليخفف عليّ في مثل يوم الاثنين . قالوا لأنه لما بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله أعتقها من ساعته فجوزي بذلك لذلك .

---

(١) في طبقات ابن سعد ج ٨/٢٢٣ أن أم أيمن تزوجت عبيد بن زيد من بني الحارث بن الخزرج فولدت له أيمن ، وقتل يوم حنين ثم تزوجت زيد بن حارثة ، مولى خديجة ، بعد النبوة ، فولدت له أسامة .

(٢) وهي أول من أرضع رسول الله ﷺ بلبن ابن لها يقال له مسروح وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب وبعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ـ وقيل معه ـ .

(٣) البخاري ـ كتاب النكاح ـ باب وامهاتكم اللاتي أرضعنكم . . . وباب : وربائبكم اللاتي في حجوركم ومسلم في ١٧ كتاب الرضاع (٤) باب تحريم الربيبة ح ١٦ ص ١٠٧٣ .

(٤) زينب بنت أبي سلمة ـ وأمها أم سلمة ـ .

(٥) في البخاري ودلائل البيهقي : حيبة .

(٦) في البيهقي : النقير وفي ابن سعد النقيرة .

رضاعه عليه الصلاة والسلام
من حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية وما ظهر عليه من البركة وآيات النبوة

قال محمد بن إسحاق : فاسترضع لـه عليه الصـلاة والسلام من حليمـة بنت أبي ذؤيب ، واسمه عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة[1] بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصـور بن عكرمـة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر قال واسم أبي رسـول الله ﷺ الذي أرضعـه - يعني زوج حليمة الحارث بن عبد العزى بن رفـاعة بن مـلان بن ناصـرة[1] بن سعد بن بكـر بن هوازن[2] . وأخوته عليه الصلاة والسلام - يعني من الرضاعـة - عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث وحذافة[3] بنت الحارث وهي الشيماء وذكروا[4] أنها كانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمه إذا كان عندهم .

قال ابن إسحاق : حدثني جهم بن أبي جهم مولى [لامرأة من بني تميم كانت عند الحارث ابن حاطب، ويقال له مولى الحارث بن حاطب][5] . قال حدثني من سمع عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال حدثت عن حليمة بنت الحارث أنها قالت ! قدمت مكة في نســوة وذكر الـواقدي بإسناده انهن كن عشرة نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسن بها الـرضعاء من بني سعد نلتمس بها الرضعاء في سنـة شهباء فقـدمت على أتـان لي قمراء كـانت أذمّت بالـركب[6] ومعي صبي[7] لنا وشارف لنا والله ما تبض بقطرة . وما ننام ليلتنا ذلك أجمع[8] مع صبينا ذاك ما نجد في ثديي مـا

---

(١) في ابن هشام : ابن ناصرة.ابن قصية بن نصر وفي الطبري باسقاط نصر وفي السهيلي فصية بالفاء . (الروض الأنف - الطبقات - الطبري - شرح السيرة) .

(٢) قدم الحارث على رسول الله ﷺ بمكة حين أنزل عليه القرآن ، فأتاه فقال : أي بني مالك ولقـومك يشكـونك ويـزعمون أنـك تقـول : إن النـاس يبعثـون بعـد المـوت ثم يصيـرون إلى جنـة ونـار . . . ثم أسلم وحسن إسلامه . . . (الإصابة - الروض الأنف) .

(٣) في الإصابة : خذامة ، وفي الطبري جذامة والطبقات : جدامة .

(٤) الطبري - ابن هشام في السيرة - الطبقات .

(٥) ما بين معقوفين ليس في ابن هشام ، وهذا ما عودنا عليه ابن كثير في نقله عن ابن هشام وغيره ؛ فإنه يلخص المعنى بعبارته فيزيد ويحذف ولا يلتزم النص إلا قليلاً ، وأحياناً كثيرة يخلط نقله بما يفسد المعنى .

(٦) في ابن هشام : ادّمت وفي الطبري اذّمت .

قال أبو ذر في شرح السيرة : أدمت أي أطلت عليهم المسافة لتمهلهم عليهـا . وأذمت ، ويروى أذمت : أي أعيت وتخلف بالركب بسببها ولم تستطع اللحاق به .

(٧) وهو عبد الله بن الحارث ، وكانت ترضعه (الطبقات ٨/ ١١٠).

(٨) في ابن هشام والطبري : وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا = معي = من بكائه من الجوع .

يغنيه ولا في شارفنا ما يغذيه . ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج . فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً . فقدمنا مكة فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل إنه يتيم ، تركناه . قلنا ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ؟ إنما نرجو المعروف من أبي الولد ، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع الينا ، فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري . فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع . لانطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . فقال لا عليك أن تفعلي فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة . فذهبت فأخذته فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره ، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلي فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن . فشرب حتى روي وشرب أخوه حتى روي . وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل ، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا . فبتنا بخير ليلة . فقال صاحبي حين أصبحنا : يا حليمة والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة . ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه . فلم يزل الله عزّ وجلّ يزيدنا خيراً . ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فوالله لقطعت أتاني بالركب حتى ما يتعلق بها حمار حتى أن صواحبي ليقلن : ويلك يا بنت أبي ذؤيب هذه أتانك التي خرجت عليها معنا ؟ فأقول نعم والله إنها لهي فقلن والله إن لها لشأناً . حتى قدمنا أرض بني سعد . وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً فتحلب ما شئنا وما حوالينا أو حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن وإن أغنامهم لتروح جياعاً حتى إنهم ليقولون لرعائهم ـ أو لرعيانهم ـ ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم . فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فتروح أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن وتروح أغنامي شباعاً لبناً نحلب ما شئنا . فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين فكان يشب شباباً لا تشبّه الغلمان . فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً[1] فقدمنا به على أمه ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة . فلما رأته أمه قلت لها دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى فإنا نخشى عليه وباء[2] مكة . فوالله ما زلنا بها حتى قالت نعم . فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة[3] . فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة في بهم لنا جاء أخوه ذلك يشتد ، فقال ذاك أخي القرشي جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه . فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائماً منتقعاً لونه . فاعتنقه أبوه وقال يا بني ما شأنك ؟ قال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض أضجعاني وشقا بطني ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان فرجعنا به معنا . فقال أبوه يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقي بنا نرده

---

(١) الجفر : الغليظ الشديد ، هنا استجفر أي قوي على الأكل .

(٢) كذا في الأصل وابن هشام والطبري . والوبأ يهمز ويقصر والوباء بالمد : الطاعون .

(٣) في ابن هشام والطبري وابن سيد الناس : بأشهر .

والبهم : الصغار من الغنم واحدتها بهمة .

إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف . قالت حليمة فاحتملناه فلم ترع أمه إلاّ به . فقدمنا به عليها فقالت ماردكمـا به يا ظئر ؟ فقـد كنتما عليـه حريصـين ؟ فقالا لا والله إلاّ أن الله قـد أدى عنا ، وقضينا الذي علينا ، وقلنا نخشى الاتلاف والأحداث نرده إلى أهله . فقالت ما ذاك بكما فاصدقاني شأنكما ؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره ، فقالت أخشيتما عليه الشيطان ، كلا والله ما للشيـطان عليه من سبيل . والله إنه لكائن لابني هذا شأن ألا أخبركما خبره ؟ قلنا بلى ! قالت حملت به فما حملت حملاً قط أخف [عليّ] منه فأريت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نـور أضاءت لـه قصور الشام ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود ، معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء ، فدعاه عنكما . وهذا الحديث قد روي من طرق أخر وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي[1] .

وقال الواقدي : حدثني معاذ بن محمد عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال خـرجت حليمة تطلب النبي ﷺ وقد وجدت البهم تقيل فوجدته مع أخته فقالت في هذا الحر ؟ فقالت أخته يا أمه ما وجد أخي حراً . رأيت غمامة تظلل عليه إذا وقف وقفتْ وإذا سار سارتْ حتى انتهى إلى هذا الموضع .

وقال ابن إسحاق : حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسـول الله ﷺ أنهم قالوا له أخبرنا عن نفسك . قـال : « نعم أنا دعـوة أبي إبراهيم ، وبشـرى [أخي] عيسى عليهـما السـلام ، ورأت أمي حـين حملت بي أنـه خـرج منهـا نـور أضـاءت لـه قصـور الشـام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر ، فبينا أنا [مع أخٍ لي] في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً ، فأضجعاني فشقا بطني ، ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها . ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج ، حتى إذا ألقياه[2] رداه كـما كان ، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم ، ثم قال زنه بمائة من أمته فوزنني بمائة فوزنتهم. ثم قال زنه بألف من أمته فوزنني بألف فوزنتهم ، فقال دعه عنك ، فلو وزنته بأمته لوزنهم » وهذا إسناد جيد قوي[3] .

---

(١) ورد حادث شق الصدر في كتب السيرة ، فقد رواه ابن هشام في السيرة (١/١٧٦) طبقات ابن سعد (١/١١٢) دلائل النبوة لأبي نعيم (١/١١١) دلائل النبوة للبيهقي ١/١٣٥ ـ ١٣٦ الخصـائص الكبرى للسيـوطي (١/٥٤).

وقد أشار له أصحاب التفاسير في تفسير قوله عز وجل ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ .

وفي الأحاديث أن حادثة شق الصدر هذه تكررت ، لما أصبح عمره ﷺ عشر سنين ، ولما جاوز ﷺ الخمسين من عمره (راجع أحمد ـ ابن حبان ـ ابن عسـاكر ـ مسلم ـ الحاكم) .

(٢) في الطبري وابن هشام : أنقياه .

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل ج ١/١٤٦ والطبري ج ١/١٢٨ والحـاكم في المستدرك ٢/٦٠٠ وقـال : صحيح ،

وقد روى أبو نعيم الحافظ في الدلائل من طريق عمر بن الصبح وهو أبو نعيم عن ثـور بن يزيد عن مكحول عن شداد بن أوس هذه القصة مطولة جـداً ولكن عمر بن صبـح هذا متروك كذاب متهم بالوضع . فلهذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يفرح به ثم قال : وحدثنـا أبو عمـرو بن حمدان حدثنا الحسن بن نفير حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا بقية بن الوليد عن بحير بن سـعيد عن خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي عن عتبة بن عبد الله[1] أنه حدثه أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟ قال : « كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر فانطلقت أنا وابنٌ لها في بهم لنا ولم نأخذ معنا زاداً فقلت يا أخي اذهب فائتنـا بزاد من عنـد أمنا فانطلق أخي ومكث عند البهم فأقبل [إلي] طائران أبيضان كأنهما نسـران ، فقال أحدهما لصاحبه أهو هو ؟ فقال نعم ! فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للقفا فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه . فأخرجا منه علقتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه ائتني بماء ثلج فغسلا به جوفي ثم قال ائتني بماء بردٍ فغسـلا به قلبي ثم قال ائتني بالسكينة فذرهـا[2] في قلبي ثم قال أحدهما لصـاحبه خطه فخاطه وختم على قلبي بخاتم النبوة ، فقال أحدهما لصاحبه اجعله في كفة واجعل ألفاً من أمته في كفة ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي اشفق أن يخر عليَّ بعضهم . فقال لو أن أمته وزنت بـه لمال بهم ثم انطلقا فتركاني وفرقت فرقاً شديداً ، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتهـا بالـذي لقيت فأشفقت أن يكون قد لبس[3] بي فقالت أعيذك بالله . فرحلت بعيراً لها ، وحملتني على الرحـل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي ، فقالت أديت أمانتي وذمتي وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها . وقالت «إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام » ورواه أحمد من حديث بقية بن الوليد به . وهكذا رواه عبد الله بن المبارك وغيره عن بقية بن الوليد به . وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي داود الطيالسي حدثنا جعفر بن عبد الله بن عثمان القرشي أخبرني عمير بن عمر بن عروة بن الزبير . قال سمعت عروة بن الزبير يحدث عن أبي ذر الغفاري قال : قلت يا رسول الله : كيف علمت أنك نبي حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبي ؟ قال: « يا أبا ذر أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة وقع أحدهما على الأرض ، وكان الآخر بين السماء والأرض فقال أحدهما لصاحبه أهو هو ؟ قال هو هو . قال

= الإسناد ، ولم يخرجاه . وأقره الذهبي . وهو في السيرة ١٧٧/١ وما بين معقوفين في الحديث زيادة من ابن هشام والطبري .

ثور بن يزيد الكلاعي أبو خالد الحمصي أحد الحفاظ العلماء مات سنة ١٥٣ هـ وقيل سنة ١٥٥ هـ .

وخالد بن معدان بن أبي كريب الكلاعي أبو عبد الله الشامي الحمصي توفي سنة ١٠٣ وقيل غير ذلك .

(تراجم الرجال ـ تهذيب التهذيب) .

(١) في دلائل البيهقي : عتبة بن عبد .

(٢) في البيهقي : فذراها .

(٣) في البيهقي : التبس بي : اي اصابني مسّ .

زنه برجل فوزنني برجل فرجحته » وذكر تمامه ، وذكر شق صدره وخياطته وجعل الخاتم بين كتفيه قال : « فما هو إلّا أن ولياً عني فكأنما أعاين الأمر معاينة » ثم أورد ابن عساكر عن أبي بن كعب بنحو ذلك . ومن حديث شداد بن أوس بأبسط من ذلك . وثبت في صحيح مسلم[1] من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء فعال هذا حظ الشيطان [منك] ، ثم غسله في طشت من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون . قال أنس وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره . وقد رواه ابن عساكر من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن عبد ربه بن سعيد عن ثابت البناني عن أنس أن الصلاة فرضت بالمدينة ، وأن ملكين أتيا رسول الله ﷺ فذهبا به إلى زمزم فشقا بطنه فأخرجا حشوته في طشت من ذهب فغسلاه بماء زمزم ثم لبسا جوفه حكمة وعلماً . ومن طريق ابن وهب أيضاً عن يعقوب بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عبد الرحمن بن عامر بن عتبة بن أبي وقاص عن أنس قال : أتى رسول الله ﷺ ثلاث ليال قال خلوا خيرهم وسيدهم ، فأخذوا رسول الله ﷺ فعمد به إلى زمزم فشق جوفه ثم أتى بتور من ذهب فغسل جوفه ثم ملىء حكمة وإيماناً . وثبت من رواية سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس . وفي الصحيحين من طريق شريك [بن عبد الله] بن أبي نمر عن أنس وعن الزهري عن أنس عن أبي ذر وقتادة عن أنس وعن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ في حديث الاسراء كما سيأتي قصة شرح الصدر ليلتئذ وإنه غسل بماء زمزم ، ولا منافاة لاحتمال وقوع ذلك مرتين مرة وهو صغير ومرة ليلة الاسراء ليتأهب للوفود إلى الملأ الأعلى ولمناجاة الرب عز وجلّ والمثول بين يديه تبارك وتعالى[2] .

وقال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه : « أنا أعربكم ، أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر » وذكر ابن إسحاق : أن حليمة لما أرجعته إلى أمه بعد فطامه مرت به على ركب من النصارى[3] فقاموا إليه عليه الصلاة والسلام فقبلوه وقالوا إنا سنذهب بهذا

---

(١) أخرجه بطوله الحاكم في المستدرك ٢/٦١٦ - ٦١٧ وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . والامام أحمد في مسنده ٣/١٤٩ . و ٤/١٨٤ وأخرجه مسلم في صحيحه في ١ كتاب الايمان (٧٤) باب الاسراء برسول الله ﷺ ح ٢٦١ ص (١/١٤٧) . وأخرجه البيهقي في الدلائل ج ٢/٥ وما بعدها .
لأمه : جمعه وضم بعضه إلى بعض .
ظئره : أي مرضعته .
المخيط : هي الأبرة ؛ وفي رواية بقية حصه فحاصه . قال أبو الفضل (أحد الرواة) يحصه : يخيطه .

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ج ٢/١٣٦ - ١٣٧ .

(٣) في دلائل البيهقي : أن أمه التي ترضعه نزلت به سوق عكاظ ، فرآها كاهن من الكهان فقال : يا أهل عكاظ =

الغلام إلى ملكنا فإنه كائن له شأن فلم تكد تنفلت منهم إلاّ بعد جهد . وذكر أنها لما ردته حين تخوفت عليه أن يكون أصابه عارض ، فلما قربت من مكة افتقدته فلم تجده فجاءت جده عبد المطلب فخرج هو وجماعة في طلبه ، فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش فأتيا به جده ، فأخذه على عاتقه وذهب فطاف به يعوذه ويدعو له ثم رده إلى أمه آمنة .

وذكر الأموي من طريق عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي ـ وهو ضعيف ـ عن الزهري عن سعيد بن المسيب قصة مولده عليه الصلاة والسلام ورضاعه من حليمة على غير سياق محمد بن إسحاق . وذكر أن عبد المطلب أمر ابنه عبد الله أن يأخذه فيطوف به في أحياء العرب ليتخذ له مرضعة فطاف حتى استأجر حليمة على رضاعه وذكر أنه أقام عندها ست سنين تزيره جده في كل عام فلما كان من شق صدره عندهم ما كان ردته إليهم فأقام عند أمه حتى كان عمره ثماني سنين ماتت فكفله جده عبد المطلب فمات وله عليه الصلاة والسلام عشر سنين ، فكفله عماه شقيقا أبيه الزبير وأبو طالب ، فلما كان له بضع عشرة سنة خرج مع عمه الزبير إلى اليمن . فذكر أنهم رأوا منه آيات في تلك السفرة منها أن فحلاً من الابل كان قد قطع بعض الطريق في واد ممرهم عليه فلما رأى رسول الله ﷺ برك حتى حك بكلكله الأرض فركبه عليه الصلاة والسلام . ومنها أنه خاض بهم سيلاً عرماً فأيبسه الله تعالى حتى جاوزوه ثم مات عمه الزبير وله أربع عشرة سنة فانفرد به أبو طالب .

والمقصود أن بركته عليه الصلاة والسلام حلت على حليمة السعدية وأهلها وهو صغير ثم عادت على هوازن بكمالهم فواضله حين أسرهم بعد وقعتهم ، وذلك بعد فتح مكة بشهر . فمتوا إليه برضاعه فأعتقهم وتحنن عليهم وأحسن إليهم كما سيأتي مفصلاً في موضعه إن شاء الله تعالى .

قال محمد بن إسحاق : في وقعة هوازن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده [عبد الله بن عمرو] . قال : كنا مع رسول الله ﷺ بحنين فلما أصاب من أموالهم وسباياهم أدركه وفد هوازن بالجعرانة وقد أسلموا ، فقالوا يا رسول الله إنا أهل[1] وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا منَّ الله عليك . وقام خطيبهم زهير بن صرد[2] فقال : يا رسول الله إن ما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك[3] اللاتي كن يكفلنك ، فلو أنا ملحنا[4] ابن أبي شمر ، أو

= اقتلوا هذا الغلام ، فإن له ملكاً ، فزاغت به أمه التي ترضعه ، فأنجاه الله تعالى ، ١/ ٨٨ .

(١) في سيرة ابن هشام : إنا أصلٌ وعشيرة .

(٢) كذا في الأصل ودلائل البيهقي وطبقات ابن سعد ، وهو زهير يكنى أبو صرد كما في سيرة ابن هشام . وفي الواقدي ٣/ ٩٥٠ : أبو صرد زهيَر بن صرد وفي هامش السيرة الحلبية أبو صرد ويكنى أبو برقان ج ٢ /٣٠٧ .

(٣) حواضنك : النساء اللاتي أرضعنك ، فحاضنة الرسول ﷺ من بني سعد بن بكر وهم من هوازن .

(٤) ملحنا : وفي رواية مالحنا ، يعني أرضعنا ، وابن أبي شمر هو الحارث الغساني ملك الغساسنة .

النعمان بن المنذر ثم أصابنا منها مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتها وعطفها ، وأنت خير المكفولين . ثم أنشد :

أُمننْ علينا رسولَ الله في كَرَم ... فإنك المرءُ نرجوهُ وندّخرُ
امننْ على بيضةٍ قد عاقَها قَدَر ... ممزّق شَمْلُها في دهرها غِيَر
أبقت لنا الدهرَ هتّافاً على حَزَن ... على قلوبهم الغَمّاءُ والغمر
إن لم تَداركْها نعماءُ تنشرُها ... يا أرجحَ الناس حِلماً حين يُختبر
امنن على نسوةٍ قد كنتَ تَرضعُها ... إذ فوكَ يملأه من محضها دُرر(١)
امنن على نسوةٍ قد كنتَ تَرْضَعها ... وإذ يَزينُك ما تأتي وما تذَر(٢)
لا تجعلَنّا كمن شالت نَعامتُه ... واستبْقِ منّا فإنا معشر زُهُر(٣)
إنا لنشكر للنّعمى وإن كفرتْ ... وعندَنا بعدَ هذا اليومِ مدّخر

وقد رويت هذه القصة من طريق عبيد الله بن رماحس الكلبي الرملي عن زياد بن طارق الجشمي عن أبي صرد زهير بن جرول ـ وكان رئيس قومه ـ قال لما أسرنا رسول الله ﷺ يوم حنين فبينا هو يميز بين الرجال والنساء وثبتُ حتى قعدت بين يديه وأسمعته شعراً ، أذكره حين شب ونشأ في هوازن حيث أرضعوه :

امننْ علينا رسولَ الله في دعةٍ ... فانك المرءُ نرجوهُ وننتظر
امنن على بيضة قد عاقها قدر ... ممزق شملها في دهرها غير
أبقت لنا الحرب هتافاً على حزن ... على قلوبهم الغماء والغمر
إن لم تداركها نعماء تنشرها ... يا أرجح الناس حلماً حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك تملأه من محضها الدرر
إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتي وما تذر
لا تجعلنا كمن شالت نعامته ... واستبق منا فإنا معشر زهر
إنا لنشكر للنعمى وإن كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
فألبسِ العفو مَن قد كنتَ تَرضعَه ... من أمهاتِكَ إن العفوَ مشتَهر
إنّا نؤمّل عفواً منك تُلبسه ... هذي البريّةَ إذ تعفو وتنتصر
فاغفرْ عفا الله عما أنتَ راهبُه ... يومَ القيامة إذ يُهدى لك الظَفَر

---

(١) في دلائل البيهقي : مخضها الدرر . وفي الواقدي : محضها الدرر وفيه مملوءة بدل يملأه .

(٢) صدره في الواقدي : اللاتي إذ كنت طفلاً كنت ترضعها .

(٣) شالت نعامته : أي تفرقت كلمتهم أو ذهب عزهم (القاموس المحيط) .

قال[1] فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لله ولكم » فقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لله ولرسوله ﷺ . وسيأتي أنه عليه الصلاة والسلام أطلق لهم الذرية وكانت ستة آلاف ما بين صبي وامرأة ، وأعطاهم أنعاماً وأناسي كثيراً . حتى قال أبو الحسين بن فارس فكان قيمة ما أطلق لهم يومئذٍ خمسمائة ألف ألف درهم . فهذا كله من بركته العاجلة في الدنيا ، فكيف ببركته على من اتبعه في الدار الآخرة .

فصل

قال ابن إسحاق : بعد ذكر رجوعه عليه الصلاة والسلام إلى أمه آمنة بعد رضاعة حليمة له . فكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب ، وجده عبد المطلب في كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب .

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن أم رسول الله ﷺ آمنة توفيت وهو ابن ست سنينٍ بالابواء بين مكة والمدينة ، كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تزيره إياهم . فماتت وهي راجعة به إلى مكة[2] . وذكر الواقدي بأسانيده أن النبي ﷺ خرجت به أمه إلى المدينة ومعها أم أيمن وله ست سنين ، فزارت أخواله . قالت أم أيمن فجاءني ذات يوم رجلان من يهود المدينة فقالا لي أخرجي إلينا أحمد ننظر إليه ، فنظر إليه وقلباه فقال أحدهما لصاحبه هذا نبي هذه الأمة وهذه دار هجرته ، وسيكون بها من القتل والسبي أمر عظيم . فلما سمعت أمه خافت وانصرفت به ، فماتت بالابواء وهي راجعة . وقد قال الإمام أحمد[3] حدثنا حسين بن محمد حدثنا أيوب بن جابر عن سماك عن القاسم بن عبد الرحمن عن ابن بريدة عن أبيه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بِوَدَّان قال : « مكانكم حتى آتيكم » فانطلق ثم جاءنا وهو ثقيل ، فقال : « إني أتيت قبر أم محمد فسألت ربي الشفاعة - يعني لها - فمنعنيها ، وإني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، وكنت نهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاثة أيام فكلوا وامسكوا ما بدا لكم ، ونهيتكم عن الأشربة في هذه الأوعية فاشربوا ما بدا لكم » وقدْ رواه البيهقي[4] من طريق سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد[5] عن سليمان بن بريدة

---

(١) قال رسول الله ﷺ : نساؤكم وابناؤكم أحب إليكم ، أم أموالكم ؟ فقالوا : خيرتنا . . . أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا (ابن هشام - دلائل البيهقي) .

(٢) وفي رواية للطبري : أن قبر آمنة في شعب أبي ذر بمكة . وفي معجم البلدان شعب أبي دب قال : يقال فيه مدفن آمنة بنت وهب أم الرسول ﷺ . وفيه أيضاً أن قبرها بالابواء . وقال أبو عمر بن عبد البر : وقيل ابن سبع سنين وقال محمد بن حبيب : توفيت أمه وهو ابن ثماني سنين . . . (ابن سيد الناس) .

(٣) مسند أحمد ج ٥/٣٥٧ .

(٤) دلائل النبوة ج ١/١٨٩ .

(٥) في الدلائل وطبقات ابن سعد : علقمة بن مرثد .

عن أبيه قال : انتهى النبي ﷺ إلى رسم قبر فجلس وجلس الناس حوله ، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب ثم بكى فاستقبله عمر فقال ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال : « هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي ، واستأذنته في الاستغفار لها فأبى عليّ ، وأدركتني رقتها فبكيت » . قال فما رُئيت ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة . تابعه محارب بن دثار عن بريدة عن أبيه . ثم روى البيهقي(١) عن الحاكم عن الأصم عن بحر بن نصر عن عبد الله بن وهب حدثنا ابن جريج عن أيوب بن هاني عن مسروق بن الأجدع عن عبد الله بن مسعود . قال : خرج رسول الله ﷺ ينظر في المقابر ، وخرجنا معه ، فأمرنا فجلسنا ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها ـ فناجاه طويلاً ثم ارتفع نحيب رسول الله ﷺ باكياً فبكينا لبكاء رسول الله ﷺ ثم إن رسول الله ﷺ أقبل إلينا(٢) فتلقاه عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله ما الذي أبكاك ؟ لقد أبكانا وأفزعنا . فجاء فجلس إلينا فقال : « افزعكم بكائي » ؟ قلنا نعم ! قال : « إن القبر الذي رأيتموني أناجي قبر آمنة بنت وهب ، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي ، واستأذنت ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي فيه ، ونزل عليّ : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه أن إبراهيم لأوّاه حليم ﴾(٣) فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة فذلك الذي أبكاني » غريب ولم يخرجوه . وروى مسلم(٤) عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمد بن عبيد عن يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال : « استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي ، فزوروا القبور تذكركم الموت » . وروى مسلم(٥) عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفان عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله أين أبي ؟ قال : « في النار » فلما قفا دعاه فقال : « إن أبي وأباك في النار » . وقد روى البيهقي(٦) من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين عن إبراهيم بن سعد عن الزهري عن عامر بن سعد عن أبيه . قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال إن أبي كان يصل الرحم ، وكان ، وكان ، فأين هو ؟ قال : « في النار » قال فكأن الأعرابي وجد من ذلك ، فقال يا رسول الله أين أبوك ؟ قال : « حيثما مررت

---

(١) دلائل النبوة ج ١٨٩/١ عن أبي عبد الله الحافظ عن أبي العباس محمد بن يعقوب .

(٢) في الدلائل : إلينا

(٣) سورة التوبة الآيتان ١١٣ ـ ١١٤ .

(٤) ١١ كتاب الجنائز ٣٦ باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه ح ١٠٥ ـ ١٠٦ ص ٦٧١ . وأخرجه النسائي في كتاب الجنائز . وابن ماجه وعند الترمذي بعضه .

(٥) كتاب الايمان ١ ـ ٨٨ باب ح ٣٤٧ ص ١٩١ . وأخرجه ابن حبان في صحيحه .

(٦) دلائل النبوة ج ١٩١/١ .

قبر كافر فبشره بالنار » قال فأسلم الأعرابي بعد ذلك . فقال : لقد كلفني رسول الله ﷺ تعباً ، ما مررت بقبر كافر إلاّ بشرته بالنار . غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه[1] . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا سعيد ـ هو ابن أبي أيوب ـ حدثنا ربيعة بن سيف المعافري عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو . قال بينما نحن نمشي مع رسول الله ﷺ إذ بصر بامرأة لا يظن أنه عرفها ، فلما توسط الطريق وقف حتى انتهت إليه ، فإذا فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال : « ما أخرجك من بيتك يا فاطمة ؟ فقالت أتيت أهل هذا البيت فترحمت إليهم ميتهم وعزيتهم . قال : « لعلك بلغت معهم الكدى »[2] قالت معاذ الله أن أكون بلغتها معهم وقد سمعتك تذكرني في ذلك ما تذكر[3] . قال : « لو بلغتيها معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك » ثم رواه أحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي[4] من حديث ربيعة بن سيف بن مانع المعافري الصنمي الأسكندري وقد قال البخاري عنده مناكير . وقال النسائي : ليس به بأس وقال مرة صدوق ، وفي نسخة ضعيف . وذكره ابن حبان في الثقات وقال كان يخطىء كثيراً . وقال الدارقطني صالح . وقال ابن يونس في تاريخ مصر في حديثه مناكير توفي قريباً من سنة عشرين ومائة ، والمراد بالكدى القبور ـ وقيل النوح ـ .

والمقصود أن عبد المطلب مات على ما كان عليه من دين الجاهلية خلافاً لفرقة الشيعة فيه وفي ابنه أبي طالب على ما سيأتي في وفاة أبي طالب ، وقد قال البيهقي ـ بعد روايته هذه الأحاديث في كتابه دلائل النبوة : وكيف لا يكون أبواه وجده عليه الصلاة والسلام بهذه الصفة في الآخرة وقد كانوا يعبدون الوثن ، حتى ماتوا ولم يدينوا دين عيسى بن مريم عليه السلام ، وكفرهم لا يقدح في نسبه عليه الصلاة والسلام لأن انكحة الكفار صحيحة . ألا تراهم يسلمون مع زوجاتهم فلا يلزمهم تجديد العقد ولا مفارقتهن إذا كان مثله يجوز في الإسلام وبالله التوفيق . انتهى كلامه .

قلت : واخباره ﷺ عن أبويه وجده عبد المطلب بأنهم من أهل النار لا ينافي الحديث الوارد عنه من طرق متعددة أن أهل الفترة والأطفال والمجانين والصم يمتحنون في العرصات يوم القيامة ، كما بسطناه سنداً ومتناً في تفسيرنا عند قوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ فيكون منهم من يجيب ومنهم من لا يجيب . فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب فلا منافاة ولله الحمد والمنة .

---

(١) أخرجه في مجمع الزوائد عن الطبراني في الكبير وقال : رجاله رجال الصحيح .

(٢) الكدى : المقابر .

(٣) إشارة إلى حديث أخرجه أصحاب السنن : قال ﷺ : لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج .

(٤) مسند أحمد ٢ /١٦٩ ، أبو داود في الجنائز ٣/٢٦١ ، النسائي ٤/٢٧ وقال : أبو عبد الرحمن ضعيف واستدركه الحاكم (١/٣٧٣).

وأما الحديث الذي ذكره السهيلي وذكر أن في إسناده مجهولين إلى ابن أبي الزناد عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يحيي أبويه ، فأحياهما وآمنا به ، فإنه حديث منكر جداً . وإن كان ممكناً بالنظر إلى قدرة الله تعالى . لكن الذي ثبت في الصحيح يعارضه والله أعلم .

فصل

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم ـ يعني بعد موت أمه آمنة بنت وهب ـ فكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له . قال : فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر ، حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه . فيقول عبد المطلب ، إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني ، فوالله إن له لشأناً ، ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع . وقال الواقدي : حدثني محمد بن عبد الله عن الزهري وحدثنا عبد الله بن جعفر عن عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله . وحدثنا هاشم بن عاصم الأسلمي عن المنذر بن جهم . وحدثنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد . وحدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز عن أبي الحويرث . وحدثنا ابن أبي سبرة عن سليمان بن سحيم عن نافع عن ابن جبير ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ قالوا : كان رسول الله ﷺ يكون مع أمه آمنة بنت وهب ، فلما توفيت قبضه إليه جده عبد المطلب وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام . وكان يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك دعوا ابني إنه يؤنس ملكاً[1] .

وقال قوم من بني مدلج لعبد المطلب : احتفظ به فإنا لم نر قدماً أشبه بالقدم الذي في المقام منه . فقال عبد المطلب لأبي طالب : اسمع ما يقول هؤلاء ! فكان أبو طالب يحتفظ به . وقال عبد المطلب لأم أيمن ـ وكانت تحضنه ـ يا بركة لا تغفلي عن ابني فإني وجدته مع غلمان قريب من السدرة ، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة . وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول : عليّ بابني فيؤتى به إليه .

فلما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته ثم مات عبد المطلب ودفن بالحجون .

وقال ابن إسحاق : فلما بلغ رسول الله ﷺ ثمان سنين[2] هلك جده عبد المطلب بن

---

(١) في الطبقات : إنه ليؤنس ملكاً .

(٢) الطبري ـ الطبقات ، وفي رواية شكك فيها الطبري قال : وكان بعضهم يقول توفي عبد المطلب ورسول الله ابن =

هاشم . ثم ذكر جمعه بناته وأمره إياهن أن يرثينه . وهن ، أروى وأميمة ، وبرة ، وصفية ، وعاتكة ، وأم حكيم البيضاء وذكر أشعارهن وما قلن في رثاء أبيهن وهو يسمع قبل موته وهذا أبلغ النوح . وبسط القول في ذلك وقد قال ابن هشام ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر[1]

قال ابن إسحاق : فلما هلك عبد المطلب بن هاشم ولي السقاية وزمزم بعده ابنه العباس ، وهو من أحدث إخوته سناً فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وأقرها في يده رسول الله ﷺ . وكان رسول الله ﷺ بعد جده عبد المطلب مع عمه أبي طالب لوصية عبد المطلب له به ، ولأنه كان شقيق أبيه عبد الله أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم . قال فكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله ﷺ [بعد جده] وكان إليه ومعه . وقال الواقدي : أخبرنا معمر عن ابن نجيح عن مجاهد . وحدثنا معاذ بن محمد الأنصاري عن عطاء عن ابن عباس . وحدثنا محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة ـ دخل حديث بعضهم في حديث بعض ـ قالوا : لما توفي عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله ﷺ فكان يكون معه ، وكان أبو طالب لا مال له ، وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلّا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه . وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط . وكان يخصه بالطعام وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا . فكان إذا أراد أن يغديهم قال كما أنتم حتى يأتي ولدي . فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم ، وإن لم يكن منهم[2] لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب : إنك لمبارك . وكان الصبيان يصبحون رمصاً شعثاً ، ويصبح رسول الله ﷺ دهيناً كحيلاً[3] .

وقال الحسن بن عرفة حدثنا علي بن ثابت عن طلحة بن عمرو سمعت عطاء بن أبي رباح سمعت ابن عباس يقول : كان بنو أبي طالب يصبحون رمصاً عمصاً ويصبح رسول الله ﷺ صقيلاً دهيناً وكان أبو طالب يقرب إلى الصبيان صفحتهم أول البكرة ، فيجلسون وينتهبون ويكف رسول الله ﷺ يده فلا ينتهب معهم . فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حدة .

وقال ابن اسحاق : حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير أن أباه حدثه أن رجلاً من لهب[4] كان عائفاً فكان إذا قدم مكة أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم .

= عشر سنين . وقال محمد بن حبيب توفي جده بعد وفاة أمه (وعمره ثماني سنين) بسنة وأحد عشر شهراً سنة تسع من عام الفيل .

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١/١٧٩ وما بعدها .

(٢) في الطبقات : معهم بدل منهم .

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات ج ١/١١٩ .

(٤) بنو لهب من أزد شنوءة . وقيل هو لهب بن أحجن بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن

قال : فأتى أبو طالب برسول الله ﷺ وهو غلام ، مع من يأتيه ، قال: فنظر إلى رسول الله ﷺ ثم شغله عنه شيء . فلما فرغ قال : الغلام ، عليّ به . فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه ، فجعل يقول ويلكم ردوا عليّ الغلام الذي رأيته آنفاً فوالله ليكونن له شأن . قال وانطلق به أبو طالب .

فصل

في خروجه عليه الصلاة والسلام مع عمه أبي طالب إلى الشام وقصته مع بحيرى الراهب

قال ابن إسحاق : ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام . فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير صب به[(١)] رسول الله ﷺ - فيما يزعمون - فرق له أبو طالب وقال والله لأخرجن به معي ولا أفارقه ولا يفارقني أبداً - كما قال - فخرج به . فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرى في صومعة له . وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب فيها . إليه يصير علمهم عن كتاب ، فيما يزعمون . يتوارثونه كابراً عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى - وكانوا كثيراً ما يمرون به فلا يكلمهم ولا يعرض لهم - حتى كان ذلك العام . فلما نزلوا قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته ، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ في الركب حتى أقبل وغمامة تظلله من بين القوم[(٢)] . ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه . فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت[(٣)] أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها . فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته وقد أمر بطعام فصنع . ثم أرسل إليهم . فقال إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضروا كلكم ، كبيركم وصغيركم ، وعبدكم وحركم . فقال له رجل منهم : والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم . ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرى صدقت قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون[(٤)] منه كلكم ، فاجتمعوا إليه ، وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم ، لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة فلما رآهم بحيرى لم ير الصفة التي يعرف ويجده عنده ، فقال : يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم

= نصر بن الأزد ، وهي القبيلة التي تعرف بالعيافة والزجر والعائف : الذي يتفرس في خلقة الإنسان فيخبر بما يؤول حاله إليه ؛ (شرح القاموس - الروض الأنف) .

(١) صب به وفي البيهقي ضب به : أي تعلق وتشبث . وصب به : أي مال إليه ورق عليه . ورويت ضبث به : أي أمسك قاله السهيلي .

(٢) العبارة في سيرة ابن هشام : في الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم .

(٣) تهصرت : مالت وتدلت . وهصرت الغصن : إذا جذبته حتى يميل . وفي البيهقي : شمرت .

(٤) كذا في الأصل وعند ابن هشام : فتأكلوا وهو الصواب .

عن طعامي ؛ قالوا: يا بحيرى ما تخلف أحد ينبغي له أن يأتيك إلاّ غلام ، وهو أحدثنا سناً فتخلف في رحالنا . قال لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم . قال فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى ، إن كان للؤم بنا أن يتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا . ثم قام إليه فاحتضنه[١] وأجلسه مع القوم ، فلما رأى[٢] بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى وقال له يا غلام : أسألك بحق اللات والعزى إلاّ أخبرتني عما أسألك عنه . وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما[٣] . فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له : لا تسألني باللات والعزى شيئاً . فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما . فقال له بحيرى : فبالله إلاّ ما أخبرتني عما أسألك عنه ؟ فقال له سلني عما بدا لك . فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره . فجعل رسول الله ﷺ يخبره . فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته . ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه موضعه من صفته التي عنده ، فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب ، فقال [له] ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني قال بحيرى ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً ، قال : فإنه ابن أخي . قال فما فعل أبوه ؟ قال مات وأمه حبلى به ، قال صدقت ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود . فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده ، فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام[٤] .

قال ابن إسحاق : فزعموا فيما روى الناس أن زريراً ، وثماماً ، ودريساً[٥] ـ وهم نفر من أهل الكتاب ـ قد كانوا رأوا [من] رسول الله ﷺ مثلما رأى بحيرى في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب فأرادوه فردهم عنه بحيرى . فذكرهم الله وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته وأنهم [إن] أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه ، حتى عرفوا ما قال لهم ، وصدقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه . وقد ذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق أن أبا طالب قال في ذلك ثلاث قصائد .
هكذا ذكر ابن إسحاق هذا السياق من غير اسناد منه . وقد ورد نحوه من طريق مسند مرفوع .

فقال الحافظ أبو بكر الخرائطي حدثنا عباس بن محمد الدوري حدثنا قراد أبو نوح حدثنا

---

(١) احتضنه : هنا : أي اجلسه إلى جنبه .
(٢) فلما رآه عند ابن إسحاق .
(٣) يقال إنه سأله باللات والعزى اختباراً ، ولعل هذا مناسب أكثر .
(٥) في ابن هشام : زريراً وتماماً ودريساً . وفي الدلائل للبيهقي : زبيراً وتماماً ودريساً .
(٤) قال أبو عمر بن عبد البر كانت رحلة أبي طالب ثلاث عشرة من الفيل . وقال أبو الحسن الماوردي خرج به عمه أبو طالب في تجارة وهو ابن تسع سنين . وذكر ابن سعد بإسناد له عن داود بن الحصين أنه كان ابن اثنتي عشرة سنة .

يونس عن[1] أبي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه قال : خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش . فلما أشرفوا على الراهب ـ يعني بحيرى ـ هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم . قال : فنزل وهم يحلون رحالهم . فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبي ﷺ فقال هذا سيد العالمين . وفي رواية البيهقي[2] زيادة هذا رسول رب العالمين ، بعثه الله رحمة للعالمين . فقال له أشياخ من قريش : وما علمك ؟ فقال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجرة ولا حجر إلاّ خرّ ساجداً ، ولا يسجدون إلاّ لنبي ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه [مثل التفاحة] . ثم رجع فصنع لهم طعاماً فلما أتاهم به ـ وكان هو في رعية الابل ـ فقال : أرسلوا إليه . فأقبل وغمامة [عليه] تظله . فلما دنا من القوم قال انظروا إليه عليه غمامة فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه . قال انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه . قال : فبينما هو قائم عليهم وهو ينشدهم[3] الا يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه فالتفت فإذا هو بسبعة نفر[4] من الروم قد أقبلوا . قال فاستقبلهم فقال ما جاء بكم ؟ قالوا جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبق طريق إلاّ بعث إليه ناس ، وإنا أخبرنا خبره [فبعثنا] إلى طريقك هذه . قال [لهم] : فهل خلفكم أحد هو خير منكم ؟ قالوا لا . إنما أخبرنا خبره إلى طريقك هذه . قال أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ فقالوا لا . قال فبايعوه وأقاموا معه عنده . قال فقال الراهب أنشدكم الله أيكم وليه ؟ قالوا : أبو طالب . فلم يزل يناشده حتى رده ، وبعث معه أبو بكر بلالاً وزوده الراهب من الكعك والزيت . هكذا رواه الترمذي[5] عن أبي العباس الفضل بن سهل الأعرج عن قراد أبي نوح به . والحاكم والبيهقي وابن عساكر من طريق أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم عن عباس بن محمد الدوري به . وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبي نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعي مولاهم ، ويقال له الضبي ويعرف بقراد[6] . سكن بغداد وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخاري ، ووثقه جماعة

---

(١) في دلائل البيهقي يونس بن أبي إسحق ، السبيعي صدوق وثقه ابن معين وقال أحمد حديثه مضطرب وقال أبو حاتم لا يحتج به مات ١٥٩ (الكاشف ج ٣/٢٦٤ . تقريب التهذيب ٢/٣٨٤) .

(٢) دلائل النبوة ج ٢/٢٤ .

(٣) في دلائل البيهقي : يناشدهم .

(٤) في دلائل البيهقي : بتسعة نفر ـ وفي رواية الأصم بسبعة ـ .

(٥) كتاب المناقب (٥٠) ٣ ـ باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ ح ٣٦٢٠ (ص ٥ : ٥٩٠ ـ ٥٩١) وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٦١٥ ـ ٦١٧) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال الذهبي « أظنه موضوعاً ، فبعضه باطل » وأخرجه البيهقي في الدلائل ج ٢/٢٤ وما بعدها .

(٦) قراد هو أبو نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعي روى عنه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وغيرهما ، وأخرج له =

من الأئمة والحفاظ ولم أر أحداً جرحه ومع هذا في حديثه هذا غرابة ، قال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلّا من هذا الوجه . وقال عباس الدوري ليس في الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبي نوح وقد لسمعه منه أحمد بن حنبل رحمه الله ويحيى بن معين لغرابته وانفـراده . حكاه البيهقي وابن عساكر .

قلت : فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم في سنة خيبر سنة سبع من الهجرة . ولا يلتفت إلى قول ابن إسحاق في جعله لـه من المهاجـرة إلى أرض الحبشة من مكة وعلى كل تقدير فهو مرسل . فإن هذه القصة كانت ولرسول الله ﷺ من العمر فيما ذكره بعضهم ثنتا عشرة سنة ، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي ﷺ فيكون أبلغ ، أو من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم ، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة .

الثاني : أن الغمامة لم تذكر في حديث أصح من هذا .

الثالث : أن قوله وبعث معه أبو بكر بلالاً إن كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك ثنتي عشرة سنة فقد كان عمر أبي بكر إذ ذاك تسع سنيْن أو عشرة ، وعمر بلال أقل من ذلك ، فأين كان أبو بكر إذ ذاك ؟ ثم أين كان بلال ؟ كلاهما غريب اللهم إلّا أن يقال إن هذا كان ورسول الله ﷺ كبيراً . إما بأن يكون سفره بعد هذا أو إن كان القول بأن عمره كان إذ ذاك ثنتي عشرة سنة غير محفوظ ، فإنه إنما ذكره مقيداً بهـذا الواقـدي . وحكي السهيلي عن بعضهم أنـه كان عمـره عليه الصـلاة والسلام إذ ذاك تسـع سنين والله أعلم[1] . قـال الواقـدي :احـدثـني محمـد بن صالـح وعبد الله بن جعفر وإبـراهيم بن إسماعيـل بن أبي حبيبة عن داود بن الحصـين . قالـوا : لما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة خرج به عمه أبو طالب إلى الشام في العير التي خرج فيها للتجارة ونزلوا بالراهب بحيرى . فقال لأبي طالب بالسر ما قال . وأمره أن يحتفظ به فرده معه أبو طالب إلى مكة .

وشب رسول الله ﷺ مع أبي طالب يكاؤه الله [عزّ وجلّ] ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية

= البخاري والأربعة سوى ابن ماجه . وثقه عـلي بن المديني وابن نمير ويعقوب بن شيبـة وابن سعد وابن حبـاد وروى له الدارقطني وقال : ثقة . .

(١) قال ابن سيد الناس ج ٤٣/١ : في متنه نكارة وهي ارسال أبي بكر مع النبي وكيف وأبو بكر لم يبلغ العشر سنين فإن النبي ﷺ كان أكبر من أبي بكر بأزيدمن عامين وكانت للنبي تسعة أعوام على ما قاله الطبري وغيره ـ أو اثنا عشر ـ وبلال لم ينتقل لأبي بكر إلّا بعد ذلك بأكثر من عشرين عام فإنه كان لبني خلف الجمحيين وعندما عذب في الله اشتراه أبو بكر . وقال ابن حجر في الإصابة الحديث رجاله ثقـات وليس فيه منكر سوى هـذه اللفظة فتحمل على أنها مدرجة فيه مقطعة من حديث آخر وهماً من أحد رواته .

وأخرج ابن منده بسند ضعيف عن ابن عباس أنا أبا بكر الصديق صحب النبي ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة والنبي ﷺ ابن عشرين سنة . قال ابن حجر إن صحت هذه القصة فهي سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب . (الخصائص ج ١٤٤/١ ـ ١٤٥) .

ومعائبها لما يريد [به] من كرامته حتى بلغ أن كان رجلاً ، أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً وأمانة ، وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم من الفحش والأذى . ما رُئي ملاحياً ولا ممارياً أحداً ، حتى سماه قومه الأمين . لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة فكان أبو طالب يحفظه ويحوطه وينصره ويعضده حتى مات .

وقال محمد بن سعد : أخبرنا خالد بن معدان[1] حدثنا معتمر بن سليمان سمعت أبي يحدث عن أبي مجلز أن عبد المطلب ـ أو أبا طالب شك خالد ـ قال لما مات عبد الله عطف على محمد ، فكان لا يسافر سفراً إلاّ كان معه فيه ، وإنه توجه نحو الشام فنزل منزلاً فأتاه فيه راهب . فقال إن فيكم رجلاً صالحاً : ثم قال أين أبو هذا الغلام ؟ قال فقال ها أنا ذا وليه ـ أو قيل هذا وليه ـ قال احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام ، إن اليهود حسّد ، وإني أخشاهم عليه . قال : ما أنت تقول ذلك ، ولكن الله يقوله . فرده ، وقال : اللهم إني أستودعك محمداً ! ثم إنه مات .

ـ قصة بحيرا

حكى السهيلي عن سير الزهري أن بحيرى كان حبراً من أحبار يهود .

قلت: والذي يظهر من سياق القصة أنه كان راهباً نصرانياً والله أعلم . وعن المسعودي أنه كان من عبد القيس وكان اسمه جرجيس[2] . وفي كتاب المعارف لابن قتيبة سمع هاتف في الجاهلية قبل الإسلام بقليل يهتف ويقول : ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة ، بحيرى ، ورئاب بن البراء الشني ، والثالث المنتظر . وكان الثالث المنتظر هو الرسول ﷺ . قال ابن قتيبة وكان قبر رئاب الشني وقبر ولده من بعده لا يزال يرى عندهما طش ، وهو المطر الخفيف .

فصل

في منشئه عليه الصلاة والسلام ومرباه وكفاية الله له ، وحياطته ، وكيف كان يتيماً فآواه وعائلاً فأغناه

قال محمد بن إسحاق : فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ، لما يريد من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلاً ، أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً ، حتى ما اسمه في قومه إلاّ الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة وكان رسول الله ﷺ ـ فيما ذكر لي ـ يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال : « لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما

---

(١) في ابن سعد : خالد بن خداش . ج ١/١٢٠ ـ ١٢١ .

(٢) في المسعودي سرجس وكان مؤمناً على دين المسيح عيسى ابن مريم ﷺ .

يلعب الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة ، ثم قال شد عليك إزارك . قال فأخذته فشددته عليّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري على من بين أصحابي». وهذه القصة شبيهه بما في الصحيح عند بناء الكعبة حين كان ينقل هو وعمه العباس فإن لم تكنها فهي متقدمة عليها كالتوطئة لها والله أعلم .

قال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ ينقل الحجارة. فقال العباس لرسول الله ﷺ اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة ففعل فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم قام فقال : «إزاري» فشد عليه إزاره أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق[1] . وأخرجاه أيضاً من حديث روح بن عبادة عن زكرياء بن أبي إسحاق[2] عن عمرو بن دينار عن جابر بنحوه .

وقال البيهقي[3] : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالا أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا محمد بن إسحاق الصاغاني حدثنا محمد بن بكير الحضرمي حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكي حدثنا عمرو بن أبي قيس عن سماك عن عكرمة حدثني ابن عباس عن أبيه : أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت ، قال وأفردت قريش رجلين رجلين ، الرجال ينقلون الحجارة ، وكانت النساء تنقل الشيد . قال : فكنت أنا وابن أخي وكنا نحمل على رقابنا وأزرنا تحت الحجارة ، فإذا غشينا الناس أتزرنا . فبينما أنا أمشي ومحمد أمامي قال : فخر وانبطح على وجهه ، فجئت أسعى ، وألقيت حجري وهو ينظر إلى السماء فقلت ما شأنك ؟ فقام وأخذ إزاره قال : « إني نهيت أن أمشي عرياناً » . قال وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا مجنون . وروى البيهقي[4] من حديث يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب . قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلاّ ليلتين كلتاهما عصمني الله عزَّ وجلَّ فيهما . قلت ليلة لبعض فتيان مكة ـ ونحن في رعاء غنم أهلها ـ فقلت

---

(١) صحيح البخاري ٢٥ كتاب الحج ٤٢ باب فضل مكة وبنيانها فتح الباري (٣/٤٣٩) ومسلم كتاب الحيض ح ٧٧ ص ٢٦٨ . البخاري في ٨ كتاب الصلاة (٨) باب كراهية التعري في الصلاة فتح الباري (١/٤٧٤) ومسلم .

(٢) كذا في الأصل والصواب زكريا بن إسحاق ؛ المكي ، ثقة رمي بالقدر (التقريب ١/٢٦١).

(٣) دلائل النبوة ج ٢/٣٢.

(٤) ج ٢/٣٣.

لصاحبي أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان فقال بلى . قال : فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير ، فقلت ما هذا ؟ قالوا تزوج فلان فلانة . فجلست أنظر وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلاّ مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ فقلت ما فعلت شيئاً ثم أخبرته بالذي رأيت ، ثم قلت له ليلة : أخرى أبصر لي غنمي حتى أسمر [بمكة] ففعل فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة . فسألت ، فقيل نكح فلان فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلاّ مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال ما فعلت ؟ فقلت لا شيء ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عزَّ وجلَّ بنبوته » وهذا حديث غريب جداً وقد يكون عن علي نفسه ويكون قوله في آخره « حتى أكرمني الله عزَّ وجلَّ بنبوته » مقحماً والله أعلم[1] .

وشيخ ابن إسحاق هذا ذكره ابن حبان في الثقات . وزعم بعضهم أنه من رجال الصحيح . قال شيخنا في تهذيبه ولم أقف على ذلك والله أعلم .

وقال الحافظ البيهقي[2] : حدثني أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا الحسن بن علي بن عفان العامري ، حدثنا أبو أسامة حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة ، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد عن زيد بن حارثة . قال : كان صنم من نحاس يقال له : أساف ، ونائلة[3] يتمسح به المشركون إذا طافوا . فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه ، فلما مررت مسحت به فقال رسول الله ﷺ « لا تمسه » . قال زيد : فطفنا فقلت في نفسي لأمسنه حتى أنظر ما يكون ، فمسحته فقال رسول الله ﷺ : « ألم تنه » قال البيهقي : زاد غيره عن محمد بن عمرو بإسناده قال زيد : فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً قط حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزل عليه .

وتقدم قوله عليه الصلاة والسلام لبحيرى حين سأله باللات والعزى « لا تسألني بهما فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما » فأما الحديث الذي قاله الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا أبو سعد الماليني[4] . أنبأنا أبو أحمد بن عدي الحافظ حدثنا إبراهيم بن أسباط حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن

---

(١) الخبر رواه السيوطي في الخصائص الكبرى ١/ ٨٩ ورواه أبو نعيم في دلائله (١٤٣) وسبل الهدى (٢/ ١٩٩) وقال : رواه اسحاق بن راهويه والبزار وابن حبان .

(٢) دلائل النبوة ج ٢/ ٣٤ ونقله السيوطي في الخصائص الكبرى ج ١/ ٨٩ .

(٣) في الدلائل : أو نائلة .

(٤) هو أبو سعد أحمد بن محمد الماليني .

سفيان الثوري عن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل[1] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ : يشهد مع المشركين مشاهدهم قال : فسمع ملكين خلفه وأحدهما يقول لصاحبه : اذهب بنا حتى نقوم خلف رسول الله ﷺ . قال كيف نقوم خلفه ، وإنما عهده باستلام الأصنام ؟ . قال فلم يعد بعد ذلك أن يشهد مع المشركين مشاهدهم . فهو حديث أنكره غير واحد من الأئمة على عثمان بن أبي شيبة حتى قال الإمام أحمد فيه لم يكن أخوه يتلفظ بشيء من هذا . وقد حكى البيهقي عن بعضهم[2] أن معناه أنه شهد مع من يستلم الأصنام وذلك قبل أن يوحى إليه والله أعلم . وقد تقدم في حديث زيد بن حارثة أنه اعتزل شهود مشاهد المشركين حتى أكرمه الله برسالته . وثبت في الحديث أنه كان لا يقف بالمزدلفة ليلة عرفة بل كان يقف مع الناس بعرفات كما قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق . حدثني عبد الله بن أبي بكر عن عثمان بن أبي سليمان عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه جبير . قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو على دين قومه ، وهو يقف على بعير له بعرفات من بين قومه حتى يدفع معهم ، توفيقاً من الله عزَّ وجلَّ له .

قال البيهقي[3] : معنى قوله على دين قومه ما كان بقي من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، [في حجهم ومناكحهم وبيوعهم ، دون الشرك] ولم يشرك بالله قط صلوات الله وسلامه عليه دائماً .

قلت : ويفهم من قوله هذا أيضاً أنه كان يقف بعرفات قبل أن يوحى إليه . وهذا توفيق من الله له . ورواه الإمام أحمد عن يعقوب عن محمد بن إسحاق به . ولفظه رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه وإنه لواقف على بعير له مع الناس بعرفات حتى يدفع معهم توفيقاً من الله . وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن عمرو عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : أضللت بعيراً لي بعرفة[4] فذهبتُ اطلبه فإذا النبي ﷺ واقف فقلت إن هذا من الحُمس[5] ما شأنه ههنا ؟ وأخرجاه

---

(١) في دلائل البيهقي : عبد الله بن محمد بن عقيل ، أبو محمد المدني ، الطالبي روى عنه ابن عمر وجابر قال فيه الترمذي صدوق ، كان أحمد وإسحاق والحميري يحتجون بحديثه وتوفي فيما قاله الواقدي بعد سنة ١٤٠ هـ . (الكاشف ج ٢/١١٣ - التقريب والتهذيب ١/٤٤٧) .

(٢) أبو القاسم الطبراني عن المعمري عن عثمان بن أبي شيبة .

قال ابن حجر : « هذا الحديث أنكره الناس ، فبالغوا ، والمنكر قوله عن الملك ، « عهده باستلام الأصنام » فإن ظاهره أنه باشر الإستلام ، وليس ذلك مراداً ، بل المراد أنه شهد مباشرة المشركين استلام اصنامهم (المطالب العالية) .

وفي السيرة الشامية : المراد بالمشاهد مشاهد الحلف ونحوها لا مشاهد استلام الأصنام .

(٣) دلائل النبوة ج ٢/٣٧.

(٤) كذا في الأصل والصواب : عرنة كما في سيرة ابن كثير وعرنة : وادٍ بحذاء عرفات .

(٥) الحمس : جمع أحمس ، وهو الشديد الصلب ، وهم قريش وسميت حمساً لزعمهم بأنهم اشتدوا في دينهم إلى =

من حديث سفيان بن عيينة به .

شهوده عليه الصلاة والسلام حرب الفجار

قال ابن إسحاق : هاجت حرب الفجار[1] ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة ، وإنما سمي يوم الفجار ، بما استحل فيه هذان الحيان ـ كنانة وقيس عيلان ـ من المحارم بينهم . وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس

وقال ابن هشام : فلما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة ـ أو خمس عشرة سنة ـ فيما حدثني به أبو عبيدة النحوي عن أبي عمرو بن العلاء هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان . وكان الذي هاجها أن عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن أجاز لطيمة[2] ـ أي تجارة ـ للنعمان بن المنذر . فقال [له] البراض بن قيس ـ أحد بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ـ أتجيزها على كنانة ؟ قال نعم وعلى الخلق . فخرج فيها عروة الرحال وخرج البراض يطلب غفلته . حتى إذا كان بتيمن ذي طلال[3] بالعالية ، غفل عروة فوثب عليه البراض فقتله في الشهر الحرام ، فلذلك سمي الفجار ، وقال البراض في ذلك :

وداهيةٍ تهمّ الناسَ قبلي ... شددتُ لها بني بكرٍ ضلوعي[4]
هدمتُ بها بيوتَ بني كلابٍ ... وأرضعتُ المواليَ بالضروعِ
رفعتُ له بذي طلّالَ كفّي ... فخرّ يميد كالجذعِ الصريعِ[5]

= حد التزهد والتأله؛ ودخل معهم كنانة وخزاعة وقيل بنو عامر بن صعصعة . (راجع سيرة ابن هشام في تفاصيل مهمة حول الحمس) .

وكانت قريش ومن يدين دينها يقفون عشية عرفة بالمزدلفة ويقولون : نحن قطن البيت .

وكان بقية الناس والعرب يقفون بعرفات : (البخاري ـ مسلم، كتاب الحج ، أبو داود والنسائي في المناسك) .

(١) الفجار بكسر الفاء . بمعنى المفاجرة كالقتال والمقاتلة وسمي الفجار لأن القتال جرى في الشهر الحرام ففجروا فيه جميعاً .

(٢) كذا في الأصل وفي العقد الفريد وابن هشام : أجاز لطيمة واللطيمة الجمال التي تحمل التجارة ، من طيب وبر وأشباههما .

(٣) ذي طلال : وادٍ إلى جانب فدك ، وفي معجم البلدان ، وهو الصواب ، أنه بعالية نجد .

(٤) رواية البيت في العقد الفريد :

وداهية يهال الناس منها ... شددت على بني بكر ضلوعي

(٥) رواية البيت في الأغاني والعقد الفريد :

جمعت له يدي بنصل سيف ... أفل فخر كالجذع الصريع.

وقال لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب :

وأبلغ - إن عرضتَ - بني كلاب ... وعامرَ والخطوبُ لها موالي

وأبلغ - إن عرضتَ - بني نُمَيْر ... واخوالَ القتيلِ بني هلال

بأنَّ الوافدَ الرحَّال أمسى ... مقيماً عند تَيْمُنَ ذي طلال

قال ابن هشام : فأتى آتٍ قريشاً فقال : إن البراض قد قتل عروة ، وهو في الشهر الحرام بعكاظ . فارتحلوا وهوازن لا تشعر بهم . ثم بلغهم الخبر فأتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم . فاقتتلوا حتى جاء الليل ، فدخلوا الحرم ، فأمسكت هوازن عنهم ، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً والقوم متساندون على كل قبيل من قريش وكنانة رئيس منهم ، وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم . قال : وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم . أخرجه أعمامه معهم وقال رسول الله ﷺ : « كنت أنبِّل على أعمامي » أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها .

قال ابن هشام : وحديث الفجار طويل هو أطول مما ذكرت ، وإنما منعني من استقصائه قطعه حديث سيرة رسول الله ﷺ .

وقال السهيلي : والفجار بكسر الفاء على وزن قتال . وكانت الفجارات في العرب أربعة ذكرهن المسعودي[٢] . وآخرهن ، فجار البراض هذا . وكان القتال فيه في أربعة أيام ، يوم شمطة ، ويوم العبلاء ، وهما عند عكاظ ، ويوم الشرب - وهو أعظمها يوماً - وهو الذي حضره رسول الله ﷺ وفيه قيدا رئيس قريش وبني كنانة وهما حرب بن أمية وأخوه سفيان أنفسهما لئلا يفروا . وانهزمت يومئذٍ قيس إلاَّ بني نضر فإنهم ثبتوا . ويوم الحريرة عند نخلة . ثم تواعدوا من العام المقبل إلى عكاظ . فلما توافوا الموعد ركب عتبة بن ربيعة جمله ونادى يا معشر مضر علام تقاتلون ؟ فقالت له هوازن : ما تدعو إليه ؟ قال الصلح ، قالوا وكيف ؟ قال ندي قتلاكم ونرهنكم رهائن عليها ، ونعفو عن دياتنا . قالوا ومن لنا بذلك قال أنا ، قالوا ومن أنت ؟ قال عتبة بن ربيعة فوقع الصلح على ذلك وبعثوا إليهم أربعين رجلاً فيهم حكيم بن حزام فلما رأت بنو عامر بن صعصعة الرهن في أيديهم عفوا عن دياتهم وانقضت حرب الفجار . وقد ذكر الأموي حروب الفجار وأيامها واستقصاها مطولاً فيما رواه عن الأثرم . وهو المغيرة بن علي عن أبي عبيدة معمر بن المثنى فذكر ذلك .

فصل

قال الحافظ البيهقي : أخبرنا أبو سعد الماليني أنبأنا أبو أحمد بن عدي الحافظ حدثنا يحيى ابن علي بن هاشم[١] الخفاف حدثنا أبو عبد الرحمن الأزدي[٢] حدثنا اسماعيل بن علية بن

(١) في الدلائل : هشام .

(٢) في الدلائل : الأذرمي .

عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه [عن عبد الرحمن بن عوف] . قال قال رسول الله ﷺ : « شهدت مع عمومتي حلف المطيبين فما أحب أن أنكثه ـ أو كلمة نحوها ـ وإن لي حمر النعم » . قال وكذلك رواه بشر بن المفضل عن عبد الرحمن . قال : وأخبرنا أبو نصر بن قتادة حدثنا أبو عمرو بن مطر حدثنا أبو بكر بن أحمد بن داود السمناني حدثنا معلى بن مهدي حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ : « ما شهدت حلفاً لقريش إلا حلف المطيبين ، وما أحب أن لي حمر النعم وأني كنت نقضته » قال : والمطيبون هاشم ، وأمية ، وزهرة ، ومخزوم ، قال البيهقي : كذا روي هذا التفسير مدرجاً في الحديث ولا أدري قائله(1) ، وزعم بعض أهل السير(2) أنه أراد حلف الفضول فإن النبي ﷺ لم يدرك حلف المطيبين .

قلت : هذا لا شك فيه ، وذلك أن قريشاً تحالفوا بعد موت قصي وتنازعوا في الذي كان جعله قصي لابن عبد الدار من السقاية ، والرفادة ، واللواء ، والندوة ، والحجابة ، ونازعهم فيه بنو عبد مناف . وقامت مع كل طائفة قبائل من قريش وتحالفوا عن النصرة لحزبهم فأحضر أصحاب بني عبد مناف جفنة فيها طيب فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا . فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت . فسموا المطيبين كما تقدم وكان هذا قديماً ولكن المراد بهذا الحلف حلف الفضول وكان في دار عبد الله بن جدعان كما رواه الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابني أبي بكر قالا : قال رسول الله ﷺ : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت ، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يعد(3) ظالم مظلوماً » . قالوا : وكان حلف الفضول قبل المبعث بعشرين سنة في شهر ذي القعدة ، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر . وذلك لأن الفجار كان في شعبان(4) من هذه السنة ، وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب ، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب وكان سببه أن

---

(1) وقال البيهقي في السنن الكبرى بعد روايته للحديث : « لا أدري : هذا التفسير من قول أبي هريرة أو من دونه . ٦/٣٦٦.

(2) أراد ابن قتيبة وقد ذكره في حديث السنن ونقل قوله : « إن حلف المطيبين هو حلف الفضول » وعقب البيهقي : « إن قوله إنما هو حلف الفضول غلط ، وذلك أن النبي ﷺ لم يدرك حلف المطيبين ، لأن ذلك كان قديماً قبل أن يولد بزمان » .

والثابت لدينا ، ومن خلال سياق أحاديث تكوين المطيبين يتبين أنه في زمان هاشم أبي عبد المطلب جدا الرسول ﷺ

(3) كذا في الأصل وفي السهيلي : ولا يُعزّ ظالم على مظلوم .

(4) قال المسعودي ج ٢٩٣/٢ : انتهى الفجار في شوال . ووافقه ابن سيد الناس وابن سعد في الطبقات . وفي رواية لابن سعد عن عروة بن الزبير ؛ كان حلف الفضول منصرف قريش من الفجار ورسول الله ﷺ يومئذ ابن عشرين سنة .

رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف عبد الدار ومخزوماً وجمحاً وسهماً وعدي بن كعب فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل وزبروه ـ أي انتهروه ـ فلما رأى الزبيدي الشر أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس ـ وقريش في أنديتهم حول الكعبة ـ فنادى بأعلى صوته :

يـا آلَ فِهْـرٍ لمظلومٍ بضـاعتـه ببـطنِ مكـة نـائي الـدارِ والنَفَـر
ومحـرِمٍ أشعثٍ لم يقضِ عمـرتَـه يـا لَلرجـال وبيـن الحِجـر والحجـرَ
إنَّ الحـرام لمن مـا تَمَّـتْ كـرامتُـه ولا حـرامَ لثـوبِ الفـاجـر الغَـدِر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونُنّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه ما بلّ بحر صوفة . وما رسى ثبير وحراء مكنهما . وعلى التأسي في المعاش . فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول[1] ، وقالوا لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر . ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه . وقال الزبير بن عبد المطلب في ذلك :

حلفتُ لَنعقِـدَنّ حِلْفـاً عليهـم وإنْ كُـنـا جـمـيـعـاً أهـلَ دار
نسمّيـهِ الفُـضـولَ إذا عَقـدْنـا يَعَـزبـه الغـريبُ لـذي الجـوار
ويـعلمُ مَـن حـوالي البـيتِ أنـا أبـاةُ الـضيـمِ نمنـعُ كـلّ عـار

وقال الزبير أيضاً :

إن الفضـولَ تعـاقـدوا وتحـالفـوا ألا يُـقيـم ببـطنِ مـكـةَ ظـالم
أمـر عليـهِ تعـاقَـدوا وتـواثقـوا فـالجـارُ والمُعْـتَرُّ فيـهـمْ سـالم

وذكر قاسم بن ثابت ـ في غريب الحديث ـ : أن رجلاً من خثعم قدم مكة حاجاً ـ أو معتمراً ـ ومعه ابنة له يقال لها القتول من أوضأ نساء العالمين ، فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج وغيبها

---

(١) سمي هذا الحلف بحلف الفضول باسم ثلاثة من زعماء جرهم وهم : الفضل بن فضالة والفضل بن وداعة والفضل بن الحارث . وقيل في النهاية : الفضل بن شراعة والفضل بن وداعة والفضل بن قضاعة . والفضول جمع فضل وهي أسماء هؤلاء الذين تقدموا .

وقيل بل سمي كذلك لأنهم تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها وألا يغزو ظالم مظلوماً . وقال السهيلي : ما قاله ابن قتيبة حسن ولكن في الحديث ما هو أقوى منه : السنن الكبرى ج ٣٦٦/٦ ـ ٣٦٧ .

وزعم ابن إسحاق أن هذا الحلف عقدوه على التناصر ، والأخذ للمظلوم من الظالم . وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب .

عنه . فقال الخثعمي : من يعديني على هذا الرجل ؟ فقيل له عليك بحلف الفضول[1] . فوقف عند الكعبة ونادى ياآل حلف الفضول : فإذا هم يعنقون إليه من كل جانب ، وقد انتضوا أسيافهم يقولون : جاءك الغوث فما لك ؟ فقال إن نبيهاً ظلمني في بنتي وانتزعها مني قسراً فساروا معه حتى وقفوا على باب داره ، فخرج إليهم فقالوا له أخرج الجارية ويحك فقد ، علمت من نحن وما تعاقدنا عليه ، فقال افعل ، ولكن متعوني بها الليلة ، فقالوا لا والله ولا شخب لقحة فأخرجها إليهم وهو يقول :

راحَ صحبي ولم أحيّي القتولا ... لم أودّعهمُ وداعاً جميلا
إذ أجدّ الفضولَ أنْ يمنعوها ... قد أراني ولا أخافُ الفضولا
لا تخالي أني عشيةَ راحَ الركْـ ... ـبُ هُنتم عليَّ أن لا يزولا

وذكر أبياتاً أخر غير هذه . وقد قيل إنما سمي هذا حلف الفضول لأنه أشبه حلفاً تحالفته جرهم على مثل هذا من نصر المظلوم على ظالمه . وكان الداعي إليه ثلاثة من أشرافهم اسم كل واحد منهم فضل : وهم الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن الحارث . هذا قول ابن قتيبة[1] . وقال غيره الفضل بن شراعة، والفضل بن بضاعة ، والفضل بن قضاعة وقد أورد السهيلي هذا رحمه الله .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار : وتداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه . .وكان حلفهم عنده بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة . فتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلاّ كانوا معه وكانوا على من ظلمه حتى يرد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول .

قال محمد بن إسحاق : فحدثني محمد بن زيد بن المهاجر [بن] قنفذ التيمي أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري يقول قال رسول الله ﷺ : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعي به في الإسلام لأجبت » .

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد الليثي أن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي حدثه أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ـ والوليد يومئذٍ أمير المدينة ، أمره عليها عمه معاوية بن أبي سفيان . منازعة في مال كان بينهما بذي المروة[2] فكان الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه ، فقال له الحسين : أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ ، ثم لأدعون

---

(1) انظر الحاشية (1) ص ٣٥٦ .

(2) ذو المروة : قرية بوادي القرى ، وقيل بين خشب ووادي القرى . (معجم البلدان) .

بحلف الفضول . قال فقال عبد الله بن الزبير ـ وهو عند الوليد حين قال له الحسين ما قال ـ وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً . قال وبلغت المسوّر بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال مثل ذلك . وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك . فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي .

تزويجه عليه الصلاة والسلام خديجة بنت خويلد

قال ابن إسحاق : وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال على مالها مضاربة[1] . فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج لها في مال تاجراً إلى الشام وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار . مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله ﷺ منها وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى نزل الشام ، فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب[2]من الرهبان ، فاطلع الراهب إلى ميسرة . فقال : من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة ؟ فقال ميسرة هذا رجل من قريش من أهل الحرم فقال له الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة إلاّ نبي[3] ثم باع رسول الله ﷺ سلعته ـ يعني تجارته ـ التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري . ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة ، فكان ميسرة ـ فيما يزعمون ـ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر ، يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره ، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به ، فأضعف أو قريباً ، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملائكة إياه . وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله بها من كرامتها . فلما أخبرها ميسرة ما أخبرها بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له ـ فيما يزعمون ـ ـ يا بن عم أني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك[4] في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ، ثم عرضت نفسها عليه ، وكانت أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً . كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه ، فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج

---

(١) المضاربة : المقارضة ، حيث كانت خديجة تقارضهم مالها في تجارتهم بشيء تجعل لهم منه .

(٢) كان اسم الراهب نسطورا وليس هو بحيرى الذي ورد ذكره في حديث أبي طالب . وكان نزوله في سوق بصرى . عيون الأثر . وطبقات ابن سعد .

(٣) يريد بقوله إنه ما نزل تحتها هذه الساعة إلا نبي ، ولم يرد ما نزل تحتها قط إلا نبي ؛ لبعد العهد بالأنبياء قبل ذلك .

(٤) كذا في الأصل وشرح المواهب وشرح السيرة والروض والطبري . وسطتك : شرفك .
قال السهيلي : من الوسط . والوسط من أوصاف المدح والتفضيل .

معه عمه حمزة[1] حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها عليه الصلاة والسلام .

قال ابن هشام : فأصدقها عشرين بكرة وكانت أول امرأة تزوجها [رسول الله ﷺ] ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت .

قال ابن إسحاق : فولدت لرسول الله ﷺ ولده كلهم إلاّ إبراهيم : القاسم وكان به يكنى ، والطيب والطاهر[2] ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة .

قال ابن هشام أكبرهم القاسم ، ثم الطيب ، ثم الطاهر . وأكبر بناته رقية ثم زينب ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة[3].

قال البيهقي عن الحاكم : قرأت بخط أبي بكر بن أبي خيثمة حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيري قال أكبر ولده عليه الصلاة والسلام القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية . وكان أول من مات من ولده القاسم [مات بمكة] ، ثم عبد الله . وبلغت خديجة خمساً وستين سنة ، ويقال خمسين . وهو أصح . وقال غيره بلغ القاسم أن يركب الدابة والنجيبة ثم مات بعد النبوة ، وقيل مات وهو رضيع فقال رسول الله ﷺ : « إن له مرضعاً في الجنة يستكمل رضاعه » والمعروف أن هذا في حق إبراهيم[4] .

وقال يونس بن بكير : حدثنا إبراهيم بن عثمان عن القاسم[5] عن ابن عباس قال ولدت خديجة لرسول الله ﷺ غلامين وأربع نسوة : القاسم ، وعبد الله ، وفاطمة ، وأم كلثوم ، وزينب ، ورقية . وقال الزبير بن بكار عبد الله هو الطيب وهو الطاهر ، سمي بذلك لأنه ولد بعد

---

(١) يقال إن الذي ينهض معه ﷺ هو أبو طالب ، وهو الذي خطب خطبة النكاح . وقيل لعلهما خرجا معاً وخطب أبو طالب الخطبة لأنه كان أسن من حمزة (الروض الأنف ، شرح المواهب) .

(٢) في أولاد الرسول ﷺ من خديجة خلاف فذكر بعضهم ثلاثة بنين القاسم والطاهر والطيب وقال آخرون ما نعلمها ولدت غلاماً إلا القاسم . والأرجح أن الطاهر والطيب لقبان لعبد الله وقال ابن سعد : إن عبد الله ولد في الإسلام فسمي الطيب والطاهر وفي موت القاسم في الجاهلية خلاف . فقد ذكر السهيلي عن الزبير أن القاسم مات رضيعاً . . . فبكت خديجة . فقال الرسول ﷺ إن شئت أسمعتك صوته في الجنة . . . فهو دليل على أنه لم يهلك في الجاهلية .

(٣) في الطبقات عن ابن عباس : قبل النبوة القاسم (وفي رواية عنده مات ابن ستين وهذا يناقض ما ذهب إليه الزبير ، وفي رواية للبيهقي : أن القاسم قد بلغ أن يركب الدابة ويسير على النجيب) ثم زينب ثم رقية ثم فاطمة ثم أم كلثوم ثم عبد الله .

(٤) تقدم التعليق قريباً فليراجع . وذكر ابن سعد ان ابراهيم ولد في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة . ومات وهو ابن ستة عشر شهراً وقال ﷺ ان له ظئراً تتم رضاعه في الجنة وهو صدّيق . وفي رواية ثمانية عشر شهراً . يوم الثلاثاء لعشر ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة عشر .

(٥) عن الحكم عن مقسم أبي القاسم كما في دلائل النبوة ج ٢ / ٧٠ .

النبوة فماتوا قبل البعثة . وأما بناته فأدركن البعثة ودخلن في الإسلام وهاجرن معه ﷺ قال ابن هشام : وأما إبراهيم فمن مارية[1] القبطية التي أهداها له المقوقس صاحب اسكندرية من كورة أنصنا[2] وسنتكلم على أزواجه وأولاده عليه الصلاة والسلام في باب مفرد لذلك في آخر السيرة إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

قال ابن هشام : وكان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة فيما حدثني غير واحد من أهل العلم ، منهم أبو عمرو المدني ، وقال يعقوب بن سفيان كتبت عن إبراهيم بن المنذر حدثني عمر بن أبي بكر المؤملي حدثني غير واحد أن عمرو بن أسد زوّج خديجة من رسول الله ﷺ وعمره خمساً وعشرين سنة وقريش تبني الكعبة. وهكذا نقل البيهقي عن الحاكم أنه كان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة وكان عمرها إذ ذاك خمساً وثلاثين - وقيل خمساً وعشرين سنة -[3] .
وقال البيهقي :

باب ما كان يشتغل به رسول الله ﷺ قبل أن يتزوج خديجة

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو بكر بن عبد الله أخبرنا الحسن بن سفيان حدثنا سويد بن سعيد حدثنا عمرو بن أبي يحيى بن سعيد القرشي عن جده سعيد عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بعث الله نبياً إلّا راعي غنم » فقال له أصحابه وأنت يا رسول الله ؟ قال : « وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط »[4] رواه البخاري[5] عن أحمد بن محمد المكي عن عمرو بن يحيى به . ثم روى البيهقي من طريق الربيع بن بدر - وهو ضعيف[6] - عن أبي الزبير عن

---

(١) مارية بنت شمعون (والمارية البقرة الفتية بتخفيف الياء وبالتشديد الملساء . وسبب اهدائها إلى النبي أنه ﷺ أرسل إلى المقوقس واسمه جريج بن ميناء فقارب المقوقس الإسلام وارسل هدية إلى النبي بغلته دلدل ومارية وقدحاً من قوارير (الروض الأنف) .

(٢) أنصنا : بالفتح ثم السكون وكسر الصاد مدينة من نواحي الصعيد على شرقي النيل ويقال انها كانت مدينة السحرة ينسب إليها كثير من أهل العلم .

(٣) قيل كان سنه ﷺ إحدى وعشرين سنة وقيل ثلاثين وقيل سبعاً وثلاثين وقيل ستاً وعشرين . وكان عمر خديجة إذ ذاك أربعين سنة وقيل خمساً وأربعين . وكانت خديجة قد تزوجت قبله رجلين : عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ثم أبو هالة التميمي وهو من بني أسيد بن عمرو واسمه هند بن زرارة بن النباش .

(٤) دلائل النبوة ج ٢/ ٦٥.

(٥) في ٣٧ كتاب الاجارة (٢) باب رعي الغنم فتح الباري (٤/ ٤٤١) . وأخرجه ابن ماجة في كتاب التجارات وابن سعد في الطبقات .

(٦) الربيع بن بدر ضعفه ابن معين . وقال ابن حبان يقلب الأسانيد وقال الدارقطني والأزدي : متروك . وقال النسائي ويعقوب بن سفيان متروك . تهذيب التهذيب (٣/ ٢٣٩).

جابر . قال : قال رسول الله ﷺ : « آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوص » وروى البيهقي من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس : أن أبا خديجة زوج رسول الله ﷺ وهو ـ أظنه ـ قال سكران[1] . ثم قال البيهقي : أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان أنا عبد الله بن جعفر حدثنا يعقوب بن سفيان قال حدثني إبراهيم بن المنذر حدثني عمر بن أبي بكر المؤملي[2] حدثني عبد الله بن أبي عبيد[3] بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه عن مقسم بن أبي القاسم[4] مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل أن عبد الله بن الحارث حدثه أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة وما يكثرون فيه يقول : أنا أعلم الناس بتزويجه إياها ، إني كنت له تِرباً ، وكنت له إلفاً وخدناً . وإني خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم . حتى إذا كنا بالحزورة[5] أجزنا على أخت خديجة ، وهي جالسة على أدم تبيعها ، فنادتني ، فانصرفت إليها ، ووقف لي رسول الله ﷺ . فقالت : أما بصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة ؟ قال عمار : فرجعت إليه فأخبرته فقال : « بلى لعمري » فذكرت لها قول رسول الله ﷺ فقالت اغدوا علينا إذا أصبحنا ، فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة ، والبسوا أبا خديجة حلة ، وصفّرت لحيته ، وكلمت أخاها فكلم أباه وقد سقي خمراً فذكر له رسول الله ﷺ ومكانة وسألته أن يزوجه فزوجه خديجة وصنعوا من البقرة طعاماً فأكلنا منه ونام أبو هاشم استيقظ صاحياً . فقال : ما هذه الحلة وما هذه الصفرة وهذا الطعام ؟ فقالت له ابنته التي كانت قد كلمت عماراً هذه حلة كساكها محمد بن عبد الله ختنك ، وبقرة أهداها لك ، فذبحناها حين زوجته خديجة ، فأنكر أن يكون زوّجه ، وخرج يصيح حتى جاء الحجر ، وخرج بنو هاشم برسول الله ﷺ فجاؤوه فكلموه . فقال أين صاحبكم الذي تزعمون أني زوجته خديجة ؟ فبرز له رسول الله ﷺ فلما نظر إليه ، قال إن كنت زوجته فسبيل ذاك ، وإن لم أكن فعلت فقد زوجته .

وقد ذكر الزهري في سيره أن أباها زوجها منه وهو سكران وذكر نحو ما تقدم حكاه السهيلي . قال المؤملي : المجتمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها منه وهذا هو الذي رجحه السهيلي[6] وحكاه عن ابن عباس وعائشة قالت : وكان خويلد مات قبل الفجار ، وهو

---

(١) وأخرجه الإمام أحمد في مسنده مطولاً بإسناد ضعيف . والهيثمي في مجمع الزوائد عنه وعن الطبراني وقال رجال أحمد والطبراني رجال الصحيح .

(٢) في الدلائل ج ٢/ ٧١ ؛ الموصلي .

(٣) في الدلائل وتقريب التهذيب : أبي عبيدة .

(٤) في الدلائل ، مقسم : أبي القاسم مولى عبد الله ، وهو الصواب . ويقال له مولى ابن عباس للزومه ، صدوق . مات سنة ١٠١ هـ . (تقريب التهذيب) .

(٥) الحزورة : كانت الحزورة سوق مكة ، ودخلت في المسجد لما زيد ، وباب الحزورة معروف من أبواب المسجد الحرام ، والعامة تقول : باب عزورة .

(٦) وعند الواقدي قال : الثبت عندنا المحفوظ من أهل العلم أن أباها خويلد بن أسد مات قبل الفجار وان عمها =

الذي نازع تبعاً حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن ، فقام في ذلك خويلد وقام معه جماعة من قريش ثم رأى تبع في منامه ما روّعه ، فنزع عن ذلك وترك الحجر الأسود مكانه .

وذكر ابن إسحاق : في آخر السيرة أن أخاها عمرو بن خويلد هو الذي زوجها رسول الله ﷺ فالله أعلم .

فصل

قال ابن إسحاق : وقد كانت خديجة بنت خويلد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ـ وكان ابن عمها ، وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعَلم من عِلْم الناس ما ذكر لها غلامُها من قول الراهب وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه ـ فقال ورقة : لئن كان هذا حقاً يا خديجة إنَّ محمداً لنبي هذه الأمة ، قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه ـ أو كما قال ـ فجعل ورقة يستبطىء الأمر ويقول حتى متى ؟ وقال في ذلك :

لججتُ وكنتُ في الذكرى لجوجاً ... لِهَمٍّ طالما بعثَ النَّشيجا[1]
ووصْفٍ من خديجةَ بعدَ وصْفٍ ... فقد طالَ انتظاري يا خديجا
ببطنِ المكّتينِ على رَجائي ... حَديثَك أن أرى منهُ خُروجا[2]
بما خبَّرتنا من قولِ قَسٍّ ... منَ الرهبانِ أكرهُ أن يَعُوجا[3]
بأنَّ محمداً سيسودُ قوماً ... ويخصِمُ مَن يكونُ له حَجيجا[4]
ويُظهرُ في البلادِ ضياءَ نورٍ ... يقومُ به البَريَّةَ أن تَموجا
فيلقَى مَن يحاربُه خَساراً ... ويَلقى من يُسالمُهُ فُلوجا[5]
فيا ليتني إذا ما كانَ ذاكُم ... شهِدْتُ وكُنتُ أوَّلهم وُلوجا[6]

= عمرو بن أسد زوجها من رسول الله ﷺ وافقه الكلبي عن ابن عباس . وابن سعد بسنده عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس. (الطبقات ـ عيون الأثر) .

(١) اللجاج : التمادي في الأمر . والنشيج : بكاء الصبي الذي يضرب فلا يخرج بكاؤه ويردده في صدره قال ابن الأعرابي : النشيج من الفم والنخير من الأنف . وفي التهذيب : غص البكاء في حلقه عند الفزعة فهو إذ ذاك نشيج .

(٢) المكتين : قال السهيلي في روضه : ثنى مكة وهي واحدة لأن لها بطاحاً وظواهر . وهذا كثير عند العرب في أشعارهم .

(٣) قس : هو قس بن ساعدة الإيادي خطيب العرب .

(٤) في سيرة ابن هشام : فينا بدل قوماً . وفي بلوغ الأرب للألوسي : يوماً .

(٥) فلوجا : الفلوج الظهور على الخصم والعدو .

(٦) قوله « فيا ليتي » بحذف نون الوقاية ، وحذفها مع ليت نادر . قال ابن مالك في الألفية :

وليتني فشا وليتي ندرا ... ومع لعل أعكس . . .

وَلوجاً في الذي كرهتْ قُريشٌ ولو عجّتْ بمكّتها عَجيجا[1]

أُرجّي بالذي كَرهوا جميعاً إلى ذي العرشِ إن سَفَلوا عُروجا

وهل أمرُ السفالة غيرُ كفْرٍ بمن يختارُ من سَمَكَ البروجا

فإن يَبقوا وأبقَ يكنْ أمورٌ يَضِجّ الكافرونَ لها ضجيجا

وإن أهلِكْ فكلّ فتي سيلقى منَ الأقدارِ متْلفةً خروجا[2]

وقال ورقة أيضاً فيما رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق عنه :

أتبكرُ أمْ أنتَ العشيّةَ رائحُ وفي الصدرِ من إضمارِك الحزن قادح؟[3]

لفُرقةِ قومٍ لا أحبّ فِراقَهم كأنك عنهم بعدَ يومين نازحَ

وأخبارِ صِدقٍ خُبّرتْ عن محمد يخبّرها عنهُ إذا غابَ ناصح

أتاك الذي وجّهتِ يا خيرَ حُرة بغورٍ وبالنجدَيْن حيثُ الصَحاصح[4]

إلى سوق بُصرى في الركاب التي غدتْ وهنّ من الأحمال تُعصّ دوالج[5]

فيخبرُنا عن كلّ خيرٍ بعلمِه وللحقّ أبوابٌ لهنّ مفاتح

بأن ابنَ عبدِ الله احمدَ مرسَلٌ إلى كلّ من ضمّتْ عليه الأباطح

وظني به أن سوف يبعث صَادِقاً كما أرسل العَبْدان هودٌ وصالح

وموسى وإبراهيم حتى يُرى له بهاءٌ ومنشورٌ منَ الذِكر واضح

ويتبعه حيّا لؤيّ وغالب شبابُهم والأشيَبون الجحاجح[6]

فإن أبقَ حتى يَدركَ الناسَ دهرُه فإني به مستبشرُ الودّ فارح

وإلا فإني يا خديجةُ فاعلمي عنِ ارضك في الأرض العريضة سائح

وزاد الأموي :

فمتبعٌ دينَ الذي أسّس البنا وكانَ له فضلٌ على الناسِ راجح

وأسّسَ بنيانا بمكّةَ ثابتاً تلألأ فيهِ بالظلامِ المصابح

---

(١) في بلوغ الأرب للألوسي : ولوجا في الذي كرهت قريشاً . . .

(٢) المتلفة : المهلكة . خروجاً في سيرة ابن هشام حروجاً : وهي الكثيرة التصرف .

(٣) في بلوغ الأرب : وفي الصبر بدل وفي الصدر .

(٤) في بلوغ الأرب : فتاكِ بدل أتاك . والصحاصح : جمع صحصح وهو ما استوى من الأرض وجرد أي لا شجر فيها ولا قرار ماء .

(٥) قعص : وأقعصه إذا قتله قتلاً سريعاً . دوالح : من دلح البعير إذا مر بحمله مثقلاً ، أي تثاقل في مشيه من ثقل الحمل كما قال الأزهري .

(٦) في بلوغ الأرب : لؤي بن غالب . والجحاجح جمع جحجح وهو السيد السمح والكريم.

مَشابِياً لأفناء القبائل كلّها | تخبُّ إليه اليَعْمَلات الطلائح
حراجيجُ أمثالِ القداحِ منَ السُّرى | يعلّق في أرساغهنّ السرايح

ومن شعره فيما أورده أبو القاسم السهيلي في روضه[1]:

لقد نصحتُ لأقوامٍ وقلتُ لهم | أنا النذيرُ فلا يغرركُمُ أحَدُ
لا تعبدَنّ إلهاً غيرَ خالقكم | فان دَعوْكم فقولوا بيننا حَدَدُ[2]
سُبْحانَ ذي العرشِ سبحانا يدومُ له | وقبلَنا سبَّح الجوديّ والجَمَد[3]
مسخّرٌ كلّ ما تحتَ السماءِ له | لا ينبغي أن يناوِي ملكَه أحد
لا شيءَ مما نَرى تبقى بَشاشتُه | يبقى الإلهُ ويودي المالُ والولدُ
لم تُغْنِ عن هرْمزٍ يوماً خزائنه | والخُلْد قد حاولت عادٌ فما خلدوا
ولا سليمانَ إذ تجرى الرياحُ به | والجنُّ والانسُ فيما بينها مَرَدُ[4]
أينَ الملوكُ التي كانت لعزّتها | من كلِّ أوبٍ إليها وافد يَفِدُ
حوضٌ هنالك مورودٌ بلا كَذِبٍ | لا بدّ من وِردِه يوماً كما وَردوا

ثم قال هكذا نسبه أبو الفرج إلى ورقة ، قال وفيه أبيات تنسب إلى أمية بن أبي الصلت .

قلت : وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه أنه كان يستشهد في بعض الأحيان بشيء من هذه الأبيات والله أعلم .

فصل

في تجديد قريش بناء الكعبة قبل المبعث بخمس سنين

ذكر البيهقي[5] بناء الكعبة قبل تزويجه عليه الصلاة والسلام خديجة . والمشهور أن بناء قريش الكعبة بعد تزويج خديجة كما ذكرناه بعشر سنين . ثم شرع البيهقي في ذكر بناء الكعبة في

---

(١) قاله لما مر ببلال مؤذن رسول الله ﷺ وهو يعذب برمضاء مكة ونهاهم عنه فلم ينتهوا ؛ فقال : والله لئن قتلتموه لاتخذن قبره حناناً (بلوغ الأرب - ٢/٢٧١) .

(٢) في بلوغ الأرب للألوسي وعجزه : فإن دعيتم فقولوا دونه حَدَد .
والحدد : بفتح الحاء والدال : المنع .

(٣) عند الألوسي :

سبحان ذي العرش لا شيء يعادله | رب البرية فرد واحد صمد
سبحانه ثم سبحانا نعوذ به | وقبلنا سبح الجودي والجمد

(٤) في الألوسي :

ولا سليمان إذا دان الشعوب له | والجن والأنس تجري بينها البُرُد

(٥) أنظر دلائل النبوة ج ٢/٤٣ وما بعدها .

زمن إبراهيم كما قدمناه في قصته ، وأورد حديث ابن عباس المتقدم في صحيح البخاري وذكر ما ورد من الاسرائيليات في بنائه في زمن آدم ولا يصح ذلك ، فإن ظاهر القرآن يقتضي أن إبراهيم أول من بناه مبتدئاً وأول من أسسه ، وكانت بقعته معظمة قبل ذلك معتنى بها مشرفة في سائر الأعصار والأوقات قال الله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ [آل عمران : ٩٦ ـ ٩٧] وثبت في الصحيحين[١] عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » قلت ثم أي ؟ قال : « المسجد الأقصى » قلت كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » وقد تكلمنا على هذا فيما تقدم ، وإن المسجد الأقصى أسسه اسرائيل وهو يعقوب عليه السلام . وفي الصحيحين أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . وقال البيهقي[٢] أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو عبد الله الصفار حدثنا أحمد بن مهران حدثنا عبيد الله [بن موسى] حدثنا اسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو ، قال : كان البيت قبل الأرض بألفي سنة ، ﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ [الانشقاق : ٣] قال من تحته مدت . قال وقد تابعه منصور عن مجاهد .

قلت : وهذا غريب جداً وكأنه من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك وكان فيهما اسرائيليات يحدث منها وفيهما منكرات وغرائب .

ثم قال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو جعفر محمد بن محمد بن محمد[٣] بن عبد الله البغدادي حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح حدثنا أبو صالح الجهني حدثني ابن لهيعة عن يزيد بن[٤] أبي الخير عن عبد الله بن عمرو بن العاص . قال : قال رسول الله ﷺ : « بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما ابنيا لي بيتاً ، فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل ، حتى أجابه الماء نودي من تحته حسبك يا آدم ، فلما بنيا أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به وقيل له أنت أول الناس ، وهذا أول بيت ، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح ، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه » .

قال البيهقي : تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً .

---

(١) أخرجه البخاري في ٦٠كتاب الأنبياء ١٠باب حدثنا موسى بن إسماعيل الفتح ٦/ ٤٠٧ وأخرجه مسلم في أول كتاب المساجد ح (١) صفحة (٣٧٠).

(٢) دلائل ج ٢/ ٤٤، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥١٨ وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(٣) في الدلائل ج ٢/ ٤٤ : محمد بن محمد بن عبد الله .

(٤) كذا في الأصل وفي الدلائل : يزيد عن أبي الخير .

قلت : وهو ضعيف ، ووقفه على عبد الله بن عمرو أقوى وأثبت والله أعلم .

وقال الربيع [بن سليمان] : أنبأنا الشافعي أنبأنا سفيان عن ابن أبي لبيد عن محمد بن كعب القرظي ـ أو غيره ـ قال : حج آدم فلقيته الملائكة فقالوا بر نسكك يا آدم لقد حججنا قبلك بألفي عام . وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق حدثني بقية ـ أو قال ثقة ـ من أهل المدينة عن عروة بن الزبير أنه قال : ما من نبي إلّا وقد حج البيت إلّا ما كان من هود وصالح .

قلت : وقد قدمنا حجهما إليه . والمقصود الحج إلى محله وبقعته وإن لم يكن ثم بناء والله أعلم . ثم أورد البيهقي حديث ابن عباس المتقدم في قصة إبراهيم عليه السلام بطوله وتمامه وهو في صحيح البخاري . ثم روى البيهقي من حديث سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة قال : سأل رجل علياً عن قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ أهو أول بيت بني في الأرض ؟ قال لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة للناس والهدى ومقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً . وإن شئت نبأتك كيف بناؤه . إن الله تعالى أوحى إلى ابراهيم أن ابن لي بيتاً في الأرض ، فضاق به ذرعاً فأرسل [الله] إليه السكينة ، وهي ريح خجوج لها رأس ، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت ثم تطوقت في موضع البيت تطوق الحية ، فبنى إبراهيم [وكان يبني هو ساقاً كل يوم] حتى بلغ مكان الحجر ، قال لابنه أبغني حجراً ، فالتمس حجراً حتى أتاه به ، فوجد الحجر الأسود قد ركب ، فقال لأبيه من أين لك هذا ؟ قال جاء به من لا يتكل على بنائك ، جاء به جبريل ، من السماء فأتمه[1] . قال فمر عليه الدهر فانهدم ، فبنته العمالقة ، ثم انهدم فبنته جرهم ، ثم انهدم فبنته قريش ورسول الله ﷺ يومئذٍ رجل شاب . فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه ، فقالوا : نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة ، فكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم فقضى بينهم أن يجعلوه في مرط ثم ترفعه جميع القبائل كلهم .

وقال أبو داود الطيالسي حدثنا حماد بن سلمة وقيس وسلام كلهم عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة عن علي بن أبي طالب . قال : لما انهدم البيت بعد جرهم بنته قريش ، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضعه ، فاتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب ، فدخل رسول الله ﷺ من باب بني شيبة فأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب فرفعوه وأخذه رسول الله ﷺ فوضعه ، قال يعقوب بن سفيان أخبرني أصبغ بن فرج أخبرني ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال : لما بلغ رسول الله ﷺ الحلم جمرت امرأة الكعبة ، فطارت شرارة من مجمرها في ثياب الكعبة فاحترقت فهدموها ، حتى إذا بنوها ، فبلغوا موضع الركن اختصمت قريش في الركن أي القبائل تلي رفعه . فقالوا : تعالوا نحكم أول من

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/٦٩ ـ ٧١) ورواه في أخبار مكة (١/٢٤ ـ ٢٥) ورواه الحاكم في المستدرك وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .. ووافقه الذهبي .

يطلع علينا ، فطلع عليهم رسول الله ﷺ وهو غلام عليه وشاح نمرة ، فحكموه فأمر بالركن فوضع في ثوب ، ثم أخرج سيد كل قبيلة ، فأعطاه ناحية من الثوب ، ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن ، فكان هو يضعه ، فكان لا يزداد على السن الأرضي[1] حتى دعوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحي ، فطفقوا لا ينحرون جزوراً إلاّ التمسوه فيدعو لهم فيها ، وهذا سياق حسن ، وهو من سير الزهري ، وفيه من الغرابة قوله : فلما بلغ الحلم . والمشهور أن هذا كان ورسول الله ﷺ عمره خمس وثلاثون سنة ، وهو الذي نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله[2] .

وقال موسى بن عقبة : كان بناء الكعبة قبل المبعث بخمس عشرة سنة . وهكذا قال مجاهد ، وعروة ، ومحمد بن جبير بن مطعم ، وغيرهم . فالله أعلم .

وقال موسى بن عقبة : كان بين الفجار وبين بناء الكعبة خمس عشرة سنة .

قلت : وكان الفجار وحلف الفضول في سنة واحدة إذ كان عمر رسول الله ﷺ عشرون سنة . وهذا يؤيد ما قال محمد بن إسحاق والله أعلم[3] .

قال موسى بن عقبة : وإنما حمل قريشاً على بنائها أن السيول كانت تأتي من فوقها ، من فوق الردم الذي صنعوه فخر به فخافوا أن يدخلها الماء . وكان رجل يقال له مليح سرق طيب الكعبة . فأرادوا أن يشيدوا بنيانها وأن يرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلاّ من شاؤوا فأعدوا لذلك نفقة وعمالاً . ثم غدوا إليها ليهدموها على شفق وحذر أن يمنعهم الذي ارادوا . فكان أول رجل طلعها وهدم منها شيئاً : والوليد بن المغيرة ، فلما رأوا الذي فعل الوليد تتابعوا فوضعوها ، فأعجبهم ذلك . فلما أرادوا أن يأخذوا في بنيانها أحضروا عمالهم فلم يقدر رجل منهم أن يمضي أمامه موضع قدم فزعموا أنهم رأوا حية قد أحاطت بالبيت ، رأسها عند ذنبها . فأشفقوا منها شفقة شديدة ، وخشوا أن يكونوا قد وقعوا مما عملوا في هلكة . وكانت الكعبة حرزهم ومنعتهم من الناس وشرفاً لهم فلما سقط في أيديهم والتبس عليهم أمرهم قام فيهم المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم فذكر ما كان

---

(١) في الدلائل : ثم طفق لا يزداد على السِّنّ إلاّ رضاً .

(٢) رواه الأزرقي في أخبار مكة ١/٩٩.

(٣) قال ابن هشام : لما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة هاجت حرب الفجار . وقال ابن إسحاق : هاجت حرب الفجار ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة . وقال ابن سيد الناس : ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة . وقال الأزرقي : اختصمت قريش . . . وطلع عليهم رسول الله ﷺ وهو غلام عليه وشاحاً نمرة والذي جزم به ابن إسحق أن بنيان الكعبة كان قبل المبعث بخمس سنين . ١/١٥٩.

نقول يمكن أن يكون الحريق تقدم وقته على الشروع في البناء ، أو لعل البناء كان في فترات . . . انتهت قبل المبعث بخمس سنوات . ويمكن أن يكون قد وقع التباس لدى المؤرخين في زمن احتراق الكعبة (فقال الزهري لما بلغ رسول الله الحلم احترقت . . . و) والانتهاء من هدمها وبنائها .

من نصحه لهم وأمره إياهم أن لا يتشاجروا ولا يتحاسدوا في بنائها . وأن يقتسموها أرباعاً . وأن لا يدخلوا في بنائها مالاً حراماً . وذكر أنهم لما عزموا على ذلك ذهبت الحيـة في السماء وتغيبت عنهم ورأوا أن ذلك من الله عزَّ وجـلَّ . قال : ويقـول بعض الناس إنـه اختطفهـا طائـر وألقاهـا نحو أجياد[1] .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار : فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبناء الكعبة وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها . وإنما كانت رضماً فوق القامة . فأرادوا رفعها وتسقيفها وذلك أن نفراً سرقوا كنز الكعبة ، وإنما كان في بئر في جوف الكعبة . وكان الذي وجد عنده الكنز دويك مولى لبني مليح بن عمرو بن خزاعة . فقطعت قريش يده وتزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك . وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة[2] لرجل من تجار الروم . فتحطمت . فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفهـا . قال الأمـوي : كانت هـذه السفينة لقيصر ملك الروم تحمل آلات البناء من الرخام والخشب والحديد سرحها قيصر مع باقوم الرومي إلى الكنيسة التي أحرقها الفرس للحبشة فلما بلغت مرساها من جدة بعث الله عليها ريحاً فحطمتها .

قال ابن إسحاق : وكان بمكة رجل قبطي نجار فتهيأ لهم في أنفسهم بعض مـا يصلحها . وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تطرح فيها ما يهدى إليها كل يـوم . فتتشرف[3] عـلى جدار الكعبة وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلاَّ احزألت[4] وكشت وفتحت فاها ، فكانوا يهابونها ، فبينما هي يوماً تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، بعث الله عليها طائراً فاختطفها فذهب بها . فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله تعالى قـد رضي ما أردنـا ، عندنا عامل رفيق وعندنا خشب وقد كفانا الله الحية .

وحكى السهيلي : عن رزين أن سارقاً دخل الكعبة في أيام جرهم ليسرق كنزها . فانهار البئر عليه حتى جاؤوا فأخرجوه وأخذوا منه ما كـان أخذه ، ثم سكنت هـذا البئر حيـة رأسها كـرأس الجدي وبطنها أبيض وظهرها أسود فأقامت فيها خمسمائة عام وهي التي ذكرها محمد بن إسحاق .

قال محمد بن إسحاق : فلما أجمعوا أمرهم لهدمها وبنيانها قام أبو وهب عمـرو بن عابـد بن عبد بن عمران بن مخزوم ـ وقال ابن هشام عابد بن عمران بن مخـزوم ـ فتناول من الكعبـة حجراً فـوثب من يـده حتى رجـع إلى مـوضعـه . فقـال : يـا معشر قـريش لا تـدخلوا في بنيـانها من كسبكم إلاَّ طيبـاً . لا يـدخـل فيهـا مهـر بغي ولا بيـع ربـا ، ولا مـظلمـة أحـد من النـاس ـ

---

(1) أجياد ، وفي الدلائل جياد .

(2) في أخبار الأزرقي بالشعيبة ، وهي واقعة جنوب جدة وتبعد عنها مقدار مرحلتين .

(3) في سيرة ابن هشام : تتشرق أي تبرز للشمس ويقال تشرقت : إذا قعدت للشمـس لا يحجبك عنها شيء .

(4) احزألت : رفعت رأسها وتجمعت تستعد للوثوب .

والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم . ثم رجح ابن إسحاق أن قائل ذلك أبو وهب بن عمرو - قال وكان خال أبي النبي ﷺ وكان شريفاً ممدحاً .

وقال ابن إسحاق : ثم إن قريشاً تجزأت الكعبة . فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم[1] وقبائل من قريش انضموا إليهم . وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم[2] . وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى ولبني عدي بن كعب ، وهو الحطيم[3] . ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه . فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدؤكم في هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم ترع اللهم إنا لا نريد إلا الخير . ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة ، وقالوا : ننظر فإن أصيب لم تهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء ، فقد رضي الله ما صنعنا من هدمها . فأصبح الوليد غادياً على عمله ، فهدم وهدم الناس معه - حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس - أساس إبراهيم عليه السلام - أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة[4] أخذ بعضها بعضاً - ووقع في صحيح البخاري عن يزيد بن رومان كأسنمة الإبل - قال السهيلي وأرى رواية السيرة كالألسنة وهماً والله أعلم .

قال ابن أسحاق : فحدثني بعض من يروي الحديث أن رجلاً[5] من قريش ممن كان يهدمها ادخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما ، فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها . فانتهوا عن ذلك الأساس .

وقال موسى بن عقبة : وزعم عبد الله بن عباس أن أولية قريش كانوا يحدثون أن رجلاً[6] من قريش لما اجتمعوا لينزعوا الحجارة [وانتهوا] إلى تأسيس إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عمد رجل منهم إلى حجر من الأساس الأول فرفعه وهو لا يدري أنه من الأساس الأول ، فأبصر

---

(١) زاد في تاريخ مكة : وبني تيم .

(٢) زاد في اخبار مكة فذكر : بني عامر بن لؤي .

(٣) الحطيم : سمي حطيماً ، كما قيل ، لأن الناس يزدحمون فيه حتى يحطم بعضهم بعضاً .

(٤) في رواية الأزرقي : كأنها الإبل الخلف لا يطيق الحجر منها ثلاثون رجلان .

ومن قال الأسنمة فهي جمع سنام ، وأراد أن الحجارة تدخل بعضها في بعض كما تدخل عظام الأسنمة بعضها ببعض .

ومن قال الأسنة فهي جمع سنان : أي أسنة الرماح .

(٥) في تاريخ الأزرقي : هو الوليد بن المغيرة . وفي رواية له عن سعيد بن المسيب قال : أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم . وعن جبير بن مطعم قال : عامر بن نوفل بن عبد مناف وقال الواقدي : وقد ثبت أنه أبو وهب .

(٦) كذا في الأصل ، والصواب من الدلائل رجالاً .

القوم برقة تحت الحجر كادت تلتمع بصر الرجل ، ونزا الحجر من يده فوقعَ في موضعه وفزع الرجل والبناة . فلما ستر الحجر عنهم ما تحته إلى مكانه عادوا إلى بنيانهم وقالوا لا تحركوا هذا الحجر ولا شيئاً بحذائه .

قال ابن إسحاق : وحدثت أن قريشاً وجدوا في الركن كتاباً بالسريانية فلم يعرفوا ما هو ، حتى قرأه لهم رجل من يهود[1] ، فإذا هو أنا الله ذو بكة ، خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض ، وصورت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها ـ قال ابن هشام يعني جبلاها ـ مبارك لأهلها في الماء واللبن .

قال ابن إسحاق : وحدثت أنهم وجدوا في المقام كتاباً فيه : مكة [بيت] الله الحرام ، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل ، لا يحلها أول من أهلها . قال وزعم ليث بن أبي سليم أنهم وجدوا في الكعبة قبل مبعث النبي ﷺ بأربعين سنة ـ إن كان ما ذكر حقاً ـ مكتوباً فيه : من يزرع خيراً يحصد غبطة ، ومن يزرع شراً يحصد ندامة . يعملون السيئات ويجزون الحسنات ؟ أجل كما يجتنى من الشوك العنب .

وقال سعيد بن يحيى الأموي : حدثنا المعتمر بن سليمان الرقي عن عبد الله بن بشر الزهري ـ يرفع الحديث إلى النبي ﷺ ـ قال : « وجد في المقام ثلاثة أصفح ، في الصفح الأول : إني أنا الله ذو بكة ، صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر وخففتها بسبعة أملاك حنفاء ، وباركت لأهلها في اللحم واللبن وفي الصفح الثاني : إني أنا الله ذو بكة ، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي . فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته ، وفي الصفح الثالث : إني أنا الله ذو بكة ، خلقت الخير والشر وقدرته . فطوبى لمن أجريت الخير على يديه وويل لمن أجريت الشر على يديه .

قال ابن اسحاق : ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة . ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى . حتى تحاوروا أو تحالفوا ، وأعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً . ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة . فسموا لعقة الدم . فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ثم انهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا . فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ـ وكان عامئذٍ أسن قريش[2] كلها قال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه . ففعلوا . فكان أول داخل دخل

(١) كذا في الأصل وابن هشام وفي دلائل البيهقي : حبر من يهود اليمن ، وفي رواية : من حمير .
(٢) ذكر الأزرقي أن أبا زمعة بن الأسود كان أسن القوم .

رسول الله ﷺ . فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد . فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال رسول الله ﷺ : « هلموا إليّ ثوباً » فأتي به ، وأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب[1] . ثم ارفعوه جميعاً » ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ . ثم بنى عليه . وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ الأمين .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد حدثنا ثابت ـ يعني أبا يزيد ـ حدثنا هلال يعني ابن حبان عن مجاهد عن مولاه ـ وهو السائب بن عبد الله ـ أنه حدثه أنه كان فيمن بنى الكعبة في الجاهلية قال : وكان لي حجر ـ أنا نحتّه أعبده من دون الله ـ قال : وكنت أجيء باللبن الخاثر الذي آنفه على نفسي فأصبه عليه فيجيء الكلب فيلحسه ثم يشغر فيبول عليه قال : فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر ولا يرى الحجر أحد . فإذا هو وسط أحجارنا مثل رأس الرجل يكاد يترايا منه وجه الرجل . فقال بطن من قريش : نحن نضعه وقال آخرون نحن نضعه فقالوا اجعلوا بينكم حكماً . فقالوا أول رجل يطلع من الفج . فجاء رسول الله ﷺ فقالوا أتاكم الأمين . فقالوا له فوضعه في ثوب . ثم دعا بطونهم فرفعوا نواحيه فوضعه هو ﷺ .

قال ابن إسحاق : وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثماني عشرة ذراعاً وكانت تكسى القباطي . ثم كسيت بعد البرور[2] . وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف[3] .

قلت : وقد كانوا أخرجوا منها الحِجر ـ وهو ستة أذرع أو سبعة أذرع من ناحية الشام ـ قصرت بهم النفقة أي لم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم . وجعلوا للكعبة باباً واحداً من ناحية

---

(١) أي بزاوية من زواياه فكان عتبة بن ربيعة في ربع عبد مناف ، وفي الربع الثاني : أبي زمعة بن الأسود ، وفي الثالث العاص بن وائل (في الطبقات : قيس بن عدي) ، وفي الرابع أبو حذيفة بن المغيرة .

(٢) كذا في الأصل ، وفي السيرة والأزرقي البرود : وهي ثياب يمنية .

والقباطي : جمع قبطية بالضم وهو ثوب من ثياب مصر رقيق أبيض .

(٣) الديباج : معربة وهي القماش المنقوش .

وفيمن كساها الديباج : روى الفاكهي من طريق مسعر عن جسرة : أن خالد بن جعفر بن كلاب أول من كسا الكعبة الديباج في الجاهلية . وعن الدارقطني في المؤتلف : أن نتيلة بنت حيان والدة العباس بن عبد المطلب كست الكعبة الديباج .

وقال ابن حجر : وحصلنا في أول من كساها الديباج على ستة أقوال : ١ ـ خالد ـ ٢ ـ نتيلة ـ معاوية ـ يزيد ـ ابن الزبير ـ الحجاج .

قال : كسوة خالد ونتيلة لم تشملها كلها . وأما معاوية فلعله كساها في آخر خلافته فصادف ذلك خلافة ابنه يزيد . وأما ابن الزبير فلعله كساها بعد تجديد بنائها لكن لم يداوم على كسوتها الديباج . وأما الحجاج فكساها بأمر عبد الملك واستمر على ذلك ، فلعله أول من داوم على كسوتها في كل سنة . (الروض الأنف أخبار مكة) .

الشرق . وجعلوه مرتفعاً لئلا يدخل إليها كل أحد فيدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا(1) وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها : « ألم تَرَيْ أن قومك قصرت بهم النفقة . ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً ، وأدخلت فيها الحجر » ولهذا لما تمكن ابن الزبير بناها على ما أشار إليه رسول الله ﷺ وجاءت في غاية البهاء والحسن والسناء كاملة على قواعد الخليل . لها بابان ملتصقان بالأرض شرقياً وغربياً . يدخل الناس من هذا ويخرجون من الآخر . فلما قتل الحجاج ابن الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان ـ وهو الخليفة يومئذٍ ـ فيما صنعه ابن الزبير واعتقدوا أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه . فأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه فعمدوا إلى الحائط الشامي فحصوه وأخرجوا منه الحجر ورصوا حجارته في أرض الكعبة . فارتفع باباها وسدوا الغربي واستمر الشرقي على ما كان عليه فلما كان في زمن المهدي ـ أو ابنه المنصور ـ استشار مالكاً في إعادتها على ما كان صنعه ابن الزبير . فقال مالك رحمه الله : إني أكره أن يتخذها الملوك ملعبة . فتركها على ما هي عليه . فهي إلى الآن كذلك .

وأما المسجد الحرام : فأول من أخر البيوت من حول الكعبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، اشتراها من أهلها وهدمها فلما كان عثمان اشترى دوراً وزادها فيه . فلما ولي ابن الزبير أحكم بنيانه ، وحسن جدرانه وأكثر أبوابه . ولم يوسعه شيئاً آخر . فلما استبد بالأمر عبد الملك بن مروان زاد في ارتفاع جدرانه وأمر بالكعبة فكسيت الديباج . وكان الذي تولى ذلك بأمره الحجاج بن يوسف . وقد ذكرنا قصة بناء البيت والأحاديث الواردة في ذلك في تفسير سورة البقرة عند قوله : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾(2) وذكرنا ذلك مطولاً مستقصى فمن شاء كتبه هاهنا ولله الحمد والمنة .

قال ابن إسحاق : فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا قال الزبير بن عبد المطلب ، فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها :

عجبتُ لِمَا تصوَّبتِ العقابُ ... إلى الثعبانِ وهي لها اضطرابُ
وقد كانت تكونُ لها كشيشٌ ... وأحياناً يكونُ لها وِثاب
إذا قُمنا إلى التأسيسِ شدَّت ... تُهيِّبُنا البِناءَ وقد تهاب
فلما أن خشينا الزجرَ جاءت ... عُقابٌ تتلئبُّ لها انصباب(3)
فضمَّتْها إليها ثم خلَّت ... لنا البنيانَ ليسَ لها حِجاب
فقمنا حاشدينَ إلى بناءٍ ... لنا منهُ القواعدُ والتراب

---

(1) زاد في تاريخ مكة : رفعوا بابها حتى لا تدخلها السيول ، ولا ترقى إلا بسلم .

(2) سورة البقرة الآية ١٢٧ .

(3) الزجر : المنع . ويروى الزجر : المطلب .

غـداةَ يـرفَـعِ الـتـأسيسُ مِـنـه ... وليسَ عـلى مَـسـاوينـا ثيـاب(١)
أعـزٌّ بـه الـمـلـيـكُ بـني لـؤيٍّ ... فـليسَ لأصـلِهِ مـنـهـم ذَهـاب
وقد حشَدت هناك بـنـو عَـديّ ... ومُـرّةُ قـد تَـقـدّمـهـا كِـلاب
فـبـوّأنـا الـمـلـيـكُ بـذاك عـزاً ... وعـنـد الله يُـلتـمَس الـثـواب

وقد قدمنا في فصل ما كان الله يحوط به رسول الله ﷺ من أقذار الجاهلية ، أنه كان هو والعباس عمه ينقلان الحجارة ، وأنه عليه الصلاة والسلام لما وضع إزاره تحت الحجارة على كتفه نهي عن خلع إزاره فأعاده إلى سيرته الأولى .

فصل

وذكر ابن إسحاق ما كانت قريش ابتدعوه في تسميتهم الحمس ، وهو الشدة في الدين والصلابة . وذلك لأنهم عظموا الحرم تعظيماً زائداً بحيث التزموا بسببه أن لا يخرجوا منه ليلة عرفة . وكانوا يقولون نحن أبناء الحرم وقطان بيت الله . فكانوا لا يقفون بعرفات مع علمهم أنها من مشاعر إبراهيم عليه السلام ، حتى لا يخرجوا عن نظام ما كانوا قرروه من البدعة الفاسدة . وكانوا لا يدخرون من اللبن أقِطاً ولا سمناً ولا يسلون شحماً وهم حرم . ولا يدخلون بيتاً من شعر ولا يستظلون إن استظلوا إلاّ ببيت من أدَم . وكانوا يمنعون الحجيج والعمار ـ ما داموا محرمين ـ أن يأكلوا إلاّ من طعام قريش ، ولا يطوفوا إلاّ في ثياب قريش ، فإن لم يجد أحد منهم ثوب أحد من الحمس وهم قريش وما ولدوا ومن دخل معهم من كنانة وخزاعة طاف عرياناً ولو كانت امرأة ولهذا كانت المرأة إذا اتفق طوافها لذلك وضعت يدها على فرجها وتقول* :

الـيـومَ يـبـدو بـعـضُـه أو كـلّه ... وبـعـدَ هـذا الـيـوم لا أحـلّه

فإن تكرم أحد ممن يجد ثوب أحمسي فطاف في ثياب نفسه فعليه إذا فرغ من الطواف أن يلقيها فلا ينتفع بها بعد ذلك . وليس له ولا لغيره أن يمسها . وكانت العرب تسمي تلك الثياب اللقى(٣) قال بعض الشعراء :

كفى حـزنـاً كَـرِّي عليه كـأنـه ... لقى بـين أيـدي الـطائفـين حـريم

---

(١) مساوينا والمساوي هنا : السوآت ، وفي سيرة ابن هشام : مسوينا أي مسوي البنيان .
ثياب : إشارة إلى أنهم كانوا ينقلون الحجارة عراة ويرون أن ذلك كان ديناً وأنه من باب التشمير والجد في الطاعة .

(٢) في سيرة ابن هشام : وما بدا منه فلا أحله .

* يقال ان المرأة التي قالت ذلك هي ضباعة بنت عامر بن صعصعة ثم من بني سلمة بن قشير (الروض الأنف) .

(٣) اللقى : الشيء الملقى ويقال المنسي وجمعه : ألقاء .

قال ابن إسحاق : فكانوا كذلك حتى بعث الله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن رداً عليهم فيما ابتدعوه فقال [تعالى] : ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ أي جمهور العرب من عرفات ﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾[1] وقد قدمنا أن رسول الله ﷺ كان يقف بعرفات قبل أن ينزل عليه توفيقاً من الله له ، وأنزل الله عليه رداً عليهم فيما كانوا حرموا من اللباس والطعام على الناس ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾[2] الآية . وقال زياد البكائي[3] عن ابن إسحاق : ولا أدري أكان ابتداعهم لذلك قبل الفيل أو بعده[4].

مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً . وذكر شيء من البشارات بذلك

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : وكانت الأحبار من اليهود والكهان من النصارى ومن العرب[5] قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه ، أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فعما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم اليهم فيه .

قال الله تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ﴾ [الأعراف: ١٥٧] الآية وقال الله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ [الصف: ٦] . وقال الله تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل ﴾ [الفتح: ٢٩] الآية . وقال الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ [آل عمران: ٨١] وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : « ما بعث الله نبياً إلاّ أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٩ .

(٢) سورة الأعراف الآيتان ٣١ و٣٢ .

(٣) زياد البكائي هو أبو محمد زياد بن عبد الله بن طفيل القيسي العامري البكائي راوي السيرة عن ابن إسحاق توفي سنة ١٨٣ هـ .

(٤) ورد في تاريخ مكة ج ١٧٦/١ : قال ابن جريج لما أن اهلك الله تعالى أصحاب الفيل عظمت العرب قريشاً وأهل مكة وقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم فازدادوا في تعظيم الحرم والمشاعر الحرام . . . وقالت قريش نحن أهل الله وبنو إبراهيم . . . فابتدعوا في دينهم أحداثاً أداروها بينهم .

(٥) في سيرة ابن هشام : والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب .

محمد وهم أنبياء ليؤمنن بـه ولينصرنـه وليتبعنه » يعلم من هـذا أن جميع الأنبيـاء بشـروا وأمـروا باتباعه .

وقد قال إبراهيم عليه السلام فيما دعا به لأهل مكة : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ﴾ الآية [البقرة : ١٢٩].

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر حدثنا الفرج بن فضالة حدثنا لقمان بن عامر سمعت أبا أمامة قال قلت يا رسول الله ، ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبشـرى عيسى ، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام » وقد روى محمد بن إسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ عنه مثله ومعنى هذا أنه أراد بدء أمره بين الناس واشتهار ذكره وانتشاره فذكر دعوة إبراهيم الذي تنسب إليه العرب ، ثم بشرى عيسى الذي هـو خاتم أنبياء بني اسرائيل كما تقدم . يدل هذا على أن من بينهما من الأنبياء بشروا به أيضاً .

أما في الملأ الأعلى فقد كان أمره مشهـوراً مذكـوراً معلوماً من قبـل خلق آدم عليه الصـلاة والسلام كما قال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا معاوية بن صـالح عن سعيد بن سـويـد الكلبي عن عبـد الأعـلى بن هـلال السلمي عن العـربـاض بن سـاريـة . قـال : قـال رسول الله ﷺ : « إني عبد الله خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك ، دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين »[1] . وقـد رواه الليث عن معاوية بن صالح وقال : إن أمه رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام . وقـال الإمام أحمـد أيضاً حـدثنا عبـد الرحمن حـدثنا منصـور بن سعد عن بـديـل بن ميسـرة عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال : قلت يا رسول الله ، متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » تفرد بهن أحمد[2] .

وقد رواه عمر بن أحمد بن شاهين في كتاب دلائل النبوة من حديث أبي هريرة فقال حـدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز ـ يعني أبا القاسم البغوي ـ حدثنا أبـو همام الـوليد بن مسلم عن الأوزاعي حدثني يحيى عن أبي سلمة عن أبي هـريرة قـال : سئل رسـول الله ﷺ متى وجبت لك النبوة ؟ قال : « بين خلق آدم ونفخ الروح فيه » ورواه من وجه آخر عن الأوزاعي بـه ـ وقال :

---

(١) كذا في الأصل وفي دلائل البيهقي : النبيين .

(٢) أخرج الحديثان أحمد في مسنده ج ٤/١٢٧ ـ ١٢٨ و ٤/٦٦ و ٥/٣٧٩.

وأخرج الجزء الأول من الحديث الحاكم في المستدرك ٢/٦٠٠ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال رواه أحمد والطبراني والبزار وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد وقد وثقه ابن حبان .

« وآدم منجدل في طينته » . وروى عن البغوي أيضاً عن أحمد بن المقدام عن بقية بن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي هريرة - مرفوعاً - في قول الله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ قال رسول الله ﷺ : « كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث » ومن حديث أبي مزاحم عن قيس بن الربيع عن جابر عن الشعبي عن ابن عباس قيل يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » .

وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع ، إذ كانت وهي لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم ، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما بعض ذكر أموره ولا يلقي العرب لذلك فيه بالاً . حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها ، فلما تقارب أمر رسول الله ﷺ وحضر زمان مبعثه حجبت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تعقد لاستراق السمع فيها ، فرموا بالنجوم فعرفت الشياطين أن ذلك لأمر حدث من أمر الله عزَّ وجلَّ . قال[1] وفي ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنَّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ إلى آخر السورة . وقد ذكرنا تفسير ذلك كله في كتابنا التفسير ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا إنَّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ الآيات ، ذكرنا تفسير ذلك كله هناك .

قال محمد بن إسحاق : حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حُدِّث أن أول العرب فزع للرمي بالنجوم حين رُمي بها - هذا الحي من ثقيف - وأنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بني علاج وكان أدهى العرب وأمكرها[2] ، فقالوا له يا عمرو ألم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم ؟ قال بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدي بها في البر والبحر ويعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء ، لما يصلح الناس في معايشهم هي التي يرمى بها ، فهو والله طي الدنيا ، وهلاك هذا الخلق وإن كانت نجوماً غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا لأمرٍ أراد الله به هذا الخلق فما هو ؟ .

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض أهل العلم أن امرأة من بني سهم - يقال لها الغيطلة[3] -

---

(١) أي ابن إسحاق .

(٢) في سيرة ابن هشام : وأنكرها رأياً . أي أهداها رأياً من النكر وهو الدهاء ، ويروى بالباء من البكور في الشيء وهو مبادرته فيه وسبقه إليه .

(٣) قال ابن هشام الغيطلة من بني مرة بن عبد مناة بن كنانة ، أخوه بني مدلج بن مرة . ويقال الغيطلة بنت مالك بن الحارث بن عمرو بن الصعق بن شنوق بن مرة .

كانت كاهنة في الجاهلية جاءها صاحبها ليلة من الليالي فانقض تحتها ، ثم قال : أدر ما أدر ، يوم عقر ونحر ، قلت قريش حين بلغها ذلك ما يريد ؟ ثم جاءها ليلة أخرى فانقض تحتهاثم قال : شعوب ما شعوب ؟ تصرع فيه كعب[1] الجنوب . فلما بلغ ذلك قريشاً قالوا مـاذا يريد ؟ إن هذا لأمرٍ هو كائن فانظروا ما هو ، فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأحد بالشعب ، فعرفوا أنه كان الذي جاء به إلى صاحبته .

قال ابن إسحاق : وحدثني علي بن نافع الجرشي أن جنباً[2] ـ بطناً من اليمن ـ كان لهم كاهن في الجاهلية ، فلما ذكر أمر رسول الله ﷺ وانتشر في العرب ، قالت له جنب : انظر لنا في أمر هذا الرجل واجتمعوا له في أسفل جبله . فنزل إليهم حين طلعت الشمس فوقف لهم قائماً متكئاً على قوس له ، فرفع رأسه إلى السماء طويلاً ، ثم جعل ينزو ، ثم قال : أيها الناس إن الله أكرم محمداً واصطفاه ، وطهّر قلبه وحشاه ومكثه فيكم أيها الناس قليل . ثم اشتد في جبله راجعـاً من حيث جاء ، ثم ذكر ابن إسحاق قصة سواد بن قارب وقد أخرناها إلى هواتف الجان .

فصل

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إنّ مما دعانا إلى الإسلام ـ مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ـ أن كنا نسمع من رجل من يهود[3] ـ وكنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا يزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عادٍ وإرَم ، فكنا كثيراً ملس نسمع ذلك منهم . فلما بعث الله رسول الله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به . فبادرناهم إليه ، فآمنا به وكفروا به . ففينا وفيهم نزلت هذه الآية : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ .

وقال ورقاء : عن ابن أبي نجيح عن علي الأزدي : كانت اليهود تقول اللهم ابعث لنا هذا

---

(١) المراد هنا كعب بن لؤي ، وسياق الحديث الآتي يؤيد ذلك خاصة أن معظم الذين صرعوا في بدر وأحد من أشراف قريش من كعب بن لؤي .

(٢) جنب : هم بطن من بني يزيد بن حرب بن علة بن جلد بن مالك بن أدد وهو مذحج وهم : بنو منبه والحارث والغل وسيحان وشمره وهفان . وفي جمهرة الأنساب : والقاموس ومعجم البلدان سنحان بدل سيحان وشمران بدل شمر .

سموا جنب أو جناب لأنهم تحالفوا على بني عمهم صداء أو صدا كما في نهاية الأرب وهم من اتباع الكافر الصليحي ـ لعله كاهنهم ـ القائم بنواحي زبيد .

(٣) عبارة ابن هشام : لما كنا نسمع من رجال يهود .

النبي يحكم بيننا وبين الناس يستفتحون به ـ أي يستنصرون به [على الناس] ـ رواه البيهقي(١) . ثم روي من طريق عبد الملك بن هارون بن عنبرة(٢) عن أبيه عن جده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال : كانت اليهود بخيبر تقاتل غطفان فكلما التقوا هزمت يهود خيبر ، فعاذت اليهود بهذا الدعاء فقالوا : اللهم [إنا] نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه في آخر الزمان . إلاّ نصرتنا عليهم ، قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء ، فهزموا غطفان ، فلما بعث النبي ﷺ كفروا به . فأنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾(٣) الآية وروى عطية عن ابن عباس نحوه . وروي عن عكرمة من قوله نحو ذلك أيضاً .

وقال ابن إسحاق : وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد عن سلمة بن سلام بن وقش ـ وكان من أهل بدر ـ قال : كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل ، قال : فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل . قال سلمة : وأنا يومئذٍ أحدث من فيه سناً . عليّ فروة لي مضطجع فيها بفناء أهلي ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار . قال : فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان ، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت ، فقالوا له : ويحك يا فلان أو ترى هذا كائناً ؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ؟ قال : نعم ، والذي يحلف به ويود أن له تحطه(٤) من تلك النار أعظم تنور في الدار، يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه ، وأن ينجو من تلك النار غداً قالوا له : ويحك يا فلان فما آية ذلك ؟ قال : نبي مبعوث من نحو هذه البلاد . وأشار بيده إلى نحو مكة واليمن ، قالوا ومتى نراه ؟ قال ـ فنظر إليّ ، وأنا من أحدثهم سناً ـ فقال : أن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه . قال سلمة : فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله [محمداً] رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا ، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً . قال : فقلنا له : ويحك يا فلان ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال بلى ولكن ليس به . رواه أحمد عن يعقوب عن أبيه عن ابن عباس . ورواه البيهقي عن الحاكم باسناده من طريق يونس بن بكير(٥) .

وروى أبو نعيم في الدلائل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن محمد بن

---

(١) دلائل النبوة ج ٢/٧٦.

(٢) في الدلائل ابن عنترة/وهو الصواب (التقريب ـ الثقات للعجلي ـ الكاشف للذهبي).

قال الدارقطني : ضعيفان وقال أبو حاتم متروك وقال ابن حبان يضع الحديث وأبوه ثقة ووثق هارون العجلي . وأحمد وابن معين .

(٣) سورة البقرة جزء من الآية ٨٩.

(٤) كذا في الأصل وفي سيرة ابن هشام : ولود أن له بحظه .

٥) أخرجه أحمد في مسنده ٣/٤٦٨ والبيهقي في الدلائل ٢/٧٨ ـ ٧٩ ونقله الصالحي في السيرة الشامية (١/١٣٥) وقال : رواه ابن إسحاق والبخاري وصححه الحاكم ، والخبر في الاكتفاء والوفا .

سلمة قال : لم يكن في بني عبد الأشهل إلاّ يهودي واحد يقال له يوشع ، فسمعته يقول ـ وإني لغلام في إزار ـ قد أظلكم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت . ثم أشار بيده إلى بيت الله ، فمن أدركه فليصدقه . فبعث رسول الله ﷺ فأسلمنا وهو بين أظهرنا لم يسلم حسداً وبغياً . وقد قدمنا حديث أبي سعيد عن أبيه في أخبار يوشع هذا عن خروج رسول الله ﷺ وصفته ونعته وأخبار الزبير بن باطا عن ظهور كوكب مولد رسول الله ﷺ ورواه الحاكم عن البيهقي بإسناده من طريق يونس بن بكير عنه .

قال ابن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال : قال لي : هل تدري عم كان اسلام ثعلبة بن سعية وأسيد بن سَعية ، وأسد بن عبيد ـ نفر من بني هدل ، أخوة بني قريظة كانوا معهم في جاهليتهم ، ثم كانوا سادتهم في الإسلام ـ قال : قلت : لا ، قال : فإن رجلاً من اليهود من أرض الشام يقال له ابن الهيبان قدم علينا قبل الإسلام بسنين فحل بين أظهرنا ، لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه ، فأقام عندنا فكنا إذا قحطنا المطر قلنا له : أخرج يا بن الهيبان فاستسق لنا ، فيقول : لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة ، فنقول له كم ؟ فيقول صاعاً من تمر ، أو مدين من شعير . قال فنخرجها ، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا[1] فيستسقي لنا ، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ويسقى . قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً . قال : ثم حضرته الوفاة عندنا ، فلما عرف أنه ميت قال : يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قال قلنا أنت أعلم قال : فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف[2] خروج نبي قد أظل زمانه ، هذه البلدة مهاجره فكنت أرجو أن يبعث فاتبعه ، وقد أظلكم زمانه فلا تسبقن إليه يا معشر يهود ، فإنه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري [والنساء] فيمن خالفه فلا يمنعنكم ذلك منه . فلما بعث رسول الله ﷺ وحاصر[3] بني قريظة قال هؤلاء الفتية ـ وكانوا شباباً أحداثاً ـ : يا بني قريظة والله إنه للنبي الذي عهد إليكم فيه ابن الهيبان . قالوا ليس به قالوا بلى والله إنه لهو بصفته . فنزلوا فأسلموا فاحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم .

قال ابن إسحاق فهذا ما بلغنا عن أحبار يهود .

قلت : وقد قدمنا في قدوم تبع اليماني وهو أبو كرب تبان أسعد إلى المدينة ومحاصرته إياها وأنه خرج إليه ذانك الحبران من اليهود فقالا له إنه لا سبيل لك عليها ، أنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان فثناه ذلك عنها . وقد روى أبو نعيم في الدلائل من طريق الوليد بن مسلم حدثنا محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده . قال قال عبد الله بن سلام : إن

---

(١) في سيرة ابن هشام ودلائل البيهقي : حرّتنا .

(٢) أتوكف : أنتظر خروجه واستشعر ؛ وفي الدلائل : أتوقع . أظل زمانه أي أشرف وقرب .

(٣) المراد هنا حين غزا ﷺ بني قريظة عقب منصرفه من غزوة الخندق .

الله لما أراد هدى زيد بن سعية قال زيد لم يبق شيء من علامات النبوة إلاّ وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ ، حين نظرت إليه إلاّ اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلاّ حلماً . قال فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله ، فذكر قصة إسلافه للنبي ﷺ مالاً في ثمرة ، قال فلما حل الأجل أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ـ وهو في جنازة مع أصحابه ـ ونظرت إليه بوجه غليظ ، وقلت : يا محمد ألا تقضيني حقي ؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لمطل ، قال فنظر إلى عمر وعيناه يدوران في وجهه كالفلك المستدير . ثم قال يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ، وتفعل ما أرى ؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم . ثم قال : « أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر ، أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة ، اذهب به يا عمر فاقضه حقه . وزد عشرين صاعاً من تمر » فأسلم زيد بن سعية رضي الله عنه . وشهد بقية المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وتوفي عام تبوك رحمه الله .

ثم ذكر ابن إسحاق رحمه الله : إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه وأرضاه فقال حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس . قال حدثني سلمان الفارسي ـ من فيه ـ قال : كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان من أهل قرية يقال لها جي[1] وكان أبي دهقان[2] قريته وكنت أحب خلق الله إليه ، فلم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدت في المجوسية ، حتى كنت قطن[3] النار التي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة . قال وكانت لأبي ضيعة عظيمة ، قال فشغل في بنيان له يوماً فقال لي يا بني إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي ، فاذهب إليها فاطلعها ، وأمرني فيها ببعض ما يريد . ثم قال لي ولا تحتبس عني فإنك إن احتبست عني كنت أهم إليّ من ضيعتي ، وشغلتني عن كل شيء من أمري . قال فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون . وكنت لا أدري ما أمر الناس ، لحبس أبي إياي في بيته ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم . وقلت هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي فلم آتها . ثم قلت لهم أين أصل هذا الدين ؟ قالوا بالشام ، فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي ، وشغلته عن أمره كله . فلما جئت قال : أي بني أين كنت ألم أكن أعهد إليك ما عهدته ؟ قال قلت

---

(١) جَيّ : اسم مدينة ناحية أصبهان القديمة ، وهي الآن خراب منفردة ، وتسمى الآن عند العجم شهرستان وعند المحدثين المدينة . معجم البلدان ٢/٢٠٢ وفي رواية أنه من رامهرمز فلعله ولد بها ونشأ في جي كما في دلائل أبي نعيم (٢١٣).

(٢) الدهقان : معربة وهو شيخ القرية ، العارف بالفلاحة وما يصلح الأرض من الشجر يلجأ إليه في معرفة ذلك .

(٣) قطن النار : خادمها الذي يخدمها ويمنعها من أن تخبو .

يا أبة مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس قال أي بني ، ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه . قال قلت : كلا والله إنه لخير من ديننا . قال فخافني فجعل في رجلي قيداً ثم حبسني في بيته ، قال وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم . قال : فقدم عليهم ركب من الشام فجاؤوني[1] النصارى فأخبروني بهم . فقلت [لهم] إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني. قال : فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم . فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين علماً ؟ قالوا الأسقف في الكنيسة . قال فجئته فقلت له : إني قد رغبت في هذا الدين ، وأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك ، وأتعلم منك ، فأصلي معك . قال ادخل ، فدخلت معه فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا له شيئاً كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق ، قال وابغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع . ثم مات واجتمعت له النصارى ليدفنوه . فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها ، فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئاً . قال فقالوا لي : وما علمك بذلك ؟ قال فقلت لهم أنا أدلكم على كنزه ، قالوا : فدلنا [عليه] . قال فأريتهم موضعه ، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً ، فلما رأوها قالوا : لا ندفنه أبداً قال فصلبوه ورجموه بالحجارة . وجاؤوا برجل آخر فوضعوه مكانه. قال سلمان فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس ، أرى أنه أفضل منه [و] أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أداب ليلاً ونهاراً [منه] . قال فأحببته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله . قال فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة فقلت له إني قد كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى فإلى من توصي بي ؟ وبم تأمرني به ؟ قال أي بني ، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه . لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان وهو على ما كنت عليه فالحق به . قال فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل . فقلت [له] : يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك وأخبرني أنك على أمره ، فقال لي أقم عندي . فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من أمر الله ما ترى فإلى من توصي بي وبم تأمرني ؟ قال يا بني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين[2] وهو فلان فالحق به ، فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فأخبرته

---

(١) كذا في الأصل والنسخ المطبوعة ؛ وفي سيرة ابن هشام تجار من النصارى ، وفي دلائل البيهقي : ناس تجارتهم .

(٢) نصيبين : مدينة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام بينها وبين الموصل ستة أيام .

خيري وما أمرني به صاحباي . فقال أقم عندي فأقمت عنده . فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل ، فوالله ما لبث أن نزل به الموت فلما حضر قلت له : يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي وبم تأمرني ؟ قال يا بني والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلاّ رجل بعمورية[1] من أرض الروم فإنه على مثل ما نحن عليه . فإن أحببت فائته فإنه على أمرنا . فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري ؛ فقال أقم عندي فأقمت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم . قال واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة ، قال ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان . ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي وبم تأمرني ؟ قال أي بني ، والله ما أعلم أصبح [اليوم] أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظل زمان نبي ، مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجره إلى الأرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل . قال ثم مات وغيب ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث . ثم مر بي نفر من كلب تجار ، فقلت لهم : احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه قالوا نعم فاعطيتموها وحملوني معهم ، حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي عبداً ، فكنت عنده ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي ، ولم يحق في نفسي . فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة ، فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة ، فوالله ما هو إلاّ أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها ، فأقمت بها وبعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق ، ثم هاجر إلى المدينة فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل . وسيدي جالس تحتي ، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال يا فلان قاتل الله بني قيلة[2] . والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء[3] على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي . قال سلمان فلما سمعتها أخذتني الرعدة حتى ظننت أني ساقط على سيدي فنزلت عن النخلة ، فجعلت أقول لابن عمه ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ قال فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة. ثم قال مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك ، قال فقلت لا شيء إنما أردت أن أستثبته عما قال . قال وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته . ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ ـ وهو بقباء ـ فدخلت عليه فقلت له إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء كان عندي للصدقة ، فرأيتكم أحق به من غيركم . قال فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه « كلوا » وأمسك يده

---

(١) عمورية : بلد في بلاد الروم غزاه المعتصم . وسميت بعمورية بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح .

(٢) قيلة : بنت كاهل بعد عذرة . . . من قضاعة أم الأوس والخزرج .

(٣) قباء : اسم بئر عرفت القرية بها ، وتقع قرية قباء على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة .

فلم يأكل ، فقلت في نفسي هذه واحدة ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة . ثم جئته فقلت له إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها . قال فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه ، قال فقلت في نفسي هاتان ثنتان . قال ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليه شملتان[1] وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه . ثم استدبرته أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي ؟ فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي . فالقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أقبله وأبكي فقال لي رسول الله ﷺ : «تحول» فتحولت بين يديه ، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا بن عباس . فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذاك أصحابه . ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد . قال سلمان . ثم قال لي رسول الله ﷺ : « كاتب يا سلمان » فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير[2] وأربعين أوقية . فقال رسول الله ﷺ ، لأصحابه « أعينوا أخاكم » فأعانوني في النخل : الرجل بثلاثين ودية ، والرجل بعشرين ودية ، والرجل بخمس عشرة ودية والرجل بعشرة[3] . يعين الرجل بقدر ما عنده حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية . فقال لي رسول الله ﷺ : « اذهب يا سلمان ففقر لها ، فإذا فرغت فائتني أكن أنا أضعها بيدي » . قال : ففقرت ، وأعانني أصحابي ، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته . فخرج رسول الله ﷺ معي إليها . فجعلنا نقرب إليه الودي ، ويضعه رسول الله ﷺ بيده حتى إذا فرغنا فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة[4] . فأديت النخل وبقي عليّ المال . فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن . فقال « ما فعل الفارسي المكاتب ؟ » قال فدعيت له قال « خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان » قال قلت : وأين تقع هذه مما علي يا رسول الله ؟ قال : « خذها فإن الله سيؤدي بها عنك » قال فأخذتها فوزنت لهم منها ـ والذي نفس سلمان بيده ـ أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم وعتق سلمان. فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حراً ثم لم يفتني معه مشهد[5].

---

(١) في سيرة ابن هشام والبيهقي : وعلي شملتان لي . والشملة : الكساء الغليظ يشتمل به الإنسان ، أي يلتحف به .

(٢) كذا في الأصول : أي بالحفر والغرس يقال فقرت الأرض إذا حفرتها . وفي النهاية : فقير النخلة : حفرة تحفر للفسيلة إذا حولت لتغرس فيها .

(٣) الصواب : بعشر (سيرة ابن هشام ـ دلائل البيهقي) .

(٤) في الروض الأنف : أن سلمان غرس ودية واحدة بيده وغرس الباقي رسول الله ﷺ فعاشت كلها إلا التي غرسها سلمان . (ابن سيد الناس) ـ البخاري .

(٥) خبر إسلام سلمان الفارسي في طبقات ابن سعد ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢١٣) ومسند أحمد ٤٣٨/٥ تاريخ الإسلام للذهبي (٥١/٢) تهذيب تاريخ دمشق (١٩٢/٦) والخصائص الكبرى للسيوطي (٤٥/١) عيون الأثر (٦٨/٦٠).

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن رجل من عبد القيس عن سلمان أنه قال لما قلت وأين تقع هذه من الذي علي يا رسول الله ؟ أخذها رسول الله ﷺ فقلبها على لسانه ، ثم قال : « خذها فأوفهم منها » فأخذتها فأوفيتهم منها حقهم كله أربعين أوقية .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة حدثني من لا أتهم عن عمر بن عبد العزيز بن مروان قال حدثت عن سلمان أنه قال لرسول الله ﷺ حين أخبره أن صاحب عمورية قال له : إيت كذا وكذا وكذا من أرض الشام ، فإن بها رجلان بين غيضتين[1] يخرج كل سنة من هذه الغيضة مستجيزاً يعترضه ذوو الأسقام فلا يدعو لأحد منهم إلاّ شُفي ، فاسأله عن هذا الدين الذي تبتغي فهو يخبرك عنه قال سلمان فخرجت حتى جئت حيث وصف لي فوجدت الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هناك ، حتى يخرج لهم تلك الليلة مستجيزاً من إحدى الغيضتين إلى الأخرى . فغشيه الناس بمرضاهم ، لا يدعو لمريض إلاّ شُفي ، وغلبوني عليه ، فلم أخلص إليه حتى دخل الغيضة التي يريد أن يدخل إلاّ منكبه . قال فتناولته فقال : من هذا ؟ والتفت إليّ قال قلت يرحمك الله أخبرني عن الحنيفية دين إبراهيم ، قال إنك لتسأل عن شيء ما يسأل عنه الناس اليوم ، قد أظلك زمان نبي يبعث بهذا الدين من أهل الحرم ، فأته فهو يحملك عليه . ثم دخل . فقال رسول الله ﷺ لسلمان : « لئن كنت صدقتني يا سلمان لقد لقيت عيسى بن مريم » هكذا وقع في هذه الرواية . وفيها رجل مبهم وهو شيخ عاصم بن عمر بن قتادة . وقد قيل إنه الحسن بن عمارة ثم هو منقطع بل معضل بين عمر بن عبد العزيز وسلمان رضي الله عنه . قوله لئن كنت صدقتني يا سلمان لقد لقيت عيسى بن مريم غريب جداً بل منكر . فإن الفترة أقل ما قيل فيها انها أربعمائة سنة ، وقيل ستمائة سنة بالشمسية ، وسلمان أكثر ما قيل إنه عاش ثلاثمائة سنة وخمسين سنة . وحكى العباس ابن يزيد البحراني إجماع مشايخه على أنه عاش مائتين وخمسين سنة . واختلفوا فيما زاد إلى ثلاثمائة وخمسين سنة والله أعلم . والظاهر أنه قال لقد لقيت وصي عيسى بن مريم فهذا ممكن بالصواب .

وقال السهيلي : الرجل المبهم هو الحسن بن عمارة وهو ضعيف وإن صح لم يكن فيه نكارة . لأن ابن جرير ذكر أن المسيح نزل من السماء بعدما رفع فوجد أمه وامرأة أخرى يبكيان عند جذع المصلوب فأخبرهما أنه لم يقتل وبعث الحواريين بعد ذلك . قال وإذا جاز نزوله مرة جاز نزوله مراراً ثم يكون نزوله الظاهر حين يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويتزوج حينئذٍ امرأة من بني جذام وإذا مات دفن في حجرة روضة رسول الله ﷺ .

وقد روى البيهقي[2] في كتاب دلائل النبوة قصة سلمان هذه من طريق يونس بن بكير عن

---

(١) الغيضة : الشجر الملتف .

(٢) دلائل النبوة ج ٢/٩٢.

محمد بن إسحاق كما تقدم ورواها أيضاً عن الحاكم عن الأصم عن يحيى بن أبي طالب . حدثنا علي بن عاصم حدثنا حاتم بن أبي صفرة(١) عن سماك بن حرب عن يزيد(٢) بن صوحان أنه سمع سلمان يحدث كيف كان أول إسلامه . فذكر قصة طويلة وذكر أنه كان من رامهرمز وكان له أخ أكبر منه غني وكان سلمان فقيراً في كنف أخيه ، وأن ابن دهقانها كان صاحباً له وكان يختلف معه إلى معلم لهم وأنه كان يختلف ذلك الغلام إلى عباد من النصارى في كهف لهم فسأله سلمان أن يذهب به معه إليهم فقال له إنك غلام وأخشى أن تنم عليهم فيقتلهم أبي ، فالتزم له أن لا يكون منه شيء يكرهه فذهب به معه فإذا هم ستة ـ أو سبعة ـ كأن الروح قد خرجت منهم من العبادة يصومون النهار ويقومون الليل يأكلون الشجر وما وجدوا فذكر عنهم أنهم يؤمنون بالرسل المتقدمين وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته أيده بالمعجزات . وقالوا له يا غلام إن لك رباً وإن لك معاداً وإن بين يديك جنة وناراً وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون النيران أهل كفر وضلالة لا يرضى الله بما يصنعون وليسوا على دينه . ثم جعل يتردد مع ذلك الغلام اليهم ثم لزمهم سلمان بالكلية ثم أجلاهم ملك تلك البلاد وهو أبو ذلك الغلام الذي صحبه سلمان اليهم عن أرضه واحتبس الملك ابنه عنده وعرض سلمان دينهم على أخيه الذي هو أكبر منه فقال إني مشتغل بنفسي في طلب المعيشة فارتحل معهم سلمان حتى دخلوا كنيسة الموصل فسلم عليهم أهلها ثم أرادوا أن يتركوني عندهم فأبيت إلَّا صحبتهم فخرجوا حتى أتوا وادياً بين جبال فتحدر إليهم رهبان تلك الناحية يسلمون عليهم واجتمعوا إليهم وجعلوا يسألونهم عن غيبتهم عنهم ويسألونهم عني فيثنون علي خيراً ، وجاء رجل معظم فيهم فخطبهم فأثنى على الله بما هو أهله وذكر الرسل وما أيدوا به وذكر عيسى بن مريم وأنه كان عبد الله ورسوله وأمرهم بالخير ونهاهم عن الشر ، ثم لما أرادوا الانصراف تبعه سلمان ولزمه قال فكان يصوم النهار ويقوم الليل من الأحد إلى الأحد فيخرج إليهم ويعظهم ويأمرهم وينهاهم فمكث على ذلك مدة طويلة ، ثم أراد أن يزور بيت المقدس فصحبه سلمان إليه قال فكان فيما يمشي يلتفت إليّ ويقبل علي فيعظني ويخبرني أن لي رباً وأن بين يدي جنة وناراً وحساباً ويعلمني ويذكرني نحو ما كان يذكر القوم يوم الأحد قال فيما يقول لي : يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد يخرج من تهامة يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم [النبوة] وهذا زمانه الذي يخرج فيه قد تقارب فأما أنا فإني شيخ كبير ولا أحسبني أدركه فإن أدركته أنت فصدقه واتّبعه ، قلت له وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه ؟ قال وإن أمرك فإن الحق فيما يجيء به ورضي الرحمن فيما قال . ثم ذكر قدومهما إلى بيت المقدس وأن صاحبه صلى فيه هاهنا وهاهنا ثم نام وقد أوصاه أنه إذا بلغ الظل مكان كذا أن يوقظه فتركه سلمان حيناً آخر أزيد مما قال ليستريح ، فلما استيقظ ذكر

---

(١) كذا في الأصل ، والصواب كما في الدلائل حاتم بن أبي صغيرة ، وهو أبو يونس البصري ، وأبو صغيرة اسمه مسلم وهو جده لأمه وقيل زوج أمه ، ثقة / التقريب ١ /١٣٧

(٢) كذا في الأصل وفي الدلائل : زيد بن صوحان .

الله ولام سلمان على ترك ما أمره من ذلك ثم خرجا من بيت المقدس فسأله مقعد فقال يا عبد الله سألتك حين وصلت فلم تعطني شيئاً وها أنا أسألك فنظر فلم يجد أحداً فأخذ بيده وقال قم بسم الله فقام وليس به بأس ولا قلبة كأنما نشط من عقال . فقال لي يا عبد الله احمل عليّ متاعي حتى أذهب إلى أهلي فأبشرهم ، فاشتغلت به ثم أدركت الرجل فلم ألحقه ولم أدر أين ذهب وكلما سألت عنه قوماً قالوا أمامك حتى لقيني ركب من العرب من بني كلب فسألتهم فلما سمعوا لغتي أناخ رجل منهم بعيره فحملني خلفه حتى أتوا بي بلادهم . فباعوني فاشترتني امرأة من الأنصار فجعلتني في حائط لها وقدم رسول الله ﷺ ؛ ثم ذكر ذهابه إليه بالصدقة والهدية ليستعلم ما قال صاحبه ، ثم تطلب النظر إلى خاتم النبوة فلما رآه آمن من ساعته . وأخبر رسول الله ﷺ خبره الذي جرى له . قال فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق فاشتراه من سيدته فأعتقه ، قال ثم سألته يوماً عن دين النصارى فقال : لا خير فيهم . قال فوقع في نفسي من أولئك الذين صحبتهم ومن ذلك الرجل الصالح الذي كان معي ببيت المقدس فدخلني من ذلك أمر عظيم حتى أنزل الله على رسول الله ﷺ : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾ [المائدة : ٨٢] فدعاني رسول الله ﷺ فجئت وأنا خائف فجلست بين يديه فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾ الآيات . ثم قال : « يا سلمان أولئك الذين كنت معهم وصاحبك لم يكونوا نصارى كانوا مسلمين » فقلت يا رسول الله والذي بعثك بالحق لهو أمرني باتباعك . فقلت له : فإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه ؟ قال : نعم ، فاتركه فإن الحق وما يرضى الله فيما يأمرك . وفي هذا السياق غرابة كثيرة وفيه بعض المخالفة لسياق محمد بن إسحاق وطريق محمد بن إسحاق أقوى إسناداً وأحسن اقتصاصاً وأقرب إلى ما رواه البخاري في صحيحه من حديث معتمر بن سليمان بن طرخان التيمي عن أبيه عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي أنه تداوله بضعة عشر ، من رب إلى رب ، أي من معلم إلى معلم ومرب إلى مثله والله أعلم .

قال السهيلي : تداوله ثلاثون سيداً من سيد إلى سيد ، فالله أعلم . وكذلك استقصى قصة إسلامه الحافظ أبو نعيم في الدلائل وأورد لها أسانيد وألفاظاً كثيرة ، وفي بعضها أن اسم سيدته التي كاتبته حلبسة فالله أعلم .

ذكر أخبار غريبة في ذلك

قال أبو نعيم في الدلائل : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا محمد بن زكرياء الغلابي[1] حدثنا العلاء بن الفضل بن عبد الملك بن أبي السوية المنقري حدثنا عباد بن كسيب عن أبيه عن أبي

---

(١) هو ابو بكر محمد بن زكريا بن دينار الغلابي البصري يعرف بزكرويه .

عتوارة الخزاعي عن سعير بن سوادة العامري قال كنت عشيقاً لعقيلة من عقائل الحي ، أركب لها الصعب والذلول لا أبقى من البلاد مسرحاً أرجو ربحاً في متجر إلّا أتيته ، فانصرفت من الشام بحرث وأثاث أريد به كبة[1] الموسم ودهماء العرب ، فدخلت مكة بليل مسدف فأقمت حتى تعرى عني قميص الليل فرفعت رأسي فإذا قباب مسامتة شعف الجبال ، مضروبة بأنطاع الطائف وإذا جزر تنحر وأخرى تساق ، وإذا أكلة وحثثة على الطهاة يقولون : ألا عجلوا ألا عجلوا ، وإذا رجل يجهر على نشز من الأرض ، ينادي يا وفد الله ميلوا إلى الغداء . وأنيسان على مدرجة يقول : يا وفد الله من طعم فليرح إلى العشاء ، فجهرني[2] ما رأيت فأقبلت أريد عميد القوم ، فعرف رجل الذي بي ، فقال أمامك ، وإذا شيخ كأن في خديه الأساريع[3] ، وكأن الشعرى توقد من جبينه ، قد لاث على رأسه عمامة سوداء قد أبرز من ملاثها جمة فينانة كأنها سماسم . قال في بعض الروايات تحته كرسي سماسم[4] ومن دونها نمرقة بيده قضيب متخصر به حوله شمايخ جلس نواكس الأذقان ما منهم أحد يفيض بكلمة . وقد كان نمي إليّ خبر من أخبار الشام أن النبي الأمي هذا أوان نجومه ، فلما رأيته ظننته ذلك . فقلت السلام عليك يا رسول الله . فقال : مه مه ، كلا وكأن قد وليتني إياه فقلت من هذا الشيخ ؟ فقالوا هذا أبو نضلة[5] ، هذا هاشم بن عبد مناف ، فوليت وأنا أقول هذا والله المجد لا مجد آل جفنة ـ يعني ملوك عرب الشام من غسان كان يقال لهم آل جفنة ـ . وهذه الوظيفة التي حكاها عن هاشم هي الرفادة يعني إطعام الحجيج زمن الموسم .

وقال أبو نعيم : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر حدثنا محمد بن أحمد بن أبي يحيى حدثنا سعيد بن عثمان حدثنا علي بن قتيبة الخراساني حدثنا خالد بن الياس عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي الجهم عن أبيه عن جده . قال سمعت أبا طالب يحدث عن عبد المطلب قال . بينا أنا نائم في الحجر إذ رأيت رؤيا هالتني ففزعت منها فزعاً شديداً ، فأتيت كاهنة قريش وعليّ مطرف خز وجمتي تضرب منكبي فلما نظرت إليّ عرفت في وجهي التغيير وأنا يومئذٍ سيد قومي فقالت : ما بال سيدنا قد أتانا متغير اللون ؟ هل رابه من حدثان الدهر شيء ؟ فقلت لها بلى ! وكان لا يكلمها أحد من الناس حتى يقبل يدها اليمنى ، ثم يضع يده على أم رأسها ثم يذكر حاجته ولم أفعل لأني [كنت]

---

(١) كبة : الزحام .

(٢) جهرني : راعني .

(٣) الأساريع : خطوط وطرائق ؛ وقد تكون : الدود بيض حمر الرؤوس واحدتها أسروع ويسروع (قاموس محيط (سرع) .

(٤) سماسم : الأولى عيدان السمسم . والثانية خشب أسود .

(٥) نضلة أحد ابناء هاشم .

كبير قومي . فجلست فقلت إني رأيت الليلة وأنا نائم في الحجر كأن شجرة تنبت[1] قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب ، وما رأيت نوراً أزهر منها أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً . ورأيت العرب والعجم ساجدين لها وهي تزداد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً ساعة تخفى وساعة تزهر ، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها ، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها . فإذا دنوا منها أخرهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً فيكسر أظهرهم ، ويقلع أعينهم . فرفعت يدي لأتناول منها نصيباً ، فمنعني الشاب فقلت لمن النصيب ؟ فقال النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك إليها . فانتبهت مذعوراً فزعاً فرأيت وجه الكاهنة قد تغير ، ثم قالت لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب ويدين له الناس ثم قال ـ يعني عبد المطلب ـ لأبي طالب، لعلك تكون هذا المولود قال فكان أبو طالب يحدث بهذا الحديث بعدما ولد رسول الله ﷺ وبعدما بعث . ثم قال كانت الشجرة والله أعلم أبا القاسم الأمين ، فيقال لأبي طالب ألا تؤمن ؟ فيقول السبة والعار .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا محمد بن زكرياء الغلابي حدثنا العباس بن بكار الضبي حدثنا أبو بكر الهذلي عن عكرمة عن ابن عباس . قال قال العباس : خرجت في تجارة إلى اليمن في ركب ـ منهم أبو سفيان بن حرب ، فقدمت اليمن فكنت أصنع يوماً طعاماً وانصرف بأبي سفيان وبالنفر ويصنع أبو سفيان يوماً ، ويفعل مثل ذلك ، فقال لي في يومي الذي كنت أصنع فيه ، هل لك يا أبا الفضل أن تنصرف إلى بيتي وترسل إليّ غداءك ؟ فقلت نعم . فانصرفت أنا والنفر إلى بيته وأرسلت إلى الغداء فلما تغدى القوم قاموا واحتبسني فقال هل علمت يا أبا الفضل أن ابن أخيك يزعم أنه رسول الله .فقلت أيّ بني أخي ؟ فقال أبو سفيان إياي تكتم ؟ وأي بني أخيك ينبغي أن يقول هذا إلاّ رجل واحد ؟ قلت وأيهم على ذلك ؟ قال : هو محمد بن عبد الله ، فقلت قد فعل ؟ قال بلى قد فعل . وأخرج كتاباً باسمه من ابنه حنظلة بن أبي سفيان فيه : أخبرك أن محمداً قام بالأبطح فقال : « أنا رسول أدعوكم إلى الله عزّ وجلّ » فقال العباس قلت : جده يا أبا حنظلة صادق . فقال مهلاً يا أبا الفضل فوالله ما أحب أن يقول مثل هذا ، إني لا أخشى أن يكون على ضير من هذا الحديث يا بني عبد المطلب ، إنه والله ما برحت قريش تزعم أن لكم هنة وهنة ، كل واحدة منها غاية . لنشدتك يا أبا الفضل هل سمعت ذلك ؟ قلت نعم قد سمعت . قال فهذه والله شؤمتكم . قلت فلعلها يمتنا ، قال فما كان بعد ذلك إلاّ ليال حتى قدم عبد الله بن حذافة بالخبر وهو مؤمن، ففشا ذلك في مجالس اليمن ، وكان أبو سفيان يجلس مجلساً باليمن يتحدث فيه حبر من أحبار اليهود ، فقال له اليهودي ما هذا الخبر ؟ بلغني أن فيكم عم هذا الرجل الذي قال ما قال ؟ قال أبو سفيان صدقوا وأنا عمه ، فقال اليهودي أخو أبيه ؟ قال نعم ! قال

---

(١) في الدلائل والخصائص : نبتت .

فحدثني عنه قال لا تسألني ما أحب أن يدعى هذا الأمر أبداً ، وما أحب أن أعيبه وغيره خير منه ، فرأى اليهودي أنه لا يغمس عليه ولا يحب أن يعيبه . فقال اليهودي ليس به بأس على اليهود ، وتوراة موسى . قال العباس فناداني الحبر ، فجئت فخرجت حتى جلست ذلك المجلس من الغد ، وفيه أبو سفيان بن حرب والحبر ، فقلت للحبر بلغني أنك سألت ابن عمي عن رجل منا زعم أنه رسول الله ﷺ وأخبرك أنه عمه ، وليس بعمه . ولكن ابن عمه وأنا عمه وأخو أبيه . قال أخو أبيه ؟ قلت أخو أبيه ، فأقبل على أبي سفيان فقال صدق ؟ قال نعم صدق ، فقلت : سلني فإن كذبت فليرد عليّ ، فأقبل عليّ فقال نشدتك هل كان لابن أخيك صبوة أو سفهة ؟ قلت لا وإله عبد المطلب ولا كذب ولا خان ، وإنه كان اسمه عند قريش الأمين . قال فهل كتب بيده ؟ قال العباس فظننت أنه خير له أن يكتب بيده فأردت أن أقولها ثم ذكرت مكان أبي سفيان يكذبني ويرد عليّ فقلت لا يكتب فوثب الحبر ونزل رداؤه وقال ذبحت يهود ، وقتلت يهود . قال العباس فلما رجعنا إلى منزلنا ، قال أبو سفيان يا أبا الفضل إن اليهود تفزع من ابن أخيك ، قلت قد رأيت ما رأيت ، فهل لك يا أبا سفيان أن تؤمن به ، فإن كان حقاً كنت قد سبقت وإن كان باطلاً فمعك غيرك من أكفائك ؟ قال لا أؤمن به حتى أرى الخيل في كداء[1] ، قلت ما تقول ؟ قال كلمة جاءت على فمي إلاّ أني أعلم أن الله لا يترك خيلاً تطلع من كداء . قال العباس فلما استفتح رسول الله ﷺ مكة ونظرنا إلى الخيل وقد طلعت من كداء ، قلت يا أبا سفيان تذكر الكلمة ؟ قال : إي والله إني لذاكرها فالحمد لله الذي هداني للإسلام . وهذا سياق حسن عليه البهاء والنور وضياء الصدق وان كان في رجاله من هو متكلم فيه والله أعلم .

وقد تقدم ما ذكرناه في قصة أبي سفيان مع أمية بن أبي الصلت ، وهو شبيه بهذا الباب وهو من أغرب الأخبار وأحسن السياقات وعليه النور . وسيأتي أيضاً قصة أبي سفيان مع هرقل ملك الروم حين سأله عن صفات رسول الله ﷺ وأحواله ، واستدلاله بذلك على صدقه ونبوته ورسالته . وقال له : كنت أعلّم أنه خارج ، ولكن لم أكن أظن أنه فيكم ، ولو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقيه . ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه . ولئن كان ما تقول حقاً ليملكن موضع قدمي هاتين . وكذلك وقع ولله الحمد والمنة .

وقد أكثر الحافظ أبو نعيم من إيراد الآثار والأخبار عن الرهبان والأحبار والعرب . فأكثر وأطنب وأحسن وأطيب رحمه الله ورضي عنه .

قصة عمرو بن مرة الجهني

قال الطبراني : حدثنا علي بن إبراهيم الخزاعي الأهوازي حدثنا عبد الله بن داود بن دلهاث

---

(١) كداء : ثنية بأعلى مكة عند المحصب .

ابن اسماعيل بن عبد الله بن شريح بن ياسر بن سويد صاحب رسول الله ﷺ حدثنا أبي عن أبيه دلهاث عن أبيه اسماعيل أن أباه عبد الله حدثه عن أبيه أن أباه ياسر بن سويد حدثه عن عمرو بن مرة الجهني قال : خرجت حاجاً في جماعة من قومي في الجاهلية ، فرأيت في نومي وأنا بمكة ، نوراً ساطعاً من الكعبة حتى وصل إلى جبل يثرب . وأشعر جهينة . فسمعت صوتاً بين النور وهو يقول : انقشعت الظلماء ، وسطع الضياء ، وبعث خاتم الأنبياء[1] . ثم أضاء إضاءة أخرى ، حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن[2] ، وسمعت صوتاً من النور وهو يقول : ظهر الإسلام ، وكسرت الأصنام ، ووصلت الأرحام ، فانتبهت فزعاً فقلت لقومي : والله ليحدثن لهذا الحي من قريش حدث ـ وأخبرتهم بما رأيت فلما انتهينا إلى بلادنا جاءني [الخبر أن رجلاً][3] يقال له أحمد قد بعث فأتيته فأخبرته[4] بما رأيت . فقال[لي] : «يا عمرو بن مرة أنا النبي المرسل إلى العباد كافة . أدعوهم إلى الإسلام ، وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام ، وعبادة الله ورفض الأصنام ، وحج البيت وصيام شهر رمضان من اثني عشر شهراً . فمن أجاب فله الجنة ، ومن عصى فله النار . فآمن يا عمرو يؤمنك الله من هول جهنم » فقلت أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنك رسول الله آمنت بما جئت من حلال وحرام ، وإن رغم ذلك كثيراً من الأقوام . ثم أنشدته أبياتاً قلتها حين سمعت به . وكان لنا صنم . وكان أبي سادناً له فقمت إليه فكسرته . ثم لحقت بالنبي ﷺ وأنا أقول :

شهدتُ بأن الله حقٌ وإنني ... لآلهة الأحجارِ أولُ تاركِ
وشمّرتُ عن ساق الإزار مُهاجراً ... إليكَ أجوبُ القفرَ بعد الدكادك[5]
لأصحبَ خيرَ الناس نفساً ووالداً ... رسول مليك الناسِ فوقَ الحبائك

فقال النبي ﷺ : « مرحباً بك يا عمرو بن مرة » فقلت يا رسول الله ابعثني إلى قومي . لعل الله يمن عليهم بي كما منّ عليّ بك . فبعثني إليهم . وقال : « عليك بالرفق والقول السديد . ولا

---

(١) ورد في دلائل النبوة للبيهقي : ومنها حديث عمرو بن مرة الغطفاني فيما رأى من النور الساطع في الكعبة في نومه ثم ما سمع من الصوت :

أقبل حقٌ فسطع ودُمِّر باطل فانقمع

(٢) أبيض المدائن : قصر كسرى .

(٣) في الأصل جاءني رجل ، وهو تصحيف والزيادة من الوفا . فالسياق ما أورده ابن سعد في الطبقات ، يقتضي ذلك .

(٤) في طبقات ابن سعد : قال عمرو بن مرة : كان لنا صنم وكنا نعظمه ، وكنت سادنه ، فلما سمعت بالنبي ﷺ كسرته وخرجت حتى أقدم المدينة على النبي ﷺ فأسلمت وشهدت شهادة الحق وآمنت بما جاء به من حلال وحرام .

(٥) في الطبقات : الوعث بدل القفر . ج ١/٣٣٣ .

تكن فظاً . ولا متكبراً ولا حسوداً » فذكر أنه أتى قومه ، فدعاهم إلى ما دعاه إليه رسول الله ﷺ فأسلموا كلهم . إلاّ رجلاً واحداً منهم(١) ، وإنه وفد بهم إلى رسول الله ﷺ . فرحب بهم وحياهم . وكتب لهم كتاباً هذه نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من الله [العزيز] على لسان رسول الله ﷺ ، بكتاب صادق ، وحق ناطق مع عمرو بن مرة الجهني لجهينة بن زيد : إن لكم بطون الأرض وسهولها ، وتلاع الأودية وظهورها ، تزرعون نباته وتشربون صافيه ، على أن تقروا بالخمس ، وتصلوا صلاة الخمس وفي التبيعة والصريمة ان اجتمعتا وان تفرقتا شاة شاة ، ليس على أهل الميرة صدقة ، ليس الوردة اللبقة وشهد على نبينا ﷺ من حضر من المسلمين بكتاب قيس بن شماس »(٢) . وذكر شعراً قاله عمرو بن مرة في ذلك كما هو مبسوط في المسند الكبير وبالله الثقة وعليه التكلان .

وقال الله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ [الأحزاب : ٧] قال كثيرون من السلف : لما أخذ الله ميثاق بني آدم يوم (ألست بربكم ؟) أخذ من النبيين ميثاقاً خاصاً ، وأكد مع هؤلاء الخمسة أولي

---

(١) زاد في الطبقات ١/ ٣٣٤ : فدعا عليه عمرو بن مرة ، فسقط فوه ، فما كان يقدر على الكلام وعمي واحتاج .

(٢) نص الكتاب كما ورد في جمع الجوامع للسيوطي وابن عساكر :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من الله العزيز على لسان رسوله بحق صادق وكتاب ناطق ، مع عمرو بن مرة ، لجهينة بن زيد :

إن لكم بطون الأرض وسهولها وتلاع الأودية وظهورها ، على أن ترعوا نباتها وتشربوا ماءها على أن تؤدوا الخمس .

وفي التيعة والصريمة شاتان إذا اجتمعتا ؛ فإن فرقتا فشاة فشاة ، ليس على أهل المثير صدقة ، ولا على الواردة لبقة ، والله شهيد على ما بيننا ومن حضر من المسلمين كتاب (كذا) قيس بن شماس .

شرحه :

يقال لكل غامض بطن ، ولكل ظاهر ظهر .

سهولها : سهل الأرض ضد الحزن ؛ فسهل الأرض غير الخشن منها القابل للحرث والغرس تلاع الأودية : ما انحدر من الأودية وما اتسع من فوهة الوادي .

التيعة : الأربعون من الغنم الصدقة . وقيل الأربعون من الغنم من غير أن يخص بصدقة أو غيرها .

الصريمة : تصغير الصرمة ، وهي القطيع من الابل قيل من العشرين إلى الثلاثين إلى الأربعين والمراد بها من مائة وإحدى وعشرين إلى المائتين إذا اجتمعت ففيها شاتان فإن كانت لرجلين وفرق بينهما فعلى كل واحد منهما شاة .

المثيرة : بقر الحرث لأنها تثير الأرض وذلك ارفاقاً بهم ومداراة لهم .

الواردة لبقة : الوارد الذي يتقدم القوم فيسقي لهم .

اللبقة : أي ليس عليهم أن يعطوا لمن يرد مياههم من المسلمين الظروف ، يعني لعل المراد أنه لا يجب عليهم قرى عساكر المسلمين واعانتهم حتى لبقة للماء التي لا كلفة في إعطائها .

العزم أصحاب الشرائع الكبار الذين أولهم نوح وآخرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد روى الحافظ أبو نعيم في كتاب « دلائل النبوة » من طرق عن الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعي حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة : سئل النبي ﷺ متى وجبت لك النبوة ؟ قال : « بين خلق آدم ونفخ الروح فيه » وهكذا رواه الترمذي من طريق الوليد بن مسلم . وقال حسن غريب من حديث أبي هريرة ، لا نعرفه إلّا من هذا الوجه .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا يعقوب بن إسحاق بن الزبير الحلبي حدثنا أبو جعفر النفيلي حدثنا عمرو بن واقد عن عروة بن رويم عن الصنابحي[1] . قال قال عمر : يا رسول الله ، متى جعلت نبياً ؟ قال : « وآدم منجدل في الطين » ثم رواه من حديث نصر بن مزاحم عن قيس بن الربيع عن جابر الجعفي عن الشعبي عن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » وفي الحديث الذي أوردناه في قصة آدم حين استخرج الله من صلبه ذريته خص الأنبياء بنور بين أعينهم . والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه كان على قدر منازلهم ورتبهم عند الله . وإذا كان الأمر كذلك فنور محمد ﷺ كان أظهر وأكبر وأعظم منهم كلهم . وهذا تنويه عظيم وتنبيه ظاهر على شرفه وعلو قدره . وفي هذا المعنى الحديث الذي قال الإمام أحمد . حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي عن عبد الأعلى بن هلال السلمي عن العرباض بن سارية . قال قال رسول الله ﷺ : « إني عند[2] الله لخاتم النبيين وإن آدم لَمُنْجَدِلٌ في طينته وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت . وكذلك أمهات المؤمنين يرين » ورواه الليث وابن وهب عن عبد الرحمن بن مهدي ، وعبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح وزاد « إنه أمه رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا منصور بن سعيد عن بديل عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال قلت يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » ، إسناده جيد أيضاً وهكذا رواه إبراهيم بن طهمان وحماد بن زيد وخالد الحذاء عن بديل بن ميسرة به . ورواه أبو نعيم عن محمد بن عمر بن أسلم عن محمد بن بكر بن عمرو الباهلي عن شيبان عن الحسن بن دينار عن عبد الله بن سفيان عن ميسرة الفجر قال : قلت يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » .

---

(١) نسبة إلى صنابح بن زاهر بن عامر بن عوثبان بن زاهر بن يحابر (اللباب) .
قال في التقريب : ابن أعسر الأحمسي صحابي سكن الكوفة ، ومن قال فيه الصنابحي فقد وهم ١ / ٣٧٠ .

(٢) كذا في الأصل . وفي مسند أحمد ج ٤ / ١٢٧ عبد الله ؛ وفي السيوطي فكالأصل عند الله .
أمهات المؤمنين : كذا في الأصل وفي مسند أحمد ودلائل البيهقي : أمهات النبيين .

وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه دلائل النبوة[1] : حدثنا أبو عمرو بن حمدان حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم عن خليد بن دعلج وسعيد عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، في قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾ قال : « كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث » ثم رواه من طريق هشام بن عمار عن بقية عن سعيد بن نسير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعاً مثله . وقد رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة وشيبان عن قتادة قال ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال مثله . وهذا أثبت وأصح والله أعلم .

وهذا إخبار عن التنويه بذكره في الملأ الأعلى وأنه معروف بذلك بينهم بأنه خاتم النبيين وآدم لم ينفخ فيه الروح ، لأن علم الله تعالى بذلك سابق قبل خلق السموات والأرض لا محالة فلم يبق إلا هذا الذي ذكرناه من الإعلام به في الملأ الأعلى والله أعلم .

وقد أورد أبو نعيم من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة الحديث المتفق عليه « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق بيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم » وزاد أبو نعيم في آخره : فكان ﷺ آخرهم في البعث وبه ختمت النبوة . وهو السابق يوم القيامة . لأنه أول مكتوب في النبوة والعهد . ثم قال : ففي هذا الحديث الفضيلة لرسول الله ﷺ لما أوجب الله له النبوة قبل تمام خلق آدم . ويحتمل أن يكون هذا الإيجاب هو ما أعلم الله ملائكته ما سبق في علمه وقضائه من بعثته له في آخر الزمان وهذا الكلام يوافق ما ذكرناه ولله الحمد .

وروى الحاكم في مستدركه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ـ وفيه كلام ـ عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب أسألك بحق محمد إلّا غفرت لي ، فقال الله : يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد؟ فقال يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي ، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلّا الله محمد رسول الله . فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلّا أحب الخلق إليك . فقال الله صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليّ وإذ قد سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك » قال البيهقي : تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف والله أعلم[2] .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم

---

(١) الحديث لم يرد في دلائل النبوة لأبي نعيم المطبوع ، رواه السيوطي في الخصائص ج ١/٧ عن أبي نعيم من طرق عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل ج ٥/٤٨٩ .

وعبد الرحمن ضعفه يحيى بن معين ، والإمام أحمد والنسائي . وذكره العقيلي في الضعفاء الكبير (٢/٣٣١) الميزان (٥٦٤/٢).

رسول مصدق لما معكم لتؤمِننّ به ولتنصرنه قال أأقرَرْتُم وأخذتم على ذلكم إصْرِي ؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تَولّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ [آل عمران: ٨١ ـ ٨٢] قال علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبياً مّن الأنبياء إلاّ أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وهذا تنويه وتنبيه على شرفه وعظمته في سائر الملل وعلى ألسنة الأنبياء وإعلام لهم ومنهم برسالته في آخر الزمان . وإنه أكرم المرسلين وخاتم النبيين . وقد أوضح أمره وكشف خبره وبين سره ، وجلى مجده ومولده وبلده إبراهيم الخليل في قوله عليه السلام حين فرغ من بناء البيت ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [البقرة: ١٢٩] فكان أول بيان أمره على الجلية والوضوح بين أهل الأرض على لسان ابراهيم الخليل أكرم الأنبياء على الله بعد محمد صلوات الله عليه وسلامه عليهما وعلى سائر الأنبياء . ولهذا قال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا الفرج ـ يعني ابن فضالة ـ حدثنا لقمان بن عامر سمعت أبا أمامة قال قلت يا نبي الله ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبُشرى عيسى ، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام »(١) تفرد به الإمام أحمد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة . وروى الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب المولد من طريق بقية عن صفوان بن عمرو عن حجر بن حجر عن أبي مريق أن إعرابياً قال يا رسول الله أيّ شيء كان أول أمر نبوتك ؟ فقال : « أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم . ورأت أم رسول الله ﷺ في منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام». وقال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار : حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى . ورأت أمي حين حبلت كأنه خرج منها نور أضاءت له بُصرى من أرض الشام »(٢) إسناده جيد أيضاً . وفيه بشارة لأهل محلتنا أرض بصرى وإنها أول بقعة من أرض الشام خلص إليها نور النُّبوة ، ولله الحمد والمنة ولهذا كانت أول مدينة فتحت من أرض الشام وكان فتحها صلحاً في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، كما سيأتي بيانه . وقد قدمها رسول الله ﷺ مرتين في صحبة عمه أبي طالب وهو ابن اثنتي عشرة سنة وكانت عندها قصة بحيري الراهب كما بيناه . والثانية ومعه ميسرة مولى خديجة في تجارة لها . وبها مبرك الناقة التي يقال لها ناقة

---

(١) مسند أحمد ج ١٢٧/٤ ـ ١٢٨ و ٢٦٢/٥ والحاكم في المستدرك ٦٠٠/٢ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ؛ وأقره الذهبي . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٢/٨ و٢٢٣ وقال : رواه أحمد والطبراني والبزار وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد ، وقد وثقه ابن حبان .

(٢) سيرة ابن هشام ١٧٠/١ ورواه ابن سعد في الطبقات ١٠٢/١ . وصححه الحاكم في المستدرك ٦٠٠/٢ وأقره الذهبي .

رسول الله ﷺ بركت عليه فأثر ذلك فيها فيما يذكر . ثم نقل وبنى عليه مسجد مشهور اليوم . وهي المدينة التي أضاءت أعناق الابل عندهـا من نور النـار التي خرجت من أرض الحجـاز سنة أربـع وخمسين وستمائة وفق ما أخبر به رسول الله ﷺ في قوله : « تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى » وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

وقال الله تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونـه مكتوبـاً عندهم في التـوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصْرَهم والأغلال التي كانت عليهم . فالذين آمنوا به وَعزَّرُوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ [الأعراف:١٥٧] الآية . قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل عن الجريري ، عن أبي صخر العقيلي ، حدثني رجل من الأعراب قال : جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ . فلما فرغت من بيعي قلت لألقين هذا الرجل فلأسمعنّ منه . قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرأها يعـزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجملهم . فقال رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذي أنزل التوراة ، هل تجدني في كتابك ذا صفتي ومخرجي ؟ » فقال برأسه هكذا ـ أي لا ـ فقال ابنه : إي والـذي أنزل التـوراة إنا لنجـد في كتابنـا صفتك ومخـرجـك وأشهـد أن لا إلـه إلاّ الله ، وأنـك رسول الله . فقال : « أقيموا اليهودي عن أخيكم » ثم ولي كفنه والصلاة عليه . هذا إسناد جيد وله شواهد في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه[1]. وقال أبـو القاسم البغـوي حدثنـا عبد الواحد بن غياث ـ أبو بحر ـ حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عصام بن كليب عن أبيه عن الصلتان بن عاصم وذكر أن خاله قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ شخص بصره إلى رجل فإذا يهودي عليه قميص وسراويل ونعلان . قال فجعل النبي ﷺ يكلمه وهو يقول : يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ : « أتشهد أني رسول الله ؟ » قال لا . قال رسول الله ﷺ : « أتقرأ التوراة ؟ » قال نعم قال : « أتقرأ الانجيل ؟ » قال نعم . قال : « والقرآن ؟ » قال لا . ولو تشاء قرأتـه . فقال النبي ﷺ : « فبم تقرأ التوراة والانجيـل ، أتجدني نبيـاً ؟ » قال إنـا نجد نعتـك ومخرجـك . فلما خرجت رجونا أن تكون فينا . فلما رأيناك عرفناك أنك لست به . قـال رسول الله ﷺ : « ولم يـا يهودي ؟ » قال : إنا نجده مكتوباً ، يدخل من أمته الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، ولا نرى معك إلاّ نفراً يسيراً . فقال رسول الله ﷺ : « إن أمتي لأكثر من سبعين ألفاً وسبعين ألفاً » . هذا حديث غريب من هذا الوجه ، ولم يخرجوه . وقال محمد بن إسحاق عن سالم مولى عبد الله بن مطيع عن أبي هـريـرة قـال : أتى رسـول الله ﷺ يهـود فقـال : « أخـرجـوا أعلمكم » فقـالـوا عبـد الله بن صوريا ، فخلا به رسول الله ﷺ ، فناشده بدينـه ، وما أنعم الله بـه عليهم ، وأطعمهم من المنّ

---

(١) أخرج البيهقي من طريق حماد عن ثابت عن أنس : عن غـلام يهودي كـان يخدم النبي . . . دلائـل النبوة ج ٢٧٢/٦ . وأخرجه أحمد في مسنده ج ٤١١/٥.

والسلوى ، وظللهم به من الغمام « أتعلمني رسول الله ؟ » قال اللهم نعم . وان القوم ليعرفون ما أعرفَ ، وأن صفتك ونعتك لمبين في التوراة . ولكنهم حسدوك . قال : « فما يمنعك أنت ؟ » قال أكره خلاف قومي . وعسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم[1] . وقال سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول كتب رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صاحب موسى ، وأخيه ، والمصدق بما جاء به موسى ، ألا إن الله قال لكم يا معشر يهود وأهل التوراة ، إنكم تجدون ذلك في كتابكم : إن محمداً : ﴿ رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ . وإني أنشدكم بالله وبالذي أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسلافكم وأسباطكم المن والسلوى ، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاكم من فرعون وعمله إلاّ أخبرتمونا هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم ، قد تبين الرشد من الغي . وأدعوكم إلى الله وإلى نبيه ﷺ »[2] .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب « المبتدأ » عن سعيد بن بشير عن قتادة عن كعب الأحبار ، وروى غيره عن وهب بن منبه أن بختنصر بعد أن خرب بيت المقدس واستذل بني إسرائيل بسبع سنين ، رأى في المنام رؤيا عظيمة هالته فجمع الكهنة والحزار ، وسألهم عن رؤياه تلك . فقالوا ليقصها الملك حتى نخبره بتأويلها . فقال : إني نسيتها ، وإن لم تخبروني بها إلى ثلاثة أيام قتلتكم عن آخركم . فذهبوا خائفين وجلين من وعيده . فسمع بذلك دانيال عليه السلام وهو في سجنه . فقال للسجان : اذهب إليه فقل له إن هاهنا رجلاً عنده علم رؤياك وتأويلها . فذهب إليه فأعلمه فطلبه ، فلما دخل عليه لم يسجد له . فقال له ما منعك من السجود لي ؟ فقال : إن الله آتاني علماً وعلمني وأمرني أن لا أسجد لغيره . فقال له بختنصر إني أحب الذين يوفون لأربابهم بالعهود . فأخبرني عن رؤياي . قال له دانيال : رأيت صنماً عظيماً رجلاه في الأرض ورأسه في السماء ، أعلاه من ذهب ووسطه من فضة ، وأسفله من نحاس ، وساقاه من حديد ، ورجلاه من

---

(١) اخرجه البيهقي عن أبي هريرة في حديث طويل ، في جزء منه ما أورده ابن إسحاق . دلائل ج ٦/٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٢) الكتاب مصدره : كنز العمال ج ٥/٣٨٥ عن ابن إسحاق ، وأبي نعيم عن ابن عباس ؛ ومجموعة الوثائق السياسية ص ٣٧ عن سيرة ابن هشام طبع أوروبا ص ٣٧٦ و ٣٧٧ واعلام السائلين ، ونصب الراية للزيلعي رقم ٧ عن أبي نعيم .

فخار ، فبينا أنت تنظر إليه قد أعجبك حسنه وإحكام صنعته قذفه الله بحجر من السماء . فوقع على قمة رأسه حتى طحنه واختلط ذهبه وفضته ونحاسه وحديده وفخاره حتى تخيل لك أنه لو اجتمع الانس والجن على أن يميزوا بعضه من بعض لم يقدروا على ذلك . ونظرت إلى الحجر الذي قذف به يربو ويعظم وينتشر حتى ملأ الأرض كلها فصرت لا ترى إلاّ الحجر والسماء . فقال له بختنصر صدقت هذه الرؤيا التي رأيتها فما تأويلها ؟ فقال دانيال أما الصنم فأمم مختلفة في أول الزمان وفي وسطه وفي آخره ؛ وأما الحجر الذي قذف به الصنم فدين يقذف الله به هذه الأمم في آخر الزمان فيظهره عليها فيبعث الله نبياً أمياً من العرب فيدوخ به الأمم والأديان كما رأيت الحجر دوخ أصناف الصنم ويظهر على الأديان والأمم كما رأيت الحجر ظهر على الأرض كلها ، فيمحص الله به الحق ويزهق به الباطل ويهدي به أهل الضلالة ويعلم به الأميين ويقوى به الضعفة ويعز به الأذلة وينصر به المستضعفين . وذكر تمام القصة في اطلاق بختنصر بني إسرائيل على يدي دانيال عليه السلام ، وذكر الواقدي بأسانيده عن المغيرة بن شعبة في قصة وفوده على المقوقس ملك الأسكندرية وسؤاله له عن صفات رسول الله ﷺ قريباً من سؤال هرقل لأبي سفيان صخر بن حرب ، وذكر أنه سأل أساقفة النصارى في الكنائس عن صفة رسول الله ﷺ وأخبروه عن ذلك وهي قصة طويلة ذكرها الحافظ أبو نعيم في الدلائل . وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ مرّ بمدارس[1] اليهود فقال لهم : « يا معشر اليهود اسلموا فوالذي نفسي بيده إنكم لتجدون صفتي في كتبكم » الحديث . وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود حدثنا فليح بن سليمان عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفات رسول الله ﷺ في التوراة فقال أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن ، يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيموا الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلاّ الله يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً . ورواه البخاري عن محمد بن سنان العوفي[2] عن فليح به . ورواه أيضاً عن عبد الله ـ قيل ابن رجاء ، وقيل ابن صالح[3] ـ عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال بن علوية ولفظه قريب من هذا وفيه زيادة . ورواه ابن جرير من حديث فليح عن هلال عن عطاء وزاد قال عطاء : فلقيت كعباً فسألته عن

---

(١) كذا في الأصل ، والصواب مدراس وهو عند اليهود البيت الذي يقرأون فيه كتبهم .

(٢) كذا في الأصل العوفي ؛ والصواب العوقي وهو محمد بن سنان الباهلي العوقي أبو بكر البصري ثقة ثبت (تقريب التهذيب ٢/١٦٧) .

(٣) هكذا ورد في رواية البخاري ، وفي رواية أبي ذر وابن السكن « عبد الله بن مسلمة » وتردد أبو مسعود بين أن يكون ابن رجاء أو ابن صالح كاتب الليث . وقال أبو علي الجياني : عندي أنه ابن صالح . ورجحه المزي في تحفة الأشراف . وقال ابن حجر في النكت : حدثنا عبد الله بن مسلمة ـ يعني القعنبي .

ذلك فما اختلف حرفاً ، وقال[1] في « البيوع » : وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام .

قال الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرناه أبو الحسين بن المفضل[2] القطان حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا يعقوب بن سفيان حدثنا أبو صالح حدثنا الليث حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال بن أسامة عن عطاء بن يسار عن ابن سلام[3] أنه كان يقول : إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميته المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزىء السيئة بمثلها ولكن يعفو [ويغفر] ويتجاوز ولن يمبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله يفتح به أعيناً عمياً وأذاناً صماً وقلوباً غلفاً . وقال عطاء بن يسار : وأخبرني الليثي[4] أنه سمع كعب الأحبار يقول مثل ما قال ابن سلام .

قلت : وهذا عن عبد الله بن سلام أشبه ولكن الرواية عن عبد الله بن عمرو أكثر ، مع أنه كان قد وجد يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب وكان يحدث عنهما كثيراً ، وليعلم أن كثيراً من السلف كانوا يطلقون التوراة على كتب أهل الكتاب فهي عندهم أعم من التي أنزلها الله على موسى وقد ثبت شاهد ذلك من الحديث . وقال يونس عن محمد بن إسحاق حدثني محمد بن ثابت بن شرحبيل عن ابن أبي أوفى عن أم الدرداء قالت قلت لكعب الأحبار كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال نجده محمد رسول الله اسمه المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب[5] في الأسواق وأعطي المفاتيح فيبصر الله به أعيناً عوراً ويسمع آذاناً وقراً ويقيم به ألسناً معوجة حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله واحد لا شريك له يعين به المظلوم ويمنعه . وقد روي عن كعب من غير هذا الوجه[6] . وروى البيهقي[7] عن الحاكم عن أبي الوليد الفقيه عن الحسن بن

---

(١) قال : أي البخاري في كتاب البيوع .

(٢) في دلائل البيهقي ج ١/٣٧٦ : الفضل .

(٣) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الامام الحبر المشهود له بالجنة أبو الحارث الاسرائيلي حليف الأنصار من خواص أصحاب النبي ﷺ .
حدّث عنه الصحابة ، وله إسلام قديم بعد أن قدم النبي ﷺ المدينة وهو من أحبار اليهود . له ترجمة في طبقات ابن سعد (٢/٣٥٢) الإصابة (٢/ ٣٢٠) تهذيب التهذيب (٥/٢٤٩) العبر (١/ ٥١).

(٤) هو أبو واقد الليثي من الصحابة ، له ترجمة في الإصابة .

(٥) رواه البيهقي في الدلائل ج ١/ ٣٧٦ وابن عساكر في التاريخ ١/ ٣٤٣ وأسقط البيهقي ابن أبي أوفى . وفيه : ولا سخاب بدل صخاب .

(٦) رواه البيهقي ج ١/ ٣٧٧ وابن سعد في الطبقات ١/ ٣٦٠ .

سفيان حدثنا عتبة[1] بن مكرم حدثنا أبو قطن عمرو بن الهيثم حدثنا حمزة بن الزيات عن سليمان الأعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة عن أبي هريرة ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ قال : نودوا : يا أمة محمد استجبت لكم قبل أن تدعوني ، وأعطيتكم قبل أن تسألوني . وذكر وهب بن منبه أن الله تعالى أوحى إلى داود في الزبور يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد صادقاً سيداً لا أغضب عليه أبداً ، ولا يغضبني أبداً وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأمته مرحومة أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء ، وفرضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء . إلى أن قال : يا داود إني فضلت محمداً وأمته على الأمم كلها[2] . والعلم بأنه موجود في كتب أهل الكتاب معلوم من الدين ضرورة وقد دل على ذلك آيات كثيرة في الكتاب العزيز تكلمنا عليها في مواضعها ولله الحمد . فمن ذلك قوله [تعالى] : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وأن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ إن الذين أتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾[5] أي أن كان وعدنا ربنا بوجود محمد وإرساله لكائن لا محالة فسبحان القدير على ما يشاء لا يعجزه شيء . وقال تعالى إخباراً عن القسيسين والرهبان ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾[6] وفي قصة النجاشي وسلمان وعبد الله بن سلام وغيرهم كما سيأتي شواهد كثيرة لهذا المعنى ولله الحمد والمنة .

وذكرنا في تضاعيف قصص الأنبياء ما تقدم الإشارة إليه من وصفهم لبعثة رسول الله ﷺ ونعته وبلد مولده ودار مهاجره ونعت أمته في قصة موسى وشعيا وأرمياء ودانيال وغيرهم وقد أخبر الله تعالى عن آخر أنبياء بني إسرائيل وخاتمهم عيسى بن مريم أنه قام في بني إسرائيل خطيباً قائلاً لهم : ﴿ إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه

---

(٧) دلائل النبوة ج ١/٣٨١، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٠٨) وقال : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

(١) في الدلائل : عقبة بن مكرم الضبي .

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل ج ١/ ٣٨٠ ـ ٣٨١.

(٣) سورة القصص الآيتان ٥٢ و٥٣ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٤٦ .

(٥) سورة الاسراء الآيتان ١٠٧ و١٠٨ .

(٦) سورة المائدة الآية ٨٣.

أحمد ﴾[1] . وفي الانجيل البشارة بالفارقليط والمراد محمد ﷺ . وروى البيهقي عن الحاكم عن الأصم[2] عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن العيزار بن حرب[3] عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « مكتوب في الانجيل لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها بل يعفو ويصفح » وقال يعقوب بن سفيان حدثنا فيض البجلي حدثنا سلامّ بن مسكين عن مقاتل بن حيان قال : أوحى الله عزّ وجلّ إلى عيسى بن مريم جد في أمري واسمع واطع يابن الطاهرة البكر البتول ـ أنا خلقتك من غير فحل فجعلتك آية للعالمين فإياي فاعبد [وعليّ فتوكل] فبين لأهل سوران بالسريانية ، بلغ من بين يديك : إني أنا الحق القائم[4] الذي لا أزول صدقوا بالنبي الأمي العربي صاحب الجمل والمدرعة والعمامة ـ وهي التاج ـ والنعلين والهراوة ـ وهي القضيب ـ الجعد الرأس الصلت[5] الجبين المقرون الحاجبين الأنجل العينيَن الأهدب الأشفار الأدعج العينين الأقنى الأنف الواضح الخدين الكث اللحية عرقه في وجهه كاللؤلؤ ريح المسك ينضح منه كأن عنقه ابريق فضة وكأن الذهب يجري في تراقيه له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب ليس في بطنه شعر غيره [6] شثن [7] الكف والقدم إذا جاء مع الناس غمرهم وإذا مشى كأنما ينقلع [8] من الصخر ويتحدر من صبب ذو النسل القليل ـ وكأنه أراد الذكور من صلبه ـ هكذا رواه البيهقي في دلائل النبوة من طريق يعقوب بن سفيان .

وروى البيهقي عن عثمان[9] بن الحكم بن رافع بن سنان حدثني بعض عمومتي وآبائي أنهم كانت عندهم ورقة يتوارثونها في الجاهلية حتى جاء الله بالإسلام وبقيت عندهم فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ذكر وهاله وأتوه بها مكتوب فيها : بسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تباب . هذا الذكر لأمة تأتي في آخر الزمان ليبلون[10] أطرافهم ويوترون على أوساطهم ويخوضون البحور إلى أعدائهم فيهم صلاة لو كانت في قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان ، وفي عاد ما أهلكوا بالريح ، وفي ثمود ما

---

(١) سورة الصف الآية ٦ .

(٢) دلائل النبوة ج ١/٣٧٧: أبو العباس محمد بن يعقوب .

(٣) في الدلائل : ابن حُريث .

(٤) في الدلائل : الله الحي القيوم .

(٥) الصلت الجبين : الواضح ، وفي رواية أخرى : أسيل الجبين والمفروق الحاجبين بدل المقرون .

(٦) العبارة في الدلائل : ليس على صدره ولا على بطنه شعر غيره .

(٧) شثن : الغليظ الأصابع من الكفين والقدمين .

(٨) ينقلع : المشي بقوة . ويتحدر من صبب: الصبب : الحدور ، وتقول انحدرنا في صبوب وصبب .

(٩) في الدلائل ج ٣٨٢/١ عن عمر بن الحكم . . . عم عبد الحميد بن جعفر .
قال فيه أبو حاتم : حديث مرسل وهو منكر (علل الحديث ٤٠١/٢).

(١٠) روى الحبر ابن الجوزي في الوفا عن عمر بن حفص : وفيه : يغسلون أطرافهم ويأتزرون على أوساطهم .
وفي الدلائل : يسبلون أطرافهم ويأتزرون على أوساطهم . . .

أهلكوا بالصيحة : بسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تباب . ثم ذكر قصة أخرى . قال فعجب رسول الله ﷺ لما قرأت عليه فيها .

وذكرنا عند قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ﴾ قصة هشام بن العاص الأموي حين بعثه الصديق في سرية إلى هرقل يدعوه إلى الله عزَّ وجلَّ . فذكر أنه أخرج لهم صور الأنبياء في رُقعة من آدم إلى محمد صلوات الله عليه وسلامه عليهم أجمعين على النعت والشكل الذي كانوا عليه . ثم ذكر أنه لما أخرج صورة رسول الله ﷺ قام قائماً إكراماً له . ثم جلس وجعل ينظر إليها ويتأملها . قال فقلنا له من أين لك هذه الصورة ؟ فقال : إن آدم سأل ربه أن يريه جميع الأنبياء من ذلك[1] ، فأنزل عليه صورهم ، فكان في خزانة ادم عليه السلام عند مغرب الشمس فاستخرجها ذو القرنين ، فدفعها إلى دانيال . ثم قال : أما والله إن نفسي قد طابت بالخروج من ملكي وأني كنت عبداً لأشركم ملكة حتى أموت[2] . ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرحنا . فلما أتينا أبا بكر الصديق فحدثناه بما رأينا وما أجازنا وما قال لنا، قال فبكى وقال : مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل ، ثم قال أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت محمد عندهم . رواه الحاكم بطوله فليكتب هاهنا من التفسير . ورواه البيهقي في دلائل النبوة[3] .

وقال الأموي : حدثنا عبد الله بن زياد عن ابن اسحاق . قال وحدثني يعقوب بن عبد الله بن جعفر بن عمرو بن أمية عن أبيه عن جده عمرو بن أمية قال : قدمت برقيق من عند النجاشي أعطانيهم فقالوا لي يا عمرو لو رأينا رسول الله لعرفناه من غير أن تخبرنا ، فمر أبو بكر فقلت أهو هذا ؟ قالوا لا ، فمر عمر فقلت أهو هذا ؟ قالوا لا فدخلنا الدار فمر رسول الله ﷺ فنادوني يا عمرو هذا رسول الله ﷺ فنظرت فإذا هو هو من غير أن يخبرهم به أحد ، عرفوه بما كانوا يجدونه مكتوباً عندهم .

وقد تقدم إنذار سبأ لقومه وبشارته لهم بوجود رسول الله ﷺ في شعر أسلفناه في ترجمته فأغنى عن إعادته ، وتقدم قول الحبرين من اليهود لتبع اليماني حين حاصر أهل المدينة إنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان فرجع عنها ونظم شعراً يتضمن السلام على النبي ﷺ .

قصة سيف بن ذي يزن وبشارته بالنبي

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سُهل الخرئطي في كتابه « هواتف الجان » : حدثنا علي بن حرب حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم حدثنا عمرو بن بكر - هو ابن بكار القعنبي - عن

---

(١) كذا في الأصل ، وفي الدلائل : من ولده .

(٢) في دلائل البيهقي العبارة : وإن كنت عبداً لا يترك ملكه حتى أموت .

(٣) دلائل النبوة ج ١/٣٨٩ - ٣٩٠.

أحمد بن القاسم عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن عبد الله بن عباس . قال : لما ظهر سيف بن ذي يزن قال ابن المنذر ـ واسمه النعمان بن قيس ـ على الحبشة وذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بسنتين أتته وفود العرب وشعراؤها تهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من حسن بلائه ، وأتاه فيمن أتاه وفود قريش فيهم عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس أبي عبد الله[1] وعبد الله بن جدعان ، وخويلد بن أسد في أناس من وجوه قريش فقدموا عليه صنعاء ، فإذا هو في رأس غمدان الذي ذكره أمية أبي الصلت :

واشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مرتفعاً   في رأسِ غَمدانَ داراً منك محلالا

فدخل عليه الآذن ، فأخبره بمكانهم فأذن لهم ، فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام فقال له : إن كنت ممن يتكلم بين يدي [الملوك] فقد أذنا لك ، فقال له عبد المطلب : إن الله قد أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً صعباً منيعاً ، شامخاً باذخاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعذبت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه في أكرم موطن وأطيب معدن[2] . فأنت ـ أبيت اللعن ـ ملك العرب، وربيعها الذي تخصب به البلاد ، ورأس العرب الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد . وسلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف . فلن يخمد من هم سلفه ولن يهلك من أنت خلفه ، ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أبهجك من كشف الكرب الذي قد فدحنا ، وفد التهنئة لا وفد المرزئة . قال [له الملك] : وأيهم أنت أيها المتكلم ؟ قال أنا عبد المطلب بن هاشم . قال ابن أختنا ؟ قال نعم ، قال ادن فأدناه ، ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال : مرحباً وأهلاً وناقة ورحلاً ، ومستناخاً سهلاً ، وملكاً ربحلاً[3] يعطي عطاء جزلاً . قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم والحباء إذا ظعنتم ، ثم نهضوا إلى دار الكرامة والوفود ، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف ، ثم انتبه لهم انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ثم قال : يا عبد المطلب إني مفض إليك من سر علمي ما لو يكون غيرك لم أبح به . ولكني رأيتك معدنه فأطلعتك طليعه فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ أمره ، إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا واجتجناه[4] دون

---

(١) كلمة أبي عبد الله غير موجودة في دلائل أبي نعيم ٥٢ ـ ٦٠ ولا في خبر البيهقي في الدلائل ج ٢ / ٩ عن أبي عفير عن أبي زرعة بن سيف بن ذي يزن : وزاد فيه : وأسد بن عبد العزى ووهب بن عبد مناف وقصي بن عبد الدار .

(٢) في دلائل البيهقي : في أطيب مرضع وأكرم معدن .

(٣) ربحلاً : الكثير العطاء .

(٤) في دلائل البيهقي : الذي ادخرناه لأنفسنا واحتجبناه .

غيرنا خبراً عظيماً ، وخطراً جسيماً فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة . فقال عبد المطلب : أيها الملك مثلك سر وبر ، فما هو فداؤك أهل الوبر زمراً بعد زمر ؟ قال إذا ولد بتهامة ، غلام به علامة ، بين كتفيه شامة كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة . قال عبد المطلب ـ أبيت اللعن ـ لقد أبت بخير ما آب به وافد ، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياي ما ازداد به سروراً . قال ابن ذي يزن هذا حينه الذي يولد فيه أوَقَدْ ولد ، واسمه محمد يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه . ولدناه مراراً والله باعثه جهاراً ، وجاعل له منا انصاراً يعزُّ بهم أولياءه ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس عن عرض ، ويستبيح بهم كرائم [أهل] الأرض ، يكسر الأوثان ويخمد النيران ، يعبد الرحمن ويدحر الشيطان ، قوله فصل وحكمه عدل يأمر بالمعروف ويفعله وينهى عن المنكر ويبطله . فقال عبد المطلب أيها الملك ـ عزَّ جدك وعلا كعبك ، ودام ملكك ، وطال عمرك . فهذا نجارى فهل الملك سار لي[1] بافصاح فقد أوضح لي بعض الايضاح . فقال ابن ذي يزن : والبيت ذي الحجب والعلامات على النقب إنك يا عبد المطلب لجده غير كذب ، فخر عبد المطلب ساجداً فقال : ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا أمرك فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك . فقال أيها الملك : كان لي ابن وكنت به معجباً وعليه رفيقاً فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب فجاءت بغلام سميته محمداً فمات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه . قال ابن ذي يزن إن الذي قلت لك كما قلت فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً ، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك فإني لست آمن أن تدخل لهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة فيطلبون له الغوائل وينصبون له الحبائل فهم فاعلون أو ابناؤهم ولولا أني اعلم أنْ الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مملكته فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن بيثرب استحكام أمره وأهل نصرته وموضع قبره ولولا أني أقيه الآفات واحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه أمره ، ولأوطأت أسنان العرب عقبه ، ولكني صارف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك . قال ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشرة اماء ومائة من الابل وحلتين من البرود وبخمسة ارطال من الذهب وعشرة ارطال فضة وكرش مملوء عنبراً وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال له : إذا حال الحول فأتني . فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول ، فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول : [يا معشر قريش] لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك [وإن كثر][2] فإنه إلى نفاد ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولعقبي من بعدي ذكره وفخره وشرفه ، فإذا قيل له متى ذلك قال سيعلم ولو بعد حين قال وفي ذلك يقول أمية بن عبد شمس :

جَلَبْنا النُصحَ تحقُبه المطايا ... على أكوارِ أجمالٍ ونُوقِ

---

(١) عند البيهقي : سارّني .

(٢) ما بين المعكوفين من دلائل البيهقي .

مـقـلَّفَـةٌ مـراتـعُـهـا تـعـالَى ... إلى صـنـعـاءَ من فـجٍّ عـمـيـقِ
تـؤمُّ بنـا ابـنَ ذي يَـزَنٍ وتَفـري ... بـذاتِ بُـطونها ذمَّ الـطريـقِ
وتـرعَـى من مَخـائـله بُـروقـا ... مُـواصِـلةَ الـوميضِ إلى بُـروقِ
فـلمّا واصلت صَـنـعـاءَ حـلَّتْ ... بـدارِ المـلْكِ والحَسَـبِ الـعـريـقِ

وهكذا رواه الحافظ أبو نعيم في الدلائل من طريق عمرو بن بكير بن بكار القعنبي . ثم قال أبو نعيم[1] أخبرت عن أبي الحسن علي بن إبراهيم بن عبد ربه بن محمد بن عبد العزيز بن عفير بن عبد العزيز بن السفر بن عفير بن زرعة بن سيف بن ذي يزن حدثني أبي أبو يزن إبراهيم حدثنا عمي أحمد بن محمد أبو رجاء به حدثنا عمي محمد بن عبد العزيز حدثني عبد العزيز بن عفير عن أبيه عن زرعة بن سيف بن ذي يزن الحميري قال لما ظهر جدي سيف بن ذي يزن على الحبشة . وذكره بطوله .

وقال أبو بكر الخرائطي حدثنا أبو يوسف يعقوب بن إسحاق القلوسي حدثنا العلاء بن الفضل بن أبي سوية أخبرني أبي عن أبيه عبد الملك بن أبي سوية عن جده أبي سوية عن أبيه خليفة قال سألت محمد بن عثمان بن ربيعة بن سواة بن خثعم بن سعد فقلت كيف سماك أبوك محمداً ؟ فقال سألت أبي عما سألتني عنه ، فقال خرجت رابع أربعة من بني تميم أنا منهم ، وسفيان بن مجاشع بن دارم ، وأسامة بن مالك بن جندب بن العقيد ، ويزيد بن ربيعة بن كنانة بن حربوص بن مازن ، ونحن نريد ابن جفنة ملك غسان فلما شارفنا الشام نزلنا على غدير عليه شجرات فتحدثنا فسمع كلامنا راهب ، فأشرف علينا فقال إن هذه لغة ما هي بلغة هذه البلاد فقلنا نعم نحن قوم من مضر ، قال من أي المضرين ؟ قلنا من خندف قال أما إنه سيبعث وشيكاً نبي خاتم النبيين ، فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه ترشدوا . فقلنا له ما اسمه ؟ قال : اسمه محمد . قال فرجعنا من عند ابن جفنة فولد لكل واحد منا ابن فسماه محمداً . يعني أن كل واحد منهم طمع في أن يكون هذا النبي المبشر به ولده .

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطي : حدثنا عبد الله بن أبي سعد حدثنا حازم بن عقال بن الزهر بن حبيب بن المنذر بن أبي الحصين بن السموأل بن عاديا حدثني جابر بن جدان بن جميع بن عثمان بن سماك بن الحصين بن السموأل بن عاديا . قال لما حضرت الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر الوفاة اجتمع إليه قومه من غسان فقالوا إنه قد حضرك من أمر الله ما ترى وكنا نأمرك بالتزوج في شبابك فتأبى وهذا أخوك الخزرج له خمسة بنين ، وليس لك ولد غير مالك

---

(١) الخبر ليس في دلائل النبوة لأبي نعيم المطبوعة . ونقل الخبر عن أبي زرعة البيهقي في دلائله بأسانيد مختلفة عما أورده أبو نعيم راجع البيهقي ج ٢ / ٩ .

فقال : لن يهلك هالك ترك مثل مالك إن الذي يخرج النار من الوثيمة[1] قادر أن يجعل لمالك نسلاً ورجالاً بسلاً وكل إلى الموت ثم أقبل على مالك وقال : أي بني المنية ولا الدنية ، العقاب ولا العتاب ، التجلد ولا التلدد القبر خير من الفقر ، إنه من قل ذل ، ومن كر فر ، من كرم الكريم الدفع عن الحريم . ولدهر يومان فيوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصطبر ، وكلاهما سينحسر ، ليس يثبت منهما الملك المتوج ، ولا اللئيم المملهج[2] ، سلم ليومك حياك ربك ، ثم أنشأ يقول :

شهِدتُ السبايا يومَ آلِ محرِّقٍ ... وأدركُ أمري صيحةَ الله في الحِجْرِ[3]
فلم أر ذا مُلكٍ من الناسِ واحداً ... ولا سُوقةً إلّا إلى الموتِ والقبرِ
فعلّ الذي أردى ثموداً وجُرهماً ... سيعقِبُ لي نَسلاً على آخرِ الدهرِ
تقرّبهم من آلِ عمرو بنِ عامرٍ ... عيونٌ لدى الداعي إلى طَلَبِ الوِتْرِ
فإن لم تكُ الأيامُ أبلينَ جِدّتي ... وشيّبن رأسي والمشيبُ مع العُمرِ
فإنّ لنا رباً علا فوقَ عرشه ... عَليماً بما يأتي من الخيرِ والشرِ
ألم يأتِ قومي أن لله دعوةً ... يفوزُ بها أهلُ السعادةِ والبرِ
إذا بُعثَ المبعوثُ من آلِ غالبٍ ... بمكةَ فيما بين مكةَ والحِجْرِ
هنالك فابغوا نَصرَهُ ببلادكم ... بني عامرٍ إن السعادةَ في النصرِ

قال ثم قضى من ساعته .

باب في هواتف الجان

وقد تقدم كلام شق وسطيح لربيعة بن نصر ملك اليمن في البشارة بوجود رسول الله ﷺ ، رسول ذكي يأتي إليه الوحي من قبل العلي . وسيأتي في المولد قول سطيح لعبد المسيح : إذا كثرت التلاوة وغاضت بحيرة ساوة وجاء صاحب الهراوة يعني بذلك رسول الله ﷺ كما سيأتي بيانه مفصلاً .

وقال البخاري[4] حدثنا يحيى بن سليمان الجعفي حدثني ابن وهب حدثني عمرو ـ هو محمد بن زيد ـ أن سالماً حدثه عن عبد الله بن عمر قال : ما سمعت عمر يقول لشيء قط إني لأظنه إلّا كان كما يظن . بينما عمر بن الخطاب جالس إذ مر به رجل جميل ، فقال لقد أخطأ ظني أو إن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم ، عليّ الرجل ، فدعي به فقال له ذلك فقال : ما

---

(١) الوثيمة : الحجارة .

(٢) المملهج : الرجل الأحمق المذر اللئيم (اللسان) .

(٣) في الخصائص : عمري بدل أمري . وهو مناسب أكثر .

(٤) صحيح البخاري ، فتح الباري (١٧٧/٧) كتاب مناقب الأنصار (٦٣) . (٣٥) باب إسلام عمر بن الخطاب .

رأيت كاليوم استقبل به رجلاً مسلماً . قال فإني أعزم عليك إلّا ما أخبرتني قال كنت كاهنهم في الجاهلية ، قال فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال بينما أنا في السوق يوماً جاءتني أعرف فيها الفزع . فقالت :

ألم تـرَ الجـنَّ وإبـلاسَـهـا   ويلسَها من بعدِ أنكـاسِها ؟

ولحوقها بالقلاص وأحلاسها

قال عمر صدق بينا أنا نائم عند آلهتهم جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول : يا جليح أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول لا إله إلّا الله فوثب القوم ، فقلت لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا . ثم نادى يا جليح أمر نجيح ، رجل فصيح يقول لا إله إلّا الله ، فقمت فما نشبنا أن قيل هذا نبي . تفرد به البخاري[1] .

وهذا الرجل هو سواد بن قارب الأزدي . ويقال السدوسي من أهل السراة من جبال البلقاء له صحبة ووفادة . قال أبو حاتم وابن منده روى عنه سعيد بن جبير ، وأبو جعفر محمد بن علي ، وقال البخاري له صحبة . وهكذا ذكره في أسماء الصحابة أحمد بن روح البرذعي الحافظ ، والدارقطني ، وغيرهما وقال الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري سواد بن قارب بالتخفيف . وقال عثمان الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي كان من أشراف أهل اليمن ذكره أبو نعيم في الدلائل[1] ، وقد روى حديثه من وجوه أخر مطولة بالبسط من رواية البخاري .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني من لا أتهم عن عبد الله بن كعب مولى عثمان بن عفان أنه حدث : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بينما هو جالس في الناس في مسجد رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل من العرب داخل المسجد يريد عمر بن الخطاب . فلما نظر إليه عمر قال أن الرجل لعلى شركه ما فارقه بعد ، أو لقد كان كاهناً في الجاهلية فسلم عليه الرجل ثم جلس ، فقال له عمر : هل أسلمت ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين . قال : فهل كنت كاهناً في الجاهلية ؟ فقال الرجل سبحان الله يا أمير المؤمنين ، لقد خلت فيّ واستقبلتني بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليت ما وليت . فقال عمر : اللهم غفراً قد كنا في الجاهلية على شر من هذا نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام . قال : نعم ، والله يا أمير المؤمنين لقد كنت كاهناً في الجاهلية قال فأخبرني ما جاء به صاحبك . قال جاءني قبل الإسلام بشهر أو شيعه[2] فقال : ألم تر إلى الجن

---

(١) سواد بن قارب الدوسي على ما رواه ابن أبي خيثمة ؛ من بني سدوس . كان يتكهن في الجاهلية ؛ وكان شاعراً . ذكره ابن حجر في الاستيعاب ، والذهبي في تجريد أسماء الصحابة . وذكره ابن حجر في الإصابة . وذكره ابن الأثير في أسد الغابة . قال ابن الكلبي وسعيد بن جبير : الأزدي الدوسي .

(٢) شيعه : أي دونه بقليل .

وابلاسها ، واياسها من دينها ، ولحوقها بالقلاص واحلاسها .

قال ابن إسحاق[١] : هذا الكلام سجع ليس بشعر . قال عبدالله بن كعب :

فقال عمر عند ذلك يحدث الناس : والله إني لعند وثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش قد ذبح له رجل من العرب عجلاً ، فنحن ننتظر قسمه أن يقسم لنا منه ، إذ سمعت من جوف العجل صوتاً ما سمعت صوتاً قط أشد منه ، وذلك قبل الإسلام بشهر أو شيعه يقول : يا ذريح أمر نجيح رجل يصيح يقول لا إله إلاّ الله . قال ابن هشام ويقال رجل يصيح بلسان فصيح يقول لا إله إلاّ الله قال وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر :

عجبت للجنّ وابلاسها وشدّها العيسَ بأحلاسها
تهوي إلى مكةَ تبغي الهدى ما مؤمنو الجنُّ كأنجاسها

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا يحيى بن حجر بن النعمان الشامي حدثنا علي بن منصور الأنباري عن محمد[٢] بن عبد الرحمن الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي . قال بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم جالس إذ مر به رجل . فقيل يا أمير المؤمنين أتعرف هذا المار ؟ قال ومن هذا ؟ قالوا هذا سواد بن قارب الذي أتاه رئيه بظهور رسول الله ﷺ قال فأرسل إليه عمر . فقال له أنت سواد بن قارب قال نعم . قال فأنت على ما كنت عليه من كهانتك ؟ قال فغضب . وقال ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين، فقال عمر يا سبحان الله ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك ، فأخبرني ما أنبأك رئيك بظهور رسول الله ﷺ ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتاني رئيي فضربني برجله وقال قم يا سواد بن قارب ، واسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ثم أنشأ يقول :

عجبتُ للجنّ وتطلابها وشدِّها العيسَ بأقتابها
تهوي إلى مكّةَ تبغي الهُدى ما صادقُ الجنّ ككذّابها
فارحل إلى الصفوَةِ من هاشمٍ ليسَ قُدامها كأذنابها

قال قلت دعني أنام فإني أمسيت ناعساً . قال فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله وقال قم يا سواد بن قارب واسمع مقالتي ، واعقل إن كنت تعقل ، إنه بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

---

(١) في سيرة ابن هشام : قال ابن هشام .

(٢) في دلائل البيهقي : أبو عبد الرحمن الوقاصي ؛ ولم أجد ترجمة لمحمد ، إنما ذكر عثمان في التقريب ، والوقاصي نسبة لسعد بن أبي وقاص . وفي نسخة للدلائل : ابن عبد الرحمن الوقاصي دون ذكر اسمه . وفي رواية أخرى للبيهقي : عثمان بن عبد الرحمن .

عـجـبـتُ لـلجنّ وتَجـيـارِهـا[1] وشــدُّهــا الـعيسَ بــأكْــوارهــا
تهــوي إلى مـكــةَ تبـغـي الهـدى مــا مــؤمنــو الجنِّ كـكـفّــارِهــا
فـارحـلْ إلى الصَفـوةِ من هـاشمٍ بــينَ رَوابـيـهــا وأحْـجَــارهــا

قال قلت دعني أنام ، فإني أمسيت ناعساً ، فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله . وقال : قم يا سواد بن قارب ، فاسمع مقالتي ، واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ثم أنشأ يقول :

عَجبتُ لـلجنِّ وتَحـسـاسِـهـا وشـدِّهــا العيسَ بـأحـلاسهـا
تهــوي إلى مـكــةَ تبـغـي الهـدى مــا خـيِّر الجنِّ كـأنـجـاسهـا
فـارحـلْ إلى الصفــوة من هـاشمٍ واسـمُ بـعـيـنـيـكَ إلى راسـهـا

قال فقمت وقلت : قد امتحن الله قلبي ،، فرحّلت ناقتي ثم أتيت المدينة ـ يعني مكة ـ فإذا رسول الله ﷺ في أصحابه فدنوت فقلت : اسمع مقالتي يا رسول الله . قال هات فأنشأت أقول :

أتــاني نجيّي بعــدَ هــدْءٍ ورقْــدةٍ ولم يـكُ فيـها قـد تلوْتُ بكـاذبِ[2]
ثــلاثَ ليــالٍ قــولُـه كـلَّ ليـلةٍ أتــاكَ رسـولٌ من لؤيِّ بنِ غــالب
فشمّرتُ عن ذيلي الإزارَ ووسّطتْ بيَ الدعلبُ الوجْناءُ غُبْرَ السباسِب[3]
فــأشْـهــدُ أنّ الله لا شيءَ غـيــرَه وأنكَ مأمونٌ على كـلِّ غـالبِ[4]
وأنــكَ أدنى المــرسَــلين وَسـيـلةً إلى الله يـا بنَ الأكرمِـين الأطايبِ
فَمـرْنا بمـا يأتيك يا خيرَ من مشى وإن كـان فيما جاء شَيْبُ الـذوائب
وكنْ لي شفيعـاً يـومَ لاذو شفـاعـةٍ سِواكَ بمغنٍ عن سوادِ بن قـارب[5]

قال ففرح رسول الله ﷺ وأصحابه بمقالتي فرحاً شديداً ، حتى رُئي الفرح في وجوههم . قال فوثب إليه عمر بن الخطاب فالتزمه وقال قد كنت أشتهي أن أسمع هذا الحديث منك فهل يأتيك رئيك اليوم ؟ قال أما منذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب الله من الجن . ثم قال

---

(١) في دلائل البيهقي : وتخبارها .
(٢) في الدلائل ورد البيت :

أتـاني رئـي بـعـد لـيـل وهـجـعـة ولم يـك فـيـهـا قـد بـلوت بـكـاذب

(٣) في البيهقي :

فـشـمـرت عـن ذيـلي الإزار ووسـطت بي الـدعلب الـوجناء غبـر السباسب

(٤) في البيهقي : على كل غايب .
(٥) ورد في سبل الهدى :

وكـن لي شـفـيـعـاً حـين لاذو قـرابـة بمـغنٍ فـتـيـلاً عـن سـواد بـن قـارب

عمر : كنا يوماً في حي من قريش يقال لهم آل ذريح وقد ذبحوا عجلاً لهم والجزار يعالجه ، إذ سمعنا صوتاً من جوف العجل ـ ولا نرى شيئاً ـ قال يا آل ذريح ، أمر نجيح[1] صائح يصيح بلسان فصيح يشهد أن لا إله إلاّ الله ، وهذا منقطع من هذا الوجه ويشهد له رواية البخاري . وقد تساعدوا على أن السامع الصوت من العجل هو عمر بن الخطاب والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتابه الذي جمعه في هواتف الجان : حدثنا أبو موسى عمران بن موسى المؤدب حدثنا محمد بن عمران بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى حدثنا سعيد بن عبيد الله الوصابي ، عن أبيه ، عن أبي جعفر محمد بن علي . قال : دخل سواد بن قارب السدوسي على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : نشدتك بالله يا سواد بن قارب ، هل تحسن اليوم من كهانتك شيئاً ؟ فقال : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، ما استقبلت أحداً من جلسائك بمثل ما استقبلتني به قال سبحان الله يا سواد ما كنا عليه من شركنا أعظم مما كنت عليه من كهانتك ، والله يا سواد لقد بلغني عنك حديث إنه لعجيب من العجب، قال إي والله يا أمير المؤمنين إنه لعجب من العجب . قال فحدثنيه قال : كنت كاهناً في الجاهلية ، فبينا أنا ذات ليلة نائم إذ أتاني نجيي فضربني برجله . ثم قال يا سواد اسمع أقل لك ، قلت هات . قال :

عجبتُ للجنّ وأنجاسها[2] ورَحْلِها العيسَ بأحلاسها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما مؤمنوها مثلُ أرجاسها
فارحلْ إلى الصفوة من هاشم واسمُ بعينيكَ إلى رأسها

قال فنمت ولم أحفل بقوله شيئاً ، فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله ثم قال لي قم يا سواد بن قارب اسمع أقل لك ، قلت هات قال :

عجبتُ للجنّ وتطلابِها وشدِّها العيسَ بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما صادقُ الجنّ ككذابها
فارحلْ إلى الصفوة من هاشم ليس المقاديمُ كأذنابها

قال فحرك قوله مني شيئاً ونمت فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله ثم قال يا سواد بن قارب أتعقل أم لا تعقل؟ قلت وما ذاك ؟ قال ظهر بمكة نبي يدعو إلى عبادة ربه فالحق به ، اسمع أقل لك . قلت هات قال :

عجبتُ للجنّ وتنفارها ورَحلِها العيسَ بأكوارها

---

(١) يا ال ذريح : لعله نداء للعجل المذبوح .

جليح : لغة ما تطاير من رؤوس النبات وخف . الواحدة : جليحة . ويقال : جليح اسم شيطان .

(٢) في ابن هشام : وإبلاسها .

تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما مؤمنو الجنّ ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... بينَ روابيها وأحجارها

قال فعلت أن الله قد أراد بي خير . فقمت إلى بردة لي ففتقتها ولبستها ووضعت رجلي في غرز ركاب الناقة . وأقبلت حتى انتهيت إلى النبي ﷺ فعرض عليّ الإسلام فأسلمت ، وأخبرته الخبر فقال « إذا اجتمع المسلمون فأخبرهم » فلما اجتمع المسلمون قمت فقلت :

أتاني نجيّي بعدَ هدْءٍ ورَقْدةٍ ... ولم يكُ فيما قد بَلَوتُ بكاذب
ثلاث ليالٍ قولهُ كلَّ ليلةٍ ... أتاك رسول من لؤيّ بنِ غالب
فشمرتُ عن ذيلي الإزار ووسّطت ... بيَ الذعلبُ الوجناءُ غُبْر السّباسب[1]
وأعلمُ أن الله لا ربَّ غيرَه ... وأنك مأمونٌ على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلةً ... إلى الله يابنَ الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيكَ يا خيرَ مرسَل ... وإن كان فيما جاء شَيْبُ الذوائب

قال فسر المسلمون بذلك ، فقال عمر هل نحس اليوم منها بشيء ؟ قال أما إذ علمني الله القرآن فلا وقد رواه محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن عمر بن حفص . قال لما ورد سواد بن قارب على عمر قال : يا سواد بن قارب ما بقي من كهانتك ؟ فغضب وقال : ما أظنك يا أمير المؤمنين استقبلت أحداً من العرب بمثل هذا ، فلما رأى ما في وجهه من الغضب ، قال : انظر سوّاد للذي كنا عليه قبل اليوم من الشرك أعظم . ثم قال يا سواد حدثني حديثاً كنت أشتهي أسمعه منك ، قال نعم ، بين أنا في إبل لي بالسراة[2] ليلاً وأنا نائم وكان لي نجي من الجن أتاني فضربني برجله فقال لي قم يا سواد بن قارب فقد ظهر بتهامة نبي يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فذكر القصة كما تقدم وزاد في آخر الشعر :

وكن لي شفيعاً يوم لا ذو قرابة ... سواك بمغن عن سواد بن قارب[3]

فقال رسول الله ﷺ : « سر في قومك وقل هذا الشعر فيهم » .

ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق سليمان بن عبد الرحمن عن الحكم بن يعلى بن عطاء المحاربي عن عباد بن عبد الصمد عن سعيد بن جبير قال أخبرني سواد بن قارب الأزدي . قال : كنت نائماً على جبل من جبال السراة[4] فأتاني آتٍ فضربني برجله ـ وذكر القصة أيضاً .

---

(١) الذعلب : الناقة السريعة ، والوجناء: الشابة .
(٢) في البخاري : التاريخ الكبير : الشراة .
(٣) تقدم الشعر في سبل الهدى : بمغن فتيلا عن سواد بن قارب .
(٤) في التاريخ الكبير وفيه الشراة . وهي الرواية التي ذكرها البخاري في التاريخ الكبير (٢:٢/٢٠٢) وعقب بقوله : ولا يصح الحكم بن يعلى .

ورواه أيضاً من طريق محمد بن البراء[١] عن أبي بكر بن عياش عن أبي إسحاق عن البراء . قال قال سواد بن قارب : كنت نازلاً بالهند فجاءني رئيي ذات ليلة فذكر القصة . وقال بعد انشاد الشعر الأخير فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال : « أفلحت يا سواد » .

وقال أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر حدثنا عبد الرحمن بن الحسن[٢] حدثنا علي بن حرب حدثنا أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب عن أبيه عن عبد الله العماني . قال كان منا رجل يقال له مازن بن العضوب[٣] يسدن صنماً بقرية يقال لها سمايا[٤]، من عمان ، وكانت تعظمه بنو الصامت وبنو حطامة ومهرة وهم أخوال مازن . أمه زينب بنت عبد الله بن ربيعة بن خويص أحد بني نمران قال مازن : فعترنا يوماً عند الصنم عتيرة ـ وهي الذبيحة[٥] ـ فسمعت صوتاً من الصنم يقول : يا مازن اسمع تسر ، ظهر خير وبطن شر ، بعث نبي من مضر ، بدين الله الأكبر ، فدع نحيتا من حجر . تسلم من حر سقر . قال ففزعت لذلك فزعاً شديداً . ثم عترنا بعد أيام عتيرة أخرى ، فسمعت صوتاً من الصنم يقول : أقبل إليّ أقبل ، تسمع مالا تجهل ، هذا نبي مرسل ، جاء بحق منزل ، فآمن به كي تعدل عن حر نار تشعل وقودها الجندل . قال مازن : فقلت إن هذا لعجب وإن هذا الخير يراد بي وقدم علينا رجل من الحجاز فقلت ما الخبر وراءك ؟ فقال ظهر رجل يقال له أحمد ، يقول لمن أتاه أجيبوا داعي الله ، فقلت هذا نبأ ما سمعت ، فثرت إلى الصنم فكسرته جذاذاً وركبت راحلتي حتى قدمت على رسول الله ﷺ فشرح الله صدري للإسلام فأسلمت ، وقلت :

كسّرت بَاجِرَ أجذاذاً وكانَ لنا ... رَبّاً نُطيفُ به ضلّاً بتضلال
فالهاشميّ هَدانا من ضَلالتنا ... ولم يكن دِينهُ منّي على بال
يا راكباً بلِّغنْ عَمْراً وإخوتَها ... إني لِمَنْ قالَ ربي باجرٌ قالي[٦]

---

(١) أخرج الحديث البيهقي في الدلائل ج ٢/٢٤٩ وفيه عن محمد بن تراس الكوفي .
(٢) في دلائل البيهقي ج ٢/٢٥٨ : أبو أحمد بن أبي الحسن عن عبد الرحمن بن محمد الحنظلي .
(٣) في رواية البيهقي : مازن بن الغضوبة ، وهو مازن بن الغضوبة بن غراب بن بشر الطائي ذكره ابن السكن في الصحابة وقال ابن حبان : يقال له صحبة ، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب وابن حجر في الإصابة ٣/٣٣٦ .
(٤) في رواية البيهقي : السمال وفي رواية أخرى السمايل . .
لم أجد لسمايا في معاجم البلدان . وردت في معجم البلدان سمال بفتح أوله وآخره وهو اسم موضع .
وفي معجم ما استعجم سمويل بلد كثير الطير . .
(٥) الذبيحة : شاة تذبح في رجب أو ذبيحة تذبح للأصنام فيصب دمها على رأسها . عن النهاية لابن الأثير .
(٦) في الدلائل للبيهقي :
يا راكباً بلغا عمراً واخوته ... أني لمن قال ديني ناجر قالي

يعني يعمرو الصامت وأخوتها حطامة[1]. فقلت يا رسول الله إني امرؤ مولع بالطرب وبالهلوك من النساء وشرب الخمر. وألحت علينا السنون فأذهبن الأموال وأهزلن السراري[2] وليس لي ولد، فأدعو الله أن يذهب عني ما أجد ويأتينا بالحيا، ويهب لي ولداً فقال النبي ﷺ: « اللهم أبدله بالطرف قراءة القرآن، وبالحرام الحلال وبالاثم وبالعهر عفة وآته بالحيا وهب له ولداً » قال فاذهب الله عني ما أجد واخصبت عمان وتزوجت أربع حرائر وحفظت شطر القرآن، ووهب لي حيان بن مازن وأنشأ يقول:

إليكَ رسولَ الله خبتْ مطيتي ... تجوبُ الفيافي من عمان إلى العرجِ
لتشفع لي يا خير من وطىء الحصى ... فيغفر لي ربي فأرجعَ بالفَلْجِ
إلى معشرٍ خالفتُ في الله دينَهم ... فلا رأيُهم رأيي ولا شَرْجُهم شرجيْ
وكنتَ امرءاً بالخمر والعهرِ مولعاً ... شبابيَ حتى آذنَ الجسمَ بالنهجِ
فبدَّلني بالخمر خوفاً وخشيةً ... وبالعهر إحصاناً فحصَّن لي فرجي
فأصبحت همي في الجهاد ونيّتي[3] ... فللهِ ما صومي ولله ما حجّي

قال فلما أتيت قومي أنبوني وشتموني، وأمروا شاعراً لهم فهجاني، فقلت إن رددت عليه فإنما أهجو نفسي. فرحلت عنهم فأتتني منهم زلفة عظيمة وكنت القيم بأمورهم فقالوا يابن عم: عبنا عليك أمراً وكرهنا ذلك فإن أبيت ذلك فارجع وقم بأمورنا وشأنك وما تدين به. فرجعت معهم وقلت:

لبغضكمْ عندنَا مرٌّ مذاقته ... وبغضنا عندكمْ يا قومَنا لَبَن
لا يفطن الدهرُ إن بثْمعائبكم ... وكلُّكم حينَ يُثني عيبُنا فطِن
شاعرنا مفحَم عنكم وشاعركم ... في حدبنا مبلغ في شتمِنا لَسِن
ما في القلوب عليكم فاعلموا وغِر ... وفي قلوبكم البغضاءُ والإحَن[4]

قال مازن: فهداهم الله بعد إلى الإسلام جميعاً.

وروى الحافظ أبو نعيم[5] من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال إن أول خبر كان بالمدينة بمبعث رسول الله ﷺ أن امرأة بالمدينة كان لها تابع من الجن، فجاء في صورة طائر أبيض فوقع على حائط لهم، فقالت له لم لا تنزل إلينا فتحدثنا ونحدثك، وتخبرنا

---

(1) عبارة البيهقي: يعني بعمرو وإخوته: بني خطامة.

(2) عبارة البيهقي: وأهزلن الذراري والرجال.

(3) في البيهقي: فأصبحت همي في جهاد ونية . . .

(4) وردت الأبيات في دلائل البيهقي بتغيير في الألفاظ. ج ٢/٢٥٧ ـ ٢٥٨

(5) دلائل النبوة ص ٢٩ ـ وأخرجه أحمد والطبراني في الأوسط ورجاله وثقوا ـ كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٢٤٣) وأخرجه ابن سعد بنحوه ١/١٩٠.

ونخبرك ؟ فقال لها إنه قد بعث نبي بمكة حرم الزنا ومنع منا القرار[1] .

وقال الواقدي : حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز عن الزهري عن علي بن الحسين . قال : إنَّ أول خبر قدم المدينة عن رسول الله ﷺ أن امرأة تدعى فاطمة كان لها تابع ، فجاءها ذات يوم ، فقام على الجدار فقالت ألا تنزل ؟ فقال : لا إنه قد بعث الرسول الذي حرم الزنا .

وأرسله بعض التابعين أيضاً وسماه بابن لوذان وذكر أنه كان قد غاب عنها مدة ، ثم لما قدم عاتبته فقال إني جئت الرسول فسمعته يحرم الزنا فعليك السلام .

وقال الواقدي : حدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة . قال قال عثمان بن عفان : خرجنا في عير إلى الشام ـ قبل أن يبعث رسول الله ﷺ ـ فلما كنا بأفواه الشام ـ وبها كاهنة ـ فتعرضتنا، فقالت أتاني صاحبي فوقف على بابي ، فقلت ألا تدخل فقال لا سبيل إلى ذلك ، خرج أحمد وجاء أمر لا يطاق ، ثم انصرفت فرجعت إلى مكة فوجدت رسول الله ﷺ قد خرج بمكة يدعو إلى الله عزَّ وجل[2] .

وقال الواقدي : حدثني محمد بن عبد الله الزهري . قال : كان الوحي يسمع فلما كان الإسلام منعوا وكانت امرأة من بني أسد يقال لها سعيرة لها تابع من الجن ، فلما رأى الوحي لا يستطاع أتاها فدخل في صدرها فضج في صدرها فذهب عقلها فجعل يقول من صدرها : وضع العناق ومنع الرفاق وجاء أمر لا يطاق وأحمد حرم الزنا .

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطي : حدثنا عبد الله بن محمد البلوي[3] ـ بمصر ـ حدثنا عمارة بن زيد حدثنا عيسى بن يزيد عن صالح بن كيسان عمن حدثه عن مرداس بن قيس السدوسي قال حضرت النبي ﷺ ـ وقد ذكرت عنده الكهانة وما كان من تغييرها عند مخرجه ـ فقلت يا رسول الله قد كان عندنا في ذلك شيء أخبرك أن جارية منا يقال لها الخلصة لم يعلم عليها إلّا خيراً ، إذ جاءتنا فقالت يا معشر دوس العجب العجب لما أصابني ، هل علمتم إلّا خيراً ؟ قلنا وما ذاك ؟ قالت إني لفي غنمي إذ غشيتني ظلمة ووجدت كحس الرجل مع المرأة فقد خشيت أن أكون قد حبلت . حتى إذا دنت ولادتها وضعت غلاماً أغضف[4] له أذنان كأذني الكلب فمكث فينا حتى إنه ليلعب مع الغلمان إذ وثب وثبة وألقى إزاره وصاح بأعلى صوته وجعل يقول : يا ويلة يا ويلة ، يا عولة يا عولة ، يا ويل غنم ، يا ويل فهم ، من قابس النار . الخيل والله وراء العقبة ، فيهن فتيان حسان نجبة . قال فركبنا وأخذنا للأداة وقلنا يا ويلك ما ترى فقال هل من جارية

---

(١) منع منا القرار : أي الاستقرار في الأرض .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الدلائل ص ٢٩ من طريق الواقدي نحوه .

(٣) نسبة إلى بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، اللباب ١/١٤٤ .

(٤) أغضف : المتثني والمسترخي الأذنين .

طامث فقلنا ومن لنا بها ؟ فقال شيخ منا هي والله عندي عفيفة الأم فقلنا فعجلها فأتى بالجارية وطلع الجبل وقال للجارية اطرحي ثوبك واخرجي في وجوههم ، وقال للقوم اتبعوا أثرها ، وقال لرجل منا يقال له أحمد بن حابس يا أحمد بن حابس عليك أول فارس . فحمل أحمد فطعن أول فارس فصرعه وانهزموا فغنمناهم . قال فابتنينا عليهم بيتاً وسميناه ذا الخلصة ، وكان لا يقول لنا شيئاً إلّا كان كما يقول حتى إذا كان مبعثك يا رسول الله قال لنا يوماً يا معشر دوس نزلت بنو الحارث بن كعب فركبنا فقال لنا أكدسوا الخيل كدساً ، أحشوا القوم رمساً ، أنفوهم غدية واشربوا الخمر عشية . قال فلقيناهم فهزمونا وغلبونا فرجعنا إليه فقلنا ما حالك وما الذي صنعت بنا فنظرنا إليه وقد احمرت عيناه وانتصبت أذناه وانبرم غضباناً حتى كاد أن ينفطر وقام فركبنا واغتفرنا هذه له ومكثنا بعد ذلك حيناً ثم دعانا فقال هل لكم في غزوة تهب لكم عزاً وتجعل لكم حرزاً ويكون في أيديكم كنزاً ؟ فقلنا ما أحوجنا إلى ذلك فقال اركبوا فركبنا فقلنا ما نقول فقال بنو الحارث بن مسلمة ، ثم قال قفوا فوقفنا ثم قال عليكم بفهم ، ثم قال ليس لكم فيهم دم ، عليكم بمضرهم أرباب خيل ونعم ثم قال لا ، رهط دريد بن الصمة قليل العدد وفي الذمة ثم قال لا ، ولكن عليكم بكعب بن ربيعة وأسكنوها ضيعة عامر بن صعصعة فليكن بهم الوقيعة قال فلقيناهم فهزمونا وفضحونا فرجعنا وقلنا ويلك ماذا تصنع بنا قال : ما أدري كذبني الذي كان يصدقني . أسجنوني في بيتي ثلاثاً ثم ائتوني ففعلنا به ذلك ثم أتيناه بعد ثالثة ففتحنا عنه فإذا هو كأنه حجرة نار ، فقال يا معشر دوس حرست السماء وخرج خير الأنبياء قلنا أين ؟ قال بمكة وأنا ميت فادفنوني في رأس جبل فإني سوف أضطرم ناراً ، وإن تركتموني كنت عليكم عاراً فإذا رأيتم اضطرامي وتلهبي فاقذفوني بثلاثة أحجار ثم قولوا مع كل حجر بسمك اللهم فإني أهدي وأطفي . قال وإنه مات فاشتعل ناراً ففعلنا به ما أمر وقد قذفناه بثلاثة أحجار نقول مع كل حجر بسمك اللهم فخمد وطفى وأقمنا حتى قدم علينا الحاج فأخبرونا بمبعثك يا رسول الله ، غريب جداً .

وروى الواقدي ، عن أبيه ، عن ابن أبي ذئب ، عن مسلم بن جندب ، عن النضر بن سفيان الهذلي ، عن أبيه . قال : خرجنا في عير لنا إلى الشام فلما كنا بين الزرقا ومعان قد[1] عرّسنا من الليل فإذا بفارس يقول وهو بين السماء والأرض : أيها النيام هبوا فليس هذا بحين رقاد قد خرج أحمد فطردت[2] الجن كل مطرد ففزعنا ونحن رفقة حزورة[3] كلهم قد سمع بهذا فرجعنا إلى أهلنا فإذا هم يذكرون اختلافاً بمكة بين قريش في نبي قد خرج فيهم من بني عبد المطلب اسمه أحمد . ذكره أبو نعيم .

---

(١) في الوفاء: وقد .

(٢) في الوفاء: وطردت .

(٣) في دلائل أبي نعيم : الحزاورة جمع حزور وهو الرجل القوي .

وقال الخرائطي : حدثنا عبد الله بن محمد البلوي - بمصر - حدثنا عمارة بن زيد حدثني عبد الله بن العلاء حدثني يحيى بن عروة عن أبيه أن نفراً من قريش منهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي[(١)] ، وزيد بن عمرو بن نفيل[(٢)] وعبد الله[(٣)] بن جحش بن رئاب وعثمان بن الحويرث[(٤)] كانوا عند صنم لهم يجتمعون إليه ، قد اتخذوا ذلك اليوم من كل سنة عيداً كانوا يعظمونه وينحرون له الجزور ، ثم يأكلون ويشربون الخمر ، ويعكفون عليه فدخلوا عليه في الليل فرأوه مكبوباً على وجهه ، فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه إلى حاله ، فلم يلبث أن انقلب انقلاباً عنيفاً ، فأخذوه فردوه إلى حاله فانقلب الثالثة فلما رأوا ذلك اغتموا له وأعظموا ذلك . فقال عثمان بن الحويرث ماله قد أكثر التنكس إن هذا الأمر قد حدث وذلك في الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ فجعل عثمان يقول :

أيا صنَم العيدِ الذي صُفَّ حولَه ... صناديدُ وَفدٍ من بعيدٍ ومن قُرْبِ
تنكّستَ مغلوباً فما ذاكَ قُلْ لنا ... أذاكَ سفيه أم تنكَّستَ للعَتْبِ
فإن كانَ من ذَنْبٍ أتينا فإننا ... نبوءُ بإقرارٍ ونَلوي عَنِ الذنْبِ
وإن كنتَ مغلوباً ونُكّستَ صاغراً ... فما أنتَ في الأوثانِ بالسيِّد الربِّ

قال فأخذوا الصنم فردوه إلى حاله فلما استوى هتف بهم هاتف من الصنم بصوت جهير وهو يقول :

تردّى لمولودٍ أنارتْ بنورِهِ ... جميعُ فِجاجِ الأرض في الشَّرق والغربِ
وخرّت له الأوثان طُراً وأرعدتْ ... قلوبُ ملوك الأرض طراً من الرعْبِ

---

(١) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى . من حكماء قريش في الجاهلية ، اعتزل عبادة الأصنام قبل الإسلام ، ثم تنصَّر ، وأدرك أوائل عصر النبوة ، ولم يدرك الدعوة ، وهو ابن عم خديجة زوج رسول الله ﷺ .
بعض المؤرخين يعده في الصحابة .
قال البخاري في وفاته بعد بدء الوحي بقليل ؛ وقال عروة بن الزبير أنه أدرك اسلام بلال .
قال النبي ﷺ عندما سئل عنه : يُبعث يوم القيامة أمة وحده .

(٢) زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن عبد الله بن قرط بن رياح بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي القرشي العدوي ، من حكماء قريش في الجاهلية ، وهو ابن عم عمر بن الخطاب . لم يدرك الإسلام . ترك عبادة الأوثان والأصنام ؛ ولم يستمله لا اليهودية ولا النصرانية ؛ عبدالله على دين إبراهيم وجاهر بمكة بدينه وعدائه للأوثان . توفي قبل المبعث بخمس سنين ؛ سئل عنه النبي ﷺ فقال : يبعث يوم القيامة أمة وحده .

(٣) في سيرة ابن هشام : عبيد الله بن جحش ، وهو ابن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة .
وفي بلوغ الأرب للألوسي : عبيد .

(٤) وهو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي .

ونارُ جميع الفرس باخت وأظلمت وقد بات شاهُ الفرس في أعظم الكَرْب
وصدّتْ عن الكُهان بالغيب جِنّها فلا مُخبِرٌ عنهم بحقٍّ ولا كِذْب
فيا لقصيٍّ ارجعوا عن ضلالِكم وهبّوا إلى الإسلام والمنزل الرحب

قال فلما سمعوا ذلك خلصوا نجياً(١) فقال بعضهم لبعض تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض ، فقالوا أجل ، فقال لهم ورقة بن نوفل تعلمون والله ما قومكم على دين ولقد اخطئوا الحجة وتركوا دين إبراهيم ما حجر تطيفون به لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر يا قوم التمسوا لأنفسكم الدين [فإنكم والله ما أنتم على شيء] . قال فخرجوا عند ذلك يضربون في الأرض ويسألون عن الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام فأما ورقة بن نوفل فتنصر وقرأ الكتب حتى علم علماً، وأما عثمان بن الحويرث فسار إلى قيصر فتنصر وحسنت منزلته عنده . وأما زيد بن عمرو بن نفيل فأراد الخروج فحبس(٢) ثم إنه خرج بعد ذلك فضرب في الأرض حتى بلغ الرقة(٣) من أرض الجزيرة فلقي(٤) بها راهباً عالماً فأخبره بالذي يطلب فقال له الراهب إنك لتطلب ديناً ما تجد من يحملك عليه ، ولكن قد أظلك زمان نبي يخرج من بلدك يبعث بدين الحنيفية فلما قال له ذلك رجع يريد مكة فغارت عليه لخم فقتلوه ، وأما عبد الله بن جحش فأقام بمكة حتى بعث النبي ﷺ ثم خرج مع من خرج إلى أرض الحبشة ، فلما صار بها تنصر وفارق الإسلام فكان بها حتى هلك هنالك نصرانياً . تقدم في ترجمة زيد بن عمر بن نفيل له شاهد(٥) .

وقد قال الخرائطي : حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح أبو بكر الوراق ، حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثني أبي حدثنا عبد الله بن عبد العزيز(٦) حدثني محمد بن عبد العزيز ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن أنس السلمي ، عن العباس بن مرداس أنه كان يعر(٧) في لِقَاح له نصف النهار إذ طلعت عليه نعامة بيضاء عليها راكب عليه ثياب بياض مثل اللبن فقال : يا عباس بن مرداس ألم تر أن السماء قد كفت أحراسها ، وأن الحرب تجرعت أنفاسها ، وأن الخيل وضعت أحلاسها ، وأن الذي نزل بالبر والتقوى ، يوم الاثنين ليلة الثلاثاء ، صاحب الناقة القصوى . قال : فرجعت

(١) نجياً : من النجي ، الجماعة يتحدثون سراً عن غيرهم ، ويقع للأثنين والجماعة بلفظ واحد .
(٢) كان الخطاب عمه قد أوكل به صفية بنت الحضرمي تراقبه فيما يهم به من أمور فتاذن الخطاب به ، حتى أن الخطاب آذاه كثيراً وكرهه وقومه كراهية شديدة . (راجع ابن هشام) .
(٣) في سيرة ابن هشام : الموصل والجزيرة كلها .
(٤) في سيرة ابن هشام : في ميفعة من أرض البلقاء .
(٥) الخبر في سيرة ابن هشام ج ١ /٢٣٨ ؛ وما بين معكوفين من السيرة . ونقله الألوسي في بلوغ الأرب . ٢ /٢٥٠ .
(٦) عبد الله بن عبد العزيز ـ أبو عبد العزيز ـ الليثي ضعفه الجمهور ووثقه سعيد بن منصور وقال : كان مالك يرضاه ؛ وضعفه أبو حاتم الكاشف ٢ /٩٤ .
(٧) يعر : يتغوط من العرّة وهي عذرة الناس . وفي مجمع الزوائد : بعمرة .

مرعوباً قد راعني ما رأيت وسمعت حتى جئت وثناً لنا يدعى الضماد[1] وكنا نعبده ونُكَلَّم من جوفه فكنست ما حوله ثم تمسحت به وقبلته فإذا صائح من جوفه يقول :

قـلْ للقبـائـل من سليـم كلّهـا ... هلكَ الضماد وفازَ أهـلُ المسجد[2]

هلك الضمـاد وكـان يُعبَـدُ مـرّة ... قبـلَ الصـلاة مـع النبيّ محمـد [3]

إن الـذي ورِث النبـوّة والهـدى ... بعـد ابنِ مـريمَ من قـريشٍ مهتـد

قال فخرجت مرعوباً حتى أتيت قومي فقصصْت عليهم القصة وأخبرتهم الخبر وخرجت في ثلاثمائة من قومي بني حارثة إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة فدخلنا المسجد فلما رآني رسول الله ﷺ قال لي : « يا عباس كيف كان إسلامك ؟ » فقصصت عليه القصة . قال فسر بذلك وأسلمت أنا وقومي[4] .

ورواه الحافظ أبو نعيم في الدلائل[5] من حديث أبي بكر بن أبي عاصم عن عمرو بن عثمان به . ثم رواه أيضاً من طريق الأصمعي حدثني الوصافي[6] عن منصور بن المعتمر عن قبيصة بن عمرو بن اسحاق الخزاعي عن العباس بن مرداس السلمي . قال : أول إسلامي أن مرداساً أبي لما حضرته الوفاة أوصاني بصنم له يقال [له] ضماذ فجعلته في بيت وجعلت آتيه كل يوم مرة فلما ظهر النبي ﷺ سمعت صوتاً مرسلاً في جوف الليل راعني فوثبت إلى ضماد مستغيثاً وإذا بالصوت من جوفه وهو يقول :

قـل لـلقبيلة مـن سـليم كـلهـا ... هلك الأنيس وعـاش أهل المسجـد

أودى ضمـاد وكـان يعبـد مـرة ... قبـل الكتـاب إلى النبي محـمـد

إن الـذي ورث النبـوة والهـدى ... بعـد ابن مـريم من قـريش مهتـد

قال فكتمته الناس فلما رجع الناس من الأحزاب بينا أنا في إبلي بطرف العقيق من ذات عرق راقداً سمعت صوتاً وإذا برجل على جناح نعامة وهو يقـول : النور الـذي وقع ليلة الثلاثاء مع

---

(١) في سيرة ابن هشام : ضمار بالبناء على الكسر كحذام ورقاش .

(٢) في ابن هشام : وعجزه : أودى ضمار وعاش أهل المسجد .

(٣) في ابن هشام : أودى ضمار وكان يعبد مرة قبل الكتاب إلى النبي محمد أودى : هلك ، والمسجد هنا : مسجد مكة أو مسجد رسول الله ﷺ .

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٨/٢٤٧ وقال : رواه الطبراني وفيه عبد الله بن عبد العزيز الليثي ضعفه الجمهور . . وبقية رجاله وثقوا .

(٥) دلائل النبوة ص ٣٤.

(٦) نسبة إلى وصاف ، وهو اسم جماعة منهم وصاف بن عامر العجلي ، وينسب إليه عبيد الله بن الوليد بن عبد الرحمن بن قيس الوصافي ؛ روى عن عطية وعطاء وسمع منه وكيع ويعلى بن عبيد اللباب ٣/٢٧٥ .

صاحب الناقة العضباء[1] في ديار إخوان بني العنقاء ، فأجابه هاتف من شماله وهو يقول :

بَشِّرِ الجِنَّ وإبلاسَها ... أن وضعت المطيّ أحلاسَها

وكَلأتِ السماءُ أحراسَها

قال فوثبت مذعوراً وعلمت أن محمداً مرسل ، فركبت فرسي واحتثثت[2] السير حتى انتهيت إليه فبايعته ثم انصرفت إلى ضماد فأحرقته بالنار ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فأنشدته شعراً أقول فيه :

لعمرُك إني يومَ أجعلُ جاهلاً ... ضماداً لِربِّ العالمين مشاركا

وتركي رسولَ الله والأوسَ حولَه ... أولئك أنصارٌ له ما أولئكا

كتاركِ سهلِ الأرض والحَزْن يبتغي ... ليسلكَ في وَعْثِ الأمورِ المسالكا[3]

فآمنتُ باللهِ الذي أنا عبدُهُ ... وخالفتُ من أمسَى يريد المهالكا[4]

ووجّهتُ وجهي نحو مكة قاصداً ... أبايع نبيّ الأكرمين المبارَكا

نبيّ أتانا بعدَ عيسى بناطقٍ ... من الحقّ فيه الفصلُ فيه كذلكا

أمينٌ على القرآنِ أولُ شافعٍ ... وأولُ مبعوثٍ يجيبُ الملائكا

تلافَى عُرى الإسلامِ بعدَ انتقاضِها ... فأحكمَها حتى أقام المناسكا

عنيتُكَ يا خيرَ البريّة كلِّها ... توسطتَ في الفرعَين والمجدِ مالكا

وانتَ المصفّى من قريشٍ إذا سَمَتْ ... على ضمرِها تبقى القرون المباركا

إذا انتسبَ الحيّانِ كعبٌ ومالكٌ ... وجدناك محضاً والنساءَ العواركا[5]

قال الخرائطي : وحدثنا عبد الله بن محمد البلوي بمصر ، حدثنا عمارة بن زيد ، حدثنا إسحاق بن بشر ، وسلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحاق ، حدثني شيخ من الأنصار يقال له :

---

(١) هي ناقة رسول الله ﷺ .

(٢) في الدلائل : واجشمت : أي أسرعت

(٣) الحزن : الأرض الصعبة .

(٤) خالفت من أمسى : أي تركت عبادة الأصنام ، والحجر الذي أوصاه أبوه بعبادته ، يعني ضمار .

(٥) قال في هامش سيرة ابن كثيرج ١/٣٦٠: على ذلك الشعر ـ مع ما فيه من ركاكة ـ علامات الصنعة والافتراء منها :

ـ لم يخص الأوس بالذكر مع أنهم بعد الإسلام لم يعد لهم ذكر مستقل بل هم والخزرج الأنصار .

ـ قوله ووجهت وجهي نحو مكة . . . مع أنه تحدث عن النبي والأوس حوله وذلك في المدينة ، ومع أنه ذكر في حديثه أنه كان بعد رجوع الناس من الأحزاب .

ـ كيف علم ابن مرداس ـ وهو حديث الإسلام ـ أن رسول الله أول شافع .

عبد الله بن محمود من آل محمد بن مسلمة قال بلغني أن رجالاً من خثعم كانوا يقولون : إن مما دعانا إلى الإسلام أنا كنا قوماً نعبد الأوثان فبينا نحن ذات يوم عند وثن لنا إذ أقبل نفير يتقاضون إليه يرجون الفرج من عنده لشيء شجر بينهم إذ هتف بهم هاتف يقول :

يا أيها الناسُ ذوو الأجسام ... من بين أشياخٍ إلى غلام
ما أنتمُ وطائشُ الأحلام ... ومسندُ الحُكم إلى الأصنام
أكلُّكم في حيرةٍ نيام ... أم لا ترَوْن ما الذي أمامي
مِن ساطعٍ يجلو دُجى الظلام ... قد لاحَ للناظر من تِهام
ذاك نبيٌّ سيدُ الأنام ... قد جاء بعد الكفْر بالإسلام
أكرمَه الرحمنُ من امام ... ومن رسولٍ صادق الكلام
أعدَلُ ذي حكمٍ من الأحكام ... يأمرُ بالصلاة والصيام
والبر والصِّلات للأرحام ... ويزجُرُ الناسَ عن الآثام
والرجسِ والأوثانِ والحرام ... من هاشمٍ في ذروة السَّنام
مستعلناً في البلد الحرام

قال فلما سمعنا ذلك تفرقنا عنه وآتينا النبي ﷺ فأسلمنا[١] .

وقال الخرائطي : حدثنا عبد الله البلوي ، حدثنا عمارة ، حدثني عبيد الله بن العلاء ، حدثنا محمد بن عكبر ، عن سعيد بن جبير ، أن رجلاً من بني تميم يقال له رافع بن عميْر ـ وكان أهدى الناس للطريق وأسراهم بليل ، وأهجمهم على هول ، وكانت العرب تسميه لذلك دعموص العرب لهدايته وجراوته على السير ـ فذكر عن بدء إسلامه قال : إني لأسير برمل عالج[٢] ذات ليلة إذ غلبني النوم ، فنزلت عن راحلتي ونختها وتوسدت ذراعها ، ونمت وقد تعوذت قبل نومي فقلت : أعوذ بعظيم هذا الوادي[٣] من الجن من أن أوذى أو أهاج فرأيت في منامي رجلاً شاباً يرصد ناقتي وبيده حربة يريد أن يضعها في نحرها ، فانتبهت لذلك فزعاً فنظرت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً ، فقلت هذا حلم ثم عدت فغفوت فرأيت في منامي مثل رؤياي الأولى فانتبهت فدرت حول ناقتي فلم أر شيئاً وإذا ناقتي ترعد ، ثم غفوت فرأيت مثل بلك فانتبهت فرأيت ناقتي تضطرب والتفت فإذا أنا برجل شاب كالذي رأيت في المنام بيده حربة ورجل شيخ ممسك بيده يرده عنها وهو يقول :

يا مالكَ بنَ مُهَلِهِلِ بنِ دِثارِ ... مهلاً فدىً لك مئزري وإزاري

---

(١) الخبر نقله أبو نعيم في الدلائل ص ٣٣ عن رجل من خثعم مختصراً .

(٢) رمل عالج : رمل مرتفع .

(٣) وهو قول أهل الجاهلية .

عن نـاقـةِ الأنسيّ لا تعـرِضْ لها واخـتَرْ بهـا مـا شئتَ من أثـواري
ولقـد بَـدا ليَ منـكَ مـا لم أحتسِبْ ألا رَعَيـتَ قَـرابتي وذِمـاري[1]
تسمـو إليـهِ بِحَـرْبـةٍ مسمـومـةٍ تَبّـاً لِفِعـلِكَ يـا أبـا الغفـار
لـولا الحيـاءُ وأنّ أهلَكَ جيـرةٌ لَعَلِمتَ مـا كشّفتَ مـن أخبـاري

قال فأجابه الشاب وهو يقول :

أأردتَ أن تـعلو وتخـفضَ ذِكـرَنـا في غـير مُـزريـةٍ أبـا العيـزار
مـا كـانَ فيهمْ سيـد فيـما مضى إن الخيـارَ همُـو بنـو الأخيـار
فـاقصِدْ لقصـدِكَ يـا معكبـرُ أنمـا كـانَ المجـيرُ مُهـلهِـلَ بنَ دثـار

قال فبينما هما يتنازعان إذ طلعت ثلاثة أنوار من الوحش فقال الشيخ للفتى قم يا ابن أخت فخذ أيها شئت فداء لناقة جاري الأنسي ، فقام الفتى فأخذ منها ثوراً وانصرف . ثم التفت إلى الشيخ فقال يا هذا إذا نزلت وادياً من الأودية فخفت هوله فقل أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادي ولا تعذ بأحد من الجن فقد بطل أمرها ، قال فقلت له : ومن محمد هذا ؟ قال نبي عربي ، لا شرقي ولا غربي بعث يوم الأثنين . قلت وأين مسكنه ؟ قال : يثرب ذات النخل . قال : فركبت راحلتي حين برق لي الصبح ، وجددت السير حتى تقحمت المدينة فرآني رسول الله ﷺ فحدثني بحديثي قبل أن أذكر له منه شيئاً ودعاني إلى الإسلام فأسلمت . قال سعيد بن جبير وكنا نرى أنه هو الذي أنزل الله فيه : ﴿ وإنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ [الجن : ٦] وروى الخرائطي من طريق إبراهيم بن اسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس عن علي ؛ قال : إذا كنت بوادٍ تخاف السبع فقل : أعوذ بدانيال والجب ، من شر الأسد . وروى البلوي عن عمارة بن زيد ، عن إبراهيم بن سعد ، عن محمد بن إسحاق : حدثني يحيى بن عبد الله بن الحارث ، عن أبيه ، عن ابن عباس قصة قتال عليّ الجن بالبئر ذات العلم التي بالجحفة حين بعثه رسول الله ﷺ يستقي لهم الماء فأرادوا منعه وقطعوا الدلو فنزل اليهم ، وهي قصة مطولة منكرة جداً . والله أعلم .

وقال الخرائطي : حدثني أبو الحارث : محمد بن مصعب الدمشقي وغيره ، حدثنا سليمان بن بنت شرحبيل الدمشقي ، حدثنا عبد القدوس بن الحجاج ، حدثنا خالد بن سعيد ، عن الشعبي ، عن رجل قال : كنت في مجلس عمر بن الخطاب وعنده جماعة من أصحاب النبي ﷺ يتذاكرون فضائل القرآن فقال بعضهم خواتيم سورة النحل ، وقال بعضهم سورة يس ، وقال علي فأين أنتم عن فضيلة آية الكرسي أما إنها سبعون كلمة في كل كلمة بركة . قال وفي القوم عمرو بن معدي كرب لا يحير جواباً ، فقال أين أنتم عن بسم الله الرحمن الرحيم ؟ فقال عمر

---

(١) الذمار : ما يلزم حفظه ورعايته .

حدثنا يا أبا ثور . قال بينا أنا في الجاهلية إذ جهدني الجوع فأقحمت فرسي في البرية فما أصبت الأبيض النعام ، فبينا أنا أسير إذا أنا بشيخ عربي في خيمة ، وإلى جانبه جارية كأنها شمس طالعة ومعه غنيمات له ، فقلت له استأسر ثكلتك أمك . فرفع رأسه إليّ وقال : يا فتى إن أردت قرى فانزل ؟ وإن أردت معونة اعناك ؟ فقلت له استأسر فقال :

عـرَضنا عليـكَ النّـزْلَ منّـا تَكـرُّمـاً فَلِمِ ترعوي جَهْلاً كفِعل الأشائم(١)
وَجِئـتَ بِبُهـتـانٍ وزورٍ ودونَ مـا تمَنَّيتَـهُ بـالبِيضِ حـزُّ الغَـلاصِـمِ(٢)

قال ووثب إليّ وثبة وهو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم . فكأني مثلت تحته . ثم قال اقتلك أم أخلي عنك ؟ قلت بل خلِّ عني قال فخلي عني . ثم إن نفسي جاذبتني بالمعاودة . فقلت استأسر ثكلتك أمك فقال :

بِبِســم اللّهِ والـرَّحمـنِ فُـزْنـا هُنـالِـكَ والـرحيمُ بـه قَهَـرْنـا
ومـا تـغـني جَـلاَدَةُ ذي جِهـاظٍ إذا يـومـاً لـمـعـركـةٍ بَـرزْنـا

ثم وثب لي وثبة كأني مثلت تحته . فقال أقتلك أم أخلي عنك ؟ قـال : قلت : بل خلِّ عني . فخلّ عني فانطلقت غير بعيد . ثم قلت في نفسي يا عمرو أيقهرك هذا الشيخ . والله للموت خير لك من الحياة ، فرجعت إليه فقلت له استأسر ثكلتك أمك . فوثب إليّ وثبة وهو يقول بسم الله الرحمن الرحيم ، فكأني مثلت تحته ، فقال أقتلك أم أخلي عنك ؟ قلت بل خل عني فقال : هيهات ، يا جارية إئتيني بالمدية فأتته بالمدية فجز ناصيتي ، وكانت العرب إذا ظفرت برجل فجزت ناصيته استعبدته ، فكنت معه أخدمه مدة . ثم إنه قال يا عمرو أريد أن تركب معي البرية وليس بي منك وجل ، فإني ببسم الله الرحمن الرحيم لواثق ، قال : فسرنا حتى أتينا وادياً أشباً مهولاً مغولاً . فنادى بأعلى صوته : بسم الله الرحمن الرحيم . فلم يبق طير في وكره إلاّ طار . ثم أعاد القول فلم يبق سبع في مربضه إلاّ هرب ، ثم أعاد الصوت فإذا نحن بحبشي قد خرج علينا من الوادي كالنخلة السحوق ، فقال لي : يا عمرو إذا رأيتنا قد اتحدنا فقل غلبه صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم . قال فلما رأيتهما قد اتحدا قلت غلبه صاحبي باللات والعزى فلم يصنع الشيخ شيئاً ، فرجع إليّ وقال : قد علمت أنك قد خالفت قولي . قلت أجل ولست بعائد ؛ فقال إذا رأيتنا قد اتحدنا فقل غلبه صاحبي : ببسم الله الرحمن الرحيم ، فقلت أجل فلما رأيتهما قد اتحدا قلت غلبه صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم ، فاتكأ عليه الشيخ فبعجه بسيفه فاشتق بطنه فاستخرج منه شيئاً كهيئة القنديل الأسود ثم قال يا عمرو هذا غشه وغله(٣) . ثم قال أتدري من

(١) ارعوى : اهتدى بعد ضلال .
(٢) الغلاصم : اللحم بين الرأس والعنق . والبِيْض : المراد هنا : ابنته وحريمه .
(٣) الغل : الحقد ، والغش .

تلك الجارية ؟ قلت لا ، قال تلك الفارعة بنت السليل الجرهمي من خيار الجن . وهؤلاء أهلها بنو عمها يغزونني منهم كل عام رجل ينصرني الله عليه ببسم الله الرحمن الرحيم . ثم قال قد رأيت ما كان مني إلى الحبشي . وقد غلب عليّ الجوع فائتني بشيء آكله ، فأقحمت فرسي البرية فما أصبت الأبيض النعام ، فأتيته به فوجدته نائماً ، وإذا تحت رأسه شيء كهيئة الخشبة ، فاستللته فإذا هو سيف عرضه شبر في سبعة أشبار ، فضربت ساقيه ضربة أبنت الساقين مع القدمين ، فاستوى على قفا ظهره وهو يقول قاتلك الله ما اغدرك يا غدار . قال عمر : ثم ماذا صنعت ؟ قلت فلم أزل أضربه بسيفي حتى قطعته إرباً إرباً . قال فوجم لذلك ثم أنشأ يقول :

بالغدرِ نلْتَ أخا الإسلام عن كَثَب ... ما إنْ سمعتُ كذا بي سالِفِ العَرَب
والعُجْمُ تأنَفُ مما جئتَه كَرَماً ... تباً لما جئتَه في السيِّد الأرِب[1]
إني لأعجَبُ أني نلتُ قِتْلَتَهُ ... أم كيفَ جازاك عند الذَّنبِ لم تنب ؟
قِرْمٌ عفا عنكَ مرّاتٍ وقد عَلِقت ... بالجسمِ منكَ يداهُ موضعَ العَطَب
لو كنتَ آخذ في الإسلام ما فعلوا ... في الجاهليّة أهلُ الشِّرك والصُّلْب
إذاً لنالتْكَ من عدلٍ مُشَطَّبة ... تدعو لذائقها بالويْل والحَرَبِ[2]

قال ثم ما كان من حال الجارية ؟ قلت ثم إني أتيت الجارية . فلما رأتني قالت : ما فعل الشيخ ؟ قلت : قتله الحبشي ، فقالت كذبت بل قتلته أنت بغدرك ثم أنشأت تقول :

يا عينُ جُودي للفارسِ المغوارِ ... ثم جُودي بواكفاتٍ غِزار[3]
لا تملّي البكاءَ إذْ خانكِ الدهـ ... ـرُ بوافٍ حقيقةٍ صبار
وتقيٍّ وذي وَقارٍ وحِلْم ... وعديلِ الفَخار يومَ الفَخار
لهفَ نفسي على بقائِك عمرو ... أسلمتكَ الأعمارُ للأقدار
ولعمري لو لم ترمْهُ بغدرٍ ... رُمتَ ليثاً كصارمٍ بتّارِ[4]

قال فأحفظني قولها فاستللت سيفي ودخلت الخيمة لاقتلها فلم أر في الخيمة أحداً فاستقت الماشية وجئت إلى أهلي . وهذا أثر عجيب . والظاهر أن الشيخ كان من الجان وكان ممن أسلم وتعلم القرآن ، وفيها تعلمه بسم الله الرحمن الرحيم . وكان يتعوذ بها .

---

(١) الأرب : العاقل .
(٢) مشطبة : أي مهلكة . والعدل : الجزاء .
(٣) واكفات : الدموع المنسكبة .
(٤) أقول : بل هو أسطورة لا سبيل إلى تصديقها ؛ وإن كان الأقدمون لا يجدون غضاضة في نقل هذه الأخبار وروايتها ، فنحن لسنا ملزمين بتصديقها ؛ إلا بعد نقدها وتمحيصها فمثل هذه الأخبار والأشعار لا تثبت أمام النقد العقلي والعلمي .

وقال الخرائطي : حدثنا عبد الله بن محمد البلوي حدثنا عمارة بن زيد ، قال : حدثني عبد الله بن العلاء عن هشام بن عروة، عن أبيه ، عن جدته أسماء بنت أبي بكر قالت : كان زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل يذكران انهما أتيا النجاشي بعد رجوع أبرهة من مكة ، قالا فلما دخلنا عليه قال لنا أصدقائي أيها القرشيان هل ولد فيكم مولود أراد أبوه ذبحه فضرب عليه بالقداح فسلم ونحرت عنه إبل كثيرة ؟ قلنا نعم . قال فهل لكما علم به ما فعل ؟ قلنا تزوج امرأة يقال لها آمنة بنت وهب تركها حاملاً وخرج ، قال فهل تعلمان ولد أم لا ؟ قال ورقة بن نوفل أخبرك أيها الملك أني ليلة قد بت عند وثن لنا كنا نطيف به ، ونعبده إذ سمعت من جوفه هاتفاً يقول :

وَلِـد النبيّ فـذلّتِ الأمـلاك ونـأى الضلالُ وأدبر الإشـراك

ثم انتكس الصنم على وجهه . فقال زيد بن عمرو بن نفيل عندي كخبره أيها الملك . قال هات قال أنا في مثل هذه الليلة التي ذكر فيها حديثه خرجت من عند أهلي وهم يذكرون حمل آمنة حتى أتيت جبل أبي قبيس أريد الخلو فيه لأمر رابني إذ رأيت رجلاً نزل من السماء له جناحان أخضران ، فوقف على أبي قبيس ثم أشرف على مكة فقال : ذل الشيطان وبطلت الأوثان ولد الأمين . ثم نشر ثوباً معه وأهوى به نحو المشرق والمغرب فرأيته قد جلل ما تحت السماء وسطع نور كاد أن يختطف بصري وهالني ما رأيت . وخفق الهاتف بجناحيه حتى سقط على الكعبة . فسطع له نور أشرقت له تهامة . وقال : ذكت الأرض وأدت ربيعها . وأومأ إلى الأصنام التي كانت على الكعبة فسقطت كلها . قال النجاشي ويحكما أخبركما عما أصابني ، إني لنائم في الليلة التي ذكرتما في قبة وقت خلوتي ، إذ خرج علي من الأرض عنق ورأس ، وهو يقول حل الويل بأصحاب الفيل ، رمتهم طير أبابيل ، بحجارة من سجيل هلك الأشرم المعتدي المجرم ، وولد النبي الأمي ، المكي الحرمي ، من أجابه سعد ، ومن أباه عتد . ثم دخل الأرض فغاب فذهبت أصيح فلم أطق الكلام ، ورمت القيام فلم أطق القيام ، فصرعت القبة بيدي ؟ فسمع بذلك أهلي فجاؤوني فقلت احجبوا عني الحبشة فحجبوهم عني ثم أطلق عن لساني ورجلي .

وسيأتي(١) إن شاء الله تعالى في قصة المورد رؤيا كسرى في سقوط أربع عشرة شرافة من إيوانه ، وخمود نيرانه ورؤياه موبذانه ، وتفسيره سطيح لذلك على يدي عبد المسيح . وروى الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخه في ترجمة الحارث بن هانىء بن المدلج بن المقداد بن زمل بن عمرو العذري عن أبيه عن جده عن أبيه عن زمل بن عمرو العذري قال : كان لبني عذرة صنم يقال له حمام وكانوا يعظمونه وكان في بني هند بن حرام بن ضبة بن عبد بن كثير(٢) بن عذرة وكان سادنه

---

(١) قد تقدم ذلك ، فليراجع في مكانه .

(٢) كذا في الأصول والصواب : كبير كما في أسد الغابة ١/ ٢٠٥ والإصابة ج ١/

رجلاً يقال له طارق وكانوا يعترون عنده . فلما ظهر رسول الله ﷺ سمعنا صوتاً يقول يا بني هند بن حرام . ظهر الحق وأودى صمام ودفع الشرك الإسلام . قال ففزعنا لذلك وهالنا فمكثنا أياماً . ثم سمعنا صوتاً وهو يقول : يا طارق يا طارق . بعث النبي الصادق ، يوحى ناطق ، صدع صادع بأرض تهامة ، لناصريه السلامة ، ولخاذليه الندامة ، هذا الوداع مني إلى يوم القيامة . قال زمل فوقع الصنم لوجهه . قال فابتعت راحلة ورحلت حتى أتيت النبي ﷺ مع نفر من قومي وأنشدته شعراً قلته :

إليكَ رسولَ الله أعملتُ نصَّها ... وكلّفتُها حَزْناً وغوراً من الرمل
لأنصرَ خيرَ الناس نصراً مؤزّراً ... وأعقدَ حبلاً من حبالك في حبلي
وأشهدَ أنّ الله لا شيءَ غيره ... أدينُ به ما أثقلتْ قدمي نعلي

قال فأسلمت وبايعته . وأخبرناه بما سمعنا فقال : « ذاك من كلام الجن » . ثم قال : « يا معشر العرب إني رسول الله إليكم وإلى الأنام كافة ، أدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وإني رسوله وعبده ، وأن تحجوا البيت وتصوموا شهراً من إثني عشر شهراً وهو شهر رمضان ، فمن أجابني فله الجنة نزلاً ، ومن عصاني كانت النار له منقلباً » . قال فأسلمنا وعقد لنا لواء . وكتب لنا كتاباً نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله لزمل بن عمرو ومن أسلم معه خاصة إني بعثته إلى قومه عامداً[1] فمن أسلم ففي حزب الله ورسوله . ومن أبى فله أمان شهرين . شهد علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة الأنصاري »[2] ثم قال ابن عساكر : غريب جداً .

وقال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في مغازيه : حدثني محمد بن سعيد - يعني عمه - . قال قال محمد بن المنكدر إنه ذكر لي عن ابن عباس قال هتف هاتف من الجن على أبي قبيس فقال :

قبّحَ الله رأيكم آلَ فهر ... ما أدق العقولَ والأفهام[3]
حِينَ تُعصى لِمَن يعيبُ عَلَيها ... دِين آبائها الحماةِ الكرام
حالفَ الجنُّ جِنُّ بُصرى عليكم ... ورجالَ النّخيلِ والآطام[4]
توشِكُ الخيلُ أن تردْها تَهادى ... تقتلُ القومَ في حَرام بهام[5]

---

(١) في مكاتيب الرسول : عامة .

(٢) في ترجمته في أسد الغابة والإصابة : ذكرا أنه ﷺ عقد له لواء على قومه وكتب له كتاباً ولم يزل معه ذلك اللواء حتى شهد به صفين مع معاوية ، وذكر الكتاب في زاد المعاد وذكرت الكتاب في مجموعة الوثائق منقولاً عن رسالات نبوية . لابن القيم .

(٣) في دلائل أبي نعيم ص (٣٠):

قبح الله رأي كعب بن فهر ... ما أرق العقول والأحلام

(٤) أي رجال الأنصار ، والمراد هنا أهل المدينة .

(٥) في الدلائل : في بلاد التهام ، أي تهامة .

هَـلْ كـريمٌ منكمُ لَـهُ نفسُ حـرّ　　مَـاجِـدِ الـوالِـديْـن والأعـمـام
ضَـارِبٌ ضَـرْبـةً تـكـونُ نَكـالاً　　ورَواحــاً مـن كُـربـةٍ واغـتـمـام

قـال ابن عبـاس فـأصبـح هـذا الشعـر حـديثـاً لأهـل مكـة يتنـاشـدونـه بينهم . فـقـال رسول الله ﷺ : « هذا شيطان يكلم الناس في الأوثان يقال له مسعر ، والله مخزيه » فمكثوا ثلاثة أيام فإذا هاتف يهتف على الجبل يقول :

نـحنُ قـتلنـا في ثـلاثٍ مِسْعـرا　　إذْ سفَّـهَ الجنَّ وسنَّ المنـكَـرا
قَنَّعتُـه سَيفـاً حُسـامـاً مُشهَّـرا　　بـشـتـمِـهِ نبـيَّـنـا الـمطهَّـرا[1]

فقال رسول الله ﷺ : « هذا عفريت من الجن اسمه سمج[2] آمن بي سميته عبد الله أخبرني أنه في طلبه ثلاثة أيام » فقال علي جزاه الله خيراً يا رسول الله .

وقد روى الحافظ أبو نعيم في الدلائل قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر حدثنا أبو الفضل محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن أبي حرب الصفار . حدثنا عباس بن الفرج الرياشي ، حدثنا سليمان بن عبد العزيز بن أبي ثابت ، عن أبيه ، عن عبد الحميد بن بهرام ، عن شهر بن حوشب عن ابن عباس عن سعد بن عبادة قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى حضرموت في حاجة قبل الهجرة ، حتى إذا كنت في بعض الطريق ساعة من الليل فسمعت هاتفاً يقول :

أبـا عَمـرٍو تنـاوَبَني[3] السُّـهـودُ　　وراحَ الـنـومُ وامـتـنـع الـهـجـودُ
لـذكْـرِ عِصـابـةٍ سَلفـوا وبـادوا　　وكـلُّ الخلقِ قَصْـرُهـم يـبـيـد
تـولَّـوا واردِيـنَ إلى المـنـايـا　　حِيـاضـاً ليسَ مَنهلُهـا الـورود
مضَـوا لسبيـلهمْ وبقيـتُ خَلفـاً　　وَحيـداً ليسَ يُسـعـفني وحيـد
سُـدى لا أستطيـعُ علاجَ أمـرٍ　　إذا مـا عـالـج الـطفـلُ الـولـيـد
فـلأيـاً مـا بقـيـتُ إلى أنـاسٍ　　وقـد بـاتـت بمَهْلِكهـا ثـمـود
وعـادٌ والقـرونُ بـذي شَعـوبٍ　　سَـواءٌ كـلُّهـم إرَمٌ حـصـيـد

قـال ثم صـاح بـه آخر : يـاخرعب ذهب بـك العجب إن العجب كل العجب بـين زهـرة

---

(١) في الإصابة ج ٢/٧٨ عن الفاكهي في كتاب مكة ورد البيتان :

نـحـن قـتـلـنـا مـسـعـرا　　لـمـا طـغـى واسـتـكـبـرا
وصـغـر الحق وسـن المـنـكـرا　　بـشـتـمـه نـبـيـنـا المـطـهـرا

(٢) في الإصابة : سمحج .
والخبر في دلائل النبوة لأبي نعيم ص ٣٠ وأخرجه الفاكهي في كتاب مكة عن ابن عباس عن عامر بن ربيعة ومن طريق حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه بنحوه كما في الإصابة ج ٢/٧٨ .

(٣) في نسخ البداية المطبوعة : ناوبني ، والصواب ما أثبتناه .

ويثرب . قال وما ذاك يا شاحب ؟ قال نبي السلام ، بعث بخير الكلام إلى جميع الأنام ، فاخرج من البلد الحرام إلى نخيل وآطام . قال ما هذا النبي المرسل والكتاب المنزل ، والأمي المفضل ؟ قال رجل من ولد لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة . قال هيهات فات عن هذا سني ، وذهب عنه زمني لقد رأيتني والنضر بن كنانة نرمي غرضاً واحداً ، ونشرب حلباً بارداً ، ولقد خرجت به من دوحة في غداة شبمة[1] وطلع مع الشمس وغرب معها ، يروى ما يسمع ويثبت ما يبصر . ولئن كان هذا من ولده لقد سل السيف وذهب الخوف ، ودحض الزنا ، وهلك الربا . قال فاخبرني ما يكون ؟ قال ذهبت الضراء والبؤس والمجاعة ، والشدة والشجاعة ، إلا بقية في خزاعة . وذهبت الضراء والبؤس ، والخلق المنفوس إلا بقية من الخزرج والأوس . وذهبت الخيلاء والفخر ، والنميمة والغدر ، إلا بقية في بني بكر . يعني ابن هوازن . وذهب الفعل المندم والعمل المؤثم ، إلا بقية في خثعم . قال أخبرني ما يكون ؟ قال إذا غلبت البرة ، وكظمت الحرة ، فاخرج من بلاد الهجرة ، وإذا كف السلام ، وقطعت الأرحام فاخرج من البلد الحرام . قال أخبرني ما يكون ؟ قال لولا أذن تسمع ، وعين تلمع لأخبرتك بما تفزع . ثم قال :

لا منامٌ هدّأته بنعيمٍ يا ابنَ غوطٍ ولا صباحٌ أتانا

قال ثم صرصر صرصرة كأنها صرصرة حبلى ، فذهب الفجر فذهبت لأنظر فإذا عظاية[2] وثعبان ميتان . قال فما علمت أن رسول الله ﷺ هاجر إلى المدينة إلا بهذا الحديث . ثم رواه عن محمد بن جعفر عن إبراهيم بن علي عن النضر بن سلمة عن حسان بن عبادة بن موسى عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر عن ابن عباس عن سعد بن عبادة . قال : لما بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة خرجت إلى حضرموت لبعض الحاج ، قال فقضيت حاجتي ثم أقبلت حتى إذا كنت ببعض الطريق نمت ، ففزعت من الليل بصائح يقول :

أبا عَمرو تناوبَني السّهودُ وراحَ النومُ وانقطَع الهجودُ

وذكر مثله بطوله .

وقال أبو نعيم : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا إبراهيم بن علي حدثنا النضر بن سلمة حدثنا أبو غزية محمد بن موسى عن العطاف بن خالد الوصابي عن خالد بن سعيد عن أبيه قال سمعت تميماً الداري يقول : كنت بالشام حين بعث النبي ﷺ ، فخرجت لبعض حاجتي فأدركني الليل . فقلت أنا في جوار عظيم هذا الوادي الليلة . قال فلما أخذت مضجعي إذا أنا بمنادٍ ينادي - لا أراه - عذباً لله فإن الجن لا تجير أحداً على الله فقلت أيم الله تقول ؟ فقال قد خرج رسول الأميين رسول الله وصلينا خلفه بالحجون[3]. فأسلمنا واتبعناه وذهب كيد الجن ورميت بالشهب . فانطلق

---

(١) شبمة : باردة .

(٢) عظاية : دويبة ملساء تمشي مشياً سريعاً ثم تقف .

(٣) الحجون : جبل بأعلى مكة. وقال السكري :مكان من البيت على ميل ونصف . ياقوت ٢/ ٢٢٥ .

إلى محمد رسول رب العالمين فأسلم . قال تميم فلما أصبحت ذهبت إلى دير أيوب[1] فسألت راهباً وأخبرته الخبر . فقال الراهب : قد صدقوك يخرج من الحرم ومهاجره الحرم وهو خير الأنبياء فلا تسبق إليه . قال تميم فتكلفت الشخوص حتى جئت رسول الله ﷺ فأسلمت .

وقال حاتم بن إسماعيل عن عبد الله بن يزيد الهذلي عن عبد الله بن ساعدة الهذلي ، عن أبيه قال : كنا عند صنمنا سواع ، وقد جلبنا إليه غنماً لنا مائتي شاة قد أصابها جرب ، فأدنيناها منه لنطلب بركته فسمعت منادياً من جوف الصنم ينادي قد ذهب كيد الجن ، ورمينا بالشهب لنبي اسمه أحمد . قال فقلت غويت والله . فصدقت وجه غنمي منجداً إلى أهلي فرأيت رجلاً . فخبرني بظهور النبي ﷺ . ذكره أبو نعيم هكذا معلقاً ثم قال : حدثنا عمر بن محمد بن جعفر حدثنا إبراهيم بن السندي حدثنا النضر بن سلمة حدثنا محمد بن مسلمة المخزومي حدثنا يحيى بن سليمان عن حكيم بن عطاء الظفري - من بني سليم من ولد راشد بن عبد ربه - عن أبيه عن جده عن راشد بن عبد ربه قال كان الصنم الذي يقال له سواع بالمعلاة من رهط تدين له هذيل وبنو ظفر بن سليم فأرسلت بنو ظفر راشد بن عبد ربه بهدية من سليم إلى سواع قال راشد فألقيت مع الفجر إلى صنم قبل صنم سواع ، فإذا صارخ يصرخ من جوفه : العجب كل العجب من خروج نبي من بني عبد المطلب ، يحرم الزنا والربا والذبح للأصنام . وحرست السماء ورمينا بالشهب العجب كل العجب . ثم هتف صنم آخر من جوفه ترك الضمار وكان يعبد،خرج النبي أحمد ، يصلي الصلاة ويأمر بالزكاة والصيام ، والبر والصلات للأرحام . ثم هتف من جوف صنم آخر هاتف يقول :

إن الذي ورِثَ النبوّةَ والهدى ... بعد ابنِ مريم من قريشٍ مهتد
نبيٌّ أتى يخبر بما سبق ... وبما يكون اليوم حقاً أو غد[2]

قال راشد : فألفيت سواعاً مع الفجر وثعلبان يلحسان ما حوله ، ويأكلان ما يهدي له ، ثم يعوجان عليه ببولهما ، فعند ذلك يقول راشد بن عبد ربه :

أربٌّ يبول الثُّعلبانُ برأسِهِ ... لقد ذَلَّ من بالتْ عليه الثعالب

وذلك عند مخرج النبي ﷺ ومهاجره إلى المدينة وتسامع الناس به فخرج راشد حتى أتى النبي ﷺ المدينة ومعه كلب له ، واسم راشد يومئذٍ ظالم ، واسم كلبه راشد فقال النبي ﷺ : « ما اسمك ؟ » قال ظالم . قال : « فما اسم كلبك ؟ » قال راشد ، قال : « اسمك راشد ، واسم

---

(١) دير أيوب : قرية بحوران بنواحي دمشق وبها قبر أيوب عليه السلام . ياقوت ٢ / ٤٩٩ .

(٢) البيت الثاني لم يرد في سبل الهدى والرشاد ولا في سيرة ابن هشام وورد قبل البيت الأول بيتان تقدما :

قل للقبائل من سليم كلها . . .

أو ذي ضماد وكان يعبد مرة . . .

كلبك ظالم » وضحك النبي ﷺ . وبايع النبي ﷺ وأقام بمكة معه ثم طلب من رسول الله ﷺ . قطيعة برهاط ـ ووصفها له ـ فاقطعه رسول الله ﷺ بالمعلاة[1] من رهاط[2] شأو الفرس ، ورميته ثلاث مرات بحجر ، وأعطاه إداوة مملوءة من ماء وتفل فيها وقال له « فرغها في أعلا القطيعة ولا تمنع الناس فضلها » ففعل فجعل الماء معيناً يجري إلى اليوم فغرس عليها النخل . ويقال إن رهاط كلها تشرب منه فسماها الناس ماء الرسول ﷺ . وأهل رهاط يغتسلون بها وبلغت رمية راشد الركب الذي يقال له ركب الحجر ، وغدا راشد على سواع فكسره .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا علي بن إبراهيم الخزاعي الأهوازي حدثنا أبو محمد عبد الله بن داود بن دلهاث بن اسماعيل بن مسرع بن ياسر بن سويد صاحب رسول الله ﷺ حدثنا أبي عن أبيه دلهاث عن أبيه اسماعيل أن أباه عبد الله حدثه عن أبيه مسرع بن ياسر أن أباه ياسر حدثه عن عمرو بن مرة الجهني أنه كان يحدث قال : خرجت حاجاً في جماعة من قومي في الجاهلية . فرأيت في المنام وأنا بمكة نوراً ساطعاً من الكعبة حتى أضاء في جبل يثرب وأشعر[3] جهينة . فسمعت صوتاً في النور وهو يقول :

انقشعت الظلماء ، وسطع الضياء ، وبعث خاتم الأنبياء

ثم أضاء إضاءة أخرى حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن . فسمعت صوتاً في النور وهو يقول :

ظهر الإسلام ، وكسرت الأصنام ، ووصلت الأرحام

فانتبهت فزعاً ، فقلت لقومي والله ليحدثن في هذا الحي من قريش حدث ، وأخبرتهم بما رأيت . فلما انتهينا إلى بلادنا جاءنا رجل فأخبرنا أن رجلاً يقال له أحمد قد بعث فأتيته فأخبرته بما رأيت فقال « يا عمرو بن مرة إني[4] المرسل إلى العباد كافة أدعوهم إلى الإسلام ، وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام ، وعبادة الله [وحده] ورفض الأصنام ، وحج البيت . وصيام شهر من اثني عشر شهراً وهو شهر رمضان ، فمن أجاب فله الجنة . ومن عصى فله النار ، فآمن يا عمرو بن مرة يؤمنك الله من نار[5] جهنم » فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . آمنت بكل ما جئت

---

(١) المعلاة : موضع بين مكة وبدر بينه وبين بدر الأثيل .

(٢) في نسخ البداية المطبوعة وهاط وهو تحريف ، والصواب رهاط : قال ابن الكلبي اتخذت هذيل سواعاً رباً برهاط من أرض ينبع ، وينبع عرض من أعراض المدينة . وقال عرام رهاط : قرية بقرب مكة على طريق المدينة ياقوت ١٠٧/٣ .

(٣) أشعر جهينة : في مجمع الزوائد : أسعر . وهو جبل جهينة بين المدينة والشام ينحدر على ينبع . ياقوت ١٩٨/١ .

(٤) عند الروياني وابن عساكر ومجمع الزوائد : أنا النبي المرسل .

(٥) في المصادر السابقة : هول .

به من حلال وحرام ، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام ، ثم أنشدته أبياتاً قلتها حين سمعت بـه وكان لنا صنم وكان أبي سادناً له فقمت إليه فكسرته ثم لحقت النبي ﷺ وأنا أقول :

شهِدتُ بـأنّ اللّهَ حـقٌّ وأنـني ... لآلهـةِ الأحـجـارِ أولُ تـارِكِ
فشمَّرتُ عنْ سـاقي إزارَ مهـاجِرٍ ... اليكَ أدبَّ الغَوْرَ بعـدَ الدكـادكِ[1]
لأصحبَ خيرَ الناسِ نَفسـاً ووالداً ... رسولَ مليكِ الناسِ فوقَ الحبائكِ[2]

فقال النبي ﷺ : « مرحباً بك يا عمرو بن مرة » . فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي إبعث بي الى قومي ، لعل الله أن يمن بي عليهم كما منّ بك عليّ ، فبعثني إليهم وقال : « عليك بالقول السديد ولا تكن فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً » فأتيت قومي فقلت لهم : يا بني رفاعة ثم يا بني جهينة إني رسول من رسول الله إليكم أدعوكم إلى الجنة ، وأحذركم النار ، وآمركم بحقن الدماء ، وصلة الأرحام ، وعبادة الله ، ورفض الأصنام ، وحج البيت ، وصيام شهر رمضان ، شهر من إثني عشر شهراً . فمن أجاب فله الجنة . ومن عصى فله النار . يا معشر جهينة إن الله ـ وله الحمد ـ جعلكم خيار من أنتم منه[3] وبغض اليكم في جاهليتكم ما حبب إلى غيركم من الرفث ، لأنهم كانوا يجمعون بين الأختين ، ويخلف الرجل [منهم] على امرأة أبيه ، والترات[4] في الشهر الحرام . فأجيبوا هذا النبي المرسل ﷺ من بني لؤي بن غالب . تنالوا شرف الدنيا وكرامة الآخرة ، سارعوا سارعوا في ذلك يكون لكم فضيلة عند الله . فأجابوا إلّا رجلاً منهم قام فقال : يا عمرو بن مرة أمر الله عليك عيشك ، أتأمرنا أن نرفض آلهتنا ونفرق جماعتنا بمخالفة دين آبائنا إلى ما يدعو هذا القرشي من أهل تهامة ؟ لا ولا مرحباً ولا كرامة ، ثم أنشأ [الخبيث] يقول :

إنّ ابـنَ مُـرّةَ قـد أتى بمـقـالـةٍ ... ليستْ مقالـةَ من يُريـدُ صَلاحـاً
إني لأحـسَبُ قـولَـه وفَـعـالَـهُ ... يـومـاً وإن طـالَ الـزمـانُ ريـاحـا
أتـسفّـهُ الأشيـاخَ ممن قـدْ مضى ... مَن رامَ ذلـكَ لا أصابَ فَـلاحـا

فقال عمرو بن مرة : الكاذب مني ومنك أمر الله عيشه ، وأبكم لسانه ، وأكمه بصره . قال عمرو بن مرة والله ما مات حتى سقط فوه وكان لا يجد طعم الطعام ، وعمي وخرس . وخرج عمرو بن مرة ومن أسلم من قومه حتى أتوا النبي ﷺ ، فرحب بهم وحباهم وكتب لهم كتاباً هذه نسخته :

---

(١) في مجمع الزوائد :

وشـمـرت عـن سـاق الإزار مـهـاجـراً ... إلـيـك أحـوز الفـوز بـعـد الـدكـادك

(٢) الحبائك : جمع حبيكة ؛ وهي الطريقة بين النجوم ؛ والمراد : السماوات .

(٣) أي من العرب .

(٤) في ابن عساكر ومجمع الزوائد : والغزاة .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من الله على لسان رسول الله بكتاب صادق ، وحق ناطق ، مع عمرو بن مرة الجهني لجهينة بن زيد إن لكم بطون الأرض وسهولها ، وتلاع الأودية وظهورها ، ترعون نباته وتشربون صافيه . على أن تقروا بالخمس ، وتصلوا الصلوات الخمس ، وفي التبعة والصريمة شاتان إن اجتمعتا ، وإن تفرقتا فشاة شاة . ليس على أهل الميرة صدقة ، ليس الوردة اللبقة »[1] . وشهد من حضرنا من المسلمين بكتاب قيس بن شماس رضي الله عنهم . وذلك حين يقول عمرو بن مرة :

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللّٰهَ أَظْهَـرَ دِيـنَـه ... وبـيَّنَ بـرهـانَ القُـرآنِ لعـامـرِ[2]
كتـابٌ مِنَ الـرحمنِ نـورٌ لجمعِنـا ... وأحلافِنا في كـلِّ بـادٍ وَحَـاضِرِ[3]

---

(١) نص الكتاب كما ورد عن ابن عساكر في جمع الجوامع للسيوطي ورسالات نبوية لعبد المنعم خان ومجمع الزوائد ٢٤٥/٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا كتاب من الله عزيز على لسان رسوله بحق صادق وكتاب ناطق مع عمرو بن مرة ، لجهينة بن زيد :

إن لكم بطون الأرض وسهولها ، وتلاع الأودية وظهورها ، على أن ترعوا نباتها وتشربوا ماءها . على أن تؤدوا الخمس . وتصلوا الخمس .

وفي التبعة والصريمة شاتان إذا اجتمعتا ، فإن تفرقتا فشاة شاة . ليس على أهل المثيرة صدقة ولا على الواردة لبقة » . والله شهيد على ما بيننا ومن حضر من المسلمين كتاب قيس بن شماس » .

المعاني :

- بطون الأرض : البطون خلاف الظهر في كل شيء ، ويقال للجهة السفلى بطن وللجهة العليا ظهر . ويقال لكل غامض بطن ولكل ظاهر ظهر . والمراد أن لكم الوهدة من الأرض .
- تلاع الأودية : مسائل الماء من العلو إلى السفل . فتلاعها ما انحدر من الأودية .
- التيعة : بكسر التاء وسكون الياء ، وهي أدنى ما يجب فيه الزكاة ؛ من الحيوان الحيوان كالخمس في الابل .
- الصريمة : تصغير الصرمة ، وهي القطيع من الأبل والغنم ، قيل من العشرين إلى الثلاثين إلى الأربعين كأنها إذا بلغت هذا القدر تستقل بنفسها ، فيقطعها صاحبها عن معظم إبله وغنمه . والمراد : عن مائة وإحدى وعشرين إلى المائتين إذا اجتمعت ففيها شاتان وإن كانت لرجلين وفرق بينهما فعلى كل واحد منهما شاة .
- المثيرة : لأنها تثير الأرض وذلك إرفاقاً بهم ومداراة .
- ولا على الواردة لبقة : الوارد : الذي يتقدم القوم فيسقي لهم .

واللبقة : بفتح اللام وسكون الباء الظرف أي ليس عليهم أن يعطوا لمن يرد مياههم من المسلمين الظروف ؛ ولعل المراد : أنه لا يجب عليهم قرى العساكر المسلمين وإعانتهم حتى لبقة للماء التي لا كلفة في إعطائها .

(٢) في رسالة من يسمى عمراً من الشعراء لابن الجراح : فرقان الفرقان .

(٣) في مجمع الزوائد :

كتـاب من الـرحمن يجعلنـا معـاً ... وأخـلافـنـا في كـل بـاد وحـاضر

إلى خيرِ من يمشي على الأرض كلِّها | وأفضلِها عند اعتكارِ الضَّرائر[1]
أطعنـا رسـولُ الله لمـا تقـطَّعتْ | بطونُ الأعادي بالظُّبَي والخواطر[2]
فنحنُ قَبيـلٌ قـد بني المجدُ حـولنَا | إذا اجتُلبت في الحربِ هامُ الأكـابر
بنو الحربِ نفريهـا بـأيدٍ طـويلة | وبَيضٍ تـلالا في أكـفِّ المغـاور
ترى حولـه الأنصارَ تحمي أميـرَهـم | بسُمـرِ العوالي والصِّفاح البـواتر[3]
إذا الحربُ دارت عند كـل عظيمـة | ودارت رحـاها بـاللّيوثِ الهـواصر
تـبلَّجَ منـهُ اللونُ وازداد وجهـه | كَمِثلِ ضياء البدرِ بينَ الـزواهر[4]

وقال أبو عثمان سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه : حدثنا عبد الله حدثنا أبو عبد الله حدثنا المجالد بن سعيد والأجلح عن الشعبي ، حدثني شيخ من جهينة قـال : مرض منـا رجل مـرضاً شديداً فنقل حتى حفرنا له قبره وهيأنا أمره فأغمي عليه ثم فتح عينيه وأفاق فقال أحفرتم لي ؟ قالوا نعم ، قال فما فعل الفُصَل ـ وهو ابن عم له ـ قلنا صالح مر آنفاً يسأل عنك ، قال أما إنه يوشك أن يجعل في حفرتي إنه أتاني آت حين أغمي علي فقال ابك هبل ؟ أما ترى حفرتك تنتثل ، وأمك قد كادت تثكل ؟ أرأيتك أن حولناها عنك بالمحول ، ثم ملأناها بالجندل ، وقذفنا فيها الفصل ، الذي مضى فاجزاك ، وظن أن لن يفعل . أتشكر لربك ، وتصل وتدع دين من أشرك وضل ؟ قال قلت نعم . قال قم قد بـرئت . قال فبـرىء الرجـل . ومات الفصـل فجعل في حفـرته . قـال الجهيني : فرأيت الجهيني بعد ذلك يصلي ويسب الأوثان ويقع فيها .

وقال الأموي : حدثنا عبد الله قال بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مجلس يتحدثون عن الجن ، فقال خريم بن فاتك الأسدي [لعمر بن الخطاب : يا أميـر المؤمنين] : ألا أحـدثك كيف كان اسلامي ؟ قال بلى ، قال إني يوماً في طلب ذود[5] لي أنا منها على أثر تنصب وتصعد ، حتى إذا كنت بأبرق العراق[6] انخت راحلتي وقلت أعوذ بعظيم[7] هذه البلدة أعوذ برئيس هـذا

---

(١) الضرائر ؛ في الوفا ومجمع الزوائد . واعتكار الصرائر : تمازج الأصول ؛ والمراد هنا أنه ﷺ أصفى الناس أصلاً وأشرفهم نسباً .
(٢) في مجمع الزوائد : بالظباء الخواطر .
(٣) في مجمع الزوائد : والسيوف البواتر . وفي الوفا : يحمون سربه بدل تحمي أميرهم .
(٤) في مجمع الزوائد : وازدان بدل وازداد .
(٥) في مجمع الزوائد في رواية ابن عباس : في بغاء إبل لي ـ وفي رواية أبي هريرة : نِعَمٍ لي .
(٦) كذا في الأصل : أبرق العراق وهو تحريف والصواب أبرق العزاف وهو رمل لبني سعد بجبيل هناك (من جبال الدهناء) وإنما سمي العزاف لأنهم يسمعون به عزيف الجن وهو صوتهم . وعن السكري : العزاف على اثني عشر ميلاً من المدينة قال حسان :

لمـن الـديـار والـرسـوم الـعـوافي | بـين سـلـع فـأبـرق الـعـزاف

الوادي [من سفهاء قومه] ، فإذا بهاتف يهتف بي :

وَيحكَ ، عُذْ بـالله ذي الجلال والمجدِ والعلياء والإفضال(١)
ثم اتلُ آياتٍ من الأنفال ووحِّدِ الله ولا تبالي(٢)

قال فذعرت ذعراً شديداً ثم رجعت إلى نفسي فقلت :

يا أيها الهاتفُ ما تقولُ أَرَشَدٌ عندك أم تضليل ؟ (٣)

* بيِّنْ هداك اللَّهُ ما الحويل *

قال : فقال :

هذا رسولُ الله ذو الخيرات بيثرب يدعو إلى النَّجاة
يأمر بالبِرِّ وبالصلاة ويزَعُ النَّاسَ عن الهَنَات(٤)

قال : قلت له : والله لا أبرح حتى آتيه . وأومن به ، فنصبت رجلي في غرز راحلتي وقلت

أرشِدَني أرشِدَني هُديتا(٥) لا جُعتَ ما عشتَ ولا عَريتا
ولا برحتَ سيِّداً مقيتا لا تُؤثِر الخيرَ الذي أُتيتا(٦)

= معجم البلدان ١١٨/٤ معجم ما استعجم ٩٤/٣.

(٧) في رواية ابن عباس : بعظيم هذا الوادي ؛ وهو قول أهل الجاهلية .

(١) في ابن عساكر : والنعماء والأفضال .

وفي الإصابة ومجمع الزوائد : منزل الحلال والحرام .

(٢) الأبيات في مجمع الزوائد :

ووحد الله ولا تبالي ما هول ذي الجن من الأهوال
إذ يذكر الله على الأميال وفي سهول الأرض والجبال
وصار كيد الجن في سفال إلا التقى وصالح الأعمال

(٣) في الإصابة ومجمع الزوائد : يا أيها الداعي ما تحيل .

(٤) في رواية ابن عباس :

هذا رسول الله ذو الخيرات جاء بياسين وحاميمات
وسور بعده مفصلات محرمات ومحللات
يأمر بالصوم وبالصلاة ويزجر الناس عن الهنات

قد كن في الأيام منكرات

في الإصابة جاء البيت الثاني :

محرمات محللات يأمرنا بالصوم وبالصلاة

(٥) في دلائل أبي نعيم ، أرشدني رشداً بها هديتا . . .

(٦) في دلائل أبي نعيم :

فقال[1] :

صاحبَكَ اللّهُ وأدّى رَحْلكا ... وعظّمَ الأجرَ وعافا نفسَكا

آمِنْ به أفلجْ ربي حقّكا ... وانصرْه نصراً عزيزاً نصْركا

قال قلت من أنت عافاك الله ، حتى أخبره إذا قدمت عليه ؟ فقال أنا ملك بن ملك[2] ، وأنا نقيبه على جن نصيبين . وكفيت إبلك حتى أضمها إلى أهلك إن شاء الله . قال فخرجت حتى أتيت المدينة يوم الجمعة والناس أرسال إلى المسجد والنبي ﷺ على المنبر كأنه البدر يخطب الناس ، فقلت انيخ على باب المسجد حتى يصلي وأدخل عليه فأسلم وأخبره عن إسلامي ، فلما انخت خرج إليّ أبو ذر فقال مرحباً وأهلاً وسهلاً قد بلغنا إسلامك ، فادخل فصلِّ، ففعلت ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرني باسلامي قلت : الحمد لله . قال : « أما إن صاحبك قد وفى لك وهو أهل ذلك ، وأدى ابلك إلى أهلك »[3].

وقد رواه الطبراني في ترجمة خريم بن فاتك من معجمة الكبير قائلاً حدثنا الحسين بن إسحاق اليسيري ، حدثنا محمد بن إبراهيم الشامي ، حدثنا عبد الله بن موسى الأسكندري ، حدثنا محمد بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة قال قال خريم بن فاتك لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين الا أخبرك كيف كان بدء إسلامي ، قال بلى ! فذكره غير أنه قال فخرج إليّ أبو بكر الصديق فقال أدخل ، فقد بلغنا إسلامك ، فقلت لا أحسن الطهور ، فعلمني فدخلت المسجد فرأيت رسول الله ﷺ كأنه البدر وهو يقول : « ما من مسلم توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى صلاة يحفظها ويعقلها إلاّ دخل الجنة » فقال لي عمر لتأتيني على هذا ببينة أو لأنكلن بك ، فشهد لي شيخ قريش عثمان بن عفان فأجاز شهادته . ثم رواه عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن محمد بن

= ولا صحبت صاحباً مقيتا ... لا يشوين الخير إن ثويتا

وفي مجمع الزوائد :

ولا برحت سعيداً ما بقيت ... ولا تؤثرن على الخير الذي أوتيت

(1) في رواية أبي هريرة : قال : فاتبعني وهو يقول :

سلمك الله وسلم نفسك ... وبلغ الأهل وأدى رحلكا

أمر به أفلح ربي حقك ... وانصره أعز ربي نصركا

(2) عند ابن عساكر : أنا عمرو بن أثال . وأنا عامله على جن نجد المسلمين .

(3) رواه في مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٠ - ٢٥١ عن ابن عباس . وقال رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم . وأخرجه الحاكم ٦٢١/٣ من طريق الحسن بن محمد بن علي عن أبيه . قال الذهبي : لم يصح .

وأخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه وأبو القاسم بن بسران كما في الإصابة ج ٣/ ٣٥٣ .

تيم عن محمد بن خليفة عن محمد بن الحسن عن أبيه قال عمر بن الخطاب لخريم بن فاتك حدثني بحديث يعجبني فذكر مثل السياق الأول سواء .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أبو عبد الملك أحمد بن إبراهيم القرشي الدمشقي ، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن ابن بنت شرحبيل ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني عن عبد الله بن الديلمي ، قال أتى رجل ابن عباس فقال بلغنا أنك تذكر سطيحاً تزعم أن الله خلقه ، لم يخلق من بني آدم شيئاً يشبهه ؟ قال : قال : نعم إن الله خلق سطيحاً الغساني لحماً على وضم[1] ولم يكن فيه عظم ولا عصب إلا الجمجمة ، والكفان . وكان يطوي من رجليه إلى ترقوته كما يطوى الثوب ، ولم يكن فيه شيء يتحرك إلّا لسانه . فلما أراد الخروج إلى مكة حمل على وضمة فأتي به مكة ، فخرج إليه أربعة من قريش عبد شمس ، وهاشم ابنا عبد مناف بن قصي ، والأحوص بن فهر ، وعقيل بن أبي وقاص فانتموا إلى غير نسبهم وقالوا نحن أناس من جمح أتيناك بلغنا قدومك ، فرأينا أن إتياننا إياك حق لك واجب علينا وأهدى إليه عقيل صفيحة هندية ، وصعدة ردينية ، فوضعت على باب البيت الحرام لينظروا ، أهل يراها سطيح أم لا . فقال : يا عقيل ناولني يدك فناوله يده فقال : يا عقيل والعالم الخفية ، والغافر الخطية ، والذمة الوفية ، والكعبة المبنية ، إنك للجائي بالهدية ، الصفيحة الهندية ، والصعدة الردينية . قالوا صدقت يا سطيح ، فقال والآتي بالفرح ، وقوس قزح ، وسائر الفرح ، واللطيم المنبطح ، والنخل والرطب والبلح ، إن الغراب حيث مرّ سنح ، فأخبر أن القوم ليسوا من جمح ، وإن نسبهم من قريش ذي البطح . قالوا صدقت يا سطيح نحن أهل البيت الحرام ، أتيناك لنزورك لما بلغنا من علمك . فأخبرنا عما يكون في زماننا هذا وما يكون بعده فلعل أن يكون عندك في ذلك علم قال : الآن صدقتم ، خذوا مني ومن إلهام الله إياي ، أنتم يا معشر العرب في زمان الهرم ، سواء بصائركم وبصائر العجم ، لا علم عندكم ولا فهم ، وينشو من عقبكم ذوو فهم ، يطلبون أنواع العلم ، فيكسرون الصنم ، ويبلغون الردم ، ويقتلون العجم ، يطلبون الغنم ، قالوا يا سطيح فمن يكون أولئك ؟ فقال لهم : والبيت ذي الأركان ، والأمن والسكان لينشؤون من عقبكم ولدان يكسرون الأوثان ، وينكرون عبادة الشيطان ، ويوحدون الرحمن ، وينشرون دين الديان ، يشرفون البنيان ، ويستفتون الفتيان ، قالوا يا سطيح من نسل من يكون أولئك ؟ قال : وأشرف الأشراف ، والمفضي للأشراف ، والمزعزع الأحقاف ، والمضعف الأضعاف ، لينشؤون الآلاف من عبد شمس وعبد مناف ، نشوءاً يكون فيه إختلاف . قالوا يا سوءاه يا سطيح مما تخبرنا من العلم بأمرهم ومن أي بلد يخرج أولئك ؟ فقال والباقي الأبد ، والبالغ الأمد ، ليخرجن من ذا البلد ، فتى يهدي إلى الرشد ، يرفض يغوث والفند ، يبرأ من عبادة الضدد ، يعبد رباً انفرد ، ثم

(١) الوضم : شرائح من جريد النخل .

يتوفاه الله محموداً ، من الأرض مفقوداً ، وفي السماء مشهوداً . ثم يلي أمره الصديق إذا قضى صدق ، في رد الحقوق لا خرق ولا نزق ثم يلي أمره الحنيف ، مجرب غطريف ، ويترك قول العنيف . قد ضاف المضيف . وأحكم التحنيف . ثم يلي أمره داعياً لأمره مجرباً ، فتجتمع له جموعاً وعصباً ، فيقتلونه نقمة عليه وغضباً ، فيؤخذ الشيخ فيذبح أرباً فيقوم به رجال خطباً . ثم يلي أمره الناصر ، يخلط الرأي برأي المناكر ، يظهر في الأرض العساكر ، ثم يلي بعده ابنه يأخذ جمعه ويقل حمده . ويأخذ المال ويأكل وحده ، ويكثر المال بعقبه من بعده ، ثم يلي من بعده عدة ملوك ، لا شك الدم فيهم مسفوك ، ثم بعدهم الصعلوك يطويهم كطي الدرنوك[١] . ثم يلي من بعده عظهور[٢] يقضي الحق ويدني مصر ، يفتتح الأرض افتتاحاً منكراً ، ثم يلي قصير القامة ، بظهره علامة يموت موتاً وسلامة . ثم يلي قليلاً باكر ، يترك الملك باثر يلي أخوه بسنته سابر[٣] ، يختص بالأموال والمنابر ثم يلي من بعده أهوج ، صاحب دنيا ونعيم مخلج ، يتشاوره معاشره وذووه ، ينهضون إليه يخلعونه بأخذ الملك ويقتلونه ، ثم يلي أمره من بعده السابع ، يترك الملك محلاً ضائع ، بنوه في ملكه كالمشوه جامع ، عند ذلك يطمع في الملك كل عريان ، ويلي أمره اللهفان . يرضى نزاراً جمع قحطان ، إذا التقيا بدمشق جمعان بين بنيان ولبنان ، يصنف اليمن يومئذٍ صنفان . صنف المشورة ، وصنف المخذول . لا ترى الأحياء محلول . وأسيراً مغلول . بين القراب والخيول . عند ذلك تخرب المنازل وتسلب الأرامل ، وتسقط الحوامل وتظهر الزلازل ، وتطلب الخلافة وائل ، فتغضب نزار فتدني العبيد والأشرار ، وتقصي الأمثال والأخيار . وتغلو الأسعار في صفر الأصفار يقتل كل حياً منه ، ثم يسيرون إلى خنادق وإنها ذات أشعار وأشجار تصد له الأنهار ويهزمهم أول النهار ، تظهر الأخيار فلا ينفعهم نوم ولا قرار . حتى يدخل مصراً من الأمصار ، فيدركه القضاء والأقدار . ثم يجيء الرماة تلف مشاة ، لقتل الكماة ، وأسر الحماة . وتهلك الغواة هنالك يدرك في أعلى المياه . ثم يبور الدين ، وتقلب الأمور ، وتكفر الزبور ، وتقطع الجسور ، فلا يفلت إلاّ من كان في جزائر البحور ، ثم تبور الحبوب ، وتظهر الأعاريب ليس فيهم معيب على أهل الفسوق والريب في زمان عصيب ، لو كان للقوم حياً ، وما تغني المنى . قالوا ثم ماذا يا سطيح ؟ قال ثم يظهر رجل من أهل اليمن كالشطن[٤] ، يذهب الله على رأسه الفتن . وهذا أثر غريب كتباه لغرابته وما تضمن من الفتن والملاحم . وقد تقدم قصة شق وسطيح مع ربيعة بن نصر ملك اليمن ، وكيف بشر بوجود رسول الله ﷺ وكذلك تقدم قصة سطيح مع ابن

---

(١) الدرنوك : نوع من البسط أو الثياب له خمل .

(٢) عظهور : في المعاجم : عظير كإردب ، وهو القوي الغليظ .

(٣) سابر : واضح .

(٤) الشطن : الحبل الطويل ، والمراد هنا : الرجل الطويل .

أخته عبد المسيح حين أرسله ملك بني ساسان ، لارتجاس الايوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان . وذلك ليلة مولد الذي نسخ بشريعته سائر الأديان .



تم الجزء الثاني من البداية والنهاية ويليه الجزء الثالث وأوله

(باب كيفية بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ)

فهرست الجزء الأول

فهرس الجزء الثاني